

مكتبة الأسرة
الأعمال الفكرية

سنة ٢٠٠٤



د. حسين مؤنس

معالم تاريخ المغرب والأندلس



معالم تاريخ المغرب والأندلس

تأليف
د. حسين مؤنس

تقديم للطبعة الجديدة

عندما كتبت هذا الكتاب كان هدفي الأساسي خدمة الطالب الجامعي العربي ، لأن تاريخ المغرب والأندلس مقرر على طلبة كليات الآداب في كل بلادنا العربية والإسلامية ، وعندما كتبته وقفت في تاريخ المغرب عند نهاية الدولة الموحدية ، ولكني كتبت تاريخ الأندلس كله موجزاً طبعاً ، وقمت بعد ذلك بكتابة تاريخ المغرب الإسلامي كاملاً كله في ثلاثة مجلدات ، نشرت في السعودية سنة ١٩٨٨ ، ولهذا لم يعد الأمر يستدعي أن أكمل تاريخ المغرب في هذه الطبعة ، لأن تاريخ المغرب الكبير يسد هذا الفراغ ، ثم إن الطالب العربي لا يحتاج في دراسته إلى أكثر مما في هذا الكتاب ، وأنا أرى أنه كتاب طيب ومفيد ، وقد أفاد الكتاب كثيراً منذ نشره ، وكان ينبغي أن أعيد طبعه من زمن طويل ، فظلت أنتظر الناشر حتى جاء الأخ الكريم عصام رشاد وتفضل بالقيام بهذه الطبعة الجديدة ، وأنا أشكره على ذلك وأرجو له التوفيق .

وسلام على القاريء وأحسن التمنيات له

د. حسين مؤنس

١٩٩٢/١١/١

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وبعد :
هذا الكتاب مقدمة في تاريخ المغرب والأندلس - والمغرب ، وهو يشمل الشمال
الإفريقي كله غربي مصر - وتدخل فيه الصحراء الإفريقية الكبرى ، والأندلس
وهو شبه جزيرة أيبيريا ، أي ما يعرف اليوم بإسبانيا والبرتغال ، وهما معاً يمثلان
ربع عالم الإسلام .

ولا زال المغرب الإسلامي قوياً مباركاً متقدماً إلى يومنا هذا ، عمره - بما في
ذلك فترة الفتح - قرابة الأربعة عشر قرناً هجرياً ، وأما الأندلس فقد بدىء في فتحه
سنة ٩٢ للهجرة / ٧١١ ميلادية ، وكان خروجه من عالم الإسلام سنة ٨٩٧
هـ / ١٤٩٢ م ، أي أنه عمّر فوق الثمانية قرون هجرية .

ومن هنا كانت صعوبة دراستهما معاً في مادة واحدة من مواد الدراسة
الجامعية لأن عدد الدروس المخصصة له على النظام العادي يبلغ ٤٤ درساً ،
وعلى نظام المقررات ٣٦ درساً ، وخلال هذه الساعات المحدودات تصعب الإحاطة
بتاريخ القطرين معاً ، خاصة وأن دراسة التاريخ اليوم تُعنى بالحضارة والتطور
الاجتماعي والفكري والاقتصادي في المكان الأول .

فمهما بذل المؤكّل بتدريس هذه المادة من جهد فما هو ببالغ شيئاً يذكر ،
وغاية ما يتمكن من إعطائه هو التعريف بالبدايات أو بتواريخ بعض الدول
والرجال .

وهذا هو الذي حدثني إلى وضع هذا الكتاب .

فلئنني رأيت أن كلا المعلم والمتعلم في حاجة إلى كتاب أساسي يكون بين يديه
مغطياً تاريخ القطرين في إجمال رشيد ، يمرر بالمعالم الرئيسية والمراحل

المقايضة ، ولا يترك شيئاً مما تهم دراسته في الناحيتين السياسية والحضارية دون دراسة متأنية .

فأما بالنسبة للأستاذ فهذا الكتاب بداية .

وأما بالنسبة للمتعلم أو القارئ العادي فهو القاية والنهاية .

ومن هنا ينطبق عليه المعنى الذي قصد إليه ابن رشد عندما سمي مختصره في الفقه المالكي « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » .

وهذه هي الفكرة وراء تسمية « كتاب الأساس » التي أطلقناها على هذا الكتاب ، وما قد يستجد بعده في مواد أخرى ، إذا قبل الناس الفكرة وشاءوا توسيع مداها .

ذلك أن الكتاب ، سواء أكان عاماً أم جامعياً أم دراسياً ، يعتبر اليوم مشكلة من مشاكل الثقافة العريضة المعاصرة ، وفيما يتصل بالكتاب العلمي أي الكتاب الذي يؤلف في مادة معينة نلاحظ اضطراباً واسع المدى فهناك كتب كثيرة جداً تخلو من المنهج والطريقة والمادة السليمة المستقصية ، وإنما هو كلام مرسل ومقسم إلى فصول متوالية ، دون تفريق بين مهم وغير مهم ، ودون عناية بذكر مراجع رجع إليها المؤلف حقاً ، وفي معظم الحالات يخلو الكتاب من كشف اعلام ونادراً ما يكون هذا الكشف دقيقاً .

وكتاب الأساس Test Book محاولة لإصلاح ذلك كله .

فهو كتاب يغطي مادته ، ويشرح فصولها شرحاً منطقياً مترابطاً معتمداً على الأصول وأوثق المراجع ، وهو يبدأ بمدخل وصفى في الأصول ، فيعرف بأهمها والرئيسي منها ، ويدل القارئ على تكوينها حتى يقنعه إلى مزاياها وعيوبها ويحسن الاستفادة منها .

ثم تلي ذلك الفصول مقدرة من ناحية الطول والمحتوى تقديراً محكماً سليماً قائماً على معرفة تامة بالمادة في مجموعها .

وإذا كان الكتاب كتاب تاريخ مثل حالتنا هذه ، كان الاتجاه الرئيسي موجهاً

إلى التعرف على مراحل التطور الحضاري ومغازي التجارب السياسية ، وكل معلومة في الكتاب مستخلصة من قراءات طويلة وصادرة عن فهم ومعاناة للعادة سنوات طوال ، ثم ينتهي الكتاب بثبت واف بالأصول والمراجع ، ثم كشف دقيق لأسماء الاعلام ومصطلحات الحضارة بالإضافة إلى فهرس مواد الكتاب .

وقد قسمنا كتابنا هذا قسمين ، جعلنا الأول منهما للمغرب ، وقد قدرنا أن نقف به عند نهاية الدولة الموحدية ، لأن ما وراء ذلك من تاريخ دول بني مرين ومن عاصرهم من الزناتيين والحفصيين ثم العصر التركي ، كل ذلك أدخل في التاريخ الحديث ، ثم إن عرضه على شرط الإيجاز الشامل لا يتيسر .

وأما الأندلس فهو تجربة تاريخية حضارية إسلامية كاملة لها بداية ونهاية ، والأندلس الإسلامي هو الوحيد من دول الإسلام الذي نملك له شهادة ميلاد وشهادة وفاة ، ولهذا فقد رأينا أن نستوفي تاريخه كله على سبيل الاختصار ، خاصة وأن القارئ العادي مشوق دائماً إلى معرفة ما جرى للأندلس وكيف ضاع ، ومن غريب المصادفات أن الأندلس أنشأ مجموعة من أجمل روائع الفن الإسلامي في فترة الضياع .

وكان الذين كتب لهم الحظ السيء أن ينتهي أمر الأندلس على أيديهم وجدوا أن خير ما يكفرون به عن أخطائهم هو هذا الأثر الجميل - الحمراء - فبنوه وتركوه كأنه إمضاء وقعه صانع ماهر في نهاية عمل فني عظيم صنفته يده .

وكما قدمنا للمغرب بمقدمة جغرافية توضع مسرح الحوادث أمام المطالع ليعرف كيف يتتبع الحوادث ، ثم مقدمة بيبولوجرافية مفصلة فكذاك فعلنا مع الأندلس ، فله مدخله الجغرافي ومقدمته البيبلوغرافية .

والمراجع العامة آخر الكتاب تشمل المغرب والأندلس جميعاً ، لأن مراجعتهما على الجملة واحدة .

وبعد ، فهذا هو كتاب الأساس في مادة المغرب والأندلس ، إنه نقطة بداية ودليل لتوجيه التدريس بالنسبة لمن يتولى مهمة التدريس ، وهو القدر المعقول

فأمامه ثبت المراجع يفتح أمامه الباب ليمضى إلى حيث يريد من العلم بالمغرب والأندلس .

وهو بالنسبة للقارئ العادى مرجع يستطيع الاعتماد على مادته إذا اجتاحته الرغبة فى الاطلاع إلى معرفة شىء عن المغرب والأندلس من مرجع يمكنه الاعتماد عليه .

والطالب الجامعى مرجو أن يقرأ هذا الكتاب كله ، فإن الإحاطة بالموضوع فى جملته تعين على إدراك تفاصيله .

ويسترشد الطالب بعد ذلك بما يوجهه إليه أستاذه من الفصول ، فهو شيخه ورائده ولا تستقيم الدراسة بغير شيخ أو أستاذ بتعبيرنا الحديث .

وقد زودت الكتاب بثلاث خرائط : واحدة للمغرب ، والثانية للأندلس ، والثالثة لصقلية .

وقبل أن أختتم هذه الكلمة أوجه الشكر الخالص إلى أخى الدكتور رؤوف سلامه موسى صاحب دار المستقبل للنشر لتبني فكرة كتاب الأساس وتفضله برعايته .

وأشكر الاخ الاستاذ مصطفى الشهايبى على تجشعه مشاق مراجعة الاصل وتصحيح تجارب الطبع وعمل كشاف الكتاب .

والله سبحانه أسأل التوفيق فى البداية والنهاية ، إنه على كل فضل مستعان .

د . حسين مؤنس

الاستاذ بكلية الآداب - جامعة القاهرة

صفر ١٤٠٠ هـ / يناير ١٩٨٠

القسم
الأول

المغرب

من قبيل الفتح الإسلامي إلى نهاية عصر الموحدين

مدخل بيبلوغرافى أهم موارد تاريخ المغرب الإسلامى

الموارد :

هى المادة التاريخية التى يعتمد عليها المؤرخ فى التعرف على تاريخ أى عصر أو إقليم أو شخص أو حادث تاريخى يريد الكتابة فيه .

وتنقسم هذه الموارد عادة إلى ثلاثة أقسام : أصول ، ومصادر ، ومراجع .

١- فأما الأصول : فهى الموارد الأولية التى يعتمد عليها أساساً فى بحثه . ويراد بها الكتابات والوثائق التى ترجع إلى عصر الموضوع أو إلى أقرب الأزمان إليه ، وهى إما مكتوبة مثل المذكرات وتراجم المعاصرين وكتابات أهل العصر ، والوثائق الرسمية والخطابات الشخصية والخرائط وصحافة العصر والنقوش على المباني ، سواء أكانت كتابات أو رسوماً أو أشكالاً ذات مغزى تاريخى ، وكذلك قطع العملة وما عليها من كتابة ، أو غير مكتوبة مثل الكهوف والآثار والمباني والمنشآت والتماثيل والقبور وما إليها سواء كانت مكتوبة أم تحمل كتابات ونقوشاً أو صامئة ، قيمتها التاريخية فى عمارتها وأشكالها وصنعتها والمادة الخام التى صنعت منها ، ويتصل بذلك الكهوف . ما يعثر عليه فيها من مخلفات وما يوجد على جدرانها من نقوش .

٢- وأما المصادر : فهى الكتابات التى اعتمدت على الأصول وكتبت فى العصور الماضية ، كالمؤلفات التاريخية القديمة وكتب الحوليات وكتب التراجم وكتب المختارات التاريخية والأدبية ، وكتب الجغرافية القديمة والحسبة والكتب المؤلفة عن العملة وأدلتها والمسكوكات ذات القيمة التاريخية التى تسمى - Me - Medals وdailles وأدلتها وأدلة المتاحف وما جرى مجرى ذلك كله .

٢- وأما المراجع : فيراد بها المؤلفات الحديثة ، أى التى ألقت فى العصر الحديث عن الأحداث الماضية من أبحاث ودراسات منشورة وغير منشورة ورسائل وكتب جامعية وتراجم ومقالات وأبحاث نشرت فى مجالات علمية ، سواء أكانت بالعربية أو بآية لغة أخرى ، وتدخل فى هذه الإحصائيات والمطبوعات الحكومية الرسمية ومنشورات الهيئات العامة والأعمال الأدبية التى تتناول العصر موضوع البحث أو تشير إليه سواء أكانت منشورة أم مخطوطة . ونقتصر فى هذه المقدمة على موارد تاريخ المغرب أى الشمال الإفريقى فيما عدا مصر ، أما موارد تاريخ الأندلس فسنخصص لها مَدْخلاً خاصاً بها .

والموارد التى بين أيدينا كثيرة عن المغرب الإسلامى ، أى بلاد برقة وطرابلس وأفريقية والمغربين الأوسط والأقصى والأندلس وصقلية والحوضين الأوسط والغربى للبحر المتوسط وما فيهما من جزر ، وكذلك أفريقية المدارية والاستوائية الإسلامية ابتداء من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، وبعضها مؤلفات متأخرة كتبت فيما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين (الثالث عشر والخامس عشر الميلاديين أو بعدهما) ، ولكنها حفظت لنا قطعاً كبيرة من مؤلفات قديمة لم نعثر عليها بعد ، وهنا تكمن أهمية تلك الكتب التى كتبت فى العصور المتأخرة ، ثم إن مؤلفيها من أمثال المقرئ وابن عذارى وابن الخطيب وابن خلدون من أهل الثقة والتحقيق والأمانة ، ومن هنا فإن تأخر زمان هذه الكتب لا يمنع من القول أن الكثير منها موضع ثقة كبيرة ، أى أننا نستطيع أن نطمئن إلى أن مؤلفيها اعتمدوا على أصول وروايات قديمة كما قلنا ، كما أنها تضم الكثير من أصول التاريخ المغربى والأندلسى التى تعتبر إلى الآن فى حكم المفقودة . ولكن أولئك الجماعين المتأخرين زمنياً احتفظوا لنا بأجزاء كبيرة منها ، بل إن بعض هذه الكتب المتأخرة احتفظت لنا بنصوص كاملة لكتب أساسية لم نعثر على أصولها ، وجدير بالذكر أن جانباً كبيراً من أصول التاريخ المغربى والأندلسى لا زال مخطوطاً ينتظر التحقيق والنشر العلميين .

الأصول :

وترجع أصول تاريخ المغرب التى بين أيدينا إلى أربع روايات :

(أ) رواية أندلسية : ترجع إلى أحمد بن محمد الرازي عميد مؤرخي الأندلس
المثون (٢٤٤ هـ / ٩٥٥ م) وأكملها من بعده ابنه عيسى بن أحمد الرازي (٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م) ، وتضم الكتب التي بين أيدينا فقرات طويلة أو قصيرة من تاريخ
الرازي الذي فقد الجانب الأكبر منه ولم نعث إلا على قطعة واحدة طويلة من هذا
التاريخ مترجمة إلى اللغة البرتغالية نشرها المعلم البرتغالي بويش بيدري شيرا
Luis Lindley Cintra ضمن تاريخ إسبانيا العام الذي كتب سنة ١٢٤٤م باللغة
البرتغالية ، وترجمها إلى الإسبانية رجل برتغالي بالاشتراك مع مترجم أندلسي
برتغالي يسمى الأستاذ أو المعلم محمد Maese Mohammed وقد نشر تلك
الترجمة الإسبانية الركيكة بسكوال دي جايانجوس Pascual de Gayangos بعد
أن بذل جهداً شاقاً في تصحيحها ، ولكنها بقيت بعد ذلك قلقة الأسلوب عسيرة على
الفهم بسبب تعذر حل رموزها ، ولكنها أصبحت اليوم مفهومة بعد أن نشر
أصلها البرتغالي نشرأ صحيحاً كما قلنا ، وقد ترجمها إلى الفرنسية من البرتغالية
ليفى بروفنسال ونشرها مع تعليقات ضافية في « مجلة الأندلس » ، وهذه القطعة
تتناول المقدمة الجغرافية التي كتبها الرازي في وصف الأندلس ، وهي مقدمة
جيدة حاكمة بالمادة العلمية ، وهي بالإضافة إلى ما تضمنه من معلومات عن
الأندلس تعطينا فكرة واضحة عن التقسيم الإداري الأندلسي .

ونجد قطعاً من تاريخ الرازي في كتاب « المقتبس في تاريخ الأندلس
لابي مروان حيان بن خلف أعظم مؤرخي الأندلس بعد الرازي وابن ، وقد توفي
سنة (٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م) ونجد قطعاً أخرى فيما رواه النويري في الجزء لثاني
والعشرين من مخطوطة كتاب « نهاية الأرب » المحفوظة في دار الكتب المصرية
وابن الأثير في كتابيه « الكامل في التاريخ » و « أسد الغابة » وذلك فيما رواه من
أخبار فتح المغرب والأندلس ورجال ذلك الفتح من الصحابة ، ونجد بعض
تفاصيل الرواية الأندلسية كذلك فيما رواه أبو عمرو يوسف بن عبد البر النمري في
ترجمة عمرو بن العاص وعقبه بن شافع في كتاب « الاستيعاب في معرفة
الأصحاب » ونجد كذلك قطعاً كبيرة من تاريخ أحمد بن محمد الرازي وابن
عيسى بن أحمد في كتاب « نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب » لأبي العباس

أحمد المقرئ وهو مؤلف مغربي أصله من تلمسان ثم هاجر إلى الشرق ، وهناك أخذ يتحدث ويؤلف عن الأندلس ، وهو مؤلف جمع صنف كتابه هذا على أساس الجمع والاقتباس من المؤلفات السابقة ، ومن فضائله أنه ينسب مروياته إلى أصحابها في معظم الأحيان مما يدعو إلى الثقة فيما يورد ، ثم ألف بعد ذلك كتاباً شبيهاً بفتح الطيب هو كتاب « أزهار الريحان في أخبار عياض » على نفس الطريقة والأسلوب ، والكتابان يضمنان كثيراً من المادة القيمة في تاريخ المغرب .

(ب) رواية مغربية : ترجع إلى محمد بن يوسف الوراق ، وهو قيرواني النشأة هاجر إلى قرطبة واستقر فيها وخدم الخليفة الحكم المستنصر وألف به كتاباً في تاريخ الأندلس وتوفي سنة (٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م) ، ولم نعثر بعد على هذا الكتاب ، ولكننا نجد قطعاً منه عند أبي عبد الذكرى فيما كتب في جغرافية إفريقية والأندلس ، وعند ابن عذاري المراكشي صاحب كتاب « البيان المغرب » وعند ابن الخطيب في كتابه « أعلام الأعلام » وعند ابن خلدون في تاريخه ، وفي بعض المراجع الأخرى . وترجع هذه الرواية المغربية كذلك إلى إبراهيم الرقيق المتوفى بعد سنة (٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م) وهو أديب وشاعر قيرواني ظهر في أيام الفاضلين وبنى زيري بن مناد الصنهاجيين الذين خلفوهم ، وكان إلى جانب شاعريته ومعرفته الواسعة بالأدب مؤرخاً صدوقاً يوفق فيما يكتب . وقد عثرنا على قطعة من تاريخه تتناول جزءاً من تاريخ فتح المغرب والأندلس وتعود إلى أوائل العصر الأغلبى قام بتحقيقها الأستاذ المنجي الكعبي ونشرها في تونس سنة ١٩٦٨ م . ويشك الدكتور محمد الطالبي الأستاذ بكلية الآداب بجامعة تونس في أصالة هذه النقطه ، ولكننا رغم ذلك نستطيع الاستفادة من مادتها الأصلية .

ونجد قطعاً من تاريخ الرقيق القيرواني عند ابن عذاري وابن الأثير والنويري وابن خلدون .

وهناك رواية مغربية ثانية سنتحدث عنها في كلامنا على كتاب « البيان المغرب » لابن عذاري المراكشي .

(جـ) رواية مصرية : أثبتتها عبد الرحمن بن عبد الحكم المتوفى سنة (٢٥٧ هـ / ٨٧٠ - ٨٧١ م) في كتابه المسمى « فتوح مصر والمغرب والأندلس » الذي

يعتبر من أوثق ما لدينا من الأصول عن تاريخ المغرب والأندلس من الفتح إلى نهاية عصر الولاة. وكانت مصر هي المركز الذي صدر منه الفاتحون إلى المغرب والأندلس، وإليها عاد من عدد منهم ليحدثوا بأخبار ما رأوه، فأصبحت مصر لهذا مصدراً رئيسياً لأخبار الجناح الغربي لمملكة الإسلام، وكان ابن عبد الحكم محدثاً فقيهاً وعاد لما واسع الاطلاع صدوقاً فيما يقول. وقد عني بتدوين ما اتصل به من أخبار فتح مصر والمغرب والأندلس وتاريخها إلى نهاية عصر الولاة، وقد اعتمد ابن عبد الحكم على رواية موثوقة فيهم، واجتهد في تحقيق ما وصل إليه من الأخبار على طريقة أهل الحديث. ولا غرابة في ذلك فقد كان هو محدثاً كبيراً وإني حين قريب كانت روايته هي الرواية الوحيدة الكاملة لأخبار فتوح مصر وأفريقية والمغرب والأندلس.

(٥) **الرواية الرابعة :** وتسمى بالرواية المشرقية وإن كانت في أصلها مصرية مغربية، وقد وجدناها في قسم من كتاب « الإمامة والسياسة » المنسوب إلى ابن قتيبة الدينوري، وقد اجتمع رأي نقاد التاريخ من زمن طويل على أنها ليست جزءاً من صلب الكتاب وإنما هي تفصيل عن فتح المغرب والأندلس وأعمال موسى بن نصير خاصة، بعضها أسطوري الطابع أضيفت إلى الكتاب وقد أثبت راينهاردت دورزي Reinhardt Peter-Ann Dozy ويسكول دي جايانجوس Pascual De Gayangos ولافرنتي الكانتارا Lafunte Alcantara أنها قصص شعبية أدرجها بعض المدونين في كتاباتهم على أنها تاريخ، ثم جاء د. محمود علي مكى فأثبت أن هذا التدوين يرجع إلى رجل من أحفاد موسى بن نصير يسمى معاركاً النصيري، استقر في مصر، واندرج في زمرة أهل العلم فيها، وقال إنه يغلب أن معاركاً كتب كتاباً من جده وأعماله في أفريقية، ثم أضيفت فصول من هذا الكتاب إلى « كتاب الإمامة والسياسة » فحسبت قطعة منه.

ويدخل في جملة ما نسميه الرواية المشرقية نص أورده محمد بن عبد الوهاب الغسني، الذي أرسله سلطان المغرب إلى ملك إسبانيا سنة ١٥٢٦ م ليفتدي أسرى المغرب في إسبانيا في وصف رحلته المسماة « رحلة الوزير في افتكاف الأسير » وقد جرى هذا السفر في وصف رحلته على طريقة لجأ إليها الكثيرون من

الرحالة ، وهي تضمين الوصف لمحات من التاريخ تناسب اسياق ، فأورد نصاً كاملاً عن افتتاح الأندلس اقتبس عن مؤلف لم يذكر اسمه ، ولكن أسلوبه قريب الشبه من أسلوب القطعة الواردة في كتاب «الإمامة والسياسة» وقد نشرها جيانجوس مترجمة إلى الإنجليزية في كتابه المسمى History of the Mohammedan Dynasties in Spain

وهذا الكتاب ترجمة إنجليزية للجزء من الأولين من كتاب «نفع الطيب» لأبي العباس أحمد المقرئ . وقد أضاف جيانجوس إلى الترجمة تعليقات إضافية ذات قيمة علمية ، ومنها ترجمة للرواية التي أوردها محمد بن عبد الوهاب الغساني في كتابه ثم عني بها خوليان ريبيرا Julian Ribera وترجمها إلى الإسبانية وجعل الأصل والترجمة ذيلاً على كتاب «افتتاح الأندلس» لأبي بكر محمد بن عمر بن القوطية الذي سنتحدث عنه عند كلامنا عن بيلوغرافية الأندلس . وفي سنة ١٩٤٠ م نشر ألفريد البستاني في مدينة العرايش في المغرب النص الكامل «لرحلة الوزير لافتكاك الأسير» لمحمد بن عبد الوهاب الغساني ، وفيه ترد القطعة التي نحن بصددتها الآن .

وبدخل ضمن هذه الرواية الرابعة ما كتبه عبد الملك بن حبيب السلمي المتوفى سنة (٢٦٨ هـ / ٨٥٢ م) في كتاب له مشهور عن تاريخ الأندلس . وعبد الملك بن حبيب كان عالماً من أعظم ما أنجبت الأندلس من شيوخ الفقه المالكي . وكان له إلى جانب ذلك ميل إلى التاريخ فاحتقب إنشاء دراسته في مصر أخباراً كثيرة قصصية الطابع دونها فيما بعد وتداولها الناس على أنها كتاب في أخبار الأندلس ، وقد عثرنا على قطع من هذا الكتاب أوردها أبو العباس أحمد المقرئ في كتاب «نفع الطيب» ، ووردت أطراف أخرى منه في مصادر كثيرة ، وقد بقيت لنا من هذا التاريخ قطعة نشرها الدكتور محمود علي مكى في مقاله «الآنف الذكر عن مصر وتاريخ التاريخ في المغرب والأندلس» الذي نشره في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد الخامس سنة ١٩٥٧ م .

كتاب «البيان المغرب في تاريخ ملوك إفريقية والمغرب» وأصوله :
قبل الحرب العالمية الأولى ظهر مخطوط جديد لكتاب «البيان المغرب» ، لأن

عذارى المراكشي ، وهذا المؤرخ لا زال مجهولاً لنا رغم عظيم ديننا له واشتهار كتابه هذا وقيمته العظيمة ، فكل ما نعرفه عنه هو اسمه على هذه الصورة المنقوصة : ابن عذارى المراكشي ولا صحة لما يذكره البعض من أن اسمه أبو العباس أحمد ، فإننا لم نجد إلى الآن ما يؤكد ذلك . وقد عاش في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي .

وقد ألف هذا الرجل تاريخاً عاماً للمغرب والأندلس منذ الفتح إلى آخر أيام الموحدين ، عثرنا على نصه كله تقريباً ، ونشر الكتاب بتحقيق عدد من جلة العلماء هم : رايتهارت دوزي ، جورج كولان ، امبروزيو أويتى ومحمد بن تاويت التطواني ، وكان أول من نبه على أهمية كتاب ابن عذري هو المستشرق الهولندي رايتهارت بيتر آن دوزي ، فنشر في منتصف القرن الماضي الجزء الأول ويتناول تاريخ المغرب إلى نهاية القاطميين في المغرب ، والجزء الثاني ويتناول تاريخ الأندلس إلى نهاية أيام المنصور محمد بن أبي عامر .

وقد وضع دوزي بهذا العمل أساساً مكيناً لتاريخ المغرب الإسلامي ، ومن ذلك الحين أصبح من أهم ما نعتمد عليه في التاريخ للمغرب والأندلس ، وقد كان أهم ما اعتمد عليه دوزي في كتاب « تاريخ مسلمي إسبانيا » الذي سنذكره فيما بعد ، وكتاب دوزي هو أول تاريخ علمي يكتب للأندلس في العصور الحديثة .

والخيزة الرئيسية لـ « البيان المغرب » أن صاحبه ألفه من قطع جمعها من الأصول التي ذكرناها ، وربط بينها ربطاً زمنياً وأوردها كما هي دون تعليق كثير ، ولكنه قام بعمله في صدق وأمانة ولهذا فنحن ندرج كتابه بين الأصول .

وقد أعاد نشر أربعة أجزاء من تاريخ ابن عذارى الدكتور إحسان عباس في بيروت ، وهذه الأجزاء هي الأول والثاني والثالث وقطعة عن تاريخ المرابطين سماها بالجزء الرابع ، ولكنه لم يعد لجمع الجزء الكبير الخاص بتاريخ الموحدين ، ولا زلنا نعتمد في ذلك على تحقيق امبروزيو أويتى ومحمد بن تاويت التطواني .

وعندما ظهر هذان الجزآن في تلك الصورة الكاملة تبين أن ابن عذارى اعتمد على رواية مغربية أصيلة أخرى تختلف عن الرواية الأولى التي سبق أن ذكرناها ،

وتنسب هذه الرواية إلى رجل من معاصري ابن عذارى أي من أهل القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي يذكره ابن عذارى باسم الشيخ الصالح ، ثم نشر ليفي بروفنسال سنة ١٩٥٢ ، نصاً عظيم القيمة عن فتح العرب لأفريقية وجده ضمن الأوراق التي تؤلف مجموعاً من نصوص شتى متعلقة بتاريخ المغرب كان يملكها هذا المستشرق . ومن تلك النصوص الصفحات العظيمة القيمة التي نشرها نفس المستشرق باسم « مفاخر البربر » في الرباط سنة ١٩٣٤ وهي قطعة حافلة بالفرائد عن تاريخ البربر المستعربة من أهل المغرب وما لهم من أمجاد ومفاخر ، ومن ظهر منهم من عظماء رجال أمة العروبة والإسلام .

وقد كشفت لنا هذه الرواية الجديدة عن فتح لعرب للمغرب عن حقيقة الشيخ الصالح الذي ذكرته رواية ابن عذارى الذي ذكرناه ، فاسمه الكامل أبو علي صالح بن أبي صالح بن عبد الحليم نزيل نفيس من قبيلة إيلانة أو هيلانة ، من أعظم قبائل المصامدة الذين أقاموا دولة الموحدين .

وقد تبين من دراسة ذلك النص الخاص بفتح العرب للمغرب أن مؤلفه أبا علي صالح بن أبي صالح بن عبد الحليم يورد رواية مغربية أصيلة مأخوذة عن ماثورات شعبية كان أهل جبال الأطلس يتداولونها من قديم الزمان عن فتح العربي ورجاله وخاصة عقبة بن نافع ، وهو أبعد الفاتحين العرب صيتاً وأعمقهم أثراً في نفوس جماهير أهل المغرب . وقد درسنا هذه الرواية دراسة شاملة فتبيننا أنها من أكمل وأصح ما لدينا عن فتح المغرب ، وأنها تقدم لنا معلومات في غاية الدقة والأصالة والأهمية ، ولا تستطرد مع الأساطير وأحاديث الخرافة . كما نجد في رواية عبد الملك بن حبيب مثلاً ، وهي تقدم لنا قصة الفتح منذ البداية إلى نهاية ولاية موسى بن نصير .

وقد حفرتنا هذا على أن نعيد قراءة نص ابن عذارى ، وخاصة ما رواه عن الشيخ الصالح أبي علي صالح بن أبي صالح بن عبد الحليم بعناية أكثر ، فتبيننا بالفعل أننا أمام رواية مغربية أصيلة تمتاز بالبساطة والصدق والأصالة والنشمول ، فهي تقص قصة الفتح الكاملة وترويها بروح إسلامي خالص وبالإضافة إلى ذلك فهي واقعية متوازنة وهي تربط الحوادث بعضها ببعض رصداً

معقولاً متسلسلاً وتجتهد بين الحين والحين في ربط حوادث المغرب بما كان يجري في مركز الدولة في دمشق ، أي أن صاحبها كان عالماً مطلعاً عرف كيف يضع القصة الشعبية في إطار علمي سليم دون أن يفقدنا قيمتها . وقد تأكدت لنا أصالة هذه القطعة عندما وجدنا أنها أخذت عن الأصل الذي اعتمده أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري فيما كتبه عن عقبة بن نافع في كتابه « الاستيعاب في معرفة الأصحاب » .

ولا يعيب هذه القطعة إلا أنها تقف عند نهاية الفتح ، ولكن ربما كانت بقيتها قد اندرجت في نص كتاب « روض القرطاس في تاريخ المغرب وملوك قساس » المنسوب إلى ابن أبي زرع ، الذي يقال أيضاً إن مؤلفه يسمى ابن عبد الحليم وهذا يسمح لنا بالقول بأن كتاب « روض القرطاس » هو اختصار لتاريخ طويل للمغرب كتبه الشيخ الصالح أبو علي صالح بن أبي صالح بن عبد الحليم تزيل نفيس الذي ذكرناه .

هذا عن أصول تاريخ المغرب أي الروايات الأولى التي اعتمد عليها أولئك الذين كتبوا في تاريخ المغرب من القدماء مؤلفات نعتبرها مصادر جديرة بالثقة في ذلك التاريخ .

أما المراجع ما بين عربية وغير عربية فقد أوردنا ثباتاً بأهمها في نهاية هذا الكتاب ، لأن موارد تاريخ المغرب والأندلس واحدة تقريباً .

الغرب الإسلامي والمغرب الإسلامي

يشتمل لغرب الإسلامي عن البلاد التي دخلها الإسلام وبقي فيها أولم يبق في الجناح الغربي لعالم الإسلام ، وهذه البلاد تنقسم إلى خمس مناطق رئيسية :

١ - المغرب : ويشتمل على بلاد الشمال الأفريقي المختلفة الممتدة من حدود مصر الغربية إلى المحيط الأطلسي .

٢ - الحوضان الأوسط والغربي لبحر المتوسط : ويدخل في ذلك مثل جزائر البحر المتوسط الواقعة في هذين الحوضين مثل . صقلية وقوصرة وقرسقة والأراضي الأوروبية القربية منها مثل : جنوب إيطاليا وما قرب منها من الجرائر مثل : مالطة وسردينيا .

٣ - الأندلس : ويراد به الأراضي التي سيطر عليها المسلمون من شبه الجزيرة الأيبيرية وتبعها الجزائر الشرقية المعروفة بالإليار

٤ - الصحراء الأفريقية : التي تقع جنوبي المغرب والتي تعد أحياناً جزءاً من المغرب ولكنها في الحقبة الأخيرة قسمت سياسياً إلى جمهوريات مختلفة وظهرت بها بلاد إسلامية لها شأنها مثل تشاد والنيجر وفولتا وما إليها وكلها تدخل ضمن ما تسميه بالغرب الإسلامي

٥ - غرب أفريقية الإسلامي : ويدخل في نطاق الغرب الإسلامي البلاد الإسلامية في أفريقية الغربية المدارية والاستوائية ، وتسمى أيضاً بلاد السودان الغربي وهي بلاد لها تاريخ سياسي وحضاري طويل في ظلال الإسلام .

كل هذه النواحي كان ينبغي أن تدرس إذا أردنا أن نتعرف على تاريخ الجناح الغربي للعالم الإسلامي ، وبكثنا نقصر في حدود ما يسمح به حيز هذا الكتاب على المغرب والأندلس وجزيرة صقلية مع إشارات يسيرة بين الحين والحين إلى تاريخ المسلمين في البحر المتوسط .

ولا بد على هذا من التفريق بين مصطلحي الغرب الإسلامي والمغرب الإسلامي وقد كان القدماء يطلقون لفظ المغرب على ذلك كله ، ولكننا الآن نقصر اسم المغرب على بلاد المغرب المعروفة ، ونطلق اسم الغرب الإسلامي على ما ذكرنا ، وهو مصطلح جديد ابتكره أهل الغرب من الفرنسيين خاصة فقالوا :
L'Occident Musulman .

بلاد المغرب

يطبق مصطلح المغرب كما قلنا على كل البلاد الإسلامية الممتدة من حدود مصر الغربية حتى ساجل المحيط الأطلسي . ويختلف المؤرخون العرب في وضع مصر بين شرق العالم الإسلامي وغربه ، فبعضهم يصعها في بلاد الشرق ، وهناك عدد قليل منهم يعتبر مصر من بلاد المغرب . وهناك خلاف حول حدود مصر الغربية ففي عصور التاريخ الإسلامي خلال العصور الوسطى كان إقليم برقة ، وهو المعروف اليوم باسم بنغازي داخلاً في حدود مصر . وكذلك كان الحال في العصور القديمة وخاصة في العصر البيزنطي الذي سبق العصر الإسلامي . وفي أحيان كثيرة نجد أن إقليم برقة يختفى ذكره أحقاباً متطاولة بعد الفتح الإسلامي لأن أحداً لم يؤرخ له في حين أن تاريخ إقليم طرابلس معروف في جملته لأنه دخل ضمن إقليم أفريقية الذي سنتحدث عنه .

ولكن بلاد المغرب كلها تعتبر من ناحية الطبيعة الجغرافية والمناخ إقليماً واحداً له خصائص ومميزات واحدة تجعل من العسير تقسيمه إلى وحدات سياسية متميزة بعضها عن بعض ، وقبل الفتح الإسلامي أي في عصور الإغريق والرومان والبيزنطيين كان المغرب بالمفهوم الذي ذكرناه يعتبر وحدة سياسية واحدة ، وينقسم إلى ولايات . وقبل الفتح الإسلامي بقليل ، أي في أواخر العصر البيزنطي . كان المغرب مقتصرأ في الواقع على ما يعرف اليوم بتونس . وكان يسمى في التقسيم الإداري للدولة البيزنطية باسم ولاية أفريقية Provincia Africa أما ما نرى تونس غرباً فلم يكن فيه أثر واضح للسلطة السياسية البيزنطية ، وإن كان

بعض المؤرخين الغربيين يحاولون أن يثبتوا أن الشريط الساحلي على الأقل من بلاد المغرب كان تابعاً ولو بالاسم للدولة البيزنطية . وهذا الشريط الساحلي يمتد من الحدود الغربية لإقليم تونس الحالي إلى المحيط الأطلسي ، وهو يتسع أحياناً ويضيق أحياناً أخرى ، ولكنه في كل حالة ينحصر بين البحر المتوسط والصحراء الأفريقية الكبرى أو بحر الرمال الأعظم كما يسمى أحياناً . وهو الذي يفصل بين بلاد المغرب والبلاد الأفريقية المدارية .

وببلاد المغرب إقليم مستعرض يسير من الشرق إلى الغرب دون أن يكون له عمق عمرانى كبير ، وهي تتميز بظاهرة جغرافية واضحة جداً ، هي جبال الأطلس ، وهي سلسلة جبال تمتد من جنوبي لمملكة المغربية الحالية وتسير بمحاذاة الساحل (ساحل الأطلسي) شمالاً يشرق ، وإن كانت بعيدة عنه حتى قرب ساحل البحر المتوسط جنوبي منطقة الريف ثم تتجه شرقاً لتتلاشى غرب تونس . هذه الجبال تنقسم المغرب إلى منطقتين مستعرضتين واضحتين . تختلف كل منهما عن الأخرى كل الاختلاف . وهذه الجبال تتسع في المغرب الأقصى ويزيد عرضها في جنوبيه وتنقسم إلى سلسلتين من جبال الأطلس ، الأولى غربية وتسمى الأطلس العليا والأخرى شرقية وتسمى أطلس الصحراء ، وتحصران بينهما سهل السوس الخصيب كما قلنا . وهذه الجبال تضم هضاباً عالية ، وهي كلها جبال وهضاب واقرة المياه ولهذا فهي خضراء ومسكونة ، ويسمى ابن خلدون جبال درن وهي تعتبر مركز الحياة ومصدر العنصر البشري القوي الذي كان طور العصور الوسطى مورد القوة البشرية الحقيقية في تاريخ المغرب الأقصى .

أما في الشمال فإن جبال الأطلس تسير محاذية لساحل البحر المتوسط وبينها وبين الشاطئ شريط ساحلي سهل يضيق أحياناً ويتسع أحياناً أخرى وتتبعه السفوح الشمالية لجبال الأطلس ، ويعتبران معاً منطقة واحدة .

ومناخ هذه المنطقة الشمالية مناخ البحر المتوسط ، وهي تسمى بشرطيتها السهل الساحلي والسفوح الشمالية لجبال الأطلس - بمنطقة التلول ، ويسمى ابن خلدون مناخها بمزاج التلول ، أي مناخ البحر المتوسط ، أما المنطقة الثانية

الجنوبية التي تضم السفوح الجنوبية لجبال الأطلس ويطاق الجريد ثم نطاق العروق ، أي الزمال السائلة فيسميها ابن خلدون ببلاد الصحراء ويسمى مناخها بمزاج الصحراء ، وهي منطقة أقل ثروة وسكاناً من المنطقة الشمالية .

وببلاد المغرب في مجموعها بلاد غنية إلى حد ما ، فيها موارد وافرة للثروة والحياة ، ولكنها تحتاج إلى أمن واستقرار طويلين لتؤتي ثمارها ، لأن أهل المغرب أنفسهم أهل عمل وذاب وذكاء ، ولهذا فمن الممكن استغلالها استغلالاً جيداً ، ومواردها تمكن من قيام دول كبرى وحضارات زاهرة فيها ، وسنلاحظ أنه في العصور التي هدأت فيها الأحوال قدمت في المغرب دول عظيمة وقوية لها تاريخ مجيد ودور كبير في تاريخ العالم الإسلامي حملة .

وفي العصور الإسلامية تعود المؤرخون أن يقسموا المغرب إلى الأقاليم التالية التي سنذكرها من الشرق إلى الغرب .

إقليم برقة ثم إقليم طرابلس ومن هذين الإقليمين مضافاً إليهما إقليم فزان ، تتكون الجمهورية الليبية حالياً .

وقد كان هذان الإقليمان متفصل أحدهما عن الآخر سياسياً خلال العصور الإسلامية ، فكانت برقة إما تابعة لمصر أو غير واضحة التبعية السياسية . أما طرابلس فكانت تدخل في نطاق ما كان يعرف باسم بلاد أفريقية ، وليس في ذلك ما يمس وحدة القطر الليبي وأصالته التاريخية ، فإن الكثير من أوطان العرب الراهنة تتألف من أجزاء كان لكل منها تاريخ أو اتجاه مستقل في الماضي ، أي قبل تحقيق وحدة ذلك الوطن في العصر الحديث .

وتلى ذلك غرباً بلاد أفريقية ، وكانت في العصور الوسطى تشمل إقليم طرابلس من تاورغا قرب صرت على ساحل البحر المتوسط إلى صبرة ثم إقليم أفريقية وهو يقابل تونس الحالية ثم تمتد أفريقية فتشمل الجزء الشرقي من الجمهورية الجزائرية حالياً حتى نهر صفير يسمى شلف وهو يجري هناك من الجنوب إلى الشمال حتى جنوبى مدينة الجزائر ، ثم يسير غرباً بحذاء الساحل ويصب في البحر المتوسط قرب وهران ، وهذا الجزء الشرقي من بلاد الجزائر الحالية كان يسمى إقليم الزاب وكان يعتبر جزءاً من ولاية أفريقية .

بعد ذلك هناك المغرب الأوسط ويعتد من مجرى نهر شلف حتى مجرى نهر مجرى حالياً في شرق المملكة المغربية من الجنوب لغربي إلى الشمال الشرقي ، يسمى نهر مولوية . والمغرب الأوسط يشمل اليوم معظم الجمهورية الجزائرية وهو إقليم هضاب وجبال وسهول ساحلية والأراضي الزراعية فيه كثيرة لأن الكثير من جباله وهضابه خضراء أو منقوشة كما يقول العرب ثم إنه قطر معتدل المناخ لارتفاعه ، كثير الغابات والمراعي ، وإلى هذا يرجع ما يتصف به أهله من صحة وعافية واحتمال للمصاعب وحب للحرية .

وينقسم هذا المغرب الأوسط تاريخياً إلى قسمين : شرقي ويسمى إقليم تاهرت ويتميز بالجبال والغابات ، وغربي يسمى إقليم تلمسان ويتميز بالمراعي والسهول . ويشتهر المغرب الأوسط بمناطقه العمرانية ذات الشخصية التاريخية المتميزة مثل إقليم القبائل شرقي مدينة الجزائر الحالية وسهل المتيجة جنوبي مدينة الجزائر وإقليم لسبق السهول الساحلي جنوبي وهران وإقليم البابور والبيبان والجرجرة والونشريس وكلها أقاليم جبلية وعرة ، وإقليم الحضنة وهو إقليم جريد أي غابات نخيل يتوسطه شط الجريد وإقليم الهقار أو الهجار في الجنوب وهو إقليم صحراوي .

أما إقليم تلمسان فيتميز بجباله وسهوله ومراعيه الواسعة ، وقد كانت تلمسان دائماً مركزاً حضارياً وقاعدة علمية ، وقد قامت تلمسان العربية على أصل حصن روماني قديم يسمى بوماريا .

ويلى ذلك غرباً المغرب الأقصى الذي يعرف اليوم بالمملكة المغربية ، ويشمل جبال الأطلس المتهيلة التي تحدثنا عنها ، ويضم كذلك سلسلة من السهول الساحلية بين الجبيل وساحل المحيط الأطلسي ، وقد ذكرناها وتشق هذه السهول أنهار أو وديان تنحدر من جبال الأطلس غرباً إلى المحيط وهي من الشمال إلى الجنوب وادي لوكس ويصب عند مدينة العرائش ووادي سبو بقروعه الكثيرة وقواعده الشهيرة مثل فاس ومكناس ثم وادي أبي الرقراق أو بورجرج وهو نهر مزدوج يصب في البحر بمصب واحد ، وعلى ضفته الشرقية عند المصب مدينة سلا وعلى ضفته الغربية مدينة رباط الفتح ، وهما مدينتان ثوام ، ثم وادي

أم الربيع ، وقرب مصبيه تقع مدينة أزموور ثم وادي تانسيفت وتقع على أحد قروعه مدينة مراكش ، ثم وادي السوس الذي يجري في إقليم السوس الفنى ، وهو إقليم ذو هيئة مثلثة ينحصر بين فرعى جبال الأطلس والمحيط الأطلسي ، ومن أهم مدنه تارودانت وأغادير ثم وادي درعه في أقصى الجنوب . وما وراء ذلك تمتد صحارى المغرب .

وبلاد المغرب في مجموعها بلاد مشرفة زاهرة ذات جمال فريد يتجلى في أجمل صورة في مناطق الجبال التى تغطي بالثلوج في الشتاء ، ومن هنا فقد قيل إن بلاد المغرب هى سويسرا العرب .

سكان المغرب :

سكان المغرب يعرفون من أقدم العصور بالبربر ، ولفظ بربر لا علاقة له هنا بلون البشرة ، وإنما هو لفظ إغريقى كان اليونان يطلقونه على كل من لا يتكلم الإغريقية ، فقد كانوا يسمونهم بأرباروى . أما العرب فعل عدتهم يحاولون أن يجدوا أصلاً عربياً لكل لفظ أو علم جغرافى ، فيقولون إن البربر من أولاد مهاجر عربى من حمير يسمى بر بن قيس ، ويقال إن هذا الرجل عندما هاجر إلى المغرب لم يفهم لهجة هؤلاء الناس فسمّاها بريرة وسمى الناس الذين يتكلمون بها بالبربر ، أما الحقيقة فهى أن البربر شعب أفريقى سكن هذه البلاد من أقدم العصور . واليونان هم الذين سموه بالبربر ، وعندهم أخذ اللاتين ثم العرب هذه التسمية ، أما البربر أنفسهم فلا يطلقون على أنفسهم هذه التسمية ، بل يعرفون أنفسهم باسماء شعوبهم وقبائلهم .

ويتقسم البربر إلى قسمين كبيرين بحسب أسلوب الحياة والطابع الحضارى .

١ - البربر البدو ، ويسمون بالبر .

٢ - والبربر الحضري ويسمون بالبرانس .

فأما البربر الحضري أى البرانس فأصلهم من سكان البحر المتوسط وهم يسكنون بصفة عامة الشريط الساحلى والسفوح الشمالية لجبال الأطلس وهم

يشبهون في ملامحهم سكان الأندلس وسكان جزائر البحر المتوسط وتنتشر
بينهم شجرة السعور وبياض النور وورقة العيور وخاصة بين قبائل جبال

هذا الفرع الكبير من البربر هو أصل البربر وهم الاقوام الذين سكنوا هذه
البلاد منذ أقدم العصور ، أما فريق البربر الآخر ، وهم البربر فهم جدد نسبياً
أقبلوا من الجنوب وفي الغالب من الجنوب الغربي من قلب القارة الأفريقية عن
طريق وادي النيل وقد نزحوا أولاً إقليم برقة ثم انتشروا غرباً وهم جنس أفريقي
أسمر البشرة اختلط بالسكان الأصليين ، ومن اختلاطهما نشأ الجنس البربري
الذي استعرب بعد أن اختلط بالعرب وأصبح من أمم العروبة ، وهو يجمع في
تكوينه خصائص الأصول الثلاثة التي تكون منها

عاش البربر في بلادهم هذه قروناً متطاولة قبل الفتح الإسلامي ولهم تاريخ
وحروب مع الإغريق والرومان خاصة ، ودارت حروب طويلة بين بعض
جماعاتهم والرومان ، وظهر من بينهم أبطال قوميون مثل جوياء ومسستس
الذي يسميه العرب ماكسن ، ولكن كل علاقة الرومان وبعدهم الروم
أو البيزنطيون كانت مع بربر الساحل والسفوح الشمالية للأطلس ، ونادراً ما
توعد الرومان إلى دواخل البلاد ، فيما عدا إقليم تارنت (نونس) وهو سهل
فسيح كما نعلم ، يرويه نهر كبير نسبياً هو نهر مجردة فهنا (وغل الرومان ثم
الروم في الداخل كما سنذكر ،

وأول من دخل في بلاد المغرب وَجَرُوا على اقتحام جبال الأطلس وما عليها
حجواهم العرب ، ولذلك كنوا أول من عرف البربر معرفة صحيحة ، وعندما
دخل العرب وجدوا البربر من الناحية الاجتماعية يعيشون قبائل قريبة الشبه من
قبائلهم العربية في تنظيمها وأحوالها الاجتماعية القائمة على التقسيم القبلي ، وأن
كانت تختلف عنها في المستوى الحضاري ، كان البربر عندما لقيهم العرب
يعيشون قبائل بدوية على الفطرة وإن كانت متماسكة ولها نظام اجتماعي قويم ،
وهذه القبائل البربرية كما قلنا تنقسم إلى قبائل بحرية بدوية أو نصف بدوية
وقبائل برتسية حضرية أو نصف حضرية ، وأكبر قبائل البدو وأشهرها زناتة ،

ولهذا غلب عليها هذا الاسم العام رغم تفرعها إلى أجناس وبطون كثيرة ، أما
البرانس فلا تغلب عليهم تسمية واحدة لأنهم شعوب ضخمة لكل منها مواطنه
وبطونته وتاريخه ، وأشهر جماعاتهم كتامة في شمال شرقي المغرب الأوسط ،
وعلى أكتافهم ستقوم الدولة الفاطمية ، ثم صنهاجة المغرب الأوسط الذين
سيشاركون في إقامة الدولة الفاطمية ، وسيقيمون أولى الدول المغربية الإسلامية
المستعربة وهما دولتا بنى زيري بن مناد ، ثم صنهاجة الصحراء الذين
سيقيمون دولة المرابطين ، ثم مضمورة أهل المغرب الأقصى وهم شعب مغربي
جليل أقام دولة الموحدين ودولاً أخرى عظيمة الشأن ولهم فروع كبيرة أخرى
سنحدث عنها في مواضعها في هذا التاريخ .

وقد تعلم نسبة الجير من العرب هم النسب ونظموا قبائلهم في شجرات
أنساب شبيهة بشجرات الأنساب العربية ، ونحن لا نثق كثيراً في شجرات
الأنساب هذه كما هو موقفنا من شجرات الأنساب العربية ، ولكننا ندرسها ونفيد
منها في فهم تاريخ المغرب وتصاريق أحواله .



المغرب قبيل الفتح الإسلامي

معلوماتنا عن المغرب قبيل الفتح الإسلامي تقتصر على أقاليم برقة وطرابلس وأفريقية التي تقابل ما يعرف اليوم بتونس ، وشيء قليل عن بقية سواحل المغرب إلى المحيط الأطلسي .

فيما يتصل ببرقة نجد أنها كانت قبيل الفتح الإسلامي داخلية في زمام مصر بناء على آخر تقسيم للدولة البيزنطية ، وهو الذي قام به الإمبراطور مورسيوس (موريق) ، وقد ضمت فيه برقة إلى مصر . وكان اسم برقة قبل الفتح الإسلامي سربسايك نسبة إلى مدنته يونانية أنشأها ابن وبان تسمى سربسا ويكتبها العرب قيرين وأحياناً قوريناء ، وهي بلدة قريبة من مدينة برقة الحالية .

ويسمى إقليم برقة أحياناً أنطابلس وهو تحريف لفظ يوناني هو بنتابوليس Penta-pois أى المداين الخمس ، وهي مدن صغيرة أنشأها الإغريق في هذا الإقليم ومنها قيرين التي ذكرناها .

ولكن الصلة الحقيقية بين مصر وهذا الإقليم المبهيد عنها إلى الغرب لم تكن واضحة في ذلك العصر ، وهو النصف الأول من القرن الميلادي السابع ، فلا ندري إن كان بها عامل للروم أو ممثل لإدارة مصر البيزنطية . وعندما وصل العرب إلى هذه النواحي وجدوا السلطة بيد قبيلتين بربريتين زناتيتين هما لواتة وهوارة وهما من قبائل البربر التي وسيتكون بها شمس كبير في العصور الإسلامية . ويذهب بعض مؤرخي المغرب ومنهم ابن خلدون إلى أن هوارة من البرانس أي البربر الحضر المستقرين ، وهذا لا يغير من واقع الأمر شيئاً ، لأن تصرف هوارة كان دائماً مع الزناتيين .

فإذا انتقلنا غرباً إلى إقليم طرابلس ، وأصل هذا اللفظ إغريقي أيضاً معناه المدن الثلاث (ترى جوليس) وجدنا أن الإقليم لم يكن واضح التبعية ، فقد كان في الأصل تابعاً للروم ثم للروم . وبعد ذلك لا نعرف في أي أحبة سياسية كان

يقبع حينذاك ، وعندما يصل العرب إلى هذه النواحي سيلقون فيه قبيلة بربرية كبيرة هي نفوسة وكان مركزها منطقة جبلية إلى الجنوب من طرابلس تسمى جبال نفوسة . وفي تلك الأيام ، أي في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي ، كانت تلك الجبال جبلاً خضراء عامرة بالقرى والمرعى والناس ، وكانت قبيلة نفوسة لهذا من أقوى وأهم قبائل طرابلس ، وعندما يصل العرب إلى هناك سيكون تعاملهم مع هذه القبيلة ، أما فيما يتعلق بإقليم أفريقية فإننا نجد تايعة للدولة البيزنطية ، فهناك حكم بيزنطي واضح يقوم به عامل للروم يلقب بالبطريق Patricius ومعه قوة عسكرية ، والبلاد مقسمة إلى ولايتين كبيرتين شمالية أي إلى الشمال من موقع القيروان الحالية تقريبا وتمتد إلى البحر ، وتسمى تلك الولاية زويجتانيا ، وهناك كانت العاصمة قرطاجنة ذات التاريخ الطويل . وهناك أيضاً كانت الجالية الرومية متركزة في مدن الساحل من أمثال قرطاجنة وسوسة والمنستير والجمامات . ومع تلك الجالية الرومية التي كانت تتكون من لروم ومن المهاجرين من شواطئ أوروبا الجنوبية ، كانت تعيش طائفة من سكان المقرب تسمى بالأفارقة ومقردها أفريقي ، ويطلق هذا اللفظ على مزيج من البربر والأجناس التي حكمت أفريقية وأجزاء من ساحل المغرب . وهم جنس يختلف عن البربر بغض الشيء ، فهم حضرة مستقرون ما بين زراع وتجار ورعاة في النادر . وكانوا يتكلمون لغة ساحلية من لغات شواطئ المتوسط ، وكانت المسيحية منتشرة بينهم ، وكان الكثيرون منهم يعرفون اللاتينية والإغريقية . هؤلاء هم الذين كانوا يتعاملون مع الرومان والروم ، سيتعامل العرب مع هؤلاء ، وسيكسبونهم إلى الإسلام ، ويختلطون بهم وبالبربر . ومن هذا كله سيتكون سكان أفريقية الإسلامية الذين سنحدث عنهم .

أما الولاية الجنوبية فتسمى بيراسينا ، وتقع جنوبي خط مدينة القيروان الحالية ، وهي ولاية مراعي ومزارع ، وفي جنوبها تقع بلاد الجريد أي بلاد النخيل ، وهي واجات وافرة المياه معظم سكانها من البربر ، ولكن كانت للروم هناك حصون متناثرة ، ومن هنا سمي بعض نواحيها باسم قصطيلية من اللفظ اللاتيني Castella (ومعناه الحصون) ، ومدينة الرئيسية قياس على

البحر ، وهي باب أفريقية من الشرق ، وقنصنة وتوزر ونقطة وهي عواصم بلاد الجريد التي يتوسطها شط الجريد . وجنوبي بلاد الجريد ، تقع بلاد الساحل ، والمراك بها هنا ساحل الصحراء ، لأن العرب كانوا يرون أن الصحراء هي بحر الرمال ، وكانوا يسمون الواحات بالجزائر ، ولفظ الواحات أو الواح لا يطلق في الجغرافية العربية إلا على واحات مصر لأن اللفظ مصرى قديم : ورح ومعناه الماء .

جرجوريوس أو جرجير :

قبيل الفتح العربي كان يحكم أفريقية بطريق يسمى جرجوريوس الذي يسميه العرب جرجير ، وكان هذا الرجل قد اختلف مع الروم وحاول الاستقلال عنهم ، ونشبت خصومة كبيرة بين الجانبين بينما كان العرب قد أتموا فتح مصر فعلاً . ولم يكن يخطر على باله أن قوة من الجيوش العربية الإسلامية كان يمكن أن تأتي من ناحية الشرق ، ولهذا كان طنبه أنه سيشيء دولة لنفسه في هذه الناحية ، ولهذا ولكي يحتمي من الروم انسحب إلى الداخل تارك العاصمة قرطاجنة وتحصن في بلدة داخلية كان لها حصن منيع تسمى سبيطة إلى جنوبي القيروان الحالية .

وفي سبيطة اطمأن ذلك الرجل ، ولكن اطمئنائه لم يدم ، لأنه فوجيء بطلائع العرب تدخل إقليم برقة . أما بقية المغرب فلا نعرف عنها إلا القليل في ذلك الحين وهذا القليل يتعلق بالسواحل حيث كانت مراكز الحاليات الرومية أو للاثينية وسنحدث عنها في مناسباتها .

من الناحية الحضارية كانت أفريقية مركز عمران رومي أي بيزنطي ، وكانت إقليمياً عامراً أي فيه مدن كثيرة وأرض مزروعة وموانئ على الساحل والبلاد عامرة بالحركة . وكانت المسيحية منتشرة بين الأفارقة والحاليات الرومية صعباً ، أما البربر فلم تدخل المسيحية بينهم بصورة واضحة ، فكانوا على الوثنية ، ولا توجد علاقات ظاهرة أو عميقة بين الروم والبربر . ولهذا سنجد أن العرب عندما يصلون إلى أفريقية سيكون تعاملهم مع الروم أولاً ، فلما تغلبوا على مقومتهم وحلصوا البلاد منهم دخلوا في علاقات مع البربر .

الفتح العربي

فتح برقة وطرابلس :

اتم العرب فتح مصر بمعاهدة الاسكندرية في ١٦ شوال ٢١ هـ / ١٧ سبتمبر ٦٤٢ م واستقر عمرو بن العاص في عاصمته الجديدة الفسطاط ، وهناك نجد عمرو بن العاص ذلك الفاتح العظيم ينهض للاستيلاء على برقة في اواخر سنة ٢٢ هـ / اوائل ٦٤٣ م . فسار بنفسه اليها ، ووقع بيته وبين اللواتيين والهواريين قتال قصير ، ثم استسلموا للعرب وعقدوا مع عمرو بن العاص اتفاقاً على ان يؤدوا له مبلغاً قدره ثلاثة عشر ألف دينار في السنة بصفة جزية ثم عاد إلى مصر . ونفهم من هذا ان برقة كما قلنا كانت جزءاً من أرض او ولاية مصر فكان فتحها استكمالاً لفتح مصر ، وأن هذه الجزية او الاتاوة كانت جزءاً من خراج مصر العام .

وبعد ذلك بقليل نجد ان عمراً يقومود حملة سنة ٢٣ هـ / ٦٤٤ م فيفتح إقليم طرابلس ويستولي على قاعدته التي تحمل نفس الاسم بعد قتال عنيف ولكنه قصير مع الروم والبربر أيضاً ، وكان كل اهتمامه موجهاً إلى انتقامهم مع قبيلة نفوسة وتم له ذلك ، ثم عاد إلى مصر سنة ٢٥ هـ / ٦٤٥ م وكانت هذه هي آخر فتوح ذلك الرجل العظيم عمرو بن العاص ، لانه عزل بعد ذلك عن ولاية مصر . نعم إنه عاد مرة أخرى إلى ولاية مصر سنة ٤٠ هـ / ٦٦٠ م عقب قيام خلافة معاوية بن أبي سفيان ولكن سنة (عمره) في ولايته الثانية كانت قد علت قلم يقيم بفتوح ، وعلى أي حال فإن ما قام به هذا الرجل من فتوح في تاريخ الإسلام يضعه في الصف الأول من بناء الدولة الإسلامية ، فهو الذي فتح فلسطين ومصر ، وهذا الجزء من المغرب ، وأضاف بذلك إلى دولة الإسلام أكثر من ثلث ما فتحت جيوشها إلى ذلك الحين ، وفي التاريخ الإسلامي لمصر والمغرب يعتبر عمرو بن العاص أول اتصال هذا التاريخ .

موقعة سببيلة وفتح أفريقية :

كانت الخطوة التالية من فتوح المغرب بعد ذلك بأربع سنوات ، وتمت على يد

والى مصر بعد عمرو بن العاص ، وهو عبد الله بن سعد بن أبي سرح والى عثمان
ابن عفان على مصر بعد عزله عمراً ، والفكرة عن هذا الرجل في كتب التاريخ
الإسلامي سيئة بسبب ما كان منه في شبابه الباكر من تصرف غير سليم مع
الرسول ﷺ ، وتصرفه هذا يرجع إلى صغر سنه في ذلك الحين . وبعد فتح مكة
سعى له أخوه في الرضاع عثمان بن عفان فعفا عنه الرسول ﷺ وحسن إسلامه
بعد ذلك ، وعندما أتت له الفرصة في خلافة أخيه عثمان أثبت أنه من خيرة
رجال الأجيال الأولى من المسلمين ، وإن كان معاصروه من العرب لم يفسروا له
ما كان منه في شبابه الباكر .

سارع عبد الله بن سعد بن أبي سرح بعد استقراره في الفسطاط بإستئذان
عثمان في المسير لوصلة فتح المغرب ، وبعد تردد أذن له عثمان في ذلك ، فسار
بقوة عسكرية من نحو عشرين ألف رجل معظمهم من الفرسان في اتجاه أفريقية

وفي هذا الجيش اشترك تفر كبر من أبناء الصحابة ، والكثيرون منهم
يسمون عبد الله ، ولهذا يسمى ذلك الجيش جيش العبدلة ، ومن أشهر من
سار فيه عبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن
الزبير ، وكان في الجيش أيضاً عبد الملك بن مروان ، وكانوا جميعاً شباباً في السن
الباكرة ، وكان آباؤهم يشركونهم في الفتوح لأنهم كُنت ميدان التدريب وتكوين
لشباب الجيل الثاني من أمة الإسلام ، ففي ميادين القتال كانوا يقتبسون ثقافة
العصر وهي الجهاد والفتوح وممارسة الحكم واستخراج الأحكام من الأصول
وهي القرآن والسنة .

كان ذلك سنة ٢٨ هـ / ٦٤٩ م ، ففيها وصلت طلائع الجيش العربي إلى
أفريقية . وفوجيء بها جرجير فاستعد لقاء ، ونلاحظ من ذلك التاريخ الباكر أن
كثيرين من البربر وخاصة من لواتة وهوارة ونفوسة قد انضموا للعرب وأسلموا
لتقارب الاجتماعي بين الحين . ونستنتج من هذا أن الكثيرين من أولئك البربر
دخلوا في الإسلام في ذلك الوقت المبكر ، ومن المعروف أن البربر ، مثلهم في ذلك
مثل الفرس وأهل الشام ، كانوا من أوائل الشعوب إسلاماً .

ويقدر المؤرخون العرب قوة الروم بمائة ألف أو ١٥٠,٠٠٠ مقاتل وهذا بعيد نظراً للظروف التي ذكرناها ، ولكن لا شك في أن الجيش الرومي كان أضعاف الجيش العربي ، وإن كان معظم العرب فرساناً ، وهذه حقيقة لها أهميتها

كان اللقاء عند سببلة ، وعلى عاداتهم انتصر العرب على عدوهم ، وقتل جرجير وأسر وقتل الكثير من رجاله ، وفر الباقون إلى السواحل ، وبدلاً من أن يعقد عبد الله بن سعد اتفاقاً أو يضم هذه الناحية إلى دولة الإسلام فيقيم فيها والياً ويترك حامية كما كانت عادة العرب ، نجد أن عبد الله بن سعد يتفق مع أهل البلاد على جزية قدرها ٢٠,٠٠٠ دينار ثم يعود إلى مصر .

وربما كان هذا الرقم خطأ إذ أنه قليل جداً وغير واضح كذلك ، لأننا لم نسمع قبل ذلك أن أخذ العرب آتاة من قوم ثم انصرفوا عنهم ، إنما كانت عاداتهم أن يأخذوا جزية مقررة ممن لا يرغبون في دخول الإسلام من أهل البلاد المفتوحة . على أي حال أخذ عبد الله بن سعد هذه الجزية وعاد إلى مصر في أوائل ٢٩ هـ / ٦٤٩ م ولا تغفل هذه العودة السريعة إلا بما نعرف من أن خلافاً حاداً نشب بين عبد الله بن سعد بن أبي سرح وغيره من كبار أبناء الصحابة الذين كانوا معه وخاصة عبد الله بن الزبير ، الذي تزعم الروايات أنه البطل الحقيقي لمعركة سببلة وهو امر غير صحيح كما رأينا ، فوجد عبد الله بن سعد أن خير ما يفعله هو أن يعود مسرعاً إلى مصر دون أن يترك حامية أو يقوم بأي عمل سياسي أو عسكري أو ينشئ أو يثبت شيئاً من السلطان للعرب على هذه الناحية .

ولكننا نلاحظ على أي حال أن هذه الهزيمة انتى أصيب بها الروم كانت حاسمة إلى حد ما ، فلم تعد لهم قوة كبيرة هناك بعد ذلك ، لأن ظروف الدولة البيزنطية كانت سيئة جداً إذ ذاك نتيجة لاضمحلال قوة خلفاء هرقل ، ونتيجة حاجة الدولة البيزنطية إلى رجال أقوىاء في قلب الدولة ليعيدوا النظام ويثبتوا في وجه لزحف العربي الذي كان يحتاج بلادهم في كل ناحية .

ولم يقم العرب بشيء في أفريقية حتى أيام معاوية بن أبي سفيان ، ولكننا نلاحظ أن نوعاً من الحلف قام بين البربر والعرب ، فمن ناحية اطمأن البربر إلى أن

لهم في الحرب حليفاً قوياً يستطيع حمايتهم من الروم إذا فكر هؤلاء في العودة إلى البلاد ، وعلى أي حال فقد أفاد البربر من ذلك الغزو العربي فائدة كبيرة ، فقد استقلوا عن الروم ، ولم يعودوا يؤثرون إليهم جزية ، وكانوا يشعرون أن الروم إذا عادوا لن يلبث العرب أن يعودوا هم الآخرون ، وكل ذلك في صالحهم .

حملة معاوية بن حديج السكوني والقضاء على آمال

الروم في استعادة أفريقية سنة ٤٥ هـ / ٦٦٥ م :

شغل العرب عن أفريقية والفتوح عامة بسبب فتنة عثمان ، ثم الحرب الأهلية بين علي ومعاوية . ولم يتجدد نشاط الفتوح مرة أخرى إلا بعد استقرار الأمر لمعاوية سنة ٤٦ هـ / ٦٦٦ م . التي تسمى عام الجماعة ، ولو أراد الروم أن يستعيدوا أفريقية خلال تلك الفترة لتمكنوا من ذلك بسبب انشغال العرب ، ولكنهم لم يستطيعوا ذلك بصورة فعالة ، فقد أرسل الروم بطريقاً جديداً يسمى جناديوس حاول أن يقرض سلطاناً رومياً على أفريقية فعجز عن ذلك ، ثم اختلف مع رجل من قواده ولجأ بعد ذلك إلى العرب وذهب إلى الفسطاط أو إلى دمشق فيما يقال ، واستحث معاوية على إتمام فتح أفريقية . وتلك في الغالب أسطورة . والمهم لدينا أن معاوية أرسل سنة ٤٥ هـ / ٦٦٥ م جيشاً يقوده واحد من كبار العثمانيين وهو معاوية بن حديج السكوني . فلما وصل إلى أفريقية وجد أن الروم قد نزحوا البلاد في ميناء سوسة يقودهم قائد يسمى نقفور ، فلما سمع الروم بمجيء العرب أسرعوا إلى سفنهم ، واستولوا على حديج على بعض المراكز الرومية القوية ، ولكن العرب هذه المرة أيضاً لم يتركوا عاملاً بل انسحبوا إلى مصر . وتعتبر حملة معاوية بن حديج غزوة من الغزوات التمهيدية التي قام بها العرب في المغرب قبل أن يتخذوا قراراً نهائياً بفتح هذه البلاد فتحاً دائماً ثابتاً .

فقد تنهت الخلافة الأموية بعد هذه المقدمات إلى أهمية أفريقية وضرورة مواصلة الفتوح فيها ، إذ أنها كانت ميداناً مفتوحاً لا يعترض تقدم العرب فيه مانع كبير . ثم إن كثيراً من البربر كانوا قد أسلموا في ذلك الحين . ولا يستبعد أن يكون الكثيرون من العرب قد تخلفوا في أفريقية لتعليم البربر قواعد الإسلام ، وسنرى مصداقاً لذلك في كلامنا عن عقبة بن نافع الفهري

وإذا كان معاوية بن حديج قد عاد إلى الفسطاط بعد حملته على أفريقية فلم يكن السبب في ذلك أنه أحس أنه انتهى من وأحبه في تلك الجبهة العربية ، ولكن معناه أن هذا الرجل - وكان واليا عن مصر - لم يكن يستطيع الابتعاد عن مركز ولايته زمنا طويلاً ، فهو يغزو ويعود إلى قاعدته في الفسطاط . ولو استمر الحال على ذلك لما تم فتح المغرب أبداً ، لأن الضربات السريعة لا تعتبر فتوحاً ، ولا تنشأ عنها فتوح .

ولكى يبدأ الفتح الجدى المستمر لأفريقية كان لابد لها من ول خاص بها يتولى قيادة الفتوح فيها ، ويقوم بوضع أسس الحكم الإسلامي فيها بعد أن يجعلها ولاية من ولايات دولة الإسلام ، وهذا هو ما سيفعله عقبة بن نافع .

ولاية عقبة بن نافع الأولى على أفريقية

٥٠ - ٥٥ هـ / ٦٧٠ - ٦٧٥ م :

كان في الجيش لأول الذي قاده عمرو بن العاص في فتح برقة وطرابلس قائد يسمى نافع بن عبد القيس القهري ، وكان زوج أخت عمرو بن العاص ، فعهد إليه عمرو بعد أن فتح طرابلس في أن يسير بقوة من الجند نحو الجنوب للاستيلاء على إقليم فزان الواقع جنوبي طرابلس على بعد ٨٠٠ كم في الصحراء ففعل ، وكان معه في هذه الحملة ابنه عقبة بن نافع بن عبد القيس ، وكان صبياً في العاشرة ، وترك العرب في فزان حامية صغيرة من الجند كان من بينهم نافع بن عبد القيس وابنته عقبة ، وخلال فترة الفتوح ظل عقبة مع الجند في هذه النواحي يتنقلون ما بين برقة وفزان وودان وزويلة من مراكز الصحراء ، وفي هذا الحول نشأ عقبة بن نافع نشأة جهاد وتمرس بشئون القتال ، وتحوّل إلى شخصية عربية أفريقية شديدة الاتصال بشئون المغرب ، ووثيقة العلاقات بالعرب والبربر في نفس الوقت ، ولهذا فبعد عودة معاوية بن حديج من المغرب بضع سنوات أي سنة ٤٠ هـ / ٦٦٠ م نجد معاوية بن أبي سفيان يولى قيادة الفتوح في المغرب عقبة بن نافع ويرسل له قوة عسكرية للقيام بذلك العمل ، وهنا يبدأ الفتح الحقيقي لأفريقية والمغرب ، لأن عقبة بن نافع يعتبر أكثر العرب معرفة بأفريقيه وشؤونها في ذلك الوقت لطول خبرته بشؤونها ، وعندما قام بحملته الأولى على

أفريقية فكانت لديه فكرة واضحة عن المغرب وما ينبغي عمله لفتحها ثانياً .

وسنلاحظ أثر ذلك في أعمال عقبة ، فهو أول قاطع عربي يدخل هذه البلاد على رأس جيش وفي ذهنه فكرة واضحة عما ينبغي عمله لتحويل أعمال الفتوح في أفريقيا من غزوات تروح وتعود بغنائم فحسب إلى فتوح منظمة ترمى إلى إنشاء ولاية أفريقية ومد حدود الإسلام غرباً وإدخال البربر في الإسلام .

حملة عقبة بن نافع الأولى وقاسيس

القيروان ٥٠-٥٥ هـ / ٦٧٠-٦٧٥ م :

سبق أن ذكرنا أن عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري كان بين جنود أفريقية «أشور» وقد اشترك وهو صبي في محاولات فتح «أفريقية الأولى» مع أبيه ثم أصبح قائداً شاباً من قادة الجيوش الإسلامية العاملة في الفتوحات في الجناح الغربي ، وذكرنا أنه تحول مع الزمن إلى شخصية محاهدة متصوفة تذرت نفسها للفتوح . وعندما وصله الأمر بولاية أفريقية وكان في نواحي زويلة قرب قران ، نهض إلى أفريقية من هناك عام ٥٠ هـ - ٦٧٠ م ، فخرج بمن معه حتى وصل إلى ساحل البحر المتوسط ، وهناك التقى القوة العسكرية التي أرسلها الخليفة معاوية ابن أبي سفيان للعمل تحت إمرته فوصل لنداس ، ومن هناك دخل أفريقية وتجه رأساً إلى قرب موقع سبيطة ، وكان قد قرر إنشاء عاصمة أو مركز عسكري للمسلمين في أفريقية فاختار موقعاً يقع إلى الشمال قليلاً من سبيطة التي وقعت عندها المعركة المشهورة ، وبدأ في اختطاط عاصمة مناسبة للمسلمين .

وكانت القاعدة في إنشاء تلك المدن الإسلامية الأولى التي تسمى الأمصار هي البدء ببناء المسجد الجامع ، وفي مواجهة المسجد كانوا ينشئون دار الإمارة (أي مركز ومقر الحاكم) وبين المسجد ودار الإمارة يترك طريق واسع ، ويعتبر ذلك الطريق بداية الشارع الرئيسي بالعاصمة ويسمى بالسماط أو المحجة ، وفيما يتعلق بهذه المدينة الجديدة يسمى هذا الشارع بالسماط الأعظم ، وكانت العادة أن يتركوا حول هذين المينيين خلاء واسعاً مستديراً ، ثم بعد ذلك كانوا ينشئون

الدور حول ذلك الخلاء على أساس تقسيم الأرض إلى قطع لكل قبيلة قطعة تسمى خطة أو دار . وسميت هذه المدينة القيروان ، وهو لفظ فارسي معرب بمعنى المعسكر أو مستودع السلاح . ويقال إن موضع القيروان كان غابة وشعري^(١) ، فقام عقبة وأصحابه بتمهيد الأرض وقطع تلك الأشجار ، وتحكى أسطورة أن عقبة بن نافع قام بكرامات أثناء إنشاء تلك المدينة فأمر الوحوش والبهائم التي كانت في الشعاري بأن تخرج منها لأن المسلمين ينشئون مدينة رسول الله ﷺ ، فخرجت الوحوش والبهائم من تلقاء نفسها ، وبذلك أصبحت المدينة الجديدة وهو مدينة القيروان مدينة جليلة ومباركة ، وبالفعل قدر لذلك المصر الصغير أن يصبح من أكثر المراكز الإسلامية بركة على الإسلام وأهله ، فقد تحولت القيروان بسرعة إلى قاعدة سياسية ودينية وفكرية للإسلام في أفريقيا ، وقد تحرى عقبة أن تكون المدينة ملائمة لمطالب العرب في ذلك العصر ، وقد كان أهم ما لديهم هو الخيل والجمال وهي سلاحهم الأكبر في عمليات الفتوح ، فكانوا يهتمون بأن تكون الأمصار أو المراكز التي ينشئونها وسط أقاليم مراعى لتسرح فيها الخيول والجمال في غير أوقات الحروب ليستجم الظهر كما كانوا يقولون ، ولأننا نذكر أنه كانت في أفريقيا في ذلك الحين عاصمة أخرى وهي قرطاجنة وكانت ميناء ، وهي عاصمة الروم الذين تلاشت قوتهم السياسية والعسكرية ، ولكن قرطاجنة وبقية مدن السواحل من أمثال قابس وسوسة ظلت عامرة بالروم والافارقة وغيرهم من سكان الشريط الساحلي

المهم لدينا أننا لا نلاحظ أى وجود فعلى لروم أثناء عملية إنشاء القيروان التي دامت خمس سنوات من ٥٠ - ٥٥ هـ / ٦٧٠ - ٦٧٥ م . وبعد فراغ عقبة من إنشاء تلك القاعدة بدأ يستعد لمواصلة الفتوح ، إذ أنه اطمأن إلى أنه أنشأ للمسلمين قاعدة يحكم منها البلاد التي يفتحها وتصدر منها الغزوات . ومعنى ذلك أن عقبة بعمله هذا قد جعل أفريقية ولاية إسلامية جديدة ، لأنه ما دام قد أنشأ بها مسجداً جامعاً وداراً للإمارة فقد أصبحت المنطقة كلها جزءاً من الدولة الإسلامية ، ولا يجوز بعد ذلك للمسلمين أن يتخللوا عن هذه الناحية ، وبالفعل

(١) شعاري هو المكان به اشجر لكثيف المنف

كان من الممكن للعرب قبل ذلك أن ينسحبوا من أفريقية إلى برقة أو إلى مصر كما كانوا يفعلون من قبل ، أما الآن فلا بد لهم أن يثبتوا في هذه الناحية ، وإن فقدوها لسبب ما فيجب عليهم أن يستعدوها مرة أخرى لأنها جزء من الديار الإسلامية .

ومن هذا يتبين لنا أهمية العمل الذي قام به عقبة بن نافع الذي يعتبر بحق من أعظم قاتحي المغرب وواحد من أكبر بناة الدولة الإسلامية . ولا يقارن عقبة في هذا المجال إلا بـ « قتيبة بن مسلم الباهلي » الذي تولّى مهمة مماثلة في الجناح الشرقي لدولة الإسلام . وإليه يرجع الفضل في التغلب على مقاومة الترك الوثنيين وفتح بلادهم للإسلام والوصول به إلى كشغر في إقليم سنكيانج في غرب الصين الحالية . وكان عقبة وعتيبة متعاصرين : واحد منهما وصل بحدود دولة الإسلام إلى أقصاها غرباً والثاني وصل بها إلى أقصاها شرقاً .

ولاية أبي المهاجر دينار :

وكنا نتوقع أنه بعد أن قام عقبة بهذا العمل المجيد أن تكافئه الدولة بأن تتركه في ولايته ليتم ما بدأه ، إلا أنه بدلاً من ذلك يتلقى أمراً بالعزل من ولاية أفريقية سنة ٥٥ هـ / ٦٧٥ م . وكان الذي عزله معاوية بن أبي سفيان بناء على طلب وإلى مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري وكان من كبار العثمانيين وأنصار البيت الأموي الذين أعانوا معاوية على الوصول إلى الخلافة ، فكافأه معاوية بولاية مصر ، وعندما رأى مسلمة أن أفريقية أصبحت ولاية وميداناً جديداً واسعاً للفتوحات طمعت نفسه إلى أن يحوزها ، فسعى في عزل عقبة وتولية رجل من أتباع مسلمة ابن مخلد يسمى دينار أبا المهاجر ، ويظن أنه كان ممن أسلم من أهل مصر ، ولم يكتف مسلمة بعزل عقبة بل نجد أن ديناراً أبا المهاجر يسمى معاملة ذلك الفاتح الكبير ويترك انقيروان وينزل بقريّة صغيرة قريبة منها تسمى تكبروان رغبة منه في التقليل من أهمية العاصمة الجديدة ، لأن مسلمة كان يرى أن الغرب الإسلامي كله تبع له ، ومن ثم فلا تكون له إلا قاعدة واحدة هي انقسطاط ، وذهب عقبة إلى دمشق وشكا إلى الخليفة فطبيب خاطره ولكنه لم يردّه إلى ولايته .

وأما دينار أبو المهاجر فقد تبين أنه من خيرة الولاة رغم تصرفه مع عقبة .

رواضح أنه غير مسئول عن ذلك وإنما المسئول هو مسلمة بن مخلد ، وإن كان مسلمة قد اعتذر لعقبة عن سوء صنيع دينار أبي المهاجر معه .

انتهج أبو المهاجر سياسة جديدة في الفتح ، فقد كان عقبة رجلاً متشدداً بعيداً عن السياسة وفهم تصاريقها ، أما أبو المهاجر دينار فنجدته في أعماله العسكرية يتجه إلى كسب مودة أهل البلاد من البربر ، وهو لم ينتهج نهجاً معيناً أو محدداً في أعماله العسكرية ، لأنه كان رجلاً نشيطاً يرسل الغزوات في كل وجه ، وقد وصلت غزواته إلى مسافة بعيدة في الغرب حتى وصل إلى تلمسان وهي أكبر قواعد انقسام الشرقى من المغرب الأوسط ، أي تلك المنطقة الواقعة جازاً إلى الشرق من نهر المولوية الذي قلنا : إن الحد الفاصل بين المغربين الأوسط والاقصى يمر شرقه بقليل . وفي هذه الناحية - تلمسان - كانت منازل قبيلة من أكبر قبائل البربر البرانس في ذلك العصر وهي أوربة ، وهي قبيلة برنسية أي من قبائل الحضرة وكانت تسيطر على المغرب الأوسط كله يتزعمها زعيم بربري يسمى كسيلة بن أسرم ، وقد دخل هذا الرجل الإسلام ومعه قبيلته الكبيرة على يد أبي المهاجر دينار . ودخل أوربة وزعيمها كسيلة في الإسلام بعد حدثاً هاماً لابد من ملاحظته . حقيقة كان الإسلام ينتشر في المغرب منذ الأيام الأولى لدخول المسلمين ، وخاصة عندما رأى البربر عقبة بن نافع وهو ينشئ القيروان فتأثروا بشخصيته الدينية وبما كان يظهره من التقاني في سبيل الإسلام ، فدخلت جماعات كبيرة منهم الإسلام على يديه وانضمت إلى قوات الإسلام المحاربة . ولكن إسلام أوربة يعتبر حدثاً تاريخياً هاماً في تاريخ إسلام المغرب ، لهذه أول مرة تدخل قبيلة برنسية كبيرة في الإسلام ، وكان معظم من دخل الإسلام قبل ذلك من البربر البر آي البدو من قبائل لواتة وهوارة ونقوسة وغيرها ، ومضى كسيلة بعد أن أسلم مع صاحبه دينار أبي المهاجر إلى القيروان .

ولاية عقبة بن نافع الثانية على أفريقية وحملته الكبرى

على المغرب ٦٦ - ٦٤ هـ / ٦٨١ - ٦٨٣ م :

استمرت ولاية دينار أبي المهاجر سبع سنوات ، ولم تنته إلا بوفاة معاوية ابن أبي سفيان سنة ٦٠ هـ / ٦٨٠ م ، وبوفاة معاوية فقد مسلمة بن مخلد

تصيره فلم تعد له تلك المكانة التي كانت له أيام معاوية ، وانتهز عقبة هذه الفرصة وتحدث إلى يزيد بن معاوية في إعادته إلى أفريقية ، فأجابته إلى مطلبه ، وأسرع عقبة إلى المغرب ومعه قوة تقدر بحوالي ٤٠٠٠٠ فارس وقد صمم هذه المرة على أن بشرع في الفتح مباشرة مخافة أن يفاجئه عزل جديد .

وعندما وصل عقبة إلى أفريقية قبض على دينار أبي المهاجر وعلى صاحبه كسيلة وتلك كانت من أخطائه الجسيمة ، لأن كسيلة كان رجلاً مسلماً وليس ذنبه أنه كان صاحباً لأبي المهاجر ، ومن ثم فلم يكن عقبة على حق في سوء معاملته . على أي حال نجد عقبة رغم ما اتصف به من إيمان وإيمان وشجاعة وتعد عن شئون هذه الدنيا لم يعرف كيف يغفر لأبي المهاجر ما صنعه به ، ورغم ما تميز به من بعد نظر فيما يتعلق بمواصلة فتح المغرب وإدخاله في الإسلام ، نجده قصير النظر في شئون السياسة ومعاملة الناس ، فأخذ كسيلة معه - مصفراً بالحديد كما يقال - وأساء معاملته رغم أن ديناراً أبا المهاجر كان ينصح به بإحسان معاملة ذلك الرجل ، تأسيساً بما كان يفعله الرسول ﷺ في استئلاف حديثي العهد بالإسلام فقد كان إيمانهم قريباً أو قريب عهد ولا بد من تحبيبهم في الإيمان وهم المؤلفة قلوبهم ، ولكن عقبة في حماسه الشديد للفتح وتقائه فيه لم يلتفت إلى النصيح وسار في جموعه نحو المغرب الأوسط .

وبدلاً من أن يتخذ في سيره الطريق الأسهل ، فيسير على الشريط الساحلي نجده يخترق الجبال ويقزو البربر في عقر دارهم فيدخل جبال الأوراس وهي الطرف الشرقي لجبال الأطلس وهي جبال عالية وعرة كثيرة المضائق والأخاديد في هذه الناحية ، وكانت تعيش فيه جماعات من الروم ممن هربوا إلى داخل البلاد واتصلوا بالبربر ليتعاونوا معاً على المسلمين ، ولكن عقبة لم يكثر لهم ، ومضى يقتحم جبال الأوراس موعلاً في بلاد هي الغاية في وعورة الأرض وصعوبة المسالك

دخل عقبة جبال الأوراس وبدأ بمحاصرة حصن يسمى بأغاية وكان فيه عدد من الروم إلى جانب البربر ، وعندما وجد عقبة صعوبة في الاستيلاء على باغاية تركها واندفع ناحية الغرب ، فعبر نهر شلف ، وهو يحارب القبائل في طريقه

ويفض جموعها ويلقى العرب في قلوب أهلها ، وفي نفس الوقت يجتذب الكثيرين من أقرانها للإسلام بفضل ماكان يبدو عليه من التقوى والتفاني في سبيل الإسلام ، واستمر في طريقه غير عابئ بالمقاومة مهما اشتدت حتى وصل إلى قرب طنجة أي أن ذلك الرجل قطع في شهور قليلة وخلال جبال وعرة لسكنى قبائل ضخمة مسافة تقدر بأربعة آلاف كيلو متر ، وظهر أمام طنجة وهي مفتاح المدخل الغربي للبحر المتوسط .

هنا يلقي عقبة عند طنجة شخصية غريبة تسمى يليان — والقراءة مشكوك فيها — ولا نعرف عن ذلك الرجل أى شيء يعول عليه ، فهناك من يقولون إنه كان ممثلاً للسلطان الرومى — البيزنطى في ذلك الطرف الأقصى من البحر المتوسط — وهناك من يقولون إنه كان ممثلاً للقوط الغربيين الذين كانوا يحكمون شبه جزيرة أيبيريا في ذلك الحين وهذا أقرب الأحوال إلى القبول ، وهناك رأى ثالث يقول إنه بربرى تزعم قبيلة غمارة الكبيرة التى ستدخل في الإسلام وسيكون لها في تاريخ المغرب شأن كبير . وربما كان اسم يليان تسمية عامة تطلق عند العرب على حاكم إقليم طنجة أياً كان . فبعد ثلاثين عاماً من ذلك التاريخ ، وفي ولاية موسى بن نصير في أثناء أعمال فتح الأندلس سنلقى يليان هذا مرة أخرى وسيكون له شأن مع موسى وطارق ، وكذلك سيكون له دور في فتح الأندلس . على أى حال نجد أن عقبة يتفاهم مع ذلك الرجل ويقول له يليان : لقد تغلبت على الروم وليس أمامك الآن إلا البربر فعليك الآن أن تتحدر إلى الجنوب فهناك مواطن البربر الحقيقيين .

ولم يكذب عقبة ، فاتجه إلى الجنوب ، وبفلس البسالة التى عرفناها فيه نجده يخترق مواطن البربر المصامدة من شمال المغرب الأقصى إلى جنوبه مخترقاً جبال الأطلس التى تسمى هنا جبال درن وفي طريقه يهزم القبائل وينشئ المساجد ويقبل عليه الناس رغياً أو رهياً ليعلموا إسلامهم . وعندما يصل ذلك الرجل إلى قلب بلاد المصامدة في جبال درن نجده يدور دورة واسعة وسط أسجبال ثم يتجه غرباً ، وينحدر نحو المحيط إلى جنوب المدينة الحالية المعروفة باسم أغادير التى تقع على مصب وادى السوس ، وهناك وعند قرية صغيرة على

النهر تسمى « أيجيران يطوف » نرى المشهد التاريخي الشهير وهو مشهد عقبة يدخل بحصانه في مياه المحيط الأطلسي ويشهد الله على أنه وصل براية الإسلام إلى آخر المعمورة ، وأنه لو وجد طريقاً لساير إلى البلاد التي وصل إليها - في زعم القصاصين - في القرنين عند مغرب الشمس .

وبعد أن وصل عقبة إلى هذه النتيجة التي لا تصدق نجده يعود أدراجه مخترقاً بلاد البربر مرة أخرى ، وعندما يصل إلى نهر تانسيفت وهو النهر الذي يقع عن أحد نهيرته مدينة مراکش الحالية ، وعند بلدية تسمى نقيس ينشئ مسجداً وهو الذي عرف فيما بعد باسم مسجد « أعمت أوريكّة » ولا زال ذلك المسجد باقياً إلى اليوم ويقال إن منبره يرجع إلى تلك الأيام . وعندما وصل عقبة إلى وادي أبي الرقراق الذي تقع على مصبه الآن مدينة الرباط ينشئ رباطاً أي معسكراً للمرابطين ، أي الذين يربطون على ثغور ديار الإسلام ليحرسوها ويؤدوا الأعباء عنها حسبة الله سبحانه وتعالى ، ويسمى هذا الرباط برباط شاكر . وهو أحد قواده ، وهناك ترك عقبة شاكراً هذا ليعم الناس مبادئ الإسلام ، ثم يواصل مسيرته عائداً إلى القيروان ، فنجد أن الكثيرين من جنوده يستأذنونهم في الإسراع إلى القيروان فقد طال غيابهم عن أولادهم وأهلهم فيأذن لهم ويبقى في عدد قليل من رجاله .

وبينما كان عقبة منصرفاً إلى مقامرته العسكرية الدينية الكبيرة تلك كان خصومه يكيدون له ، وكان معه في الجيش كما قلنا دينار أبو المهاجر وصاحبه كسيلة بن لمزم الأوربي فلما اقتربوا من بلاد قبيلة أوربة هرب كسيلة وعاد إلى قومه ، وجمعهم وتتبع عقبة ليوقع به عندما تسنح له الفرصة ، وعندما وصل الجيش الإسلامي الصغير إلى سهل تهوده جنوبي واحة بسكرة الحالية إلى جنوب مدينة الجرائر وجد عقبة نفسه محاصراً بجماعات غفيرة من البربر والروم ، وقد تجمعوا وتعارفوا بفضل كسيلة لانتقام من ذلك الرجل المجاهد عقبة ، وهناك قرب تهر صغير يسمى وادي الأبيض وجد عقبة أنه لا مقر من الاستشهاد فأمر رجاله بأن يترجلوا عن خيولهم ، وذلك دليل على توطين النفس على القتال إلى الموت وطلب إليه أبو المهاجر أن يفك قيوده لكي يموت في سبيل الإسلام ، وخاضت هذه

الجماعة الصغيرة معركة الموت ببسالة ، فقتلوا عن آخرهم ، وذلك كنت نهاية ذلك الرجل عقبة بن نافع سنة ٦٤ هـ / ٦٨٣ م . وهى نهاية جديرة بحياة رجل مثل عقبة بن نافع ، وهذه النهاية على الرغم من أنها كانت هزيمة عسكرية إلا أنها فى واقع الأمر كانت بعيدة الأثر فى إسلام أفريقيا والمغرب ، فقد كان هـ أبداه عقبة ورجاله من البسالة فى ذلك الاستشهاد أروع أثراً فى نفوس البربر ، وهم قوم ذور بأس وإعجاب بالأبطال وكانت نتيجة هذا الاستشهاد لمجيد أن دخل البربر جماعات فى الإسلام ، وتلك هى نهاية أسطورة عقبة أو سيدى عقبة بطل الإسلام الأكبر فى تاريخ الفتوح فى الجزء الغربى من العالم الإسلامى

زهير بن قيس والقضاء على كسيلة :

لم تستطع الخلافة الأموية أن تهتم بأمور أفريقية إثر مقتل عقبة بن نافع واحتلال كسيلة للقيروان إلا بعد وقت طويل ، لأن ظروف الدولة لم تسمح بذلك . لقد توفى يزيد بن معاوية وخلفه ابنه معاوية الثانى ، ثم انتهى الأمر إلى مروان بن الحكم ، وثار عليه عبد الله بن الزبير وبعد انتصار مروان على أنصار عبد الله بن الزبير بقليل ، توفى مروان وخلفه ابنه عبد الملك وشغل باستعادة العراق من الزبيريين ، وهذأت الأحوال شيئاً فشيئاً ابتداء من ٦٨ هـ / ٦٨٧ م ، وثبتت أركان خلافة عبد الملك واتسع أمامه الوقت ليقوم بعمل فى أفريقية ، وكان زهير بن قيس الذى خلف عقبة منتظراً فى برقة أن تاتيه الإمدادات لكى يهض إلى أفريقية من جديد .

وأرسل عبد الملك إلى زهير جيشاً قوياً ، وبعث إليه بالأموال من مصر ، فنهض سنة ٦٩ هـ / ٦٨٨ م متجهاً إلى أفريقية ، وعندما دخلها عسكر فى ناحية تسمى قمودة ، وهى شبه جزيرة بارزة فى البحر من الساحل الشرقى لتونس الحالية ، وكان من عادة العرب فى تلك الظروف أن تتحصن جيوشهم فى مثل ذلك الموقع أو فى ثنية من النهر وذلك لقلّة أعدادهم . وكان كسيلة قد جمع قوى ضخمة من البربر والروم وسار بهم لحرب زهير . وفكر زهير فى الانسحاب ، ولكن قيادة الجيش الآخرين شجعوه على الثبات وحفزوه على المسير للقاء كسيلة . ولغلاً تم اللقاء بين الجانبين ، وجرت معركة من أشد ما مر بالعرب فى أفريقية إلى ذلك الحين ، فقد قنى فيها الألوف من الجانبين ، وخرج المسلمون كعادتهم فى ذلك

العصر منتصرين ، وقتل كسيلة ونفر كبير من كبار الروم والبربر ، وطارد المسلمون قلول الخنهميين إلى مسافات بعيدة .

بعد ذلك عاد زهير إلى القيروان ليرتب أمورها ويصلح من أحوال المسلمين بها وبعد أن تم له من ذلك ما أراد تجده يعلن أنه عائد إلى الشرق ولا ندري ما السبب في ذلك لفرار ، لأن زهيراً كان يستطيع بل كان لابد له أن يقيم في أفريقية ودياً عربياً لها ، ولكن يبدو أنه لم يكن مستريحاً للمقام في تلك البلاد ولم تكن الدولة الإسلامية قد حددت بعد سياستها فيما يتعلق بأفريقية .

ولابد أن نذكر أن بلاد أفريقية في ذلك العصر كانت بلاداً بعيدة جداً عن نظر العرب ، خاصة وهي ميدان حرب عنيفة مع البربر من ناحية والروم من ناحية أخرى ، لهذا أزمع زهير العودة وشرع فيها فعلاً ، وعندما خرج زهير سمع أن الروم عادوا إلى طرابلس وأنزلوا قوة فيها . وكان زهير قد ترك جيشه يسير قطعاً صغيرة متسحبا إلى مصر وعندما اقترب من طرابلس كان قد بقي في سبعين رجلاً فقط من خيرة رجاله ، ورأى الروم يعودون إلى مراكزهم ومعهم أسرى المسلمين وما نهبوه من الأموال . وأراد زهير أن ينتظر حتى يتكامل الجيش ليهاجم الروم ، ولكن شباب المقاتلين حفزوه على الهجوم وعيبروه بالجبن عن اللقاء فما كان منه إلا أن انقض بهم معه على الروم ، وكانت النتيجة واضحة منذ البداية فقد استشهد هو وكل من معه ، وهكذا أصيب المسلمون بكارثة ثانية في فتوح أفريقية ، وانسحب الباقون من رجال زهير إلى برقة وأرسلوا يطلبون المدد من دمشق للعودة إلى أفريقية .

جولة حسان بن النعمان الفسائي والقضاء على آخر مظاهر

المقاومة الفعلية للفتح العربي ، وتسوت تقدم المسلمين نهائياً في أفريقية ٧١ - ٨٥ هـ / ٦٩٠ - ٧٠٤ م :

بعد أن انتهت فتنة ابن الزبير واستقر الأمر لعبيد الملك بن مروان بصورة نهائية تجدد عزمه على مواصلة الفتوح في ذلك الجناح الغربي لدولة الإسلام ، ونلاحظ أنه في عصر عبد الملك بن مروان كان هناك تنافس شديد بين العاملين في

الفتوح في الشرق وعلى رأسهم المجاج بن يوسف الثقفي والعاملين في المغرب وعلى رأسهم عبد العزيز بن مروان آخر الخليفة وولى عهده وواليه على مصر. كان كل من الجانبين يحاول أن يتفوق على الآخر بما يفتح من بلاد، وهو تنافس محمود يرجع الفضل إليه قيما وفقت إليه دولة الإسلام في عصر عبد الملك وابنه الوليد، وقد كانت نتيجة هذا التنافس فتح بلاد زادت من ناحية الأهمية والاتساع على كل ما فتحه المسلمون في العصر الراشدي بعد فتوح إيران، فقد وصل المسلمون إلى غربي الصين ودخلوا حوض السند من ناحية الشرق على أيدي الفاتحين الكبار مثل قتيبة بن مسلم لباهل ومحمد بن القاسم.

أما في الجناح الغربي، وهو موضوع حديثنا الآن فقد بدأ عصر جديد من الفتوح بفضل ما قام بعد عقبة بن نافع ومن جاء بعده من كبار الفاتحين، وأول أولئك الفاتحين الجدد حسان بن النعمان الذي سيتولى القضاء على المقاومة الفعلية للروم والبربر في أفريقية.

كان حسان من كبار رجال عبد الملك، وكان رجلاً شامياً ينتسب إلى آل غسان ولهذا كان لقبه الغساني، ومع علو سنه إلا أن شخصيته وخبرته وأمانته مكنته من القيام بهذه المهمة التي وكلتها إليه الخلافة، فسار فيمن معه نحو كسيلة والتقى الجانبان في معركة حاسمة سنة ٧٤ هـ / ٦٩٢ م وانتهزم كسيلة وقتل، وبعد التخلص من كسيلة بدأ حسان في تنظيم أمور أفريقية ووجه همه إلى الروم وكانت حاميتهم لا تزال قوية في قرطاجنة فوجد حسان أنه لابد من الاستيلاء على ذلك البلد وتم به ذلك فعلاً، ثم هدم منشآت الميناء حتى لا تعود إليه أساطيل الروم وعاد حسان بعد ذلك إلى القيروان، وبعد أن استراح فترة قصيرة كان يحسب أن كل مقاومة فعلية قد انتهت وأن أوان التنظيم قد حان ولكنه فوجيء بما لم يكن في حسابان أحد.

الكاهنة :

ذلك أن زعيمة بربرية ظهرت في الميدان تتحدى العرب يسميها العرب الكاهنة ولا نعرف نحن اسمها على وجه الدقة فإن بعض المؤرخين يسمونها داهيا بنت

وامياً ، ولكن هذه تسمية مأخوذة من القصص الشعبي ولا شك . ظهرت هذه المرأة في جبال الأوراس على رأس قبيلة من أكبر قبائل البتر الزناتية تسمى قبيلة جروة وتحدث العرب وأعلنت أنها لن تستريح حتى تخرجهم نهائياً من بلاد أفريقية ، ويبدو أن هذه المرأة عندما رأت أن العرب كسروا شوكة البرانس بالقضاء على كسيلة ، قدرت أن دورها قد جاء فرات أن تبادر الحرب قبل أن يبادروها .

يصور المؤرخون العرب هذه المرأة في صورة هي أقرب إلى شخصيات الأساطير ، قالكا هذه ساجرة شديدة السمرة في حوالي الخمسين من عمرها وهي امرأة ذات شخصية خلابة ولها قدرة على الإتيان بأعمال السحر والكهانة ولتنبؤ بما سيحدث . وبطبيعة الحال كان ذلك الخبر مفاجأة لحسان ، ولكنه بما عرف عنه من البسالة وبعد النظر عرف أن هذه المرأة من الممكن أن تسبب للعرب متاعب كبيرة ، لأنها كانت متحصنة في جبال الأوراس ، وهي الطرف الشرقي لجبال الأطلس بجمهورية الجزائر في إقليم قسنطينة وما بيها شالاً وحمويا . وكان من الممكن لهذا أن تسبب متاعب جديدة للعرب ، ولهذا نجد حساناً يتحذّر نحوها والتقى معها في معركة حامية يتهزم فيها حسان ويضطر إلى الارتداد إلى برقة ، لأن تلك المرأة طاردته حتى أخرجته من أفريقية وطرابلس ، وهناك في برقة تحصن حسان وبنى بيوتاً تسمى قصور حسان وأرسل للخليفة يطلب المدد .

أما الكاهنة فقد اطمأنت إلى أن العرب قد ابتعدوا عن بلادها فعادت إلى مواطنها ، وظننت أن العرب لا يطلبون من هذه البلاد إلا المعادن ، فقررت تخريب الطريق الذي يسلكه العرب حتى لا يبقى لهم مطعم في أفريقية فأمرت رجالها بقطع الأشجار وتهديم القرى وإحراق الزروع فكان لعملها هذا أسوأ الأثر على حركتها ، لأن أصحاب الأشجار والزروع والقرى كانوا من البربر الحضري أي البرانس فنظروا منها نفوراً شديداً وأرسلوا إلى حسان يستغيثون به . وكانت الكاهنة قد أمرت نفراً من رجال المسلمين من بيتهم رجل يدعى خالد بن يزيد فتبنته واتخذته مشيراً لها .

وعندما وصلت إلى حسان الإمدادات سنة ٧٩ هـ / ٦٩٨ م نهض للقاء

الكاهنة ولانتقاد المسلمين في أفريقية ، وكذلك لإغاثة البربر الذين استنجدوا به فزادت الكاهنة في عمليات التخريب حتى جعلت البلاد التي تعرف بتونس الآن خراباً ويسمى المؤرخون ذلك بخراب أفريقية الأول ، وسيكون هناك خراب ثان لأفريقية على يد العرب الهلالية في القرن الخامس الهجري كما يقولون ، ويذهب المؤرخون الفرنسيون إلى القول بأن ذلك التخريب الأول لم يتم على أيدي الكاهنة وإنما قام به العرب أنفسهم ونسبوه إلى الكاهنة معتمدين في ذلك على بعض آراء خاطئة لابن خلدون يقول فيها « إن العرب إذا دخلوا قطراً عامراً خربوه » ومن أقواله أيضاً : « إذا عربت خربت » ، وذلك في إطار تفكيره عن الصراع بين البدو والحضر وقوله هذا داخل فيما يسمى بدورة العمران .

هذه كلها آراء غير سليمة في جملتها ، وخاصة فيما يتصل بكلامه عن موقف العرب من الحضارة وزعمه أنهم لا يتقبلون إلا عن البساط (جمع بسيط) وذلك كله ينبغي أن يكون اليوم موضع دراسة جادة منا نحن العرب^(١) . المهم لدينا أن الكاهنة أنزلت خراباً واسعاً بأفريقية .

ويذكر المؤرخون العرب وخاصة عبد الرحمن بن عبد الحكم « أن أفريقية كانت ظلاً واحداً من برقة إلى طنجة فخربت ذلك كله الكاهنة » ، هذه أيضاً مبالغة وعدم فهم من « بن عبد الحكم » - قولاً . لم تكن أفريقية بهذا العمران عند انقشع العربي . وثانياً : ليس من المعقول أن تخرب امرأة واحدة ذلك العمران كله ، ونستطيع اليوم تفسير هذه الظاهرة أن نقول : إن الكاهنة بالفعل قامت ببعض أعمال التخريب للأسباب التي ذكرناها ، واستمر التخريب بعد ذلك لسوء الحكم وسياسات الولاة وما سنرى من الصراع السياسي الشديد بين العرب فيما بين بعضهم وبعض من ناحية ، وبين العرب والبربر من ناحية أخرى .

ثم كان اللقياء الحاسم بين حسبان والكاهنة وسط جبال الأوراس وكان خالد بن يزيد يرأس حسباناً ويبلغه سرا بأحوال الكاهنة وتذمر الناس من أعمالها وأحسَّت هي بأنها لن تستطيع الصمود أمام العرب مرة أخرى وتنبأت أنها

(١) أي لا بد لنا من عادة النظر في آراء ابن خلدون هذه .

مقتولة ، فتأدت خالد بن يزيد وظلّت إليه أن يستامن لولدها عند حسان وفعل خالد بن يزيد ذلك ، أما هي فصمدت وقالت إنها لا بد أن تحارب حتى الموت لأن الملوك لا يستسلمون ، وفي سنة ٨٠ هـ / ٦٩٩ م ، أي بعد عودة حسان إلى أفريقية بنحو عام ، دارت المعركة الحاسمة في موضع من جبال الأوراس لا نعرفه على وجه التحديد ، ولكن المؤرخين يهويون إن المعركة كانت عند نهر نيجني ولا نعرف نهراً في أفريقية أو المغرب بهذا الاسم . على أي حال قضى العرب ببسالتهم المعروفة على جيش الكاهنة وقتلوها وقضوا بذلك على المقاومة الفعلية للبربر في ذلك الجناح الغربي من الدولة الإسلامية .

وليس معنى ذلك أن مقتل الكاهنة كان آخر لقاء بين العرب والبربر ، لأنه بقيت أمامنا فصول طويلة من الصراع في المغرب ثم في الأندلس حتى تستقر سيادة العرب والإسلام على كل الجناح الغربي لدولة الإسلام كما سنرى .

وعاد حسان بعد ذلك النصر إلى القيروان وقد حزم أمره على أن يتم عمله بالقضاء على كل بقية للروم في أفريقية فاستولى على بلدة قرطاجنة وخرّبها تماماً وفرت بقايا الروم إلى صقلية وجزر البحر ولم يبق لهم بعد ذلك في المغرب إلا بقايا قليلة اندرجت في السكان ، ولا نسمع بعد ذلك عن حركة ذات شأن لهم .

تنظيم الإدارة الإسلامية في المغرب وبنائية التحول لتفعل لأهل البلاد إلى الإسلام ؛

هكذا أتم حسان بن النعمان فتح أفريقية والمغرب الأوسط ، ورأى أن عليه قبل أن يسترسل في الأعمال العسكرية أن ينظم هذه البلاد الواسعة التي دأبت للإسلام بعد ما يقرب من ٦٠ سنة من الصراع الدموي ، فقد بدأ فتح المغرب على يد عمرو بن العاص سنة ٢١ هـ / ٦٤٢ م وهما نحن مع حسان بن النعمان عام ٨٢ هـ / ٧٠١ م .

وبعد تنظيم مدينة القيروان وإعادة بناء مسجدها وتوسيعها على نحو تتسع معه لجموع العرب والمسلمين أتى سكنتها ، نظر حسان في موضوع التنظيم الإداري والمالي

وهنا واجه حسان مشكلة لم يواجهها غيره من حكام المسلمين في الغرب إلى الآن . ذلك أن الذين فتحوا مصر مثلاً دخلوا بلداً منظماً بالفعل من الناحية الإدارية مقسماً إلى ما يمكن أن تسميه مديريات أو محافظات ، وكانت تسمى في ذلك الحين بالكور جمع كورة ، فما كان عليهم إلا أن يدخلوا ما تنس إليه الحاجة من التعديلات على هذا النظام وتعريب الدواوين والنظم دون صعوبة تذكر ، هكذا فعل الذين فتحوا العراق أو فارس أو مصر وغيرها من البلاد ذات التنظيمات الإدارية والمالية المتوارثة القديمة ، أما في المغرب فقد وجد العرب أنفسهم في بلاد لم يسبق تنظيمها لا إدارياً ولا مالياً ، كذلك لم يسبق لها أن لأهلها أن عرفوا شيئاً يسمى تنظيمًا من أي نوع ، لأن أساس أي تنظيم من هذا النوع هي الوحدات الإدارية القديمة وعواصمها وما جرت به العادة قبل الفتح العربي في تسيير أمور الناس والدولة ، أما في أفريقية وطرابلس والمغرب الأوسط فما كان هناك تنظيم إلا على الساحل ، أما العرب فقد أوغلوا في البلاد وفتحوا مواطن البربر في دواخل البلاد وهم قبائل ، والقبائل لا تعرف العواصم ولا الضرائب ، لأن القبائل بطبيعتها لا يمكن ضبطها كما يضبط أهل الأراضي المزروعة . هنا نجد أن حساناً يلجأ إلى ما لجأ إليه المسلمون في تنظيم الجزيرة العربية ، فهذه أيضاً بلاد كانت قبائل ، وإذا كانت الوحدة الإدارية والمالية في بلاد الحضر هي الكور أو المديریات وعواصمها وما يتبع كل عاصمة من زمام أو حوز ، فإن الوحدة في بلاد البدو والقبائل هي القبيلة وتطابقها ومجالها الحيوى ، لأن القبائل كما سبق أن ذكرنا تعيش في صحاريها ولكل منها مجالها ، والمجال يتحدد بموارد المياه ومواضع الكلأ التي توجد في المجال ، والقبيلة تتحرك طوال العام في محالاتها حسب نظام معروف في الحياة البدوية ، وهي ليست حياة فرضى وبدائية مطقة وإنما هي حياة منظمة وفق النظام المعروف في كل مناطق البدو في الدنيا ، ومن الخطأ أن نتصور أن هناك قبيلة كانت تنتقل في شبه الجزيرة باستمرار وبدون توقف ، لأن ذلك منطقياً غير ممكن ، واجتماعياً مستحيل . ولم نسمع قط أن قبيلة عربية خرجت من حضرموت واستمرت في التنقل حتى الشام . وإنما كنت هناك لكل قبيلة منطقتها الخاصة بها المعترف بها من جاراتها ، ويعيرون لها في هذه المنطقة ملك للقبيلة وهي تنتقل في مجالها هذا بقطعانها وخيامها وكلما أتت

القضبان الحشائش في موقع انتقلت القبيلة إلى غيره في محالها . وكانت العدة من يكون لكل قبيلة في محالها مشتى ومصنف فالمشتى في القيعان والوديان حيث يتجمع ماء المطر وتثبت الحشائش ، والصيف في أعالي التلال ولجبال وسطوحها حيث الجو مقبول محتفل في الصيف والحشائش التي نبتت على أمطار الشتاء جافة تصلح للرعى .

لهذا نجد أن الفاتح العربي للمغرب رأى أن أحسن الطرق لتنظيم هذه البلاد هو أن يعتمد على الخطوط الرئيسية للتنظيم السياسي القديم الذي كان لا يشمل إلا جزءاً صغيراً من الساحل ، فأقر تنظيمه على ما جرى الأمر عليه مع تعدين طفيف اقتضته ظروف الدولة مثل نقل العاصمة من قرطاجنة إلى القيروان .

وبعد ذلك قسم العرب الدواخل على أساس منازل القبائل ، أي اعتبار مجال كل قبيلة كبيرة قسماً إدارياً والاتفاق مع رؤساء القبائل على مقادير الجبايات ومواعيدها وتكليف أولئك الرؤساء بحماية القضاة والموظفين الآخرين الذين ترسلهم الدولة ومعاونتهم على تنفيذ أحكامهم والقيام بمسؤوليات وظائفهم .

وبطبيعة الحال في بلاد مثل بلاد المغرب تنقسم طبيعياً إلى أشرطة أو مناطق عرضية موازية للسواحل تقريباً ، وقد ذكرناها فيما سبق ، كان لابد من اتخاذ بعض المدن والقرى الصغيرة الداخلية القائمة في هذه النطاقات أساساً من أساس التنظيم ، أي اعتبارها قواعد إدارية لما يحيط بها من الأراضى ، وعلى هذا فإن حسان بن النعمان قسم بلاد المغرب إدارياً كما يلي :

١ - فيما يتصل بإقليم برقة وهو الذي قلنا إنه يعرف في القديم باسم سيرينايا (يسمى حالياً باسم إقليم بنغازي) هذا الجزء اعتبر تابعا لمصر من الناحية الإدارية والمالية ، ولكننا لا نلاحظ أثراً لذلك فيما يمر بنا من أحداث الفتح وعصر السيادة ، بمعنى أن برقة أصبحت إقليماً في الظل ، يختفى في معظم الأحيان ولا يظهر إلا في مناسبات قليلة ولا نكاد نسمع به إلا ابتداء من الغزوة الهلالية ، وما كان لبعض بطون الهلاليين وحلفائهم من شأن فيها ، وفيما عدا ذلك فإننا لا نسمع ببرقة إلا قليلاً ، ومع ذلك فمن الثابت أنها كانت وحدة سياسية قائمة بذاتها ، والأرجح أنها كانت مستقلة عن كل سلطان خارجي وإن لم يكن

لدينا تاريخ لها في تلك العصور الأولى ، وكانت تمتد من ساحل البحر إلى زويلة في الداخل الشرقية لإقليم قزان ، وكانت قاعدته السياسية مدينة برقة ، ولكن كتب الرحالة تحدثنا عن انتظام الحياة القبلية في الإقليم وأردشار مدنه التي كانت في نفس الوقت محطات قوافل تمتد في حدود عمل صرت إلى السلوم ، وهي المدخل إلى مصر . هنا عاشت دائماً قبائل لواته وهوارة ومن نزل بلادها من مهاجرة العرب . وقد هاجرت مع الفتح جماعات من بواته وهوارة غرباً .

٢ - وبلى ذلك غرباً إقليم طرابلس ويشمل المساحة الممتدة من بلدة صرت إلى صيرة قرب الحدود التونسية الحالية وعاصمة هذا الجزء الذي يسمى طرابلس وينقسم إقليم طرابلس بصفة عامة إلى الأقسام الإدارية التالية ويسمى كل منها عملاً والجمع أعمال وهي :

(أ) عمل صرت . (ب) عمل طرابلس .

(ج) عمل صيرة . (د) جبل نفوسة .

وقد سبق أن ذكرنا أن جبل نفوسة كان في ذلك العصر حبلاً مسكوناً كثير الزروع والمراعي ، وكانت تسكنه قبيلة نفوسة وهي أكبر القبائل البربرية في ذلك الإقليم وسيكون لها دور كبير في تاريخ المغرب الإسلامي وخاصة في تاريخ دولة بنى رستم الخارجية الإياضية ، لأن النفوسيين دخلوا ذلك المذهب وثبتوا عليه وكان لهم فيه تاريخ طويل

٣ - إقليم قزان : وهو في الداخل على بعد نحو ٨٠٠ كم من الساحل ويمتد هذا الإقليم حتى يتصل بإقليم صحراوي آخر خارج عن بلاد المغرب هو إقليم كوار ، وهو إقليم واحسات يصل المغرب بأفريقية الإدارية عند إقليم تشاد الحالي .

وكانت قزان دائماً إقليمًا عامراً بالواحات والحدن والقرى والمياه وسيهتم به العرب اهتماماً خاصاً وسينشرون فيه الإسلام وسيكون له تاريخ محيد في العصور الإسلامية .

٤ - إقليم أفريقية - وعاصمته القيروان - : ويبدأ عند بلدة قاس ويمتد غرباً

حتى ينتهي عند حدود ما يعرف اليوم بولاية قسطنطينة الحالية .

ولكن مصطلح أفريقية يطلق في التقسيم الإداري العربي على ثلاثة أقسام

أولها عمل طرابلس الذي ذكرناه بحدوده ، ثم عمل أفريقية الذي يقابل بلاد تونس الحالية ، وإلى ذلك شرقاً عمل الزاب أو إقليم الزاب ، وهو الجزء الشرقي من جمهورية الجزائر الحالية ، وحده الغربي مجرى نهر شلف وهو نهر صغير يتبع من جبال الأوراس جنوبى مدينة الجزائر الحالية ، ثم يسير شمالاً حتى إذا اقترب من البحر قرب موقع مدينة الجزائر انحرف إلى الغرب وسار بمحاذاة الساحل حتى يصب في البحر المتوسط قرب وهران الحالية . والمجرى الأعلى لنهر شلف الذي يسير من الجنوب إلى الشمال هو الذى يمثل الحد الفاصل بين إقليم أفريقية بأقسامه الثلاثة (طرابلس وأفريقية والزاب) والمغرب الأوسط .

٥ - المغرب الأوسط : ويشمل المساحة الممتدة من المجرى الأعلى لنهر شلف إلى مجرى نهر المولوية ، وهو نهر يتبع من جبال الأطلس جنوبى المغرب الأقصى ثم يتجه شمالاً حتى يصب في البحر المتوسط إلى الشرق من ميناء مليلة الحالية وهو الحد الفاصل الطبيعى بين المغربين الأوسط والأقصى وإن كانت الحدود السياسية للمغرب الأقصى تسير اليوم شرقى هذا النهر فتدخل فيه مناطق وجدة وجراوة وتاوريرت ، أى أنها تمتد اليوم مسافة قليلة شرقى بحرى نهر المولوية .

٦ - ما بين ذلك إلى الغرب وحتى المحيط أطلق عليه اسم المغرب الأقصى ، واعتبر حسان القبائل في هذا الإقليم وحدات إدارية ، أى أنه قدر الأموال عليها على أساس لقبائل النازلة فيها ، فكل قبيلة عليها قدر من المال تؤديه ، وكان يدفع في الغالب عيناً ، وجرت العادة في ذلك العصر على أن تقدم القبائل مقاتلين ينضمون إلى القوة العسكرية العربية العاملة في المغرب ، ويعتبر تقديم أولئك المقاتلين جزءاً من المال المقرر على القبيلة ، ونتيجة لذلك كثرت انضمام البربر إلى الجيوش العرسة على نحو لا نجد له مثلاً فيما فتحه العرب من البلاد إلى ذلك الحين إلا في إيران وبلاد الترك ، والنتيجة أن الجيش العربى أو الجيش الإسلامى العامل في المغرب تضخمت أعداده بهذه الجموع البربرية . ومن البديهي أن البربرى الذى يدخل في الجيش الإسلامى يعتنق الإسلام ، ولهذا كان ذلك من أكبر العوامل في إسلام أهل

المغرب . ونقطة البداية الواضحة هنا هي القوة التي انضمت إلى حسان ، مع وادي الكاهنة ، وعددها اثنا عشر ألف رجل ، تولى قيادتهم ابنا الكاهنة ، وقد سميت الجماعة البربرية التي انضمت إلى جيوش المسلمين بالرهائن ، ولم يكونوا في الحقيقة رهائن ، وإنما هم ضمان لطاعة بقية أهلهم في مواطنهم .

بعد ذلك رأى حسان أن يتم فتح أفريقية ، فقرر إزاحة مدينة قرطاجنة تماماً حتى يبلّش أمر الروم في أفريقية والمغرب ، وبالفعل خرب حسان ما بقي من قرطاجنة ذات التاريخ القديم الباهر ، فلم يعد لها بعد ذلك أثر يذكر ، غير أن الفرنسيين عندما احتلوا إقليم تونس أحيوها من جديد في صورة ضاحية لمدينة تونس ، عرفت بأسمها الفرنسي وهو قرطاج ، وقد أصبحت جزءاً من مدينة تونس

ورأى حسان أن المغرب أو أفريقية لا تستغنى عن ميناء كبير ، لأن أفريقية إقليم بحري ، وإذا نظرنا إلى الخريطة وجدنا أنها في جملتها عبارة عن شبه جزيرة داخل البحر ، وسواحلها الشرقية وأشماليه مليئة بالموانئ الطبيعية الصغيرة والكبيرة ، ولهذا كان لا بد لحسان من أن ينشئ لأفريقية ميناء يحل محل قرطاجنة .

إنشاء ميناء تونس :

اختار حسان لإنشاء الميناء الإسلامي الجديد موضعاً يقع إلى الجنوب الغربي من قرطاجنة ، ونظراً إلى أن العرب كانوا ينشئون المدن على أساس صحراوي تقريباً ، أي إنهم كانوا يشترطون في المدينة أن لا ينشئونها أن تكون وسط إقليم مزراع لحاجة الخيل والجمال ، فإن حساناً وجد نفسه مضطراً إلى مخالفة التقليد العربي عندما أراد إنشاء الميناء الجديد . كانت هذه أول مرة ينشئ فيها العرب ميناء ، وجمعاً بين ما يتطلبه إنشاء ميناء من ضرورة وجودها على الساحل وبعدها عنه في نفس الوقت اختار حسان موضع سبخة تقع على الساحل ، والسبخة هي منطقة رملية ، ولكن رمالها ليست سائلة بل رمال ثابتة متماسكة بفعل الرطوبة .

وكانت هذه السبخة تمتد من الساحل إلى مسافة كبيرة في الداخل ، فرأى

حسن أن موقعها يصلح لإنشاء مينائه ، واختار موضع إنشاء الميناء عند نهاية السبخة من داخل الأرض ، وشق في رمال السبخة قناة واسعة عميقة تخترقها من ساحل البحر إلى نهايتها عند التقائها بالأرض الصلبة ، وجعل القناة من السعة بحيث تسمح بدخول عدد من المراكب وخروجها ، وبذلك أصبحت الميناء آمنة من هجوم من ناحية البحر ، لأن بينها وبين البحر هذه السبخة التي تشققها القناة ، وقد بدأ حسان بإنشاء دار الصناعة أي مصنع بناء السفن ومساكن العمال والبحريين ، حول السبخة ، واستعان في إنشاء دار الصناعة بعدد من أقباط مصر أرسلهم إليه وإلى مصر وسميت الميناء الجديدة « تونس » لأنه كانت توجد قرب موضعها قرية قديمة تسمى تينس . وكانت السبخة تقع على جزء من خليج واسع يسمى خليج راديس وقد عمر البناء بسرعة وتحول إلى مدينة من أعمر مدن أفريقية وميناء من أكبر موانئ الإسلام في البحر المتوسط .

بإنشاء ذلك الميناء والفضاء على قوة الروم ومينائهم ، دخل تاريخ أفريقية الإسلامية في دور جديد ، ولهذا يعتبر حسان بن النعمان العسائي من أكابر بناء الدولة الإسلامية ، فهذا التنظيم الإداري والحالي ، الذي وضعه لأفريقية ، حول هذه الناحية أو هذه الولاية الجديدة ، إلى قاعدة إسلامية ينسق منها العرب إلى ما يليها غرباً ، ثم إن ميناء تونس فتح أبواب أفريقية من جديد لتستعيد مركزها القديم في البحر المتوسط .

وبينما كان العمل في إنشاء تونس يسير في طريقه ، كان حسان يواصل عمله في هدوء ، فأعاد تنظيم القيروان وأصلح مسجدها ووسعه ، ثم فوجيء بقرار عزله وقد تم إنشاء تونس عام ٨٤ هـ / ٧٠٢ م

جاء قرار العزل بعد أربع سنوات من قضائه على الكاهنة ، وبعد سنة واحدة من إنشاء تونس . ولم يكن عزله عن قلة كفية ، وإنما كان السبب أن وإلى مصر وهو عبد العزيز بن مروان أخو الخليفة عبد الملك بن مروان وولي عهده ، عندما رأى ازدهار أفريقية وتحولها إلى قطر غني فيه إمكانيات واسعة للفتوح والمكاسب والمعاصم صمم فيها لنفسه ، وكان عبد الملك بن مروان - الخليفة الأموي - يدارى أخاه ، لأنه كان يرجو منه أن يتنازل عن ولاية العهد لابنه الوليد ، لذلك فعندما

عزل عبد العزيز بن مروان حسان بن النعمان لم يتوقف الخليفة في الأمر ، وتلقى حسان قرار العزل بنفس طيبة وإن كان ذلك قد أغضبه ، وعاد إلى مصر ، وهناك حاول عبد العزيز بن مروان أن يسترضيه لرفض ذلك ، وعرض عليه عبد الملك أن يردّه إلى ولايته فأبى وأقسم ألا يلبى لبني أمية عملاً بعد ذلك ، وعلى أي حال فقد كان حسان إذ ذاك شيخاً على السن ، ولم يكن يعنيه كثيراً أن يدخل في مناقشات تفسد الأمر بينه وبين بني أمية ، وهكذا عاد إلى قومه في الشام ولم نعد نسمع عنه شيئاً بعد ذلك رغم العمل الكبير الذي قام به كما رأينا ، وبصفة عامة نلاحظ أن الدولة العربية في ذلك العصر كانت شديدة الإهمال والتهاون في شأن عظماء الرجال الذين ساهموا بانصبه كبيرة في إقامة دولة الإسلام .

ولاية موسى بن نصير :

وكان الرجل الذي اختاره عبد العزيز بن مروان لولاية أفريقية شخصية فريدة في بابها من كل ناحية وهو موسى بن نصير ،

وموسى هو أحد أولاد نصير الذي كان من أسرى بلدة صغيرة في بادية الشام شرقي العراق تسمى عين التمر ، أسرّه خالد بن الوليد فأسلم على يديه وأصبح من رجاله ، ونشأ ابنه موسى في جو عربي إسلامي فنحده يستعرب ويأخذ كل أخلاق العرب حتى حسبه المؤرخون في جملة العرب ونسبوه إلى قبيلة لخم ، وهو نفسه نسب نفسه إلى الانتصار ، إلا أن أصله غير العربي يتلشى أمام شخصيته العربية التي ظهر بها في التاريخ ، فإننا نجد أنفسنا أمام شاب عربي يتدخل في السياسة والحرب ويعمل في خدمة بني أمية ويشترك في السياسة والإدارة فنسمع عنه أنه تولى رئاسة حرس معاوية بن أبي سفيان ثم نجده بعد ذلك في خدمة عبد الملك بن مروان ، فبرسله مساعداً لأخيه الأصغر بشر بن مروان الذي ولوه البصرة . وكان بشر شاباً صغيراً تولى البصرة على رغم احتجاج الحجاج ولهذا كان الحجاج يكره موسى بن نصير ويتهمة بأنه يمد يده إلى الأموال ، وفي يوم من الأيام طأله الحجاج بمبلغ ضخم واتهمه بخيانة الدولة فهرب ولجأ إلى عبد العزيز بن مروان وإلى مصر فأدى عنه حزناً كبيراً من ذلك المال وأصطنعه ثم ولاه أفريقية .

وقد أنكر عبد الملك هذا الاختدار ولكن عبد العزيز أكد لأخيه أن مرشحه يفوق حسناً ومن سبقه في النشاط والقدرة المالية ، ومن ناحية أخرى نجد أن موسى تعهد لعبد الملك بغنائم وتغوث تفوق كل من سبقه ، وهذا الوعد من ناحيته كان ضرراً عليه في النهاية ، لأنه اضطره إلى أن يقوم بنشاط واسع في الناحية العسكرية في أفريقية دون أن تكون هناك ضرورة ، فإن الناس في المغرب كانوا مستعدين كسافة للدخول في الإسلام دون حرب ، ولكن ذلك لم يكن يحقق أطماع موسى إذ أنه كان يحول بينه وبين الحصول على الغنائم .

لهذا فإن أعمال موسى بن نصير العسكرية في حملتها كانت كثرة جداً في أفريقية ، ولكن الهدف الأساسي منها كان تقوية مركزه الشخصي في الدولة بالعمل المتوالي وإرسال مقادير ضخمة من الأموال والأسلاب والمغانم ، ومن بعض النواحي نجد أن ذلك المسلك أضر بموسى في النهاية ، ويزيد من مسئولية موسى أنه كان له أولاد كثيرون كلهم طامعون مثل أبيهم ، فكثر الضربات التي وجهوها إلى القبائل دون حاجة ، ومع أن تلك الضربات انتهت آخر الأمر بإتمام فتح المغربين الأوسط والأقصى إلا أنها تسببت بعد ذلك في أضرار كثيرة للدولة الإسلامية في عصر الولاة ، فقد رأى البربر أن العرب قوم قساة أصحاب مطامع مالية ومادية ، وما كانوا في الحقيقة كذلك ولكن تلك كانت عاقبة سلوك موسى .

وسنرى أن ذلك سيكون من أسباب الفتنة البربرية الكبرى التي ستقوم قرب نهاية العصر الأموي في أيام هشام بن عبد الملك بن مروان .

أعمال موسى بن نصير في أفريقية والمغرب :

٨٥ - ٩٥ هـ / ٧١٤ - ٧١٤ م :

بدأ موسى بن نصير بتوجيه ضربة شديدة إلى جماعة من البربر كانت تسكن في منطقة حصينة إلى الغرب من مدينة تونس الحالية ، تسمى بجبل زغوان ، وهناك أنزل مذبحه باناس ، وأسر ألوفاً من الرؤوس كما تقسمون النصارى . ولا نعرف إن كان المراد هنا أسرى من البشر أو آب الإشارة إلى مواش نهبت ، على

أى حال أرسل موسى بن نصير غنائم واغرة إلى عبد العزيز بن مروان فاستعظمها ولم يصدق كتاب موسى عندما ورد إليه ، وهذه الضربة العنيفة أقنعت عبد الملك بأن هذا الوالى الجديد كفه وقدير للولاية كما تحدث عنه عبد العزيز بن مروان .

تشجع موسى بذلك فأخذ يرسل أولاده في قطع من الجند تنزل بالناس ضربات كهذه تعود بالغنائم الوفيرة . وكل هذا نفّر الناس من المسلمين وإن كان قد عاد على موسى ومولاه بأموال كثيرة ، وقد أضر موسى بنفسه ضرراً بليغاً بذلك لأنه ما دام قد بدأ تلك البداية فكان لابد له من أن يستمر فيها ، وذلك أمر عسير . ثم سار موسى في اتجاه الغرب ووصل إلى بلدة صغيرة تسمى سجوما على مقربة من تطوان الحالية ، وكانت هذه البلد هي مفتاح الطريق ، وبعد الاسيلاء على سجوما ونهبها ، انفتح الطريق إلى طنجة وسبتة فدخل المسلمون هاتين الميثلتين اللتين تعتبران مفتاحي البحر المتوسط ، وهذه هي المرة الثانية التي يصل فيها المسلمون إلى شاطئ الأطلسي .

هنا التقى المسلمون مرة أخرى بيليان ، وكما قلنا سابقاً فإن ذلك الاسم كان تسمية عامة أطلقها المسلمون على حاكم هذه المنطقة أيا كان .

على أي حال تفاهم المسلمون مع بيليان فهادنهم أو حالفهم ، وعاونهم بأمداد عسكرية قليلة . هنا في بلاد المغرب أنشأ موسى بن نصير ولايتين إسلاميتين جديدتين :

الأولى : في المغرب الأوسط وتبتدئ من نهر شلف إلى نهر المولوية وسميت بالمغرب الأوسط قاعدتها تلمسان ، وأقيم عليها وال ، ومعه جامية عسكرية من العرب والبربر .

والثانية : تمتد من نهر المولوية إلى ساحل المحيط الأطلسي وتمتد جنوباً على وادي أم الربيع وتسمى بالمغرب الأقصى أو ولاية طنجة ، وقاعدتها طنجة ، ويقيم فيها وال ومعه قوة عسكرية عربية بربرية .

وعلى هذا تكون ولايات المغرب العربي قد أصبحت كما يلي :

١ - **يرقنة :** وكانت تابعة لمصر أو غير واضحة التبعية .

٢ - أفريقية : وتشمل طرابلس - وتبدأ عند قرية صغيرة إلى الغرب من صرت تسمى تاوريغا وتنتهي عند قايس ، ثم أفريقية وتشمل ما يقابل بلاد تونس الحالية تقريباً ، وإقليم الزاب وهو شرقي الجمهورية الجزائرية الحالية إلى مجرى نهر شلف ، وهذه الأقسام الثلاثة تسمى معاً أفريقية .

٣ - المغرب الأوسط : ويمتد من مجرى شلف إلى مجرى المولوية .

٤ - المغرب الأقصى : ويشمل مايلي ذلك من البلاد المغربية إلى ساحل الأطلسي غرباً وإلى وادي أم الربيع جنوباً .

وأقدم موسى على صنجة ابنه مروان ، ثم بعث حملات أخرى غزت المناطق الواقعة جنوبى وادى أم الربيع ، ووصلت بسلطان المسلمين إلى أقصى انحاء المغرب من ناحية الجنوب ، وهنا أنشئت ولاية جديدة تسمى سجلماسة . وسجلماسة هي الواحة الكبرى التى تتكون منها مجموعة من الواحات يطلق عليها فى مجموعها اسم تافيلالت ويتكون منها إقليم زراعى خصب وافر المياه على أبواب الصحراء الكبرى ، وبعدها مباشرة - أى بعد سجلماسة - تبدأ الصحراء التى لا تنتهى إلا عند حوض السنغال ، وهناك كانت تقوم مدينة تسمى أودغشت وكلا البلدين كان محطة تجارية كبرى لمن يقطعون الصحراء . وكانت الصحراء الكبرى فى هذه الناحية الساحلية مأهولة إذ ذاك بقبائل هى خليط من البربر وسكان أفريقية المدايرية ، وهذه القبائل كانت تدخل ضمن المجموعة الصنهاجية . وهنا فى ذلك الإقليم الصحراوى ستنشأ حركة المرابطين فى القرن الهجرى الخامس ، ومعنى ذلك أن قوة اندفع الإسلامى وصلت إلى ذلك البعد السحيق فى ذلك التاريخ المبكر .

وهنا أى فى منطقة السوس أنشأ موسى الولاية الإسلامية الرابعة التى تسمى السوس أو سجلماسة وعاصمتها عند منابع نهر المولوية ، وقد ولى موسى على هذه الولاية الجديدة مولاه طارق بن زياد الوردفحومى ، وتلك هى المرة الأولى التى نسمع فيها باسم ذلك الرجل الذى سيكون له دور كبير فى تاريخ الإسلام عندما يتولى فتح الأندلس .

وعلى هذا يكون لدينا في المغرب الإسلامي الولايات التالية :

١ - بركة .

٢ - أفريقية : وتشمل أعمال طرابلس وأفريقية ثم إهديم الزاب وتصل إلى نهر شلف وعاصمتها القيروان

٣ - ولاية المغرب الأوسط : بين نهر شلف ونهر المولوية وعاصمتها تلمسان .

٤ - ولاية المغرب الأقصى : وعاصمتها طنجة .

٥ - ولاية السوس أو سجلماسة : وعاصمتها سجلماسة .

وعاد موسى إلى القيروان بعد أن وضع الأساس الإداري للمغرب الإسلامي وتنظيمه ، فبنى عاصمة كل ولاية من هذه أقيمت قاعدة عربية إسلامية على رأسها وال ، واستقرت جماعات من العرب فيها لتعلم أهل الناحية قواعد الإسلام ، وفي نفس الوقت أخذت العربية في الانتشار بين الناس ، وذلك لأنه على الرغم من تلك الأعمال العسكرية العنيفة التي قدم بها موسى بن نصير وأولاده وقواده ، إلا أن البربر شعروا بقيمة الإسلام لما قبلوا عليه ووجدوا في دولته مكاناً واسعاً للعمل ، وبعد أن كانوا قبائل يعيش على هامش التاريخ دخلت ميدانه النواصع ، وأصبح رجال القبائل البربرية أعضاء في الجماعة الإسلامية العربية وبدأ التاريخ الحقيقي لشعب البربر الكبير بعد إسلامه وتعربه ، الذي استلزم كما سنرى وقتاً طويلاً ، ولا بد من الإشارة إلى حاذبية الإسلام وقوة أسره التي تمكنت من إدخال هؤلاء الناس في نفاق العروبة والإسلام .

في ذلك الحين كانت سن موسى تقارب السبعين من العمر ، ولكنه كان قوياً نشيطاً ، فأعاد بناء ميناء بوس ، واهتم بدار صناعتها (وهي اميناء ومكان بناء السفن) وهي ما نسميه نحن اليوم ترسانة ، وهي لفظة إيطالية محرفة من المصطلح العربي دار الصناعة (ترسانة) ، ومن هذا الميناء الكبير بدأ المسلمون غاراتهم الأولى على صقلية وجزيرة سردينيا ، كانت غارات سريعة تعود على من يقومون بها بمغانم وفيرة ، ولكنها تبدأ نشاط المسلمين الواسع في الحوض

العربي للبحر المتوسط الذي كان يتحول إلى بحيرة إسلامية شديدة شمساً وخبثاً بعد فتح الأندلس الذي ستحدث عنه بعد قليل ثم فتح صقلية الذي بدأ في أوائل القرن الهجري الثالث .

وبعد قليل نسمع أن مروان بن موسى بن نصير سثم المقام في طنجة فنقله أبوه وولى مكانه طارق بن زياد ، فاستقر هناك على رأس حامية إسلامية غالبية أهلها من البربر ، وهكذا نرى كيف نجح الإسلام في تأمين جناحه الغربي بقوة من قوم لم يكونوا مسلمين ولا عرب قبل حين قصير ، وطارق بن زياد يمثل لنا الحيل الثالث من البربر المسلمين المستعربة ، فهو طارق بن زياد بن عبد الله وبقيّة الأسماء في نسبه بربرية ، ويقال مثل ذلك عن قائد آخر عمل مع موسى وطارق يسمى طريف بن زرعة بن أبي مدرث . وبعد ذلك وابتداء من سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م فتح طارق وموسى الأندلس على النحو الذي ستفصله في القسم الخاص بالأندلس من هذا الكتاب .

وبينما كان موسى يتم فتح شبه جزيرة « أيبيريا » وقع خلاف بينه وبين طارق بن زياد ، وبلغ الأمر إلى الخليفة الوليد فاستدعاهما معا . وعاد موسى ، ذلك الشيخ الفريد في بابه من أقصى جليقية (جاليسيا) وهي الركن الشمالي الغربي من شبه جزيرة أيبيريا إلى الشرق . ومن الغريب أنه في عودته كان يظهر للناس في هيئة سيد عربي عظيم ، وكلما نزل بلدة ضرب فسطاطه (خيمته) خارجة واستقبل الناس استقبال سيد عظيم . وكذا فعل في أشبيلية وتلمسان والقيروان والقسطاط ، ثم وصل إلى غرة ومعه طارق ، وهناك جاءه رسول من قبل ولي العهد سليمان بن عبد الملك يطلب إليه التريث قبل السير إلى دمشق ، لأن الخليفة الوليد كان مريضاً مريض الموت ، وكان خليفته وولي عهده أخوه سليمان يريد أن يتسلم الهدايا والمغانم الواقعة التي كان موسى يحملها معه ، ولكن موسى ، ذلك المغامر الشيخ قدم بحظه السعيد مرة أخيرة وأسرع السير إلى دمشق وكانت المنية قد سبقته إلى الوليد بن عبد الملك وخانه الحظ هذه المرة ، وعندما وصل إلى دمشق وجد أن الخليفة هو سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ هـ / ٧١٥ - ٧١٧ م) فاستقبله شراً استقبال . وأخذ منه كل ما وجد معه وأغرمه مالا

وفيراً ، فمضى ذلك الرجل ، الذى أضاف إلى دولة الإسلام المغربين الأوسط والاقصى ثم كل شبه جزيرة ايبيريا ، يسأل القبائل لكى يحصل على الفدية ، وكان في حوالى السابعة والسبعين من عمره وكان رجلاً يديناً ، يقام في الشمس دون رحمة أو هودة حتى أدى ما يسره الله له ، ثم سامحه سليمان بالباقي واتخذة تديماً ، ولكن موسى كان قد كره الدنيا والناس ولم يسعد مع سليمان ، وبعد ذلك لم تعد تسمع عنه ، ومات في ظلال النسيان ، أما طارق العظيم فقد اختفى هو الآخر من الوجود في صمت ، ولكنه بقى في التاريخ ، مثله في ذلك مثل غيره من متشئى دولة الإسلام الذين قضى عليهم سليمان بن عبد الملك من أمثال قتيبة بن مسلم الباهلي ومحمد بن القاسم التغفي ، هؤلاء الذين رجعوا إلى الإسلام إلى داخل غروب الصين وإلى بلاد السند وهي شمال غربي الهند فيما يعرف ببلاد الباكستان ، كل هؤلاء قضى عليهم خليفة حقود ، ضئيل لهينة زرى الشكل ، وهو سليمان بن عبد الملك

وفي نهاية ولاية موسى بن نصير تنتهى فترة الفتح في تاريخ المغرب الإسلامى وهي فترة طويلة تصل إلى فوق السبعين سنة ، فنحن الآن في سنة ٩٨ هـ / ٧١٦ م وفتح المغرب بدأ سنة ٢١ هـ / ٦٤٢ م ولهذا فإننا نعتبر فتح المغرب عصرأ قائما بذاته من عصور تدريخ المغرب في حين أن فتح مصر استغرق سنتين ، وفتح الشام استغرق حوالى أربع سنوات ، وفتح لعراق وإيران لم يستغرق أكثر من ثمانى أو تسع سنوات ، تنتهى بمعركة نهاوند التى تسمى بفتح الفتوح .

عصر الولاة

يطلق مصطلح عصر الولاة في التاريخ الإسلامي ، على الفترة الواقعة بين تمام الفتح الإسلامي للبلد ، وقيام أول دولة مستقلة فيه ، أيا كانت صورة هذا الاستقلال ، فحتى في الحالات التي يكون ذلك الاستقلال فيها اسمياً أي داخلاً في إطار التبعية العامة لدولة الخلافة ، فإن هذا الوضع الجديد يستتبع تغيرات أخرى في نظام البلاد الداخل وعلاقته بالخلافة ، بل إنه في الحالات التي عاد البلد فيها إلى التبعية للخلافة ، فإن هذه التبعية لا تكون دسمة قط كما كانت قبلاً ، وفي العادة إذا تغيرت الأوضاع السياسية في بلد فلن تعود إلى ما كانت عليه قبلاً قط .

ففيما يتعلق بمصر مثلاً ، ينتهي عصر الولاة بقيام الدولة الطولونية في مصر سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م . ومع أن ابن طولون لم يستقل استقلالاً تاماً ، فإن مصر لم تعد ولاية عباسية تامة الخضوع للدولة كما كانت قبلاً حتى عندما زالت دولة بني طولون وعاد الحكم العباسي المباشر على يد القائد العباسي محمد بن سليمان سنة ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م .

وفيما يتعلق بالمغرب لا ينتهي عصر الولاة في تاريخ واحد بالنسبة لأقطاره المختلفة ، فقد انتهى عصر الولاة في المغرب الأوسط بقيام الدولة الرستمية الخارجية الإباضية سنة ١٦٤ هـ / ٧٨١ م ، وفي المغرب الأقصى بقيم الدولة الإدريسية سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م ، وفي إفريقية بقيام دولة بني الأغلب سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م .

ولقد طال فتح العرب للمغرب كما رأينا ، وفي أثناء مراحل هذا الفتح دخلت على البلاد تغيرات عديدة المدى ، فأسلم الكثيرون من أهلها وانضموا إلى جيوش الإسلام وأصبحت لهم بذلك كل حقوق العرب المجاهدين في سبيل الإسلام ، وانتقلت إلى المغرب جماعات من العرب واستقرت في نواحيها واختلطت بأهلها وصاهرتها وبدأ يظهر جيل بربري مسلم مستعرب ، نطلع إلى أن يكون له نصيب

في إدارة بلاده . ثم إن العرب أنشأوا لأفريقية قاعدة إسلامية تحولت بعد قليل إلى مركز إشعاع إسلامي .

وقامت في مساحدها حلقات الدراسات الإسلامية ، وبدأ الجو الثقالي العام في البلاد يتغير بتأثير الإسلام والعربية . ثم إن قيام القيروان مصراً عربياً مغربياً إسلامياً ، ذا تنظيم مدني واجتماعي جديد ، كان نقطة بداية لتغير عام في أوضاع المدن في أفريقية والمغرب كله . فهذه البلاد لم تعرف قبل العرب إلا المدن الإغريقية التي تلالش طابعها الإغريقي وخربت وتحولت إلى قرى ، والقواعد العسكرية الرومانية التي كانت قنشا إلى جوارها مدن رومانية صغيرة ثم القصور ، وهي انقري البربرية التي تتكدس فيها المبانى ويحيط بها السور . فجاء العرب بهذا الطراز الجديد من المدن الإسلامية القابلة للتطوير والتعديل بحسب حاجات البلاد وأهلها ، فأخذ الكثير من قرى المغرب وقصوره يتحول إلى مدن إسلامية ذات جاليات عربية وجماعات إسلامية ومساجد ومكاتب لتدريس العربية ونشر قواعد الإسلام .

كل هذه كانت تطورات تسير سيراً حثيثاً أثناء عملية الفتوح ، لأن المغرب الذي عرقه عمرو بن العاص يختلف كل الاختلاف عن المغرب الذي عرفه موسى ابن نصير . ولم يتسع المجال أثناء دراسة الفتوح لدراسة هذه التطورات ، ولهذا فلا بد من الإلمام بها ونحن ندرس المغرب في عصر الولاة .

ولا يمكن النظر إلى فتوح العرب للمغرب منعزلة عن غيرها من فتوح الإسلام التي عاصرتها ، فهذه كانت عملية واحدة لها أصداء بعيدة وتأثيرات متبادلة ومشاركة بين كل البلاد التي فتحها المسلمون . ولا بد أن نأخذ في الاعتبار أيضاً طبيعة الفتوح الإسلامية ، فهي لم تكن مجرد غزوات ولا غارات ، وإنما كانت فتوحاً بمعنى اللفظي لهذا المصطلح . أي فتح أبواب البلاد للإسلام وإدخال أهلها في الإسلام وتحويلها إلى بلاد إسلامية ، عقيدة وحضارة وعربية إذا تيسر .

وقد كانت هذه الفتوح بطبيعتها من أكبر أسباب متاعب العرب ، لأن اشعب من الشعوب إذا دخل في دولة الإسلام وأصبح شعباً مسلماً أو في ذمة الإسلام ، طالب الدولة بما يفرضه الإسلام نفسه من العدالة وحكم الشرع الإسلامي . فلهي

حالة دخول ناس من هذه الشعوب في الإسلام نجد أنهم يصبحون مواطنين في دولة الإسلام ، لهم كل حقوق العرب وعليهم كل واجباتهم ، وبطبيعة الحال لم يكن العرب مستعدين للاستجابة لهذه المطالب ، لا لأنهم كانوا ظالمين أو مسلمين غير صالحين ، بل لأن هذه هي طبيعة البشر ، فالعربي الذي فتح مصر مثلاً لم يكن مستعداً بعد تمام الفتح للتنازل عن شخصيته كفاتح ، وسيد له ، كما كان يتصور ، حق السيادة على الشعب الذي فتحه ولم يكن كذلك مستعداً لمنح أولئك المسلمين الجدد كل حقوقهم ومساواتهم بنفسه ، فهذه دولته والدين الإسلامي هو الذي حمّله وقاتل في سبيله ، ثم إنه عربي يتكلم لغة القرآن وقومه قوم الرسول ﷺ ، فكيف تطالبه بالتنازل سريعاً عن امتيازاته ؟ ولهذا قلنا إن المشكلة الكبرى التي واجهت العرب في عصر الفتوح هي الإسلام نفسه ، ومن الغريب أننا نلاحظ في أكثر من مناسبة أن المسلمين الجدد يتمسكون بالإسلام ويتعمقون العرب بالانحراف عن سبيله ، ويطالبونهم بتطبيق قواعد الإسلام ويحتجون عليهم بنص القرآن ، لا لأن العرب كانوا لا يذكرهم نصوص القرآن ، بل لأن ما كان القرآن يطلبه منهم ، كان يحتاج إلى وقت لكي يهضموه ويتقبلوه ويطبّقوه . فهم أولاً وقبل كل شيء بشر ، وقد كانوا في حاجة إلى وقت لكي تدخل قلوبهم بشاشة الإسلام ورحمته وإنسانيته ، وكان الكثيرون جداً من أولئك العرب الفاتحين قد أسلموا على عجل ، لم تتح لهم فرصة التفكير والتأمل حتى يصبح كياناتهم إسلامياً أو مسلماً حقاً ، ولهذا فقد انحرفوا عن جادة الإسلام ، لا عن كفر أو سوء نية بل عن سوء فهم وقلة علم ، فظلت الجاهلية قائمة في نفوسهم زمناً طويلاً .

وعندما ننظر إلى المشاكل التي واجهت المسلمين في مهجرهم الجديدة ، وننظر إلى الخلفية التي تكون فيها رجال ، مثل الحجاج بن يوسف الثقفي أو زياد ابن أبيه أو عبيد الله بن زياد ومن إليهم من كبار ولاة الدولة الأموية ، نجد أن نوع التكوين الذي حصلوا عليه ليس فيه ما يعين على مواجهة مشاكل الحكم ، فمثلاً إذا كان هناك وال على العراق مثل الحجاج الذي يوصف بأنه ظالم وجبر فنلاحظ أن ذلك الرجل موظف عام ، أي أنه يتصرف في الحكم بحسب ما يصدر إليه من تعليمات الخليفة ، أو كما نقول اليوم الحكومة المركزية ، وهذه الحكومة مركزية

تطالبه بمبالغ معينة من الأموال ، وهي تطالبه أيضاً بمحاربة الخوارج من ناحية ومواصلة الفتوح من ناحية أخرى . وهنا نلاحظ كيف أن ذلك الرجل كان أمام مسؤوليات لا يستطيع النهوض بها كلها على السوية المثالي ، فإن الجبايات التي تتحصل له لا يمكنه إنقاص مقاديرها ، ثم إنه لابد أن يدفع منها رواتب لجنده ، ومن ناحية أخرى كان عليه أن يرسل فائضاً من المال للدولة المركزية ، في حين أن من يحكمهم في العراق لا يستطيعون أداء الأموال المطلوبة منهم ، أو كانوا يرون الإسلام وهو دين العدالة لن يتشدد رجاله معهم في شئون الجبايات ، ومن ثم فقد كانوا يرون ألا يجبي منهم مال الجزية ، ثم لأن مطالب الحياة كانت ترتفع ، لأن تكاليف حياة الناس تزداد كلما ارتفع مستواهم العام ، وبهذا فقد كانوا يطالبون بالتخفيف إلى أقصى حد ، في حين أن مطالب الدولة المالية كثيرة ومتزيدة حتى لا يستطيع التخفيف ، فكيف يوفق الرجل بين هذه المتناقضات كلها ؟ .

وفي المغرب — نلاحظ أنت أمام شعب يختلف عن كل ما وأحبه المسلمون (العرب) في غيره من البلاد التي فتحوها ، فهذا شعب يشبه العرب من حيث التكوين الاجتماعي والذهني ، فهذا قبائل ورجال وشيوخ قبائل كما هو الحال في جزيرة العرب .

والتفاهم هنا بين الحاكم والمحكوم يختلف في طبيعته عن التفاهم مثلاً بين الحاكم والمحكوم في مصر ، حيث العلاقة هي علاقة جاكم بفلاحين ، أي أصحاب أرض تخرج غلة معينة محددة إلى حد ما ، أما في المغرب فقد كان ولا بد أن يتغير معنى الرئاسة ، ولا بد أن تختلف علاقة الحكم بالمحكوم في نوعها فهنا علاقة زمالة في السلاح كما نقول ، ولا يستطيع العربي أن يخاطب البربري الذي أسلم وحارب في صفوف المسلمين كما يخاطب مزارعاً يقدم له غلة أرض ، ومن هنا فقد كن لابد من أن توضع سياسة خاصة بالمغرب ، ولكن من الذي يضع هذه السياسة ؟ هنا لا نجد مجالس أو لجاناً للدراسة ، وإنما نجد أمامنا حكاماً مطلوب منهم أن يجدوا حلولاً ، وحلولاً ناجحة لمشاكل عسيرة على الحل أو على الأقل يتطلب حلها وقتاً ، ولكن حاجات الناس لا تنتظر ، وبخصوصاً إذا كانت

حاجات معيشية ، فنحن لا نستطيع أن نقول للبربر وهم شعب كبير : انتظروا حتى تدرس الدولة مطالبكم ، ومن ناحية أخرى نجد أن الصراع في مركز الدولة على الحكم كان له أثر بعيد جداً على الأوضاع في الأقاليم ، فالمنهزمون في الصراع على السياسة يقرون إلى الأقاليم حيث يكونون بعيدين عن متناول الدولة ثم إن البلاد المفتوحة فيها مجالات واسعة للعيش ، ومن تلك الجماعات المنهزمة مثلاً الأنصار في المدينة ، فهؤلاء بدأت هجرتهم الجماعية إلى الولايات المفتوحة عقب انهزامهم في مناقشة المنافسة على الخلافة في سقيفة بني ساعدة عقب انتقال الرسول ﷺ إلى الرقيق الأعلى ، ثم توالى عليهم بعد ذلك الضربات من قبل خلفاء بني أمية ، وخاصة ما أصاب المدينة أيام عبد الملك بن مروان ، فنتج من ذلك هجرة جماعية من المدينة إلى الأقاليم المفتوحة ، كذلك العلويون ثم الخوارج ، هؤلاء جميعاً كانوا عندما يستقرون في ولايات مفتوحة ، يستقرون أعداء للدولة المركزية ، ويجتهدون في إثارة المشاكل ضدها وتشويه سمعتها ، وكان أكثر العاملين في ذلك هم الخوارج لأنهم موتورون من الدولة ولديهم حجج وآراء لتبرير موقفهم ، هؤلاء كانوا لا يكفون عن تحريض الناس على الحكومة الأموية وإطاعتهم على أحكام القرآن كما يفسرونها هم . وتفسيرهم يناسب آراء أهل الولايات ويرضى مطامحهم ، وفي حالة ما إذا كان الخارجى يتحدث إلى مقاتلين يتحول الغضب وعدم الرضا إلى تمرد عسكري ، وهذا هو الوضع الذى نجد أنفسنا في مواجهته بعد تمام فتح المغرب والأندلس

الفتنة المغربية الكبرى :

عندما تم فتح المغرب والأندلس كانت المشاكل قد توالى وتكاثرت ، فإن الدولة الأموية في سنة ١٠٠ هـ / ٧١٨ م ، كانت تعاني تغييراً حاسماً في أوضاعها في الداخل ، وفي علاقتها برعاياها في مركز الدولة والأقاليم ، فإن عمر بن عبد العزيز الذى حكم نيفاً وستين من سنة ٩٩ هـ / ٧١٧ م إلى سنة ١٠١ هـ / ٧١٩ م ، غير الوضع المالى في الدولة تغييراً تاماً ، عندما أنزل أو خفف مقادير الجبايات والغنى الأموال التى كان الموايش يشكون منها ، وانشجحه أن الإدارة الأموية بعد عمر بن عبد العزيز كان لابد لها من خليفة قادر يستطيع مواجهة

الوضع الجديد ، ولكن الخلفاء الذين تولوا كانوا أبعاد ما يكونون عن إدراك هذه الحقائق ، وبطبيعة الحال عندما يحزن الحاكم عن حل المشاكل بالمنطق أو بالعمل الإداري الخالص ، يلجأ إلى القوة والقوة تزيد المشاكل سوءاً ونادراً ما تحل مشكلة ، وفيما يتعلق بالمغرب نجد أنه بعد تمام الفتح وبداية عصر الولاة يختار الخليفة سليمان بن عبد الملك رجلاً عربياً من مدرسة الحجاج مسمى يزيد بن أبي مسلم ، فأراد هذا أن يسير في أهل المغرب بسيرة الحجاج مع أهل العراق ، ناسياً أنه في المغرب يتعامل مع مقاتلين مسلمين ورفقاء سلاح ، فكانت النتيجة أن قتلوه ، وواجهت الدولة طلائع ثورة في إقليم من أقاليمها الكبرى ، فلبت إلى معالجتها باللين ، فوافقت على التنازل عن الطلب بأخذ ثار الوالي المقتول ، وترك أهل أفريقية يختارون لأنفسهم والياً جديداً مؤقتاً ثم اختارت والياً على درجة كبيرة من الحكمة فاستقرت الأمور بعض الشيء ولكننا نواجه في المغرب مشكلة غريبة نعرفها في نواح أخرى من نواحي الدولة ، ولكنها هنا في المغرب والاندلس تأخذ شكلاً خطيراً ، لأن هذه المشكلة كانت تستعصى على الحل المقبول أمام الظروف الخاصة لمغرب والاندلس ، تلك هي مشكلة النزاع بين العرب الشاميين واليعنيين أو قيس وكنب (القيسية والكنبية) .

هذه المشكلة ، مشكلة القيسية والكنبية لم يعرفها العرب قبل الإسلام ، ولكنها نشأت عن طبيعة الظروف التي سادت أيام بني أمية ، فإن بني أمية أقاموا دولتهم على العرب ، وكان كل رجالهم ومقاتليهم من العرب ، وهؤلاء العرب هم عرب الشام ومن انضم إليهم . وعرب الشام كانوا ينقسمون إلى مجموعات قبلية بعضها قيسية وبعضها كنبية ، فكان بنو أمية لكي يضمّنوا لاستقرار وولاء الجند يلجأون إلى التفرقة بين الجانبين فيحاربون القيسية على اليمانية مرة ، ويحاربون اليمانية على القيسية مرة أخرى ، فاثاروا بذلك مشكلة عويصة جداً لأنهم أحيوا العصبية القديمة ولكن على تصاق الدولة السواسع ، ففي العصر الجاهل كانت العصبية عداوات قبائل ، أي أنها كانت محدودة من حيث العنف واتساع المجال ، ولكن بعد الإسلام لم تعد القبائل مجرد قبائل ، بل أصبحت أحلافاً واسعة من القبائل ، ثم إن موضوع النزاع في العصر الجاهل كان صغيراً

يمكن تلافيه ، ولكن بعد الإسلام أصبح موضوع النزاع ضخماً جداً ، وهو السيادة على الأقاليم أو على الدولة كلها ، وهذه النسبة تزداد حدة الصراع ويصبح عسيراً على الإرضاء ، خاصة إذا أضفنا إلى ذلك مشاكل العرب البلديين (عرب الأمصار) والعرب الشاميين (أى عرب الأقاليم) وعرب الدولة (أى حنظلة الرسمية) .

ولا ننسى هنا أثر الخوارج ومن إليهم من رجال الأحزاب الساخطة على يدوية العامة عن تأييب نفوس الدار وإثارتهم على الحكومة وفى النهاية يسعى الانفسى أن هذه المشاكل عندما ثارت ، كان العصر الذهبى للدولة الأموية قد ولى ، وأصبحنا أمام خلفاء لا يتميزون بأى قدرة ، ولا نجد فيهم من له كفاية إلا اثنين ، هشام بن عبد الملك وقد بذل مايسطيع لإصلاح الناحية المالية ثم مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وكان رجلاً قادراً ولكنه جاء بعد الأولون فلم يسطع أن يعمل شيئاً .

تلك هى الخلفيات التى ينبغى أن نضعها نصب أعيننا عندما ندرس تاريخ الدولة الإسلامية أيام الانتقال الحاسم من بنى أمية إلى بنى العباس ، وفى المغرب نجد أن هناك عوامل زادت غضب الناس على الدولة حدة وعنف ، وأهم هذه العوامل هم الخوارج .

فالخوارج الذين انهزموا فى قلب الدولة ، وقتل منهم الألوف بسيوف رجال مثل الحجاج بن يوسف والمهلب بن أبى صفرة من الأزد (يعنية) اضطبروا إلى الهجرة إلى الجهات التى لا تدركهم فيها يد الدولة وخاصة فى عمان وأبمن والمغرب .

هؤلاء الخوارج كانوا مذاهب شتى ، فمنهم المتطرفون الذين كانوا يرون أن الدولة الإسلامية أو الخلافة القائمة ، دولة غاصية هى وكل من أيدها ، فالخوارج أو التجار الذى يدفع الضرائب للدولة يعتبر حارحاً عن الإسلام ومن الخليفة . وهؤلاء هم الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق الذين اغتنوا الحرب على يدوية الإسلامية وجعاعة المسلمين جملة ، ودعوة هؤلاء تلقى قبولا من قاس مثل البربر .

وخاصة بربر المغرب الأقصى الذين كانوا يعيشون خارج الحدود الرسمية للدولة الأموية .

ولكن هذه الدعوة المتطرفة لا يمكن أن تلقى قبولا من جبهة واسعة . لأنها دعوة لكل إنسان للخروج بالسلح في وجه النظام القائم ، لهذا ، انحصر مداه ، وظهرت فرقة أخرى هي لصفورية لقيت قبولا أكثر ، لأن أصحابها كانوا يقولون إن العدو الوحيد هو الدولة ، أما من يؤيدونها فليسوا أعداء للإسلام وإنما هم متساهلون في أحكام الإسلام وحسابهم على الله ، فهم كفار نعمة لا كفار إيمان ، في حين أن رجال الدولة كفار إيمان ، فالخوارج الصفورية يتساهلون مع عامة الناس ويكتهم يقاطعونهم ، فلا متاجرة ولا معاملة ولا مصاهرة .

هذا المذهب بقى قبولا أكثر ، ولكن مذهبا خارجيا آخر وهو مذهب الإباضية (لعبد الله بن إباح) لقي قبولا أكثر لأنه لا يدعو إلى الفيلسوف من الدنيا . يدعو الناس الذين يؤمنون بأراء أصحابه ، إلى إقامة نظام سياسي لهم في النواحي التي لا تستطيع الدولة الوصول إليها ، وهم يأنذون لاتباعهم بالتعامل مع الناس تاركين الحساب لله سبحانه وتعالى .

هذا المذهب (الإباضى) لقي قبولا بين الناس ، وهو الوحيد من بين مذاهب الخوارج الذى قدر له أن يعيش إلى يومنا هذا . والإباضية قرسون حذاً في فهمهم للشريعة من أهل السنة ، ولهذا يحسبون عادة ضمن أهل السنة ، وسنرى بعد قليل أنه على أساس المذهب الخارجى الإباضى قامت دولة من أكبر دول المغرب هي دولة عبد الرحمن بن رستم أو الدولة الرسنمية في المغرب الأوسط أو ما يعرف الآن باسم الجمهورية الجزائرية .

تفاصيل الفتنة المغربية الكبرى :

ندخل الآن إلى بعض تفاصيل الثورة أو الفتنة الكبرى التى اجتاحت المغرب في نهاية العصر الأموى ، وخاصة في أيام هشام بن عبد الملك . وفي هذه البلاد نجد كل هذه العوامل التى ذكرناها عاملة نشيطة . فبعد مقتل يزيد بن أبى مسلم بفترة قصيرة ، أقامت الدولة على المغرب وكذلك على الأندلس ولاية من أهل بحكمة

والعرفة بتدبير الأمور ، ولكن المشاكل كانت تتزايد بصورة أصبح معها من العسير جداً على رجل واحد ، أيا كان أن يتلافها . ففي أيام هشام بن عبد الملك أقيم على المغرب وال ينتسب إلى اليمشية يسمى عبيد الله بن الحبحاب . هذا الرجل وفي سنة ١١٩هـ / ٧٢٧ م على كل غرب الدولة الإسلامية من حدود مصر إلى جبال الألبت المعروفة خطأ بالبرانس بين إسبانيا وفرنسا ، وهذه مسئولية في غاية الضخامة ، فمهما كانت خبرة ذلك الرجل ، فهو لن يستطيع معالجة الموقف خاصة إذا ذكرنا أن وراءه في دمشق خلافة ضعيفة ، ولهذا نجد أنه في أثناء ولاية ابن الحبحاب تحول الغضب العام على الحكم العربي إلى إرادة ، والإرادة تحولت إلى ثورة ، لأنه وجد من يقود الناس

بدأت الثورة في إقليم الريف الذي يسمى بإقليم طنجة ، سنة ١٢٢هـ / ٧٤٠ م ، وانتشرت في قبائل بربرية كثيرة ضخمة ، كأنها الشعوب مثل برغواطة وغماردة . وتولى زعامتها رجل يسمى ميسرة الفقير وبسطة حال لعظ (الفقير) هنا ينبغي أن يفسر على أنه لقب أطلقه هو على نفسه ، لأنه يصور المثل الأعلى للمؤمن المجاهد الذي لا يطمع في شيء من متاع الدنيا ، وهو فقير إلى الله سبحانه وتعالى . ولكن المؤرخين وهم يمثلون في العادة وجهة نظر الدولة يحرفون اللقب إلى ميسرة الفقير وينهمونه بالمروج عن الإسلام وأنه ابتكر قرأنا وكفرنا . في آخر هذه الدعاوى التي ينبغي أن نأخذها بكل حذر ، لأنها صادرة من جبهة معادية لميسرة . ولكن ذلك لا يمنع من لقول بأن مثل ذلك الرجل الذي تولى قيادة جماهير ضخمة غاضبة ، وأصبح إماماً ، كان عليه أن يجعل على أساس ديني مشاكل لم يكن له علم بصيغها أو بالحلول الممكنة لها . فكان لابد أن يبتكر قدر المستطاع حتى لا يفقد الزعامة ، ومن بين مبتكراته من الممكن أن تكون آراء خارجة عن الإسلام .

وعلى أي حال نلاحظ أن ذلك الرجل جمع جموعه وسار للقاء العرب ، لا على أنهم عرب وإنما على أنهم حكام ظالمون ، ففي صفوف ميسرة كان هناك عرب غاضبون على الدولة الأموية يريدون تغيير النظام ، ومعظم أولئك العرب من الخوارج ، وسارت الجيوش البائرة على النظام القائم ، لا على العرب ، فهي بسست

فتنة بربرية ضد عرب ، وإنما هي ثورة داخلية في داخل الدولة الإسلامية ومقاصدها وأهدافها إسلامية ، وليس من الضروري أن تكون مظهراً لثورة إقليمية بربرية . ولم يجد عبيد الله بن الحبحاب جنداً كافياً ليرسله لمواجهة الثائرين ، فجمع من استنصاع من الجند وأرسلهم بقيادة رجل يسمى خالد بن حبيب للاقاة الثوار .

وكان هؤلاء قد تقدموا حتى بلغوا مجرى نهر شلف بزعمامة ميسرة الفقير ، وتردد ميسرة في اللقاء فقتله أتباعه ، لأنهم كانوا يرون التردد عاراً مثلهم في ذلك مثل بقية الخوارج ، ولوا على أنفسهم رجلاً يسمى خالد بن يزيد الزناتى ، فراجع إلى طنجة وعلى مقربة منها التقى بالجيش العربى في معركة حامية تسمى معركة الاشراف بسبب كثرة من قتل فيها من اشراف العرب ، وقد انهزم فيها العرب .

عقب هذا تمرد عرب الفير وان على عبيد الله بن الحبحاب فاستدعاه الخليفة هشام ، وأرسل إلى أفريقية جيشاً عدته ٢٧,٠٠٠ مقاتل ، عليهم قائد من غلاة قيسيين لشامين يسمى كلثوم بن عبد القشيري ومعه بنو خزاعة ابن بشر القشيري ، وسارت معهم جموع من قوات العرب البلديين الأفريقيين يقودهم حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع . وكبر سراح بين الشاميين وسنديج شديداً ، مما أضعف القوة العربية . لهذا لا غرابة في أن ينهزم هذا الجيش الضخم ويقتل كلثوم بن عياض وحبيب بن أبى عبيدة ويغر بلج بن بشر مع آلاف من الشاميين إلى سبتة ، حيث يعتصمون بأسوارها بضعة شهور ، حتى يأذن لهم والى الأندلس عبد الملك بن قطن القهري في عبور سهلكى معاوية في عبور على ثورة قام بها البربر على العرب ، وكانت ثورة الأندلس هذه امتداداً لثورة بربر المغرب ، لأن بربر الأندلس كذلك كانوا ساخطين على الحكم الأموى وعلى من معهم من العرب في الأندلس ، لأن عرب الأندلس إذ ذاك كانوا أشد تعصباً للعروبة من عرب المغرب ، وكانت الخصومة بين الشاميين منهم والبلديين أعنف وأعمق ، وستحدث عن امتداد هذه الثورة لبربرية في المغرب إلى الأندلس في مكانها من تاريخ الأندلس .

وبعد ذلك بقليل تمكن الخليفة هشام من أن يرسل جيشاً ضخماً من
الفرسان ، يقوده شامي منعصب يسمى حنظلة بن صفوان الكلبي ، ووصل هذا
الجيش إلى القيروان ووجدها مهددة باستيلاء الخوارج عليها . كان أولئك
الخوارج قد اختلف أمرهم وانقسموا قسمين : واحد يقوده عكاشة بن أيوب
القرظري ، الثاني يقوده عبد الواحد بن يزيد الهواري . وتحصن عرب القيروان
ومن فيها من العلماء والصلحاء وخرجوا للقاء الخوارج ، مدافعين عن مذهب
السنة وقاعدته أفريقية ، وفرق حنظلة السلاح عليهم وخرجوا معه ، فلقوا قوات
الخوارج يقودها عبد الواحد بن يزيد الهواري في موضع يسمى « الأصنام » على
بعد ٤٠ كم ، غربي القيروان وهزموه هزيمة منكرة بعد قتل عتيق . ثم ساروا
نحو القوة الخارجية الأخرى ، التي يقودها عكاشة بن أيوب القرظري (من فزارة)
وهزموه في أوائل سنة ١٢٤ هـ / ٧٤٢ م ، وقد أتت هاتان المعركتان مصير
السنة في أفريقية والمغرب ، فثبتت أقدامها في أفريقية بعد ذلك ، وتمكنت فيما بعد
من إعادة سلطاتها على المغرب كله ، وانسحبت قوات الخوارج إلى المغرب الأوسط
والحازت الميادين الخارجية من إيساضية وصقرية مع أصحابها إلى مناطق
صغيرة محدودة في جبال الريف أو في المغرب الأوسط أو في جبال نفوسة في إقليم
طرابلس وجزيرة جربة .

وهكذا انتهى ذلك الصراع الدموي بانتصار السنة في ولاية أفريقية ، وهي
تتكون ، كما قلنا صراحة ، من إقليم طرابلس الحالي وتونس وجزء من الجمهورية
الجزائرية يعادل محافظة قسطنطينة ، ولكن ما يهمنا ملاحظته هو أن مراكز
العمران الرئيسية في أفريقية وكثرت تضم طرابلس (عدا جبل نفوسة) وأفريقية
والراب ثم السهل الشمالي للمغرب الأقصى في حوض نهر « سبو » ، ثبتت على
مذهب السنة ، ولكنها أصبحت جميعاً تحت سلطان العرب البلديين . لأن العصر
الذهبي لبني أمية وجند الشام انتهى بوفاة هشام بن عبد الملك وهو آخر الفحول
من خلفاء بني أمية ١٢٥ هـ / ٧٤٢ م . ولم يبق من عمر الدولة كلها إلا سبع
سنوات كلها فتن وتفكك ومصاعب .

في هذا الظرف خلا المغرب الإسلامي للعرب البلديين والبربر ، وقد تقاسموه
فيما بينهم ، فأما البلديون فقد سيطروا على أفريقية ، وأما البربر فقد سيطروا
على ما عدا ذلك ، وكان معظم هؤلاء البربر من الخوارج الزناتية ، أما البرانس أهل
الاستقرار وهم معظم السكان في المغرب ، فلم يمتد إليهم لهب الفتنة ، بنفس المدى

الذي امتد به في الرئاسية ، سيدخل أولئك البرانس مسرح الحوادث بعد ذلك شيئاً فشيئاً منشئين دول المغرب الكبرى : الأدارسة فالفاطميين ودولة بنى زيري ثم دولة المرابطين ، أما الموحدون الذين سيكونون بعد المرابطين فقد أنشأ دولتهم المصاعدة ، وهم بربر جبال الأطلس الكبرى وهو برانس حضر أيضاً ، وقد سبق أن قلنا إنهم لا ينتمون إلى صنهاجة وزناة إنما هم من البرانس .

المحاولة الأولى للعرب البلديين للسيادة على أفريقية إمارة عبد الرحمن بن حبيب وآله :

انتصرت الحكومة المركزية على يد حنظلة بن صفوان الكلبي في أفريقية وأوقفت الفتنة المغربية إلى حين ، ولكنها لم تصل إلى هذا النصر إلا بمعاونة العرب البلديين فإن هؤلاء برغم التحاسد الكبير بينهم وبين الشاميين ، أي الجند الرسمي للدولة العربية ، قاموا بنصيب كبير من انقتال في سبيل استخلاص أفريقية من انثائرين على الخلافة ، ولولاهم لما استطاع جند الخلافة الوصول إلى هذا النصر الحاسم الذي ذكرناه

وفي هذه الفترة التي نتحدث عنها في النصف الأول من القرن الهجري الثاني أي النصف الأول من القرن الثامن الميلادي ، كانت العناصر المتنافسة على السلطان في أفريقية والمغرب الأوسط والأقصى كما يلي

١ - العرب البلديون : وهم العرب المثلليون وكندوا يعيشون جماعات متماسكة في المدن وحولها بصورة خاصة ، وكانت تؤيدهم جماعات من البربر الرئاسية في الغالب ممن أسلموا واستعربوا فأصبحوا قوة سياسية محلية يحسب لها كل حساب وكانت مراكزهم القيروان وتونس والمسيلة وطبنة (في إقليم الزاب) .

٢ - العرب الشاميون : وهم رجال الحكومة المركزية ومن انضم إليهم من أهل المغرب ، في العاصمة القيروان وفي معسكرات الجند المنتشرة في نواحي إقليم أفريقية وخاصة تونس وطرابلس وإقليم الزاب ، وكانت أقوى عناصرهم في القيروان وتونس .

٣- البربر : وكانت قواتهم تتكون من مجموعات قبلية بثرية في الغالب ، يتزعمها عرب دخلوا في البربر وأصبحوا منهم ، أو بربر استعربوا وأصبحوا يحملون أسماء وألقاباً عربية ، ومن العسير أن نتبين حقيقة أمرهم ، وقد أنشأوا إمارات أو وحدات سياسية في المغرب الأوسط والأقصى ، ويمثلهم لنا في ذلك العصر رجل يسمى أبو قرظ اليقروني الزناتى . وهذا الرجل أقام لنفسه نهضة خارجية في إقليم تلمسان ونادى بأنه إمام بل اتخذ لقب الخلافة وصار يدعى بإمير المؤمنين - ٤٠ سنة ، ومثل هذا الرجل كثيرون من الزعماء المحليين الذين انتشروا كما قلنا في المغرب الأوسط والأقصى . وجدير بالذكر أن لمذهب الخارجى لهؤلاء الناس لا يبدو في صورة واضحة ، فلسنا واثقين مما يقال من إباحيتهم أو صفريتهم ، والمهم لدينا أن خارجيتهم كانت سياسية أكثر منها مذهبية . ودلينا على ذلك ولع رجالها بانوصول إلى السلطان السياسى في هذه البلاد الواسعة ، لأن الدول الخارجية الواضحة الشخصية والمذاهب التى ستظهر فيما بعد ، وستحدث عنها حديثاً مفصلاً ، تظهر مذهبها الخارجية بناية الدقة .

ولكن الذين انتصروا في حقيقة الأمر في هذا الدور من الصراع على السلطان السياسى في المغرب ، كانوا العرب البلدين ، لأن الشاميين كانوا يعتمدون أساساً على الدولة ، وكانت دولة بنى أمية إذ ذاك في أواخر سنوات حياتها ، ولهذا فإتانا تلاحظ أن الشاميين سيجمعون في جماعات صغيرة في معسكراتهم . وعندما تقوم الدولة العباسية سينقلون إلى ولائها في الظاهر على الأقل

وكان يمثل العرب البلدين عبد الرحمن بن حبيب بن أمي عبيدة بن عقبة ابن نافع ، فقد كان يمثل بيتاً عربياً عريقاً طالت إقامته في البلاد حتى صار من أهلها ، وجدير بالذكر أن نفر من كبار الفاتحين الذين ذكرناهم ، خلفوا وراءهم في المغرب بيوتاً عديدة الأفراد كثيرة الأتباع ، كان لها دور كبير في تاريخ المغرب فيما بعد . وأشهر هذه البيوت بيت عقبة بن نافع ويمثله عبد الرحمن بن حبيب وأولاده وإخوته وبيت موسى بن نصير وبيت أبى المهاجر دينار ، وهذه البيوت سببها كل منها اتجاهها خاصاً به : بيت عقبة بن نافع سيتجهون إلى السياسة ، أما بيت

أبي المهاجر دينار فسيوجهون إلى العلم ، أما أبناء موسى بن نصير فكان اهتمامهم بشئون المال والتجارة .

كان عبد الرحمن بن حبيب زعيماً سياسياً واسع النشاط ، يعتمد على سمعة جده عقبة بن نافع ولكنه كان على خلاف جده ، إذ أنه كان ذو طموح سياسي وكان رجلاً أدنياً وصولياً اتجه إلى الاستقلال بالبلاد ، ومن أسف أنه لم يكن يتمتع بملكات سياسية أو أخلاقية ، تمكن له من الثبات وتنظيم أمور دولة يمكن أن يكتب لها العمر ، فقد كانت الفرصة مواتية أمامه فسلطان الدولة تلاشى والناس في حاجة إلى قائد يخلصهم من الفوضى ، وكان عبد الرحمن بن حبيب يستطيع فعلاً أن يقيم دولة كما فعل معاصره عبد الرحمن في الأندلس ، ولكنه هجم على الإمارة دون استعداد ودون تفكير سياسي ودون سند أخلاقي ، ولم يحاول أن يكتسب الشرعية عن طريق الدخول في طاعة الدولة الجديدة وهي الدولة العباسية ، وكذلك لم يحاول الاتحاد مع العناصر العربية الموجودة في البلاد ، بل لم يفكر في الاستعانة بالبربر ، ثم إنه كان بطبعه رجلاً قليل التدبير ، سريعا إلى الحركة مما أضعف مركزه من أول الأمر ، وبعد أن أعلن نفسه أميراً على إقيروان بعد قيام الدولة العباسية بقليل ، بعث بطاعته إلى أبي جعفر المنصور فبعث هذا يطالبه بالمال ، وقد أخطأ أبو جعفر في ذلك فلم يكن هناك في أفريقية مال في ذلك الحين ، فالبلد في فوضى والجباية معضلة ، ولم يكن من عبد الرحمن ابن حبيب إلا أن أرسل إلى أبي جعفر يسبه ويخرج عن طاعته . ومن الواضح أن الخروج على طاعة الدولة الإسلامية العامة في ذلك الوقت لم يكن يأمر ذي يال من الناحية الفعلية ، ولكنه كان هاما من الناحية القانونية ، لأن هيئة الدولة الإسلامية العامة وهي العباسية إذ ذاك ، كانت لا تزال قائمة في النفوس ، ولم تكن جماهير المسلمين تقبل هذه الفكرة ، ولو أنه حصل على تأييد ولو إسمي من الخلافة القائمة لتعزز مركزه . ولكنه عندما انفصل عن الدولة لم يستند إلى أي سند شرعي (تلاحظ أن عبد الرحمن الداخل بعد أن أقدم دولته في قرطبة ، ظل يخطب للعباسيين رغم ما نعرف من عداوتهم لبيته ، ولكنه استمر على الولاء الاسمي لهم حتى ثبت سلطانه واكتسب الشرعية ثم انفصل عن الدولة) .

أما عبد الرحمن بن حبيب فخرج على الدولة من أول الأمر ، وحاول أن يخضع أهل البلاد بالقوة ونجح نعرف أن موته لم تكن شيناً يذكر . وقد عتمد أساساً على أخيه إلياس وكان قائداً عسكرياً قادراً ، ومن المؤكد أن إلياس كان أصلياً من أخيه عبد الرحمن ، وهذا هو الذي جعل عبد الرحمن يخاف منه ، لأن إلياس كان يجمع حوله طائفة من الفرسان والمقاتلين ، وكان قد كسب ولاءهم واستطاع أن يقودهم قيادة حسنة .

وكانت الصعوبة الكبرى التي واجهها عبد الرحمن بن حبيب ، هي مشكلة الخوارج ، الذين كانت قواتهم قد تجمعت في جبل نفوسة في طرابلس ، وكان يتولى رئاستهم زعيم خارجي ممن تلقوا تعاليم الخارجية الإباضية في البصرة على شيخ كبير من شيوخ المذهب ، وهو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري (نسبة إلى قبيلة من غرب اليمن تسمى المعافري) . هذا الرجل كان عالماً حقاً في المذهب الإباضي وكان إلى جانبه عدد كبير من شيوخ المذهب أكبرهم عبد الرحمن ابن رستم .

نعود إلى تتبع أخبار عبد الرحمن بن حبيب لنقول : إن هذا الرجل كان يستطيع أن يعمل شيئاً لنفسه ولأفريقية ، لو أنه كان على شيء من الرزانة والحكمة والكفاية في الأعمال الإدارية التي تصدى لها ، لكنه تجل عن رجل غير شبت ، سريع إلى الحركة ، غير واضح السياسة ، فنفر منه الناس سواء العرب أو البربر وتصدى له نفر من أتداده من العرب ، ووقعت الحروب بينهم . وكان يتولى قيادة جيش أخيه إلياس القائد الكبير ، وكان ولي عهده ، وهذا نرى عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع يغدر بأخيه إلياس فيعزله عن ولاية العهد ، ويقيم ابنه حبيباً مكانه فغضب إلياس ووقعت الحرب بين الأخوين ، وانتهت بمقتل عبد الرحمن بن حبيب وولاية أخيه إلياس .

وهنا نجد أن حبيب بن عبد الرحمن يسير مع جماعات من البربر لحرب عمه ويقتله ويتولى مكانه ، ولم تدم ولايته طويلاً إذ تغلب عليه عمه عبد الوارث ، ففر حبيب إلى قبيلة كبيرة من البربر المستعربة تسمى « وراقومة » وهي قبيلة طارق ابن زياد وكان يتزعمها عاصم بن جميل ، وهو ابن أخت طارق بن زياد فسار عاصم بمن معه من الخوارج الصفورية ، واقتحم القيروان وقضى على بني حبيب وأقام حكماً خارجياً صفورياً في البلد ، ولكن يؤكد احتقاره لمذهب السنة دخل

رجالهم بخيلهم المسحد الدمع وربطوا خيلهم فيه . بذلك تجد أن أفريقية التي كثفت العرب إلى الآن جهوداً ضخمة في فتحها وإقرار أمورهما ، انتهت بعد العناء إلى أن تكون مركزاً من مراكز الخوارج الصفرية .

هذا الموقف دفع الخوارج الإباضية المسيطرين على جبل نفوسة وناحية طرابلس ، إلى أن يسيروا بجمعهم إلى القيروان ليطردوا الصفرية منها ، بزعمهم أن الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري . وهم لهم ذلك واستقلت أفرجة من سلطان الصفرية إلى الإباضية . كل هذه الحوادث أفزعته أبا جعفر المنصور وكان قد اتجه إلى جعل الدولة العباسية دولة السنة والجماعة ، فأمر واليه على مصر وهو محمد بن الأشعث بالمسير إلى أفريقية وإخراج الخوارج منها وتم له ذلك ، وعادت أفريقية إلى مذهب السنة . وفي الصراع بين الخوارج ورجال السنة وهم رجال الدولة لعياسية ، قتل أبو الخطاب زعيم الخوارج الإباضية ، ففر الملقون بقيادة عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الأوسط ، خارج الحدود العباسية لدولة بني العباس ، وانحاز نفر منهم إلى جبل نفوسة وسنسمع عنهم بعد قليل .

مداوالت الدولة العباسية للاحتفاظ بأفريقية المهالبة

لم يكتف أبو جعفر المنصور بذلك ، لأن الخوارج لا زالوا على قوتهم ، فسارع بإعداد جيش جديد أرسله إلى أفريقية بقيادة محمد بن الأشعث ، فاستقر في القيروان واجتهد في إقرار الأمن في أفريقية وبذل بالفعل جهودا كبيرة في ذلك السيل ، وعندما انتهت ولايته في عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ، عهد هذا في ولاية أفريقية إلى زعيم من زعماء العرب البديين في مصر ، وهو الأغلب بن سالم بن عقّال التميمي ، وكان فارساً شهماً ، في المسير إلى المغرب ، فسار إلى أفريقية مع أهله ومن بينهم ابنه إبراهيم . ودخل أفريقية وجعل ينظم أمورها ، ولكن الخوارج عادوا مرة أخرى يهاجمون أفريقية بزعماءة رجل جديد يسمى أبا حاتم وتمكن أبو حاتم من قتل الأغلب بن سالم بن عقّال ، فنجى ابنه إبراهيم بمن معه إلى طبنجة في إقليم الزاب وهنا استقر واخذ يمهّد الأمر بنفسه

أصبحت أفريقية مشكلة بالنسبة للخلافة العباسية ، فهي بد بعيد عن مركز الخلافة ، تعيش فيه جماعات متحاربة متعادية ، بعضهم من أهل السنة وبعضهم من الخوارج يشتى مذاهبهم ، وبعضهم عرب وبعضهم بربر . وكان لابد من إيجاد حل تستقر به أحوال ذلك البلد ، فانتهى رأى أبي جعفر إلى أن يوثق هذه الناحية واحداً من كبار رجاله ذوي الكفاية ، ويطلق يده في الأمور حتى يستطيع أن يخلص بأفريقية من الفوضى والقلق ، ووقع الاختيار على رجل من بني المهلب بن أبي صفرة ، ذلك القائد الإداري الكبير الذي عاش وعمل في العصر الأموي . وكان المهالبة من الأزد ، وهم من عمان ، ولذلك يعرفون بأزد عمان . وهذا الرجل هو أبو حفص عمر بن قبيصة المهلبى . ووصل ذلك الرجل إلى أفريقية سنة ١٥١ هـ / ٧٦٨ م ، وبدأ بذلك عصر قصير مدته خمسة وعشرون سنة من الاستقرار النسبي في أفريقية هو عصر المهالبة ، لأن هذا الرجل

لم يذهب وحده ، بل أخذ معه نفراً من أهل بيته من آل المهلب ، وقوة عسكرية كبيرة . وكان المهالبة في جملتهم أهل استقرار وخبرة بشئون الإدارة ، وسخرى أن عصرهم القصير سيكون عصرأ حاسماً بالنسبة لتاريخ أفريقية كولاية إسلامية ومركز من مراكز السنة والجماعة ، وكذلك بصفتها مركزاً من مراكز العروبة . وكان على أبي حفص عمر المهلبى أن يواجه الخوارج الإباضية ، الذين كان يتزعمهم أبو حاتم وتمكن أبو حفص عمر من الانتصار عليه أول الأمر ، ولكنه انهزم وقت سنة ١٥٤هـ / ٧٧١ م — وحل محله واحد من كبار المهالبة ، بل من كبار العرب في عصر أبي جعفر المنصور ، وهو يزيد بن حاتم المهلبى ابن عم أبي حفص . وكان يزيد شاولى أمر مصر فأمره أبو جعفر بالمسير إلى أفريقيا فانتقل إليها واستقر فيها سنة ١٥٥هـ / ٧٧٢ م وبدأ في ترويح أفريقية عصرأ من الاستقرار والازدهار وهو عصر المهالبة .

كان يزيد بن حاتم سيداً عربياً يتميز بكل ما يتميز به سادة العرب في تلك العصور من رئاسة وشهامة وكرم ، وكان الشعراء يمتدحونه ، إذ أنه كان يعيد الصوت في دولة بنى العباس . وتمكن هذا الرجل من إقرار الأمور مستعناً بقومه من الأزد ، ولم يكن يطمئن كثيراً إلى الجند الخراسانى ، الذى كان في ذلك الحين عماد القوة العباسية . ولابد أن نلاحظ أن ما نسميه بالجند الخراسانى لم يكن كله ولا جله من الموالى ، بل إن لقب خراسانى كان يطلق في المقام الأول على عرب خراسان ، أى العرب الذين ولدوا في خراسان ونسبوا إليها ، والجند الخراسانى الذى سار مع أبى مسلم الخراسانى للقضاء على بني أمية ، كان في عاصيته حذاً عربياً ، لأن الحركة العباسية لم تكن ثورة فارس على العرب كما يقال ، وإنما كانت ثورة عرب على عرب ، هدفها تغيير الأوضاع داخل نطاق الدولة الإسلامية العربية وكلامنا هذا عن طبيعة الجند الخراسانى الذى اعتمدت عليه الدولة العباسية ، يجعلنا نفهم كيف أن الدولة العباسية على ضخامة جيوشها وسعة ثروتها وعظم جاهها ، لم تكن دولة فاتحة ولم تشتهر بالقوة العسكرية ، ولهذا لم يفتح بنو العباس شيئاً زيادة على ما فتح بنو أمية ، وكان قصارى جهدهم المحافظة على الموجود .

ويكن على الرغم من سوء المادة العسكرية التي اعتمد عليها يزيد بن حاتم ، فإنه استطاع بكفايته الشخصية ، أن يقر الأمور في أفريقية ، ويقيم حكماً عادلاً زاهراً مدة خمسة عشر عاماً من الهدوء ، أي من سنة ١٥٥ — ١٧١ هـ / ٧٧٢ — ٧٨٧ م .

جهود يزيد بن حاتم في أفريقية :

حكم يزيد بن حاتم أفريقية خمسة عشر عاماً ، وتعد هذه السنوات القليلة من أصعب فترات عصر الولاة وأكثرها خيراً على أفريقية وفائدة لها ، فقد كان الرجل ذكياً نشيطاً خبيراً بشئون الحكم والإدارة ، وكذلك كان عربياً صادق العروبة يتصف بالشهامة والسيادة والبعد عن الصغار ، وكان مسلماً صحيح الإيمان يؤمن بدولة السنة والجماعة .

دخول المذهب المالكي إلى المغرب وتحول أفريقيه إلى حصن السنة والجماعة في المغرب :

والمذهب المالكي هو أحد المذاهب الأربعة الرئيسية في الفقه الإسلامي ، وهو أولها ظهوراً ، فقد توفي مالك بن أنس منشئ هذا المذهب ، ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م ، وهو إمام دار الهجرة ، لأنه عاش ودرس في مدينة الرسول ﷺ ، وقد بدأ حياته محدثاً أي جامعاً للحديث حافظاً له ، ولذلك يلقب بأمير المؤمنين في الحديث . ومن الحديث انتقل مالك إلى التشريع أي إلى استخراج الأحكام من الأصول ، والاصول عند مالك هي : القرآن الكريم والحديث الشريف والقياس وعمل أهل المدينة ، أي أنه إذا عرضت له قضية حكم القرآن إذا وجد فيه نصاً صريحاً ، فإذا لم يوجد استعان بالحديث الشريف ، فإذا لم يجد حديثاً تبويماً يفيد في هذه القضية ، قاس الأمور على نظائرها واستعان في ذلك بما جرى عليه العمن عند أهل المدينة ، مما أقره رسول الله ﷺ ومن اتبعه من الصحابة . ومن ذلك كله استخرج مالك رأيه ومذهبه ، ولهذا يسمى المذهب المالكي بمذهب الرأي ، وهو عندهم رأي مالك . ويمتاز المذهب بالوضوح والحسم والمنطقية ، فهو لا يترك الإنسان محيراً بين آراء شتى ، كما نجد في المذهب الحنفي الذي أسسه أبو حنيفة النعمان بن ثابت . ويمتاز المذهب المالكي بنصه نصاً واضحاً عن أهمية اجتماع الكلمة ووحدة

المسلمين ، والمحافظة بصورة عامة على روح الأمة الإسلامية ، ولهذا السبب لقي هذا المذهب قبولاً واسعاً عند عامة الناس . وارتفع شأن مالك وأصبح نموذجاً لرجل العلم في تاريخ الإسلام ، خاصة وقد كان الرجل عزوفاً عن المناصب ، صارقاً جهده كله إلى العلم ، وأعانه على ذلك أنه كان ميسور الحال على الهمة ، لا يتدنى إلى طلب وظائف أو يسعى إلى قربى من سلطان . وكان رجلاً حسن السمعة عظيم الهيبة ، يلبس أحسن الثياب ، ويجلس لطلابه في هيئة جليلة ، ويسود مجلسه وقار وهيبة تزيد على هيئة السلاطين . وكان يعلى ذك بقوله «إنما أرفع جاه العلم» . ومن هنا أعل مالك مرتبة العلماء وبهر الشبان ، فأقبلوا عليه يدرسون مذهبه وأسلوبه في الحياة ، أو ما يسمى بشماش مالك ، ومن هنا أصبح مالك بن أنس شخصية حضارية لا مجرد عالم متقن للعلم

ولهذا نجد أن دخول المالكية في المغرب والأندلس ، لا يعتبر مجرد دخول مذهب فقهي ، وإنما هو دخول أسلوب حضاري ، فقد ارتفع مالك بن أنس بالعلم وأهله إلى مستوى اجتماعي بل سياسي ، جعل العلم رمزا من رموز القوة والسلطان . وإذا كن تاريخ المسلمين قد انحرف في العصر العباسي الثاني ، حتى أصبح السلطان في يد الأحناب عن البلد في كل مكان تقريباً ، وأصبحت القوة العسكرية قوة أجنبية مرتزقة في معظم بلاد المسلمين . وحرم أهل البلاد في كل بلاد الإسلام من حقهم الشرعي في تولي أمور بلادهم ، فقد اتجهت همه الناس إلى بلوغ القوة والجاه عن طريق العلم والدراسة . وضرب لهم مالك المثل في ذلك ، مع ذكرناه من خصائله وأسلوبه في الحياة وأعماله ، وبلغ بذلك مكانة اجتماعية كبرى وقوة سياسية كان بنو العباس يحسبون لها كل حساب ، فاجتهدوا بدمحون من شباب أهل العلم في محاكاة مالك بالسيرة والطريق والتأسي به في أعمالهم ودراساتهم وتصرفاتهم ، وبلغ الكثيرون منهم بذلك مراكز عالية ومناصب ذات خطر في بعض البلاد . وأصبح رجال العلم أي الشيوخ ، هم رؤساء الناس في كل جماعة إسلامية أخذ شيوخها بمذهب مالك ، وهذه الظاهرة الحضارية السياسية مرجعها إلى ذلك العمل الجليل الذي قام به مالك بن أنس وتلاميذه .

دخل مذهب مالك بلاد المغرب على يد نفر من تلاميذه ، ممن تفقهوا بعلمه

واقتفوا أسلوبه في التدريس وفي الحياة ، وكانت حالة المغرب تتطلب مذهباً
كالذهب المالكي ، يجمع الناس على رأي واحد في القضية الواحدة ، دون أن يفرق
أذهان الناس حول قضايا الفقه ، كما كان الخوارج يفعلون ، ومن ناحية أخرى
فإن مالك بن أنس عرف كيف يعامل الخلفاء ، فيعطيهـم مالهم ويأخذ حقـه منهم ،
فعندما أقبل هارون الرشيد إلى المدينة ، طلب أن يأتيه مالك فاعتذر مالك وعندما
لقى الخليفة وهو هارون الرشيد ، قال له : « لا أحب أن يراني الناس ساعياً إلى
السلطان حاملاً حديث ابن عم رسول الله ﷺ » ، فاعجب رده الخليفة وزاد من
قدر مالك في نظره .

وعندما تحدث معه وجد فيه رجلاً مكتمل الشخصية واسع العقل والعلم
حسن التصرف ، جميل السمـت ، فزاد في كرامته في حين أن أبا جعفر المنصور
أهانـه واعتدى عليه عقاباً له على قوله الحق .

وقد كان عصر مالك بن أنس حافلاً بالشيوخ وطلبة العلم الذين يقرأون العلم
في المساجد ، ومنهم نفر من أجل مؤسسي الفقه الإسلامي ، كالإمام الأوزاعي
الذي انتشر مذهبه في الشام كله ووصل إلى الأندلس . ولكن مالكا كان أستاذاً
بمعنى الكلمة — نظم دروسه وفق خطة وضعها بنـفسه ، واتخذ في داره مجلساً
للتدريس وأقام لتلاميذه عريقاً ومقرئاً ، مكلفين بتنظيم الدروس ومراجعتها مع
الطلاب وحفظ النظام أثناء الدرس .

وكان مالك لا يجلس للإقراء إلا في أحسن ثيابه ، وكان حريصاً على النظافة
وكان يظب إلى تلاميذه الصمت التام أثناء إلقاء الدرس ، فإذا شاء طالب أن يسأل
شيئاً فيكون ذلك في آخر الدرس . ومع ذلك فقد كان مالك إذا أتت من تلميذ
استعداداً حسناً ، خصه بدرس له وحده ، كما فعل مع المقرئ القيرواني البهلول
ابن راشد . ولم يكن مالك يتكسب بالعلم ، فما أخذ يوماً من طالب درهما ولا هو
كان يقبل الهدية ، وكان عند إلقاء درسه فياضاً مسترسلاً ، ينتقل من نقطة إلى
نقطة بنظام وهدوء ، وكل هذا فتن تلاميذه به وجعلهم يدرسون شخصه وأسلوبه
في الحياة والعمل ، كما كانوا يدرسون علمه . وبالفعل كان هناك طلاب يفرغون
من سماع الحديث والفقه على مالك ، ثم يمضون بعد ذلك يدرسون ما يسمى عند

مؤرخي المذهب ، بشمال مالك ، وأهمها إلى جانب العلم الغزير ، احترام النفس والترف عن الصفائر وعدم الاهتمام بالوظائف والثبات أمام الحكام ، وكان مالك يقول إنه بذلك يرفع جاه العلم ، ولا عجب والحالة هذه أن يطلق الناس عليه لقب « أمير المؤمنين في الحديث » . ولا غرابة كذلك في أن نجد الكثيرين من تلاميذه يحرصون على أن يكون كل منهم مالكا في بلده ، رجلاً غزير العلم ، منصرفاً إلى الدرس ، مترفعاً عن الوظائف عظيم الاحترام لنفسه . هذه الناحية تهمنا بصفة خاصة ، لأن أولئك الفقهاء الذين التزموا هذا المسلك ورفقوا فيه ، أصبحوا رؤساء الناس في بلادهم . حقا كان هناك أمراء وحكام وأصحاب سلطان سياسي ، إما مستقلين ببلادهم أو تابعين لدولة الخلافة في بغداد ، ولكن الناس اختصروا الفقهاء بثقتهم واعتبروهم قاداتهم وأصحاب الرأي فبهم ، في كل مكان انتشر فيه المذهب المالكي ، في المغرب والأندلس خاصة .

أدخل مذهب مالك في المغرب نقر من أجل الشيوخ من أمثال عبد الله بن فروخ الفارسي وعبد الله بن غانم وابيهول بن رشيد وأسد بن الفرات ، وبنو جميعاً من كبار العلماء حقاً ، وقد اكتسبوا الكثير من خصال مالك وتمكنوا من مذهبه ، وسمع بعضهم كذلك على أبي حنيفة النعمان بن ثابت ، فقيه العراق وصاحب المذهب الحنفي المعروف . ولكن قلوبهم ظلت معلقة بمالك دون غيره ، وتمكنوا بفضل إخلاصهم وعلمهم وزهدهم ، من أن يجعلوا المذهب المالكي هو المذهب المقرر المعترف به رسمياً في أفريقية ثم في بقية المغرب بعد ذلك . وعزل أيديهم بدأت المالكية في المغرب تاريخها الطويل ، لأنها لم تكن مجرد مذهب فقهي بل كانت عنصراً حضارياً له أثره في كل ترواح الحياة في المغرب الإسلامي ، ويكفي أن يشير هنا إلى ما ذكرناه من أن الفقهاء المالكيين أصبحوا رؤساء الناس وقاداتهم ، في حين توالى أخطاء رجال السياسة وشيوخ القبائل ، ما بين صنهاجيين وزناتيين ، مما أبأس الناس منهم ومن الحكومات القائمة جملة . وقد عرف أولئك الفقهاء كيف يحفظون على أمة الإسلام ز أفريقية ملثة حين مذهب السنة والجماعة ، وقد رأينا كيف تمكن حنظلة بن صفوان الكلبي (١٢٤ - ١٢٧ هـ / ٧٤٢ - ٧٤٥ م) من إنقاذ أفريقية من سيطرة الخوارج ، ما بين صقريّة وإباضية والاحتفاظ بها جزيرة سنية ، تعصم بها السنة والجماعة ، وكان هذا

في حقيقة الأمر إنقاذ الإسلام في المغرب كله . ولذلك يعتبر حنظلة بن صفوان
الكلبي هذا ، من بذة تاريخ المغرب الإسلامي .

نعم إن الأخطار لم تتلاش ، وعاد الخوارج يحاولون انتزاع أفريقية نتيجة
لسوء سياسة عبد الرحمن بن حبيب الفهري . ولله . ولكن أهل أفريقية تحذروا
في التمسك بوحده عصرهم المذهبية و فكرية . فثبتت أفريقية بفصلهم لمحاولات
الرعي الخارجي أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري . الذي دجن
القيروان مع أتباعه من الخوارج الإباضية ، قدميين من طرابلس ، بحجة إنقاذها
من الخوارج الصقرية ، وانتهى الأمر بانتصار محمد بن مقاتل العكي العباسي ،
وبانتصاره هذا مكن للسنة والجماعة ، وقتل أبي الخطاب في صفر ١٤٤ هـ / مايو
٧٦١ م ، وانتصار حنظلة بن صفوان ثم محمد بن الأشعث ، الذي عبد الطريق
أمام العباسيين ليرسلوا إلى أفريقيا عمر بن حفص بن غياث بن أبيصه بن المهلب .
صفر ١٥٦ هـ / يناير ٧٧٣ م ، وهو أول المهالبة ومذهب يزيد بن حاتم الذي
نتحدث عنه الآن ، والمهالبة هم الذين ثبتوا مذهب السنة والجماعة في أفريقية ،
وعلى أيديهم تلاشى كل خطر خارجي على أفريقية . واتجه الخوارج إلى المغرب
الأوسط خارج سلطان الدولة العباسية حيث أنشأوا إمارة الخوارج الإباضية ،
على يد عبد الرحمن بن رستم خليفة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري ،
وتلك هي الدولة الرسمية الخارجية الإباضية التي اتخذت من تاهرت قاعدة لها
ابتداء من سنة ١٦٤ هـ / ٧٨٠ م وسنتحدث عنها في حينها

وهكذا أصبحت القيروان بفضل أولئك الفقهاء ، وما بذله يزيد بن حاتم من
جهود مركزاً للعلم الإسلامي ، لا يقل عن البصرة والكوفة والفسطاط ، وهي
حقيقة هامة من حقائق التاريخ الحضاري في المغرب .

المهم لدينا أن نجاح يزيد بن حاتم جعل الدولة العباسية تترك أمر أفريقية في
أيدي أهل بيته ، الذين عرفوا بالإخلاص للدولة ، فتوالى المهالبة على حكم أفريقية
وأهمهم بعد يزيد بن حاتم أخوه روح بن حاتم ، وكان لا يقل عنه كفاية وقدرة ،
وقد حكم ثلاث سنوات انتهت سنة ١٧٥ هـ / ٧٩١ م .

وكان آخر المهالبة وهو الفضل بن روح بن حاتم الذي تولى سنة ١٧٧هـ / ٧٩٢ م ، ولم يحكم إلا سنة ونصفاً تقريباً فلما جند أفريقية والمغرب لم يرضوا عن استبداده ، هو وآله ، بكل الوظائف والولايات الكبرى في البلاد ، وثاروا عليه بقيادة عبد الله بن عبدويه بن الجارود قائد جند تونس ، وتمكن هذا القائد وفقر آخر من القواد من عزله ثم قتله سنة ١٧٨ هـ / ٧٩٤ م وتقاسموا الإدارات وانتواحي فيما بينهم .

وهكذا انتهت رئاسة المهالبة في أفريقية بعد حوالي ربع قرن من أواخر أيام أبي جعفر المنصور العباسي ، إلى أوائل أيام هارون الرشيد ، وفترة المهالبة على قصرها تعتبر من أهم فترات تاريخ المغرب الإسلامي - ففي أثنائها استقر الأمر للمذهب السني بصورة نهائية في أفريقية ، وسادت المالكية وانتهى أمر الاجيال الأولى من العرب البلديين ، بعد أن فشلوا في السيطرة على البلاد ، وحلموا كما رأينا فيما رويناه من أخبار محاولة عبد الرحمن بن حبيب ، بالاستقلال بأفريقية ، فأوقعوا البلاد في انفوضى والاضطراب . وبعد ذلك انسرح معظم العرب البلديين في أفريقية في غمار الناس ، وأصبحوا من جملة أهل المغرب ، وسيكون لاندراجهم هذا أثر بعيد في تعريب البربر ونشر الإسلام السني بينهم .

وهؤلاء العرب الذين أصبحوا مغاربة هم الذين يسمون « عرب الفتح » وستظل جماعة منهم تطلب الحكم ، ولكن غالبيتهم العظمى انصرفت عن السياسة ودخلت في الناس وكان لهم أثر بعيد في تعريب المغرب .



نهاية عصر الولاية وبداية عصر الدول المحلية في أفريقيا والمغرب

بعد نهاية المهالبة عاشت أفريقية سنوات من الفوضى ، إذ اشتد تنافس زعماء العرب في البلاد في الوصول إلى السلطان في القيروان أو في الأفراد بالسلطة السياسية في نواحيهم ، وكانت الخلافة العباسية شديدة الاهتمام بشئون ولاية أفريقية ، وتضم - كما قلنا - ولايات طرابلس وأفريقية (تونس) ولزاب ، وهو الجزء الشرقي من جمهورية الحرائر الحالية (ويقابن اليوم محافظة قسطنطينة) وبذلت الدولة العباسية - كما رأينا - جهوداً ضخمة للمحافظة على هذه الولاية تابعة لها داخل إطار السنة والجماعة ، وقد رأينا ما بذلته من جهود في ذلك السبيل ، وقد توجت هذه الجهود بانتصار حنظلة بن صفوان في موقعتي القرن والأصنام بجهود المهالبة ، التي ثبتت - كما رأينا - قواعد النظام والسنة والجماعة في أفريقية ، وجعلت منها حاضرة أمان واستقرار نسبي وسط المغرب ، الذي اجتاحتها الفتن وحركات الخوارج من كل ناحية

ولكن الدولة العباسية لم تستطع رغم جهودها أن تعد سلطانها إلى أبعد من إقليم الزاب غرباً ، وقد قرر الجغرافي اليعقوبي ، الذي زار أفريقية في عصر الأغلبة ، أن تنتهي سلطة العباسيين غرباً ، كانت مدينة أرية الواقعة على المحوى الأعلى لنهر شلف ، ومعنى ذلك أن ما يلى نهر شلف غرباً ، كان خارجاً عن سلطان الدولة العباسية ، وكان منطقة فراغ سياسي حقيقي .

هنا ، في ذلك الفراغ السياسي الذي امتد من مجرى شلف إلى ساحل المحيط ، قامت أول الأمر وبعد لقتنة المغربية الكبرى ، إمارات محلية كثيرة ، معظمها خارجي زعمائها عرب معادون لدولة الخلافة أو بربر مستعربة . وأشهر هذه الدول وأطولها عمراً إمارة أبي قرة المغيلى الخارجي الصفوي ، الذي نادى بنفسه إماماً وخطوب بأصير المؤمنين مدة أربعين سنة في إقليم تلمسان

ومن أشهر هذه الإمارات المحلية كانت إمارة تكور التي أنشأها حوالي سنة ٩٦هـ / ٧١٤ م زعيم عربي يسمى صالح بن منصور الحميري ، في قطعة من ساحل المغرب الأقصى ، تمتد من مليلة إلى الحسيمة ، وتسيطر على منطقة داخلية جبلية سكانها يربز زناتيون . ولكن هذه الدولة كانت سنية ، وقد شددت أزر نفسها بالدخول في ولاء بني أمية الأندلسيين (قامت دولتهم سنة ١٢٨هـ / ٧٥٦ م) وكانوا سنية متشددين ، وقد بذلوا جهوداً كبيرة في نصرة السنة في المغرب الأقصى . وقد عمرت دولة تكور طويلاً ومرت بعصور من القوة وأخرى من الضعف في أثناء الصراع الطويل بين الأمويين الأندلسيين والفاطميين الشيعة على سيادة المغرب الأقصى . ولم تنته إلا مع أيدي المرابطين في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي)

أفريقية من المهالبة إلى بني الأغلب :

ونعود إلى أفريقية وهي موضع دراستنا الآن فنقول إن الإدارة العباسية أقامت عليها أيام هارون الرشيد عاملاً عربياً من طراز فريد في يابه ، هو هرثمة ابن أعين ، وكان من أكبر رجال الحزب العربي في بلاط الرشيد ، وكان شيخاً مجرباً في الحروب والولايات ، فكان اختيار هارون الرشيد إياه لولاية أفريقية اختياراً موفقاً ، لأن المشكلة الرئيسية التي كانت تقلق يال الدولة من ناحية أفريقية في ذلك العصر ، كانت مشكلة عرب أفريقية الذين كانوا يتجمعون في المعسكرات في سوسة وتونس وبجاية والقيروان وطبنة وغيرها من مدن ولاية أفريقية وتنافسهم وحربهم بعضهم مع بعض ، ومعاداتهم لكل وال ترسله الدولة وقد رأينا ما صنعه عبد الله بن عبد الوهيد بن الجارود مع الفضل بن روح ابن حاتم أقبل هرثمة بن أعين إلى أفريقية وهو عربي صريح ، وفي نيته أن يصع حداً لفتن أولئك الأعراب كما كان الناس يسمونهم في ولاية أفريقية .

حكم هرثمة بن أعين أفريقية سنتين (١٨٠ - ١٨١هـ / ٧٩٦ - ٧٩٧ م) هابه أثناءها رؤساء العرب وركتوا إلى الهدوء . وأتيحت له بذلك الفرصة ليعمل على تجديد ما تخرب من المدن والموانئ والمنشآت وليعيد ثقة الناس في الدولة .

وقد اهتم هرثمة بن أعين بالإنشاءات ، فجدد إنشاء ميناء تونس ، وأصلح مسجد القيروان ونظم الأسواق في القيروان واهتم ببناء قصور العبد .

والقصور جمع قصر ، ويراد به في أفريقية شيء يشبه الدير عند النصارى ، أى بناء كبير ينشأ على ساحل البحر وربما على حدود الصحراء لكي يقيم فيه أولئك الزهاد الرباط على حدود دار الاسلام وثغوره والاشترك في محاربة أى عدو يهاجم بلاد الإسلام ، لهذا كان العباد والزهاد من أهل القصور يسمون أيضاً مرابطين ومثاغرين يقضون أعمارهم في العبادة وحماية أرض الإسلام

وكان أولئك العباد والزهاد يعيشون في قصورهم ورباطاتهم حياة مشتركة : يأكلون معا ويصلون معا ، ولكل منهم خلوة صغيرة يتعبد فيها وحده ويقرأ القرآن ساعات معينة من الليل والنهار ، وكان القصر يضم مسجداً للصلاة .

وفي العادة يبنى القصر على هيئة حصن عالى الأسوار . ويكون من طابقين الطابق الأول عام ، فيه المسجد وقاعات الدروس وقراءة القرآن والطعام ، ويخصص الدور الثانى للخلوات . فبعد صلاة العشاء الأخيرة يأوى كل عابد إلى خلوته ليتعبد ويصلى ، ويقوم ما شاء الله له أن يقوم من الليل ، ثم يسم ليصحب مع الفجر ، وكانوا يتناوبون الحراسة ، فيقوم نفر منهم في أبراج الحراسة بالتناوب بالليل والنهار ، وللقصر أو الرباط شيخ من أهله هو رئيسه ومنظمه والمسئول عنه ، ويكون في العادة من أجلاء الشيوخ ، الذين يرفعهم الناس إلى مراتب الأولياء فيكتسبون بذلك جاهاً وهيبه في القلوب ، تمكن لهم من إدارة مثل هذه المنشآت التي كانت تضم في بعض الأحيان مئات من العباد والزهاد . وكان يحيط بالقصر في العادة أرض تعتبر ملكه ، ويقوم الزهاد بزراعتها للثغور بمحصولها ، لأن المفروض أنهم يعيشون من عمل أيديهم ولا يأكلون إلا مالاً حلالاً

وقد أبدع أهل المغرب خاصة ، في إنشاء هذا الطراز من القصور ، وعنى الكثيرون من الحكام من أمثال يزيد بن حاتم وهرثمة بن أعين وأمراء الأغالية بالرباطات ، فانفقوا عليها يسخاء . وقد بقيت لنا بعض هذه القصور إلى اليوم ، مثل قصر المنستير على الساحل الشرقى لتونس ، وهو بناء جميل ، رممته

الحكومة التونسية وأصبح من روائع العمارة الإسلامية في المغرب ، وقد اشتهر من هذه الرباطات رباط قصر الطوب في سوسة ورباط قوتس ورباط مونة التي تسمى اليوم عناية إلى جانب رباط المستير .

وكن الدافع لرحال الحكومة إلى العناية بشئون الرباطات أو القصور ، أن رجالها كانوا دائماً مؤيدين للحكومة المركزية لأنها كانت دائماً نصيرة السنة . وكانوا يقفون إلى جانب الفقهاء في صراعهم مع المذاهب المخالفة لمذهب السنة . ومن هنا فقد كانوا في الحقيقة قوة لتنظيم والحكومة المستقرة ، خاصة وقد امتازوا بصدق وإخلاص وإيمان عميق بالمذهب السني ، وكانت ثقة الناس فيهم عظيمة ومن ثم فقد كانوا عاملاً إيجابياً من عوامل الاستقرار وازدهار الحضارة في أفريقية .

وبعد سنتين من الحكم ، رأى هرثمة بن أعين أنه قد قام بمهمته في أفريقية وأقر الأمن في البلاد ، ولكن الحقيقة أنه قد تعب وتآقت نفسه للعودة إلى بغداد

أصل الأغلبية : إبراهيم بن الأغلب :

وكان من بين كبار عرب أفريقية رجل يسمى الأغلب بن سالم بن عقال التميمي . كان أصله من عرب مصر ، وكان من كبار رجال الجيش ، وعندما أرسلت الخلافة الوالي محمد بن مغازي العنكي إلى أفريقية كانت الأغلب بن سالم ابن عقال بالمسير معه في نفر من جند مصر ، فدخل أفريقية واستقر والبأ على الزاب ، وكان هنا تميميون كثيرون ، ثم قتل الأغلب بن سالم بن عقال في حرب الحوارج . فقام هرثمة ابنه إبراهيم بن الأغلب وأبى على الزاب . وكان إبراهيم شاباً نشيطاً ذكياً مثقفاً ، كان ينوي أن يتجه لدراسة العلم في مصر ، ودرس على الليث بن سعد ، ولكنه عندما دخل أفريقية اتجه إلى السياسة وجمع التميميين حوله ، وصار من أكبر الشخصيات العربية في المغرب . وأسس فيه هرثمة بن أعين كفاية وإخلاصاً فخره وأعلى مكانته .

وعندما أراد هرثمة أن يعود إلى بغداد ، افترح على هارون الرشيد أن يقيم إبراهيم بن الأغلب عاملاً على أفريقية . فاشتراط إبراهيم على دولة الخلافة أن:

تقيمه على أفريقية بصورة دائمة ، فهو شديد الإخلاص والولاء للبيت العباسي ثم إنه رأس التميميين وهم أكثر عرب أفريقية ، وهو إلى جانب ذلك رجل مجرب خبير بشئون السياسة والحرب . وقد اقترح إبراهيم بن الأغلب على هارون الرشيد أن يرسل كل سنة إلى بغداد أربعين ألف دينار ، ويستغنى عن مائة ألف دينار ، كانت ترسل كل سنة من مصر معونة لوالى أفريقية . وتعهد بأن يتصرف كعامل عباسي تابع لدولة الخلافة ، وإن كان يتمتع بحرية التصرف داخل ولايته لكي يستطيع مواجهة نفر من زعماء العرب المشاعيين من أمثال الحسن بن حوب الكندي ، وكان زعيم جند العرب في تونس . فأجابته الخلافة لما طلب ووافقت كذلك على أن تكون الولاية في بنى الأغلب ماداموا على الطاعة والولاء ، ووافق ابن الأغلب على أن يكون للخلافة الحق في تعيين قضاى القىروان ، وأن يكون للخليفة الحق في عزل الوالى الأغلبى إذا أساء يتصرف بشرط أن تقسم بدله أغلبياً آخر . وتم الاتفاق على ذلك كله ، وتولى إبراهيم بن الأغلب ولاية أفريقية سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م وبدأت بذلك تجربة سياسية جديدة في تاريخ أفريقية : تجربة حكم أفريقية بواسطة أسرة عربية محلية تابعة للدولة العباسية .

دولة الأغلبية في أفريقية (١٨٤-٢٩٦ هـ / ٨٠٠-٩٠٩ م)

كان قيام دولة الأغلبية في أفريقية ، التي كانت تتكون من طرابلس وأفريقية وجزء من المغرب الأوسط هو إقليم الزاب ، تجربة جديدة في نظم الحكم الإسلامية فلمرة الأولى تعهد الخلافة إلى رجل من المغرب في الانفراد بولاية من ولاياتها ، ليحكمها حكماً شبه مستقل في نظير مبلغ قليل من المال ، إلى جانب التعهد بالبقاء على الصاعة والولاء للدولة العباسية . وقد وافقت هذه الأخيرة على أن تجعل الولاية وقفاً على أهل بيت ذلك الرجل ، يتوارثونها فيما بينهم ، ماداموا على الولاء الكامل لبيت العباسي ، والشرط الوحيد الذي اشترطته الخلافة العباسية هو البقاء على الطاعة بكل معناه وشكلياتها ، وكذلك حماية حدود الدولة العباسية من الناحية الغربية ، التي وقفت بصورة رسمية عند المجرى الأعلى لنهر شلف ، الذي يجري من الجنوب إلى الشمال جنوبي مدينة الجزائر الحالية .

تقول هذا وإن كنا لا نملك نصاً ، ولا نعلم شيئاً مؤكداً عن الاتفاق بين الخليفة هارون الرشيد وإبراهيم بن الأغلب ، وكلامنا هنا قائم على ما ورد في مراجعتنا عن هذا الاتفاق وهو قليل . ذلك أن تاريخنا الإسلامي يخلو من الوثائق الرسمية في معظم عصور تاريخه . وكل ما تقويه مراجع هو ما ذكرناه من أن هارون الرشيد استجاب لطلب إبراهيم بن الأغلب في أن يقيمه عاملاً شبه مستقر على المغرب على الشروط التي ذكرناها . ويبدو أن هرثمة بن أعين كان له دور في ذلك ، وقد أعجب بإبراهيم بن الأغلب ووثق فيه وفي إخلاصه لبيت بني عباس ، وكان إبراهيم بن الأغلب من أهل الولاء لبيت الخلافة ، وكذلك كان أبوه الأغلب بن سالم بن عقيل وهو من تميم ، القبيلة العربية الكبيرة . وكان كما قلنا من كبار جند مصر وندبه الخليفة مع محمد بن مقاتل العكي الذي أرسله إلى أفريقية ليحارب الخوارج .

وقد قتل الأغلب بن سالم بن عقيل في الصراع بين رجال الدولة العباسية

والخوارج ، وكان ابنه إبراهيم مقيماً في إقليم الزاب مع قومه من تميم ، فلما قتل أبوه أصبح هو والياً على الزاب ، وكان شاباً نشيطاً ذكياً أعجب به هرثمة بن أعين لنشاطه وذكائه وقصاحته ، ويبدو أن هرثمة هو الذي توسط بين هارون الرشيد وإبراهيم بن الأغلب ، وكانت الخلافة العباسية قد أعيتها الحيلة في شأن أفريقية ، وتمكنت بعد جهود مضنية من المحافظة عليها في إمار السنة والجماعة وإبعاد الخوارج عنها ، وكان إبراهيم بن الأغلب شاباً طموحاً يرى نفسه أهلاً للولاية ، وطمحت نفسه إلى الانفراد بشئون أفريقية مع بقاءه على الولاء للبيت العباسي ، واتفق طموحه مع ما كانت الدولة العباسية تسعى إليه من وضع أمور أفريقية في يد أمينة وتستريح من تكاليف نفقاتها عليها ، وهي جد ثقيلة كما رأينا ، على هذا الأساس تم الاتفاق بين إبراهيم بن الأغلب وهارون الرشيد .

حكم إبراهيم بن الأغلب :

حكم إبراهيم بن الأغلب من ١٨٤ - ١٩٦ هـ / ٨٠٠ - ٨١٢ م ، وقد حكم أفريقية في ظروف عسيرة ، فلم يكن له من سند عسكري إلا قوة يسيرة من التميميين وانحد الخراسانيين ، وكان خصومه كثيرين من العرب البلديين ، الذين لم يوافق أحد منهم على الإقرار له بتلك الرياسة ، وأعلنوا عليه حرباً عيفة طويلة . ظلت مستمرة طووال العصر الأغلبي الذي دام أكثر من مائة سنة ، إذ انتهى حكم بني الأغلب سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م على يد الفاطميين . ومن أكبر أولئك الخصوم الحسن بن حرب الكندي وعمران بن مجالد الربيعي ، وقد تمكن إبراهيم بن الأغلب من القضاء على تفرع كبير من رؤسائهم بعد جهد شديد ، ولكنه لم يقض على روح التمرد والعصيان عليه وعلى آل بيته ، انتهى انتشارت في رؤساء جند أفريقية العربي ومن انضم إليهم من العرب الذين تحولوا إلى عرب بلديين ، وظلوا يتصورون أنهم أحق من غيرهم بحكم أفريقية . وكان الاتفاق بين الخليفة هارون الرشيد وإبراهيم بن الأغلب يقضي بأن يؤدي إبراهيم ١٠٠٠ - ٤ أربعين ألف دينار في السنة ، ويستغنى عن ١٠٠٠٠٠ مائة ألف دينار كانت ترسل من مصر معونة لوائى أفريقية ، فكان كل خراج أفريقية الذي كان يعود إلى الدولة العباسية ١٤٠٠٠٠ مائة وأربعين ألف دينار ، وهو مبلغ زهيد جداً ، ولكن إبراهيم بن

الأغلب اجتهد في استخراج مال كثير من أفريقية ، حتى بلغ إيراده فيما يقال نحو المليونين من الدراهم في السنة ، وهذا المال كان عماد قوة إبراهيم بن الأغلب . وهذا الفارق الجسيم بين ما كان الولاة يرسلونه إلى الخلافة من خراج أفريقية ، وما كان يتحصل منها فعلاً ، يعطينا فكرة عن « أمانة » الولاة في تلك العصور أو قلة ما سيجاء بتعديده صحيح .

وقد اتجه نظر إبراهيم بن الأغلب من أول الأمر إلى إقامة قوة عسكرية يستطيع الاعتماد عليها ، إذ أنه لم يكن يستطيع الاعتماد على الجند الخراساني ، وكان التميميون قليلين ، رغم أنه وفدت منهم ألوف كثيرة إلى أفريقية أيام الأغالبة ولكن خصومه كانوا يعتمدون أيضاً على قوى عسكرية قلبية لا تقل عن قواته ، فكان همه الأول هو إنشاء قوة عسكرية خاصة به بالمال . وقد تكونت تلك القوة العسكرية من عنصرين

(أ) البربر المستعربة : الذين عملوا جنداً مرتزقة في الجيش الأغلبي .

(ب) ثم الصقالية : وهم جند من أصل أوربي كانوا يشترون صفاراً من تجار الرقيق الذين يجلبونهم من أوروبا ويربون تربية عربية إسلامية ، ويتخذون بعد ذلك جنداً وخدماء للدولة في القصور والوظائف . وقد استكثر إبراهيم بن الأغلب من هؤلاء جميعاً ، وأضاف إليهم بعد ذلك قوة من السود . ولم يضمن على حكمه إلا بعد أن تم له إنشاء هذه القوة ، خلال السنوات الأولى من حكمه في أفريقية .

إنشاء القصر القديم :

في نفس الوقت عمل إبراهيم بن الأغلب على إنشاء قاعدة عسكرية له ولأهل بيته على طريقة الكثيرين جداً من حكام المسلمين ، الذين كانوا يعيشون في القلاع منفصلين عن رعاياهم ، معتمدين على جندهم المرتزق . وقد اختار إبراهيم بن الأغلب موقعاً إلى الجنوب الغربي من القيروان ، أنشأ فيه مدينة صغيرة ، هي في الواقع حصن لبית الحكم . وسميت المدينة الجديدة أولاً بالعباسية ثم سميت بالقصر القديم ، وعندما تمت ، انتقل إليها بأهله وأمواله وحرسه وجنده . وأصبح القصر القديم قاعدة الحكم في البلاد . وعندما تم ذلك لإبراهيم أمّن على نفسه

ومصيره ، وسار في حكمه على طريقة الحكام في تلك العصور ، أي أنه أصبح معتمداً على جنده المأجور ، ولم تعد له بالبلاد صلة حقيقية إلا الضرائب التي كان رجال الدولة يجبرونها من أهل البلاد .

وكان القصر القديم مدينة كاملة ، فيه قصور الأمير وآل بيته ومساكن حواشييه وخدمه ومعسكرات لجنده وخزائن للسلاح والأموال ، هذا إلى جانب الأسواق وكل ما يلزم للمدينة من وسائل المعاش . وحفرت داخل المدينة الآبار لكثيرة التي كنت تقدم لأهلها حاجتهم من الماء . وأحيطت المدينة بسور حصين على أركانه أبراج عالية يقوم فيها الحراس .

أما الجند العربي المعادي لإبراهيم بن الأغلب فقد تركز في معسكرات في المدن الكبرى وخاصة في تونس ، التي تحولت إلى مركز المعارضة السياسية للبيت لحاكم . وطوال العصر الأغلبى نلاحظ أن الحرب كانت مستمرة بين الأغالبة والجند العربي ، وخاصة في أيام زيادة الله بن الأغلب الذي ارتكب معهم فظائع رهيبة . وعندما انكسرت شوكة العرب كانت قوة البيت الأغلبى أيضاً قد وهنت وقربت نهايته ، وهذا مثال مما حدث كثيراً في تاريخنا العربي من إهلاك العرب بعضهم لبعض . ومن ظواهر تاريخنا الإسلامي أن العرب لم يتهزموا أمام غير العرب إلا في النادر ، ولكن الذي أهلك العربي في كل مكان هو عربي آخر

ساد البلاد بصورة عامة خلال العصر الأغلبى أمن ورخاء ، وعمرت المدن وأمنت السابلة ورخيت الأحوال وبدأت شخصية أفريقية في الظهور ، وكثر أهل العلم ، وبالفعل تحولت أفريقية إلى قاعدة قوية من قواعد حضارة الإسلام .

وقد حكم أفريقية من بنى الأغلب أحد عشر أميراً ، حكم معظمهم مدداً قصيرة وصلت في بعض الأحيان إلى أقل من العام ، فلم تتسع الفرصة أمام معظمهم للقيام بأعمال تذكر ، ثم إن أصحاب المذاهب التي تذكر منهم كانوا اثنين : إبراهيم ابن الأغلب الذي تحدثنا عنه ، ثم ابنه زيادة الله بن إبراهيم ثالث أمراء البيت ، وقد حكم اثنين وعشرين سنة هجرية ، ثم ابنه إبراهيم بن أحمد بن أبي عقيل تاسع أمراء البيت الأغلبى . وهو أطول أمراء هذا البيت حكماً ، إذ أنه حكم تسعاً وعشرين سنة هجرية ، ولكن عصره كان مضطرباً ، اختلت الأحوال أثناء اختلالاً شديداً نظراً لاضطراب شخصيته

وينقسم تاريخ لعصر الأغلبى فى جملته إلى ثلاث فترات : فترة التأسيس من ١٨٤ - ٢٢٢ هـ / ٨٠٠ - ٨٣٨ م ، وتشمل إمارات إبراهيم بن الأغلب وأبيه أبى العباس وزيادة الله عصر الازدهار والاستقرار النسبى من ٢٢٦ - ٢٨٩ هـ / ٨٤٠ - ٩٠٢ م ، وتمتد من نهاية حكم زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب المعروف بالاول من سنة ٢٠١ هـ / ٨١٦ م إلى نهاية حكم أبى عبد الله محمد (الثانى) ثمن أمراء البيت الأغلبى ، الملقب بابى الغراتيق لولعه بصيدها ، وذلك فى سنة ٢٦١ هـ / ٨٧٥ م . وقد تضمنت هذه الفترة حكم عدد من أواسط أمراء البيت الأغلبى من حيث الملكات ، ولكن الأمور كانت قد استقرت وهذات احوال أفريقية بصورة عامة .

ويرجع معظم السبب فى ذلك إلى فتح صقلية الذى فتح مجالاً واسعاً أمام لجند وزعمائهم للغزو والحصون عن المغام ، تاركين أمراء بنى الأغلب فى سلام ثم جاء حكم إبراهيم بن أحمد ، معلناً بداية التدهور ، ثم تلى ذلك فترة التدهور وتستمر من ٢٨٩ - ٢٩٦ هـ / ٩٠٢ - ٩٠٩ م . ولكن فترة الاستقرار الحقيقية التى يمكن أن تسمى فترة ازدهار للأسرة لم تزد على ثلاثين سنة عن الأكثر ولكن هذه الأسرة ، على الرغم من قصر مدة الاستقرار فى أيامها ، فإنها تعتبر صالحة للفضل فى إرساء أسس أفريقية الإسلامية وظهور شخصيتها بما تميزت به من خصائص ، لأن شعب أفريقية الإسلامية الذى أوجزنا الحديث عن جهاده فى سبيل الحفاظ على مذهب السنة والجماعة والنقاء فى نطاق الأمة الإسلامية العامة ، كان فى حاجة إلى فترة استقرار طويلة بعض الشيء ، كى تثبت القواعد الاجتماعية والحضارية التى تمكن من تكوينها والحفاظ عليها خلال اضطرابات عصر الولاة وما وقع فيها من الانقلابات وتغير الأحوال . وقد أتاح له بنو الأغلب فرصة هذا الاستقرار ، وأقاموا فى بلاده حكومة محلية ذات طابع أفريقى ، ثم إن بنى الأغلب كانت فيهم عروبة صادقة واهتمام بشئون العلم والحضارة والمنشآت ، فكان العصر فى جملته ، رغم كثرة حروب واضطراباته ، خيراً على أفريقية ، وخطوة واسعة إلى الأمام فى بقاء المغرب الإسلامى .

وقد تكلمنا عن إبراهيم بن الأغلب ، وستكلم الآن عن اثنين من أمراء البيت

الأغلبى هما زيادة الله بن الأغلب وإبراهيم بن أحمد ، إذ لا يتسع المجال للتحدث عن بقية أمراء هذا البيت .

زيادة الله بن الأغلب ٢٠١ - ٢٢٣ هـ / ٨١٦ - ٨٣٨ م :

بعد وفاة إبراهيم بن الأغلب خلفه ابنه أبو العباس ، ولم تدم له الإمارة طويلاً فجاء بعده أخوه زيادة الله ، وزيادة الله كان أميراً قادراً ولكن مشكلته الكبرى كانت جنده الذي استكثر منهم أبوه إلى درجة زادت على الحاجة . وتكلف ذلك الجند المال الطائل ، يضاف إلى ذلك أن جنده البربر كانوا قد تكاثروا مع الزمن وزادوا على الحاجة وثقلت نفقاتهم وبدأوا يشغبون على الدولة ، فوجد زيادة الله نفسه أمام حشد هائل من الجند ، لا عمل لهم في الحقيقة ورواتبهم في زيادة ونوعهم في تدهور فكان لابد له من أن يفكر في مخرج من تلك الأزمة ، بإيجاد مجال لنشاط هؤلاء الجنود ، وتلك هي المقدمة الأولى لفتح صقلية على أيامه .

فتح صقلية ابتداء من سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م :

ذكرنا مقدمات ذلك الفتح وقلنا إن الجند تكاثروا عند زيادة الله إلى درجة كان لابد له معها من أن يحد لهم مخرجاً ، والحقيقة أن فتح صقلية تأخر ، فهذه جزيرة كبيرة على أبواب أفريقية ، وقريبة من سواحل بلاد الإسلام ، وإنه لمن الغريب أن يفتح المسلمون الأندلس قبل أن يفتحوا صقلية بقرن وربع من الزمان . ويرجع ذلك إلى أن الفتوح الإسلامية سارت في الكثير جداً من الأحيان دون خطة مرسومة ، لأنه كان ينبغي أن يجيء بعد تمام فتح أفريقية دور صقلية خاصة وأن بينها وبين شواطئ أفريقية جزراً تعتبر معابر إلى سواحلها مثل بنتلاريا (جزائر قوصرة عند العرب) وتتبع إيطاليا ، وكذلك جزر مانطة ، وكلهما دخلت في حوزة الإسلام مع فتح صقلية . وكان تفكير زيادة الله في فتح صقلية قديماً يرجع إلى بداية ولايته ، فقد تكاثر جنده وأصبحوا يسببون له المتاعب ، ثم إنه ورث عن أبيه ملكاً مستقراً وثروة طائلة ، فتأقت نفسه إلى أن يجدد تقليد الجهاد الإسلامي ، وكانت أحوال صقلية الداخلية سيئة تشجع على التدخل فيها ، ومازال يفكر في الأمر ويعد له حتى إذا كانت سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م ، رأى زيادة الله ونصحاؤه الشروع في تنفيذ غزو جزيرة صقلية .

وكانت صقلية في ذلك الحين من الناحية الرسمية من أملاك الدولة البيزنطية ،
بحكمها بطريق ، أي قائد عسكري يسمى بيلاتوس ، ويعرّبه العرب « بلاطة » ،
يعتمد على قوة عسكرية قليلة . وكان يرهق السكان بمطالبه المالية ، فكانوا في
حالة تذمر عليه وضيق بالحكم البيزنطي كله ، أي في الجزيرة في الحقيقة كانت
منطقة فراغ سياسي .

ولو أن العرب كانوا في ذلك الحين على قوتهم المعهودة فيهم ، لما استلزم فتح
صقلية أكثر من عامين أو ثلاثة ، كما حدث بالنسبة للشام ومصر . ولكن نوع
الجند العربي كان قد تغير ، ولذلك فإن جزيرة صغيرة نسبياً كهذه ، استلزم
فتحها نحو السبعين سنة ، ومع ذلك فلم يتم سلطان المسلمين عليها بصورة
كاملة إلا في أواخر أيام إبراهيم بن أحمد بن الأغلب وهو تاسع أمراء ذلك البيت
الأغلبى ومن تحدث عنه .

والسبب المباشر الذي جعل زيادة الله يسرع بإرسال الحملة إلى صقلية هو أن
قائداً رومياً يسمى يوفيمبيوس Euphemius (فيمبي) ثار على الحكم البيزنطي
واستقل بشرق الجزيرة وتحصن في سرتوسية وأرسل يستنجد بزيادة الله ،
فاستجاب له صرخته وعجى بتسيير الجند . وقد دعا زيادة الله بن الأغلب لفتح
صقلية جنده الكثيرين فتوافدوا عليه جماعات ، وتجمعوا في ميناء تونس وميناء
سوسة واختار لقيادة الجيوش الفاتحة فقيهاً هو أسد بن الفرات وذلك أمر
مستغرب ، لأن العادة جرت بأن تكون قيادة الفتوح لأهل الحرب ، ولكن يبدو أن
زيادة الله لم يكن واثقاً من قواه فتدب هذا الشيخ أسد بن الفرات . وكان أسد
فقيهاً جليلاً ولد سنة ١٤٢ هـ / ٧٥٩ م في العراق ثم قدم به أبوه - وكان من رجال
الحرب - مع القائد محمد بن الأشعث واستقر في القيروان وهناك نشأ أسد واتخذ
طريق العلم فدرس على شيوخ بيده ، ثم رحل إلى المشرق في طلب العلم سنة
١٧٢ هـ / ٧٨٨ م فدرس في العراق على أصحاب أبي حنيفة النعمان ، ثم على
أصحاب مالك في المدينة ، ودرس الموطأ لمالك ، ثم درس على محمد بن القاسم في
مصر ، وعاد إلى القيروان فقيها حسن التكوين ، فدون ما سمعه من الموطأ في
كتاب سماه « الأسدية » انتشر بين الناس ، وعلا مكان أسد حتى أصبح كبير
علماء عصره في أفريقية . وتولى قضاء القيروان .

وعندما أعلن زيادة الله عن حملة صقلية ، تقدم أسد يطلب التطوع والجهاد جندياً عادياً ، فعرض عليه زيادة الله قيادة الحملة فوافق .

على أي حال كان أسد في السبعين من عمره عندما جاءت هذه القيادة ، فخرج بالكثلة الكبيرة من نقوة الإسلامية من تونس ونزل في ميناء « مازر » على الساحل الجنوبي لصقلية ، وفي نفس الوقت خرجت قوة أخرى من ميناء سوسة ونزلت في ميناء في أقصى الساحل الجنوبي إلى الشرق يسمى رجوسة ، وذلك لتجدة القائد البيزنطي ، الذي خرج على سلطة البيزنطيين واستنجد بالمسلمين كما ذكرنا . ومن هنا نرى أن المسلمين نزلوا في موضعين من جنوب شبه الجزيرة هما مازر ورجوسة .

كان ينبغي على أسد بن القرات ، بعد أن تمكن من موقع مازر Mazra أن يسير رأساً إلى العاصمة بلرم Palermo ويستولى عليها ، وبذلك يقضى على رأس المقاومة للفتح الإسلامي للبلاد ، ولكنه بدلاً من ذلك اتجه إلى أجريننت Agregenta واستولى عليها . ومن هناك قصد إلى وسط شبه الجزيرة واستولى على قصر يانة^(١) . ثم اتجه شرقاً قاصداً سرقوسة ليعين حليفه وحليف المسلمين (قيمي) وحاصر سرقوسة ، وفي أثناء الحصار نزل وباء أصاب الجيش وقضى على ألوف من المسلمين ، من بينهم أسد بن القرات قائد الحملة فمات في البوء . وكانت قد أصابته في القتال جراحات كثيرة ، وكانت وفاته في ربيع الثاني ٢١٢ / يوليو ٨٢٨ . والنتيجة أن وحدة الجيش تفككت واضطرب أمر القوات الفاتحة وخرج الحاكم البيزنطي بيلاتوس وهاجم قصر يانة ، فقطع بذلك مواصلات المسلمين واضطروهم إلى الارتداد مسرعين عن سرقوسة وتحصنوا في حصن قريب منها يسمى مناو ، وأصبح مركزهم حرجاً .

وبذلك فقد المسلمون قوة الدفع الأولى وتعثر الفتح وذلك بسبب قلة الخبرة العسكرية عند أسد بن القرات الذي لم يتبع الخطة المثل التي جرى عليها

(١) Castrogiovanni وتسمى الآن Enna وهي في وسط الجزيرة وفي الطريق من مازر إلى سرقوسة على الساحل الشرقي للجزيرة Siracusa

المسلمون إلى ذلك الحين في فتوحهم ، وهي الاتجاه رأساً إلى قلب مقاومة العدو واحتلال العاصمة ، وبذلك تنتهي المقاومة وتتم الفتح . ومن أيقن هذا المعروفة في العسكرية أن كل حملة لا تصل في الدفعة الأولى إلى عايتها . تتحول إلى حرب دفاع أو حرب خنادق ويطول أمدها وتفقد قوتها تبعاً لذلك .

تدخل الأندلسيين بقيادة أصبغ بن وكيل المعروف بفرغوش :

بذلك تخرج مركز المسلمين خاصة وأن خيرة رجالهم وهم المتطوعون والمجاهدون من العباد والزهاد الذين ساروا مع الحملة ، هلك معظمهم في وباء سرقوسة ، ولم يبق في الجيش إلا الجند الخراساني ومثموعة البربر ، ولم يجد المسلمون في تلك الظروف الحرجة قائداً يستطيع إعادة الوحدة إلى القوة الإسلامية وقيادتها . فغضوا متحصنين في بلدة مذو في انتظار المدد الذي طأه من زيادة الله بن الأغلب ، وقد تأخر وصول هذا المدد وزادت أحوال المسلمين في صقلية حرجاً .

في هذه الظروف نقاجاً بدخول نفر من الأندلسيين جزيرة صقلية ، يقودهم قائد كبير يسمى أصبغ بن وكيل المعروف باسم فرغوش ، ولا ندري إن كان نزول هؤلاء الأندلسيين وقع مصادفة ، أو أنهم سمعوا بالمعركة الدائرة بين الإسلام والنصرانية في الجزيرة فأسرعوا لعون إخوانهم . على أي حال نجد أن أصبغ أسرع وهاجم الصقليين والروم المحاصرين لناو ، وفك حصار المسلمين وتولى بنفسه قيادة القوى الإسلامية . واتجه المسلمون ، رغم معارضة بعض القادة من رجال الأغلبة ، إلى قصر يانسة وأعادوا الاستيلاء عليها ثم سار أصبغ نحو بلرم وحاصرها واستولى عليها ، وهنا للمرة الثانية نجد أن الوباء ينزل الجزيرة ويصيب معسكر المسلمين ، وبعد أن تمكن أصبغ بن وكيل من دخول بلرم يصيبه الوباء ويموت شهيداً بعد ذلك بأيام ، وبذلك أتاحت الفرصة أمام البيزنطيين ليستعيدوا قصر يانسة ويخرج مركز المسلمين مرة ثانية . ولكن ريده الله بن الأغلب تمكن من إرسال قائد جديد .

هذا القائد هو أبو فهر الأغبي ، وقد قاد المسلمين بنجاح ودخل بلرم وطرد بقية القوة البيزنطية في الجزيرة ثم توفى ، وتولى بعده أخوه أبو غالب قائد

الاستيلاء على العاصمة ، وفي تلك الأثناء مات زيادة الله بن الأغلب ، ووصل الخبر إلى صقلية فكانت الحملة تفشل مرة ثالثة . ولكن أبا غلب تمكن من السيطرة على الموقف ، واستقر الأمر للمسلمين في النصف الغربي من الجزيرة ، وبقي عليهم أن يفتحوا شمالها ونصفها الشرقي . وقد استغرق ذلك وقتاً طويلاً ، وفقد جماس المسلمين فلم يتمكنوا من السيطرة على شبه الجزيرة إلا في أيام إبراهيم بن أحمد الأغلب كما سنرى .

وبينما تعاقب القادة والولاة على الجزيرة تمكن المسلمون من التقدم في شمال والشرق ببطء شديد ، وكانت جماعات المسلمين تهاجر إلى الجزيرة وتستقر فيما فتحه المسلمون فيها ، فنشأت في كل مدن الوسط والغرب جاليات إسلامية كبيرة ، وأخذ الإسلام ينتشر بين الصقليين وبعض من بقي في الجزيرة من الروم ، أي أن عملية دخول صقلية في دعوة الإسلام سارت في طريقها رغم كل شيء .

وكانت العاصمة الرسمية بصقلية الإسلامية مدينة بلرم ، نظراً لجودة مينائها وحصانة أسوارها ، ولكن مركز النشاط والعمل كان في مدن الشرق والوسط وخاصة مازر وجرجنت وقصريانة في وسط شبه الجزيرة ، وقد انتشر المسلمون في نواحيها وعمروها ، وعمرها كذلك معظم مدنها مثل مازر وجرجنت ورجوسة وسرقوسة وبعض مدن الساحل الغربي مثل بتشينة وقطانية وميقل وطبرمين ومسينا التي تسمى جبل النار نسبة إلى بركان أتنا الذي يقع إلى جوارها .

وعلى الرغم من أن الأمر في صقلية لم يستقر للمسلمين تماماً إلا خلال فترة قصيرة ، إلا أن تلك الجزيرة الكبيرة تحولت شيئاً فشيئاً إلى بلد إسلامي تسوده الحضارة الإسلامية رغم قلة أعداد المسلمين فيها ، الذين دخلوها . ولكن الصقليين دخل الكثيرون منهم في الإسلام واستعربوا وأنشأوا حضارة إسلامية في صقلية ، وما زالت آثارهم فيها باقية إلى اليوم ، في هيئة قصور وبقايا مسجده وحصون ولكن الأثر الأكبر لصقلية الإسلامية هو العمل الحضاري ، فقد تحولت بلرم كما قلنا إلى مركز علم عربي . وفيها عاش وعمل - بعد سقوط صقلية في يد

الفورمان - الجغرافي المشهور ، اشترى « الإدريسي » الذي كان أول من صنع كره أرضية ، وقد ذكر في مقدمة كتابه « نزهة المشتاق » ، أنه صنعه من الفضة . ويقال : إنه رسم ليايس عليها بالذهب . ثم رسم خريطة للأرض كبيرة مسطحة ، أي أنه حوّل أبعاد الأرض على الكرة إلى أبعاد مسطحة كما فعل الجغرافي الإنجليزي مركاتور في القرن التاسع عشر ، وكل الخرائط التي ندرس عليها الآن مرسومة بطريقة مركاتور التي كان الإدريسي أول من تنبه إليها وطبقها . ثم وصف الإدريسي كرة الأرض وخريطتها التي رسمها في كتابه المشهور « نزهة المشتاق في اختراق الأفاق » ، وهو وصف شمس للأرض ومن عليها . وقد أرمز الإدريسي بكتابه سبعين خريطة لأجزاء الأرض تعتبر أول أطلس جغرافي مفصل للكرة الأرضية .

وفي أثناء حكم أبي العباس محمد بن أبي عقيل الأغلب سنة ٢٢٦ - ٢٤٢ هـ / ٨٤١ - ٨٥٦ م ، فتح المسلمون جزيرة مالطة سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م واستقروا فيها ، وبدأوا تحويلها إلى جزيرة إسلامية .

، وفي أيام إبراهيم بن أحمد الأغلب الذي ستحدث عنه ، فتح المسلمون سرغوسة وطبرمين وبقية الشاطئ الشرقي للجزيرة .

وقد زداد عمران أفريقية ومدنها ، خاصة أيام زيادة الله ، نتيجة لاهتمامه لشديد بالعمران ، وقد عمرت المزارع ورخيت أحوال الزراع ، وزاد الخراج حتى بلغ فيما يقول الجغرافي اليعقوبي ثلاث عشرة ألف ألف درهم مرتين ، في العام (٢٦ مليون درهم) . وقد جدد زيادة الله مسجد عقبة في القيروان وجعله على الهيئة الجميلة التي هو عليها اليوم ، وأنشأ سوراً حصيناً لميناء سوسة ، وأنشأ دباط سوسة أي قصر العباد والزهاد فيها ، وتوفي في ٢٤ رجب ٢٢٣ / ٢٢ يونية ٨٢٨ .

تمكن زيادة الله من إتمام عمل أبيه إبراهيم بن الأغلب ، وكان زيادة الله أميراً حسناً لا بأس بمواهبه . استطاع أن يسير بالحكم الأغلبى سيرة طيبة ، وتمكن من تثبيت سلطان البيت الأغلبى في أفريقية . وكان أميراً عاقلاً حسن التصرف حريصاً بشئون الحكم . ولكن عداوة زعماء جند العرب له أوقعت في مشاكل وأزمات

وأخطاء كثيرة . وقد تمكن من التغلب على معظمهم ولكن بقيت منهم جماعات قوية خطرة في تونس وبلرم وصبة ولسيلة وغيرها من بلاد إفريقية . كانت من أسباب ضعف البيت الأغلب كله في النهاية . وكان زيادة الله مشجعاً للعلم والعلماء ، ولا يؤخذ عليه إلا العنف في معاملة خصومه من جند العرب وغيرهم ، مما شاب حكمه وملاء بالحروب . وقد قال ذلك الرجل قبل وفاته : إنه لا يخشى لقاء الله سبحانه وتعالى في يوم الميعاد وفي صحيفته أربعة أشياء : بناء مسجد القيروان ، وبناء قصر المنستير ، وبناء قنطرة أم الربيع على نهر مجرده ، وتعيين ابن محرز القضاء . والغريب في الأمر أنه لم يذكر في حسانته التي سيدخل بها الجنة فتح صقينة . فكأنه لم يشعر في قررة نفسه بأنه عندما قام بهذا فتح قدم بأعظم ما يذكره التاريخ له وللأغلبية جميعاً .

إبراهيم بن أحمد الأغلبى ٢٦١ - ٢٨٩ هـ / ٨٧٥ - ٩٠٢ م :

هو تاسع أمراء البيت الأغلبى وأطولهم حكماً وكان رجلاً غريب الأطوار ، عز في حكمه بفتات ثلاث اختلفت فيها شخصيته اختلافاً كبيراً من الانزاع والعدل إلى الاضطراب العقلي والنفسى ، ثم إلى التصوف والانصراف إلى العبادة والجهاد ، وانتهت حياته مجاهداً في سبيل الله وهو محاصر مدينة كسنته ، في شبه جزيرة كلابريا في جنوبى إيطاليا ، وهو في الطريق إلى نابلى ثم روما وكان هذا قصده .

كانت السنوات الست الأولى من حكمه سنوات رزاة وعقل وحكم صائب ، فرضى عنه الناس وأحبوه ، خاصة أنه قد صرف جهداً كبيراً في المنشآت الدينية ، وأهمها المساجد وقصور العبادة . وقد عرفنا أن هذه القصور كانت أشبه بأديرة تنشأ للمجاهدين المتطوعين الذين يسمون أيضاً بالمرابطين . ولذلك تسمى القصور أيضاً بالأربطة والمفرد رباط . وألفظ قرأنى من الآية التي تأمر المسلمين بإعداد القوة ورباط الخيل لجهاد أعداء الله ، وقد أكثر إبراهيم بن أحمد من إنشاء القصور أو الأربطة في كل مدن السواحل في أفريقية وصقينة حماية للمسلمين ، وأوقف عليها الأموال . وهو الذى أكمل تجديد جامع الزيتونة في تونس الذى بدأه أبوه إبراهيم بن أحمد الأغلبى وهو من أعظم مساجد الإسلام وبنى جنوبى القيروان مدينة رقادة . وهى مدينة ملوكة تسم لقصور وأحداث وصهرنج

النورمان — انجغرافي المشهور « الشريفة الإدريسي » الذي كان أول من صنع كرة أرضية . وقد ذكر في مقدمة كتابه « نزهة المشتاق » أنه صنعها من الفضة ، ويقال : إنه رسم الياس عليها بالذهب . ثم رسم خريطة للأرض كبيرة مسطحة ، أي أنه حوّل أبعاد الأرض عن الكرة إلى أبعاد مسطحة كما فعل الجغرافي الإنجليزي مركاتور في القرن التاسع عشر ، وكل القرائط التي تدرس عليها الآن مرسومة بطريقة مركاتور التي كان الإدريسي أول من تنبه إليها وطبقها . ثم وصف الإدريسي كرة الأرض وخريطتها التي رسمها في كتابه المشهور « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » . وهو وصف شامل للأرض وما عليها . وقد اربق الإدريسي بكتابه سبعين خريطة لأجزاء الأرض تعتبر أول أطلس جغرافي مفصل للكرة الأرضية .

وفي أثناء حكم أبي العباس محمد بن أبي عقيل الأغلب سنة ٢٢٦ - ٢٤٢ هـ / ٨٤١ - ٨٥٦ م ، فتح المسلمون جزيرة مالطة سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م واستقروا فيها ، وبدأوا تحويلها إلى جزيرة إسلامية .

« وفي أيام إبراهيم بن أحمد الأغلب الذي ستمحدث عنه ، فتح المسلمون سرقوسة وطبرمين وبقية الشاطئ الشرقي للجزيرة .

وقد ازداد عمران أفريقية ومدنها ، خاصة أيام زيادة الله ، نتيجة لاهتمامه الشديد بالعمران . وقد عمرت المزارع ورخيت أحوال الزراعة ، وزاد الخراج حتى بلغ فيما يقول الجغرافي اليعقوبي : « ثلاثة عشر ألف درهم مرتين » في العام (٢٦ مليون درهم) . وقد جدد زيادة الله مسجد عقبة في القيروان وجعله على الهيئة الجميلة التي هو عليها اليوم ، وأنشأ سوراً حصيناً لميناء سوسة ، وأنشأ رباط سوسة أي قصر العباد والزهاد فيها ، وتوفي في ٢٤ رجب ٢٢٣ / ٢٢ يولية ٨٣٨ .

تمكن زيادة الله من إتمام عمل أبيه إبراهيم بن الأغلب ، وكان زيادة الله أميراً حسناً لا بأس بمواهبه . استطاع أن يسير بالحكم الأغلبى سيرة طيبة ، وتمكن من تثبيت سلطان أبيه في أفريقية . وكان أميراً عادلاً حسن التصرف حذراً بشئون الحكم . ولكن عداوة زعماء جند العرب له أوقعت في مشاكل وأزمات

وأخطاء كثيرة . وقد تمكن من التغلب على معظمهم ولكن بقيت منهم جماعات قوية خطرة في تونس وبلرم وطبنة والمسيلة وغيرها من بلاد أفريقية . كانت من أسباب ضعف البيت الأغلبى كله في النهاية . وكان زيادة الله مشجعاً للعلم والعلماء ، ولا يؤخذ عليه إلا العنف في معاملة خصومه من جند العرب وغيرهم ، مما شاب حكمه وملاه بالحروب . وقد قال ذلك الرجل قبل وفاته : إنه لا يخشى لقاء الله سبحانه وتعالى في يوم الميعاد وفي صحيفته أربعة أشياء : بناء مسجد القيروان ، وبناء قصر المنستير ، وبناء قنطرة أم الربيع على نهر مجرده ، وتعيين ابن محرز القضاء . والغريب في الأمر أنه لم يذكر في حسنته التي سيدخل بها الحنة فتح صقلية ، فكأنه لم يشعر في قرارة نفسه بأنه عندما قام بهذا الفتح قام بأعظم ما يذكره التاريخ له وللأغلبية جميعاً .

إبراهيم بن أحمد الأغلبى ٢٦١ - ٢٨٩ هـ / ٨٧٥ - ٩٠٢ م :

هو تاسع أمراء البيت الأغلبى وأطولهم حكماً وكان رجلاً غريب الأطوار ، مر في حكمه بفترات ثلاث اختلفت فيها شخصيته اختلافاً كبيراً من الاتزان والعدل إلى الاضطراب العقلي والتفسي ، ثم إلى التصوف والانصراف إلى العبادة والجهاد ، وانتهت حياته محاهداً في سبيل الله وهو محاصر مدينة كسنته ، في شبه جزيرة كلابريا في جنوبي إيطاليا ، وهو في الطريق إلى نابلي ثم روما وكان هذا قصده

كانت السنوات الست الأولى من حكمه سنوات رزانة وعقل وحكم صالح ، فرضى عنه الناس وأحبهه ، خاصة أنه قد صرف جهداً كبيراً في المنشآت الدينية ، وأهمها المساجد وقصور العباد . وقد عرفنا أن هذه القصور كانت أشبه بآديرة تنشأ للمجاهدين المتطوعين الذين يسمون أيضاً بالمرابطين . ولذلك تسمى القصور أيضاً بالأربطة والمفرد رباط واللفظ قرآن من الآية التي تأمر المسلمين بإعداد القوه ورباط الخيل لجهاد أعداء الله ، وقد أكثر إبراهيم بن أحمد من إنشاء القصور أو الأربطة في كل مدن السواحل في أفريقية وصقلية لحماية للمسلمين ، وأوقف عليها الأضرار . وهو الذي أكمل تجديد جامع برينبره في تونس الذي أنشأه أبوه إبراهيم بن أحمد الأغلبى وهو من أعظم مساجد الإسلام وبنى جنوبي القيروان مدينة رقدة . هي مدينة ملوكة تضم القصور و حدائق وصهاريج

«سورمال» — الجغرافي المشهور «الشريف الإدريسي» الذي كان أول من صنع كرة أرضية ، وقد ذكر في مقدمة كتابه «نزهة المشتاق» أنه صنعها من الفضة ، ويقال ، إنه رسم اليايس عليها بالذهب . ثم رسم خريطة للأرض كبيرة مسطحة ، أي أنه حوّل أبعاد الأرض على الكرة إلى أبعاد مسطحة كما فعل الجغرافي الإنجليزي مركاتور في القرن التاسع عشر ، وكل الخرائط التي ندرس عليها الآن مرسومة بطريقة مركاتور التي كان الإدريسي أول من تنبه إليها وطبقها . ثم وصف الإدريسي كرة الأرض وخريطتها التي رسمها في كتابه المشهور «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» . وهو وصف شامل للأرض وما عليها . وقد أرفق الإدريسي بكتابه سبعين خريطة لأجزاء الأرض تعتبر أول أطلس جغرافي مفصل للكرة الأرضية .

وفي أثناء حكم أبي العباس محمد بن أبي عقال الأغلب سنة ٢٢٦ - ٢٤٢ هـ / ٨٤١ - ٨٥٦ م ، فتح المسلمون جزيرة مالطة سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م واستقروا فيها ، وبدأوا تحويلها إلى جزيرة إسلامية .

٢ وفي أيام إبراهيم بن أحمد الأغلب الذي سنتحدث عنه ، فتح المسلمون سرقوسة وطيرمين وبقية الشاطئ الشرقي للجزيرة .

وقد ازداد عمران أفريقية ومدنها ، خاصة أيام زيادة الله ، نتيجة لاهتمامه الشديد بالعمران ، وقد عمرت المزارع ورخيت أحوال الزراع ، وازداد الخراج حتى بلغ فيما يقول الجغرافي اليعقوبي «ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين» العام (٢٦ مليون درهم) . وقد جدد زيادة الله مسجد عقبة في القيروان وجعله على الهيئة الجميلة التي هو عليها اليوم ، وأنشأ سوراً حصيناً لبناء سوسة ، وأنشأ رباط سوسة أي قصر العباد والزهاد فيها ، وتوفي في ٢٤ رجب ٢٢٢ / ٢٣ يونيو ٨٢٨ .

تمكن زيادة الله من إتمام عمل أبيه إبراهيم بن الأغلب ، وكان زيادة الله أميراً حسناً لا بأس بمواهبه . استطاع أن يسير بالحكم الأغلبى سيرة طيبة ، وتمكن من تثبيت سلطان البيت الأغلبى في أفريقية ، وكان أميراً عادلاً حسن التصرف حذراً بشئون الحكم . ولكن عداوة زعماء جند العرب له أوقعتة في مشاكل وأزمات

وأخطاء كثيرة . وقد تمكن من التغلب على معظمهم ولكن بقيت منهم جماعات قوية خطيرة في تونس وبلرم وطبنة والمسيلة وغيرها من بلاد أفريقية ، كانت من أسباب ضعف البيت الأغلبى كله في النهاية ، وكان زيادة الله مشجعاً للعلم والعلماء . ولا يقحذ عليه إلا العنف في معاملة خصومه من جند العرب وغيرهم ، مما شاب حكمه وملاه بالحروب . وقد قال ذلك الرجل قبل وفاته : إنه لا يخشى لقاء الله سبحانه وتعالى في يوم الميعاد وفي صحيفته أربعة أشياء . بناء مسجد القيروان ، وبناء قصر المنستير ، وبناء قنطرة أم الربيع على نهر مجرده ، وتعيين ابن محرر القضاء . والغريب في الأمر أنه لم يذكر في حسناته التي سيدخل بها الجنة فتح صقلية ، فكانه لم يشعر في غرارة نفسه بأنه عندما قام بهذا الفتح قد بأعظم ما يذكره التاريخ له وللأغلبة جميعاً .

إبراهيم بن أحمد الأغلبى ٢٦١ - ٢٨٩ هـ / ٨٧٥ - ٩٠٢ م :

هو تاسع أمراء البيت الأغلبى وأطولهم حكماً وكان رجلاً غريب الأطوار ، مر في حكمه بفترات ثلاث ختفت فيها شخصيته حنلاً كبيراً من الأثران والعمل في الاضطراب العقلي والنفسى ، ثم إلى التصوف والانصراف إلى العبادة والجهاد ، وانتهت حياته مجاهداً في سبيل الله وهو محاصر مدينة كسنته ، في شبه جزيرة كلابريا في جنوبى إيطاليا ، وهو في الطريق إلى نابلى ثم روما وكان هذا قصده .

كانت السنوات الست الأولى من حكمه سنوات رزانة وعقل وحكم صالح ، فرضى عنه الناس وأحبوه ، خاصة أنه قد صرف جهداً كبيراً في المنشآت الدينية ، وأهمها المساجد وقصور العباد . وقد عرفنا أن هذه القصور كانت أشبه بأديرة تنشأ للمجاهدين المتطوعين الذين يسمون أيضاً بالمرابطين . ولذلك تسمى لقصور أيضاً بالأريطة والمفسر ريد و لحقهم قرانى عن الآية التي تأمر المسلمين بإعداد القوة ورباط الخيل لجهاد أعداء الله ، وقد أكثر إبراهيم بن أحمد من إنشاء القصور أو الأريطة في كل مدن السواحل في أفريقية وصقلية لحماية للمسلمين ، وأوقف عليها الأموال . وهو الذى أكمل تجديد جامع الزيتونة في تونس الذى بدأه أبوه إبراهيم بن أحمد الأغلبى وهو من أعظم مساجد الإسلام وبني جنوبى القيروان مدينة رقادة ، وهى مدينة ملوكية تضم أنقصور والحدائق وصهاريج

الماء . ومن هذه الصهاريج واحد سمي البحر ، طوله خمسمائة ذراع وعرضه أربعمائة ، وإليه ينسب المناجل العظيم كما يسمى ، والجعم مواجل ، والمناجل هو حوض ماء يبنى بالحجر ليتجمع فيه ماء المطر . وما زلنا نرى في خارج القيروان إلى يومنا هذا مواجل الأغالية ، وهي من أجمل آثار البلاد ، وقد اكتملت في أيام إبراهيم بن أحمد سلسلة المحارس على البشواطىء . وكانوا ينشئون في كل محرس برجاً للنار لإرسال الإشارات ، فكان الخبر يصل إلى أقصى البلاد من بجاية على الساحل الشمالى لجمهورية الجزائر الحالية حتى طرابلس في أقل من ليلة . أما بالنهار فكانت الإشارات ترسل بالندخان ، فكانوا يوقدون في البواطير أخشاباً رطبة تبعث دخاناً كثيفاً يُرى من بُعد .

بعد ذلك تجد أن هذا الرجل يصاب بمرض عصبى تختل معه أعماله وتفترقه إلى الأمور ، والمؤرخون يقولون إن « دماغه جفت » وهو تعبير غير مفهوم ، والمهم أن ذلك الرجل امتنع عليه النوم وزادت مخاوفه ، فأقبح يقتل الناس لأقل ريبة ، وظلت هذه الفترة أكثر من ست سنوات حتى خافه الناس وقرروا خلعه ، وبعثوا إلى الخليفة يشكون من أعماله ويطلبون عزله ، ولكنه تنبه لنفسه شيئاً فشيئاً قرب نهاية حكمه ، ويبدو أن الذى نهيه هو الخطر الفاطمى ، ففى ذلك الحين كان أبو عبد الله الشيعى داعى الفصيين قد ثبت أقدامه في مازل قبله كرامة التونسية ، وبدأ يغير على بلاد الأغالية فخاف إبراهيم بن أحمد وعاد إلى رشده ، وأصلح من أمر نفسه واجتهد في لم شعث إمارته .

ولكن الخليفة العباسى أرسل إليه أمراً بالنزول عن الحكم وتولية ابنة أبى العباس عبد الله مكانه .

حضارة أفريقية والمغرب أيام الأغالية :

قلنا : إن بنى الأغلب كانوا تجربة جديدة في حكم ولايات الدولة العباسية ، وإن كانت استمراراً لتدريية آل أبى حفص عمر بن قبيصة المهلبى ، وإلى حد ما تعتبر التجربة ناجحة ، فخلال القرن من الزمان تقريباً الذى دامته دولة الأغالية ، تقدمت البلاد تقدماً كبيراً محسوساً ، وازدهرت المدن وأخذت القيروان وتونس وسوسة وسفاقس طابع المدن الإسلامية التقليدية ، فازدانت بالمساجد والمنشآت

لعامة كصهاريج الماء والموئل ودور الصناعة ودور الحكم وقصور الثمراء
وكبار الناس وما إلى ذلك .

وإذا كان العصر الأغلب قد بدأ سنة ١٨٤هـ / ٨٠٠ م والبلاد فوضى
تنقسمها جماعات الخوارج والعرب البلديين ، فقد انتهى البلاد موحدة تحت
لواء السنية ، فلا نجد الخوارج إلا في أقصى الطرف الغربي لبلاد الأغلبية بن في
قلم تاهرت في المغرب الأوسط ، ولم يكن رجلاً في دولهم . وكذلك كانت هذه
جماعات إباضية صغيرة في بعض نواحي طرابلس وجبل نفوسة وجزيرة جربة ،
ولكنها لم تعد تشكل متاعب أو مصاعب للحكام .

وقبل الأغلبية لم تكن هناك شخصية واضحة لأفريقية والمغرب الأوسط ،
وكانت مدنها قري كدرة ومحطات للقوافل بما في ذلك القيرون ، والمدينة الوحيدة
التي كان لها طابع مدينة هناك كانت تونس التي احتلت بسرعة مكن قريطاجنة
فقد كانت فيها مبان ودار صناعة وأسواق . وكان أهلها من الجند العرب
يشعرون بامتيازهم دائماً ويرفضون الخضوع للقيروان .

وقد كان لبعض المهالبة اهتمام بالأبنية والمنشآت . وكان إيزيد بن حاتم دور
كبير في تزوير جامع القيرون وإشياء أسوار القيرون وتونس وتنظيمها . وكذلك
اهتم هرثمة بن أعين بإنشاء القصور للمرابطين والزهاد والحارس على الساحل ،
ولكن بنى الأغلب هم الذين مدنوا أفريقية والمغرب الأوسط

ومن أعظم أعمالهم تجديد مسجد القيروان وتونس الجامعين ، وهما
مسجد عقبة ومسجد الزيتونة ، وإعطاهما صورتها الباقية إلى اليوم . وقد
تعاقبت على مسجد القيروان أعمال التجديد منذ بناء عقبة بن نافع بناءً بدائياً ، ثم
جده حسان بن النعمان وأكملته حنظلة بن صفوان ، ولكن الذي أعاد بناءه كله
ورفع قبابه وجدد منبذته وأعطاه صورته الحالية ، كان زيادة الله بن الأغلب ، فقد
انفق في ذلك مائلاً جربلاً طوال سنوات كثيرة . وكان يقول : « ما بالي ما قدست عليه
يوم القيامة وفي صحيفتي أربع حسنات : بنياني المسجد الجامع بالقيروان ،
وبنياني قنطرة أم الربيع ، وبنياني حصن مدينة سوسة ، وتوليتي أحمد بن أبي
محرز قضاء أفريقية » . وإلى زيادة الله أيضاً تنسب أعمال ضخمة في جامع

ثونس الذي كان عبيد الله بن الجبحاب أول من بناه سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م ، ولكن ذلك المسجد لم يكتمل إلا على يد إبراهيم بن أحمد سادس أمراء البيت الأغلب ، فهو الذي أعطاه صورته البديعة التي يبدو بها اليوم وأمر ببناء قبائه المضلعة ووضع فيه عمدة الرخام وزينه بالزخارف والنفوش والكتابت الكوفية الجميلة ، وهذا الرجل هو الذي أمر ببناء القبة الكبيرة في جامع القيروان ، وهي من أجمل القباب في تاريخ المساجد ،

وكان الذي بنى جامع سوسة هو أبو العباس محمد بن الأغلب خامس أمراء الأغالبة ، ويعتبر هذا المسجد من أجمل الآثار المعمارية الإسلامية في أفريقية . أما رباط سوسة المسمى بقصر الرباط وهو من أجمل قصور العبادة والرباط في أفريقية ، فكان من إنشاء زيادة الله بن الأغلب ويسمى قصر الرباط .

وكانت عناية بنى الأغلب بالمنشآت العسكرية والمدنية لا تقل عن عنايتهم بالمنشآت الدينية ، فقد أنشأوا الكثير من الأسوار والأبراج للمدن وخاصة ما وقع على الساحل منها ، ويذكر لهم التاريخ دارين عظيمين للصناعة : أحدهما في تونس والآخرى في سوسة ، وقد كتب كل من الدارين صفحات مجيدة في تاريخ النشاط البحري الإسلامي في البحر المتوسط .

ومن نماذج المنشآت العسكرية في عصر الأغالبة الرباطات ، وهي شبيهة بالقصور التي ذكرناها ، ولكنها كانت تخصص للعجاهدين والمرابطين ، ما بين أفراد يدفعهم التقى إلى التطوع للجهاد ، وحاميات رسمية ، ولكن الغالب أن الرباط كان للأفراد ، أما الجند فكانت تبني لهم المعسكرات .

ويحيط بالرباط عادة سور مرتفع ، تقوم على أركانه وعلى مسافات منه أبراج يقف فيها الحراس ، وثوقد فيها النيران وقت الخطر ، وقد بقى لنا من رباطات عصر الأغالبة رباط سوسة ، وهو من بناء زيادة الله بن الأغلب . وهو داخل سور المدينة من ناحية البحر ، وطول ضلع سوره ٤٠ متراً تقريباً ، ويدخل السور ثلاث قاعات واسعة تسمى الأسطوانات ، مرفوعة على عمد ، وفوقها سقف يتكون من ثلاثة أقبية ، وهذه القاعات والأسطوانات يؤدي بعضها إلى بعض ، وهي تستعمل للنوم والأكل ، ويليهما صحن الرباط ، وهو مساحة واسعة مسورة

تدور حولها البوائك ، وهذه البوائك طابقان وهي تفتح أو تظل على صحن الرباط وفي ركن من اصحن يقوم مسجد الرباط .

وشبيه برباط سوسة رباط المنستير وهو أقدم منه وأجمل من ناحية الهندسة ، وقد تضخم هذا الرباط حتى صار أشبه بمدينة فيها المساكن الكثيرة ، والرباط طابقان يخصص الثاني للحراسة والعبادة ، وفي العادة يكون للرباط شيخ من أهل الصلاح هو الذي يتولى تنظيم وتسيير العبادة أو الحراسة فيه .

وقدما يتعلق بالعمارة المدنية اشرنا إلى مدينة القصر القديم التي بناها إبراهيم ابن الأغلب على نحو ٦ كيلو مترات جنوب القيروان ، لتكون معسكراً بجندته ومقاماً له ومعقلاً لأسرته ، وكانت المدينة تتكون من قصور وحدائق ومعسكرات وأماكن للعبادة . ولم يبق من آثار هذه المدينة شيء ، وكانت قد سميت بالعباسية ثم سميت بالقصر القديم تمييزاً بها عن القصر الجديد ، وهو مدينة وقادة التي بناها إبراهيم بن أحمد سنة ٢٦٤ هـ / ٨٧٨ م وقد ذكرناها .

وكانت لبنى الأغلب عناية ببناء صهاريج المياه وجبايها ، والصهريج خزان ماء فوق الأرض ، أما الجب فلا يكون إلا في باطن الأرض ، والجب مخزن واسع للمياه يتكون من حجرة واسعة قد يصل قطرها إلى ٤٠ متراً وعمقها نحو العشرين ، ثم يبنون عند الماء حجرة أو قبواً واسعاً بالحجر أو الطوب الأحمر أو الطوب المطلي بالبلاط الذي لا تؤثر فيه المياه ، وقد بطن بالرخام ، ويرفع سقف هذه الغرفة أو القبو على أعمدة وبوائك ، فإذا اكتمل جعلوا له سلالم تؤدي من سطح الأرض إلى حيث يوجد الماء في الغرفة أو القبو السفلي عند الماء ، ويجعلون للجب مداخل وممرات يدخل منها ماء المطر والهواء ، ثم يهيلون التراب فوق الجب فيما عدا المداخل وفتحات السلالم ، وتصل المياه إلى الجب عن طريق قنوات تسوق له ماء المطر ، ويستخرج الماء عن طريق فتحات في السقف تشبه الآبار ، ويخرجون الماء من الجب بالدلاء جمع دلو ، أو يهبطون بأنفسهم بالسلالم .

وأكثر الأغالب كذلك من بناء المواجل وهي أحواض ماء واسعة وعميقة تشبه انفسقيات ، ويتجمع فيها ماء المطر ، وهي دائرية مكشوفة وقد يقام في وسطها حوض جوسق يجلس فيه الأمير للراحة ، ومواجل القيروان وتونس وسوسة تعتبر من

الأثار الجميلة التي تستحق المشاهدة . ويطلق المؤرخون حديث عن القصور والمنشآت التي بناها إبراهيم بن أحمد الأغلبى في مدينته المسماة « زائدة » ويقولون : إن قصراً منها كان يسمى بغداد وآخر يسمى المختار . وفي هذه المدينة الملوكية أنشأ زيادة الله بن أبى العباس عبد الله ، وهو المعروف بزيادة الله الثالث ، وهو آخر الأغالبة ، بركة أو ماجلاً ، طولها خمسمائة ذراع وعرضه أربعمائة ، وأجرى إليه الماء بالسواقي ، ويسمى هذا الماجل الفسيح بالبحر ، وأنشأ على ضفته قصراً من أربعة طوابق سماه « العروس » وأنفق في إنشائه ٢٢٢,٠٠٠ دينار ، وما كاد القصر يتم وينتقل إليه ، حتى رحل عنه هارباً إلى مصر ، فقد كان أبو عبد الله الشيعى ، داعى الفاطميين ، قد استولى على معظم بلاد الأغالبة ، وعندما استولى على الأربس على بعد أميال قليلة من القيروان ، ترون هذا الأمير بالاده وملكه ومضى ، ولم يكن يستحق الإمارة على أى حال ، فقد تولى العرش بمؤامرة دبرها ضد أبيه وقتله ليترث ملكه .

الحياة الاجتماعية والفكرية في عصر الأغالبة :

لا بد أن نلاحظ أن ما تحدثنا به المراجع من الثورات والحروب الداخلية التي امتلأ بها تاريخ الأغالبة ، لم تكن تمس حياة العامة للبلاد إلا في حالات قليلة ، فبينما كان رجال السياسة والحرب يتطاحنون ، كانت جماعات سكان المدن وأهل المزارع ماضية في طريقها ، دون أن تعطى اهتماماً كبيراً للمنازعات والمنافسات ، بين أهل الحكم أو أهل الحرب ، إلا في حالة ما إذا دار القتال في المدن أو في المزارع ، ونستطيع أن نقول : إن حياة الناس في المدن والأرياف سارت في طريقها ، متأثرة طبعاً بظروف القلق وعدم الاستقرار التي سادت طوال العصور الوسطى ، ولكنها سارت بصورة ما ، فأخذت حياة الناس في ذلك المجتمع الأفريقى طريقها وصورها التي ثبتت عليها بتوالى الأجيال .

ومن خلال تفاصيل كثيرة ، وردب إلينا في تراجم العباد والزهاد والفقهاء وأهل الفكر وتراجم الشعراء وأهل الأدب ، ثم حوليات التساريخ ترى كيف انتظم المجتمع الأفريقى في القيروان وتونس وسوسة وصفاقس وغيرها ، على نحو يشبه

ما نعرف في المجتمعات الإسلامية في تلك العصور ، وتحمل في نفس الوقت الطابع المميز للبيئة الأفريقية .

هنا نرى كيف اتسعت القيروان وقامت فيها الأسواق والأحياء ونشأ مجتمع قيرواني محلي ، عماده الفقهاء والقضاة وأهل الزهد والورع والتجارة ونفر من المياسير وأهل الصناعة ، ونرى كيف كانت القيروان سوقاً تجارياً كبيراً تصدر منه القوافل إلى بلاد الصحراء ، ومركزاً تجارياً هاماً للقوافل المارة من الشرق إلى الغرب ، وقامت فيها حلقات الدرس في المساجد ، يؤمها للدراسة الصبيان ثم الشبان ويلبسون زياً خاصاً بأهل العلم والدراسة ، وفي هذه الحلقات يقوم شيوخ كبار لهم مقام كبير في العالم الإسلامي كله من أمثال أسد بن الفرات وسحنون وعيسى بن مسكين ويحيى بن سلام وأبي عثمان سعيد بن أحمد وأمثالهم ممن يمثلون مستوى فكرياً ودينياً عالياً .

وهؤلاء الشيوخ كانوا في نفس الوقت رؤساء الباس والمتحدثين باسمهم أمام الحكام ، لأن بني الأغلب رغم حياتهم الطويلة في أفريقية ، لم يصلوا أبداً إلى الاندراج في حياة البلاد ، وظلوا منعزلين في عواصمهم الملوكية مثل القصر القديم والقصر الجديد المسمى أيضاً « رقادة » ، يحيط بهم جندهم وعبيدهم وحواشيهم ، ولا يتصلون بالحياة العامة إلا عن طريق الشيوخ وأهل العبادة ، وهؤلاء بدورهم ما كانوا يصلون بالحكام إلا في حالة اضطراره الفصوى لاسم صفة عامة كانوا يرون أن أهل الحكم ظالمون في جملتهم وأموالهم حرام ، ولا ينبغي للرجل التقى أن يصيب من هذا المال . ولهذا كثرت اعتذارات الفقهاء عن تولي القضاء ، وفي أكثر من حالة نجد رجال الشرطة يقودون الفقيه إلى المسجد ويرغمونه على القيام بالقضاء .

وهذا تبرز شخصية سحنون واسمه الكامل أبو سعيد عبد السلام بن سعيد ابن حبيب التنوخي ، فقد كان رجلاً لبقاً نكياً ينتسب إلى بيت عريق وتصدر للإفتاء والتدريس في جامع القيروان وبلغ مكانة عالية وكان ذا مكانة عالية عند الحكام ، وقد عاصر الأغلبية الأربعة الأولى وتوفي سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٨ م وعرف كيف يسوس أولئك الحكام الذين كانت فيهم الكثير من فعان الجسرة ، وتعرض

للأذى على يد زيادة الله الأول الذي اشتدت محنة خلق القرآن في أيامه، وأصدرت الدولة العباسية أوامرها بامتحان القضاة، وكان سحنون ومعظم الظاهريين من فقهاء المغرب لا يقولون بخلق القرآن، ومن حسن الحظ أن المحنة توقفت قبل أن ينال سحنون العذاب، وألغت الدولة العباسية القول بخلق القرآن أيام المعتصم، وتصدى أهل السنة المتمسكون للانتقام من المعتزلة، وقد تولى سحنون - الذي ولي القضاء بعد المحنة - الانتقام من عبد الله بن أبي الجواد القاضي الأسبق الذي امتحن القضاة وأذى بعضهم، فجلده حتى مات. وقد ندم سحنون على ذلك ندماً شديداً وظل يتنصل من موت ابن أبي الجواد إلى آخر أيامه.

وإلى سحنون ينسب أحسن تدوين عُرفَ للسمع عن مالك بن أنس وهو المعروف بـ «الحدوة»، وهي كتاب فقهه على المذهب المالكي، يعرض مسائل الفقه الرئيسية من العبادات والمعاملات عرضاً طليغاً وموجزاً في نفس الوقت. وتعتبر الحدوة من أشمل كتب الفقه الإسلامي.

وكان طلاب العلم كثيرين، والكثيرون منهم كانوا من أبناء الطبقة الموسرة والتجار وأصحاب الضياع، وكانت الصلة وثيقة بين هذه الطبقة من الفقهاء وأهل العبدية والزهد، ومع أننا لا نسمع عن اتخاذ الناس لقصور فاخرة كما نجده في المجتمع المصري في ذلك العصر، إلا أن الرخاء كان سائداً والخير وافراً، فلا تسمع عن مجاعات أو فقر شديد إلا في النادر، وذلك يرجع إلى وفرة الأرض الزراعية في أفريقية وقلة السكان.

وكان الناس يزرعون كثيراً من الزيتون والقمح والفلول والشعير، وكانت المزارع متسعة وآمنة، ونسمع كثيراً عن المحاصيل وأسعارها في القيروان وتونس. وقد اشتهرت أفريقية في ذلك العصر، وكل عصر، بالزيتون والفواكه، وتخرج من ذلك بأن الحالة العامة كانت رخيّة، ولدينا كذلك ما يدل على أن مصانع النسيج كانت نشيطة وزاهرة في مدن أفريقية كلها، وأن أفريقية كانت تدير رغم كل شيء في طريق تقدم فكري ومادي محسوس، فكان هناك أطباء ذرو مكانة كبيرة ومستشفيات تسمى «بالدمنات»، وكان الناس يتدعون لها بالبر بالمال الكثير وكذلك كانت عناية الدولة بها كبيرة.

وتدل الإنشاءات الكثيرة التي ذكرناها على أن الهندسة والعمارة كانتا في مستوى رفيع ، وفي نهاية العصر الأغلبى ، وخلال حكم إبراهيم بن أحمد بالذات أصبحت القيروان من عواصم الفكر والحضارة في العالم الإسلامي .

ولا نعلم شيئاً عن الأحوال الاجتماعية في الناحيتين الأخريين اللتين تكونت منهما دولة بني الأغلب وهما طرابلس وبلاد الزاب ، فالأخبار قليلة أثناء ذلك العصر عنها ، ولكن صورتها ستتضح فيما بعد ، أي خلال القرن الخامس وما بعده بفضل كتبات رحانة كثيرين أولهم البغدادي ثم بر حوقل النصيبي .

والخلاصة أن العصر الأغلبى على قصره يمثل فترة انتقال حاسمة في تاريخ إفريقية ، فقد انتقلت إفريقية من قطر مضطرب غير واضح المعالم ولا محدد التكوين البشرى والفكرى ، إلى بلد وضع المعالم والسمات ، له مدنة الزاهرة ومدائنه العامرة تزيينها المنشآت الكثيرة ، وله ريفه الفسيح الذى ينتج غلات وفيرة ، وسكانه الأفريقيون الذين نتجوا عن اختلاط العرب والبربر ، وممن كان يفد باستمرار من الخراسانيين والاندلسيين ، وظهروا من أواخر القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) شعباً إسلامياً عربياً مكتمل التكوين ، وله مكانته الواضح المتميز على الخريطة العامة للعالم الإسلامى في عصره الذهبي .

دولة الرستميين في تاهرت :

الطريف في تاريخ المغرب الإسلامى أنه يقدم لنا سلسلة من التجارب في ميدان الحكم والتنظيم ، لا نجدها في غير المغرب من بلاد الإسلام . وقد رأينا كيف أن كلاً من دولة المهاربة وبني عبد الرحمن بن حبيب والأغالبة كانت تجربة سياسية تختلف كل منها عن الأخرى أكبر اختلاف ، كذلك سنرى أن تجربة الرستميين في تاهرت ، لم تكن شيئاً جديداً فعلاً في تاريخ المغرب فقط ، بل في تاريخ الإسلام العام ، قللعة الأولى نجد أنفسنا أمام تجربة إقامة إمامة إياضية خارجية ، فقد كان الحوارج ينادون دائماً باندوة مثالية ، وكانوا يسمونها **أمة** لا خلافة ، لأن الخلافة في نظرهم غير شرعية ، لأن رسول الله ﷺ لا يمكن أن يخلفه أحد يقوم مقامه . وإنما تحتاج الأمة من بين الصالحين من أفرادها ، إماماً يقودها في طريق العدل ويتولى تطبيق قواعد الشريعة الإسلامية . وكانوا ينقدون

غيرهم من المسلمين لأنهم ينشئون دولاً تخالف - من حيث التكوين والروح - ما يقضى به الإسلام . ثم جاءت فرصتهم عندما أثبتت لواحد منهم وهو عبد الرحمن بن رستم الفرصة لينشئ دولة مستقلة على المبدئ الإباضية . وسنرى كيف سار في بناء هذه الدولة وبأى نتيجة خرج .

تنسب الخارجية الإباضية إلى عبد الله بن إباح التميمي ، وكان ينادى بمذهب الإباضية الذي يعتبر من أقرب المذاهب الخارجية إلى مذهب أهل السنة .

لم يستطع عبد الله بن إباح أن يحقق حلمه في إنشاء دولة أو إمامة على المذهب الإباضي في المشرق ، ولكن أحد تلاميذه ، وهو سلمة بن سعيد ، ذهب إلى المغرب وتبين أن هناك إمكانية لإنشاء نظام إباضي فيه ، لأن سلطان الدولة العباسية ومن يمثلونها في المغرب لم يكن يتعدى غرباً مجرى نهر شلف ، وقبما يبل ذلك إلى المحيط ، كانت بلاداً لا يحكمها في الحقيقة حاكم ، وإنما استبد بأجزاء منها حكام من رؤساء البربر المستعربة أو العرب البلديين ، الذين وصلوا إلى هناك واستقروا واندرجوا في أهل البلاد . ومعنى ذلك أنه كان هناك في الجناح الغربي لدولة الإسلام فراغ سياسي يبيح الفرصة لرجل طامح أو لجماعة من المتحمسين لإنشاء دولة بعيدة عن متناول خلفاء بني العباس ، كذلك لم يكن لخلفاء بني العباس أو ولاتهم سلطان على جبل نفوسة ، وهو منطقة جببية واسعة جنوبي طرابلس ، وكان جبل نفوسة جبلاً واسعاً حصيناً وعر المسالك كثر الزروع ، تشبثت به جماعات من الخوارج الإباضية ، وقد أشرنا إلى ما كان من صراع بينهم وبين المهالبة أولاً ثم الأغالبة ، وذكرنا كذلك كيف أن زعيمهم أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري تمكن ، في سنة ١٤١ هـ / ٧٥٩ م ، من إنقاذ القيروان من الخوارج الصفرية الذين استولوا عليها وعاشوا فيها فساداً ، عندما دخلتها قبيلة ورفجومة الصفرية فنهض أبو الخطاب وتمكن من طرد الصفرية من القيروان وأقام عليها عبد الرحمن بن رستم عاملاً ، ثم عاد إلى بلاده في جبل نفوسة .

ولكن الدولة العباسية أرسلت فيما بعد قوة عسكرية يقودها محمد بن الأشعث ، استطاعت أن تهزم الخوارج الإباضية قرب ساورغا قريب من صير

سنة ١٤٤ هـ / ٧٦٦ م واستطاعت أن تخرجهم من القيروان وتقتل أبا الخطاب .
فَقَرَّ عبد الرحمن بن رستم ومن معه غرباً ، وعبروا نهر شلف ووصلوا إلى منطقة
جبلية تقع إلى الجنوب من الجزائر الحالية ، وهناك ثَبَتُوا عند بلدة حصينة وسط
الجبال ، تسمى تاهرت ، ووجدوا أنه لا يوجد هناك حكام أو نظام حكومي يقف
عقبة في سبيلهم ، إنما كانت هناك القبائل البربرية تعيش عيشتها الحرة البسيطة
التي عاشتها من آلاف السنين رغم إسلامها . وكانت هذه القبائل حسنة الإسلام
ولكنها كانت في حاجة إلى من يوحد بينها ويقيم بمعابرتها نظاماً سياسياً مستقلاً
عن طاعة الدول الكبرى ، فرأى عبد الرحمن بن رستم أن يبشئ هناك الإمامة
الخارجية الإباضية التي صالما حلم بها ، وعمل رجاله على نشر المذهب الإباضي في
هذه النواحي ، فتكونت كتلة خارجية تستطيع أن تحمل عبء الدولة ، وبالفعل ،
أخذ عبد الرحمن بن رستم ينشئ دولته على المبادئ الإباضية .

وعبد الرحمن بن رستم من أصل فارسي كما تقول المراجع . فقد كان أبوه
بهرام من موالى عثمان بن عفان ، ونشأ هو نشأة عربية إسلامية ، فدرس في
البصرة ، وهناك أخذ المبادئ الإباضية وانضم إلى أمي الخطاب عبد الأعلى بن
السمح المعافري ، وانتهى به الأمر إلى المغرب حيث أصبح الذراع الأيمن لأبي
الخطاب . وبعد موت هذا أصبح هو الإمام المعترف به للإباضيين في المغرب .

كان اختيار عبد الرحمن بن رستم لموقع تاهرت اختياراً سليماً ، لأن هذه
البلدة كانت تقع وسط الجبال ، فلا يمكن الوصول إليها من ناحية الغرب
أو الشرق بسهولة . فكانت حصينة من هاتين الناحيتين وآمنة من أي غزو من
هذه النواحي ، ثم إن المدخل إليها من الجنوب كان سهلاً ، أي أن الطريق بينها
وبين الصحراء كان مفتوحاً يُمكن أهلها من الاتصال بالإباضية في جبل نفوسة ،
والاعتزان بالقبائل الصحراوية الكثيرة التي كانت تتخذ هذه الجبال مصيفاً
وتواحي الصحراء مشتي لها . ومن المعروف أن القبائل البادية تقضي الشتاء في
الوديان ، حيث الجو دافئ والأعشاب والأياء متوافرة ، فإذا جاء الصيف سعدت
بقطعانها إلى الأعالي هرباً من الحر الشديد ، والتعاساً لأراض يكون فيها ماء
وعشب . ولم يقتصر الأمر في ذلك على قبائل البربر ، بل إن قبائل العرب أيضاً
كانت لها مصايفها ومشتاتها في حدود مجاراتها

ولكن تاهرت كانت صغيرة وكان عبد الرحمن في حاجة إلى حصن كبير ،
فصعد الجبل فوق تاهرت القديمة حتى وجد منفسحاً من الأرض وافر المياه ،
وأخذ ينشئ مدينة جديدة هي تاهرت الجديدة ، وبنائها على ضفة نهر غزير
المياه ، وحصنها بأسوار ، وأنشأ فيها مسجداً جامعاً ، وأقام إمامة إباضية ، أي
جماعة إسلامية تحكم بناء على مبادئ الإباضية من الأخوة والمساواة التامة بين
أفراد الجماعة والتقى ورعاية حقوق الله والمؤمنين .

كان الذين انتخبوا عبد الرحمن بن رستم شيوخ الإباضية ورؤساء القبائل
التي دخلت مفهوم هذا المذهب ، ويقول اشماخي وهو مؤرخ الإباضية في المغرب:
إن الناضحين راعوا أربعة أسس اختاروا على أساسها إمامهم وهي :

١ - الفضل : ويراد به العدالة ، وهي عند الإباضية جماع صفات الكمال
الأخلاقي ، من حيث سلامة الاعتقاد وصحة الجوارح ونزاهة النفس .

٢ - العلم : إذ أن العلم الكامل بالإسلام وعلومه ، شرط أساسي من شروط
الإمامة عند الإباضية ، ويعرفونه بأنه العلم الذي يوصل إلى مصلحة الجماعة في
لديها وسعادتها في الآخرة .

٣ - الوصية : ويراد بها إيضاء الإمام القائم بمن يخلفه ، ولا تكون هذه
الوصية فرضاً ملزماً للاتباع ، وإنما هي ترغيب ، وقد قدروا في ذلك ما فعله أبو بكر
قبل موته عندما أوصى لعمر رضي الله عنهما ، وكان الإباضية أميل لاتباع ما فعل
عمر من اختيار ستة من الصحابة لينتخبوا من بينهم خليفة ، وبالفعل كان إمام
الإباضيين يختار ستة من كبار أصحابه يسمون أهل الشورى . وكان عليه أن
يستشيرهم في كل ما أهم الإمامة من الشؤون ، فإذا مات كان على هؤلاء الستة أن
يجتمعوا ويختاروا من بينهم الإمام الجديد .

٤ - ألا يكون الإمام من عصبية تؤيده . بحيث لا يعتمد على تلك العصبية في
فرض سلطانه على الناس ، وكان انتخاب الإمام على هذه الأسس لابد أن يتم على
أساس الشورى ، أي حرية الرأي والاختيار . فإذا توفي الإمام أو شغل منصبه
لسبب من الأسباب اجتمع شيوخ الجماعة الإباضية ورشحوا نفرأ منهم ،
ويستحسن أن يكونوا ستة ثم يجتمع الستة ويختارون واحداً منهم إماماً .

والجماعة ليست مقيدة بأهل الشورى الذين يختارهم الأمير السابق ، ولا هي ملزمة باختيار من أوصى به الإمام السابق

هكذا قامت تجربة سياسية جديدة في تاريخ المغرب والإسلام ، وهي تجربة إقامة دولة على نظام يمكن أن نسميه جمهورياً ، نعم ، لقد حاول الإباضية قبل ذلك إقامة إمامة في عُصَن . ولكن الأمر هناك لم يخرُج عن تلك الدقة المذهبية لى جرى عليها عبد الرحمن بن رستم وأصحابه . وبالفعل انتخب عبد الرحمن بن رستم إماماً على هذه الأسس ، وسار في الناس بالعدل ، واهتم كثيراً بشؤون الدين كما ينبغي أن يكون ، لأن عبد الرحمن بن رستم كان رجلاً صادق التقى والورع واسع العلم ، وقام بحماية جماعته وإشاعة العدالة فيها ، فتوافد الناس على تهرت من كل ناحية ، فكبرت وعظم أمرها ، ونشأت فيها جاليات كبيرة من المهاجرين إليها ، وكان لكل حصالية حتى من أحياء البلد ، فهناك اكوفيون والبصريون والمصريون والقروريون أي القيروانيون والأندلسيون وما إلى ذلك ، وكلهم كانوا يعيشون في أمان ويعملون بنشاط في ظل عبد الرحمن ، الذي كان في الحق إماماً وقائداً صالحاً يتميز بسعة العلم والحلم وعمق الإيمان . فنجحت تجربته . ولكن عمره في الإمامة لم يطل ، إذ توفي بعد ثمانى ستوت من الحكم سنة ١٦٨ هـ / ٧٨٤م وكان قد أوصى قبل موته بأن يختار خلفه ستة من شيوخ المذهب والجماعة عيّنهم بأسمائهم ، وأضاف إليهم ابنه عبد الوهاب . وبعد مناقشات طويلة بين أفراد تلك الهيئة ، انحصر الاختيار بين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ومسعود الأندلسي ، ثم اسحب مسعود رضى عبد الوهاب فتولى الإمامة .

هكذا وبصورة طبيعية إلى حد كبير ، غلب مبدأ الوراثة على مبدأ الاختيار والشورى ، وربما كان عبد الوهاب أصلح الباقيين ، ولكن كونه ابناً للإمام السابق هو الذى رجح كفته . ويقال كذلك أنهم هددوا مسعوداً الأندلسي ليرغموه عن الاسحاب . ومعنى ذلك أنه على الرغم من تحمس الإباضيين لمحدثهم وإنكارهم على غيرهم الأخذ بمبدأ الوراثة في ولاية أمور المسلمين ، رغم ذلك أخذوا بمبدأ الوراثة ، وفي الواقع كانت تلك طبيعة العصر وأخلاق أهله ، لأن اختيار الإمام على مبدأ الشورى أى الانتخاب كان يتطلب تضجاً سياسياً بعيداً عن روح العصر ،

ومن ناحية أخرى كان مبدأ الوراثة متأسلاً ، من أحقاب متطاولة ، في نفوس الناس واتباعه آيسر عليهم .

وكان من الطبيعي أن ينشق فريق عن الإمام الجديد ، منكراً عليه الوصول إلى الإمامة عن طريق الوراثة ، فنشأت فرقة تسمى « النكارية » أي المنكرين لإمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، وفرقة تسمى « الوهبية » أي أنصار عبد الوهاب ، وقام الصراع التقليدي على الحكم وقعت الحرب ، وانتهت بمقتل قائد النكارية علي يد أفلح بن عبد الوهاب . وهكذا سالت الدعاء من هؤلاء المثاليين على مسألة وراثة الحكم ، ولم ينته أمر النكارية تعاملاً بهزيمتها ، بل بقيت منهم جماعات متفرقة في القبائل ، ومن بين هؤلاء سيظهر أبو يزيد مخلد ابن كيداد الدائر الإباضي النكاري على خلافة الفاطميين في المغرب .

وسارت الأمور في دولة الإباضية في تاهرت ومن كانوا يؤيدونهم من إباضية جبل نفوسة ، سيراً وسطاً بين الالتزام بمبادئ المذهب والاحتراف عنه ، وقد وقعت حروب كثيرة بينهم . وأصبحت جماعتهم بأشقاكات كثيرة وخاصة بين إباضية تاهرت وإباضية جبل نفوسة ، الذين أقاموا على أنفسهم إماماً من بينهم عندما وقعت الحرب بين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم والنكارية ، وطبق إباضية جبل طرابلس مبدأ الوراثة أيضاً ، وقد لقي منهم أفلح بن عبد الرحمن بن رستم عنفاً شديداً ، ولكن جماعتهم في تاهرت وجبل نفوسة استمرتاً فعالين المتدعب والازمات دهرأ طويلاً ، وانفصلت متهما جماعات إباضية أخرى ، مراكزها في جزيرة جربة وغدامس وواركلا . وفي كل موضع من هذه قامت إمامة إباضية صغيرة مستقلة بأمور نفسها ، وتحولت مع الزمن إلى وحدات اجتماعية واقتصادية ذات علاقات خاصة بين أفراد بعضها وبعض ، وما زالت بقايا الإباضية إلى يومنا هذا في إقليم الزاب جنوب الجزائر .

وكان آخر الأئمة هو أبو اليفضان محمد بن أفلح الذي توفي سنة ٢٢٨ هـ ، ٨٥٢ م وحكم ٤٠ سنة انتهت سنة ٢٨٦ هـ / ٨٩٤ - ٨٩٥ م ، وتعتبر فترة حكمه فترة استقرار طويلة ، وكان الدولة تناقصت قوتها في أيامه ، ومعنى ذلك أن التجربة الإباضية لم توفو إلى تحقيق أشئ الأعلى بلحكم الذي كانت تنصو به

وإن كان ينبغي أن نقول: إن حكمهم في إقليم تاهرت، كان حكماً عادلاً نسبياً وإن أحوال الناس في جماعتهم، كانت أسعد بكثير من أحوالهم في ظل غيرهم من حكام المغرب المعاصرين لهم.

وقد دامت دولتهم قرناً ونصفاً على وجه التقريب، وكان من الممكن أن تستمر أكثر من ذلك، لولا أن ظروف العصر لم تكن تسمح بقيام دولة لا تعتمد على قوى عسكرية ضخمة ومالية كبيرة إلى أمد طويل، وقد انتهت دولتهم على يد رجال الدعوة الفاطمية التي اجتثت كل دول المغرب الفاتمة في عصرها سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م. وكان الذي قضى على دولة تاهرت أبو عبد الله الشيعي، الذي مر في طريق عودته من سجلماسة بتاهرت، وخربها وقضى على آخر بني رستم، وجعل المغرب الأوسط ولاية فاطمية تابعة لأفريقية.

وكان للإباضية دور كبير في إنعاش التجارة في المغرب الأوسط وبلاد الصحراء، فقد ضمت جماعة الإباضية كثيراً من التجار الذين وجدوا الأمن في ظل لأمة. وهذا تحول تهرّب إلى مركز بحاري نسيج خلال القرنين البحري الثالث / التاسع الميلادي، فكانت قوافل التجار تدخل من تاهرت وتتجه جنوباً حتى تصل إلى واحة الأغواط في جنوب الجزائر الحالية. ومن ثم يتجه بعضها شرقاً إلى فزان ومن ثم إلى جبل نفوسة وطرابلس، ويتجه بعضها الآخر إلى «واركلا» أو «ورجلا» وكانت مركزاً تجارياً كبيراً على أبواب الصحراء الكبرى. ومن هنا نفهم كيف تحولت واركلا إلى مركز كبير من مراكز الإباضية، ومن هناك كانت القوافل تتجه إلى إقليم تافيلالت وعاصمته سجلماسة، وهي واحة كبيرة جنوبي منابع نهر المولوية. وفي واحة تافيلالت التي كانت بداية الطريق التجاري الكبير الذي يعبر الصحراء إلى أفريقية الإدارية قامت جماعة خارجية أخرى. في هذه الواحات - واحات تافيلالت - قامت دولة أو إمارة خارجية صفرية متشددة، أقامها قبيل من البربر المنسوبة وأهل لسود. يعرفون ببني البسبع بن مدرار. وعلى الرغم من أن خوارج سجلماسة كانوا صفرية، أي خوارج متشددين، إلا أنهم كانوا يتعاملون في حرية مع تجار الإباضيين. الذين كانوا يقدرون عليهم من تاهرت. ومن المعروف أن جماعات التجار متسامحة في موضوع المبادئ

المذهبية لأن الذي يهمهم هي متاجرهم ، ولهذا فقد قام تعاون وثيق بين إباضية تاهرت وإباضية نافيلالت حتى لقد تصاهر بنو رستم وبنو مدرار . أما العلاقات التجارية فكانت وثيقة جداً بين الجماعتين وغيرهم من جماعات الخوارج في الصحراء . ومن هنا قلنا نجد أنه كان للخوارج في أفريقيا الشمالية أثر كبير في انتشار الإسلام لأن التاجر السوداني ، الذي كان يريد أن يدخل في معاملات تجارية مع الإباضية ، كان يجد أن الأفضل له أن يدخل الإسلام على مذهب زملائه التجار . ولهذا قلنا : إن جماعات الخوارج تحولت في المغرب الإسلامي إلى تحالفات تجار واتفاقيات مصالح وروابط اجتماعية ، شأنها في ذلك شأن جماعات الصوقية .

ومن الملاحظ أن جماعات المنضمين إلى مذاهب صغيرة قليلة الأتباع ، تتحول إلى جماعات مصالح تجارية ومالية ، وتصبح هذه لجماعات أقليات ووحدات اقتصادية مقفلة على أصحابها ، فهم يتاجر بعضهم مع بعض ويأتمن بعضهم بعضاً ، لأن رئيسهم وهو الإمام ، يحرص على أن تقوم العلاقات بين أفراد جماعته على أساس الأمانة والصدق في المعاملة ، ولا غرابة إذن أن نجد أن قوافل التجار الصادرة من مراكز الإباضية ، اتى أشرنا إليها ، انتشرت في الصحراء الأفريقية كلها شبكة من المراكز التجارية النشيطة ، ومعظمها خارجية إباضية في الغالب وفي كل واحدة من واحات الصحراء كان لإباضية يقيمون زاوية ، والزاوية كانت مسجداً في أساسها ولكنها كانت تستعمل مركزاً لتلاقى التجار ، وتستخدم كذلك خانات أو فنادق للمسافرين هناك ، وفي صحن لزاوية كان التجار يقضون الليل ويقومون بمعاملاتهم التجارية . وكان لكل زاوية شيخ هو في نفس الوقت رئيس الجماعة الإباضية والمكلف بتنفيذ أحكام الشريعة ، وفي العادة كانت تنشر الجماعة زوايا أخرى في قرى أو واحات جديدة ، وهكذا شيئاً فشيئاً نشأت شبكة الزوايا الخارجية ، التي كان لها أكبر الأثر في نشر الإسلام في الصحراء الأفريقية امدارية ، أي بلاد تشاد والنيجر ومالي وقولت ، وكذلك في السودان النيلي في مناطق كردفان ووادى ثم في منطقة بحيرة تشاد نفسها ، التي قامت فيها دول إسلامية أهمها البورنو واكنتم .

تلك كانت الخدمة الحضارية الكبرى التي قامت بها الجماعات الإباضية .

التي نشأت أساساً في جبل نفوسة وتاهرت والأغواط وواركلا وسجلماسة ، ثم شملت كل نواحي الصحراء . وعندما غزا العرب الهلالية أفريقية والمغرب في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، زال المذهب الإباضي وحلّت محله السنة ، فأصبحت مراكز التجارة والزوايا إسلامية سنية ، ولم تبق من الإباضية إلا آثار قليلة في نواحي « مصاب » أو « مزاب » في جنوبي الجزائر الحالية ، حيث ما زالت تقوم جماعات إباضية متميزة بطابعها الديني ، وكذلك في واحات واركلا والأغواط ثم في جبل نفوسة ، جنوبي طرابلس الحالية وفي جزيرة جربة في تونس ، حيث نجد إلى يومنا هذا جماعات إباضية زاهرة .

الأداسة

من الأخطاء الشائعة القول بأن دولة الأداسة دولة شيعية ، لأن مؤسسها وأمرءها كانوا من آل البيت . والحقيقة أن الأداسة رغم علويتهم لم يكونوا شيعيين ، بل لم يكن أحد من رجال دولة الأداسة أو أتباعهم شيعياً ، فقد كانوا سنيين ، لا يعرفون الآراء الشيعية التي شاعت على أيام الفاطميين ، ولم يعرفوا في بلادهم غير الفقه السني المالكي . ومن البدهي أن آل البيت لا يمكن أن يكونوا شيعية لأحد ، أما الشيعية فهم أنصارهم . والوصف الصحيح لهذه الدولة هو أنها كانت دولة علوية هاشمية ، وهي أول تجربة نجح فيها أهل البيت في إقامة دولة لأنفسهم ، وهي من هذه الناحية تهمنا كتجربة سياسية في سلسلة تجارب الحكم في تاريخ المغرب ، وسلسلة تجارب أيضاً في تاريخ الإسلام العام ، وهو حافل بهذه التجارب من كل نوع .

ودولة الأداسة من الدول الطويلة العمر . فقد قامت في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ، ولكنها لم تنته تماماً إلا في أواخر القرن الرابع الهجري (١٠١٠ م) . وقد عمرت فوق القوتين ونصف ، أي ضعف ما عمرته دولتا الأغالية والرستميين ، وثبتت لحنسة الفاطمية وجيوشها ، وخاضت طوال تاريخها حرباً بقاء أو موت مع الدولة الأموية الأندلسية حياً وبنى حياً ، وبعد ذلك مع الدولة الأندلسية ، وكانت دائماً من صفار الدول سواء في سعة مملكتها أو قوة أمتها ، ولكنها كانت من أهمها من الناحية الحضارية ، فقد كان لها في تاريخ المغرب أثر حاسم في صياغة مذهب السنة من ناحية ، وتعريب البلاد من ناحية أخرى . وقد مرت بفترات احتضار طويلة وانتعشت مرات كثيرة .

وكما قامت دولة الخوارج الإباضية في تاهرت نتيجة للطموح السياسي لرجال الإباضية ، ورغبة قبائل المغرب الأوسط في إقامة كيان سياسي لها ، فكذلك قامت دولة الأداسة على أساسين .

الأول : طموح العلويين إلى إنشاء دولة لهم بعيداً عن متناول الدولة العباسية

والثاني: رغبة قبائل المغرب الأقصى في إنشاء كيان سياسي خاص لهم .

وهذان هما العاملان الرئيسيان في قيام هذه الدولة ، ولكتنا في كل ما يتصل بالمغرب ودوله ، ينبغي أن نبحث عن العوامل المحلية المتعلقة بالتركيب القبلي للشعب البربري . وكذلك المنطقة بطبيعة الاندلس التي برز بها انتشار بربر المغرب .

وقد سبق أن ذكرنا أن المغرب الأقصى ينقسم من حيث المناطق ذات الوحدة الجغرافية ، التي يمكن أن تقوم فيها وحدات سياسية متماسكة ، إلى ثلاثة أقاليم : إقليم الساحل لشمالى المعروف تاريخياً بإقليم طنجة ، ويشمل شريط الساحل الشمالى ، ثم منطقة الريف الجبلية ، وهي ليست فرعاً من جبال الأطلس ، وإنما هي فرع من الجبال الأيبيرية ، ويتبعها السهل الواقع جنوبي جبال الريف . ويعرف بإقليم نهط أو إقليم أرغان . والمنطقة الثانية حوض نهر سبو ونهر شس الجزء الشمالى من ساحل المغرب الأقصى المطل على المحيط الأطلسى ، وهو سهل قسيح يمتد جنوباً حتى يصل إلى حوض وادى بورجرج أو أبو الرقرق ، ويشمل جزءاً كبيراً من السفوح الغربية لجبال الأطلس . هنا نجد المهد الحقيقي لتاريخ المغرب العربى الإسلامى وتلك هي المنطقة لثانية . والمنطقة الثالثة هي المنطقة التى تقع جنوب نهر سبو وتشمل حوض نهري وادى أم الربيع ووادى تانسيفت وهذه المنطقة أوسع وأغنى من المنطقة الشمالية ولأن لجبال تنسحب هنا كثيراً إلى الداخل تاركة سهلاً ساحلياً قسيحاً يسمى ساحله بريف تانسنا شمالاً وريف دكالة جنوباً . وتنقسم إلى الأطلس العليا والأطلس الداخلية أى الأنتلى اطلس ، وهنا تجد المجال الذى ستفسح فيه القبائل البربرية الصنهاجية الكبرى ، التى أنشأت دولة المرابطين ، والمصمودية التى أقامت دولة الموحدين بعد ذلك . ويدخل في هذه المنطقة الثالثة إقليم السوس الذى يقع على الساحل بين فرعى جبال الأطلس .

ويحد المغرب الأقصى وادى نهر مولوية الذى يصب في البحر المتوسط ، وإلى الشرق منه قليلاً نجد الحد بين المملكة المغربية والمغرب الأوسط .

وتقوم جبال الأطلس حاجزاً بين المغربين الأوسط والأقصى ، ولكن هناك معر

واسع بين الجزء الشمالي من جبال الأطلس وجزئتها الجنوبي ، وهذا الممر يعرف بممر تازا ، وهو من المواضع الحاسمة بالنسبة لتاريخ القطريين ، ومن سيطر على ممر تازا سيطر على الطريق الرئيسى المؤدى من الجزائر إلى المغرب الأقصى .

وقد قامت الحياة السياسية في المغرب الأقصى أولاً في الشمال . في منطقة طنجة حيث نجد مركز الوالى العربى الذى كان يحكم هذه الناحية ، ويحاول أن ينشر سلطانه عليها ، ولكن قبائل برغواطية وغمارية ، التى كانت تسكن هذه المنطقة الجبلية ، ظلت متمسكة بمذاهب دينية منحرفة عن الإسلام ، عرفت بزندقة برغواطية . وكانت هذه الأخيرة ومن تبعها ، تهدد كل القبائل المغربية الأخرى ، مما حدا بهذه كلها إلى البحث عن زعيم يجمع شتاتها ، ويعينها على تكوين دولة تقوم بمحاربة برغواطية ومذاهبها ، وتساعد هذه القبائل على إنشاء كيان سياسى لها يؤمن مصالحها ، ويُمكن لها من الوصول إلى الرياسة

كانت الظروف إذن ممهدة لزعامة سياسية في شمال المغرب الأقصى ، زعامة تمكن القبائل البرنسية هناك من الخلاص من سلطان برغواطية أولاً ، ثم تمكن لها الأخرى من إنشاء دولة وكيان سياسى ، أى دخول ميدان التاريخ بحسب تعبيرنا ليوم .

هذا الزعيم أرادت المقادير أن يكون إدريس بن عبد الله بن المحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، وهو أحد الأشراف الذين هجروا من مكة موضع يسمى باسم « فخ » ، أوقع العباسيون فيه بجماعة من العلويين من أحفاد الحسن بن على ، كانوا يدعون لأنفسهم ويطمحون إلى أن يقيموا لأنفسهم دولة ، وكانت المأساة في سنة ١٦٩ هـ / ٧٨٦ م في خلافة المهدي العباسى .

وقد قُرب الناجون من هذه الواقعة إلى أطراف البلاد ، وكان من الذين فروا يحيى بن عبد الله الذى هرب إلى بلاد الديلم جنوبى بحر قزوين وسبب للعباسيين متاعب كثيرة ولكنهم قضوا عليه في النهاية ، ولكن أسعدهم حظاً ، كان أخاه إدريس بن عبد الله ، هذا الذى أبعد في الهرب حتى وصل إلى المغرب ، ثم لحق به أخوه سليمان الذى أنشأ لنفسه بمعاونة أخيه إدريس كياناً سياسياً في نواحي تلمسان .

ولا ندري إن كان إدريس يعلم شيئاً عن المغرب عندما فر إليه ، لكن مولاه راشداً الذي فر معه إلى المغرب كان يقال إنه بربري الأصل . ولا نستطيع أن نعلق أهمية كبيرة على هذا القول ، فإنه حتى لو صدق ، لا يمكن أن يكون عاملاً رئيسياً في قيام دولة ، ولكنه على أي حال وجّه إدريس نحو المغرب ، وقد يكون راشد يعرف اللسان البربري الذي يتكلم به الناس في هذه النواحي من المغرب الأقصى ، ولكن الأهم من ذلك هو أن راشداً كان رجلاً ذكياً حسن التصرف بعيد النظر ، وهو مؤسس الدولة الإدريسية دون شك .

تقص لنصوص عليا حكاية روائية عن هروب راشد وإدريس إلى المغرب الأقصى ، نجتزئ منها بالقول بأن راشداً وإدريس خرجا إلى المغرب في زى التجار مع القوافل ، فكان راشد هو السيد وإدريس خادمه ، يأمره أمام الناس فيطيع أمره وذلك لحفى شخصيته ، وبعد رحلة سنتين أى خلال سنة ١٧١ هـ / ٧٨٨ م ظهر الاثنان في طنجة ، وأخذ راشد يدعو لأمر علوى يحمل راية الإسلام ، ويخلص الناس من الظلم والزندقة .

وكانت دعوة راشد لرجل من أهل البيت كافية لتكسب الانصار ، ولكن يبدو أن التوفيق لم يكن كبيراً في طنجة ، وكانت عاصمة المغرب في ذلك الحين ، وأحس راشد أن مكان القوة الحقيقي يكمن في وسط قبائل أوربة ، وكان مركز الجناح الغربى لهذه القبائل في مدينة وليلي عند قاعدة جبل يسمى « زرهون » ، وتقع في منتصف المسافة بين فاس ومكناس الحاليتين

وكانت وليلي مركزاً تجارياً ممتازاً وسوقاً عظيمة للقبائل ، وعرفت في أيام الرومان باسم Gualula ، وهى من هذه الناحية أصلح ما تكون كمركز لدعوة سياسية ، وأما أوربة فكانت تتزعم مجموعة قبائل ضخمة تمتد من الأطلس الأوسط إلى وادى سبو ، وقد عرفنا هذه القبيلة أيام كسيلة ، وأينا صراعها مع عقبة بن نافع ثم زهير بن قيس . وتدخل في هذه القبائل مجموعة غمارة وهى أيضاً قبائل برنسية تمتد في حوض سبو وإقليم الهبط ، الذى يسمى لهذا أحياناً هبط غمارة وريف تامسنا على ساحل المحيط الأطلسى .

نزل إدريس مدينة وليلي في ربيع الأول ١٧٢ هـ / أغسطس ٧٨٨ م وبدأ

يدعو لنفسه ، ولم يكن من العسير عليه أن يكسب أنصاراً ، فإن شيوخ أوربة كانوا مستعدين لتأييد زعيم يقومهم في ثورة تخرجهم من سلطان مرغواطة وينشئ لهم دولة تضاهي دولة بني رستم في تاهرت ، وكانت قرابته من الرسول كافية لاجتذاب القلوب إليه ، خاصة إذا أضفنا إلى ذلك خبر مناساة « فع » وما وقع للعلويين فيها من القتل والتشريد ، وهم سلالة النبي الأكرم لهذا سعى الناس حول إدريس في حماس ، وقام إلى جانبه راشد ، يدبر له الأمر ويجمع له القلوب ، وبعد قليل أصبح إدريس أمير وليل وزعيم الجناح الغربي من قبيلة أوربة . وتبعه كذلك عدد من الفروع الصغرى من قبائل الساكنة في هذه النواحي وكانت تقوم على برعوظة ، وأهم هذه الفروع قبيلة غمارة وكانت إلى ذلك الخمس جمعاً قنبلاً ضخماً مفككاً يحسن عبء برغواطة واستبددها ، ومع غمارة انضممت إلى إدريس قطع من زاووة وسدراتة ونفزة ومكناسة .

وبقوات هؤلاء استطاع إدريس أن يسود حوض سبو وبعض المنطقة الشمالية من المغرب الأقصى . وسار بقواته متقبلاً في هذه النواحي يحصي القبائل أو يتلقى طاعتها ، حتى امتد سلطانه في أقل من عام من تلمسان إلى ريف تامسنا ، ومن طنجة إلى وادي أم الربيع وهي رقعة فسيحة غنية ، ومهد لدولة يحسب لها حساب .

هذا تنبه هارون الرشيد إلى ما يمكن أن ينجم من الخطر من هذه الدولة ، وكان أكثر ما أخافه أن أميرها علوي من أهل بيت ، ولأهل البيت مكان عظيم من حب الناس ، وخاصة بعد الذي جرى لهم على أيدي الأمويين أولاً ، ثم العباسيين بعد ذلك ، وربما كانت هناك معالفة كبيرة في تصوير مخاوف الرشيد ولكن أيام إمارة علوية في أي مكان من بلاد الإسلام ، أمر لا يمكن أن يستريح له العباسيون .

وتذهب الحكايات إلى أن الرشيد تدارس أمر إدريس مع جعفر البرمكي ، فتبيننا استحالة إرسال عساكر إلى المغرب ، للقضاء على إمارة إدريس بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، ولم يجد أمامهما إلا الاحتمال في اغتيال له بالسهم ، فوقع اختيارهما على رجل جريء يسمى سليمان بن جبريل

ويدعى بالشماخ فحمل السم ومضى إلى المغرب ودخل في خدمة إدريس وكسب ثقته ، ثم تحيل قدس له السم في هيئة طيب دخل في خيشومه كما تقول القصة الشعبية التي نقلها المؤرخون على أنها تاريخ . وانتهى إلى دماغه فغشى عليه وسقط على وجهه لا يحس ولا يعقل ولا يعلم أحد ما به ولا ما أصابه . ثم توفي في ربيع الأول ١٧٥ هـ / يونيو ٧٩١ م . والحكاية لا يمكن قبولها ، ولكنها تصوير لاستنكار الناس موت هذا الرجل بعد ثلاث سنوات من قيام دولته ، فإن موت الرحان في عنفوان قوتهم يدورع النفوس ، وخاصة إذا جاء فحاة ونتيجة لمرض باطني مجهول .

وهنا تبين لنا مهارة راشد الذي كان المدير الحقيقي لهذه الدولة ومحور العمل فيها . ومن حسن حظ راشد أن إدريس لما توفي ترك إحدى جواريه ، وتسمى « كنزة » حاملاً قاتفق راشد مع رؤساء القبائل على أن ينتظروا حتى تلد « كنزة » ، فإذا ولد غلاماً كان أميرهم . وتسير القصة فيكون المولود ولداً ، فيسمونه إدريس على اسم أبيه وبايعوه وهو بعد في المهد . ولا شك أن الذين فعلوا ذلك كانوا شيوخ لقبائل . وكان عريزاً عليهم أن يضيع السلطان الذي وصلوا إليه باسم أمير من أمراء البيت القبوي . ولهذا انتظروا حتى بلغ غلاماً عشر سنوات وبايعوه مرة أخرى سنة ١٨٦ هـ / ٨٠٢ م . وأهم راشد بتربيته وتكوينه وإعداده للإمارة .

ثم مات راشد عقب ذلك ، فليل : إن إبراهيم بن الأغلب تحيل في سمه ، وهكذا بقي الغلام إدريس دون راع حقيقي . فقام بهذه المهمة شيخ من شيوخ البربر يسمى أبا خالد يزيد بن إلياس العبدى ، فجدد البيعة لإدريس سنة ١٨٧ هـ / ٨٠٢ م ، واستمر ولاء انقبائل له . وفي سنة ١٩٢ هـ / ٨٠٨ م — وكادت سن إدريس ١٧ سنة — يختفى أبو خالد من الميدان بتهمة السواطىء مع إبراهيم بن الأغلب ، ألهم لديهم أن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن أو إدريس الثاني ، بدأ يحكم مستقلاً بنفسه ابتداء من سنة ١٩٢ هـ / ٨٠٨ م .

عقب ذلك مباشرة نجد كثيرين من مهاجرة العرب يقدون على إدريس من القيروان خاصة ، ويدخلون في خدمته . ويتجه نظره إلى الخروج من وبيو ، ربما

لأنه كان يريد التحصن من سلطان قبيلة أوربة ، فدلّه الناس على واد بصالح مدينة على أحد فروع نهر سبو بين جبلين ، يسمى وادى فاس فأنشأ فيه بلدة صغيرة ، سميت « عدوة ربض القرويين » ، ثم وفدت جماعة من مهاجرة قرطبة وأنشأوا قرية مجاورة ، عرفت باسم عدوة الأندلسيين ، ومن العدوتين تكونت مدينة فاس وابتنى إدريس لنفسه داراً في عدوة القرويين وشرع في إنشاء مسجد فاس الجامع ، وانتقل إلى فاس وأصبحت عاصمة دولة الأدارسة من سنة ١٩٦ هـ / ٨١١ م ، ودخلت دولة الأدارسة في الدور الحاسم من تاريخها .

وابتداء من ١٩٧ هـ / ٨١٢ - ٨١٣ م بدأ إدريس سلسلة حملات ، شنت سلطان الدولة ، من تلمسان إلى ساحل المحيط الأطلسي ، ونشط لحرب الجوارح في جبال الأطلس . ودارت حرب طويلة بينه وبين البرغواطيين ، وفي هذا الدور من تاريخ الأدارسة حمل العبيد رجال قبيلتي أوربة وغمارة بشكل خاص ، كما حملت كتامة عبيد الدولة الفاطمية في أول قيامها .

ومات إدريس الثاني في ربيع الأول سنة ٢٠٢ / سبتمبر ٨١٨ ، بعد أن بُتت دعائم الدولة ، بعد حروب طويلة ومؤامرات خطيرة من جانب مناقسيه من بني الأغلب خاصة .

بعد وفاة إدريس الثاني نجد ابنه وخليفته محمد بن إدريس يتصرف تصرفاً غريباً وغير معقول ، فيقوم ، بناء على نصيحة جدته كثرزة ، بتقسيم الدولة بين أحواله الكثيرين ، وكان المعقول أن يقيسهم عدلاً أو ممشى لدولة ولكن أعطاهم نواحي الدولة إقطاعات ينفرد كل منهم بناحية منها ، فكان هذا سبباً في ضعف الدولة وهي بعد لم يكتمل عمرها . ومع أن محمد بن إدريس احتفظ لنفسه بالرياسة واعتبر إخوته أتباعاً له ، إلا أن بعض الإخوة اتجه إلى الاستقلال بناحيته تأسيساً أن قوة الدولة الإدريسية تكمن في ترابط رؤسائها من أفراد البيت الإدريسي العلوي ، الذي كان يتمتع في قلوب الناس بمكانة جليلة .

وكان التقسيم كما يلي :

ابن قاسم : سبتة وطنجة وقلعة حجر النسر والبصرة وكناتهما جنوبي تطوان .

وكانت تطوان في إقطاعه كذلك .

عمر : بلاد الهبط أو هبط غمارة .

داوود : بلاد هواره وتسول وتازا وما بينهما ، بما في ذلك مواطن قبائل
مكناسة وغيانة .

عبد الله : أغمات وبلد تفيش وجبال المصامدة وبلاد لحطة والسوس الأقصى ،
في أقصى جنوب المغرب الأقصى .

يحيى : أصيلا والعرائش وبلاد زواغة .

عيسى : مثالة وسلا وآزمور وتامسنا وبرغواطة .

أحمد :مكناسة وتادلا وما بينهما من بلاد فازان .

حمزة : ويلي أعمالها .

ابن عمه سليمان : تلمسان .

واكتفى هو بفاس حاضرتة وأقام فيها ، ويلاحظ أن التقسيم كان يعطى كلاً
من أولئك الإخوة الكثيرين ، بلداً أو أكثر وإقليما تسكنه قبيلة أو قبائل ، وكان له
الحق في الاستيلاء على معظم المال الذي يجمع من الناحية .

وكان من الطبيعي أن ينقلب بعض الإخوة عليه ، وأن يتحاربوا فيما بينهم ،
وقد استعان محمد بأخيه عمر على التأثيرين من إخوته وأعطاه أعمالهم ، فالتسعت
ولاية عمر حتي بلغت عند موته نصف الدولة الشمالي والغربي كله ، ثم خلفه
عليها ابنه علي بن عمر بن إدريس .

وعندما مات محمد بن إدريس الثاني سنة ٢٢٦ هـ / ٨٢٦ م ، ترك دولة
مُفَرَّقة مُقسَّمة وضعيفة .

وقد خلفه ابنه علي الأول بن محمد ويسميه ابن خلدون « حيدرة » ، وحيدرة
لقب كان يطلق على علي بن أبي طالب ومعناه الأسد ، وكان غلاماً في التاسعة ،
فحكم تحت وصاية أقاربه ورجال الدولة حتى توفي سنة ٢٢٤ هـ / ٨٤٨ م ،
وعهد بالامر إلى أخيه يحيى الأول بن محمد .

في عهد يحيى هذا بلغت فاس أوجها أيام الإدارة ، فقامت فيها المنشآت

الكثيرة وامتدت عن سفوح الجبال ، وأنشئ جامع القرويين على يد السيدة فاطمة بنت محمد الفهري ، وجامع فاس من مساجد الإسلام المشهورة ، وقد أصبح مركزاً للعلم والدراسة من أول نشأته ، وقد تحول بعد ذلك إلى جامعة ، مثله في ذلك مثل الجامع الأزهر . ولكن جامعة القرويين أقدم من جامعة الأزهر . وهي عميدة الجامعات الإسلامية وربما عميدة جامعات الدنيا .

وبعد يحيى الأول حكم ابنه يحيى الثاني وكان شاباً طائشاً غير أهل للحكم ، فثار عليه الناس وطرده فاختفى ومات في مخبئه ، واحتاروا ابن عمه علي الثاني ابن عمر بن إدريس الثاني ، الذي كان يحكم جزءاً من الدولة أعطاه إياه أخوه محمد بن إدريس كما قدمت ، فانتقل الملك إلى فرع عمر بن إدريس ، ولكن علي الثاني هذا ثار عليه أحد زعماء الخوارج الصفرية ففر إلى قبيلة أوربة ، وتولى بعده يحيى الثالث بن القاسم بن إدريس الثاني ، أدى صرف وقته في قتل الخوارج الصفرية من ٢٩٢ - ٣١٠ هـ / ٩٠٤ - ٩٢٢ م حتى قتله الربيع بن سليمان . فانتقل الملك إلى يحيى الرابع بن إدريس بن علي بن عمر بن إدريس . وسور ابن خلدون عنه : إنه كان أوسع أمراء الإدارة سلطاناً واشتبه ملكاً . وفي ذلك مبالغة دون شك .

وفي سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٧ - ٩١٨ م وفي إمارة يحيى هذا أقبل جيش كبير من أنصار الفاطميين على رأسه مصالة بن حبيب الكمامي قائد عبيد الله المهدي الفاطمي وهدفه إزالة دولة الإدارة ، وانتصر مصالة ، ثم ولّى علي المغرب الأقصى شيخاً من شيوخ المرز وهو موسى بن أبي العافية شيخ مكناسة ، وجعه عاملاً على تسول وبلاد تازا ولكنه لم يُقَفْ أميراً على فاس ، وكان من الطبيعي أن يطمع موسى بن أبي العافية في أن يحل هو محل الإدارة في دولتهم ، وبالفعل تم له ذلك سنة ٣١٢ هـ / ٩٢٥ - ٩٢٦ م فقام بالقضاء على أمراء الإدارة القائمين بالأمر في بعض نواحي المغرب الأقصى ، ونفى الباقين إلى قلعة في جبال الريف تسمى حجر النسر .

إلى هنا ينتهي الدور الأول من تاريخ الإدارة ، لأن الباقين منهم سيستجمعون أمرهم في قلعة حجر النسر ، وتكون لهم نهضة ودولة جديدة على

يد زعيم حديد من أحفادهم الذين ختطوا بـ جبر احتلالاً شديداً وأصبحوا من أهل البلاد ، وهو الحسن بن قنن أو جثون أو كثنون ومعناه « الجميل » .

وهذا نقف بتاريخ الأداوسة ، لأن الدور الثانى من تاريخ الأدارسة وهو دور بنى قنن شديد التعقيد ، وهو شديد الصلة بالصراع بين الفاطميين والامويين الأندلسيين على مصير المغرب الأقصى

وفى سلسلة التجارب السياسية التى مر بها تاريخ المغرب منذ الفتح الإسلامى - وقد ذكرنا أهمها إلى الآن - بعثت الدولة الإدريسية الخصة الأولى فى بناء الكيان السياسى والاجتماعى للمغرب الأقصى العربى المسلم ، فللمرة الأولى منذ الفتح تقوم هذه دولة إسلامية ظاهرة بعروبة - فقد كان أمراء الدولة وابكتهم من رجال دولتهم عرباً ، ولكن الدولة نفسها قامت على أكثاف البربر المستعربين ، وخاصة قبائل أوربة وغمارة ومكناسة وهوارة ولواتة ، فكانت الغلبة فى هذه الدولة لأولئك البربر ، مما أسرع تهريبهم ، وعجل بقيام المغرب العربى .

وقد نجحت الدولة الإدريسية فى انقضاء على الجانب الأكبر من انحراقات برغواطية ومن لف لفها من القبائل ، وكان لابد من ذلك لأن العروبة الصحيحة لا تستقيم إلا مع الإسلام الصحيح ، ومن النادر أن تأتلف العروبة مع مذهب آخر غير المذهب السننى ليسيظ الواضح

وكان دليل قيام ذلك المغرب الأقصى العربى المسلم هو قيام مدينة فاس وحامعها العظيم ، وكما كان قيام القيروان هو الخطوة الأولى فى قيام عروبة الإسلامية ، فكذلك كان قيام فاس الخطوة الحاسمة فى قيام المغرب الأقصى العربى المسلم . فقد أصبحت فاس مركزاً رئيسياً للثقافة العربية الإسلامية ، وأخذت جامعتها تثبت مكانتها إلى جانب مراكز العلوم الإسلامية الأخرى .

وفى فاس ومدن المغرب الأقصى مثل سلا وطنجة بدأت تقوم مراكز الدراسة الإسلامية ، وبدأ يتكون المجتمع العربى المغربى المسلم ، وهذه نتيجة ليست بالهينة ، إذ إنها تعتبر الخطوة الحاسمة فى لتغير الكبير الذى جعل المغرب الأقصى بلداً عربية كاملة العروبة والثقافة .

الدولة الفاطمية في المغرب

٢٩٦-٣٦٢ هـ / ٩٠٩-٩٧٣ م

رأينا أن تاريخ المغرب في فلال الإسلام ، سلسلة من التجارب المتنوعة في الحكم والإدارة ، وأن أهل المغرب الأصلاء - وهم البربر - والعرب الذين استقروا في البلاد ، أثناء الفتح أو بعده ، وتحولوا إلى عرب أفارقة أو عرب بلديين ، خاضوا غمار تجارب وصراعات عنيفة مثالية تهدف إلى إقامة حكم إسلامي في ذلك القطر القسيح ، الذي استيقظ مع الإسلام من سبات القرون ، ودخل ميدان التاريخ يجرب حظه أو يبحث عن مصيره . ومن ناحية أخرى جهدت الحكومة المركزية ، سواء في دمشق أو في بغداد ، في السيطرة على هذه البلاد وتحويلها إلى ولاية إسلامية خاضعة طائفة . تؤدي للدولة ما يقرر عليها من مال وتبني بالطاعة للرأي الذي ترسله الدولة .

ولم تفلح الدولة الأموية أو العباسية في ذلك ، لأن شعب المغرب من برقة إلى طنجة وسلاط السوس كان شعباً بكرأ عفاً ، وجد نفسه في الإسلام وتحت مواهبه على عقيدته وشريعته ، فأسلمت من جماعات هذا الشعب أعداد غفيرة ، انضمت إلى حيوش الإسلام الفتاحة . وأكملت معها فتح المغرب إلى السوس ، ثم موسى بن نصير خاصة ، وأسهمت بنصيب الأسد في فتح الأندلس . فأصبحت بذلك أعضاء أصيلة في جماعة الإسلام الكبرى ، وطالبت بتصيبها الحق الذي يعطيه الإسلام ليه . ونسبت في صفوف بعض جماعات حوارج تؤولهم على لدولة الأموية . وتبين لهم حقوقهم التي يمنحهم بها الإسلام . فكانت مذهب الخارجية وثورة أفريقية وصراع العرب والبربر ، وقامت في نواحي أفريقية والمغرب الكيانات السياسية المتنوعة ، مابين سنية ، كما نجد في إقليم أفريقية كله ، أو خارجية إباضية ، كما رأينا في تجربة بني رستم في تاهرت ، أو إباضية صقرية كما رأينا في دولة آل مدرور في سجلماسة ، أو خارجية دون تحديد مذهب ، كما كان الأمر مع دولة أبي قررة المغيلي الخارجي في نواحي تلمسان . أو سنية

قامت تحت راية نغر من آل البيت ، أو دويلات قبلية ذات مذاهب بعيدة عن الإسلام كما رأينا في رندقة برغواطة .

وكل هذه كانت تجارب مغربية ، إما خالصة ، أو مغربية عربية اشترك فيها العرب والبربر كما رأينا في محاولة عبد الرحمن بن حبيب وأنه ، وتجربة المهالبة ودولة الأغالبة . كل هذه التجارب ، ما تجع منها وما لم يتجع ، وما طال عمره أم لم يطل ، وما كان عربياً أو بربرياً ، كانت تجارب ذات صلة بأوضاع المغرب ، أي أنها كانت في نهاية الأمر تجارب مغربية ، وتجاربها حلقات من الطريق الطويل الذي خاضه المغرب لكي يكتشف ذاته في النهاية ويتم إسلامه واستعراجه ، ويصبح جزءاً من ذلك العالم العربي الشاسع ، تقوم فيه الدول المغربية العربية التي تحمل جانبيها من المستولية عن الإسلام ، ومصره في بلادها وخارجها ، حملات كاملاً كما سنرى في دول المرابطين والموحدين والمرينيين ومن عاصروهم وجاء بعدهم إلى يومنا هذا .

ولكن التجربة التي سنوجز الكلام عنها في الصفحات التالية ، وهي تجربة الدولة الفاطمية وقيامها في المغرب ، كانت تجربة غريبة عن المسار العام للتاريخ المغربي ، أو قل هي شجرة غريبة زرعت في أرض المغرب وثمت وارتفعت فروعها في الهواء حيناً ، ولكنها لم تضرب جذوراً ، ولا أضافت إلى طوائف التجارب السياسية في المغرب شيئاً تابِعاً من تربة تلك البلاد ، إنما هي كانت بذرة عقيمة مشرقة غريبة عن بلاد المغرب ، حملتها أعاصير السياسة والزمان إلى أرض المغرب ، فكان لها فيه شأن ، ثم مضت مخلفة وراءها قلقاً شديداً ودماراً بعيد المدى ، ولكن وريثها ، وهم صنهاجة المغرب الأوسط من آل زيري بن حنّاد عرفوا كيف ينشئون على القليل الذي ورثوه عن الفاطميين ، بناء مغربياً عربياً أصيلاً ، يمثل في دولتي بني زيري أحصها جبين الدين سلّم تاريخهم في نفس الذي والقليل من انعم بشئون السياسة والدول الذي ورثه بن زيري عن الفاطميين كان غير قوي أو كاف عن إنشاء الدولة وكيف سنون ولكن الفاطميين خلّوا بهم أساساً عربياً سليماً كان بعيد الأثر في تعريب المغرب ، لأن بني عبّيد الله أيّ كان الرئي في سبهم كانوا عرباً أقاموا في أفريقية بناء سياسياً . وكانت فيهم رعم من

شيء فحولت عربية أصيلة ، وتلك — فحسب — هي أكبر ما ورث المغرب الإسلامي من تجربة الفاطميين ، ثم إنهم — أي الفاطميين — عندما أرادوا إرغام بنى زيري عن العودة إلى الطاعة قذفوا على المغرب بآل هلال وال سليم بن منصور فاثاروا في المغرب أعاصير مدمرة . ولكن الأعاصير عندما هبات ، كانت قد نثرت في المغرب كله بذوراً عربية أصيلة . كان لها أثر حاسم في تكوين المغرب الإسلامي العربي .

وقد كان قيام الدولة الفاطمية في المغرب ، ثمرة من ثمرات الأزمات السياسية الكبرى وصراع السلطان في المشرق ، لأن بنى العباس ، الذين دخلوا التاريخ دخولاً ضخماً ذا دورى بعيد ، معلنين مجيء دولة العروبة والإسلام التي تقيم دولة العدالة والسنة إلى آخر الزمان ، لم تلبث على حال من القوة إلا قرناً واحداً من الزمان ، ثم انتابتها البطل والفتن والأزمات ، لأنها انحرفت بصورة الحكم الإسلامي ، التي تقوم على الشورى والعدالة والحرية وكرامة الإنسان ، وارتدت إلى قواعد الحكم الساساني ، واستلهموا عهد أردشير بن بابك من أصول الحكم وغايته . وانتهى الأمر إلى وضع السلطان في يد الثالث المدمر الذي قضى على آل ساسان : ثالث السلطان أو كسرى في ثوب الخليفة ، والوزير المدبر لكل شيء باسم السلطان ، ثم القوة العسكرية المناجورة بأمال . وفي أثناء صراع الأمين وأماون تحلى آل العباس عن قاعدة العروبة ، لا بالاسم ، فصررو خلفاء عرباً يسوسهم أجلاف عجم . وعندما اكتشف انهم أنهم صولحان مع وقوته ، نجّوا الخليفة جانباً . وحكموا باسمه واضطرب الأمر في عالم الدولة العباسية كله ، وأصبحت وظيفة الإدارة العباسية هي جمع المال لإعطاء الجند التركي في الغالب . وشيئاً فشيئاً ، وخاصة بعد خلافة المنتصر بالله بن المتوكل على الله (شوال ٢٤٧ — ربيع الآخر ٢٤٨ / ٨٦١ — ٨٦٢ م) ، صار الوزير جابياً للمال أو ملتزماً بالجباية بقدر الحد المرسوم ، وتحول العمال حكام الولايات ، إلى ملتزمين بجمع الأموال ويختصون أنفسهم وساداتهم منها بنصيب وفقر ، ويبعثون بالنفقة إلى الوزير . وتحول الخليفة العباسي إلى موظف في خدمة رئيس الجند وإن حمل لقب الخلافة ، فهو ينفق راتباً يُعينه نه الحد الأتراك ويأتمر بأمرهم .

وفي أثناء ذلك ضاعَت الرعية ، فلم يُعَدُّ أحد يُعْتَنى بأمورها ، وأهملت المرافق واستولى الخراب على كبار المدن ، وأصبحت بغداد نفسها بلداً مخروفاً يعيش الناس فيه على وجل ، ولا أمل لهم في صلاح ، أو خير من جانب خلفاء بني العباس ورجالهم .

واتجه الناس بآمالهم يبحثون عن الحاكم الصالح العادل ، لأن الإسلام دين صلاح وعدل وإنسانية ، ولا يياس المؤمن قط من عدل الله سبحانه ، مهما ساء أمر الحاكم ، وتجسدت الآمال في العدالة في صورة العلويين أي سلالته على بن أبي طالب الذين لقوا من القتل والتشريد على أيدي بني العباس مثلما لقوا على أيدي الأمويين . وكان العلويون منذ أيام إمامهم العظيم جعفر الصادق بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وهو خامس أئمتهم ، إذا أضفنا إلى أولاد علي بن الحسين ، ابنة الحسن ، وهو الإمام الثاني في سلسلة أئمة آل البيت ، ومنه انتقلت الإمامة إلى أخيه الحسين فعلى زين العابدين فجعفر الصادق ، نقول : إن تفكيرهم اتجه من أيام جعفر الصادق هذا إلى أن يباعدوا السياسة ولا يطلبوا الحكم بسبب ما لقي رجالهم من الأذى في سبيله

ولقد ظل جعفر الصادق بعيداً عن السياسة ملتزماً سمت العلم ولعلماء ما عاش ، بل إنه رفض الخلافة عندما عرضها عليه أبو سلمة الخلال وزير آل محمد وواحد من كبار مؤسسي الدولة العباسية ، وكان نتيجة سر وآل ظلوا يعلقون آمالهم على آل البيت ، وإذا كان جعفر الصادق قد رفض أن يكون خليفة ، إلا أنه ظل يرى نفسه إماماً في العلم والفضل ، ووارثاً لعلم جده علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وكان أنصار آل البيت يسرون أن إمامة آل البيت لا تقتصر على العلم بل تشمل السياسة ، فهم أئمة المسلمين وأولي الناس بالحكم ، وإذا كان جعفر الصادق قد ترك السياسة فقد كان ذلك في رأيهم تقية أي نقى رعا أو اتقاء لأذى العباسيين ، وقالوا إن جعفرأ قرر أن التقية مذهبه ومذهب ذمة أجمعين .

وفي حياة جعفر الصادق حدث ما جعله ينقل الإمامة من بعده من ولده إسماعيل إلى ولده موسى الكاظم ، ولم يوافقوا بقر عفير من شيعة آل بيت علي

هذا النقل ، لأنهم قالوا إن الإمامة سر أودعه الله في آل البيت ، وهي تنتقل من الإمام إلى ابنه الأكبر وراثه حتمية . فظلوا متعلقين بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق ، وقالوا إن إسماعيل هو الإمام المستقر ، وأن موسى الكاظم أخاه إمام مستودع ، أي أن أباه استودعه الإمامة إلى أن تعود فتستقر في إسماعيل وأولاده . أما موسى الكاظم وأبناؤه فهم الأئمة السبعة . لأن موسى الكاظم عندهم هو الإمام السادس ، ثم جاء بعده ابنه الذي استتر ، ولا زالوا في انتظاره إلى اليوم .

وأما أتباع إسماعيل بن جعفر ، فقد جعلوا فيه الإمامة . ونقلوها من بعده إلى ابنه محمد الباقر ، ثم إلى أبناء هذا ، إلى الإمام الثاني عشر الذي استتر خوفاً على نفسه من الأذى ، وسيعود إلى الدنيا عندما يشاء الله ليعلموها عدلاً عندما يصل الفساد مداه ويشاء الله سبحانه إنقاذ الخلق ، وهو عندهم المهدي المنتظر .

وقد لقيت حكاية استتار الإمام إقبالا من نفر غفير من أبناء الأمة ، لأن الإنسان إذا ينس من نواعج نجأ إلى الأمل ، وكان العلويون أملاً صحماً بطلت به قلوب الملايين نتيجة لعجز أدوية العيسية عن إقامة الحكم الصالح الذي بشر به الإسلام .

وفي خدمة الإمام المستتر قام الدعاة ببثون الدعوة في الناس منتهزين فرصة البأس الشامل الذي ثقل على القلوب . والدعاة جمعة من أهل الإيمان بإمامة علي وأبنائه أو من أهل الطموح السياسي والديني السري وجدوا في عضش الجماهير إلى العدالة والأمن فرصة لبث دعوتهم واجتذاب الانصار ، ودخلت فيهم جماعات من الفرس وغيرهم من أصحاب الآراء الغريبة عن الإسلام ، فتشأت فرق الشيعة لكثيرة التي فصل أمرها التوخي ، والذي يعنيها الآن هم الشيعة الإسماعيلية أو الاثنى عشرية ، والفاطميون منهم .

وقد نظم الدعاة أنفسهم على نحو يدعو إلى الغرابة ، فقالوا إن الإمام مستتر في مكان لا يعرفه إلا رئيسهم أو كبير الدعاة وسموه الوصي ، وهذا الوصي أو وصي الإمام هو مدير الدعوة ومنظمتها ، وتحصت يده داعي الدعاة ثم الدعاة ، وهم مراتب ، وأخذ الموضوع صورة مؤامرة سرية كبرى هدفها نقل الخلافة من بني العباس إلى آل علي .

وقالوا : إن الإمام كان أول الأمر مستتراً في فارس ، ثم انتقل إلى سَلْمِيَّة قرب حماة ، وهي عندهم مركز الدعوة . والإمام فيها حصين آمن له حرس وعيون وأرصاء في قصر الخليفة وبيوت رجال الدولة ، وهم يجمعون باسمه مالا كثيراً من الناس ، لأن الواحد من الناس إذا آمن بدعوتهم ، أصبح لزاماً عليه أن يؤدي الزكاة للإمام ، ومهت قل مبلغها ، فقد كان يتحصل منه في أيدي الدعاة ، من صغيرهم إلى الوصي ، مال جسيم ليصل بعضه إلى الإمام المستتر ، فيستعين به على تأمين نفسه من غدر الدولة العباسية ، وبقد قيل إن الإمام المهدي الذي سيكون أول الخلفاء في المغرب ، كان يملك أموالاً جساماً ، جعلها في سرايب تحت الأرض .

المسألة إذن في أمر الدعوة والدعاة كانت مسألة فيها مخاطرة ولا شك ، ولكن كان فيها كسب ومال كثير ، ثم إن قلوب الناس كانت مع آل ع ، ولهذا كان الناس يتسترون على الدعاة والشيعة ، ومن لم يردعه تقاه عن إفشاء سر العلويين ، يردعه المال وكان وفيراً في أيدي الدعاة . وكلما زاد أمر الدولة العباسية سوءاً ، ازدادت دعوة آل البيت قوة ، حتى أصبح عالم الإسلام خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري شبكة سرية واسعة ، نشأ عنها ما سماه بعض المؤرخين بأكبر مؤامرة في التاريخ .

ففي بدايات القرن الرابع / العاشر الميلادي كانت بلاد الدولة العباسية تموج بالدعاة موجاً ، وكان أولئك الرجال يجتهدون في إشاعة الخوف والقو في النفوس حتى تتعلق الآمال بهم وبما يدعون ، ولكنهم كانوا تنظيمًا سرّيًا فقط واسع النطاق دون أن يمت قواه عسكرية تستطيع أن تخور النصيب من كبير سياسي . وكانت الدولة العباسية رغم ضعفها تملك قوة عسكرية تستطيع أن تحطم أي حركة مسلحة في أي ولاية محددة من ولايات الدولة مثل مصر والشام والعراق وخراسان . ولهذا تجهت أنظار رئاسة التنظيم الشيعي إلى البحث عن بلد بعيد عن متناول الدولة وعن المسالك والمداخل ، تستطيع أن تنمو في داخله ، وكانت أبصارهم تتجه إلى اليمن . ولكن بلاد اليمن لم تكن تضم ولا شرطيين من الشروط اللازمة لإحداث ذلك التحول وهما عبورية الأرض وصعوبة المسالك ، مع

البعد الشاسع عن قلب الدولة ، أما الرجال فقد كانت بلاد اليمن حافلة بهم ، ولكهم كانوا مفرقين شيعاً وأحزاباً وعصائب متعادية . وقتما اجتمعت قواسم اليمن الكبرى وهي صعدة وصنعاء وتعز وزبيد وجند على رأى واحد ، لا فى السياسة ولا فى غيرها .

ولكن رجال الدعوة وجدوا فى اليمن على أى حال مهذاً آمناً يمكن أن يركز عليه التنظيم فى البحث عن الرجال الذين يؤلفون القوة العسكرية .

وفى أوائل القرن الرابع هجرت الوصاية إلى رجب ذكى يسمى شهر بن حوشب استنحى بآمال رجب ف رعى كاره للعرب يسمى دندن ، فاستقر شهر ابن حوشب فى اليمن ، واتخذ بلدة تسمى عدن « لاعة » لتكون مركزاً لأعماله ، وهذه تفكيره إلى أن القوة التى يبحث عنها من الرجال يمكن أن توجد فى المغرب مما يلى أملاك الدولة العباسية غربى نهر شلف ، فهناك وحتى المحيط لا سلطان للدولة العباسية ، وهناك شعوب من البربر تمكنت بفضل قدة من العرب من إقامة دول مثل الدولة الإدريسية والدولة الرستمية فاختر داعيين ذكيين يسميان سفيان والخلوانى وبعث بهما إلى هناك ، فاستقرا فى المنطقة التى كان يسكنها حلف القبائل البرنسية المسمى بكتامة ، وهو حلف قوى يسكن المناطق الحيلية الوعرة المتاخمة لبلاد الدولة العباسية من ناحية الغرب ، فلا يفصل منازلهم عن بلاد بنى الاغلب إلا مجرى نهر شلف .

هذان الرجلان حرثا الأرض بمصطلح الدعوة ، أى أعدا النفوس لقبول فكرة الدخول فى الحركة الشيعية وإقامة دولة لرجل يرتضيه الناس من أهل البيت . وكان لكتاميون قبيلاً ضخماً من البربر الجرائم يسكنون ما يعرف اليوم بمنطقة «قبائل غربي مدينة الجزائر ويمتدون جنوباً فى جبال الأورس» وكانوا قوماً فيهم عدد وقوة وإيمان وتطلع إلى السلطان ، وكانما حفزهم على ذلك ما تمكن من إنشائه جيرانهم فى المغرب الأوسط من دولة بنى رستم ، وما استطاع إنشائه فى المغرب الأقصى آل إدريس من دولة قوية غزت بها أوربا وسادت المغرب الأقصى .

ولم يتيسر الأمر لسفيان والخلوانى لأكثر من الحرث ، واحتاج الأمر إلى

صاحب بذر — بمصطلح الدعوة — أى رجل ينثر البذور في الأرض المحروثة ويرعاها حتى تطلع ، أى رجل قادر على تكوين القوة العسكرية المرجوة .

أبو عبد الله الشيعي :

ووقع اختيار شهر بن حوشب على الرجل المطنوب ، وكان بالفارس رجل الموقف والساعة ، ويسمى أبا عبد الله الداعي ، وليس هذا باسمه ، وإنما هو كنية أو تكنية أو اسم حركى كما يقال ، فعا معنى أن يقال إن اسمه أبو عبد الله فحسب ، أما بقية الاسم وهو الشيعي أو الداعي فصفة ، ولكن الرجل كان به أخ يسمى أبا العباس المخطوم ، وهذا أيضاً ليس باسم .

على أى حال كان أبو عبد الله الشيعي رجلاً موهوباً في أكثر من مجال ، فكان ذكياً بعيد النظر حسن الفهم للرجال واسع الحيلة صديق في الفقه الشيعي وغير الشيعي ، وعندما عهد إليه في المهمة ترك له أمر ينصرف في تنفيذها كما يقول المراجع ، ولكننا نشك في الرواية التقليدية انتهى تقص عن لقائه لرجل كتامة واحتياله عليهم في موسم الحج والأرجح أن شك اللقاء كان على تدبير ولكننا لا نمسك برهين تؤيد الشك . ليس تمام إلا أن تتبع الدرب المطروق حتى تتكشف لنا الحقائق .

والقصة التقليدية ، التي يرويها القاضي الشيعي أبو حنيفة النعمان بن محمد داعي الدعوة في كتابه الممتع المسمى « ابتداء الدعوة » ، تقول إن هذا الرجل اتجه إلى الحجاز في موسم الحج ، وهناك أخذ يتقرب ويستقصي حتى وقع على وفد حجاج كتامة ، فجلس إلى جوارهم وأنه صاغية إلى ما يجري بينهم من حديث ، وهذا أول ما يشك في القصة ، لأن هؤلاء القوم إذا كانوا يتحاضرون أطراف الحديث فيما بينهم فلا يكون ذلك إلا سعيهم ولهجتهم والمفروض أن أبا عبد الله الشيعي لا يفهم منها شيئاً ولكن القاضي النعمان يريد أن يصدق روايته التي يرويها في أسلوب أخذ وبغة عربية سليمة . يمكن أن تكون مر اجمل أسباب النشر في العصور الوسطى ، فيقول : إن أبا عبد الله الشيعي لم يزل ملازماً جوار القوم حتى فهم ما يجري بينهم من حديث ، ثم تدخل فيه وأخذ يحدثهم عن آل البيت وأمور الفقه حديثاً يدل على علم وتضع وصار لتمامهم في

كل يوم فيلقى فيهم علمه حتى بهرهم واجتذب قلوبهم ، وكان يظهر مع ذلك عفافاً وورعاً وقناعة وديناً وتعاوناً ، مما زاد الناس فيه محبة .

وعندما توثقت الأسباب بينه وبينهم واقترب موعد الرحيل ، قال لهم إن وجهته مصر لبحث فيها عن وظيفة معلم ، فهذه فيما زعم صناعته ، ففرحوا بذلك لأنه يتيح لهم فرصة ملازمته والاقتباس من علمه ، فأخذوه في ركابهم .

وعلى الطريق جرى الحديث هوذا بين أبي عبد الله وأولئك الناس ، وكانوا من خيرة شيوخ قبائل كتامة الكثيرة ، فعرف الكثير عن أمورهم ، وهم لا يعرفون إلا أنه مؤدب فقير يلتبس العيش ، وكان يقى عندهم أسئلة تلو السؤال في كء وبراعة فيلقون إليه بما في نفوسهم في توسع وسذاجة .

وعندما أدركوا مصر ، ودخلوا القسطنطينية مضى في زعمه يبحث عن عمل فلم يجد ، فعرضوا عليه أن يمضى معهم إلى بلادهم فهم في حاجة إلى معلم ، فقيل ومضى معهم إلى بلادهم وهم جد فرحون .

وكان أبو عبد الله قد عرف أين سينزل وكيف سيعمل ، وذلك لكثرة ما حصله من العلم يشتمون أولئك الناس ، وعندما اقتربوا من موطنهم وصاروا على بلد صغير يسمى « ايكجان » في وعر من الجبل ، عرف أن هذه منازل « سكتانة » من بطون كتامة . وعندما مر بفج قريب من ايكجان قال هذا هو فج الأخيار ، وأومهم أنهم هم الأخيار ، والفج ممر طويل في الجبل ، وكان اسم هذا الفج بالبربرية قريباً من لفظ « فج الأخيار » ، فدهش الناس من معرفة أبي عبد الله بذلك ، ثم قال لهم إن اسمهم كتامة ، وهو مشتق من الكتمان ، والكتمان أول شروط الدخول في الدعوة ، فأعجبهم ذلك مع أن اسم كتامة قديم وجدناه في سجلات الرومان .

واسكن أبو عبد الله الشيعي في بلدة ايكجان في منازل قبيلة سكتانة من قبائل كتامة ، وتهج في حياته تهج المعلم الصالح ، فسلك مسلك الطهر والعفاف والديانة ، وأخذ يعلم الناس حقاً حتى اشتهر أمره بالصلاح والعدالة ، فإذا استوثق من مكانته على هذه الصورة أخذ يتحول مرشداً لهؤلاء القوم عن طريقة المعلمين الدينيين الذين يتحولون إلى قادة سياسيين ، وهو أمر تكرر حدوثه في

المغرب، فما كان أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافري غير شيخ صالح من شيوخ الإباضية ، ثم صار إلى الريسة السياسية ، وكذلك سيفعل عبد الله بن ياسين في قبائل صنهاجة الصحراء ومحمد بن تومرت في قبائل مصمودة . هنا أيضاً نجد أبا عبد الله الشيعي يمهد بالسلوك الحسن والقيام بمطالب التوجيه الديني ، وشيئاً فشيئاً نجد هذا الرجل يتحول إلى شيخ قبيلة سكتاتة ، ويصلح أمر القبيلة على يده وينشط رجالها في مغامرة حدود الأغلبية ، وشكا عمال بلاد الزاب الشرقي من عدوان السكتاتيين عليهم ، وسعى رجال الأغلبية في نصيح بقية الكتاميين بإخراج هذا الرجل الداعية الشيعي من بلادهم ، ورفض السكتاتيون إخراجهم ولكنه خاف على نفسه ، لأن سكتاتة قبيلة صغيرة لا قبل لها ببقية قبائل كتامة من أمثال لهيصة ومسائلة . وكان قد أنشأ لنفسه دائرة من الأصحاب والأنصار ، ورفع لنفسه جاهاً بالثقى والصلاح والعدالة وسعة العلم . وقد نجح في إقناع أنصاره بفساد الحكم الأغلبي ومضاهم بأن يورثهم الله بلاد لأعدائهم صدقوا في تأييده ، وكان هذا أيضاً مما أثار حفيظة بعض القبائل الكتامية ، لأن هذا الأمر إذا تم فلماذا تنفرد به سكتاتة .

الهجرة إلى تازروت وتحول الدعوة إلى حركة سياسية عسكرية :

لهذا حزم أبو عبد الله الشيعي أمره وانتقل إلى قاعدة وسط جبال الأوراس وعند مداخلها من الشمال تسمى « تازروت » . ولم يكف يستقر بها حتى تلاحق به الأنصار ، فسارع إلى تحصين بلده ، وفرض على أتباعه جباية قليلة هي أشبه بالتبرع للحركة ، وبلغ من نكاته أنه جعل هذا المال بأيدي شيوخ من كتامة فلا يتصرف هو في شيء منه إلا بإذنتهم . وبإيمان الناس به ، وبما كان يمنيهم به من إقامة دولة صالحة عادلة يكونون هم ساداتها ، استولى على بلاد الأغلبية . وبهذا المال أيضاً بدأ سلسلة من الحملات على ما قرب من مازل كتامة من بلاد الزاب ، ووفق في حملاته الأولى وغدت إحدى الكتاميين باعنائهم فاشتد حسرتهم . وكان هذا في أواسط أيام إبراهيم بن أحمد الأغلبي .

وهنا تحول أبو عبد الله الشيعي إلى قائد سياسي عسكري ، وكشف عن

وجهه فصارع الناس بأنه يدعو للرضا من آل البيت ، وأنه قائم بالدعوة حتى يسلمها لصاحب الأمر من آل رسول الله ﷺ وهو الإمام المستقر صاحب الزمان ، وأظهر هذا الرجل من الكفاية والحزامة والجوأة ما مكن له فعلاً من جمع قياد أولئك القبائليين العفاة ، واستطاع في زمن وجيز أن يستولي على بلاد الزاب كلها ، ثم دخلت قواته بلاد أفريقية ، وهنا تزعزع بنيان بني الأغلب ، وكان الناس قد سئموا حكمهم بعد الذي كان في حكم إبراهيم بن أحمد الأغلب ثم ابنه أبي العباس ثم أبي مضر زيادة الله الثالث قاتل أبيه ، وهو آخر الأغالبة ، وكان قد ارتكب أخطاء جسيمة في حق أهل أفريقية فعال الناس إلى دعوة الشيعي . وفي أوائل جمادى الأولى سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م سقطت الأربس في يد أبي عبد الله الشيعي ، والأربس هي مفتاح القيروان ، فعجل زيادة الله الأخير بالرحيل إلى مصر في جمادى الآخرة سنة ٢٩٦ هـ ، ودخل أبو عبد الله الشيعي القيروان ، وأعلن قيام الدولة الفاطمية وبعث يستدعي الإمام المستقر في سَلْمِيَّة وهو عبيد الله المهدي .

وقد سار أبو عبد الله الشيعي في أهل القيروان وبقية أهل أفريقية سيرة طيبة ، وحرص على ألا يصارع الناس بالدعوة الشيعية ، وأراد أن يتم ذلك عن طريق الإقناع ، ودارت مجالس مشهورة بين زعماء المذهب المالكي وخاصة أبي عثمان سعيد بن الحداد وأبي عبد الله الشيعي ودعاة المذهب ، وفي أثناء المناقشات تبين أبو عبد الله أن قناعة أولئك المالكيين لن تلين وأن الناس لهم تَبَعٌ ، فعُول على الانصراف عن الدعوة النشيطة حتى يستتب الأمر للدولة الجديدة . وقد غضب أبو عبد الله على أخيه أبي العباس المخطوم ، وكان عامل اقيروان ، عندما لجأ إلى العنف مع بعض متاوئي الدعوة ، وقد نجح أبو عبد الله الشيعي في زمن قصير في تثبيت أقدام الدولة وتنظيم أمورها ، وفي هذا الدور كان اعتماده على كبار انصار الدعوة من الكتاميين وخاصة غزوية بن يوسف وأخيه

قدوم عبيد الله المهدي :

وعندما وصلت الدعوة إلى هذه الدرجة من النجاح أرسل أبو عبد الله الشيعي يستدعي عبيد الله المهدي صاحب الزمان ، وتلك كانت خطيئة حياته ، فقد كان مستظيلاً أن يمضى في رئاسة الدعوة تحت اسم لوصاية حينئذ ثم يحوزها

لنفسه ، ولكن الحذر يؤتى من مأمته ، وما كاد الخبر يصل إلى عبيد الله المهدي في سلمية حتى أعد العدة للرحيل ، وكان يعيش في تلك القرية في سعة من العيش . وكان يعتز إلى حد ما بالقرامطة ، وهم فريق من دعاة الشيعة تزعمهم رجل يسمى أبو سعيد الجفابي ، يزعم بعض أعداء الدولة أنه والد عبيد الله المهدي . ثم بول رئاسة هذا الجناح من الدعاة والشيعة رجل شيعي ولكنه جائل مستور يسمى يسمى حمدان قرمط ، حسب أنه يستطيع التحصن في إقليم الحسا في شرقي الجزيرة العربية ، وأنضم إليه عدد غفير من ليدو واللصوص ، فصارت له قوة عسكرية مرهوية أغار بها على البصرة وجنوب الحجاز أكثر من مرة ، وروع جنوب الشام والحجاز ، وبلغ من جرأته أن رجاله اختطفوا الحجر الأسود من الكعبة ، واحتجزوه في بلادهم حتى ردوه بتوسط العزيز بالله ثالث الخلفاء الفاطميين . وفي هذا الدور من الحركة العلوية كان القرامطة ودعاة شاملة أحلافاً يتآزرون على الدولة العباسية .

ووصل عبيد الله المهدي إلى مصر في ركب من أتباعه وأحمال من أمواله ، وقد عرف كيف يستخدم هذه الأموال في تيسير سفره ، وبعد خروجه من مصر اتجه إلى المغرب بمعاونة عامل مصر قيعا يقال ، ولكنه بعد أن وصل برقة ، أحس أن رجال بني العباس علموا بأمره ، فاستعمل الحيلة بعد خروج الركب من برقة إلى طرابلس ودفع مالا للمشرفين على الركب فحلبوا اتحدهم إلى سجلماسة ، فسما من أيدي العباسيين ، ولكن صاحب سجلماسة من بني اليسع بن مدرار ، تخوف من أمره بعد استقراره في بلده ، فسجنه .

وهنا تواجهنا علامة استفهام كبيرة ، إذ ما الذي يدعو رجلاً خارجياً صغرياً هو صاحب سجلماسة إلى سجن رجل من أعداء العباسيين وهو متهم ؟ ثم إن سجن عبيد الله وولده أبي أنقاسم محمد الملقب بالفائم لم يكن ، فيما يحدثنا القاضى أبو حنيفة النعمان داعي الدعاة ، لم يكن سجناً على الحقيقة . إنما كان تحفظاً أو تحوطاً .

وبلغ الخير أبا عبد الله الشيعي فجمع جيشاً ضخماً وخرج به من القيروان في سنة ٢٩٧هـ / ٩١٠ م ووجهته سجلماسة ، ووصلها وتمكن من تخليص

عبيد الله المهدي والقضاء على صاحب سجلماسة ، ويبدو حقاً أن أبا عبد الله الشيعي وكان داعياً للدعاة وصاحب الفضل في إقامة الدولة لم يكن يعرف عبيد الله المهدي معرفة شخصية ، ولا هو رآه من قبل ، حتى لقد أخطأ في شخصه وتقدم بطاعته إلى رجل آخر ، ثم عرف الحقيقة فعدل إلى عبيد الله ثم ابنه ، وهنا لابد أن نلاحظ أن الكثيرين من مؤرخي الدولة الفاطمية يقولون إن الخليفة الفاطمي الحقيقي كان أبا القاسم محمد بن عبيد الله المهدي ، وأن هذا الأخير كان مهيداً له وراعياً لأمره ، وربما لم يكن أباه أصلاً ، ولكن هذه كلها أقوال . وكل ما يتصل بنسب الفاطميين موضع شك كبير ، فهاهنا الستة ينكرون إنكاراً تاماً ، والمسرفون في الحملة عليهم يقولون إن عبيد الله المهدي ابن لرجل يسمى « القداح » يصفونه بأنه يهودي ، وهناك من يقولون : إنه من ولد أبي سعيد الجنابي ، ولكنك في الحدود التي نكتب في نصقها لابد أن نسلم بصحة نسب الفاطميين إذ لم يقدّم لنا دليل على خلاف ذلك .

ويبيع عبيد الله المهدي بيعة عامة في سجلماسة ، وسلم إليه أبو عبد الله الشيعي الأمر وسار بين يديه يحترمه ، وفي طريق العودة من الجيش بتاهرت وأزال إمارة أترستيين ، وكان ذلك سنة ٢٩٧ هـ / ٩١٠ م وجعل المغرب الأوسط إلى تلمسان جزءاً من الدولة الفاطمية ، التي قامت نسبة إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ ، ولا ندري كيف نشأت تسمية هذه الدولة بالفاطمية ، فإنهم هم أنفسهم كانوا يرون أنفسهم أبناء علي وفاطمة من ولد الحسين .

خلافة عبيد الله المهدي : ربيع الآخر ٢٩٧ — ربيع الأول ٣٢٢ هـ / ٩١٠ - ٩٣٤ م :

بيع عبيد الله المهدي بيعة عامة في القيروان في ربيع الآخر سنة ٢٩٧ هـ ، وبذلك انتهت ولاية أبي عبد الله الشيعي بعد أن دامت عشر سنوات من ٢٨٨ إلى ٢٩٧ ، فقد أصبح وزيراً وخادماً لهذا السيد الذي استقدمه من سلقية ، ولأول ولاية عبيد الله المهدي فعل فعله شككت كتاميين في أصابته ومستوى تفكيره . فقد استولى على الأموال التي جمعوها وحرسوها في إيكجان ، وأخذها دون أن يستشير أو يكثرث لرأي أحد ، فبدأت نفوس كبار الكتاميين تتغير ويساورها الشك ، خاصة وأن أبا عبد الله الشيعي شاركهم في ذلك ولم يخف استياءه وإرا

كان أبو عبد الله الداعي قد تمكن من ضبط مشعره ولسانه ، فإن أخاه أبا العباس المخطوم لم يستطع . ولم يلبث الجو أن اظلم بين عبيد الله وأبي عبد الله وأخيه ، فلجأ عبيد الله إلى الغدر ، واستعان برجل من كبار الكثامين هو غزوية بن يوسف في قتل أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس ، وتلك كانت سلسلة من الاغتيالات والغدرات درج عليها خلفاء الفاطميين في المغرب خاصة ، وهي سياسة لم تعد على البيت الفاطمي بشيء .

بناء المهديّة :

وأحس عبيد الله المهدي أن الناس في أفريقية ليس لديهم استعداد لقبول فكرة خلافة تقوم على مبادئ الشيعة الإسماعيلية كما صاغها دعايتهم ومفكر وهم أثناء فترة الاستتار ، ودخلت فيها آراء غريبة كل الغرابة عن صفاء مذهب السنة والجماعة ، ويتجلى ذلك في تفاصيل المذهب الإسماعيلي كما شرحه الدعاة من أمثال القاضي النعمان بن محمد ، وكما طبقه الخلفاء الفاطميون عندما أحاطوا أسماءهم بهالات من التقديس والتعظيم ، لم يعرفها أهل أفريقية إلى ذلك الحين ، حتى كانوا يتحدثون إليهم وكانهم من طينة غير طينة البشر ، فعندهم أسرار الغيب وعلم ما سيكون ، ولديهم كتب يقولون إن فيها كل ما حدث ويحدث ، مسطور يرموز لا يفهمها غيرهم ، ثم إن سياسة عبيد الله المهدي المالية كانت سياسة جشع بغير حدود ، فهو يجمع المال من الجبايات ورجاله يتاجرون له ولأفراد بيته ، وكلهم يجمعون الأموال بالحق والباطل

وكانت في أهل أفريقية كما عرفناهم إلى الآن صراحة وحرارة ، فجابها عبيد الله ورجاله بما يرون ، فأحس الرجل أنه ليس بين رعية وإنما تجاه خصوم ، وأنه لن يستطيع السيطرة على أولئك الناس بعد . ولم يكن كذاب يستفصع ثقة انطلقه بانكاسيين بعد الذي فعل بأموالهم ونسى عبد الله الشيعي الذي كانوا مدبرين له . ثم إنه لم يلبث أن دبر مقتل غزوية بن يوسف ، وتطلع إلى الاستعانة بغيرهم . فرأى أن يشدد لنفسه وأسرته قلعة يعتصم فيها هو وآله وجنده وحشمه وأمواله ، فأشبهه في ذلك ما فعله إبراهيم بن الأغلب عندما بنى القصر القديم . وأمثال هذه القلاع الملوكية تؤمن رجال البيوت المانكة وكنها تغربلهم عن الناس وتحول بين

بيوتهم وبين أن تضرب جذوراً في البلاد ، وتعجل بزوالهم من البلاد ، وهذا هو الذي كان بالنسبة للفاطميين في المغرب . وكان بناء المهديّة سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م ، وما زالت آثارها باقية إلى اليوم . وهي حصن منيع يقوم على رأس بارز في الساحل الشرقي لتونس شمال سوسة ، « كأنه الكف » كما يقول المؤرخون ، ولا يوصل إليه من البر إلا عن طريق مدخل ضيق . وهو محاط بسور منيع على الذرى مستدير الزوايا ، وبين السور والبحر قطعة من الأرض أقيمت فيها دار صناعة السفن ومخازن البحرية ، وهذه أيضاً محصنة لا يوصل إليها بسهولة . وقد جعل عبيد الله العمال والسوقة يعيشون خارج البلد ، في موضع يسمى رويلة ، فلا يكونون في البلد إلا نهاراً . فإذا هبّ الريح مضوا إلى مدينتهم وأخذت الأسوار . وقد بلغ من حرص عبيد الله على تأمين مدينته تلك ، أن رسم لجنده أن يقبضوا على أهل أولئك العمال في قريتهم إذا هم أخذوا في إمداده شعباً فذكروا بذلك مضطرين إلى السكون والطاعة . وعندما فرغ عبيد الله من بناء تلك القلعة واستقر فيها بأمواله وآله وجنده وحشمه قال : « الآن أمنت على الفاطميات » ، أي أنه أمن على نفسه وماله وأمواله . ومضى يدير البلاد من معتصمه هذا .

وكانت ثقة عبيد الله المهديّ كلها في جنده المرتزق الذي استكثر منه واعتز به ، واستكثر لذلك من الصقالية والخصيان للخدمة في القصر ، وقد خلف لنا شئ من صقالية الفاطميين في المغرب ، وهما منصور العزيمي والأستاذ جوزر مذكرات هي الغاية في القيمة التاريخية ، فهي ترينا حياة الفاطميين الخاصة خلال الفترة المغربية ، ولم تكن بحياة سعيدة ولا نافعة للناس ، وإنما كان كل هم خلفاء الفاطميين هو حماية أنفسهم واستغلال لبلاد التي صارت إليهم على أسوأ صورة . ومن هنا فقد كانت صورة المهدي عند عامة أهل إفريقية بغيضة بشعة تصورها رواية شعبية ذكرها ابن عذاري ، وهي تصور عذاب عبيد الله المهدي في أخريات أيامه ، ثم عذابه في الآخرة .

وبعد مقتل أبي عبد الله الشيعي وأخيه غدر المهدي بغزوية بن يوسف كما قدمنا ، وتخوف من الكتاميين جملة ورمي ببصره إلى قبائل أخرى مجاورة كانت

تحسد الكتاميين ، وأهم شذذه صنهاجة المغرب الأوسط وكان يتزعمهم مصالة ابن حبوس ، فأغراه بالمدل وسلطه على المغرب وبعثه في جيش كبير يغزو المغرب الأوسط والأقصى ، فاما في المغرب الأوسط فقد جنك الزعب جمعات الزناتية التي كانت تسكن بعض نواحيه ، وعلى رأسهم علي بن حمدون الزناتى ، الذي فرغ إلى الأمويين في الأندلس واستجار بهم ، وبنو خزر المغراويين ، الذين اندفعوا نحو لامويين أيضاً ، ووصلت جيوش مصالة بن حبوس إلى المغرب الأقصى ودخلت فاس أيام يحيى بن يحيى بن عمر بن ابن إدريس الثاني وقد ولي مصالة على منطقة فاس وحداً من قاربه يسمى موسى بن أبي العاصية ، ولكنيسة ابن للأدارسة بالبقاء في فاس تحت الطاعة الفاطمية ، فلم يرل موسى من أمر العافية يتحيل حتى صافوا إليه فاساً ، فنفى من كان فيها من بقايا الأدارسة إلى قلعة «حجر النسر» شمال المغرب في جبال الريف قرب مدينة تسمى بصرة المغرب ، فتجمع بقايا الأدارسة هناك وأرسلوا الناس وداخلوهم وأصبحوا أسرة مغربية عربية ، وتلك هي بداية الدور الثاني من تاريخ الأدارسة .

حكم عبيد الله المهدي خمساً وعشرين سنة هجرية (٢٩٧ - ٣٢٢ هـ / ٩٠٩ - ٩٣٤ م) ثبتت أثناءها قواعد بيته في إفريقية والمغرب الأوسط بالقوة العسكرية وجمع ماله وأفرأ ، وكان في حكمه بعيداً جداً عما كان الناس يتصورونه عن المهدي الذي يعيد العدل إلى الأرض ، وقد أبغضه وانكر أساليبه فقهاء المالكية وهم رؤساء الناس في إفريقية ، وأحسن هو بكرامتهم له ، فرسم أن يخفوا من نشاط الدعوى للمبادئ الشعبية ، ولكن ذلك لم يؤد كتمراً ، فلم تكسب دعوة الفاطمية في المغرب إلا تفرأ من شواذ الناس وضعفة الفقهاء ، وذلك كله حفز المهدي على التفكير في غزو بلد آخر والاستيلاء عليه والانتقال إليه بأهله وماله وجسده . وهذا هو السبب الذي جعله يحاول الاستيلاء على مصر ، فأرسل إليها حملة بقيادة ابنه القائم ، استولت على الإسكندرية وخربت بعض نواحيها ، وبادشت بعض نواحي الصعيد الأدنى عند الجيزة ولم تعد بنتيجة .

وقد خلف المهدي بعد موته ، ثلاثة من خلفاء الفاطميين هم :

القائم ، أبو القاسم محمد (١٤ ربيع الأول ٣٢٢ - ١٣ شوال ٣٣٤ هـ - ٩٣٤ - ٩٤٦ م) .

المنصور ، أبو الطاهر إسماعيل (١٢ شوال ٢٣٤ - ٢٩ شوال ٢٤١ هـ /
٩٤٦ - ٩٥٢ م)

المعز ، أبو تميم معد . وقد حكم في المغرب من مستهل ذي القعدة
٢٤١ هـ / ٩٥٢ م حتى انتقل إلى مصر سنة ٢٦٢ هـ / ٩٧٢ م وتوفي فيها في ربيع
الآخر سنة ٢٦٥ هـ / ٩٧٥ م .

فأما القائم فكان أقرب إلى العدل وحسن السياسة من أبيه . وقد أزداد
شعوره بالعزلة والقربة في المغرب وأراد التقرب من الناس دون جدوى ، فركز
جهوده على مغارة المغربين الأوسط والأقصى ، وكانت لعتاه « ميسور » وقناع
طويلة مع جند الأمويين والادارسة في المغرب الأقصى ، بما اضطر عبد الرحمن
الخاصي إلى احتلال سبتة ومليلة لتأمين بلاده من أنصار الفاطميين ، من أمثال
بلكين بن زيري بن مناد ، وهو زعيم صنهاجية ، ستمالك الفاطميون فأخلص في
خدمتهم ، أما بقية أهل المغرب الأقصى من رجال دويلة نكور وبني خزر
الزناتيين وبني خزرون زناتية أيضاً فقد استوحاشوا للأمويين الأندلسيين
الذين لم يدخروا جهداً ولا مالاً في مناصرة الفاطميين وإبعادهم عن المغرب ،
فاتجهت أنظار الفاطميين إلى مصر ، إذ تصوروا أن الإخشيديين ضعفاء
يستطيعون مقاومة الضغط الفاطمي ضوئاً . وكان يفتقر أمور مصر كـ « دور
الإخشيدى » وكان رجالاً صبوراً مطاولاً ، يصانع الفاطميين حيناً ويناجزهم حيناً
آخر ، لأنه كان يرى أن الدولة العباسية - وهو تبعها - أعجز من أن تمده بعون
وقد أرسل القائم حملة إلى مصر لم توفق إلى كثير .

ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد :

وبعد وفاة القائم بعد حكم قصير جاء ابنه المنصور أبو طاهر ، وفي أيامه
انفجرت ثورة أهل إفريقية و المغرب يقودها رجل من نكارية الإساضية يسمى
أبا يزيد مخلد بن كيداد ويلقب « بصاحب الحمار » .

وكان أبو يزيد في أول أمره معلم صبيان ، وفي هذه المهنة قضى معظم عمره ،
فلما اشتد غليان أهل المغرب غضباً على الفاطميين ، تزعم هذا الرجل وقبيله
الثورة ، وظهر الرجل في أول أمره بمظهر الزهاد المتسكين ، فكان يركب حماراً

هزلاً يتنقل به بين الجبال والقبائل قُلُوبَ بصاحب الحمار . وكان الرجل مسناً
عندما بدأ الثورة إذ كانت سنه تقارب السبعين . وقد انضمت إليه القبائل في
حماس شديد ، وأيده أهل أفريقية إذ أنه لم يكشف عن نحلته الإباضية النكارية ،
وإنما زعم أنه ثائر للعدالة والإسلام وكراهة البدع ، أنشأ أراد الفاطميون إدخالها
على العقائد و لعبادات ، وتمكن الرجل من اجتياح بلاد الفاطميين والجا المنصور
الفاطمي إلى التحفى في المهدي وحصره فيها .

ولكن حركة أبى يزيد كانت ثورة دون خطة ، فما أن بلغ هذا القدر من النصر
حتى وقف حصاراً ماذا يصنع . وأساء السيرة مع كثير من القبائل مما قلل الثقة
فيه ففر الكثير من القبائل منه . وانتظر المنصور في حصنه حتى إذا ما رأى أن
ذلك الثائر يتفرق عنه رجاله ويضعف ، أرسل إلى يمين بن زيرى بن مناد
الصنهاجى فأقبل برجاله ، وتغلبوا على الثائر الذى انصرف عنه الناس ، ففر إلى
الأوغار ، ومازال رجال الفاطميين يتعقبونه حتى قبضوا عليه ، فقتلوه وسلخوا
جلده وحشوه فيما يقول الرواة قطناً وأركبوا جثته على حمار طاف بلاد أفريقية .

بهذا انتهت ثورة أبى يزيد ، وبنهايتها انتهت أيضاً قوى الفاطميين في المغرب ،
فقد تزعزعت دولتهم إلى قواعد يتناحروا ، وخاف المنصور أن يسيطر عليه
الصنهاجيون أصحاب القوة في دولته ، فارتد إلى الكتاميين بعد طول انصراف
عنهم وأذى لهم . وعندما توفى وجاء ابنه المعز كان باب الخلاص الوحيد الباقي
أمامه هو غزو مصر والانتقال إليها .

وذلك كان هدف الخليفة الفاطمي الرابع في المغرب وهو أبو تميم معد ، الملقب
بالمعز لدين الله ، الذى تولى الملك شأياً في ذي القعدة سنة ٣٤٦ هـ / ٩٥٣ م .

غزو مصر ثم الانتقال إليها :

ولا نزاع في أن المعز كان أقدر الفاطميين وأبعدهم نظراً ، فقد رأى بوضوح أنه
لن يستطيع الاستمرار في المغرب ، فقد نفر الناس في أفريقية من بيته ورموهم عن
قوس واحدة ، ثم إن محاولات السيطرة على المغرب الأوسط لم تكن تؤدى إلى
نتيجة . لأن آل سكين بن زيرى الصنهاجيين كانوا أصحاب القوة فيه وهم خلفاء
الفاطميين فلا مطمع فيهم . أما في المغرب الأقصى فإن الأمويين الأندلسيين أطمع

الحكم المستنصر الذي خلف أباه عبد الرحمن الناصر لدين الله سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م ، كانوا يرون أن الفاطميين خارجون عن الإسلام وحربهم جهاد ، فكدس الجانب الأكبر من قواه في حربهم في المغرب ورماهم بخيرة جنده وقواته ، وتمكن من طردهم من المغرب الأقصى والقضاء على أنصارهم واستألف الإدارة .

ومن حسن حظ المعز أنه كان يخدمه شاب ذكي من خيرة صقالية الفاطميين هو جوهر الذي يلقب « بالصقلي » . فقد كان قائداً ماهراً وجندياً مخلصاً ورجلاً صاحب سياسة ونظر وتدبير . وبعد أن غزا المغرب كله إلى المحيط ، ودخل مرة أخرى مدينة فاس وغزا بلاد تافيلالت ، عاد ليبلغ سيده الأمل في أفريقية أو المغرب ، وأن العمل الوحيد الباقي هو في الاستيلاء على مصر .

وكان كافور الإخشيدي قد ترقى ومضى لسبيله وانتهى أمر الإخشيديين ، وفي تلك الأثناء كان المعز وقائده يعبدان العدة لغزو مصر معتمدين في ذلك على الكتاميين ، بعد أن صالحوهم ودخل في خدمتهم رجل من أقدر رجالهم هو جعفر ابن قلاح وكان من قواد جوهر الصقلي .

ولم يكن من العسير على جوهر الاستيلاء على مصر ، فقد وضع المعز بحث تصرفه كل ماكان لدى الفاطميين والكتاميين من قوة ومال في شعبان سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م دخل المعز الإسكندرية ، ولأول دخوه إليها أعلن في بيان رسمي تخليه وتخلد دولته عن فرض المذهب الشيعي على أهل مصر ، وأحسن معاملة الناس ومناههم الخير الكثير والعسل الشامل ، فطاعوا له ، وبذلك بدأ في تاريخ عصر جديد هو العصر الفاطمي ، الذي يطيل نقر من المؤرخين الإطناب في فضائله . وبدأ في تاريخ الفاطميين أيضاً عصر جديد ، فقد تخلوا عن المذهبية فيما يتصل بعلاقتهم بالناس ، وقد اتعظوا في ذلك بتاريخهم في أفريقية .

وفي نفس الوقت وضع جوهر أساس مدينة القاهرة ، لتكون مدينة ملوكية وحصناً للفاطميين ، لكي يتنقلوا من قلعة المهديّة إلى قلعة القاهرة . فلم يكن البيت الفاطمي على طول تاريخه وبُعْد صيته بيتاً من بيوت الحكم المحبب إلى الناس أو الوثيقة الصلة بهم . فكما كانوا غريباء في المغرب سيكونون غريباء في الشام ، وفي كل موضع وصل سلطانهم إليه .

تقدير الفترة الفاطمية في تاريخ المغرب :

دامت خلافة الفاطميين في المغرب تيفاً وستين سنة هجرية (من ٢٩٧ — ٣٦٢ هـ / ٩٠٩ — ٩٧٢ م) فهي نحو ستين سنة ميلادية ، وقد دانت لهم بلاد واسعة تمتد من طرابلس إلى منتصف المغرب الأوسط ، فلم تخرج عن سلطانهم منه إلا منطقة تلمسان ، ودخلت في خدمتهم قبائل مغربية غنية بالملكات والقدرات ، وكانت قاعدة ملكهم أفريقية ، وهي قاعدة حضارة وقوة ذات قدر عظيم فإذا أضفنا إلى ذلك صفلية تبييناً أن ملك الفاطميين في المغرب كان واسعاً وعريضاً ، وكانوا يستطيعون أن يفعلوا للبلاد وأهلها خيراً كثيراً .

ولكننا عندما نجيء للحساب الختامي لتلك الفترة نجد أن الفاطميين لم يقدموا للبلاد التي حكموها في المغرب أي خدمة إيجابية ، فهم لم يعمروا من المدن إلا المهدية ، وتلك كانت قاعدة خاصة لهم ، أما القيروان وتونس وسوسة والحمامات والمنستير وغيرها فلم يخف الفاطميون فديها اسراً ، بل هم لم يشيئوا مسجداً واحداً يذكر لهم بالخير غير مسجد المهدية ، وكان مسجداً خاصاً .

وكانت سياستهم تقوم على جشع مالي بالغ ، فقد كانوا يجبيون من المال مقادير طائلة كلها بالظلم والإيهاهم ، وكانوا يحتجزون الأموال ويستخدمونها في احتجرة أو في شراء حسب يقوم بفرواات تعود عنهم بغدثهم ، ولم تكن لديهم أي نية في زيادة عمران المغرب ، فلا هم شقوا طريقاً ولا أنشأوا سوقاً ولا نفعا قبيلة من القبائل التي خدمتهم ، بل إن كثامة التي استنفدت قواها في قضيتهم بادت أو كادت . وفي العصور التالية كان بقايا الكتاميين يثيرأون من تهمة القيام باندعوة الفاطمية وقد كانت أفريقية بالنسبة لهم مستقراً ومصدر ثروة وخطوة إلى وهم بعيد بخلافة تحل محل الخلافة العباسية . وعندما غادروا أفريقية إلى مصر ، صغر حجمهم فيها وابتلعتهم وصاغتهم على طرازها فحُفَّ حماسهم لمذهبهم الشيعي ، ولم يستطيعوا استغلال البلاد على النحو السبيء الذي فعلوه في المغرب ، لأن دافع الضرائب المصري وهو القلاح ، خبير بشئون الحكام

ومظالمهم ولديه أكثر من وسيلة للتخلص من ظلمهم ، ومع ذلك فقد قضى الجشع الفاطمي على معظم صناعات مصر التقليدية القديمة وخاصة صناعة النسيج في شمال الدلتا ، ثم كان الصراع بينهم وبين زراع مصر مؤدياً في النهاية إلى ما يعرف بالشدة المستنزوية ، وهي أعنف وأبشع أزمة اقتصادية عرفها تاريخ الإسلام . ومن الساذجة أن نعلبها بتوقف الفصحى سبع سنوات متوالية . وإنما هي نتيجة للسياسة المالية الفاطمية التي لم تعرف حوليات الإسلام أشد جشعاً منها .

وقد اتسمت سياستهم بالأنانية البالغة ، فهم مثلاً عندما انتقلوا إلى مصر احتفظوا بولاية صقلية ، مع علمهم بأنهم لن يستطيعوا إنحادها ، فحرموها بذلك من عون بنى زيري وهي امتداد طبيعي لأفريقية . ولولا أن المقادير تساركت صقلية ببني الحسن الكلبيين ، ابتداء من سنة ٣٤٦ هـ / ٩٥٢ م لضاع أمرها بعد انتقالهم إلى مصر بقليل .

وقد أحج الفاطميون نيران العصبية القبلية في المغرب إلى درجة جعلت هذه القبائل تدخل بعضها مع بعض في حروب إبادة ، بل هرب بعض زعماء البربر إلى الأندلس ناجين بأنفسهم من صراع القبيلة في المغرب . وعندما تركوا آل زيري مكانهم عندما رحلوا إلى مصر ، تركوهم غارقين في ثارات القبيلة مما عجل بزوال ملك بني زيري . وخاصة بعد أن قذفهم الفاطميون ببني هلال كما سنرى ، وما هو إلا قليل حتى انتهى أمر المغرب إلى سلطان قبيلتين من أعتى قبائل الزناتيين وأكثرها إفساداً وهما « مغرارة وبنو يفرن » ، ولولا أن الله تدارك المغرب بالمرابطين لما لوحدين فإننا يصعب أن نتصور اعتدال ميزان المغرب بعد العاصفة الفاطمية التي كانت أيضاً من أكبر أسباب ضعف دولة الإسلام في الأندلس .

والشيء الوحيد الذي يمكن ذكره للفاطميين في المغرب هو نشاطهم البحري ، فقد كانت أساطيلهم تسيطر بالفعل على مياه الحوض الأوسط للبحر المتوسط ، ولكن قوة الفاطميين البحرية لم تظهر بكامل قوتها إلا خلال الفترة الأخيرة من تاريخهم .

دولتنا بنى زيرى الصنهاجيين فى المغرب الأوسط :

توقيت : (١)

أبو الفتوح (بلكين) بن زيرى ٢٦٢ - ٣٧٤ هـ / ٩٧٣ - ٩٨٤ م
أبو الفتوح المنصور بن يوسف ٣٧٤ - ٣٨٦ هـ / ٩٨٤ - ٩٩٦ م
نصير الدولة باديس بن أبى الفتح المنصور

٣٨٦ - ٤٠٦ هـ / ٩٩٦ - ١٠١٥ م
المعز بن باديس بن أبى الفتح المنصور ٤٠٦ - ٤٥٣ هـ / ١٠١٥ - ١٠٦٣ م
تميم بن المعز ٤٥٣ - ٥٠١ هـ / ١٠٦٣ - ١١٠٧ م
يحيى بن تميم بن المعز ٥٠١ - ٥٠٩ هـ / ١١٠٧ - ١١١٦ م
على بن يحيى بن تميم ٥٠٩ - ٥١٥ هـ / ١١١٦ - ١١٢١ م
الحسن بن على ٥١٥ - ٥٤٣ هـ / ١١٢١ - ١١٤٨ م

أبو الفتوح يوسف (بلكين) بن زيرى ٣٦٢ - ٣٧٤ هـ / ٩٧٣ - ٩٨٤ م .
تقول الروايات التاريخية التى بين أيدينا : إن المعز لدين الله الفاطمى قبل رحيله إلى مصر ، عرض على جعفر بن على بن حمدون الزناتى ، أن يتولى أمور أفريقية والمغرب تابعاً للفاطميين فى مصر ، فاشترط جعفر بن على بن حمدون أن يكون أميراً مستقلاً يتصرف بما يراه دون انتظار رأى المعز ، ويولى القضاة بنفسه ولا يرسل أى مال إلى مصر ، فرفض المعز ذلك ، لأن معناه انفصال ولاية أفريقية عن الفاطميين تماماً واستقلال هذه البلاد بنفسها .

وعقب ذلك استدعى المعز لدين الله بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى وكان من أكابر رجال صنهاجة ، وعرض عليه الولاية فعقلها بشروط المعز وهى النقاء

(١) ليس لغرض من إيراد هذه التواريخ حفظها بل الاكتفاء بأهمها والاستعانة بها فى ضبط سير الأحداث .

تابعاً لفاطميين تماماً ، والحكم باسمهم والمحافظة على المذهب الشيعي مذهباً رسمياً في أفريقية والمغرب . ولكنه استعظم المهمة وقال للمعز : « فلتنتى يامولاي بغير سيف ولا رمح »^(١) ويريد بذلك أنه يتوهم تحت حمل المسؤولية التي عهد إليه المعز فيها .

وعند هذا أصدر المعز له عهداً بولاية أفريقية وسماه يوسف ولقبه أبا الفتوح . ويقول بن عذاري^(٢) وابن خلدون^(٣) وابن الخطيب^(٤) أن المعز أوصاه وصيه قال له فيها : « إن تسيت شيئاً مما أوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء : لا ترفع الجباية عن أهل البادية ، ولا ترفع السيف عن البربر ، ولا تول أحداً من إخوتك وبنى عمك فإنيهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك واستوص بالحضر خيراً » .

ولحق نستبعد هذه الحكايات لأن دولة الفاطميين في المغرب قامت على اكتاف « كُتّاميين الصنهاجيين » . فمن غم لمعقول أولاً أن يفكر « معز » أن يعرض حوزة على زعيم زناتى ، مثل عى بن حمدون هو بطبعه عدو للصنهاجيين ، ومن غير المعقول كذلك أن بوصى المعز نائبه على المغرب بالألا يرفع السيف عن البربر ، لأن ذلك النائب نفسه بربرى .

أما أن يوصيه بالألا يرفع الجباية عن أهل البادية فمفهوم إذا نحن قلنا إن المراد بأهل البادية هم البربر الزناتيون ، وكانت سياسة الدولة الفاطمية تقوم على محاربتهم وإثقالهم بالجبايات حتى يظلوا في فقر ولا يفكروا في الثورة عليها .

وكذلك يستبعد أن يكون المعز قد أوصى نائبه بالعناية بالحضر ، والحضر هم أهل المدن ، وأهل المدن لم يكونوا قط من أنصار الفاطميين ، لأنهم ظلوا سنة يناوئون المذهب الشيعي .

وهناك رواية أخرى تقول بأن المعز أوصى نائبه أبا الفتوح يوسف بن زيري ابن مناد الصنهاجى بأن يواصل حملاته على المغرب الأوسط لحسم دائه ،

(١) بن عذاري ، البيد المغرب ج ١ ص ٢١٣ .

(٢) ابن خلدون ، تاريخ ، ج ٦ ص ٢١٨ .

(٣) ابن الخطيب ، أعلام الأعلام ص ٩٥ .

والقضاء على النفوذ الأموي فيه . وهذا معقول ، لأن الفصحى ظلت طوال تاريخهم أعداء الأمويين الأندلسيين ، خائفين من امتداد نفوذهم إلى المغرب .

وهكذا أصبح أبو الفتوح يوسف (بلكين) بن زيري بن مناد صنهاجي والياً أو أميراً شبه مستقل ، لكل بلاد أفريقية ، تقسمها ثلاثة : ضربس وأفريقية وبلاد الزاب ، وما يفتحه من بلاد المغرب الأوسط .

وللمرة الأولى في التاريخ أصبح رجل من صميم أهل المغرب رئيس دولة إسلامية في بلاده ، وكان عليه بعد ذلك أن يستكمل استقلال هذه الدولة ويهيئ لها أسس النظام والقوة . وبذلك دخلت تجارب الحكم الإسلامي في المغرب في دور جديد : دور الاستقلال ، فبعد محاولات شتى لحكم البلاد ، قام بها العرب البلديون ثم العرب من ولاية الدولة ، المؤيدون بالجند لرسمى للدولة (المهابلة) ثم من العرب البلديين المواليين للدولة العباسية (الأغالبة) ، ثم من العرب المؤيدين بقوة عسكرية بربرية (الفاطميون) . دخلت البلاد الآن في طور الاستقلال ، فإن بني زيري كانوا بيتاً بربرياً أصيلاً استعرب ودخل في غمار الجماعة الإسلامية العربية الكبرى . وسنرى أن بني زيري لم يلبثوا أن استقلوا عن الفاطميين وحاولوا النهوض بمسئوليات الحكم في بلادهم قدر ما استطاعوا ، ولم يكن توفيقهم بالقليل ، ولكنهم على أي حال كانوا دور انتقال من مرحلة التبعية للمشرق إلى دور الدول المغربية المستقلة الكبرى التي تبدأ بدولة المرابطين .

ويرى ابن خلدون في ذلك انتقالاً لملك والسلطان في المغرب من العرب إلى « أعياص »^(١) البربر ، أي زعماء البربر ورؤساء قبائلهم ، الذين استعصى على الدولة الإسلامية العامة (العباسية) حكمهم ، فعصوها وانفردوا بالسلطان في بلادهم . ومعنى هذا بتعبيرنا اليوم ، أن أفريقية والمغرب استقلا عن المشرق ، وهذه حقيقة ولكن الذي ليس بحقيقة هو محاولة المؤرخين الفرنسيين ، من أمثال هنري فورتل Henri Fournel في كتابه المسمى « البربر Les Berbères » وجورج مارسيسه في كتابه المسمى « بلاد المغرب الشرقية » (أفريقية والمغرب الأوسط ،

(١) والأعياص : جمع عاص وهو الرجل لمعز بنفسه المتأني على الخضوع لغيره .

واشترى الإسلامى^(١) القوس بأن هذا الانتصر كان تحفيظاً لأهل البربر القديم في الاستقلال عن العرب ودولتهم .

والهم لدينا أننا الآن أمام أسيرة بربرية مستعزية ، تتولى بشئون أفريقية وتتطلع إلى سيادة المغرب الأوسط . معنى ذلك في رأينا أن أهل المغرب تدربوا على يد العرب ، وأخذوا فكرة بناء الدول وانتظم السياسية عندهم ، وبدأوا تجربتهم في الحكم الوطنى المستقل دون أن يكون ذلك مظهراً لتزوع قومى مغربى نحو الاستقلال عن العرب ، كراهة فيهم أو رغبة في الانفصال عن جماعة الإسلام الكبرى .

ولكن ذلك الحكم الذى وصل إليه مت زيرى بن مناد الصنهاجى تؤيده قوات قبائل صنهاجية كبرى ، أثار في المغرب كله نيران العداوة والتنافس العنيف بين الصنهاجيين والزناتيين ، كأنما كان خروج العرب من الميدان إيذاناً ببداة الصراع الحزير بين زناتة وصنهاجة على السيادة في المغرب .

وكان أول مظهر هذا الصراع هو شعور جعفر بن على بن حمدون الزناتى . كبير زناتية أفريقية وشرق المغرب الأوسط ، بأنه لم يعد آمناً في بلاده ، فبارح أفريقية لاجئاً إلى الحكم المستنصر في الأندلس ودخل في خدمته . ورحب به الحكم المستنصر ، إذ إنه كان عدواً للفاطميين ، وعقب ذلك شار الزناتيون في أفريقية وانتفض الزناتيون في تاهرت أيضاً ، فسار نحوهم بلكين (يوسف) بن زيرى لإخضاعهم ، ودخل على تاهرت وخربها ، ثم عاد دون أن يسترسل إلى غزو الزناتيين في المغرب الأقصى ، لأن المعز كان قد تصحح بالآيوغل في غزو المغرب .

وفي سنة ٢٦٧ هـ / ٩٧٧ - ٩٧٨ م أضاف المعز إلى ولاية يوسف بن زيرى ، ضرابس وصرى وأجدابية . فولى عليها يحيى بن خليفة الملبانى . وهكذا نجد ، ولاية المعز اتسعت في الشرق حتى صارت عند حدود برقة .

ولم يستك الزناتيون على غزو المغرب الأوسط وتخريب تاهرت ، فسار زعيم زناتى وهو خزرون بن قفل بن خزر الزناتى نحو سجلماسة سنة ٢٦٦ هـ /

(١) انظر مبرس المراجع في نهاية الكتاب تحت : George Marçais

٩٧٦ م وقتل أميرها محمد المعز بالله من أولاد الشاكر بالله المدوراني ، وكان من أنصار بني زيري ، وأرسل الخبر إلى الخليفة الحكم المستنصر الأموي في قرطبة ، فشجعه هذا على غزو فاس ، فدخلها سنة ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م وبهذا يكون الأمويون القرطبيون وحلفاؤهم الزناتيون ، قد تمكنوا من إثارة المتاعب في وجه بني زيري التابعين للفاطميين في مصر . ويلاحظ أن الخليفة المستنصر بالله الأموي كان شديد العداء للفاطميين إذ أنه كان يرى في المذهب الشيعي الإسماعيلي الذي نادى به الفاطميون نوعاً من الكفر والخروج على الإسلام ، أي أنه كان يعتبر حربه للفاطميين وأتباعهم جهاداً في سبيل الله . وعندما استولى على السلطان في الأندلس المنصور بن أبي عامر سر في هذه السياسة . بل ودفع فيه اندفاعاً شديداً .

وإزاء هذه السياسة الأندلسية الواضحة ، نجد أبا الفتوح يوسف بن زيري يسير لغزو المغرب الأقصى ويدخل فاس ، ويفتح أصيلاً وشالة على ساحل المحيط الأطلسي .

وتوفي أبو الفتوح يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي وهو عائد إلى أفريقية سنة ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م .

وهكذا نرى كيف أظهر هذا الأمير نشاطاً واسعاً ، وقام بالمهمة التي عهد إليه الفاطميون فيها خير عيم . ولكنه لم يكن في حقيقة يخدم الخلافة الفاطمية فقط بل كان يثبت أركان ملكه ويمهد لطريق لاستقلاله ، المغرب الإسلامي ، وقد دفع في أثناء ذلك في خطأ كبير وهو إثارة مخاوف الزناتيين ودفعهم إلى الاستعانة بالأمويين في قرطبة .

أبو الفتوح المنصور بن يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي

٣٧٤-٣٨٦ هـ / ٩٨٤-٩٩٦ م :

كان أبو الفتوح المنصور بن أبي الفتوح يوسف بن زيري قبل توليه الإمارة والياً على الزاب ونائباً عن أبيه فيه . وكان أول ما عمله بعد توليته ، أن أقام معه

أبى الجبهار بن زيري بن مفاد عاملاً على المغرب الأوسط وجعل مركزه تاهرت . وأقام في نفس الوقت أخاه يطوفت بن يوسف بن زيري «أبى» عن أشير في المغرب الأوسط ، وأوصاهما بالتعاون معاً على حماية المغرب الأوسط من أى عدوان يحاوله الزناتيون . وكان المنصور بن أبى عامر المستبد يحكم الاندلس باسم خليفته الشرعى هشام المؤيد ابن الحكم المستنصر ، قد أيد زعيماً زناتياً ، هو زيري بن عطية المغراوي «خزرى» وأعانه على بسط سلطانه على المغرب الأقصى وجعل عاصمته فاس .

ووجد أبو الفتوح المنصور بن يوسف أنه لابد من مواصلة الحرب ضد الزناتيين سادة المغرب الأقصى ، فأرسل أخاه يطوفت في جيش كبير نحو فاس واحتلها ، ولكن زيري بن عطية الخزرى المغراوي الملقب بانقرطاس ، تصدى له وهزمه في معركة قتل فيها ألوف الصنهاجيين ، وكانت هذه آخر محاولة قام بها بنو زيري الصنهاجيين للتدخل في شئون المغرب الأقصى ، فأصبح هذا الأخير تحت سيطرة الزناتيين يؤيدهم الأمويون في الأندلس .

وعندما انشقت جماعة من الزناتيين على زيري بن عطية المغراوي ، وانضمت إلى أسى الفتوح المنصور وشجعت على غزو المغرب الأقصى ، لم يستحب لهم بل اكتفى بإقامة كبير هؤلاء الزناتية على طينة في الزاب .

وثار عليه داع شيعى يسمى أبى الفهم الخراسانى سنة ٣٧٦ هـ / ٩٨٦ م ولكنه تمكن من التغلب عليه .

ونلاحظ أن دولة بنى زيري في أيام أبى الفتوح المنصور ثنى أمراتها ، فقدت الكثير من قوتها واقتصر أمرها على بلاد أفريقية والزاب ، حتى وادى شلف ، أما سيادتها على المغرب الأوسط فكانت اسمية فقط ، وسنلاحظ أن ولاية المغرب الأوسط من بنى زيري سيستقلون به بعد قليل .

ومن الواضح أن بنى زيري ما كانوا يستطيعوا سيادة بلاد أفريقية ، من حدود مصر إلى وادى شلف والمغرب الأوسط حتى نهر المولوية ، لأنهم كانوا يحال دولة صغيرة محدودة القوى والإمكانات ، وكانت تبعتهم للقاطمين

تضعف من جانبهم ، لأنها كانت تفرض عليهم المذهب الشيعي ، وكان أهل المغرب ينكرون منه ، يؤيدهم في ذلك الأمويون الأندلسيون .

نصير الدولة باديس بن أبي الفتح المنصور

٣٨٦-٤١٦ هـ / ٩٩٦-١٠١٥ م :

ثم يطل حكم أبي الفتح المنصور ، إن أن الموت عاجله وهو في سن الشباب بعد أن حكم اثنتي عشرة سنة هجرية ، وخلفه ابنه باديس الذي تلقب بنصير الدولة وكسبت سنة ١٢ سنة فقام بالأمر أعظمه وأكبرهم بطوفاً بن زيري وأبى زاهر وحماد بن يوسف الذي تولى أشير في المغرب الأوسط أيضاً

ورفض الزناتيون الطاعة للأمير الجديد ، وقامت حروب طويلة بينهم وبين الصنهاجيين أصحاب أفريقية والمغرب الأوسط ، وبعد نحو خمس سنوات من الحروب الدامية ، استقر الأمر بعض الشيء لباديس بن أبي الفتح المنصور في أفريقية سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠١ م . أما المغرب الأوسط ، فقد تولى أمره حماد بن يوسف بن زيري ، وهو عم باديس ، وخاض حرباً طويلة مع زيري بن عطية المغراوي شيخ زناتية المغرب الأقصى ، وكان النصر في النهاية لحماد بن يوسف ، على زيري بن عطية الزناتية ثم ابنه ماكسن بن زيري . وفي سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م وجد الزناتيون أنهم لن يستطيعوا مقاومة بني حماد الصنهاجيين إلى مالا نهاية ، بعد أن قتل الصنهاجيون زعيمهم ، ماكسن بن زيري بن عطية ، الذي خلف أباه زيري وولديه محسن وباديس ، في معركة دامية ، فاضطر زاوي بن زيري (آخر أولاد ماكسن) إلى الهجرة إلى الأندلس مع ابنه حباسة وحموس ابن ماكسن ، ودخلوا في خدمة عبيد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر ، وكان لهم ولبن هاجر معهم دور غير حميد في الفتنة الأندلسية التي وقعت بعد ذلك بقليل .

وكان لانتصار حماد بن زيري على الزناتيين في المغرب الأوسط وثأميته حدود الدولة الصنهاجية من ناحية المغرب ، أكبر الأثر في تثبيت سلطان بيته في

المغرب الأوسط ، ومع أنه لم يعلن انفصاله عن بني عمه أصحاب أفريقية ، إلا أنه بات من الواضح أنه سائر نحو الاستقلال التام بالمغرب الأوسط عن دولة بني عمه في أفريقية .

وتوفي نصير الدولة باديس سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م بعد حكم قصير غير مستقر ، انقضى في حروب متصلة مع الزناتيين من ناحية ، ومع بني عمه بني حماد أصحاب القلعة من ناحية أخرى .

المعز بن باديس بن أبي الفتح المنصور بن يوسف بن ريوى ٤٠٦ - ٤٥٤ هـ / ١٠١٥ - ١٠٦٢ م :

تولى المعز بعد وفاة أبيه سنة ٤٠٦ هـ - ١٠١٥ م وكانت سنة ثمانى سنوات ، فقام بالأمر من دونه أعمامه ورجال دولته حتى بلغ سن الرشد . وبدأ يحكم منفرداً حوالى سنة ٤١٦ هـ / ١٠٢٥ م وقد أبدى مهارة كبيرة في إدارة شئون الدولة وخاض حروباً طويلة مع خصومها . وظال حكمه حتى قارب الخمسين سنة هجرية ، وكان رجلاً واسع الذكاء متجدد النشاط ذا فكر سياسى ناضج مستقل ، ولكن الظروف التي أحاطت بالمغرب الإسلامى كله أثناء حكمه الطويل ، حالت بينه وبين التوفيق الكامل الذى كان يريته ، فتدهورت الدولة وتفككت وحدثها رغم ما بذل من جهود كبيرة في سبيل الحفاظ عليها . ولكنه كان ، كما يقول ابن خلدون : « أميراً هماماً حازماً سيئ الطالع فلم يوفق إلى كثير » . ورغم ما أصاب الدولة في أيامه من تصدع ، وما انتهى إليه أمرها في آخر أيامه من انهيار ، فهو يعتبر من أكبر أمراء المسلمين خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، وقد أثنى عليه معظم مؤرخينا القدامى وخاصة ابن خلدون .

بدأ المعز ورجاله بمحاولة لحل أكبر مشاكل الدولة إذ ذاك ، وهى القضاء على نزعة الانفصال عند بني حماد . وخاض معهم حروباً طويلة انتصر فيها رجال المعز . وعندما تأكد حماد وبنوه أنهم لا يستطيعون الوقوف طويلاً أمام

المعز ورجاله تقدم حماد يطلب الصلح على أساس أن يكون تابعاً للقيروان ، وأن يتمتع باستقلال محلي في المغرب الأوسط . وتم الصلح في صفر ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م ، ونستطيع اعتبار ذلك الصلح بمثابة تاريخ ليلاد دولة بني حماد المستقلة في المغرب الأوسط .

ومع أن شروط الصلح كانت تنص على ألا يتصرف بنو حماد في شأن من شئون بلادهم السياسية والعسكرية إلا بالاتفاق مع المعز ورجاله أصحاب السلطان في القيروان ، إلا أن المشاغل الكثيرة التي أحاطت بهؤلاء الآخرين ، جعلتهم عاجزين في الواقع عن القيام بأي محاولة جدية لإجبار بني حماد على طاعتهم . ومن ثم فقد اكتفوا بالطاعة الاسمية والتعاون في أثناء الأخطار التي تهددهما معاً ، وفيما عدا ذلك فقد سارت كل من الدولتين في طريقها .

وهناك من يرون أن قيام دولة بني حماد أصحاب القلعة ، يعتبر نقطة بداية تاريخ المغرب الأوسط ككيان سياسي مستقل داخل الدولة الإسلامية العامة . وهذا صحيح إلى حد ما ، وإن كان لابد أن نعود إلى الوراء إلى دولة بني رستم الصنهاجيين . لكي نصل إلى البداية السياسية لتاريخ المغرب الأوسط الإسلامي ، وهو يقابل معظم بلاد الجزائر الحالية .

انفصال دولتي بني زيري عن الفاطميين :

بعد انتقال المعز لدين الله الفاطمي بدولته وأهل بيته وكبار قوايه وجنوده وذخائره ، بل برفات أجداده إلى مصر ، لم يعد لأفريقية في تفكيره السياسي مكان كبير رغم أنه لم يتنازل قط عن تبعية هذه البلاد له ، وظل يتمسك دائماً بأن يظهر سوريري الولاء التام والكامل نحو الخلافة الفاطمية في القاهرة ومذهبها الشيعي الإسماعيلي .

ولكن الظروف الجديدة التي أحاطت بدولة الفاطميين في مصر كانت تحول بينهم وبين إحكام قبضتهم على أفريقية ، فقد غرقوا في شئون مصر ومشاكلها ، وفي خلال القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، كانت مصر تسير رغم النقبات السياسية الكبيرة التي مرت بها — في الطريق الذي جعلها أواصر هذا «قرن أضخم وأقوى وحدة سياسية في الشرق الإسلامي كله ، فقد نشعت بلاد

بأمان كامل من الأخطار الخارجية ، وعلى الرغم من ضعف الدولة العباسية وعجزها عن القيام بشئون دولتها ، إلا أن مصر سارت في طريقها التاريخي الطويل بقض الحولونيين أولاً ثم الإخشيديين بعد ذلك .

فظهرت من جديد على مسرح التاريخ دولة قائمة بذاتها داخل إطارها الجغرافي الذي عرفها الناس فيه من آلاف السنين ، وانتظمت أمورها الإدارية الداخلية دون هزات أو اضطرابات عنيفة ، وصدق عليه قول ابن حوقل الذي زارها في العصر الفاطمي : « لمصر قانون ونظام ودولة » .

وعندما دخل المعز ورجاله مصر سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م ، وجدوا أنفسهم في بلد هو أضخم وأغنى بكثير مما تصوروا ، وذلك اقتضى منهم جهداً ضخماً في السيطرة على إدارة كبيرة مستقرة الإصر مثبات اسنين . ثم إن إسلام أهل مصر كان يجتاز مراحله الأخيرة ، وكانت الغالبية العظمى من سكان البلاد تعدت حتى بلاد النوبة ، قد دخلت في الإسلام ، وذلك بدوره اقتضى تغييراً شاملاً في إدارة الدولة وسياسة حكمها . وبينما كانت مصر الطولونية مثلاً دولة يغلب على سكانها الدين المسيحي ، ومن ثم فلم تكن بذات وزن كبير في توجيه شئون الدولة الإسلامية ، فإن مصر التي دخلها المعز كانت دولة غالبية أهلها مسلمون مستعمرون أو عرب ، ونتيجة لذلك بدأت مصر تقوم بدور متزايد في عالم الإسلام . وكان على المعز وخلفائه أن يتولوا توجيه شئون مصر في هذا الدور ، ولكنه لم يحكم مصر إلا أربع سنوات .

وهذا كله جعل من المستحيل على الفاطميين أن يوجهوا الاهتمام اللازم نحو شئون أفريقية والمغرب ، فتحلوا مرغمين عن السلطان الحقيقي عليهما ، واكتفوا من ولائها بالطاعة الرسمية . وفي نفس الوقت أخذ استقلال بنى زيري في أفريقية والمغرب الأوسط يتحول إلى حقيقة واقعة ، ولم يعد من الممكن أن تعود أفريقية والمغرب الأوسط إلى التبعية للمشرق من جديد .

ويذهب بعض المؤرخين الفرنسيين - وخاصة جورج مارسيه - إلى أن ذلك كان نتيجة لنفور البربر من العرب وعدائهم لهم واتجاههم إلى الاستقلال عنهم ،

وهذا غير صحيح لأنه كان في الواقع كما رأيت سيجة لتفوز دخلي طبيعي دخلي
المغرب الإسلامي نفسه .

فكما استقلت مصر مثلاً عن الخلافة العباسية دون عداوة - كان يكتفه شعب
مصر للدولة الإسلامية العامة ، بل لأن هذا الاستقلال بطبيعته ، كان لابد أن يتم
نتيجة لتطور مصر الداخل - فكذا حدث في أفريقيا والمغرب ، لأن اكتمال
الإسلام والاستعرا ب كان في كل مكان الخطوة الحاسمة نحو نضوج الوعي
المحل وظهور شخصية الإقليمية ثم الاستقلال الحقيقي

ومثل هذا يقال أيضاً عن انفصال المغرب الأوسط عن أفريقية وقيام دولة
مستقلة فيه على يد بني حماد ، فلم يكن ذلك راجعاً فحسب إلى قدرة بني حماد
وسياستهم ، بل كان النتيجة الطبيعية للتطور الداخل في المغرب الأوسط
الإسلامي من أيام بني رستم ، بل من أيام الثورة البربرية الكبرى . وفضل
بني حماد يتحصن في أنهم قادوا هذا التطور في مراحله الأخيرة وأعطوا استقلال
المغرب الأوسط عن أفريقية صورته السياسية المحددة .

أما المغرب الأقصى فقد بدأت عملية الاستقلال تتجلى فيه من أيام قيام الدولة
الإدرسية كما رأينا ، ومع أن الأمازيغ لم يستطيعوا السير بعملية الاستقلال إلى
نهايتها فسقطوا أخيراً تحت وطأة النزاع الضخم بين الفاطميين الشيعة من
المشرق والأمويين السفين من الشمال ، إلا أن المغرب الأقصى لم يعد بعد ذلك قط
إلى التبعية ، لا إلى المشرق ولا أفريقية والمغرب الأوسط . وكان عليه أن يشق
طريقه في عُسْر خلال القرن الرابع الهجري ، حتى إذا أمْلُ القرن الخامس كان
الكيان الداخل للمغرب الأقصى الإسلامي الغربي قد وصل إلى درجة النضوج ،
فاخذت شخصيته المستقلة تزداد وضوحاً شيئاً فشيئاً ، حتى أخذت صورتها
الجليلة على أيدي المرابطين كما سنرى

وقد تمكن المعز لدين الله الفاطمي من المحافظة على تبعية بني زيري له ، لأنه
اتبع معهم سياسة ماهرة تضمن له مظهر تلك التبعية ، ولا تتعارض مع ما كان
بنو زيري يطمعون إليه من الاستقلال في الحقيقة ، ثم إنه كما قلنا لم يحكم في
مصر إلا سنوات أربع .

فلما مات المعز وخلفه ابنه العزيز سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م رأى هذا الأخير أن سى زيرى يتجهزون نحو الاستقلال بصورة ظاهرة أمام أبى الفتح المنصور ابن زيرى ، ففكر في أن يضع العراقير في طريقهم ويعمل على إضعاف بنى زيرى حتى يظلوا دائماً في حاجة إلى تأييد الفاطميين ، فأرسل داعية شيعياً يسمى « أبا الفهم » سكى يثير قبائل كسمة على أبى الفتح المنصور وفعلاً نصمت منه جموع منهم ، ولكن المنصور انتصر عليهم وقتل أبا الفهم ، مما اضطر العزيز إلى العدول عن سياسة التدبير السيئ من وراء ستار ، فعاد إلى مصانعة المنصور ومهادنته ، وكان ذلك سنة ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م أى بعد انتقال الفاطميين من المغرب وقيام الدولة الزيرية بثلاثين سنة .

وعندما تولى الحاكم بأمر الله ، ثالث خلفاء الفاطميين في مصر ، كان عرش بنى زيرى قد انتقل إلى نصير الدولة باديس ، وهو أيضاً ثالث بنى زيرى على أفريقية . فأراد الحاكم بأمر الله أن يختير قوة نصير الدولة ، فأرسل إلى واليه على برقة (وكانت جزءاً من مصر) يأمره بالاستيلاء على طرابلس (وكانت جزءاً من ولاية أفريقية والمغرب) وبالفعل استولى والى برقة على طرابلس ، ولكن نصير الدولة باديس هزمه وأخرجته من البلاد ، وعاد الحاكم فحاول أن يعطى طرابلس للزياتيين أعداء الصنهاجيين ، فعهد إلى فقل بن سعيد المغربي الزياتي و دخول طرابلس وحكمها ، ولكن نصير الدولة باديس تمكن من القضاء عليه وعلى أخيه من بعده ، وهنا تجد الخليفة الحاكم يعود إلى مصانعة باديس واسترضائه بالهدوء .

ولكن الأمر تغير عندما تولى الأمير المعز بن باديس في ذى الحجة ٤٠٦ هـ / مايو ١٠١٦ م وكان المعز كما قلنا أميراً قوياً ، اتجه منذ بلغ سن الرشد إلى تولى الحكم بنفسه ، ولم يخف نزوعه إلى الاستقلال عن الفاطميين وإبعادهم الشيعة في المغرب جملة . وقد تم له ذلك ، بعد تطورات كثيرة في سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م فعزل المعز بن باديس في القيروان عودته إلى المغرب لتسرى بذلك ورحب شعب القيروان بذلك ترحيباً شديداً ، حتى قامت ثورة على من كان في القيروان من الشيعة . وعلى أثر ذلك بعث المعز إلى الخليفة العباسي القائم

بأمر الله ، يطلب منه عهداً بتوليته عن أفريقية والمغرب ، فأرسل إليه الخليفة رايات سوداً وخلعاً سوداً ، وعهداً بالولاية . وهكذا انفصلت دولة بني زيري وبلاد أفريقية والمغرب عن مصر والمشرق كما قلنا ، وسار ذلك الجناح الغربي لدولة الإسلام في طريقه من ذلك الحين .

دخول العرب الهلالية بلاد المغرب :

ينحدر بنو هلال بن عامر بن صعصعة وأبناء عمومتهم بنو سليم بن منصور من قيس عيلان بن مضر ، ولكنهم كانوا يختلفون في طبيعتهم وأخلاقهم عن أجدادهم هوازن بن منصور بن قيس عيلان بن مضر ، الذين كانوا من أعظم قبائل العرب وأعواها وأعفها ثراً في الفصح الإسلامية أيام الخلفاء الراشدين ، الأمويين .

وبنو هلال وبنو سليم الذين نتحدث عنهم يدخلون فيمن يسميهم ابن خلدون بعرب الجيل الرابع أو العرب المستعجمة ، الذين فقدوا خلق العرب الأول ، ولم يعد لهم من القوة والقدرة وسلامة العنصر ، ما يمكنهم من منافسة المتغلبين على الدولة من الفرس كالبويهيين والترك والغز والسلاجقة ومن جاء بعدهم ، ولهذا فقد انسحبت بقاياهم إلى شبه الجزيرة ووسطها ، وهناك عاشوا على هامش مناطق الحضرة والاستقرار دون أن يؤذن لهم في دخولها وسكنائها ، وقست عليهم الدول فأنحصروا في صحرائهم ، وهناك اشتد بهم الفقر ، واعتمدوا في معاشهم على الغارات يشنونها على الحجاز وأطراف الشام والعراق . وبلغ من شدة عوزهم أنهم كانوا يهاجمون فوافي الحج ويتهبونها ، حتى ساءت سمعتهم وهبط قدرهم وأصبحوا كما يقول ابن خلدون : « خولاً واتباعاً للدول وشرّاً وبلاء على الحضرة » .

إلى جانب ذلك فقد أولئك العرب فصاحة العرب وسلامة اللغة . وفسدت لغتهم واستعجمت ألسنتهم إلى ما يشبه لهجات البدو في بعض نواحي جزيرة العرب اليوم ، وشابت لغاتهم ألفاظ وعبارات أعجمية ، فاستعجمت ألسنتهم ، ولهذا يسميهم ابن خلدون بالعرب المستعجمة .

وعندما قامت حركة القرامطة انضم إليها بنو سليم مع نفر من بنى ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن ودخلوا بجيوشهم في عمان والبحرين . واشتركوا في الحرب ضد الفاطميين في الشام ومصر والحجاز . وعندما تغلب المعز لدين الله على القرامطة وأرغمهم على الارتداد إلى البحرين انفصل بنو هلال وبنو سليم عنهم وماروا إلى الفاطميين . فقتلهم العزيز بن «فاطمي إلى صعيد مصر ، وأسكنهم الضفة الشرقية من النيل واشترط عليهم ألا يعبروا إلى الضفة الغربية ، وكان هدفه من ذلك الحيلولة بينهم وبين الانضمام إلى أعداء الفاطميين في المغرب . فأقسام من انتقل من بنى هلال وبنى سليم في الصعيد الأعلى وأدوا الفلاحين إيذاء شديداً . فأسما بنو سليم فقد اندمج الكثيرون منهم في كتلة السكان في الصعيد . وأم بنو هلال فقد ظلوا بدواً . ومن أكثر قبائلهم حشم والأبج وزغبة ورياح وربيعة وعدى والزواودة » .

وفي عهد الخليفة المستنصر الفاطمي ، وقعت الحروب بين هذه القبائل بعضها وبعض ، « وعُمُ ضررهم وأحرق البلاد والدولة شرورهم » كما يقول ابن خلدون^(١) وأصبحوا مشكلة كبيرة للحكم الفاطمي في مصر .

في ذلك الحين كان المعز بن باديس قد أعلن استقلاله عن الفاطميين وعاد إلى المذهب السني ودخل في طاعة الخليفة العباسي ، وكانت الدولة الفاطمية عاجزة عن اتخاذ أي إجراء ضده . وهنا خطرت ببال الوزير الفاطمي أبي محمد الحسن ابن علي اليازوري فكرة إقطاع بنى هلال وبنى سليم بلاد أفريقية والمغرب ونقلهم إليها . وكان رايه انه إذا تمكن الهلاليون من القضاء على دولة بني زيري . كان ذلك خيراً للدولة الفاطمية ، فإن استقلال بني زيري وعودتهم إلى مذهب السنة كان يؤرق بال الخليفة الفاطمي ورجاله ، فإذا حدث العكس وقضى بنو زيري على بنى هلال كان هذا خلاصاً من هؤلاء دون أن تحسر الدولة شيئاً ولم يفكر هذا الوزير الفاطمي فيما يمكن أن يحدثه بنو هلال من الضرر بتفريقة أهلها .

(١) ابن خلدون - العبر ج ٦ ص ٣٠ .

ومع أن العرب الذين دخلوا مصر واستقروا فيها كانت غالبيتهم من بنى سليم ، فإن اسم بنى هلال غلب عليهم جميعاً ، لأنهم كانوا أوغل في البداوة وأعنف من بنى سليم في معاملة الناس ويزول الصبر عنهم ، فأصبح الكثر يسكنون إلى هلال بن عامر بن صعصعة ويسموا هلاليين ، أو هلالية .

وهكذا انتقل بنو هلال هؤلاء ، بجموعهم إلى الغرب واتجهوا نحو برقة ، وكان الخليفة الفاطمي قد أقطعهم أفريقية والمغرب وأعطاهم ما ساءه ملك المعز بن بلكين الصنهاجي العبد الأبق فلا تفتقروا بعد ذلك .

وصل بنو هلال إلى برقة سنة ٤٤٢ هـ / ١٠٥١ م ووجدوها خالية من السكان تقريباً بسبب الحروب الطويلة التي كانت تنهش من زنايتها وفسوان بنى زيري الصنهاجيين ، فاستقر فيها نفر من بنى سليم في برقة وانطلقت بقية بنى هلال إلى طرابلس وأفريقية ، فاستقروا فيها دوراً ثم يلقوا مقرهم وأرسلوا إلى بقية بنى عمومهم في الصعيد يستقدمونهم ، فلحق بهم جماعات كثيرة من بنى هلال وبنى سليم وتولى قيادة الجميع يحيى الرياحي شيخ بنى ربح أحد قروى بنى هلال ، وكان رئيساً بدوياً شجاعاً معامراً وكان له سنطار كبير على رجاله ، فلما استقر في طرابلس أصبح سيد هذا الإقليم الواسع ، وانعقدت له رئاسة بنى هلال وبنى سليم في انتقالهم إلى أفريقية وتوغلهم في أراضي بنى زيري بن مناد الصنهاجيين ، ويصعب تقدير عدد بنى هلال وبنى سليم الذين دخلوا المغرب ، ولكن الأغلب أن الكتلة الأولى التي هاجرت منهم كانت حوالى ٥٠,٠٠٠ فرد ، ثم تلاحقت بهم بعد ذلك جماعات أخرى على أمد طويل ، ويقدر مجموع الذين دخلوا المغرب منهم بمائة ألف ، بما في ذلك النساء والصغار .

تغريبة بنى هلال ونشوء ملحمة أبى زيد الهلالي :

وقد سميت هجرة بنى هلال هؤلاء إلى المغرب بالغزوة الهلالية أو تغريبة بنى هلال أو « التغريبة » فقط ، وقد دارت بينهم وبين الزناتيين في طرابلس أول الأمر ، معارك ضوية مينة بالمغامرات ووفائع ، وكانت أخبار هذه الوفائع تصل إلى الباقين منهم في مصر ، فينظمها شعراؤهم في صورة قصص شعبي عربي مصري ، عُرفت فيما بعد بقصة الهلالية ، وبطل القصة يسمى « أبى زيد الهلالي » ،

أما خصمه فيسمى خليفة الزناتى أو الزناتى خليفة وهذه الملحمة تعتبر من أشهر آثار الأدب الشعبى العربى وإن لم تكن من أكثرها جمالا ولكنها تميز بطابع شعبى خالص يجعلها شيئا فريداً فى الأدب العربى كله ، ومن نماذج شعرها قول بدر الهلالى يخاطب بواب قصر شكر صاحب مكة وزوج الجازية بحلة القصة ، ويرجوه أن يفتح له باب مكة ليزور قبر النبی ﷺ :

أنا أول كلامى قد خُذْتُ التَّهْلَاسِ تظلمه القمامى لسه الحج راح
 يارب أزوره وأتملى بنـزوره وأشاهد قبوره وتلك النـسوح
 وأقول يا حبيبى يا مسكى وطيبى مدحك من نصيبى مساء مع صباح
 لك يسوم الهجيرى غمامة تسيرى وإن كنت البشرى بحل الصلاح
 يا بواب افتح لى الباب المصنـج من دخله يريح وينال القـلاح

وقصة بنى هلال فى الأدب تختلف عن وقائع التاريخ اختلافاً كبيراً ، فهى أشبه بالصدى البعيد لحوادث التاريخ ، مثلها فى ذلك مثل كل الملاحم الشعبية مثل «أنشودة رولان» و«قصيدة السيد» . فالقصة الأدبية تدور حول فتاة جميلة من بنى هلال عشقها فتى من أتريه ، وأراد الزواج منها فلم يرض أهلها عن لرواح بعد تمامه ، واحتالوا على الفتاة واسمها اسجارية ، ومضوا بها إلى المغرب بعد أن خدعوا صاحبها ، وفى المغرب زوجوه من ابن عمها ، وسكن قلبها ظل معلقاً بزوجها الأول حتى ماتت ، ومات هو أيضاً هياماً بها بعد حرمانه منها ، وتدور القصة بعد ذلك على محور الصراع بين قبائل بنى هلال بعضهم وبعض ، وما يقع لهم من الحروب فى المغرب ، وكلها تبدو للقارئ وكأنها أضغاث أحلام تضم بعض لمحات من الجمال الشعرى والقصى .

استقر بنو هلال فى برقة وخرَّبوا مدينه حمراء (برقة) وأخذواهم وامتد أذاهم إلى طرابلس وفرن ، وانتهى الأمر بأن سادوا معظم سكان هذه النواحي واختلطوا بهم .

وأما بنو هلال فساروا في جموعهم إلى أفريقية « كالجراد المنتشر لا يمرون على شيء إلا أتوا عليه » كما يقول ابن خلدون^(١) .

ويسرف ابن خلدون في تفصيل ما أنزله للهلالية في أفريقية والمغرب من خراب . والحق أن بنى هلال ومن دخل معهم من العرب ، يختلفون كل الاختلاف عمن عرقنا من عرب الأجيال الأولى ، التي قامت بالفتوح الإسلامية المحيطة ، لأن بنى هلال لم يكونوا جيوشاً نظامية ، ذات هدف ديني أو قومي معنوي واضح ، كما رأينا في فوج عرب لاوي ، وإنما كانوا بدواً طلو طوال تاريخهم بدواً ، ولم يغيروا صيغتهم البدوي أبداً ، لأن طول إقامتهم في البوادي دعوة الدول عليهم وإحراجها إياهم من كل نطاق حصارى ، جعلتهم بدواً من قومه رأسهم إلى أخمص قدمهم ، فهم يتحركون ويتصرفون جماعياً ، ويطيعون رئيس القبيلة ولا يعرفون رئيساً غيره ، ولا يرون في العمران إلا مجالاً للنار والنهب ، وهم يغيرون على المزارع والمنشآت دون أن يتنبهوا إلى أهميتها وقيمتها ، بل يسعدون بأن يصيبوا منها ما يقدرون عليه ويعيشون فيها فساداً ، فهم يقتلعون الأبواب ويستعملون أخشابها وقوداً للنار ، ويطلقون قطعانهم في المزارع تأكل الحاصلات دون تفكير ، ولا يعتززون إلا بشيء واحد : « العصبية » فهم يتعصون لقبائلهم أكثر مما يتعصون لأي شيء آخر .

هذا كله غاب عن خاطر المعز بن باديس الذي تصور أنه يستطيع الاستعانة بالهلالية على بعض خصومه من هتاجة ، وتصور أنه يستطيع اتخاذهم جنداً ويستغنى بهم عن الكتاميين وغيرهم ، وهذا ربح بمؤنس بن يحيى الرياحي ، دعاه إلى الوقود عليه بقومه ، فكان في ذلك مستجيراً من الرمضاء بالنار . ذلك أن مؤنساً وقومه عندما دخلوا أفريقية ، فزعوا المعز فرعاً شديداً إذ رأهم يحرقون ويحرقون وينسفون المزارع ، دون أدنى تفكير ، فسارع إلى القبض على مؤنس الرياحي وكان يقيم في القروان وطلب إليه أن يخرج قومه من بلاده ويكن الأوان كيان قد فات ، لقد دخل بنو هلال بلاد أفريقية وأنشبوا أظافرهم فيها ولن يستطيع هو أو قومه إنقاذها منهم .

(١) ابن خلدون ، المعراج ص ١٢١ .

واستنجد المعز يابن عمه حماد صاحب القلعة ، فأتجه بألف فارس واستصرخ رباته فاجبل إليه المستنصر بن خروون بألف فارس من زناتة وجميع هو جنده وانضم إليه بقايا العرب البلديين وهم عرب الفتح ، ولكن هؤلاء تخلوا عنه وانضموا للهلالية عندما دارت المعركة .

دارت المعركة بين أهل أفريقية ، يتزعمهم المعز بن باديس والعرب الهلالية . عند مكان يسمى « حيدران » قرب قابس في ذي الحجة ٤٤٢ هـ / أبريل ١٠٥١ م وكان المتوقع أن ينتصر لمعز بصرأ للضخامة جيشه وجودة سلاحه وكثرة حربه وكانت غالبية الهلالية في هذه المعركة من بنى رياح وعدى من بطون الهلالية ، ولكن انفصال العرب البلديين عن جيش المعز أضعف صفوفه وجُرَّ عليه الهزيمة ، ففضى الهلاليون على جيشه تماماً ، فتراجع وتحصن في القيروان وأقبل العرب يحاصرونه فيها .

وعبثاً حاول المعز أن يصددهم عنها ، بل ذهب إلى حد أن صاهر ثلاثة من أمرائهم دون جدوى ، وأخيراً اضطر إلى الانسحاب بجسده وجسائره إلى المهدية وهي القلعة التي كان الفاطميون قد بنوها على الساحل ، في طرف لسان بارز في البحر إلى شمال سوسة . وفي رمضان سنة ٤٤٦ هـ / ديسمبر ١٠٦٤ م رحى الهلاليون القيروان وخربوها تماماً كما خربوا قبل ذلك كل ما مروا به من مدوز طرابلس وأفريقية وحطوها حطاماً ، وقتلوا من أهلها من قعدروا عليه وتفرق الباقون فعمَّ الخراب البلاد .

وقضى المعز السنوات الأخيرة من حكمه سجيناً في المهدية وشريط من الأرض حولها ، حتى توفي سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٣ م بعد أن رأى بعينه خراب بلاده . وخلفه ابنه تميم الذي اقتصرت دولته على المهدية وأجوازها وصفاقس وقابس وجزيرة جربة .

وتعتبر هذه نهاية بنى زيري في أفريقية ، رغم أن تميم بن المعز ظل يحتفظ بالمساحة التي ذكرناها من أرض أفريقية ، أما الباقي فقد تقاسمه الهلاليون وبعض زعماء زناتة وصنهاجة ، وانقسمت البلاد إلى إقطاعات صغيرة وضاعت وحدتها .

وهذا هو الذي أطمع النورمان في سوحل أفريقية . وكانوا قد عروا صقلية في ذلك الحين ، ثم لم يلبثوا أن تطلعوا إلى سيادة أفريقية .

سقطت صقلية في يد روجر الأول النورماني بعد حرب قصيرة بدأت سنة ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م وانتهت فعلاً سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م بعد أن خرج آخر المدافعين عنها وهو ابن الحواس بأمله وماله إلى أفريقية . وقد ضمت « نصريانة » تدافع عن نفسها ثلاث سنوات بعد ذلك ، ثم استسلمت وفي سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩٢ م سقطت بلرم ، فانتهى أمر المسلمين في صقلية من الناحية السياسية .

وقد طالت الحروب بين تميم بن المعز والنورمان في البر والبحر ، وتقلب علاقاته معهم بين صلح وحرب ، وبعد وفاة تميم بن المعز جاء ابنه علي بن تميم ابن المعز ، وبدأ يوضح أن النورمان سيتمكنون من الاستيلاء على المهدية ، فاستنجد بالمرايطين ، وكانت دولتهم قد قامت في المغرب الأقصى . وبالفعل قام أسطول مرايطي بغزو صقلية والاستيلاء على مدينة « نقوطرة » سنة ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م .

وبعد انصراف المرايطين جمع « روجر » أو « رجار » أسطولاً ضخماً وأعلن على المهدية حروباً صليبية . وعجز الحسن بن علي بن تميم بن المعز عن الدفاع عن بلاده ، فسقطت المهدية سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م ، وكذلك كل مدن ساحل أفريقية وطرابلس في يد النورمان .

وظل الحال كذلك حتى تمكن الموحدون من طردهم وتخليص البلاد عنهم .

نهاية دولة بني حماد أصحاب القلعة :

توقفت :

حماد بن يوسف (بلكين) بن زيري	١٤٩ - ٤٤٦ هـ / ١٠٢٨ - ١٠٥٤ م
القائد بن حماد	٤٤٦ - ٤٤٧ هـ / ١٠٥٤ - ١٠٥٥ م
محسن بن القائد	٤٤٧ - ٤٥٤ هـ / ١٠٥٥ - ١٠٦٢ م
بلكين بن محمد بن حماد	٤٥٤ - ٤٨١ هـ / ١٠٦٢ - ١٠٨٨ م

الناصر بن علناس	٤٨٩-٤٩٨ هـ / ١٠٨٨-١١٠٤ م
المنصور بن الناصر	٤٩٨-٥٠٠ هـ / ١١٠٤-١١٠٦ م
باديس بن المنصور	٥٠٠-٥١٥ هـ / ١١٠٦-١١٢١ م
العزیز بن المنصور	٥١٥-٥٤٧ هـ / ١١٢١-١١٥٢ م

ذكرنا كيف انقسمت دولة بنى زيرى إلى دولتين ، إحداهما في أفريقية وعن رأسها بنو زيرى بن مناد الصنهاجى الذين رأينا نهايتهم . والآخرى في المغرب الأوسط يتولاها بنو حماد أبناء عمومة بنى زيرى . وقد اتخذ بنو حماد مدينة أشير عاصمة لهم ثم ابتنوا إلى جنوبها قلعة ضخمة أشبه بمدينة الصخرة عرفت بقلعة بنى حماد . وكانت هذه القلعة هي حصن أمراء بنى حماد ، الذى يلجئون إليه وقت الخطر ، كما كان الحال مع المهديّة بالنسبة للقاطمين وبنى زيرى والقصر القديم بالنسبة للأعالة والجنسورية بالنسبة للقاضيين في أخريات أيامهم في أفريقية ، وبلغ من ضخامة قلعة بنى حماد أن نسبوا إليها وأصبح اسمهم في الكثير من كتب التاريخ بنى حماد أصحاب القلعة .

وقلعة بنى حماد تعتبر من أعظم القلاع التى أنشأها المسلمون في تاريخهم وهى تقارن بقلعة حصن الأكراد في الشام ، التى بناها الصليبيون في الشام واستولى عليها صلاح الدين ، وقلعة صلاح الدين في القاهرة ، وهى في الحقيقة مدينة كاملة ذات أحياء ومساجد تتوسطها قسبة ، أى حصن منيع داخل ، ومازالت بقاياها قائمة في بلاد الجزائر إلى اليوم .

ومن الملاحظ أن ظروف القلق وعدم الاستقرار التى عرفتها أفريقية منذ قدام لثورة المغربية الكبرى في النصف الأول من القرن الهجرى الثانى ، جعلت الدول التى قامت هناك لا تعتمد على القبائل أو سلسلة الدولة بقدر اعتمادها على الحصون والجند المرتزق والسلاح .

وعندما ضاقت أشير عن أن تكون عاصمة دولة كبيرة بعض الشيء ، انتقل الأمير الناصر بن علناس بن حماد إلى مدينة بجاية سنة ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م بعد أن أعاد بناءها وجعلها عاصمة دولته .

كان حماد بن يوسف بن يلكين بن زيري ، أول أمراء هذه الأسرة ، وقد نجح في مد سلطانه حتى ساد المغرب الأوسط كله من نهر شلف إلى نهر المولوية . وكان المعز بن باديس قد اضطر قبل ذلك إلى الاعتراف بابن عمه حماد أميراً مستقلاً على المغرب الأوسط سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م .

وفي سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م صار عرش دولة بني حماد إلى الناصر بن عثاس بن حماد وهو أعظم أمراء هذه الأسرة ، وقد اتخذ بجاية عاصمة له كما قلنا وانتقل إليها سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م وظل يحكم المغرب الأوسط حتى سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٨٨ م

وخلقه ابنه المنصور الذي بلغت الدولة أوجها في عصره ، وقد عني المنصور ابن الناصر بن عثاس بالمنشآت والقصور . وفي أيامه أصبحت بجاية أعظم مدن أفريقية والمغرب الأوسط وأوسعها عمراناً .

وكان آخر أمراء هذه الدولة هو يحيى بن العزيز بن المنصور بن الناصر ابن عثاس . وكان العرب الهلاليون قد دخلوا المغرب الأوسط وقضوا على عمرانه ولم يستطع هذا الأمر إعادة الدولة إلى ما كانت عليه . وأخيراً تمكن عبد المؤمن بن علي ، أول خلفاء الموحدين ، من دخول بجاية سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م ، وهكذا انتهت دولة بني حماد . وبعد ثماني سنوات ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م دخل عبد المؤمن ابن علي أفريقية واستعاد المهديّة من النورمان ، وامتد ملكه إلى طرابلس وهكذا توحد المغرب كله من طرابلس إلى المحيط الأطلسي على يد الموحدين .

دولتنا بني زيري في الميزان :

تعتبر دولة بني زيري في أفريقية وفرعها دولة بني حماد في المغرب الأوسط ، من صفار دول المغرب ، فقد ظلنا أمداً طويلاً تابعتين للفاطميين حتى قام المعز ابن باديس بالاستقلال عنهم .

ودولة بني زيري أول دولة مغربية خالصة يقيمها البربر الذين تم استعراهم ، وأصبحوا عضواً أساسياً في جماعة العروبة والإسلام . وقد رأينا أن

أمراء هذه الدولة بذلوا جهداً مشكوراً في تنظيم «بلاد» وحكمها وإن شابت حكمهم قسوة وعنف ، سواء مع رعاياهم أو خصصوهم . وكان فيهم ميل إلى الترف والبذخ ، ولكن ذلك كان على صورة بدوية ساذجة ، وقد أنفقوا في ذلك الترف الساذج أموالاً طائلة ، ونفروا بجفوتهم وقسوتهم الكثير من القبائل ، وقد استفدوا قواهم في حروب عقيمة على عدى قصير ثم ظلت دولتهم تحتضران بعد ذلك ، ومهما كان الأمر فلم يكن بنو زيري وأبناء عمومتهم بنو حماد أسوأ بكثير من غيرهم من أصحاب الدول في القرن الرابع الهجري وما يليه ، فقد تقسم العالم الإسلامي ، فيما عدا الأندلس ، كله إلى دويلات صغيرة يحكمها مستبدون بالأمم يهجمون على السلطة وينتزعونها انتزاعاً دون حق ، ويحكمون بقوة حدود مرتزقين يشترونهم بالمال ويسلطونهم على الناس ، ووسط هؤلاء العتاة والمستبدين الذين تقاسموا عالم الإسلام فيما بينهم ، من حدود الصين إلى حدود الأندلس ، يعتبر بنو زيري وبنو حماد من أفضل هؤلاء الحكام وأكثرهم حرصاً على راحة رعاياهم ومصالح بلادهم . ويلاحظ أنهم على الجملة كانوا حريصين على إقامة العدالة في بلادهم ، ولم ينصرفوا إلى اللهو والعبث انصرافاً شائناً كما نرى عند الكثيرين من أمراء هذه العصور ، وإذا كانوا لم يوفقوا في الوصول ببلاذهم إلى أحسن مما استطاعوا ، فإن الذنب كله لم يكن ذنبهم ، وإنما يرجع ذلك إلى قلة نصيبهم من الحضارة والتثقيف فقد كانوا رؤساء قبليين في ثياب أمراء ، ولكنهم كانوا ذوي بسالة وممة . وقد بذلوا أقصى ما في قدرتهم ، ثم إن بلادهم كانت فقيرة ، وكانت تحتاج إلى سنوات طويلة من الهدوء لتستعيد عمرانها بعد الفتن التي مرت بها . فلما وصلت الدولتان إلى الاستقرار المنشود ، أيام المعز بن باديس وبنو تميم بن المعز في أميرية والناصر بن علناس في المعز الأوسط ، جاءت الغزوة الهلالية فكانت عاصفة قوضت دعائم الدولتين جميعاً .

بل إننا نلاحظ أن بنو زيري وبنو حماد كانوا أحرص على التمسك بالدين واحترام رعاياهم أكثر مما فعلت دولة الفاطميين نفسها . وقد نهج بنو زيري سياسة مغربية واضحة ، فلم يكن لهم اهتمام شديد بما كان يجري في المشرق ، بل انصرفوا إلى محاربة زناتة وحاولوا حماية بلادهم من الأمويين في الأندلس .

وكانت الدولتان تجربتين موفقتين للحكم المحلي في المغرب ، وهما خطوة بين أفريقية التسابعة للمشرق وأفريقية والمغرب الأوسط الفاطميين ، أمر بلادهما : وبنوعه أو سند خارجي . ولا شك في أن المعز بن باديس والناصر بن علناس يعتبران من عظام أمراء العالم الإسلامي في عصرهما ، وقد ساعدت سياستهما على إظهار شخصية المغرب الإسلامي وإعطائها ملامحها المميزة وسط بلاد العالم الإسلامي .

وقد قامت دولة بني زيري بدور كبير في تاريخ البحر المتوسط ، فقد وقفت في وجه النورمان وحدها زمناً طويلاً ، وكان المعز بن باديس وتميم بن المعز موضع احترام ملوك النورمان ، وكذلك كان الناصر بن علناس أمير دولة بني حماد أصحاب القلعة ، إذ لا روجر ، ملك صقلية النورمانية ، ولم يضعف أمر بني زيري أمام النورمان إلا بعد أن حطمت الغزوة الهلالية قواصم واستولى الأعراب على معظم بلادهم فأصبحت دولتهما صغيرتين ضعيفتين . ومع ذلك فقد كان نشاطهما البحري عظيماً .

وقد ضاعت صقلية من أيدي المسلمين أيام بني زيري ، ولكنهم لم يكونوا مسئولين عن ذلك ، بل تقع المسؤولية على الفاطميين الذين احتفظوا بصقلية سابعة لهم بعد انتقالهم إلى مصر . وكانوا يعرفون أنهم بن مسطوعوا من هناك لتمام ما كانت حماه صقلية تتطلبه ، ولكن أدنيتهم أتت إلا أن تفصل صقلية عن أفريقية ، التي كانت البلد الإسلامي الوحيد الذي يستطيع إعاد صقلية ، وهكذا ضاع قطر إسلامي (هو صقلية) بسبب أنانية الفاطميين .

الرأى في الغزوة الهلالية :

دأبنا أن نعرض لبنى هلال وبني سليم ، ومن انضم إليهم من عرب الجيل الرابع من قيس عيلان ، أنزلوا بأفريقية والمغرب الأوسط خرباً بالغاً كان له بعد أثر في تاريخ البلاد ، وشرحنا أسباب الأعمال الهمجية التي قام بها أولئك الناس ، وجعلت مع دخولهم البلاد ، نكبة كبرى على تاريخها . بل يبلغ الأمر أننا في تاريخنا للمغرب نقول : إن غزوة بني هلال تعتبر الخراب الأكبر للمغرب ، فقد

قُضت على عمرانته وعلى جهود الدول الماضية في بناء حضارته ، فكان على أهله أن يعيدوا إنشاءها من جديد .

ولكن بنى هلال أدوا مع ذلك خدمة كبرى بالنسبة لعروبة المغرب ، فقد أضعفت جموعهم قوى تلك القبائل المرشاشية ، التي كانت تحاول سيادة المغرب بالقوة والعنف وتخريب أعمال الدول المستقرة بصورة مستمرة ، ثم بنى الهلاليون انتشاروا في كل ناحية في البلاد الممتدة إلى أحواز المغرب الأقصى ، وسكنوا السهول والجبال والسواحل وصاهروا الناس فكان عمهم هذا يكتب لأتباعه العرب فتحولت بلاد الجريد في تونس وبلاد المغرب الأوسط (الجزائر الحالية) إلى بلاد عربية إسلامية خالصة تتكلم العربية وتحس بأنها جزء من العالم العربي ، ولولا الهلاليون لما صار المغرب عربياً على الصورة التي نراها الآن .

لم تكن الغزوة الهلالية إذن شراً خالصاً ، بل كانت شراً نأثى عنه خير كثير . وإذا كنا نقدر اليوم بالمغرب العربي ، فإن الفضل في ذلك يرجع إلى أولئك البدو الذين غلبوا وانتهوا بدواً محربين ، ولم يتعلموا قط الانضمام في دول أو احترام مظاهر العمران . ومن الأسف أن أين خلدون عندما تحدث عن العرب في مقدمته كان متأثراً في كلامه وأحكامه بما فعله الهلاليون في المغرب ، فجاءت صورة العرب في المقدمة قاتمة جداً .

لقد غر بنو هلال التكوين البشري لأفريقية والمغرب الأوسط ثم المغرب الأقصى فيما بعد ، فأصبحت العروبة أغلب عليهم من البربرية ، ولقد أباد أولئك الهلاليون قبائل كثيرة ، ودفعوا قبائل أخرى إلى الهرب أمامها نحو المغرب ، فحلت بلاد الجريد وقسنطينة والزاب في أفريقية من أهله الأول ، من ورائها حمير الهلالية وتكثرت فيها ، وشيت فشيئاً ثاب تيب أهلها من الهير أو من بقى منهم واختلط الشعبان اختلاطاً تاماً ، فأصبح المغرب من أكبر بلاد العروبة وأعمقها إسلاماً .

وهكذا نرى كيف كانت عوامل كثيرة تعمل على تعريب المغرب وإدماجه في الكتلة العربية ، فبعد جهود العرب الأول وصراعهم مع البربر وتحويهم أفريقية

إلى بلاد عربية الحضارة واللسان داخلة في عالم السنة والجماعة ، جاء الأندلسية
فنشروا في أرض المغرب الأقصى بذور عروبة طيبة ، ثم أتى الهلاليون من المشرق
فبذروا بذوراً أخرى لم تلبث أن اثمرت ثم أينعت ، وإلى جانب ذلك كان مهاجرة
الأندلسيين يُقبلون إلى المغرب ، حاملين علماً كثيراً بثوره في نواحي المغرب كلها .
وعندما تقوم دولة المرابطين تكون الأرض قد شهدت لقيام الدولة العربية المغربية
الكبرى .



دولة المرابطين

رغم ما انتهت إليه تجربة دولة الأدارسة من توفيق يقل كثيراً عما كان ينتظر لها ، ورغم ما بذته القبائل المؤيدة لها من جهود في توحيد أكبر قسم من المغرب الأقصى تحت لواء دولة إسلامية قوية ، تقوم على مذهب السنة والجماعة ، فإن توفيقها السياسي كان قصير العمر ، تطوراً لقلّة الخبرة السياسية التي أتت للكثيرين من قادتها من ناحية ، ثم لأن الظروف التاريخية غير المواتية وضعتها في موضع الصراع بين الفاطميين الإسماعيليين والمرابطين الأندلسيين السنيين ، ومع ذلك فقد رأينا أن التوفيق الحضاري للأدارسة كان كبيراً جداً ، فقد ضمن لهم نسبهم الشريف مكانة عظيمة في قلوب الناس ، ثم إتهم داخلوا أهل المغرب وصاهروهم وأصبحوا منهم وكان لهم أبعد الأثر في تعريب أهل المغرب ونشر اللغة العربية وعلوم الإسلام من منبر جامعة القرويين . وعندما اضطرتهم الظروف التي أحاطت بهم واضطرت بقاياهم إلى اللجوء إلى قلعة حجر الشر ، كان المغرب الأقصى قد وجد نفسه في العروبة والسنة والجماعة وأخذ يبني نفسه قُدماً .

وكانت تجربة الأدارسة كذلك درساً سياسياً باقى الأثر في المغرب ، فقد رأت قبائله كيف قامت في بلادهم دولة إسلامية منظمة الإدارة ، يقوم على رأسها إمام مطاع مرهوب الجانب من آل البيت وذوابة العروبة ، عزت به السنة والجماعة ، ويستقيم الإسلام الصحيح بجاهه ، وجاء القبائل اليربورية المستعربة التي تؤيده وتتحدى في ظلّه فضائل العروبة ، ويظهر بمفضل ذلك كله فضل قبائل مغربية لم تكن قبل ذلك بذات شأن سياسي كبير في المغرب الأقصى مثل أوربة^(١) وغمارة ووكالة وسدراتة ونقزة ومكناسة . وبعض هذه القبائل مصمودية ، وبعضها صنهاجية ، وبعضها الآخر زناتية .

(١) كان لأوربة قبل ذلك شأن كبير في المغرب الأوسط كما رأينا آنفاً .

كان نجاح هذه القبائل في إقامة دولة بنى إدريس ، حافزاً لزعماء قبائل أخرى ، على محاولة إقامة دول مماثلة لحسابها سعى بها أمرها ، وحسب ما يذكر أن تنافس القبائل المغربية على السطوة والسيادة قوة محركة دأمة لتاريخ المغرب وأحداثه في كل عصوره .

وبعد نهاية الدور الأول من تاريخ الإدارة ، وخروجهم من حوض نهر سيو وخروج فاس من أيديهم وأندلس بقيادهم إلى قلعة حجر النسر في شعب حسان الريف ، استبد بالامر موسى بن أبي العافية مؤيداً بهاء الفاطميين . ولكن الامر لم يستقر لموسى بن أبي العافية طويلاً ، لأنه لم يستطع إقامة انظام ، فلم تمت وحدة القبائل التي أقامت دولة الإدارة أن انفرجت . وخلال العقود الأولى من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، عاد المغرب الأقصى إلى الفوضى ، وسيطرت عليه جماعات زناتية معظمهم من مغراوة وبنى يفرن ، وأخذت زندقة برغواطة تتشط من جديد .

وفي عصور سيادة الزناتية تسود الفوضى ويعانى الحضر من ثقل المغارم ، لأنهم لا يحميهم من عدوان البدو إلا دول الحضر أى البرانس التي تأخذ بناصرهم وتحصى المدن وأهلها وتعمرها بالمنشآت والمساجد ، وهى دور علم في نفس الوقت .

حدث شيء من هذا بعد القضاء على آخر الإدارة على يد مصالة بن حبوس الصنهاجي ، حاصر لواء الدعوة الفاطمية في المغرب الأوسط والأقصى ، سنة ٣١٢ هـ / ٩٢٥ — ٩٢٦ م . وفشل موسى بن أبي العافية الذي أتاه مصالة بن حبوس عنه في حكم منطقة فاس ، فعادت قبائل الزناتية إلى الاستبداد بالناس من جديد ، فكانت جماعات المغراويين واليفرنيين ترزع أمن الناس ، وتلزم من قدرت عليه بأداء المهرم في نواحي مكناسة ورباط تازا في الشمال ، إلى وادي أم الربيع في الجنوب ، بما في ذلك السهل الساحلي المسمى ريف تامسنا ، وامتد سلطانها إلى سهل دكالة فيما بين وادي أم الربيع ومجرى نهر تانسيفت ، بل

سيطرت بعض فروعهما على سهل السوس وبلاد تافيلالت وعاصمتها
سجلماسة.

صنهاجة الصحراء وتطلعها إلى التخلص

من سيادة الزناتيين - جدالة :

في ذلك الحين ، وبعد النصف الثاني من القرن الهجري الرابع / العاشر
الميلادي كانت تعيش في أقصى جنوبي المغرب ، فيما يلي نهر درعة جنوباً وفي
الصحراء التي عليها جنوباً ويسمى الكرى صحراء « تنسر » التي تمتد إلى
حوض السنغال ، كانت تعيش مجموعة من القبائل الصنهاجية تسمى
بصنهاجة الصحراء ، أهمها جدالة ومسوقة وملتونة وتارجا ولطة وحزولسة
وبنو وارث . كانت تعيش حياة شغل وجهد في الشريط الصحراوي الأطلسي بعد
أن طردوا الزناتيون إلى أقصى الجنوب وأخرجوها من بواحي مثل تافيلالت
وأصبحت في صحرائها محصورة بين سور حوض السنغال وزناتة المغرب ،
وكانت قبائل عفية كثيرة العدد ، تعيش على الرعي وقليل من الزراعة ، وكانت قد
دخلت الإسلام ، ولكن إسلامها كان سطحياً ، في حاجة إلى عمق وفهم ، وكان
زعماء بعضها مثل جدالة ومسوقة وملتونة على جانب كبير من بُعد الهممة والتطلع
إلى كسر هذا الحصار المضروب حولها .

وطول هذه الصحراء التي سكنتها قبائل صنهاجة الصحراء حوالي ألف
كيلو متر ، تقطعها القوافل في شهر لتصل إلى حوض نهر السنغال ، وهو أول
أنهار أفريقية المدارية الغربية شمالاً ، وجدير بالذكر أن لفظ سنغال صورة
برتغالية محرفة لاسم صنهاجة ، فقد نطقها البرتغاليون لأول وصولهم إلى هذه
السواحل صنهاجال Senhagal ثم سنجال Senegal .

وعند منابع نهر النولوية وحتى مجرى وادي درعة يمتد إقليم تافيلالت ، وهو
إقليم واحات ومنابع مياه كثيرة أكبرها سجلماسة ، وكانت سجلماسة من أكبر
المحطات التجارية على أبواب الصحراء ، فإذا عبر التجار صحراء تنسر الواسعة
التي أشرنا إليها ، وصلوا إلى محطة قوافل أخرى في الحوض ، أعلى نهر السنغال
تسمى أودغشت ، وكانت كل من سجلماسة وأودغشت ، سوقاً تجارية عظيمة

يقدر عليها التجار ، وتحط فيها القوافل وتجتمع فيها المتاجر والاموال .

في ذلك العصر - أوائل القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي - كانت الرياسة بين القبائل الصنهاجية التي اشرنا إليها لقبيلة جداله ، وكان يتزعمها إبراهيم بن ترغوث ، وخلفه في الرياسة ابنه عمر ثم حفيده يحيى . وتقرر مزاحمة أن يحيى بن عمر بن إبراهيم بن ترغوث الجدالي هذا في الحج سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٦ م وأنه لقي في طريق عودته الفقيه أبا عمران الغفجومي الفاسي . وكان من أكم فقهاء المالكية والخبريين في عصره . واستمع يحيى بن عمر الجدالي إلى دروسه ، فتأقت نفسه إلى أن يرى في بلاده فقيهاً مثله . يلقي دروسه في منازل قبيلته ويعلمهم الكتاب والسنة ويفقههم في الدين ، فحدث إلى أبي عمران الفاسي في ذلك .

وكان يحيى بن عمر يكثر في نفس الوقت في أمر آخر إلى جانب اهتمامه بالعلم والفقه ، وهو إنقاذ المجموعة الصنهاجية التي ينتسب إليها من استبداد الزناتيين وطغيانهم ، الذي امتد حتى تافيلالت ، ففي هذه التاحية ساد فرع من مغراوة الزناتيين ، يسمى بنى وانودين ، وكان رئيس هذا الفرع يسمى مسعود بن وانودين ، وكان على ثراء واسع وكان رعماء زناتيون آخرون يحكمون في نواح أخرى ، فكان « خير بن خزر » ينشر سلطانه على مكناس ، ومعتصر بن ممداد شيخ بنى يفرن بسود منطقة قلعة مهدى ، في حين سيطر القنوج بن دوناس على فاس ومنطقتها وهكذا .

وكانت القبائل الصنهاجية الكبرى تعاني كثيراً من تلك السيادة الزناتية ، وكان يسودها خوف على الحصار ، لأن سيادة القبيلة على قبيلة أخرى لمدة طويلة ، تنتهي بهبوط القبيلة المستضعفة إلى مستوى الرعايا المحكومين الخاضعين ، وهذا نذير بزوال أمر القبيلة نتيجة لانكسار قوتها وطول العهد باستذلالها .

هذا الخوف ، كان بعض السبب الذي حفز يحيى بن عمر بن إبراهيم الجدالي إلى البحث عن شيخ يُعَلِّم رجاله فسلطه شرائع الإسلام - ويجمع كلمتهم روبر - أبصارهم ، لأن العلم نور للبصائر وتنبيه للأذهان وإخراج للناس من غفلة الجهالة إلى يقظة العلم . ولا شك في أن يحيى بن عمر بن إبراهيم هذا ، لاحظ أن

كل من حركوا القبائل البربرية وهياؤها لإنشاء الدول ، كانوا جميعاً من المتحمسين من رجال الدين أو أصحاب الدعوات الدينية ، من أمثال أبي الخطاب عبد الأعلى بن لسمح المصافري ، وأبي عبد الله الشيعي ، وإدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، حتى برغواطة تزعمها رجل من أهل العلم هو ميسرة الفقير ، وغمارة تزعمها صالح البرغواضي الذي رعم أنه « صالح المؤمنين » الذي ورد ذكره في القرآن .

وكان يحيى بن عمر يروجو أيضاً أن يتنبه قومه من صنهاجة الصحراء ، إلى خطر الحصار الذي يضربه عليهم من الجنوب أهل السودان ، ويسجنونهم في صحرائهم القاسية ، ويحولون بينهم وبين الانتشار في الأراضي الخصيبة في وديان أنهار السودان الغربي .

تحدث يحيى بن عمر إلى أبي عمران الفاسي في إرسال أحد تلاميذه معه ، ولكن أحداً من أولئك التلاميذ لم يستجب للدعوة بعد المسافة ، خصوصاً المغامرة . فكتب أبو عمران الفاسي له كتاباً إلى أحد تلاميذه من الفقهاء والعلماء في سجلماسة وسمه وجاج بن زلو اللطفي ، إحدى قبائل صنهاجة الصحراء . وكان وجاج فقيهاً ذا مكانة كبيرة . ولكنه لم يشأ القيام بهذه المهمة بظراً لعلمه بصعوبة قيادة الجداليين ، فتدب لذلك تلميذاً شاباً من تلاميذه يسمى عبد الله ابن ياسين الجزولي .

عبد الله بن ياسين :

نهض عبد الله بن ياسين لأداء مهمته ، وتوجه إلى منازل قبيلة جدالة وبدأ يعمل ، وتكثف عن رجل نشيط متحمس واسع المطامح . فتم يقتصر على تعليم الجداليين شعائر الدين ، بل أراد أن يهذب أخلاقهم ، يحررهم عن حياة الخسوف والبدائية التي كانوا يعيشون فيها . ووضع لهم نظاماً للآداب العامة وأخبرهم بشريعة . وكان الجداليون كثيرين وكانوا أهل فوضى وحوة وفلة نعام . فلم يلبثوا أن ثاروا على عبد الله بن ياسين وأخرجوه من بلادهم ، لأنهم لم يتحملوا عنفه وشدته .

ولجأ عبد الله بن ياسين إلى شيخه وجاج بن زلو ، فطلب إلى يحيى بن عمر

عقابهم على ما فعلوه ، فقدم بذلك وجعلهم يظنون عودة عبد الله بن ياسين إليهم ، ولكنه رفض ، فنصحه وجَّع بأن يذهب إلى منازل قبيلة لتونة ، وكانوا أميل إلى النظام والتماسك والعمل الجاد .

وإلى حين قريب لم تكن تعرف إلا شيئاً قليلاً عن عبد الله بن ياسين الجزولي ، ولكننا نعرف الآن أنه كان رجلاً واسع العلم بعيد الخُمُوح شديد الذكاء ، وسدس ابن عذارى أنه زار الأندلس ودرس فيه علوماً شتى ، وعندما عاد إلى المغرب قطعها من الشمال إلى الجنوب ، ومر في طريقه بريف تامسنا ، ورأى كيف أن جماعات الصنهاجيين هناك تترجح تحت وطأة الزناتيين وقُدَّر جنود الزناتيين هناك بما لا يزيد على ثلاثة آلاف ، وأدرك أنه من الممكن التغلب عليهم وإقامة دولة لصنهاجة هناك . وبعد ذلك بسنوات ، عندما توجه إلى منازل لتونة أحس أن فرصته قد حانت ليحقق ما كان يجول في ذهنه ، وهنا تحلى عبد الله بن ياسين عن شخصية رجل سياسى مؤهل للقيام بحركة سياسية كبيرة .

وعرف من أول الأمر كيف يكسب محبة يحيى بن عمر بن إبراهيم الجدالي ، وهو من حدالة كما يتجلى من نسبه ، ولكن جده إبراهيم كان قد هاجر اللمتونيين ودخل فيهم وانتسب إليهم ، وأصبح يعد نفسه من سلائل ترغوت بن ورتاسن ابن منصور بن مصالة بن أميت ، الذي عروب على « أمية بن وانمال » ، الذي عروب على « وانمال بن لتونة » التي تنطلق أيضاً « تالميت » بن صنهاجة . وقد وصل هذا الرجل بذكائه ونشاطه إلى أن أصبح من زعماء لتونة . ثم أنجب أولاداً كثيرين أشهرهم اثنان عمر وتشفين . أما تشفين فهو أبو يوسف الذي ستصير إليه زعامة المرابطين فيما بعد ، وأما عمر فقد أنجب أباً بكر ويحيى ، ويحيى هذا هو الذي تحدثنا عن رحلته إلى المشرق ومروره بالقروان ولقائه مع أبي عمران الفاسى ثم مجيئه أخيراً بعبد الله بن ياسين .

كان عبد الله بن ياسين كما ذكرنا رجلاً نشيطاً ومغامراً سياسياً لا يهاب شيئاً . وكان عظيم الإيمان بالإسلام . وكانت فيه شدة في حمل الناس على إقامة شعائر الدين ، حتى كان يوقع العقوبات البدنية على من يتراخى في أدائها ، وقد أقاد يحيى بن عمر من مواهب عبد الله بن ياسين ، لأن الشخصية المهيبة التي كان يتمتع بها هذا الأخير ، كنت ترغب الناس على الصاعسة ليحيى . وكان يحيى من

ناحيته لا يدخر وسعاً في تقديم العون لعبد الله بن ياسين .

وعندما تأكد عبد الله بن ياسين من أنه كَوْن حوله جماعة من المخلصين خرج بهم إلى جزيرة في المحيط ، قرب مصب وادي السنغال في الغالب ، لكي يفرغوا لأمر العبد . وهناك أنشأ رباطاً لم يلبث أن اتسع وكثر الناس فيه ، فلما رأى عبد الله بن ياسين وفرة أعدادهم وحماسهم قل لهم : « اخرجوا فأنتم المرابطون ! » هذه رواية ابن عذارى الذي يقول بناء على ذلك أن هذا أصل تسمية المرابطين ، ولكن هناك من يقولون إن عبد الله بن ياسين أطلق عليهم هذا اللقب بعد انتصارهم في إحدى معاركهم .

وعندما اكتمل عدد هؤلاء الرجال الأشداء المخلصين ألفاً ، أمرهم عبد الله بن ياسين بالخروج من معتصمهم هذا في الجزيرة ، إلى البر والسير للجهاد ، وانضمت إليهم أعداد غفيرة من الجداليين واللمتونيين وغيرهم . وكان ذلك في سنة ٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م ، وكانت القوة والقيادة في تلك الجماعة المرابطية الأولى للمتونة ، فبدأ اسم هذه القبيلة يظهر من بين القبائل الكثيرة التي تكونت منها مجموعة قبائل صنهاجة الصحراء .

هنا تظهر صفة أخرى من صفات عبد الله بن ياسين الكثيرة : صورة القائد العسكري الماهر الذي يحسن قيادة الجيوش وترتيب المعارك ، ويبدى في ذلك الميدان مهارة لا بأس بها ، وكانت الخطوة الأولى أمامه القضاء على سلطان المغراويين الزناتيين الذين كانوا يسيطرون على المغرب الأقصى .

عبر عبد الله بن ياسين على رأس رجاله الصحراء متجهاً إلى الشمال ، فلما وصل إلى إقليم تافيلالت الذي كان يسوده مسعود بن وأنودين ورجاله من المغراويين ، فانتصر عليهم واستخلص سجلماسة من أيديهم . وفي المعارك قتل مسعود بن وأنودين ، واسترسل إلى الشمال ونزل سهل مراکش الذي يجري فيه نهر تانسيفت ، وكان ذلك سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م .

بعد ذلك ارتد عبد الله بن ياسين إلى الجنوب ، فعبر الصحراء ، وهاجم أهل السودان الغربي في حوض السنغال ، وانتصر عليهم ، وفتح بذلك أمام قبائل صنهاجة البربرية أبواب أفريقية المدارية ، أي أن ذلك الرجل كسر الحصار الذي

كان مضروباً على صنهاجة الصحراء ، وفتح أمامها أبواب التوسع شمالاً وجنوباً ، فأخذت قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة ولطة وجزولة أو كزولة تتوسع جنوباً ، ومعنى ذلك أن الإسلام كسر النطاق الوقتي ووصل إلى شعوب أفريقية السوداء من هذه الناحية ، وذلك حادث تاريخي عظيم الأثر والمغزى .

وفي أثناء تلك الحروب قتل عبد الله بن ياسين سنة ١٥١ هـ / ١٠٥٩ م ، وبذلك اختفت تلك الشخصية الفريدة التي جمعت متناقضات كثيرة ، من إيمان وحماس ديني شديد وميل مفرط إلى النساء والاستمتاع ، وزهد وميل إلى التصوف ، إلى جانب النزوع إلى لسلطين ولجاه ، ولكنه كان على الجملة رجلاً فذاً واسع النظر يعيد المطامح ، دقيق الإيمان بالإسلام شديد العصية لقومه . وكان يزعم أنه فقيه واسع العلم ، ولكن الحقيقة أن علمه بالفقه كان قليلاً . وقد أحصى المؤرخون عليه أخطاء فقهية كثيرة وأحكاماً صدرت عنه مخالفة للشرع ، ولكنهم جميعاً يثنون عليه بالذكاء والصلاح والإيمان والإخلاص وشجاعة وخلصة القول فيه أنه كان رجل دين وسياسة وشخصية فريدة ، أوتيت القدرة على قيادة الرجال وصنع التاريخ .

وقد قام عبد الله بن ياسين بعمله كله ، معتزلاً بجاه يحيى بن عمر بن إبراهيم الجدالي أمير لمتونة ومن انضم إليها من قبائل المرابطين . وعندما مات يحيى بن عمر وحلقه في الرياسة أخوه أبو بكر بن عمر ، حظى عبد الله بن ياسين بتأييده ، بل زادت مكائده عنده ، لأن عبد الله بن ياسين ، رغم اتساع جاهه لم يتخط حدوده قط ، واستمر يعطى الأمير حقه من الإجلال والتعظيم والطاعة ، وإن جنح أحياناً إلى فرض هيبة الدينية عليه بذكاء .

وعندما قتل عبد الله بن ياسين كان سلطان أبي بكر بن عمر وقبيلته لمتونة ، قد استقر وطاعت له كل قبائل لمتونة الصحراء ، أي أن عبد الله بن ياسين أتم مهمته قبل موته ، ووجد صفوف الصنهاجيين تحت راية الجهاد في سبيل الله ، وقد خططوا لهم الأولى في الانتصار على الزناتيين في لشمل وقبائل أفريقية المدارية السوداء في جنوب . وأخرجها من القوضى وانفرد إلى الانضمام والوحدة ، وأشعرها بقوتها وأعطاها عايات وأهدافاً دينية وسياسية واضحة . ورسم لها الطريق لتحقيق هذه الغايات والأهداف .

استمرار مسيرة الحركة المرابطية بقيادة أبي بكر بن عمر .
إنشاء مراكش :

وسار أبو بكر بن عمر بالحركة في طريقها ، وكان يستعين في عمله بالظاهرين من قرابته وأهل بيته ، وخاصة ابن عمه يوسف بن تاشفين ، وكان إذ ذاك شاباً واسع الطموح .

وحول ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ - ١٠٦٩ م كان سلطان المرابطين قد استقر في حوض نهر تانسيفت الفسيح ، وظهرت الضرورة إلى إنشاء قاعدة سياسية وعسكرية للحركة في ذلك السهل الذي أصبح مركز الحركة كلها ، وكانت هناك قريتان بدائيتان ، على ضفة نهر صغير من نهيرات تانسيفت ، يجري من الجنوب ويصب في النهر ، وكانت كل منهما تسمى أغمات ، والأغمات هو اللفظ البربري الذي يطلق على القرية البدئية التي تتألف من سور من الطين أو الفصب وفروع الشجر ، وتتخذها القبيلة التي تنشأها معتصماً لنسائها وأطفالها ، وحملوا شيها بالليل وفي أوقات الخطر والحروب ومخزناً لسلحها وأزوادها ، وتسمى مثل هذه القرية البدائية في اللغات الأوروبية باسم كراال Kraal وتسمى العربية باسم المجمع . وكان واحد من الأغماتين ملكاً لقبيلة هيلانة أو آيت إيلان والثاني كان ملكاً لقبيلة أوريك ، وكلا القبيلتين مصموديتان ، ولكنهما طاعتا لصنهاجة الصحراء ، مثلهما في ذلك مثل بقية القبائل المصمودية الضاربة هناك ، وقد انضمت هذه القبائل المصمودية إلى الحركة المرابطية ، واشتركت في جيوشها وأعمالها العسكرية ، وقد رحب بذلك أبو بكر بن عمر ويوسف بن تاشفين من بعده ، وقد أفادت الحركة المرابطية من ذلك فائدة كبرى ، إذ أصبحت جيوشها تتألف من صنهاجيين ومصامدة وإن ظلت الرياسة في يد الصنهاجيين .

وتناقصت القبيلتان كل منهما تريد أن تنشأ القاعدة في أغماتها ، وانتهى الأمر بأن تنشأ في الأغماتين معاً ، فكانت كتلتهما في أغمات هيلانة ، وتحولت أغمات أوريك إلى ضاحية للمدينة الجديدة ، وظل يطلق عليها اسم أغمات فقط ، وتقع إلى جنوبى مدينة مراكش .

وشرع أبو بكر بن عمر في بناء قاعدته سنة ٦٤١ هـ / ١٠٦٨ - ١٠٦٩ م .

وأطلق عليها اسم مراكش ، وهي بالبربرية مراكش ومعناه قصر الحجر ، لأن مباني المدينة أقيمت بالحجر ، وما لبثت المباني الرئيسية في المدينة أن نمت ومضى الناس يتشئون البيوت والأسواق ، وهكذا نرى كيف أن هذا الرجل الذي ولد في حوض نهر السنغال في أفريقية المدارية ، عرف بفضل إيمانه بالإسلام ودخوله في حضارته ، أن يصيف إلى تاريخ «حصارة الإسلامية مدينة من أجمل مدائن الإسلام وأوفرها بركة وأشهرها في الدنيا» وهي مدينة مراكش الزاهرة إلى اليوم .

وبينما كان أبو بكر بن عمر يرقب العمل في بناء مدينته الجديدة بعد أن تزوج بزوجة جميلة تسمى زيتب بنت إسحاق النفاوية يبلغه خبر ازواجه ، خلاصته أن قبيلة جدالة وثبت بقبيلة لتونة في الصحراء وأنزلت بها مذبة ، فقرر العودة مسرعاً إلى منازل القبائل الصنهاجية في الصحراء لإنقاذ لتونة . وقبل رحيله جمع رؤساء قومه وطلب منهم أن يخبروا من بينهم رئيساً لهم يقوم بأمرهم في غيابه ، فاختاروا ابن عمه يوسف بن تاشفين ، وكان تاشفين والد يوسف أخاً ليحيى وأبي بكر ابني عمر بن إبراهيم بن ترغوت .

وتول أبو بكر بن عمر ثلث القوة المرابطية مع يوسف بن تاشفين ، وأخذ الثلثين ومضى إلى منازل لتونة وجدالة وراء الصحراء سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م .

يوسف بن تاشفين - انقسام القوة المرابطية إلى قسمين :

واحد يعمل في المغرب ثم في الأندلس ، وواحد يعمل في أفريقية المدارية الغربية :

من ذلك الحين انقسمت حركة المرابطين قسمين : واحد منهما شمالي ، مركزه سهل مراكش ، وميدان نشاطه المغرب ثم الأندلس ويقوده يوسف بن تاشفين ، والثاني يعمل في أفريقية المدارية الغربية ويقوده أبو بكر بن عمر . ونظراً لبعدها لشقة بين القسمين ، لأن الصحراء تفصل بينهما ، فقد مضى كل من القسمين في طريقه يعمل بنشاط ، فأما القسم الشمالي الذي يقوده يوسف بن تاشفين ، فهو الذي سنتتبع تاريخه الآن ، وأما القسم الجنوبي فقد تابع مسيرته

ونشاطه في فتح السبل لانتشار الإسلام في أفريقية المدارية ، وكان له دور عظيم في ذلك المجال .

قيام دولة المرابطين في المغرب والاندلس :

٤٦٣ — ٥٠٠ هـ / ١٠٧١ — ١١٠٧ م :

يعتبر يوسف بن تاشفين من أعظم الرجال الذين أتجبههم المغرب الإسلامي وكان لهم أبعاد الأثر في توجيه تاريخه ، وقد قام بدور أساسي في إنشاء المغرب الأقصى وإعطائه حدوده الطبيعية التي ثبت عليها في التاريخ ، فهو الذي وحد نواحيه من الصحراء الكبرى إلى ساحل البحر المتوسط ، وحد حدوده من ساحل المحيط إلى شرقى نهر المولوية ، وضم إليه إقليم تلمسان والجزء الغربي من المغرب الأوسط حتى مدينة الجزائر ، ولم تصبح تلمسان وذلك الجزء الغربي من المغرب الأوسط جزءاً من المغرب الأقصى ، ولكن يوسف بن تاشفين بعمله هذا قام بالمحاولة الأولى لتوحيد أكبر جزء من بلاد المغرب تحت لواء واحد ، وهي محاولة سيتابعها الموحدون فيما بعد ، وستظل دائماً نقطة البداية في إنشاء ما يسمى بالمغرب العربي الكبير .

ثم إن يوسف بن تاشفين عبر إلى الاندلس كما سنرى ، وقام بدور كبير في إنعاده من الضياع خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وكسب للإسلام في صراعه مع النصرانية على مصير الاندلس ، انتصارات كبرى جعلته شخصية مشهورة ، له مكانها في تاريخ أوروبا والمغرب كله ، وهو لهذا كله يعتبر من أفذاذ الرجال في تاريخ الإسلام العام .

ويعتاز يوسف بن تاشفين بالخصائص الأساسية ، التي تميز بها كبار بناء دولة الإسلام على مر العصور ، وأول هذه الخصائص الإيمان العميق بالإسلام وفضله ورسالته ، وشعوره بأنه ينبغي أن يخدم هذا الدين وينصره ويجاهد في سبيله ويعمل على حماية عالمه من الأخطار ، وثانيها النظرة الواسعة إلى العالم الإسلامي على أنه عالم واحد مترابط ، فهذا الرجل الصحراوي لم يكد يقيم دولته حتى كتب إلى الخليفة العباسي يدخل في طاعته ويستظل برأيه ، لأن ذلك كان رمزاً على وحدة العالم الإسلامي ، وثالثة هذه الخصائص هي الشعور الكامل

بضرورة نصرة الإسلام وحماية داره ما وسعه ذلك داخل بلاده وخارجها ،
وسنرى كيف أن هذا الرجل لم يكن يسمع صرخة المسلمين في الأندلس حتى أسرع
فلجئ النداء ، ووضع إمكانياته كلها في القيام بهذه الرسالة الكبرى ، والرابعة هي
إيمانه بالعروبة وعظيم قدرها وأهميتها ، فقد كان يوسف بن تاشفين يعرف
لعربية دون أن يجيدها ، ولكنه اجتهد في إتقانها وشجع العلماء والفقهاء وحثهم
على نشر العلوم العربية والإسلامية ، وقرب إليه كبار الكتاب والأدباء من
أندلسيين ومغاربة وأدخلهم في خدمته ، وانتقل نفر من علماء الأندلس وأدبائها
إلى المغرب ليعمل في الدولة الجديدة .

ورث يوسف بن تاشفين عند توليه قيادة المرابطين في سنة
٤٦٣هـ / ١٠٧١ م ، كل النتائج السياسية التي حققها قبله في المغرب عبد الله بن
ياسين ويحيى بن عمر وأخوه أبو بكر ، فاختار لنفسه من الألقاب لقب أمير
المسلمين ، وهو لقب مبتكر كان هو أول من اتخذ ، ولم نسمع كذلك بأن أي
رئيس دولة إسلامية اتخذ ، وجعل من سجلماسة قاعدة جنوبية لدولته ،
فأصبحت مركز تجمع للصنهاجيين الصابرين من الصحراء ، وأهتم كذلك
بمراكش وسهلا ، فامتسع العمران فيها ، وأصبحت بالفعل عاصمة دولة كبيرة
وكثر فيها المساجد والمنشآت ، وتتبع بقايا المغراويين الزناتيين ، الذين كانوا
يسودون هذه المنطقة كلها من قبل ويجيبون من أهلها المغارم ، وشيئاً فشيئاً مد
سلطانه إلى الشمال واحتل فاس ووادي سبو ، وكان قد سيطر على فاس قبل ذلك
زعيم زناتى يسمى معنصر بن المعز بن زيري بن عطية صاحب مكناس ،
فغلب يوسف عليه واستخلص فاس ، ثم هاجم بقواته معقل غمارة وبرغواطة ،
في جبال الريف ، وقضى على زعماء مذاهب الزندقة والخروج عن الإسلام التي
كانت تعيش هناك من زمن طويل ، وأخذ الفقهاء في نشر مذهب السنة والجماعة ،
وقد اعتبر يوسف بن تاشفين حربه لبرغواطة وعمارة جهاداً دينياً .

وأصلح يوسف بن تاشفين مدينة فاس بعد دخوله إياها ، وجعلها مدينة
واحدة بعد أن كانت مدينتين ، وأدار عليها سوراً حصيناً ، وأكثر من إنشاء
المساجد فيها .

وأفلح يوسف بن تاشفين في التغلب على مقاومة كل القبائل التي كانت قد انفردت بدواحيها في « بسيط الهبط أو هبط غمارة » ، ثم استولى على ممر تازا وهو الممر المؤدى من المغرب الأقصى إلى المغرب الأوسط ، وعمر مدينة تازا في وسطه ، وأبنتى بها مسجداً جميلاً ما زال ياقناً إلى اليوم ، ومن ممر تازا ، مضى يوسف ابن تاشفين إلى إقليم تلمسان ، وبسط سلطانه على وادي ملوية الذي يصل إلى سجلماسة جنوباً ، وواصلت قواته السير شرقاً في منازل صنهاجة المغرب الأوسط ، ودخلت مدينة الجزائر التي كانت إذ ذاك تعرف بجزائر بنى مرغشا ، وأبنتى فيها مسجداً جامعاً ما زال ياقياً إلى اليوم . وكانت تلك المدينة هي أقصى ما وصل إليه سلطان المرابطين شرقاً ، إذ شغلهم عن استكمال توحيد المغرب أحوال الأندلس على ما سنراه .

ثم تجرد يوسف بن تاشفين للاستيلاء على سبتة وطنجة ، وكانت هذه الأخيرة عاصمة المغرب الشمالى ، وكانت البلدتان في ذلك الحين من توابع الأندلس ، وقد بدأت تبعيتهما للأندلس من أيام عبد الرحمن الناصر ، وكان يحكم سبتة رئيس بربرى يسمى « سقوط أو سكوت البرغواطي » ، ولأه إياها بنو حمود أصحاب مالقة الذين ادعوا خلافة الأندلس فترة قصيرة من الزمان ، في أعقاب انقراض أمر خلافة قرطبة وبداية عصر طوائف سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣٢ م ، وقد تحول « سقوط » إلى أمير طوائف بدوره واتخذ من الألقاب السلطانية لقب المنصور المعان سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م .

وفي سنة ٤٧١ هـ / ١٠٧٩ م أرسل يوسف بن تاشفين قائده صالح بن علي ، فتمكن من اقتحام سبتة وإنهاء إمارة سقوط البرغواطي ، ثم انتزع طنجة من يد ضياء الدولة بن سقوط ، وبذلك يكون يوسف بن تاشفين قد وحد المغرب الأقصى من حدود الصحراء جنوبى وادى درعة إلى ساحل البحر المتوسط ، فإذا أضفنا إلى ذلك ما استولى عليه يوسف بن تاشفين من بلاد المغرب الأوسط حتى مدينة الجزائر ومجرى نهر شلف ، تبيناً ضخامة العمل السياسى الذى قام به هذا الرجل القدير ، الذى نهض بقومه ، من جماعة من المجاهدين المتحمسين ، إلى مستوى أصحاب الدول الكبرى في ذلك العصر .

وقد سأسس يوسف هذا الملك انعريض لذى لم يجتمع لغيره من أهل المغرب قبله ، بحكمة وسياسة دلت على ملكات إدارية وتنظيمية كبيرة ، وكان أساس تنظيمه كله العدل ، أى أنه كان يقوئى بسط لواء العدل فى كل ما طاع له من البلاد والقبائل ، فكان يختار بلديات والإمارات خيرة رجاله ، من أهل العدالة والدين من رجال القبائل الصنهاجية ، ويضع إلى كل واحد منهم أو أكثر لى يكون حكام رجاله كلها متمشية مع الشريعة الإسلامية . ورفع عن أهل المدن والقبائل المغارم الثقيلة التى كان الزناتيون يجبرونها ، وكان يوصى رجاله بالعدل والرفق بالناس ، وكانت له شخصية مهيبة فرضت نفسها على رجال القبائل الصنهاجية ، وأهمها فى أيامه لثونة وجدالة ومسرفة وتليها فى الأهمية والقوة لمطة وجزولة وبنو وأرث وتارجا ، وقد سرت روح الجهاد فى سبيل الدين فى نفوس أهل هذه القبائل كلها ، فغادر معظم الرجال القادرين على الحرب منذراهم فى صحراء وم يابسة وجوب ، وانضموا إلى جيوش المرابطين ، إذ أن الجهاد كان عصب هذه الحركة والقوة التى دفعتها إلى الامام ، وكان يوسف بن تاشفين رائداً فى ذلك المضمار .

المرابطون يعبرون إلى الأندلس لنصرة الإسلام :

فى حدود سنة ٤٧٥هـ / ١٠٨٢ م وصل يوسف بن تاشفين إلى ذروة قوته فى المغرب ، أى أنه تمكن من بناء هذه الدولة الكبيرة خلال اثنتى عشرة سنة فحسب من العمل الدؤوب ، وأقامها على اكتاف رجال من صميم العترة المغربية ، وقيم هذه الدولة يمثل لنا ذروة التطور السياسى فى المغرب منذ الفتح الإسلامى ، وقد عرضنا من قبل لكل المحاولات والدول السابقة ، وراينا اختلاف حظوظها من التوفيق فى بناء الدول ، وهذه التجربة المرابطية اقواها وانضجها جميعاً إلى ذلك الحين ، مما يدل على أن الإسلام عندما دخل أفريقية والمغرب ، أيقظ أهلها ووضعهم فى طريق التقدم السياسى والاجتماعى ، حتى وصل بهم إلى هذا المستوى الذى وصل إليه يوسف بن تاشفين بالحركة المرابطية .

وقد اشتهر ذكر يوسف بن تاشفين إذ ذاك فى العالم الإسلامى كله ، بأنه سلطان مسلم عادل ومجاهد مخلص فى سبيل الله ، ولا غرابة والحالة هذه أن نسمع بأن الإمام أبى حامد الغزالي كان شئى على يوسف بن تاشفين .

وفي ذلك الحين كان أمر المسلمين في الأندلس قد وصل إلى درجة من الاضمحلال جعلت مصير الإسلام في شبه الجزيرة في الميزان ، فقد تقاسمت بلاد الأندلس جماعة من أوثابيين بالسلطان المستبدين بنواحيهم ، كانوا في الأصل عمال دولة الخلافة القرطبية أو قضاة نواحيهم ، فقد هم الناس للمودة حتى تنجلي غمرة الحرب الأهلية التي دارت رحاها حول الخلافة بعد سقوط دولة العامريين^(١) سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م . ولكن الغمرة لم تنحل ، بل ازدادت الأحوال سوءاً لأن أولئك المستبدين بالنواحي ، حولوا أنفسهم إلى سلاطين صغار لكل منهم بلاط وحشم وحاشية في ناحيته ، وبعض هذه النواحي كمال ولايات واسعة مثل طليطلة أو أشبيلية ، وبعضها الآخر كان لا يزيد على مدينة وحوزها مثل دانية Denia أو البونث أو سهل بنى رزين .

وانتهز ملوك إسبانيا النصرانية هذه الفرصة ، للتوسع على حساب أولئك الأمراء الضعاف الذين كان أقواهم يعتمد على قوة من الجند المرتزق ، لا تزيد على بضعة مئات من القريسان ، وقد كانت بعض ممالك النصرانية أصغر وأفقر من جاراتها من إمارات الطوائف مثل أرجون التي كانت مملكة صغيرة في أسفل جبال الهرت أي البرانس ، تجاورها إمارة إسلامية واسعة هي الثغر الأعلى الأندلسي وقاعدته سرقسطة ، وكانت تحكمها أسرة بنى هود التجيبيين ، ولكن ملك أرجون الصغير كان يستطيع تجريد جيش من ألف فارس وأكثر ، يجمعهم إلى لوائه الإيعان بأنفسهم والطمع في أراضي المسلمين الواسعة الغنية . ومن هنا فلا غرابة في أن نجد أمراء سرقسطة يدفعون الإتاوة لأمير نصراني أصغر منهم ولاية وثروة ، ولكن الصراع السياسي خلال التاريخ كله ، يعتمد أولاً وآخره على إيمان الرجال بحقوقهم وعقائدهم واستعدادهم للبذل والتضحية . وقد كان المسلمون من أهل سرقسطة وطلطلة مستعدين للبذل والنصح في سبيل بلادهم ودينهم ، ولكن أمراءهم كانوا بعيدين جداً عن مثل هذا التفكير ، فضيعوا

(١) العامريون يراد بهم محمد بن أبي عامر ، منقب بالحداب المنصور ، الذي أسند بأمور الخلافة لأموية ، وخلفه ابنه عبد الملك المظفر وعبد الرحمن شمول (انظر القسم الخاص بالأندلس من هذا الكتاب) .

رعاياهم وباعوا أرض الإسلام في سوق البضخ حفاظاً على عروش وهمية وإرضاء لغرور أتاني خسيس .

وكانت أضعف هذه الإمارات الإسلامية الأندلسية إمارة بني ذي النون أصحاب طليطلة ، وكانت طليطلة ولاية واسعة تمتد من حوض نهر تاجه إلى مشارف حوض الوادي الكبير ، بل كانت هي وحدها تمثل ربع الأندلس مساحة ، وكان يحكمها أمير من بني ذي النون يلقب نفسه بالمأمون ، وكان غاية في الغباء وقصر النظر وضعف الإيمان ، فكان يستنسى القصور ويقيم الحفلات الكبرى وليس لديه من القوة العسكرية ما يدفع به عدواً . وقد اشترى سلامته بثروة كان يدفعها لملك قشتالة وليون المجاور له من الشمال والغرب .

وكانت قشتالة إذ ذاك كوتيتية أي إمارة صغيرة تابعة لمملكة ليون ، وكان يحكم ليون ملك يسمى سانتشو الثاني ، اختلف مع أخيه الفونسو فطرده خارج بلاده ، فُلجأ إلى بلاط المأمون بن ذي النون ، ورحب به هذا وخلطه بنفسه وأطلعته على أسرارها ، فعلم هذا الأمير المنفي أنه لو اقتدر على ألف فارس ، لاستولى بهم على طليطلة وأزال ملك بني ذي النون .

وهذا هو الذي حدث ، فقد شاءت الظروف أن يقتل الملك سانتشو الثاني ويجمع فرسان مملكة ليون وكوتيتية قشتالة لاختيار حلفاءه ، واستقر رأيهم على استدعاء الفونسو من منفاه ، ويوحوه ملكاً على قشتالة وليون بزعمه فارس جريء يسمى رديجو دياث ذي بيباز الملقب « بأسيد القمبيطور » .

وقد اكتسب الفارس لقب السيد ممن كان يعمل معه من مقاتلة المسلمين ، وكان الكثيرون منهم قد تحولوا إلى أهل حراية أي قضاة طرق وفرسان متزفون يخدمون من يدفع لهم أعلى أجر ، وكان هذا السيد القمبيطور فارساً مرتزقاً جريئاً ماهراً في شئون الحرب ، وكان حامل لواء ملك قشتالة وليون .

وبعد استقرار الفونسو السادس على عرش بلاده ، بدأ يرمى ببصره إلى طليطلة ، وكان المأمون بن ذي النون قد شاخ وركبته الأمراض ، ولم يكن له من وريث إلا حفيد قليل الذكاء يسمى يحيى ، فحسب المأمون أن الفونسو السادس يرعى زمام طليطلة بما آواه من قبل عندما كان طريداً ، ولكنه عندما مات أوصى

رجال دولته بحقيقه الذي أصبح أميراً وتلقب بالقادر ، وما هو إلا قليل حتى دخلت قوات قشتالة وليون يقودها الفونسو السادس أراضي طليطلة واستولت عليها دون أن يرتفع للدفاع عنها سيف واحد ، لأن القادر بن ذي النور حسب أن الملك النصراني إنما أتى لعونه على خصومه في بلاده ، فإذا به يرى أنه أتى ليستولي منه على ولايته طليطلة بكل مدنها وحصونها وحدودها ، ويعرضه عنها بولاية بلنسية وكانت تابعة لطليطلة ، وهكذا استولى الفونسو السادس على ربع الأندلس دون أن يستعمل سلاحاً ، وخرج التعيس القادر من بلده ليتولى بلنسية في حماية قنة من فرسان قشتالة على رأسهم فارس يسمى (انفار هانيث) الذي تكتبه مراجعنا ألبر هانس Alvar Hanez وكان ذلك سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م .

هنا اتفاق ملوك الطوائف من غفلتهم ، وأدركوا أن مصيرهم كلهم إلى بوار ، إذا هم ساروا في طريق الضلال الذين كانوا سائرين فيه خاصة وقد تحولت مملكة قشتالة وليون بعد استيلائها على طليطلة ، إلى أكبر دولة في شبه الجزيرة ، فقد أصبح حجمها ثلاث مرات حجمها الأول ، وانحدرت قواتها إلى الجنوب واستولت على معظم بلاد حوض الوديانة ، ودخلت قواتها قنورة والأشونة وشتيرين ، وكان السيد العبيطور قد انفرج بلنسية وحاصرها حصاراً مورياً حتى استولى عليها ، وتحركت مملكة أرغون وأخذت تتقدم في أراضي إمارة سرقسطة أي الثغر الأندلسي الأعلى ، وحالفت كوثنية وطلومية وعاصمتها برشلونة واستولت على طركونة ثم طولوشة وأخذ الفونسو السادس يتأهب للاستيلاء على بطليوس وأشبيلية ، ولم يعد يفتح بالإتاوات التي يؤديها إليه أمراؤها^(١) .

هذه هي الظروف التي اضطرت ملوك الطوائف إلى طلب النجدة من يوسف ابن تاشفين ، والحق أنهم كانوا مترددين في ذلك حتى اضطرتهم رعاياهم إلى ذلك ، فتوجه وفد من فقهاء الأندلس ولقي يوسف بن تاشفين ، وأطلعته على خطورة الوضع وشرح أحوال ملوك الطوائف ، وطلب إلى الأمير المرابطي أن يعجل بتخدة الأندلس ، وأدرك الرجل خطورة الموقف ، ولسي داعي الجهاد لأنه بطبعه وطبيعة حركته ، مجاهد في سبيل الإسلام .

(١) عن هذه الأحداث بشيء من التفصيل - نشره الفخر الخالص بالأندلس من هذا الكتاب

وفي عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس بحيش ضخم بعد أن نزل له المعتمد بن عباد عن مدينة الجزيرة الحضرية ليؤمن لنفسه وقواته خطوط الاتصال مع المغرب . وسارع المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية للقاءه ، وتم الاتفاق على أن يتجه الجيش المرابطي ومن يرافقه من مقاتلة الأندلس ، نحو بطليوس في غرب الأندلس ، لأن الفونسو السادس بعد أن استولى على قورية والأشبونة وشنترين ، كان يستعد للاستيلاء على إمارة بطليوس ، وكانت تشمل جانباً ضخماً من غرب الأندلس ، وأقبل الفونسو السادس بحشوده ، وكان اللقاء في سهل مشع جنوب غربي مدينة بطليوس يسمى الزلاقة بالعربية ، وفي الإسبانية Sacrajas ، وانجلى اليوم بعد قتال بالغ العنف ، بنصر مؤزر ليوسف ابن تاشفين ، فقد أبيت صفوف قشتالة وليون ، وفر الفونسو السادس في لمة قليلة من قريانه ، وهو لا يصدق بالنتيجة .

هذا الانتصار كان له أثر حاسم في سير الحوادث في الأندلس ، فقد تحطمت القوة النصارية لمملكة قشتالة وليون وتوقف تقدمها نحو الجنوب ، وارتد رجالها شمالاً للدفاع عن طليطلة ، واستعاد المسلمون لأشبونة وشنترين وتوقف تقدم كيونتيّة البرتغال في غرب الأندلس . وغريب من الأمر أن المتوكل بن الأقطس ، صاحب بطليوس ، أبدى بعد هذا النصر خوفاً وقلقاً من المرابطين ومال إلى الخيانة وانقاهم مع العدو . وقد بلغت أخباره هذه يوسف بن تاشفين ، ولاحظ يوسف كذلك أن المعتمد بن عباد تراخى من ناحيته وخاف على إمارته ، أما الأمير أبو عبد الله الزيري صاحب غرناطة ومالقة (وهو صنهاجي الأصل مثل يوسف ابن تاشفين) فقد بدأ وكان التصرف لم يكن على هواه .

في وسط هذه الظروف وجد يوسف بن تاشفين أن يحل بالعودة إلى المغرب لينظر في أمور دولته الواسعة ، ولهذا لم يستطع الإفادة من ذلك النصر العظيم الذي جازه ، ولو أن أمراء الأندلس وقفوا إلى جواره وأمدوه بكل قواتهم لتقدم إلى طليطلة واستولى عليها ، وأعاد ميزان الأمور في الأندلس إلى نصابه ، لأن الانتصارات العسكرية مهما عظمت فإنها تظل غير ذات قيمة عملية كبيرة إذا لم تستغل سياسياً وعسكرياً ، ولو أن صلاح الدين الأيوبي لم يسارع باستعادة

القدس بعد نصر حطين لما كان لهذا النصر القيمة التاريخية الكبيرة التي يحتلها في صفحات التاريخ .

عاد يوسف بن تاشفين إلى المغرب فتتفتت مملكة قشتالة وليون الصغداء وأفرخ روعها . وبدأ أمراء الطوائف يتصل بعضهم ببعض معبرين عن مخاوفهم على بلادهم من ذلك الأخ الذي خُفّ لتجسّتهم . أما يوسف فإنه كان يشعر أنه لابد أن يعود إلى الأندلس ليستكمل النصر ، ولكنه ما كان يستطيع أن يفعل شيئاً ذا قيمة كبيرة إلا إذا كان له وضع قانوني في الأندلس ، فهو إلى الآن مجرد ضيف لا يسيطر إلا على رأس معبر هو مدينة الجزيرة الخضراء وهو لا يستطيع أن يطلب إلى أمير أو أهل بلدة أن يوافقوه بالمؤن والأزواد أو تقديم أي عون ، لأن لكل ناحية أميرها وصاحب السلطة العليا فيها .

وبعد أن مهد يوسف لنفسه في الأندلس تمهيداً معقولاً استجاب لصريح أهل الأندلس ، وعبر للمرة الثانية سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٨ م إلى الأندلس . وجهته هذه المرة شرق الأندلس ، لأن جماعة من فرسان قشتالة احتلت حصناً هاماً بين مرسية وبلنسية ، يسمى حصن لايبط Alledo وأخذوا يقطعون الطريق على المسلمين مما أشاع الفوضى في الشرق كله ، هذا إلى أن السيد القمبيطور كان يعيش في بلنسية وشرق الأندلس كله فساداً ، وكان يرأس فرسان ذلك الحصن القارس القشتالي المشهور البر هانس .

وسار يوسف بقواته نحو لايبط . وانتظر أن توافيه حشود الأندلسيين ، ولكن أحداً منهم لم يلب داعي الجهاد ، بل متعروا عنه الأزواد والمؤن ووقفوا منه ومن قواته موقف العداء . وكانت نية يوسف أن يستولي على لايبط ثم يخرج السيد القمبيطور من بلنسية ومن هناك يتجه نحو طليطلة ، ولكن هذا الموقف من أمراء الطوائف جعله يغير رأيه ، إذ نفذت مؤنه وطال حصار الحصن دون جدوى ، فانصرف عنه على رغمه عائداً إلى المغرب وقد قرر العودة إلى الأندلس بعد أن يحكم الأمر ويتم عدته . ومع ذلك فإن يوسف لم يكسب يرفع الحصار ويرتد جنوباً حتى سارع البر هانس وفرسانه فأخلوا حصن لايبط خوفاً على أنفسهم فاستولى عليه صاحب مرسية ، وأوجس السيد القمبيطور خوفاً من المرابطين .

وفي سنة ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس عبوره الثالث ، الذي قام فيه بعزل ملوك الطوائف من إماراتهم فيما عدا أمير سرقسطة ، الذي دخل في طاعته ، وتركه يوسف بن تاشفين ليسد الثغر الأعلى الأندلسي المهدد بالخطر ، وفي هذه المناسبة عزل يوسف بن تاشفين ، المعتمد بن عباد أمير أشبيلية وأحذه معه إلى المغرب حيث قضى بقية عمره في أعمات جنوبي مراكش . وفي هذا المنفى أو الأسر كما يسميه المعتمد ، قال هذا الأمير الشاعر أجمل أشعاره وأصدقها في رثاء نفسه والتحسر على ما ضيع من فرص للعمل والجهاد .

وبهذا اتسعت دولة المرابطين اتساعاً جع منها دولة كبرى تمتد في قارتين ، حدودها الشمالية فيما بين نهر تاجة والواديانة في إسبانيا والبرتغال في أوروبا وحدودها الجنوبية في أفريقية الإدارية ، وفي كلتا الجهتين كان على المرابطين أن يواصلوا جهاداً دينياً ، يتطلب سيلاً لا ينقطع من المقاتلين ومولاً لا تحصى . وبو أن رؤساء الأندلس وقفوا إلى جانب يوسف بن تاشفين وأيدوه وشاركوه في الجهاد لتبنت جبهة الإسلام هناك بصورة يمكن الدفاع عنها . ولكن بينما كان شعب الأندلس يتعطش للجهاد ويبدى كامل الاستعداد لمواجهة العدو ، كان رؤساء بلاد الأندلس ينصرفون إلى إقامة الصغريات والعقبات في وجه إخوانهم الذين أقبلوا لإنقاذهم . وبدلاً من السير إلى جانبهم نحد الكثيرين من أهل الفكر في الأندلس يسخرون من المرابطين ويرفعون عليهم لأنهم كانوا قوماً على البداوة لم تقسدهم الأناثية التي أضعفت حكام الأندلس وجعلتهم عاجزين عن الدفاع عن بلادهم .

وقد فرض الأندلس على المرابطين مسئولية ثقيلة ، فقد كان عليهم أن يواصلوا الحرب والجهاد وحدهم على جبهة عريضة شمالي خط الواديانة ، لأن الأندلس كانت دار جهاد ، وقد دخلها المرابطون مجاهدين ، وكان عليهم أن يستمروا في هذا الصراع المجيد ، ولم يجد المرابطون من الأندلس عوناً ، فكان عليهم أن يقوموا بالعمل وحدهم ، فإذا أضقنا إلى ذلك مسئوليات المرابطين في المغرب ، تبيننا أنهم حملوا في الواقع من المسئوليات ما كانت قواهم عاجزة عن النهوض به على طول المدى .

كسب المرابطون في الأندلس مواقع كبرى أولها الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ /

١٠٨٦ م ، وفي سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م استرد بلنسية القائد المرابطي محمد بن مزعل ، وكانت قد وقعت في يد الفارس القشتالي رودريجو دي بيباز الملقب بالسيد القميطور El Cid Campeador واسترد المرابطون بعد ذلك عدداً من المدن الأندلسية في شرق الأندلس مثل مريطر Murvedro ، والمذرة Almenara والسبلة Santa Maria de Albarracin وغيرها وانتصرت قواتهم على قوات الفونسو السادس في عدد آخر من المعارك عند قنسوجرة Consuegra وقونقة Cuenca وملجون Munzon في سنة ٤٩٤ هـ / ١١٠١ م . وفي سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م انتصر القائد المرابطي تميم بن يوسف على قوات قشتالة في معركة دامية عند أقليش Uclis شرقي طليطلة وقتل في هذه المعركة عدد كبير من قواد النصارى منهم سبعة من الأكناد ، بل قتل الأمير شانجه بن الفونسو السادس . ولهذا سميت المعركة : بمعركة الأكناد سبعة La Batalla de los Siete Condes

وتوفي يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٧ م وخلفه ابنه علي ، وبوفاة يوسف بن تاشفين اختفت شخصية من أجل شخصيات تاريخ الإسلام ، وقد سبق أن تحدثنا عن خلاله ومآثره وأعماله وقدرناه قدره ، ومن حسن الحظ أن ابنه علياً كان على شاكلته من ناحية صدق الإيمان والإخلاص لامة الإسلام . وكان أميراً حسن التكوين والتدريب . ولد في المغرب وتربى في الأندلس وشب أميراً عاناً مجاهداً يتميز بالعدالة وصلابة الخلق ويتمتع بثقافة عالية ، وسار في آثار أبيه في كل ميادين العمل ، وكان أهم ما شغل باله واستنفذ جهده ، الجهاد في الأندلس .

وبينما كان علي بن يوسف يواصل جهوده في المغرب والأندلس بدأ محمد بن تومرت المعروف بمهدي الموحدين دعايته ضد المرابطين واجتهد في تشويه سمعتهم واتهامهم بالمروق عن الدين والتجسيم وما إلى ذلك ، وقد نجحت دعايته لأنه توجه بها إلى فريق آخر من البربر البرانس كانوا يتشوقون بدورهم إلى إنشاء

دولة لهم تضافى ما وصلت إليه قبائل لتونة ومسوفة وجدالة وغيرها من المجموعة الصنهاجية الصحراوية المرابطية ، ولهم ذاغان نجح محمد بن تومرت لا يمكن أن يعزى إلى صدقه في الاتهامات التي وجهها إلى المرابطين ، بل إلى ذكائه في معرفة اللغة التي يخاطب بها المصامدة ويجذبهم بها إلى صفه . وسنتحدث عن ذلك في كلامنا عن الموحيدين .

ويهمنا الآن أن نقول إن علي بن يوسف خلف هذا الملك العريض والعاقل بالمشاكل والمصاعب لابنه تاشفين ، وكان شاباً حسن الاستعداد ، ولكن الظروف التي تولى فيها كانت عسيرة تحتاج إلى رجل ذي تجربة أوسع ، ثم إن محمد بن تومرت استعمل أساليب غاية في العنف والقسوة والبعد عن المألوف في محاربة المرابطين معتمداً على قبائل أكبر وأضخم وأقوى من قبائلهم .

تاشفين بن علي ٥٣٧ — ٥٣٩هـ / ١١٤٢ — ١١٤٤ م

ونهاية دولة المرابطين في المغرب والأندلس :

وقد اضطر المرابطون إلى توجيه كل قواهم إلى صراع الموحيدين في المغرب دفاعاً عن كياناتهم ، وبهذا حرم الأندلس من جهودهم فيه . ومن أغرب ما حدث في تاريخ الإسلام قيام دولتين كبيرتين من دول الجهاد والذود عن دار الإسلام في نفس الموضع ونفس العصر ، فقد كان القيام الحقيقي لدولة المرابطين سنة ٤٥٢هـ / ١٠٦١ م عند استقلال يوسف بن تاشفين بالقسم الشمالي من دولة المرابطين ، وقامت دولة الموحيدين سنة ٥٢٤هـ / ١١٣٠ م بولاية عبد المؤمن بن علي ، فتلاقت الدولتان في النصف الأول من القرن السادس الهجري / الثالث عشر الميلادي . وإحدهما في أوج قوته وباتنية في عهده أو شياها فصار لقاؤهم بلاء على المسلمين ، ولو تأخر ظهور دولة الموحيدين نصف قرن من الزمان

للتعاقبنا على لجهاد ولكن تعاضهم نعمة على الإسلام وأهله . ولكن هكذا ساءت المقادير وخسر المسلمون في هذا التعاضر شيئاً كثيراً ، ولكن النتيجة على الجملة طيبة في النهاية ، فقد خطب المغرب على أيدي الموحدين بعد المرابطين خطوات واسعة نحو الوعي بشخصيته ومسئوليته نحو عقيدته الإسلامية، وظهرت للمرة الأولى فكرة توحيد المغرب في دولة واحدة على يد المرابطين أولاً ثم الموحدين من بعدهم . وهذه في ذاتها معالم واضحة في التاريخ القومي المغربي العام .

ونظراً لتداخل تاريخي المرابطين والموحدين خلال الحقبة الأخيرة من تاريخ الأولين والأولى من تاريخ الآخرين ، فسندقف هنا بتاريخ المرابطين لنستتمه في أطوار ما سنرى من تاريخ الموحدين .

دولة الموحدين

محمد بن تومرت :

كان النجاح الذي لقيه المرابطون في إقامة دولتهم بفضل تفكير الفقيه عبد الله ابن ياسين محركاً لهم المصممة في أن يفيموهم الآخرون لأنفسهم دولة تضاهي دولة المرابطين ، خاصة وهم أغنى بلاداً وأعز نفراً . وقد ذكرنا في كلامنا عن يوسف بن تاشفين ، أنه أدخل المصامدة في صاعته وسد بذاهم وصمم مقاتلة منهم إلى جيوشه ، فكان هذا باعثاً آخر حرك في نفوس المصامدة الرغبة في إنشاء دولة لهم ، فهم معظم سكان المغرب الأقصى ، وهم قبائل ضخمة ذات قوة وعدد ، تمتد من شمال المغرب الأقصى إلى جنوبه ، ولا ينقصها إلا توحيد الصفوف والقيادة السليمة . وقد أتاحت الظروف لهم هذه القيادة في شخص فقيه مصمودي من قبيلة هرغة التي تسكن في ناحية من نواحي جبال الأطلس العليا على سهل السوس .

هذا الفقيه هو محمد بن تومرت الهرغي الذي ولد سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م على وجه التقريب في بيت يغلب عليه طلب العلم ، ولا تعرف عن أصله إلا القليل ، وتسببه كما يسوقه تلميذه أبو بكر الصنهاجي الملقب « بالبيدق » موضع شك كبير ، فإنه يجعله شريفاً حسنياً ، وهذا مستبعد ، ولكننا نجد أن جده كان يلقب بلفظ « واجليد » وهي صيغة للفظ بربري هو « آجليد » ومعناه الزعيم أو القائد ، ومعنى ذلك أن ابن تومرت كان من أصل مرموق وإن كان رقيق الحال .

واتجه محمد بن تومرت إلى الدراسة والعلم من بداية الأمر ، فدرس في بلده ثم في مراكش . وحوالي سنة ٥٠٦ هـ / ١١١٢ - ١١١٣ م ، يشرع في رحلة دراسة طويلة إلى المشرق ، وتفاصيل هذه الرحلة موضع شك كبير . فبن ابن تومرت يقول إنه وصل فيها إلى بغداد ، ولقى أبا حامد الغزالي ودرس عليه ، ولكننا نستطيع الفصيح بأنه لم يلق حجة الإسلام أب حامد الغزالي ولا درس عليه لأن الغزالي غادر

بغداد إلى غير رجعة سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م ، ثم توفي في طوس سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١ م . فإذا كان محمد بن تومرت قد غادر بلده متجهاً إلى المشرق سنة ٥٠٦ هـ فهو قطعاً لم يلق الغزالي ، بل إنت تشك في أنه بلغ بغداد . وغاية ما نستطيع القطع به هو أن أين تومرت وصل إلى الإسكندرية في مصر ودرس على بعض شيوخها . ثم عد إلى المغرب ، فدرس في القيروان وبجاية وحصل جانباً لا بأس به من العلم بالفقه .

ولا شك في أن محمد بن تومرت كان رجلاً غير عادي الذكاء ، ولكن مواهبه الحقيقية كانت سياسية لا علمية . وكان يعلم عنده نقطة بداية وطريقاً يوصله إلى تحقيق غاياته السياسية ، وكانت هذه الغايات غير واضحة في ذهنه أو الأمر ، كما يحدث للكثيرين من أهل المواهب السياسية ، فإنهم يجسسون في نفوسهم نروعاً غامضاً إلى القوة والسيادة ، ويجهزون الرجبة التي توصلهم إلى تحقيق هذه النزعات غير الواضحة في نفوسهم ، وكلما ساروا في الطريق بشوطاً اتضحت لهم ملكاتهم الحقيقية شيئاً فشيئاً .

وعندما ندرس حياة ابن تومرت نرى كيف أنه وضع كل ما حصله من العلم في خدمة غاياته لسياسية ، وهذا الطموح السياسي عند ذلك الشاب الهرعى مشكلة من المشاكل في دراسة حياته ، فهذا الشاب الذي تصدى لإنشاء كيان سياسي ديني فريد في بابيه في تاريخ الإسلام ، وتمكن من إسقاط دولة كبرى هي دولة المرابطين وإقامة دولة أكبر هي دولة الموحدين ، هذا الرجل كان زاهداً متفلسفاً لا يتمسك بأي مظهر من مظاهر الجاه أو السلطان . ولكنه وصل بالفعل إلى جاه ديني وسلطان سياسي بلا حدود ، ثم إنه كان حصوراً لا يأتي النساء ، ومن ثم لملا يمكن القول بأنه كان يسعى لإقامة دولة لبيته ، ثم إنه لم يتخذ وهو في أوج سلطانه لقب الخلافة أو السلطنة أو الإمارة ، وإنما زعم أنه « المهدي » ، والمهدي في تاريخ الفكر السياسي الديني الإسلامي صورة صنعها تطلع المستمعين أن انعتور على الحاكم أقوى العادل الذي يزن المفسد والمطال ويقيم دولة العدل والدين والإيمان والمساواة ، أو الذي يملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت

جوراً كما يقول المصطلح الذي يستعمل عادة في الكلام على المهديين ، ومعظم من نقرأ عنهم في تاريخنا من المهديين هو أنهم بدأوا فقهاء ثم تحولوا إلى دعاة للمعروف ونهاة عن المنكر ، وهذه الدعوة تنقلهم من الفقه إلى السياسة ، ومن ثم يندفعون في الطريق السياسي متدثرين دائماً بثياب العلم والفقه والدين .

ويستوقف النظر في تاريخ محمد بن تومرت ، أنه منذ لقي عدد المؤمنين بن علي وضمه إلى زمرة تلاميذه وأتباعه جعله على رأس أولئك الاتباع واستخلصه لنفسه ورشحه لخلافته ، وبالفعل مات محمد بن تومرت وحركته في بدايات نجاحها ، خلفه عبد المؤمن بن علي ، وقد تلقب فعلاً بخليفة المهدي ثم خليفة المسلمين واتخذ لقب أمير المؤمنين ، وأقام دولة كبرى ذات نظام وقوة وأصبح خليفة جليلاً ، وورث أبناؤه ملكه ، وتمتع هو وأولاده بالقوة والثروة والجاه ، في حين أن محمد بن تومرت مات فقيراً زاهداً لا يملك من حطام الدنيا شيئاً وإن تمتع بسلطان على أتباعه ، لم يصل إليه اعظم السلاطين .

وإن شخصية محمد بن تومرت شخصية غريبة معقدة ، وكلما قرأنا سيرة حياته كما كتبها خادمه أبو بكر الصنهاجي المعروف « بالبيدق » ، ونقلها عنه مؤرخو الموحدين من أمثال ابن العطان وعبد الواحد المراكشي ، تكشف لنا جوانب أخرى تزيد شخصية هذا الرجل تعقيداً وغموضاً .

وهذا التعقيد يكتنف أيضاً كتاباته التي كانت أساساً للتفكير الديني في الحركة الموحدية ، فإذا قرأنا كتابه المسمى « أعز ما يطلب » - وهو أحسن ما كتب ، وعنوانه مشتق من أول عبارة فيه ، وتتلخص في أن أعز ما يطلب هو العلم بالدين وأصوله وشريعته وأحكامه - وجدنا في هذا الخطاب خليطاً من آراء أهل السنة وأفكار غلاة الشيعة ، الذين يقولون بعصمة الإمام وضرورة طاعته طاعة كاملة وتنفيذ كل ما يأمر به دون مساءلة ، وفيه كذلك أفكار صوفية متطرفة لا يقبلها فقهاء أهل السنة والجماعة ، وكلامه كله بعد ذلك فيه غموض متعمد وتكلف لأساليب الكهان وأهل السحر ، مما لا زال إلى الآن يحيرنا في أمر عقيدة ابن تومرت ومذهبه في الفقه وتفكيره الديني .

نبدأ معلومتنا الدقيقة ببعض الشيء عن حياة محمد بن تومرت أثناء عودته

من المشرق ، ويرويها لنا خادمه أبو بكر الصنهاجي الملقب بالبيدق وابن القطان في كتابه « نظم الجمان » وعبد الواحد المراكشي في كتابه المسمى « المعصب في تلخيص أخبار المغرب » ، وهذه المعلومات في مجموعها حكايات تدور كلها حول أعمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي تصدى للقيام بها ، ومع أننا لانستطيع التسليم بمعظمها ، إلا أنها تعطينا الصورة التي دخل بها هذا الرجل التاريخ ، وهي صورة فقيه بسيط أمر بالمعروف ناه عن المنكر ، وهي بداية تتفق تماماً مع خطته التي رسمها لنفسه ، وهي اجتذاب الأنظار نحو نفسه والظهور بمظهر المصلح الديني الثائر على ما يقع في هذا المجتمع من مخالفات للدين

عندما يصل محمد بن تومرت إلى تلمسان يلتقي بعبد المؤمن بن علي من قبيلة كرمية الصغيرة التي يقال إنها زناتية ، ولكنها تدخل التاريخ على أنها قبيلة مضمودية ، ومن ذلك الحين يرتبط الرجلان برباط صداقة وعمل ليصبح عبد المؤمن كبير تلاميذ فقيه السوس ورئيس جماعته ، وكان رجال هذه الجماعة قد أصبحوا نفراً غفيراً يسرون حوله وينتقلون معه من مكان لكان .

من تلمسان سار ركب الفقيه من السوس إلى وجدة ثم فاس ، وهنا يأمر تلاميذه بتحطيم ما يجدون من أدوات الموسيقى ، ففعلوا ذلك ، فأمر عامل فاس بإخراجهم من البلد ، فذهبوا إلى مراكش ، وقد كثر جمع محمد بن تومرت وانتشر صيته كولي من أولياء الله وفقيه عالم كبير ، لا يتصدى له فقيه إلا أحمره ، فيما يقول الذين كتبوا عنه « وكان يهتم اهتماماً شديداً بظهور عمه أو سم وحمل الفقهاء الذين يحاولون الاعتراض على ما كان يتظاهر به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » .

انتشر صيت ذلك الرجل في مراكش وأصبح حديثه على كل لسان ، وهنا نسمع أنه هاجم ما كان يسميه بتجسيم المرابطين ، والتجسيم معناه إعطاء الله تعالى صورة مادية أو ملموسة ، كالقول بأن له سبحانه وتعالى وجهاً ويدين وعينين ، أو أن له صوتاً يسمع وما إلى ذلك . وما كان المرابطون يقولون بذلك لأنهم كانوا جماعة سنية مجاهدة تعص ولا تتكلم أو تكتب ، فلم يكن لأفرادها رأي خاص في أي ركن من أركان الإسلام ، ولكن كان في الفقهاء في المغرب وغيره

عدد كبير من أهل الظاهر الذين يقولون بأنه ما دام القرآن يقول ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي إن يد الله مع الجماعة فلا بد من أن تكون لله سبحانه وتعالى يد دون تحديد صورة هذه اليد أو معناها ، فلا يتبغى أن نقول : إن يد الله سبحانه لا بد أن تكون كأيدينا ، فقد يكون المراد بها شيئاً آخر ، ولكن لا يجوز لنا أن نساور تأويل كلام الله بحسب ما يترأى لنا .

كان نقد ابن تومرت للمرابطين في مجموعته على غير حق ، ولكنه كان رجلاً جريئاً لا يخاف السلطة أو رجالها ، فمضى يقول كلاماً يرمى من وراءه إلى إثارة غضب رجال الدولة ، فيتعرضون له بالحبس والطرده من المدن ، فزداد صيته ويكثر جمعه ، لأن الناس في تلك العصور يستهويهم مثل هذا الشخص ويسرهم أن يجدوا إنساناً يتحدى الحكومة ورجالها ، سواء أكان على حق أم باطل ، لأن لفكرة العامة كانت « أن رجال الدولة دائماً على باطل » ومن ثم فكل ماقد بهم يكون على صواب .

ابن تومرت ينشئ جماعة الموحدين في تينملل :

وبعد أن تأكد ابن تومرت من تكوين جماعة من الاتباع المخلصين ، انتقل بهم إلى موضع في قلب جبال الأطلس قريب من منابع وادي نفيس ، أنشأ بجري جنوبى نهر تانسيفت ، هذا الموضع يسمى « تينملل أو تينمال » . قرب هذا الموضع أقام محمد بن تومرت سوراً حول المكان الذي أراد أن يجعله مركز أعماله ، هذا السور يسمى بالبربرية (أغمات) . وكان يقع عند سفح جبل ، وسفح الجبل يسمى بالبربرية (أيجلز أو ايجلس) . ومن هذا الموضع الحصين أخذ ابن تومرت يناوش النواحي القريبة منه من البلاد الخاضعة للمرابطين

في نفس الوقت أخذ يرتب أنصاره طبقات بحسب إخلاصهم له ، وما سماه سابقة انضمامهم إلى دعوته . هنا نجد محمد بن تومرت يحاول أن يسير في خطى الرسول ﷺ ، فيقول إن تينملل هي دار هجرته ، ثم يقسم أصحابه إلى طائفتين كانهم المهاجرون والأنصار من الصحابة ، وصحابة محمد بن تومرت يسمون أهل عشرة أو « أيت عشرة » والأنصار يسمون « أيت خمسين » ، وتي هاتين

الطبقتين طبقة « المستدركين » بعد التمييز ، أي الذين عُذِّلَتْ مراتبهم بعد الفحص والاختبار ، وابن تومرت يظهر هنا ملكة تنظيمية كبرى ، ويقبض بيد من حديد على أنصاره فيعطى « أيت عشرة » سلطاباً كبيراً ويحكمهم في الناس ، ولما كان أفراد « أيت خمسين » كلهم من رؤساء القبائل ، فإنه يسيطر بواسطتهم على قبائلهم ، وهؤلاء جميعاً بالإضافة إلى المستدركين يعملون عيوناً له بعضهم على بعض ، يوافقونه بكل صغيرة أو كبيرة مما يقع حوله أو يصلهم من أنباء ، مما يجعل هذا الرجل مطلعاً على كل شيء ، عن ظواهر الأمور وبواطنها . وهذا بدوره يبقى له رهبة شديدة في النفوس ، ولهذا ترى أصحابه ينفذون أوامره مهما بلغت من الصعوبة أو القسوة خوفاً من العقاب . وهكذا نجد هذا الرجل يصبح سيداً مطاعاً ومرهوباً في جماعة كبيرة من المصامدة تطيعه طاعة عمياء حقاً ، وتخاف منه خوفاً شديداً . حتى كان يأمر الرجل من أتباعه بأن يقتل صاحبه أو أخاه أو أباه فيسارع إلى تنفيذ الأمر دون تردد .

وهذه المكانة الرفيعة التي وصل إليها محمد بن تومرت جعلته يتخذ لقب الإسم المهدى المعصوم ، أي الرجل الذي اختاره الله لإصلاح حال الدنيا وإقامة ميزان العدل في الأرض .

بعد ذلك نجد محمد بن تومرت يستخدم أحد أتباعه في القيام بعملية تصفية جسدية بشعة ، يقضى فيها على كل من يشك في ولائهم أو في تصديقهم بأنه المهدى المعصوم حقاً ، فيرتب معه خدعة تسمى « بالتمييز » ، أي تمييز الصالحين من غير الصالحين ، ومصير غير الصالحين هو القتل الناجز على أبدي رجال قبائلهم . فمات في هذا التمييز الخفيف ألوف من الأبرياء .. وأحسن ابن تومرت بعد ذلك أن أمر جماعته قد صفا له تماماً ، وأنه يستطيع أن يقوم بالخطوة الحاسمة في تحقيق حلمه السياسي الكبير .

ففي سنة ٥٢٤ هـ / ١١٢٩ م قرر محمد بن تومرت أن يتحدى القوة المرابطية ، فأرسل نحو مراكش جيشاً عدته ٤٠,٠٠٠ من الموحدين ، على رأسه عبد المؤمن بن علي . وقد أخطأ ابن تومرت التقدير ، لأن هذا الجيش الموحدى لقي هزيمة شديدة على يد المرابطين ، وهلك في هذه المعركة نفر كبير من كبار الموحدين

وأيت عشرة ، وذلك في معركة دامية تسمى « يوم البحيرة » ، وكان من بين الهالكين الشيخ أبو محمد البشير ، وهو الذي دبر معه ابن تومرت مذبحة التمييز ، ولم يأسف ابن تومرت على أحد ممن مات مادام عبد المؤمن بن علي قد نجا ! وفي هذه المعركة جرح أبو حفص عمرأيتي أو الهنتاتي وكان ثاني شخصية بين أتباع محمد بن تومرت بعد عبد المؤمن بن علي . وقد مات أبو حفص عمرأيتي بعد ذلك بستوات ، ولكن رجال الحركة قالوا إنه مات من أثر الجرح الذي أصابه في يوم اببحيرة ولقبوه بالشهيد ، وقد ارتفعت مكانته بين جماعة الموحدين خاصة وقد وقف إلى جانب عبد المؤمن بن علي .

وسيطر أبو حفص عمر الهنتاتي الشخص الثاني للدولة الموحدية ، خاصة وهو رئيس قبيلة هنتاتة أقوى قبائل المصامدة إذ ذاك ، ويرث أولاده مكانته . وقد لقب أبو حفص « بالشيخ » ، وأهل بيته بالأشياخ ، وهم يلون في طبقات الموحدين طبقة السادة والمفرد سيد ، وهم آل بيت عبد المؤمن بن علي ، وتل بيوت السادة والأشياخ بيوت بقية آل عشرة أي « أيت عشرة » ثم « اطلب » . وينصق للعد في المصطلح المغربي : اطلبُ « يضم الطاء وسكون اللام » ويراد بهم الصفة التي يدرسون فقه ابن تومرت ، ويحفظون كتبه ويعلمونها للناس ، ومن بينهم كان يختار معظم موظفي الدولة ومساعدى العمال في الولايات . وكان يوحد منهم نفر في كل مدينة وكل قبيلة موحدية مهمتهم مراقبة أعمال الناس ، والمحافظة على عقيدتهم في المهدى المعصوم ، على اعتبار أن ذلك كان الأساس العقيدى للدولة الموحدية كلها .

بعد هزيمة « البحيرة » بقليل يموت محمد بن تومرت في ١٩ رمضان سنة ٥٢٤هـ / ٢٦ أغسطس ١١٢٠م ، بعد أن أسلم قيادة الحركة لعبد المؤمن بن علي وقد مات فقيراً محروماً ووحيداً أيضاً ، لأن عبد المؤمن بن علي وأبو حفص عمر وبقية قادة الحركة أخفوا خبر موته ثلاث سنوات ، فلم يعلنوه إلا سنة ٥٢٧هـ بعد أن تأكدوا أن السلطة كلها قد انتقلت إليهم برياسة عبد المؤمن بن علي وأبي حفص عمرأيتي .

نستطيع أن نقول : إن هذا الرجل لم يَجُنْ من جهوده ونشاطه غير المتعب ،

وإذا صدقنا أن تاريخ ميلاده كان سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م فإن عمره كان تسعاً وثلاثين سنة هجرية عند وفاته ، وهي سن ناكزة جداً ، فبها ذكرنا العمل الضخم الذي قام به هذا الرجل منذ عودته من المشرق إلى وطنه ، تبيناً أنه كان رجلاً قادراً حقاً ، وأنه كان من صانع التاريخ وقادة الرجال رغم كل ما تأخذه عليه من أعمال العنف والقتل ، ولكنه كما قلنا كان رجل سياسة ، والسياسة في تلك العصور كانت لا تستنكر أعمال العنف والقتل والحيلة والكذب والخداع والظلم . ولابد أن نشك في تاريخ ميلاده رغم ذلك ، لأنه عندما لقي عبد المؤمن بن علي ، عند تلمسان في حدود ٥٠٧ هـ / ١١١٢ م كان عبد المؤمن شاباً تخطى العشرين ، أي أنه ولد حوالي ٤٩٧ هـ / ١١٠٤ وكان محمد بن تومرت يكبره بنحو ٢٠ سنة على الأقل ، إذ أنه تبناه .

وقد ارتكب محمد بن تومرت كثيراً من الآثام ليصل إلى النتيجة التي وصل إليها في ذلك الوقت القصير نسبياً . فقد كان لا يبالي أن يكذب ويزيف الأحاديث النبوية ويخزع الناس عن قصد ، وكان قلبي الأكثر ثبوتاً بدماء فعرّض الكثيرين للقتل دون مبرر ، ولم بأسف بعد ذلك على موتهم ، وكان يستغل ثقة العوام فيه وصنهم أنه ولي من أولياء الله أو إمام معصوم كما قال ، فتكلفتهم تضديعات كثيرة دون أن تعود عليهم من ذلك أي فائدة .

ولا شك أن محمد بن تومرت كان يعرف أن المرابطين ليسوا مجسمين ولا مقصرين في حقوق الله والدين ، وكان يرى جهادهم في الأندلس واجتهادهم في الدفاع عن حوزة الإسلام ، فما الذي دفعه إلى القيام بهذه الحركة التي قصص عن دولة مجاهدة وهي في عنفوان كفاحها ضد أعداء الإسلام ؟ .

لا نستطيع الإجابة على هذا السؤال بصورة مؤكدة ، لأن معلوماتنا عن الرجل قليلة ، أو قل . إننا لا نشق كثيراً من المعلومات التي لدينا ، لأن معظمها كتب في أيام الموحدين ، ولكننا نقول إن هذا الرجل كان مصمودياً في أعماق نفسه ، وأن حافزه إلى العمل والحركة كان الرغبة في تجميع المصامدة والانتفاع بقوتهم « إنشاء دولة مصمودية ، كما عمل عبد الله بن ياسين على إنشاء دولة مرابطية من قبائل صنهاجة الصحراء ، وهذا هو السبب في تحمس المصامدة له ، فإننا نجد أنه منذ

أن استقر في تينمل ثوافدت عليه وفود قبائل المصامدة .

وكان لقب الموحدين الذي أطلقه على أتباعه غير ذي معنى ، لأن كل المسلمين موحدون ولم يكن المرابطون أقل توحيداً من الموحدين وإنما هي تسعية أراد محمد بن تومرت بها أن يوهم الناس أن دعوته تتجه إلى إحياء عقيدة التوحيد الخالصة

ونلاحظ كذلك أن الرجل كان يتمتع بالثأيا لتي نجدها عند كبار الدعاة ومحركي الجماعات مثل كبار دعاة الشيعة ومهدي السودان والسنوسى وغيرهم ممن يوهبون قدرة غير عادية ، على إقناع الناس بأن الله اختارهم لأمر عظيم ، وتوجيههم الوجهة التي يريدون . وكان ابن تومرت دون شك خارق الذكاء واسع النشاط شديد المكر ، ولكننا لا نلاحظ في كتاباته ما يبرر القول بأنه كان على علم غزير . وعلى أى حال فقد شقى هذا الرجل وأرهق نفسه ليورث ثمرة جهده لصاحبه عبد المؤمن بن علي . فقد عاش متقشفاً متقللاً من الدنيا ، وكان إلى جانب ذلك حصوراً ، فلم يتزوج أو ينجب .

عبد المؤمن بن علي ، قيام الدولة الموحدية

٥٢٤ — ٥٥٨ هـ / ١١٣٠ — ١١٦٣ م :

لم يوفق ابن تومرت إلى إنشاء مذهب ديني أو سياسي معين واضح المعالم ، لأن تفكيره الديني كان مشوشاً متناقضاً لا يقوم على علم غزير ، وإنما هو علم سطحي غير متناسق ، احتطبه الرجل دون اهتمام كبير بأساسه العلمي ، ليستعمله كوسيلة من وسائل تحقيق مطامعه السياسية . ومعنى أن ننظر إلى محمد بن تومرت دائماً على أنه رجل سياسة لا رجل دين ، فكمثل تفكير هذا الرجل سياسي وإن أخذ ظاهراً دينياً ، وحتى مبدأ التوحيد الذي يقال إن الحركة كلها قامت عليه ، لا نجد لابن تومرت فيه رأياً جديداً يجعل منه مذهباً محدد المعالم ، بل إن ادعاء المهية وقوله إنه المهدي الذي يأتي آخر الزمان ، يتنافى آخر الأمر مع التوحيد الحق ، فإن الذين يقولون بإمكانية محيء « المهدي » يفترضون أن الله

سبحانه وتعالى يهبه من لدنه قوة لعمل المعجزات والكرامات ومعرفة الغيب
ومعرفة ما في الصدور ، وهذه كلها في نظر أهل التوحيد الصحيح صفات
لا يتصف بها غير الخلق سبحانه .

فالقول بالتوحيد وبالمهدية وبعضة الإمام واتهم المرابطين بالتجسيم
والمروق عن الدين وجواز قتالهم وتكوين هيئات أهل آيت عشرة وآيت خمسين
والمستدركين بعد التمييز والطلبية ، كل هذه تكوينات سياسية أو حزبية إذا شئت ،
الغرض منها بناء قوة سياسية تتركز في يد المهدي ومن يرشحه للخلافة بعده .

الصورة النهائية التي أخذتها هذه الحركة الموحدية صورة دولة قبائلية
مصمودية . وهذه الدولة هي دولة الموحدين التي قامت على اكتاف قبائل
مصمودية

أهم تلك القبائل المصمودية التي قامت على اكتافها قوة الموحدين ، هنتانة
وهرة وهزجة وهزيمة وهسكورة وهيلانة . . ويلاحظ أن أسماء أكثرها تبدأ
بحرف الهاء ؛ والسبب في ذلك أن هذه الأسماء مُعَرَّبَةٌ وهي في الأصل تبدأ بهمزة
يعقبها حرف ساكن مثل (آيت أرعان) التي عُرِّبَتْ على (هرة) (وآيت
الآن أو ايلان) التي عُرِّبَتْ على (هيلانة) ، وآيت اينتى التي عُرِّبَتْ على هنتانة .

وعبد المؤمن بن علي الكومي ينتسب إلى قبيلة كومية ، وهي ليست من قبائل
المصامدة الكبرى ، بل هي فرع زناتى في الغالب كان يسكن غرب تلمسان ، وقد
ولد في قرية هناك تسمى « تاجرا » ، ولقى محمد بن تومرت أثناء عودة هذا الرجل
من المشرق ، وقد تعلق ابن تومرت بعبد المؤمن من أول لقاءه له ، ورأى فيه
خليفته فعلم على دفعه إلى الأمام بصورة مستمرة ، وابن تومرت نفسه كان
حضوراً فهو لم ينجب أولاداً ، ومعنى ذلك أنه كان يشعر أنه يمهد الأمر لصاحبه
هذا ، وهذه ظاهرة فريدة في بابها في التاريخ ، لأن عبد المؤمن نفسه لا يعد من
منشئ الدول ولا كانت له المواهب اللازمة لذلك ، وهو مدين في كل شيء
لصاحبه هذا ، فهو الذي أعده للرياسة وعلمه ودربه ، وأخذ أتباعه بطاعته معا
مهده له الأمر ، وفضله يتجلى في أنه عرف كيف ينتفع بالتعليم والتدريب ، فعرف
كيف ينهض بعبء الخلافة وينظم الدولة ويسير بها إلى الأمام .

وفي أواخر أيام ابن تومرت حاول الموحدون بقيادة عبد المؤمن بن علي أن يستولوا على مراكش ، ولكنهم ارتدوا عنها بخسارة كبيرة ، وكان النذى هزمهم الزبير بن علي بن يوسف بن تاشفين .

ويقال : إن اسم الموحدين أطلقه ابن تومرت على جماعته أثناء الاستعداد لهذه الغارة ، إذ أنه كان يحسب أنهم سيستطعون دخول مراكش والقضاء على المرابطين بسهولة ، فسماهم الموحدين بصورة رسمية زيادة في حماسهم وكذلك سمى جيشهم بجيش المؤمنين ، وسمى عبد المؤمن بن علي بأمير المؤمنين .

احتاج عبد المؤمن إلى وقت طويل ليثبت سلطانه ، فإن ابن تومرت توفي سنة ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م ، وأعلنت وفاته سنة ٥٢٧ هـ / ١١٣٣ م ، وقد قضى هذه السنوات الثلاث يجمع الصفوف وينظم الحركة بعد موت صاحبها ، ولكننا لا نسمع عن قيامه بعمل كبير إلا في سنة ٥٣٢ هـ / ١١٣٩ م عندما بدأ التصادم العسكري مرة أخرى بينه وبين تاشفين بن علي ، خليفة علي بن يوسف ، وقد شغل عبد المؤمن نفسه خلال هذه السنوات بالاستيلاء على حصون مرابطية في الطريق إلى مراكش .

بعد ذلك نجد عبد المؤمن يتحاشى مقابلة المرابطين في مراكز سلطاتهم في سهل مراكش وما يليه شمالاً ، فيسير بجيوشه شرقي جبال درن ويخترق ممر تارا ، ويصعد شمالاً إلى تلمسان وتواجيها ، وقد تمكن بذلك من بسط سلطانه على مساحة واسعة في المغرب الأوسط ، وفي سنة ٥٣٧ هـ / ١١٤٢ - ١١٤٣ م توفي علي بن يوسف وخلفه ابنه تاشفين ، فتشجع عبد المؤمن ومن معه من الموحدين على مهاجمة المرابطين ، خاصة وأن تاشفين بن علي كان شاباً قليل التجربة وإن كان شديد الحماس ، وقد مات هذا الشاب صريعاً وهو يحارب الموحدين ويدفعهم عن وهران في يوم ١٧ رمضان ٥٣٩ هـ / فبراير ١١٤٥ م وبموته سقطت وهران وتلمسان ، وأخذ بناء دولة المرابطين يتداعى تحت ضغط الموحدين المتوالي عليها .

وقد أبدى المرابطون بسالة كبيرة في الدفاع عما بأيديهم من البلاد رغم الظروف العصيبة التي أحاطت بهم ، فلم يستطع عبد المؤمن بن علي الاستيلاء

على فوس إلا بعد حرب طويلة وحصار شديد داماً تسعة أشهر في ذي القعدة ٥٤٠ هـ / أبريل ١١٤٦ م. وفي محرم ٥٤١ هـ / يونيو ١١٤٦ م دخل مراکش وقتل إسحاق بن علي بن تاشفين ونقرأ من أمراء المرابطين ، وبذلك انتهت الدولة المرابطية وأصبح الموحدون سادة المغرب الأقصى وجزء كبير من المغرب الأوسط .

تقدير المرابطين :

مهما تصورنا دوافع ابن تومرت للقيام على المرابطين وشن هذه الحرب القاسية عليهم ، فإننا لابد أن نسلم بأنها حرب لم تكن لها ضرورة . فإن المرابطين لم يكونوا دولة مُلك وسلطان واستمتع وتدهور سياسي و اجتماعي واقتصادي كما هو الحال مع الدول التي تقوم عليها الثورات ، بل كانت دولة جهاد وحرب وإنقاذ ، وعندما قام محمد بن تومرت بدعوته ضد المرابطين كان أمرهم على بن يوسف ، وهو من خيرة أمراء الإسلام ، فكان ذلك مزيداً من الضعف للإسلام والدولة .

لقد حكم المرابطون المغرب الأقصى وغربي المغرب الأوسط نحو قرن من الزمان فقد دخلوا أغمات سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م وسقطت مراکش في يد الموحدين سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م ويمكننا اعتبار هاتين السنتين بداية ونهاية دولة المرابطين في المغرب ، أما الأندلس فقد دخلوه سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ، فكانهم حكموا ما تيسر لهم منه ٦٠ سنة .

فأما في المغرب فإن المرابطين هم الذين صنعوا وحدة المغرب الأقصى على النحو الذي ثبتت به في التاريخ ، فقد ظل المغرب من ذلك الحين إلى الآن يشمل البلاد الممتدة من ساحل البحر المتوسط إلى وادي درعة ، وامتد شرقاً من المحيط الأطللسي إلى شريط من الأرض شرقي نهر الملوية ، أما ما يلى هذه الحدود جنوباً وشرقاً ، فقد دخلت في المغرب الأقصى حيناً وخرجت عن سلطانه حيناً آخر ، ففي العصر المرابطي مثلاً كان الجناح الجنوبي من المراتين يعمل بنشاط في أفريقيا الغربية الإدارية ، ولكنه كان قد انفصل عن كتلة المرابطين العاملة في الشمال ، وأصبح دولة أخرى ذات طابع آخر واتجاه تاريخي آخر ، فقد كان هذا الجناح

أفريقياً في طبيعته وروحه ، وإن كان إسلامياً مغريباً في طرانه حضارته ، ولم يعد المغرب إلى الامتداد جنوباً إلا أيام سلاطين الشرفاء السعديين ولكن ذلك كان تسامحاً سياسياً وليس تغييراً للحدود التاريخية للمغرب ، ونقصد بذلك سلاطنة السنغال وما يليها جنوباً ،

وحد المرابطون هذا المغرب الأقصى سياسياً ثم دينياً ، فقد قضوا على بقايا المذاهب المنحرفة من برغواطية وعمارية وما إليها ، وقطعوا دابر المذهب الإباضي والشيحي فيما سادوه من بلاد المغرب الأوسط وإقليم سجلماسة ، وإلى المرابطين يرجع الفضل في الوحدة العقائدية السنية التي تميز المغرب الأقصى ،

وأتم المرابطون وحدة المغرب الأقصى الثقافية أيضاً ، فقد كان رافع لواء حركة التصحيح الديني فيه فقيه مغربي ستعرب من زمن طويل هو عبد الله بن ياسين ، وقد قام بحركته الدينية بصفته فقيهاً عربياً مصلحاً يعمل على نشر الإسلام السني والقرآن ولغة القرآن وثقافة هذه اللغة ، وبعد أن تحوت الحركة إلى حركة سياسية على يد يحيى بن عمر بن إبراهيم بن ترغوث ضل الاتجاه الثقافي العربي للحركة كلها مستمراً ، ويتمثل هذا فيما يسمى بسيادة الفقهاء في دولة المرابطين ، فقد كان لهم دائماً مكان مميز في هذه الدولة ، وفي بعض الأحيان أخذ سلطان الفقهاء ، وهم دائماً عامل تعريب وثقافة عربية ، صورة سياسية ، وقد وجه نقد كثير إلى المرابطين ، وخاصة إلى علي بن يوسف بسبب سلطان الفقهاء في الدولة ، ولكن هذا الاتهام مفتع ومبالغ فيه ، فلم يكن للفقهاء في دولة المرابطين من سلطان أكثر مما كان لهم في غيرها من الدول ، ولكن الذي لا شك فيه هو أن أولئك الفقهاء قاموا بعمل تعريبي واسع المدى في أنحاء دولة المرابطين ، فساروا خطوة واسعة بما بدأه الأدارسة في هذا الاتجاه ، وقد كرر لأمراء المرابطين أهمهم كبير باللغة والأدب والنثر خاصة ، ويعتبر العصر المرابطي العصر الذهبي للنثر لفني في المغرب والأندلس ، ففي ذلك العصر ظهر قطا حلل الناثرين وكتاب لرسائل ، من أمثال أبي بكر بن الجدي ، وأبي محمد بن أبي الخصال وأخيه أبي مروان ، وأبي بكر ابن القبطورية ، وقد أكثر المرابطون من إنشاء المساجد في بلادهم حتى قيل إن يوسف بن تاشفين خطب له على ٦٠٠ منبر ، والمساجد كما نعلم مراكز للعلم العربي الإسلامي ،

أما في الأندلس فقد سبق أن ذكرنا كيف أنهم أوقفوا التقدم النصراني بانتصارهم في معركة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م وكسروا بذلك الموجة التوسعية التي كان يقودها الفونسو السادس ، ملك قشتالة وأرغون ، ثم كسروا كذلك الموجة التي كان يقودها الفونسو الأول الملقب « بالمحارب » ملك أرقون . بانتصارهم عليه في معركة « أفراغة » بعد ذلك بثمانية وأربعين سنة (٥٢٨هـ / ١١٢٤م) ولم يكن الفونسو الأول المحارب أقل خطراً من الفونسو السادس . فكان عمل المرابطين بذلك عملاً حاسماً امتد أثره قروناً بعد ذلك . أضف إلى ذلك أن انتصار المرابطين في مواقع أخرى مثل تطش وبهد ، هم « المستمر للسلطة » استعادتهم بلنسية في شرق الأندلس قد أعطى الحركة المرابطية قوة كبرى .

كل ذلك أدى إلى ثبات جبهة الإسلام في الأندلس ، بعد أن أوشكت على الانهيار قبيل دخولهم ، وإذا كان عمر الإسلام في الأندلس قد امتد بعد ذلك نحو أربعة قرون فإن الفضل الأكبر يرجع إلى هذه الجماعة الباسلة من المحاهدين وخلال هذه القرون التي أضافها المرابطون إلى عمر الإسلام الأندلسي ، كتب أهل الأندلس صفحات زاهرة أخرى في تاريخ الحضارة .

حكم عبد المؤمن بن علي :

بعد هذه الوقفة القصيرة عند مكان المرابطين في التاريخ نعود إلى استقمام ما استطدنا عنه من أعمال عبد المؤمن بن علي أثناء حكمه .

بعد سقوط مراكش في يد الموحدين وصل سلطانهم إلى ساحل البحر المتوسط وشمل المغرب الأقصى كله من البحر المتوسط إلى وادي درعة ، إذ أن المدن والقيائل في المغرب كله ، حتى طنجة وسبتة في الشمال ، سارعت إلى الدخول في طاعة الدولة الجديدة .

وكان نفر من رؤساء الأندلس قد انتهزوا فرصة انشغال المرابطين بحرب الموحدين في المغرب ، فتأروا بهم وطردوا ولادهم ، وأصبحت أنفسهم حكاماً مستعدين في نواحيهم ، وعاد الأندلس مرة أخرى موزعاً بين أمراء محليين ، ولهذا تسمى

فكرة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين « بعصر الطوائف الثاني » ويبدأ من سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م ، وهي السنة التي قتل فيها تاشفين بن علي ثالث أمراء الموحدين عند وهران وتنتهي سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م وهي السنة التي تمكن الموحدون فيها من استعادة المرية بعد سقوطها في يد النصاري ، وباستعادة المرية توحد ما بقي من الأندلس مرة أخرى تحت راية الموحدين .

خلال هذه الفترة ظهر من طلاب السلطان في الأندلس نفر كبير ، صفاتهم الأساسية الجشع وقلة الإيمان وقصر النظر ، وقد دخل بعضهم في طاعة الموحدين دون حرب ، ولكن بعضهم الآخر لم يستسلم في سهولة . وقد وجه الموحدون همهم ناحية غرب الأندلس لأول نزولهم الأندلس سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م وكان غرب الأندلس موضع اهتمامهم طوال مدة حكمهم فيه كلها . فقد كانت أشبيلية هي عاصمتهم هناك . وفي غرب الأندلس قاموا بمعاركهم الكبرى ولم يتسع أمامهم الوقت للاهتمام بشرق الأندلس ووسطه . ولكن أعمالهم العسكرية الباهرة في غرب الأندلس أثبتت جبهة الإسلام فيما بقي لهم في شبه الجزيرة كله نحو قرن من الزمان .

وكان أسوأ ما نجم عن أعمال أمراء طوائف فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين هو سقوط المرية في يد القونسيو السابع بن ريموندو ، المسمى عند مؤرخي المسلمين « بالسليطين » ، وقد سموه بالسليطين لأنه تولى العرش صغيراً بعد وفاة أمه الأميرة أراكسة ابنة القونسيو السادس . وقد تولى العرش سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م وتوفي سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م وكان استيلائه على المرية في نفس السنة ، قصم الموحدون لاسترجاعها . وقد حاول القونسيو السابع السليطين ، الدفاع عنها قدر ما استطاع . وكان يعاونه في حرب الموحدين زعيم أندلسي ممن كان لهم أثر غير محمود في أحداث هذه الفترة ، وهو محمد بن سعد ابن مردنيش ، وكان يقود الموحدين عند هجومهم على المرسية السيد أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن الذي ولاه أبوه أشبيلية . ولما رأى ابن مردنيش استئصال المسلمين في استعادة المرية خجل من نفسه وانصرف عن حليفه النصراني ، ووجد القونسيو السابع نفسه وحده أمام المسلمين فأسلم البلدة وولى هارباً ، ثم لم يلبث أن توفي من أثر ما لقي في هذا القتال . وهذا ثاني ملك من ملوك إسبانيا

لنصرانية يعضى عليه المسلمون في حربهم اطويلة للمد الصيبي النصراني في إسبانيا ، والاول هو القونسيو السادس جده ، هذا خلا الأمير سانشو ابن هذا الأخير الذى قتل في معركة ألبيش . وكانت استعادة الموحدين لأثنية في سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م ، ويعتبر ذلك بداية لحكم الموحدين في الأندلس .

وباستعادة الموحدين الحرية توحدت بقية الأندلس الإسلامى تحت سلطانهم فجعل عبد المؤمن ابنه أباسعيد عثمان والياً عليه كله ، وفي سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م أمر عبد المؤمن ببناء حصن ومدينة على سفح جبل طارق الذى سمي « بجبل الفتح » ، وكان الذى بناه المهندس الحاج « يعيش » وأشرف على البناء السيد أبو سعيد عثمان ، وما زالت قطعة من هذا البناء باقية إلى اليوم في جبل طارق وتعرف باسم الحصن العربى El Castillo Arabe ثم عبر عبد المؤمن بن علي إلى الأندلس وكان له في جبل الفتح استقبال مشهود ، وقد تمت له السيطرة على الأندلس سنة ٥٥٦هـ / ١١٦١م .

وقد تأخر وصول عبد المؤمن إلى الأندلس لأن أحوال أفريقية والمغرب الأوسط شغلته عقب دخوله مراكش ، فقد تراسى إلى سمعه أن النورمان قد استولوا على المهدية على ساحل أفريقية من أيدي أمراء بنى زيري الصنهاجيين ، وكان أمرهم قد ضعف عقب دخول عرب بنى هلال إلى أفريقية ، وتخريبهم مدينتها خلال النصف الأول من القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، فسار عبد المؤمن بن علي بجيش موحدى ضخم استولى على تلمسان وبقية المغرب الأوسط وكل مدينته ، ثم دخل أفريقية واحتل بجاية ثم تونس والقيروان ، ثم قصد إلى المهدية ونازل النورمان وما زال بهم حتى استرجعها من أيديهم ، وكان ذلك سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م التى تعرف في تاريخ المغرب « بسنة الأخماس » ، وهى سنة توحيد المغرب كله من المحيط الأطلسى إلى قفصة تحت لواء واحد . ولم تلبث طرابلس أن دخلت في طاعتهم ، ومعنى ذلك أن الخلافة الموحدية شملت المغرب العربى كله ، وهو حدث حاسم يكفى وحده لتخليد ذكرى عبد المؤمن بن علي ، فكيف لو عرفنا أنه في نفس السنة عبر إلى الأندلس ، وضم ما بقى منه إلى دولته ، فجمع بذلك المغرب والأندلس تحت لوائه .

وفي سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م تمرد الهلاليون في تونس وانضموا إلى شائر

يسمى عبد الله بن خراسان وهزموا السيد عبد الله بن عبد المؤمن ، فقرر عبد المؤمن أن يضع حداً لعصيان أولئك العرب ، فخرج في سنة ٥٥٣هـ / ١١٥٨م في جيش جرار يقال إنه أكبر جيش موحدى قاده عبد المؤمن ، وتمكن من احتلال تونس ، ثم تقدم نحو المهدية وكانت قد سقطت في أيدي النورمان فحاصروهم حتى سلمت المدينة في سنة ٥٥٤هـ / ١١٥٩م ، وكانت بعض بطون الهلالية مثل بنى كامل وبنى رياح وبنى الورد ، قد استبدوا ببعض بلاد تونس مثل قفصة وقابس وتصالحوا مع النورمان ، فأرسل عبد المؤمن ابنه عبد الله في حملات إلى هذه النواحي فأدخلتها في دولته ، وخرج هو في حملات أخرى . ولم تحل سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م حتى كان عبد المؤمن قد مد رواق الدولة الموحدية إلى حدود طرابلس ومكن لسلطان الموحدين فيها ، وقد تم له ذلك في نفس السنة ، وبذلك تكون هذه السنة تاريخاً فاصلاً في التاريخ المغربي كله ، فهي السنة التي تحققت فيها وحدة المغرب السياسية ودخل كله من حدود طرابلس إلى المحيط في دولة واحدة يحكمها خليفة واحد في مراكش . وفي ذلك الحين كانت تلك الخلافة الموحدية المغربية أقوى الدول الإسلامية وأوسعها سلطاناً ، فإن الدولة العباسية كانت قد هبطت إلى درك سحق من الضعف ، ولم تكن الدولة الأيوبية قد قامت بعد ، وجدير بالذكر أن الاحتلال الصليبي لأراضي الشام كان إذ ذاك في عنفوانه .

وفي أواخر أيام عبد المؤمن تمرد في الأندلس ثائر يسمى إبراهيم بن همشك ، وعاونته في ذلك صهره محمد بن سعد بن مرديش ونفر من رؤساء الجند في الأندلس ، فعبر عبد المؤمن إلى الأندلس وقضى على حركات التمرد وثبت أقدام دولته هناك ، ثم عاد إلى المغرب . وعندما وصل (سلا) نزل به المرض ، ولم تزل العلة تثقل به حتى قضى نحبه في ٢٧ جمادى الآخرة سنة ٥٥٨هـ / يونيو ١١٦٢م .

حكم عبد المؤمن بن علي أربعاً وثلاثين سنة تعتبر فاتحة عصور الازدهار في التاريخ المغربي . لقد ورث عبد المؤمن عن محمد بن تومرت قوة عسكرية وسياسية ضخمة ، فعرف كيف يستخدمها في إنشاء أكبر دولة عرفها تاريخ المغرب في العصور الوسطى ، فقد امتدت من خط الواديانة في الأندلس إلى وادي

دوعة في جنوب المغرب ، وترامت من المحيط إلى أحواز طرابلس ، وقد أبدى الرجل نشاطاً واسعاً وذكاء كبيراً في إنشاء هذه الدولة . حقاً إن الرجال الذين تولوا قيادتهم كانوا من خيرة شعوب العالم الإسلامي وأقواها وأشدّها إخلاصاً للدين في ذلك الحين . ولكنها كانت أيضاً تحتاج إلى يد قوية لضبطها والسيطرة عليها وتوجيهها التوجيه الصحيح . وقد تيسر ذلك لعبد المؤمن بمواهبه . وأهم هذه المواهب أنه عرف كيف يستفيد من مواهب زملائه من كبار أصحاب محمد بن تومرت ، من أمثال أبي حفص عمر أينتى المعروف بـ «أهنتاتي» ، وأبي يحيى أبي بكر بن إيجيت ، وأبي إبراهيم سماعيل الهزرجي المعروف بابييج ، وعمر بن عبد الله المعروف بعمر أزناج وغيرهم . وكانوا جميعاً رجالاً ذوي ملكات وإخلاص ، وقد اعتمد عليهم وعلى ابتائهم من بعدهم محمد بن تومرت وعبد المؤمن بن علي وخلفائه ، وإليهم يرجع جانب كبير من الفضل فيما وصلت إليه دولة الموحدين من قوة واتساع . وهؤلاء كانوا كبار مشيخة الموحدين أي هيئة قيادتهم . وقد تألفت المشيخة من رجل أيت عشرة وأيت خمسين وخلفائهم ، وكانت مشيخة الموحدين عصب قوة الدولة ، وعندما ضعف أمر المشيخة بدأت الدولة كلها في الضعف .

خلفاء عبد المؤمن بن علي :

أبو يعقوب يوسف ٥٥٨ - ٥٨٠ هـ / ١١٦٣ - ١١٨٤ م :

لم يكن يوسف بأكبر أبناء عبد المؤمن ولكنه كان أصلحهم بحسب ما رأى رجال مشيخة الموحدين ، وكان في حدود الثلاثين عندما تولّى الأمر . وكان قد قضى سنوات طويلة في الأندلس عاملاً على أشبيلية لآبيه ، فتدرب على قيادة الأمور ، وكان ذا ثقافة واسعة وإيمان متين مع أن ملكاته السياسية لم تكن بمستوى الذي كانت تتطلبه ظروف دولة واسعة كدولة الموحدين ، إلا أنه بذل أقصى جهده في القيام بأمرها وسأس الأمور في حزم واجتهاد ، فوفق في المحافظة على التراث الضخم الذي صار إليه رغم أنه كان كثير العلل والأمراض .

في دولة واسعة كدولة الموحدين ، تتكون من أقاليم شاسعة لم يسبق دخولها تحت لواء واحد من قبل مثل الأندلس والمغرب الأقصى والمغرب الأوسط

وأفريقيه ، تكون مهمة الحاكم الأولى هي المحافظة على الهدوء والنظام والعمر في نواحي البلاد ، ولكن ذلك كان أمراً عسيراً جداً في ذلك العصر ، ومن هنا لا تخلو سنة من سنوات التاريخ الموحدي من تبدلات شتى ساعدت على واحة الدولة ، وكان لابد من الإسراع للقضاء على الفتنة وإلا اضطرب حبل الأمن في الدولة كلها .

قامت على يوسف ثورات كثيرة في أفريقية ، وكان قد وفد على طرابلس جماعة من الأيوبيين مع جنودهم ، بقصد تهديد هذه الناحية لصالح الدين ، فتحالف معهم نفر من عرب بني هلال ، وأصبح هذا الطرف القصي لدولة الموحدين مصدراً للقلق والاضطرابات ، وقد بذل يوسف جهداً كبيراً في القضاء على الفتن التي قامت هناك .

وقامت كذلك فتن كثيرة في الأندلس ، أثارها محمد بن سعد بن مردانيش كبير ثوار شرق الأندلس ، وقد تولى حربه السيدان أبو سعيد وأبو جعفر من أبناء عبد المؤمن ، أي من إخوة يوسف ، وقد تمكنت من إيقاف خطر ابن مردانيش في سنة ٥٦١هـ / ١١٦٦ م .

وتبين ليوسف بن عبد المؤمن أن الأندلس في حاجة إلى عمل حاسم يقضي على خطر ابن مردانيش ويوقف تقدم النصاري ، وكان يتولى عرش ليون وقشتالة إذ ذاك ، الملك فرناندو الثاني ، وكان يتوجس خيفة من إمارة البرتغال التي كانت تسير سيراً حثيثاً نحو القوة في ذلك الحين بقيادة أميرها ، ألفونسو أنريكي Alfonso Enrike وهو الذي يكتبه مؤرخونا « ابن الرنق » ويحرفه بعضهم إلى ابن الريق .

لهذا تحالف فرناندو الثاني مع أبي يعقوب يوسف ووعد بمساعدته ، فتمكنت قوات الموحدين من القضاء على محمد بن سعد بن مردانيش صاحب مرسية وشرق الأندلس ، بعد حرب مضنية حافلة بالخصائر .

وبعد وفاة فرناندو الثاني تولى عرش ليون وقشتالة ألفونسو الثامن ، وكان رجلاً نشيطاً طموحاً شديد الخوف من المسلمين ، فبدأت العلاقات تسوء بين الجانبين وخشى أبو يعقوب يوسف من التقارب بين مملكة ليون وقشتالة وإمارة

البرتغال ، فقرر القيام بحملة كبيرة على غرب الأندلس هدفها إيقاف الخطر البرتغالي خاصة .

سار الجيش الموحدى نحو شنترين Santaren أكبر قواعد غرب الأندلس إذ ذاك وكان البرتغاليون قد استولوا عليها سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م ، وأحس القونسو أنريكي بقرب الخطر ، فحضر شنترين وشحنها بالمؤن والمعدات ، وأقبل الموحدون فحاصروها . هنا تلاحظ ظاهرة ستكرر كثيراً في التاريخ العسكرى للموحدين ، وهى أن جيوشهم على ضفتها كان ينقصها النظام وتعوزها القيادة ، ولقد امتاز العصر المرابطى بعظماء انقادة ، الذين عرفوا كيف ينزلون الهزائم بالإسبان ، ولكن الموحدين لم يتجربوا قيادة من هذا الطراز ، والسبب فى ذلك ربما يرجع إلى أن الموحدين كانوا يصرون على أن يتولى القادات أفراد منهم أو أفراد بيت أبى حفص عمر الهنتاتى ، ومن سوء الحظ أن أمراء البيت الموحدى ، وكانوا يلقبون بالأشياخ ، كانت مواهبهم محدودة فى جملتهم ، ولا يكاد يمتاز من بينهم إلا عبد المؤمن بن على نفسه ، وابنه أبو يعقوب يوسف ، وحفيده أبو يوسف يعقوب ، ولهذا قلّت انتصارات الموحدين بعد عصر أبى يوسف يعقوب

هنا فى حصار شنترين نجد هذه الظاهرة بوضوح ، فهذا الجيش الضخم الذى يقوده الخليفة بنفسه يعجز عن الاستيلاء على ذلك الحصن ، وفى وقت ما أثناء الحصار ، نجد غير الخليفة يصدر أمراً برفع الحصار والانتقال إلى مدينة أخرى . صدر هذا الأمر فجأة ودون إبلاغه إلى بقية الجنود بالصرق التى تقتضيهما النظم العسكرية ، فقوجى الجنود بفساطيط الخليفة ورجاله ترفع على عجل فظنوا أنها هزيمة وتبادروا إلى الفرار وانتهز العدو الفرصة فهجم على معسكر المسلمين ، وأصيب الخليفة بسهم يقال إنه كان مسموماً ، وهكذا وفى ساعات قليلة انفرط نظام هذا المعسكر الضخم ، ونزلت به خسائر فادحة ، وحُمل الخليفة الجريح فى مَحْفَةٍ ، وعاد الجيش أدراجة ، وبعد ليلتين من السير مات الخليفة أبو يعقوب يوسف فى ٧ رجب سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م .

وعلى أى حال قأبو يعقوب يوسف كان دائماً رجلاً مريضاً ، وفى تتبعنا لتاريخه نجده يصاب بالمرض المرة بعد المرة ، حتى لقد ظل مرة سنة كاملة

مريضاً طريح الفراش ، ولهذا يذهب بعض المؤرخين إلى أنه مات إثر مرض أصابه أثناء الحصار .

تولى أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في السابعة والأربعين من عمره ، وكان رجلاً شهماً نشيطاً بذل أقصى جهده في القيام بواجبه ، وقد سار بالدولة خطوات واسعة إلى الأمام ، وهو يعد من كبار الخلفاء والسلاطين في تاريخ المغرب الإسلامي .

أبو يوسف يعقوب المنصور ، الدولة الموحدية في ذروتها

٥٨٠ - ٥٩٥ هـ / ١١٨٤ - ١١٩٩ م :

تعتبر السنوات الخمس عشرة التي حكمها أبو يوسف يعقوب المنصور ، ثالث الخلفاء الموحدين ، العصر الذهبي للدولة الموحدية ودروة انش واصل إليها التطور السياسي في المغرب نحو التواجد وإقامة الدول الكبرى في العصور الوسطى ، ولقد كان ذلك العصر الذهبي قصيراً ، لا يتناسب مع دولة ضخمة مترامية الأطراف غزيرة الثروة والموارد مثل الدولة الموحدية ، فإن خلفاء الموحدين حكموا بلاداً تضاهي ما حكمه العباسيون في أوج قوتهم ، وكانت تحت إمرتهم حشود من الجنود القوي القادر على كسب المعارك لم تتيسر للكثير من الدول في التاريخ الإسلامي كله ، فقد كانت جيوش الموحدين تنجح بحشود من خيرة أبناء لقبائل المغرب من المصامدة أولاً ، ثم من بقية أصداء أحدر . بل الزناتيين أيضاً ممن اجتذبهم الدولة الموحدية بقوتها وعيبتها ، ثم أصبحت إلى هؤلاء حشود من عرب الأهاليين الذين انضموا تحت لواء الدولة الخيرة لمظفرة ولم يخش الأمر من قوات أندلسية ذات قدرة ومهارة ، لأنه إذا كان زعماء الأندلس قد سبواهم التدهور الخلفي والنفسي ، فإن شعب الأندلس نفسه ظل قوياً مؤمناً صامداً رغم تكرار الحروب المتوالية .

بالإضافة إلى ذلك ، أنشأ الموحدون قوة من الحرس للخليفة من العبيد ، ممن

كانت الدولة تشتريهم من بلاد السودان ، ولهذا كانوا يسمون « عبيد المخزن » (١) أو « الدائرة » لأنهم كانوا يحيطون بفسطاط الخليفة أثناء الحروب كآذهم دائرة ، وقد كان عبيد المخزن هؤلاء أو عبيد الدائرة قوة عسكرية لها خطرهما ، وقد حاربت دائماً في قوة وحماس وإخلاص ودافعت عن الخلفاء في استماتة

رغم هذه القوات كلها كانت القوة العسكرية الموحدية دائماً مفككة ، تنقصها القيادة الحازمة التي تقبض على الجيش قبضة محكمة ، وتوجه الأعمال وفق خطة واحدة مرسومة ، كما نرى في جيوش الحرب الأولى ، وفي جيوش صلاح الدين والمماليك والأتراك العثمانيين . وكان أبو يوسف يعقوب المنصور من الموحدين القلائل الذين استطاعوا قيادة جيوشهم قيادة سليمة محكمة ، وكان الرجل في نفسه كذلك رجلاً حازماً موهوباً في شئون الإدارة والقيادة العسكرية ، وكان شديد الإيمان وانتقل إيمانه إلى رجاله وكسبت جيوش الموحدين في أيامه قوة ضاربة كبرى .

ثورة بني غانية المسوفيين :

ومن سوء الحظ أن دولة الموحدين ابتليت في أيام أبي يوسف يعقوب هذا بمشكلة بدأت صغيرة في حجمها وأهميتها أول الأمر ، ولكن عجز الإدارة الموحدية عن معالجتها بالصورة الناجعة جعل منها مشكلة ضخمة ، استنزفت من دماء الدولة وجندتها جانباً كبيراً ، وأصبحت في النهاية من أسباب سقوط الدولة كلها .

تلك هي مشكلة بني غانية المسوفيين ، وينبغي أن نقرأ اسم بني غانية بتشديد الياء ، لأن مؤسس بيتهم ، محمد المسوفى ينسب إلى أمه وكانت من غانة ، فهي غانية ، وكانت النسبة إلى الأمهات شائعة بين المرابطين ، فهناك أبو عبد الله ابن عائشة ، وأبو بكر بن الصعراوية ، ومحمد بن قنؤ (اسم امرأة) وهكذا لأن الرجال كانوا يتزوجون كثيراً ، فينسب الأولاد إلى أمهاتهم تمييزاً لهم بعضهم عن بعض في البيت الواحد .

أول من نسمع به من رجال ذلك البيت ، أبو زكريا يحيى بن غانية ، الذي أقامه على بن يوسف على بعض أعمال قرطبة ، وأثبت أنه قائد ماهر ، وقد توفي أبو زكريا يحيى سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م .

(١) لبحرود : مصطلح مغربي يراد به الدولة ، فقال : بلاد المخزن أي البلاد التابعة للدولة .

وقد تولى أخوه محمد بن غانية الجزائر الشرقية ، وهي البليار منذ سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م ، وظل يحكمها حتى سقطت دولة المرابطين نهائياً . وعندما عبر الموحدون إلى الأندلس وأدخلوه في طاعتهم ، ظل محمد بن غانية مباحداً لهم ، ثم عمد إلى مصادراتهم ، وكان آمناً منهم ، طالما عاش محمد بن سعد بن مردنيش ، الذي كان يسيطر على شرق الأندلس ، ولكن بعد موت هذا سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م ووصول الموحدين إلى بلنسية ومرسية وشاطبة وبلاد لساحل الشرقى ، كان على بنى غانية أن يحددوا موقفهم من الدولة الجديدة ، وكان محمد بن غانية قد توفي سنة ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م وخلفه ابنه عبد الله ثم أخو هذا إسحق بن محمد ابن غانية ، ثم محمد بن إسحق بن محمد بن غانية ، وقد مال محمد إلى مصالحة الموحدين والدخول في طاعتهم ، ولكن إخوته الكثيرين رفضوا ذلك وخلعوه وولوا مكانه أخاه علي بن غانية ، فأسرع هذا بإعلان الثورة على الموحدين ، وقرر أن يخوض معهم معركة طويلة ، خاصة وقد لجأ إليه الكثيرون من بقايا المرابطين ممن امتلات قلوبهم حقداً على الموحدين أو خافوهم على أنفسهم .

وكان علي بن غانية رجلاً جريئاً مقداماً مغامراً ، ومن الغريب أن إقدام مسلمي عصور الانحطاط كان لا يظهر إلا إذا حاربوا إخوانهم العرب والمسلمين ، أما إذا حاربوا أعداء بلتتهم وجنسهم فهنا لا نرى إقداماً ولا بسالة .

فكر علي بن غانية في أن يخرج بأسطوله ويغير على أفريقية ، فيفتح بذلك جبهة جديدة أمام الموحدين . والحق أن تفكيره هذا كان شيطانياً ، لأن أفريقية كانت بعيدة جداً عن قلب الدولة الموحدية ، ثم إن نواحيها كانت عامرة بالعرب الهلالية ، المستعدين دائماً للاشتراك في أى عمل يفتح لهم أبواب السلب والنهب وإطلاق العنان ، لما جيلوا عليه وعرفوا به من الغارة أو الغزوة والسلب والنهب .

وربما كان أحسن ما عمله الموحدون في هذا الضرف ، وهم أمام عدو خطر هو دول إسبانيا النصرانية ، أن يدعوا جانباً موضوع الجزائر الشرقية وبنى غانية فيها ، وألا يشغلوا أنفسهم كثيراً بأمر أفريقية حتى يفرغوا من العدو النصراني ، ولكن الذي حدث هو أنهم لم يتخذوا هذه السياسة ، بل اهتموا أشد الاهتمام ببنى غانية ، ومضوا يرسلون الحملات تلو الحملات على أفريقية ، ففقدوا الأنوف من خيرة رجالهم وأنفقوا الملايين في حرب عقيمة بلا نهاية ، لأن بنى غانية وأحلافهم

من العرب جعلوا الصحراء ملجأهم . فكلم ضيق الموحدون عليهم الخنايا فروا إلى الصحراء ، ثم لا يلبثون أن يعودوا من جديد ، واستمرت هذه المطاردات سنوات طويلة استنزفت جانباً كبيراً من قوة الدولة وشرورها .

وقد تصدى أبو يوسف يعقوب المنصور لبني غانية في حزم وأنزل بهم هزيمة قاصمة في شعبان سنة ٥٨٣هـ / أكتوبر سنة ١١٨٧م ، وهرب على بن غانية وحلفاؤه من العرب والغز أو الأعزاز ، وهم لغزو غون في تاريخ مصر والشام بالمماليك أو الترك إلى الصحراء ، واسراح أبو يوسف يعقوب من شرهه إلى حين .

جهاد المنصور في الأندلس انتصار الأرك العظيم :

انتهاز أبو يوسف يعقوب المنصور فرصة الفراغ مؤقتاً من أمر بني غانية واتجه بقواه نحو الأندلس ، وكان الموقف قد عاد إلى التخرج فيه ، إذ أن الضغط النصراني على الأندلس كان قد أصبح كسيل متدفق ، جرف السدود ولم يعد ينفع فيه إلا عمل حاسم من أعمال الإنقاذ الكبرى ، كذلك التي قام بها نور الدين ثم صلاح الدين في المشرق ، وكان صلاح الدين معاصراً لأبي يوسف يعقوب المنصور .

توفي الفونسو أنريكي ملك البرتغال في أواخر سنة ٥٨١هـ / أواخر سنة ١١٨٥م وخلفه ابنه سانشو الثاني ملك البرتغال ، وقد عقد العزم على انتهاز فرصة انشغال الموحدين ببني غانية ، ليستولى على بعض بلاد غرب الأندلس ، وقد اشدد ساعده بحشود صليبية كان بعضها في طريقه من غرب أوروبا إلى بلاد الشام ، فكباثت تنزل ببعض الموانئ البرتغالية في طريقها ، وتمكن سانشو من إقناع بعض رجال إحدى هذه الحملات بمعاونته في الاستيلاء على « شلب » ، وكانت من أكبر موانئ ما بقي من غرب الأندلس في أيدي الموحدين ، وبالفعل تمكن سانشو والصليبيون ومعظمهم من « أنقلمنك » (أي من الهولنديين) والإنجليز في هذه المناسبة من الاستيلاء على « شلب » في رجب سنة ٥٨٥هـ / سبتمبر سنة ١١٨٩م بعد أن دافع أهلها عنها دفاع الأبطال .

حرك سقوط شلب أيا يوسف يعقوب المنصور إلى العمل ، فقرر أن يقوم بغزوة كبرى على غرب الأندلس بعيد بها الأمور إلى نصابها .

احتقل المنصور الموحدى احتقالاً فخماً بغزوته تلك ، فاستنفر الناس في كل نواحي بلاده ، وأعد أحسن فرق جنده ، ودعا العرب إلى الاشتراك معه في الجهاد ، ولا شك أن أخبار انتصار صلاح الدين على الصليبيين في حطين سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٧ م واسترجاعه القدس قد زاد في حماسه ، وأثر في المسلمين موجة مثدقة من الحماس ، فتقاطر الناس على المعسكرات ، واشرببت النفوس إلى النصر ، وفي أواخر المحرم سنة ٥٨٦ هـ / أوائل سنة ١١٩٠ م ، تحرك المنصور من رباط الفتح نحو الأندلس بعد أن أصدر أمره إلى الحشود بمرفائه في أشبيلية ، وأخذت الألوف من المسلمين طريقها إلى الموعد المضروب ، وجدير بالذكر أن أعداد المتطوعة ، أي المسلمين الذين ندبوا أنفسهم للجهاد حسية لله تعالى ، كانت تعدل قوات الجيوش الرسمية أو تزيد قليلاً ، وقد تمكن المنصور من استعادة شلب وعدد آخر من الحصون سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م ، ثم شغلته شواغل أخرى ، وألم به مرض طويل فتعطل إتمام غزوته الكبرى على الأندلس .

وفي أوائل سنة ٥٩١ هـ / ١١٩٤ م ، اكتملت أهبة المنصور لغزوته الكبرى فعبير إلى الأندلس بحشود ضخمة ، وأخذت القوات الأخرى تتوافد إلى أشبيلية .

وعندما عثم الفونسو الثامن ملك قشتالة بذلك ، أسرع فاستنفر كل ملوك إسبانيا النصرانية ، واستصرخ البابوية ، فواقته حشود كبيرة يقودها فرسان ذوو خبرة وتجربة في الحروب ، وتقدمت هذه الحشود فأخذت مكانها في سهل فسيح حول حصن يسمى الارث ALRAK على ضفة الوادي « آة » وإلى الغرب من مدينة « ثيوداد ريال » الحالية ، ودارت رحى المعركة في ٩ شعبان سنة ٥٩١ هـ / ١٨ يوليو سنة ١١٩٥ م وانجلى عن انتصار ساحق للمسلمين ، وأفلت الفونسو الثامن بعدد قليل من فرسانه ولاذ بالفرار نحو طليطلة ، وقد كان لهذه الحركة أثر بعيد يشبه أثر معركة الزلاقة .

وبعد ذلك النصر الذي ثبت حدود الإسلام في الأندلس على خط الوادي « آة » ، أرسل المنصور فرقاً من الجيش استعادت الكثير من حصون غرب « ندلس » ، وتوجه هو نحو طليطلة عاقداً العزم على الاستيلاء عليها ، ولكن الشتاء

كان قد حل ، فلم يزد المنصور على تخريب عدد من الحصون و حرق الزروع وما إلى ذلك . وفي نفس الوقت قام الفونسو التاسع ملك ليون حليف المنصور ، بمهاجمة أراضي قشتالة واجتياحها ، ومن الغريب أن المنصور لم يحاول - في أي غزوة قادمة - الاستيلاء على طليطلة ، ولو أراد لفعل دون مشقة كبيرة ، ولا ندري لماذا أحجم عن ذلك وكان إجحامه سبباً في ضياع ثمرات نصر الأرك العظيم ، فقد أتاح الفرصة للفونسو الثامن ليستجمع قواه ويأخذ بثأره في أيام محمد الناصر ابن أبي يوسف يعقوب المنصور .

وقد عاد المنصور بعد ذلك مرة أخرى إلى الأندلس ، ولكنه لم يقم بأي عمل عسكري كبير ، واكتفى بأعمال التنظيم والإدارة ومحاسبة العمال ورجال المال وما إلى ذلك .

وتوفي المنصور في ٢ ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ / ٢ يناير سنة ١١٩٩ م بعد أن أتم ٢٩ سنة ميلادية وبضعة أيام ، فقد ولد في أواخر ذي الحجة سنة ٥٥٤ هـ / يناير سنة ١١٦٠ م . وهذه الوفاة المبكرة تستوقف نظرنا ، لأن الرجل كن منهكاً خاثر القوى قبل ذلك بأربع سنوات ، أي أنه كان ضعيف البنية مصاباً بأمراض لا نعرفها ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن أباه أبا يعقوب يوسف توفى في السابعة والأربعين من عمره (ولد في سنة ٥٢٣ هـ / ١١٣٩ م وتوفى في ١٠ جمادى الثانية سنة ٥٥٨ هـ / ١٦ مايو سنة ١١٦٣) وتوفى في ١٨ ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ / ٢٩ يولييه سنة ١١٨٤) وأن ابنه أبا محمد عبد الله الناصر توفى في الرابعة والثلاثين من عمره (ولد في أواخر سنة ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م وتوفى في ١٢ ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ / ١٧ يناير سنة ١١٩٩ ، وتوفى في ١٠ شعبان سنة ٦١٠ هـ / ٢٥ ديسمبر سنة ١٢١٢) لكان لنا أن نقرر أن ذلك الخط من البيت الموحدى كان مصاباً بشيء ، إذ ليس من الطبيعي أن يموت رجل وسنه ٤٧ سنة وابنه وسنه ٣٧ سنة وحفيده وسنه ٣٤ سنة .

ولقد خلد أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدى اسمه بكسبه معركة الأرك ، وإذا كنا نأخذ عليه أنه لم يحاول اجتلاء ثمره ، فإننا ينبغي أن نذكر أنه مات في زهرة العمر ، وأنه لو عاش لكان حرياً أن يقوم بأعظم مما قام به في الأرك ، فقد كان شاباً ذكياً قديراً متحمساً قوى الشخصية عارفاً بشئون الملك وسياسة

الدول ، ومن ثم فلا نستطيع الحكم عليه حكماً نهائياً ، لأن الذي لدينا هو نصف حصة فحسب . فإن الخلفاء والسلاطين يبدون العمل في السن التي تولى فيها الشاب الذي غاله الموت وهو في ريعان الشباب وإقبال العمر .

خلافة أبي محمد عبد الله الناصر سنة ٥٩٥ هـ - ٦١٠ هـ / ١١٩٩ - ١٢١٣ م :

خلف أبا يوسف يعقوب المنصور ، ابنه أبو محمد عبد الله الملقب بالناصر ، وكان يوم ارتقى العرش في الثامنة عشرة من عمره (ولد في أواخر سنة ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م) وكان شاباً قليل الذكاء ، وقد تجلت قلة ذكائه في صورة استبداد بالأمر ورفض لقبول النصيحة من رجاله ، وكان أبوه قد نصحه بالآلا يقطع رأياً دون مشاورة أبي حفص محمد بن أبي حفص وكان رجلاً عاقلاً عالى السن بعيد النظر ، ولكن الناصر لم يكن له هم بعد أن ثبت سلطانه إلا مخالفة هذا الشيخ العاقل الحكيم .

بدأ الناصر حكمه بداية طيبة ، فقد رأى أن يفرغ أولاً من ثورة بنى غانية في الجزائر الشرقية وأفريقية ، وكان إسحاق بن علي بن غانية قد تمكن في سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م من الاستيلاء على تونس فزاد أمر الثورة خطورة . بدأ أبو محمد الناصر بتوجيه حملة بحرية كبرى على الجزائر الشرقية للاستيلاء عليها ، فتم له ذلك في ربيع الأول سنة ٦٠٠ هـ / ديسمبر سنة ١٢٠٣ م ، وأقيم عليها عبد الله بن طاع الله الكومي والياً ، وبهذا يكون الموحدون قد قطعوا جذور بنى غانية في الجزائر الشرقية (أبليار وهي ميورقة ومنورقة ويابسة) وبقي عليهم أن يقطعوا فروعهم في أفريقية والمغرب الأوسط ، وبعد ذلك بسنتين ، (في ٢ ربيع الأول سنة ٦٠٢ هـ / ١٧ أكتوبر سنة ١٢٠٥ م) أنزل الموحدون ببني غانية وأجلاهم بقيادة يحيى بن إسحاق الميورقي هزيمة ساحقة في تاجرا قرب قابس ، وأعقب ذلك دخول الموحدين تونس والمهدية والقضاء نهائياً على فتنة بنى غانية .

ميلاد الدولة الحفصية نهاية بنى غانية - الطوارق :

وقد قام أبو محمد عبد الله الناصر بتأمين النتائج التي وصل إليها في أفريقية

بقرار يعتبر أسلم وأحكم قرار اتخذ في حكمه ، اختار لولاية أفريقية أصلح رجال دولته وأكثرهم تجربة ، وهو أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر الهنتاتي . وقد عارض أبو محمد في قبول هذا العرض أول الأمر ، لأنه من أن المراد إبعاده عن مسرح الحوادث - وربما كان هذا هو ما رمى إليه الناصر في حقيقة الأمر - ثم قبل بشرط أن تطلق يده في الولاية إصلاً كاملاً فلا يدخل في شئونها أحد ، وأن يختار من جنود الدولة قوة كافية تؤيده ، وأن يكون تعيينه لمدة ثلاث سنوات فقط فقبل الناصر هذه الشروط .

وقد أثبت أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص كفايته من أول الأمر ، فعندما حاول يحيى بن إسحاق بن غانية الميورقي انتهاز فرصة عسفه الخليفة في المغرب لتجديد غاراته ، أوقع به أبو محمد هزيمة قاصمة عند تيسة في إقليم الزاب في ٢٠ ربيع الأول سنة ٦٠٤ هـ / ٢٤ أكتوبر سنة ١٢٠٧ م ، وتعتبر هذه الواقعة النهاية الحقيقية لنشاط بني غانية في أفريقية . وتعتمد كذا في سياق أبي محمد عبد الواحد في عمله وتثبيت أقدامه في ولايته الجديدة .

واتجه بنو غانية وحلفاؤهم من العرب الهلالية وخاصة من رياح وزغبة وعوف ودياب والزواودة نحو المغرب الأوسط وهاجموا تلمسان ، فأصرع أبو محمد وأنزل بهم هزيمة قاصمة أخرى في جبل نفوسة ، وقد انجلت هذه المعركة عن وقوع معظم أموال بني غانية وأزوادهم ومخزن أسلحتهم في يد الموحدين ، وكان هذا هو السبب الرئيسي في ضياع أمرهم بعد ذلك لأنهم افتقدوا إلى المال والسلاح . وفي هذه الموقعة أيضاً قتل عدد كبير من رؤساء العرب الهلالية ، مما هبط بقدرتهم بعد ذلك على الشغب والغارات والسلب والنهب .

وظل أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص يحكم أفريقية في كفاية وحزم حتى وفاته سنة ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م ، فخلفه ابنه أبو محمد عبد الله بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص حاكماً لأفريقية ، تحت إشراف أمير موحدى هو أبو العلاء إدريس بن أبي يوسف يعقوب المنصور . ولكن السلطة كلها كانت في يد أبي محمد الحفصي . وفي ربيع الثاني سنة ٦٢٣ هـ / أبريل ١٢٢٦ م ، أصبح أبو محمد بن عبد الواحد والي أفريقية منفرداً بولايتها وحده ، وبعد ذلك بعامين سنوات أصدر الخليفة الموحدي أبو العلاء المأمون أمراً بتعيين أبي محمد حاكماً

لأفريقية بصفة دائمة فصار إليها مع أخوته أبو زكريا يحيى وابن عبد الله اللحياني ، فدخلوها في ذي القعدة سنة ٦٢٢ هـ / يولية ١٢٢٦ م . وقام أبو محمد بتوزيع ولايات أفريقية على أهل بيته ، ومن ذلك حين بدأ استقرار بني حفص في حكومة أفريقية بصفة دائمة ، وبمكثنا اعتبار هذا التاريخ بداية لدولة الحفصية في تونس .

وقد حاول يحيى بن غانية بعد ذلك الإغارة على أفريقية فلم يتيسر له الوصول إلى شيء ، وتحول هو ومن معه من شذاذ البندو إلى لصوص ، يغرون على البلاد ثم يغرون إلى الصحراء ، وكانوا يعتصمون أحياناً في تلمسان وأحياناً أخرى في سجلماسة ، وفي سنة ٦٢١ أو سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٤ أو ١٢٢٦ م توفي يحيى بن إسحاق بن غانية في مدينة مليانة على نهر شلف في الجزائر بعد أن أرسل بناته إلى أبي زكريا يحيى الحفصي ، وأوصاه بتعهدهن ، وقد برهن أبو زكريا وأسكنهن في بيت خاص وعرض عليهن أن يزوجهن قرفضن ويقين عاتسات حتى الموت ، وتلك كانت نهاية ذلك البيت من شوار المرابطين الذين قضوا أحياتهم في معارك طاحنة مع الموحدين ، لم يدفع إليهم إلا الحقد والرغبة في الانتقام . وقد أضعفت هذه الحركة قوات الموحدين بما امتصت من دماثهم نحو نصف قرن كامل دون أن تعود على بني غانية بطائل ، وهنا نجد مثلاً من مثات على ما فعل المسلمون بعضهم ببعض بدافع الحقد وقصر النظر ، بينما العدو الأكبر - نصارى إسبانيا - يهددون عرب الأندلس جميعاً بالقضاء .

أما بقايا جند بني غانية فكان معظمهم من قبائل مرابطية مثل مسوفة وجدالة وتارجا ، وكانت تارجا من صفار قبائل المرابطين الصنهاجيين الصحراويين ، ولكن منازلها كانت في قلب الصحراء ، ولهذا كانت ملجأ بني غاسة الأخير ، ونسبت بقياتهم وقتلهم ، التي تأبدت في الفقر من ذلك الحين ، إلى هذه النخبة التي عُرب اسمها إلى طارفة ، والنسبة إليها طارقي والجمع طوارق . وهذا هو أصل الطوارق أصحاب اللثام الأزرق وأولاد الصحراء وساداتهم إلى اليوم ، فهم بقية المرابطين ، هذه العصابة المجيدة من حماة الإسلام .

موقعة العقاب وانهيار الجبهة الإسلامية في الأندلس :

اشتغل الخليفة الموحدي الرابع أبو محمد عبد الله الناصر بأمور أفريقية منذ

بدأ خلافته سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م ولم تعد الجيوش الموحدية الكبيرة تعبر إلى الأندلس ، فتشجع الفونسو الثامن ملك قشتالة وأخذ يغير من جديد على أطراف الأندلس الإسلامي ، وقد بدأ في ذلك بعد انتهاء هدنة كان قد عقدها مع المنصور الموحدى وكانت نهاية الهدنة سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م وأراد الناصر أن يقوم بغزوة تضاهى غزوة أبيه المنصور ، فقرر العبور إلى الأندلس والإيقاع بقوات النصارى ، فجمع حشوداً هائلة وعبر إلى الأندلس في نهاية سنة ٦٠٧ هـ / يونية ١٢١٠ م ، واستقر في أشبيلية ، وهناك أخذت الجموع تتوافد عليه حتى أصبح جيشه يعادل جيش أبيه الذى كسب موقعة الأرك ، ولكن بينما كان أبوه ذكياً حكيماً ، عرف كيف يستفيد من القوات التى كانت معه على خير وجه ، عجز هذا الشاب عن ذلك . النتيجة أن نفر منه الأندلسيون وخاصة بعد أن قتل أكبر قوادهم أبا محمد بن قادن قبيل المعركة ، قتله غدرًا وظلمًا نتيجة لوشاية وصلت إليه .

وكان الفونسو الثامن ملك قشتالة قد عقد العزم على الأخذ بثأر هزيمته في الأرك ، فعقد هدنة مع ملكى نافار وأرجون واستنجد بالبابوية ، وشيئاً فشيئاً توحدت الجبهة المسيحية الإسبانية ، وأتت أعداد كثيرة من بقية أوروبا ، أى أن الناصر الموحدى كان يواجه في الحقيقة حملة صليبية كبرى .

وكانت خطة القتال التى رسمها الناصر لنفسه سبيرة ، فقد قرر أن يسرع بالاستيلاء على خاتق « دسنابروس » ، وهو الباب المؤدى من قشتالة إلى حوض الوادى الكبير . ويسميه العرب « مطرد الكلب » - فإذا تم له الاستيلاء على ذلك المصر جمال دون انصارى ودخول الأندلس بقوات كبيرة وتمكن من القضاء على من يدخل منهم .

وقد بدأت الحملة بداية طيبة فتحرك الناصر بجيش جرار في أوائل سنة ٦٠٨ هـ / أواخر يوليه سنة ١٢١١ م ، ودخل جيان وحصنها ثم تركها إلى خاتق مطرد الكلب ، وعسكر في السهل الواقع أمام مخرج المضيق ، وهو سهل ملء بالتلال الصخرية القليلة الارتفاع ، وتسمى العقاب بكسر العين ، جمع عقبة بفتح العين والقاف وهى في الإسبانية nava وجمعها navas وهى التل أو العقبة ، ولما كان ذلك الموقع قريباً من قرية صغيرة تسمى تولوسا فإن معركة العقاب تسمى في النصوص الإسبانية Las Navas de Tolosa ، وتمكن الناصر من الاستيلاء

سار حصن سليطرة Saivas erra الغريب من اذنة Ubeda وكان معقن لآراء ابن
الداوية ، ثم عاد الناصر إلى أشبيلية ليستكمل استعداداته .

وفي محرم سنة ٦٠٩ هـ / يونية سنة ١٢١٢ م ، سار الناصر بجحافل نحو
مطرد الكلب ، وفي نفس الوقت اتجهت قوات النصرانية كلها نحو هذا الموقع ولم
يسبق أن اجتمعت لحرب المسلمين قوات نصرانية كهذه ، فقد كان فيها ملوك
قشتالة وليون ونافار وأرجون ومعظم كبار فرسان إسبانيا النصرانية وقوات
ألمانية وفرنسية وبرتغالية ، وتمكنت هذه القوات من الاستيلاء على قلعة ، ومع
التي كان يحميها القائد الأندلسي أبو الحجاج يوسف بن قادس ، وعندما وصل
الناصر وبلغه الخبر أمر بقتل ابن قادس ومن معه ، فنفر منه الأندلسيون وقرروا
أن يغدروا به في المعركة .

وبالفعل غدروا به في المعركة الهائلة الفاصلة التي وقعت يوم الاثنين ١٥
صفر سنة ٦٠٩ هـ / ١٧ يولية سنة ١٢١٢ م . وعرفت باسم معركة « العقاب » .
وكانت المعركة قد بدأت بمحاولة نصرانية لزعزعة جماعات المتطوعة
المعسكرة في الجانب الغربي من الميدان ، وفشل النصارى في ذلك فحاولوا التخاذل
من الناحية الشرقية التي كان يعسكر فيها الأندلسيون والعرب ، فهرب
الأندلسيون وتبعهم العرب ، واختارقت القوات النصرانية صفوف الجيش
الموحدى ، فاضطرب نظامه ووصلت بعض الفرق إلى فسطاط الناصر نفسه
وبدأت مذبة كبرى انتهت بشدد ذلك الجيش الموحدى الضخم . ويتجدد تلاشى
كذلك الأمل في تمكن المسلمين من الثبات في الأندلس . وقد هلك في هذه المعركة
ألف من خيرة محاربى المسلمين وعشرات الآلاف من أنجاد البربر . ولهذا تعتبر
هذه الهزيمة النهاية الحقيقية لقوة الإسلام في الأندلس .

وقد توفي الناصر بعد ذلك بشهور قليلة في ١٠ شعبان سنة ٦١٠ هـ / ٥
يناير سنة ١٢١٣ م ، وموته يعتبر أيضاً نهاية عصر القوة للدولة الموحدية .

الدولة الموحدية بعد هزيمة العقاب :

خلف الناصر ابنه أبو يعقوب يوسف بن محمد الناصر الذى تلقب

بالاستنصر ، وقام عليه اقرباؤه في الأندلس والمغرب ، وبدأت الحروب الأهلية والمذابح انتفى بقيام خلفائهم القدامى وهم بنو مريـن الزناتيون بحلول مراكش والقضاء على آخر الموحدين في سنة ٦٦٨هـ / ١٢٢٧م . وكان على رأس بني مريـن ، أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق الذي ينتسب إلى بني مريـن الزناتيين . وفي هذا التاريخ تنهى أسرة الموحدين ويحل محلهم في المغرب الأقصى بنو مريـن .

أما في الأندلس فكانت هزيمة الأرك بدأت بالنهاية . فقد تشجع ملوك النصرى ومضوا يستولون على الحصون الإسلامية دون مقاومة تقريب . ولكن بدء التصفية المحزنة كان سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م عندما قام أبو الغلاء إدريس عامل إشبيلية ، بالتمرد على نفسه خليفة بنموح بن ، منفساً لاس زكوي يحيى بن الناصر الذي يبيع له في مراكش في ذلك الوقت ، وكذلك منافساً لأخيه أبي عبد الله محمد الذي كان والياً على مرسية في شرق الأندلس ، فترك ولايته ومضى إلى مراكش حيث بيعته مشيخة الموحدين وقد لقب « بالعدل » . وقد أخذ أبو الغلاء إدريس الذي تلقب « بالمأمون » كل ما استطاع من القرائ الإسلامية في الأندلس ، وترك البلاد عارية بدون حماية وعبر إلى مراكش ليطلب الخلافة ، فأخذ كبار العواصم تسقط وانهار خط الوادي الكبير وفيما بين سنة ٦٢٢ وسنة ٦٤١هـ / سنة ١٢٢٦ - ١٢٤٣م سقطت قرطبة وإشبيلية وجيان ومرسية وبذنية والحزائر الشرقية (البليار) فكانت تصفية محزنة . وكفى أن نذكر أن قرطبة عاصمة الأندلس الزاهرة سقطت في ٢٢ شوال سنة ٦٣٢هـ / ٢٩ يونيو سنة ١٢٢٦م في يد فرناندو الثالث ملك قشتالة المنع بالقدوس دون أن يدافع عنها أحد .

وبعد سقوط هذه القواعد وضياع خط الوادي الكبير ، تجمعت بقايا المستعمر في الأندلس تحت لواء محمد بن نصر بن الأحمر ، الذي اعتصم في جبال غرناطة واتخذ مقرّاً لمملكة صغيرة بدأ تاريخها في سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٣م . واستطاعت الحفاظ على الركن الجنوبي من الأندلس ، وهو ثمن شبه الجزيرة تقريباً ، حتى سنة ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م عندما سقطت غرناطة في يد فرناندو وإيزابيلا وانتهت

دولة الإسلام في الأندلس (١).

ولا نزاع في أن دولة الموحدين تعتبر من عظيمات الدول في تاريخ الإسلام . لقد بلغت بتاريخ المغرب ذروته خلال العصور الوسطى وتمكنت من تحقيق وحدته وحكمه بالفعل لفترة طويلة من طرابلس إلى المحيط ومن ساحل البحر المتوسط إلى مشارف أفريقية الإدارية ، هذا بالإضافة إلى ملكهم في الأندلس .

وفي هذه المساحة الشاسعة بلغت الحضارة المغربية والأندلسية أوجاً جديداً ، فبلغت العمارة الإسلامية في المغرب ارتفاعاً درجته وصلت إليها في سائر بلادها ، وعبر الرغم من تشدد جمهور الموحدين وبعدهم عن العلوم التي لا تتصل مباشرة بالدين ، يعتبر عصرهم العصر الذهبي للفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس ، فبرز عصر ابن طفيل وابن رشد ومن أعظم الفلاسفة في تاريخ الفكر الإنساني ، وفي ذلك العصر أيضاً ظهر محيي الدين بن عربي أعظم الصوفية والفلاسفة المسلمين .

وترجع قدرة الدولة الموحدية إلى اعتمادها أساساً على فرع ضخم من فروع البربر اشتهر بصلابته وتعاسكه وصحة إيمانه هو فرع المصامدة ، وهم معظم سكان المغرب الأقصى في تلك العصور . وكان المصامدة مجموعاً كبيراً من القبائل التي عمرت المغرب كله من شماله إلى جنوبه ، وتركزت مجموعها الأساسية في جبال الأطلس بفرعها : الأطلسي والصحراوي وما بينهما من هضاب وسهول مثل سهل السوس . في هذه البيئة الطبيعية الغنية المتنوعة عاشت جماعات المصامدة منذ الأزل حرة في جبالها ومراعيا ومزارعها لا يطرق وطنها طارق حتى دخل الإسلام بلادهم على يد عقبة بن نافع أولاً ، ثم على يد موسى بن نصير ورجاله . وقد احتاج المصامدة إلى قرون طويلة ليتمكن الإسلام في قلوب رعاياها وينشأ فيها وعى بكيانها وقوتها وما يمكن أن تقوم به . ولقد خضع الكثير من قبائل مصمودة للمرابطين ، وتعلموا الكثير منهم ، ثم جاء محمد بن تومرت ففتح لهم أبواب القوة بتوحيدهم وقيادتهم في طريق القوة وسمر السياسي والديني .

وكان محمد بن تومرت كما قلنا منظماً من الطراز الأول ، ومهما كانت المآخذ على تفكيره وأسلوبه في العمل السياسي ، فقد كان الرجل مصمماً قديراً وإنساناً

(١) تفاصيل ذلك وردة في القسم الأندلسي من هذا الكتاب .

للمؤسسات التي قامت عليها قوة الحركة الموحدية — أيت عشرة وأيت خمسين والولاية بصفة خاصة — يدل على أن الرجل أدرك ما لم يدركه غيره من منشئي الدول في العصور الإسلامية الماضية ، وهو أن الدول تقوم على مؤسسات لا على أفراد من الرجال ، لأن أفراد الرجال من الممكن أن يقيموا بنياً سياسياً ، ولكن استمرار هذا البناء لا يتم إلا إذا كانت هناك مؤسسات ذات صيغة شرعية وقانونية ، تقوم عليها الدولة وتربط بين السلطة الحاكمة وبعبور الناس وقد ظن معظم مؤسسي الدول الإسلامية أن « الأمر » هي المؤسسة تؤيدها قوة عسكرية من الجند المرتزق ، فلم يكتب لها البقاء طويلاً ، ومع يثبت ان ضعف أن ديب إلى كيبها ، وانتقل سلطان من البيت الحاكم إلى سنده وهي القوة العسكرية . لأنها المؤسسة التي قامت عليها قوة الدولة ، ولكنها كانت دائماً مؤسسة هشة غير متمسكة لأن ضد المرتزق لا يمكن أن يكون مؤسسة شرعية يكتب لها دوام أو تتحقق بها شرعية .

فهم محمد بن تومرت ذلك ، ولذلك فقد بنى المؤسسات الدستورية التي تقوم عليها قوة الحركة وتضمن استمرارها ، وهي مشيخة الموحدين ، وبالفعل عندما مات محمد بن تومرت استمرت المشيخة وأقامت السدولة ، وبفضلها تمكن عبد المؤمن بن علي من إنشاء دولة الخلافة الموحدية .

ومن حسن الحظ أن الذي قاد المشيخة بعد محمد بن تومرت تلميذه وصفيه عبد المؤمن بن علي ، يعاونه رجال ذوو إيمان وصلابة ، تزيدهم قبائل قوية وأظهروهم أبو حفص عمر بننتي . الذي نزع الدولة شخصه وهزل بسب وقبيلته غنتشة أعظم النفع وبفضل المعاون والالتحام بين البيت الحاكم والمشيخة . بين السلطة الحاكمة والمؤسسة الدستورية اشتد ساعد الدولة الموحدية وتمكنت من تحقيق حقيقة تاريخية كانت تبدو مستحيلة . وفي يوم بد المغرب كله ومواصلة عملية إنقاذ ما بقي من الأندلس .

ومن سوء الحظ أن عبد المؤمن قصر الولايات والقيادات على السادة وهم أهل بيته ، والأشباخ وهو بيت أبي حفص عمر . وكان البيت الموحدى فقيراً جداً في الرجال ، قياساً على ابنه أبي يعقوب يوسف وحفيده أبي يوسف يعقوب المنصور ، لا تكاد نجد أبداً موحدياً واحداً ذا قدرة أو كفاية . ومولاء السادة مسئولون عن

ضياح الدولة وخاصة أبناء أبي يوسف يعقوب المنصور : أبي عبد الله محمد المعروف بالعادل ، وأبي الغلاء إدريس المعروف بالمأمون ، وأبي محمد عبد الله المعروف بالناسي ، فهؤلاء الثلاثة زلزلوا كيان البيت الموحدى وذهبوا إلى الغلاء إدريس المأمون ، وهو الروح الشريرة التى عصفت بذلك البيت المجيد وقصمت ظهره وكادت تقضى على الأندلس جملة .

وقد أوجزنا تاريخ الموحدين ، وبقي أن نقول : إن دولتهم تمكنت من مواصلة العمل المجيد الذى بدأه المرابطون من إقامة صرح الحضارة المغربية ، فقد حفل العصر الموحدى بالأدباء والشعراء والمفكرين ولغزء أى المهندسين الذين أقاموا منشآت بدعة مثل مسجد « الكتبية » ومسجد تينمل ومسجد أشبيلية الجامع وحدائقه التى فضل أمرها أبو مروان عبد الملك ابن صاحب الصلاة ، وكذلك جامع حسان وهو مسجد لم يتم ، وبقيت صومعته أى منبذته المسماة اليوم بصومعة حسان - علماً باقياً على دولة مجيدة وحضارة زاهرة ، ورمزاً كذلك على أن تلك الدولة تدهورت قبل الأوان ، وأن تلك الحضارة الزاهرة لم تترزق من العمر ما يمكن لها من الوصول إلى غاياتها ، فإن ضعف الموحدين شجع بنى مرين وبنى وطلح وبنى زيان الزناتيين ، على العمل على إزالة ملكهم والحلول محلهم ، وتمكنت هذه الجماعات القبلية الزناتية من ذلك ، وعادت بالمغرب إلى عصور سيادة زناتة ، وهى عصور اتصفت بالفوضى والاضطراب والحروب الأهلية وانحراف مسيرة الحضارة عن طريقها السوى .

القسم
الثاني

الأنفـدلس

مدخل بيليوغرافى لتاريخ الأندلس

كما فعلنا في دراستنا للجزء المغربى من هذا الكتاب ، عندما قدمنا له بمقدمة بيليوغرافية ، تعرفنا لمورد تاريخية التى تعتمد عليها في كتابة تاريخه . فكذا لن نبدأ تاريخ الأندلس بمقدمة بيليوغرافية وصفية ، نعرف فيها بموارده ما بين أصول ومراجع .

فيم يتصل بتاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية في عصورها الإسلامية . لدينا روايتان أساسيتان: الرواية العربية ، والرواية غير العربية ما بين لاتينية وإسبانية وبرتغالية . ولا عنى لمؤرخ الأندلس عن الرجوع إلى الرواية غير العربية مختلف لغاه ، وخاصة ما كتب عنها في شبه جزيرة إيبيرية باللاتينية أو الإسبانية أو البرتغالية . لأن تاريخ الأندلس كما ذكرنا آنفاً إنما هو تاريخ صراع بين الإسلام والنصرانية على مصير شبه الجزيرة . والكثيرون حساً من العرب الذين شككوا تاريخ الأندلس يقتصرون على الروايات العربية على اعتبار أن الأندلس كان قطراً إسلامياً عربياً ، مثله في ذلك مثل مصر والشام والعراق مثلاً ، ومن هنا فإن أهمية الرواية غير العربية أهمية ثانوية . ولكننا رأينا فيما رويتنا من تاريخ الأندلس أن الأمر على خلاف ذلك ، فإن العرب عندما دخلوا شبه الجزيرة ، دفعوا بمن بقي من ساداتها القدماء ، وهم القوط ومن انضم إليهم ممن اختار مقاومة الإسلام ، إلى أقاصى الشمال وحصروهم عند سفوح جبال البرت من ناحية ، وخلف جبال الكنتبرية من ناحية أخرى فيما يعرف « بأشتريس وحليقية » . وفي هذه الأراضى لقليلة إيبيلية الوعرة انحصر أولئك الصغار وعاشوا آمدين خاصة بعد أن أخرجوا من أشتريس الحامية العربية التى كان موسى بن نصير قد خلفها قريباً من الموضع الذى وقعت فيه موقعة « كوفادونجا » عند جبل شيبية ، وهى الصيغة العربية لاسمه بالإسبانية Auseba .

وسنرى أن المسلمين - بسبب قتلهم عدداً أول الأمر ، ثم بسبب الحروب التى نشبت بينهم وبعضهم البعض خلال عصر الخلافة ، وما كان بينهم وبين البربر من

فراع طوليل ، وما أعقب ذلك من مجاعة شملت «الأندلس» بعد ثلاثين سنة تقريباً من الفتح أي حوالي سنة ١٢٢ هـ / ٧٤٠ م — تركوا «الربع الشمالي الغربي» لشبه الجزيرة خالياً من سكانه المسلمين ، فأصبح منطقة فراع لا يعمرها أحد ، بدءاً من منتصف المسافة بين نهري «الدوبرو والمنيو» حتى ساحل بسكاي ، فكانت تلك فرصة لنصارى الإسباني المنحصرين في الشمال لكي يمتدوا إلى الجنوب ويعمروا هذه «مواحي» وخاصة ما كان فيها من مدن ومراكز عسكرية ورومانية قديمة من أمثال «ليون وأمايه وأشرقة وسهاجون» وما إليها ، وفي عصر الملك ألفونسو الثالث نقلوا عاصمتهم إلى ليون وسيطروا تماماً على حوض المنيو ، وامتدوا إلى حوض منديق بل وصلوا إلى حوض الدوبرو أي أن مملكتهم التي أصبحت تسمى مملكة أشتريس وليون ، أصبحت دولة قوية ذات أراضٍ واسعة وموارد وفرة ومدن عامرة ونظم سياسية قائمة .

هذا عن الجانب الغربي من شمال شبه الجزيرة ، أما الجانب الشرقي ويشمل حوض نهر الإيرو ، وما يليه من الأراضي شمالاً حتى «لاردة ووشقة وتطيلة» ، أي ذلك القسم من الأندلس الذي عرف باسم «الشفر الأعين» ، فإن سلطان العرب قد وقف عند سفوح جبال ألبرت المعروفة بالبرانس ، وانحصرت قوات صيرانية في إمارات صغيرة قامت في جبال ألبرت ، وجزء من السهول جنوبها ، وأعمها في الغرب إلى الشرق نبرة وعاصمتها «بلبونة» ثم ثلاث كونتينات جبلية صغيرة هي من الغرب إلى الشرق «أرغون وشيرب وريباجورثا» ، وتلك هي الكونتينات الثلاثة التي ستتألف منها فيما بعد مملكة أرغون ، أما في أقصى الشرق أي في المنطقة الواقعة شمال مصب نهر إيرو والتي تمتد عبر السهل الساحلي المؤدي إلى غالة وهي فرنسا ، وتشتهر حتى مصب نهر الرون فقد كانت تسمى «سبتمانبة» وقد ملكها العرب أول الأمر ثم تركوها بعد انهزامهم في موقعة بلاط الشهداء ١١٤ هـ / ٧٣٢ م وتمكنت مملكة الفرنجة من احتلالها في نفس الوقت الذي قامت فيه الإمارة الأموية الأندلسية ، وأنشأت فيه ما عرف بالشفر الإسباني وتحول فيما بعد إلى كونتية قطلونية ، ولم يحور المسلمون إلا في مناسبات قليلة استعادة قطلونية ، فظلت أرضاً صيرانية فرنحية أولاً ثم إسبانية بعد ذلك ، وقد انضمت قطلونية هذه في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي ونشأت عن ذلك مملكة

أرغون الكبيرة ، التي تضاعف حجمها بعد استيلاء ملوكها على الثغر الأعلى الأندلسي وقاعدته سرقسطة سنة ٥١٢هـ / ١١١٨ م على يد الفونسو الأول المعروف بالحارب . وقد بلغت هذه المملكة أوجها في عهد ملكها « خايمه » الأول المعروف بالكبير الذي تمكن من الاستيلاء على شرق الأندلس حتى بلنسية وضم إلى بلاده الجزائر الشرقية المعروفة بـ « بيزير » فاصبحت ملك أرغون بذلك مملكة واسعة ثرية ، تنافس في سيادة شبه الجزيرة مملكة قشتالة وليون التي توسعت على حساب المسلمين وأصبحت أقوى دول الجزيرة بعد استيلاء ملكها الفونسو السادس على طليطلة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥ م .

وعندما اتخذت مملكة قشتالة وليون مع مملكة أرغون بزواج « إيزابلا » ملكة قشتالة وليون « فيليب الثاني » ملك أرغون ، أصبحت الممالك النصرانية هي القوة الرئيسية في شبه الجزيرة ، خاصة إذا ذكرنا قيام مملكة البرتغال في غرب شبه الجزيرة جنوب نهر الدوبرو .

ومعنى ذلك أن تاريخ شبه الجزيرة في العصور الإسلامية لا يقتصر على دول المسلمين بل يشمل دول المسلمين والنصارى معا ، ولا يكتس هذا التاريخ إلا إذا درس المؤرخ الجانبين معا بنفس العناية والاهتمام ، لأن تاريخ شبه الجزيرة أيام الإسلام كان صراعاً متصلاً على المصير ، والاقتضار على دراسة الجانب العربي لا يعطى إلا نصف الصورة فقط . وإذا كتب ندرس عُيُود الرحمن الثلاثة : الداخل والأوسط والناصر لدين الله ، ونقف على عيُنهم بتاريخ الحكم المستنصر وعصره الزاهر والمنصور محمد بن أبي عامر وما بلغه الأندلس أيامه من قوة لا يكاد يقف في حوزها أحد . فمننا ينبغي أيضاً أن نذكر أنه كان في الساحة الأخرى كتاب ملوك عظم لهم أكبر الأثر في تشكيل صورة الجزيرة ، من انتهت قصة الأندلس بـ « معركة التي صاغوها فيها » من أمثال الفونسو الأول والثاني والثالث ملوك ليون ، وسانشو الكبير ملك نبرة والفونسو الأول ، لحارب ملك أرغون ، والفونسو السادس ملك قشتالة وليون . والفونسو الثاني ملك قشتالة وليون أيضاً وحامية الكبير ملك أرغون ، « والفونسو - أنريكي » ملك البرتغال .

لهذا يتعين على دارس الأندلس لكي تكون دراسته صحيحة وعلى أساس ، أن يدرس إسبانيا النصرانية كما يدرس إسبانيا الإسلامية ، حتى يخرج في النهاية

بصورة معقولة تفسر السبب فيما نسميه عادة بضيق الأندلس وهذه الصلة
سلبية خاطئة لأن بلاد شبه الجزيرة إذا كانت قد ضاعت من المسلمين فقد
كسبها آخرون وما نسميه نحن ضياعاً إنما هو كسبٌ بالنسبة لهم . وميزان
الحكم في النهاية هو قاعدة الحياة على وجه الأرض ، وهي أنها صراعٌ بين البشر
والغلبة للأقوى والأصلح والقادر على الصمود ومواصلة الكفاح .

لهذا قلنا إن موارد تاريخ الأندلس تتكون من روايتين ، الرواية العربية أي
الأصول والمراجع المكتوبة بالعربية ، والرواية غير العربية أي المؤلفات
والمسودات ولوثائق وما يجرى مجراها المكتوب بغير العربية .

الرواية العربية :

كتب العرب في الأندلس وعن الأندلس كثيراً جداً ولكن الجانب الأكبر مما كتب
الأندلسيون عن أنفسهم ضاع في غمرة الصراع الطويل بين المسلمين والنصارى
على مصير شبه الجزيرة ، فجزء منه فقد كما يفقد الكثير من الكتب لقلية نسخها ،
وبعضها حملته المهاجرون الأندلسيون إلى مهاجرهم فتبدد معظمه وبقي أقله ،
وجزء آخر قضى عليه الإسبان والبرتغاليون بالإحراق والتدمير .

ولا غرابة والحالة هذه ن أننا لا نملك شيئاً كسلاً من مصولات تاريخ الأندلس
وقد ألف الأندلسيون في تاريخ بلادهم مطولات كثيرة فلم يبق منها إلا أطراف
نعثر عليها قطعاً في المكتبات أو تعريق في كتب الممت في عصور متأخرة في الشرق
ورغم ذلك فإن ما لدينا من أصول التاريخ الأندلسي كثير وافر والحمد لله ،
ولقد قال « غرسيه قومس » في كتابه الصغير المسمى « الشعر الأندلسي » وقد
ترجمته بالعربية إننا لا نملك من دونوين شعر الأندلسي إلا عدد قليل جداً
وبقية ما لدينا من ذلك شعر إنما هي نثر كالنثر الذي يتبقى من معظم أدب من
العصور ومع ذلك فعلى أساس هذا النثر نستطيع أن نكتب تاريخ شعر الأندلسي
لأنه كان من الوفرة بحيث أن نقلنا ما تبقى منه يمكننا من كتابة تاريخه وحسب
وكامل تقريباً للشعر الأندلسي .

وأهم أصول التاريخ الأندلسي هو ما بقى لنا من كتابات أحمد بن

محمد بن رزيق بن التريخ وجغرافيه في الأندلس ، وقد أشرف إليها جلال كلاً من
ببليوغرافية المغرب ، ومن ثم فلن نتحدث عنها هنا .

ومن حسن الحظ أن عميد مؤرخي الأندلس بعد محمد بن محمد الرازي وابنه
عيسى بن أحمد ، وابن حيان ، وهو أبو مروان حيان بن خلف بن صعب بن حيان
ابن محمد بن حيان صاحب المقتبس ، المولود في قرطبة سنة ٣٧٧هـ / ٩٨٧م
والمات فيها سنة ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م وقد وفاه حقه من لدراسة الدكتور محمود
على مكي في المقدمة الإضافية التي كتبها للجزء الذي نشره من مقتبس ابن حيان
ويتناول أواخر عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط وعصر ابنه الأمير محمد ونشره في
بيروت مع تعليقات وافية سنة ١٩٧٢ .

وقد نشر جزءاً من مقتبس ابن حيان ، « الأب ملشور أنقونيا » في باريس سنة
١٩٣٧ ويتناول عصر الأمير عبد الله .

ثم نشر الدكتور عبد الرحمن على الحجبي في بيروت سنة ١٩٦٥م جزءاً آخر
من مقتبس ابن حيان يتناول خمس سنوات من عصر الحكم المستنصر .

وأخيراً نشر مستشرق إسباني هو الدكتور « بدرو شالميتا ستيرون »
بالاشتراك مع الدكتور محمود صبح جزءاً كبيراً من المقتبس يتناول نحو عشرين
سنة من تاريخ عبد الرحمن الناصر لدين الله . وبهذا يكون بين أيدينا جانب
لا بأس به من تاريخ ابن حيان للأندلس الذي يعتبر أحسن ما بقي لنا مما كتب في
ذلك التاريخ ، لأن ابن حيان استقصى في كتابه هذا ، المقتبس ، ما كتبه مؤرخون
كبار سابقون عليه من أمثال أحمد بن محمد الرازي وعيسى بن أحمد الرازي
ومعاوية بن هشام الشبانسي صاحب كتاب « تاريخ بني أمية في الأندلس »
وأبي بكر بن عباد بن ماء السقاء الذي ألف كتاب « تاريخ شعراء الأندلس » وأبو
الوليد أنقرضى وكار بن كتب كثير في تاريخ الأندلس ، وسكن بن إبراهيم الكاتب
وأبي عمر يوسف بن عبد البر وغيرهم .

ولابن حيان كتاب آخر يعتبر إلى الآن في حكم المفقود وهو كتاب « المختار » ،
وهو كتاب ألفه ابن حيان في تاريخ عصره مطوّلاً وامتدّ بالتفاصيل . وقد بدأه قبل
كتابته المقتبس ثم قطعه عندما قامت البعثة ثم أتمه بعد ذلك . ويؤن فيه تراجم أهل
عصره وأهم ما وقع فيه من أحداث ، وعصره هو عصر الطوائف أي القرن الخامس
الهجري / الحادي عشر الميلادي .

وكما احتفظ لنا ابن حيان في المقابس ، بالكثير من قطع تاريخ الازلي وغيره
معن سبقه إلى كتابة تاريخ الأندلس ، كذلك احتفظ لنا مؤرخ أندلسي آخر
هو « ابن بسام أبو الحسن علي الشنتريني » المتوفى في قرطبة سنة ٥٤٢هـ /
١١٤٧م . بقطع كبيرة من كتاب المتن لابن حيان ، التي تتناول تفراً كثيراً من كبار
الشخصيات الأندلسية في عصر الطوائف . وكتاب « الذخيرة في محاسن أهل
الجزيرة » لابن بسام كتاب في تاريخ الأدب الأندلسي في عصر ابن بسام . وقد
قسمه إلى ثلاثة أقسام : أدباء الموسطلة أي وسط الأندلس ما بين شعراء وناثرين ،
وأدباء غرب الأندلس ، وأدباء شرق الأندلس . وقد عثرنا على الكتاب كاملاً ونشرت
منه أجزاء تتناول الموسطلة والغرب وبقي منه جزء الشرق ، وتراجمه وتراجم
ابن بسام وأغنية مطولة ، تلقى ضوءاً على أحوال الأندلس في عصره وقد استوعب في
كلامه جانباً كبيراً مما كتبه ابن حيان في « المتن » الذي ضاع .

ومن أصول تاريخ الأندلس التي لا يستغنى إنسان عن قراءتها ، كتابان
صغيران ولكنهما على أكبر جانب من الأهمية الأولى هو كتاب « الأخبار المجموعة »
لمؤلف مجهول وقد نشره مع مقدمة ضافية المستشرق الإسباني « لافونتي
الكتنارا » في مدريد سنة ١٨٦٧م ودرسه دراسة مستفيضة « خوليان ريبيرا » وهو
من أعظم المستشرقين الإسبان أو شيخ مدرسة المستشرقين الإسبان كما يسمى ،
وخرج منه بأن ذلك الكتاب من تأليف عدد من الأندلسيين من أبناء البوت الكبيرة
المواهب بلبيت الأموي ، تناوبوا على كتابته وسجلوا لنا أحداثاً مهمة في صدره ،
على أكبر جانب من الأهمية . ثم درس هذا الكتاب مستشرق إسباني آخر هو
سانشيت البورونوث « Sanchez Albornoz » وألف فيه كتاباً صحيحاً فيه هو الذي
كثيره وإن كان فيه ذلك لغو كثير لأن الرجل لم يكن يحسن العربية . رغم أن
يعتبر من أكابر مؤرخي إسبانيا ، وقد اقتحم ميدان الدراسات الأندلسية اقتحاماً .

والأصل الثاني هو كتاب « تاريخ افتتاح الأندلس » لأبي بكر محمد بن
القوطية ، المتوفى سنة ٣٦٧هـ / ٩٧٧م ، وهو كتاب عظيم القيمة لأن مؤلفه
من حفدة « سارة » القوطية حفيدة غيطشة الذي غضبه لنزريق عرش الأندلس
وكان أبناؤه من أعوان المسلمين في فتح تلك البلاد ، وقد قصت « سارة » الذخيرة
الأموي سليمان بن عبد الملك في دمشق لشكر إياه ظلامه أصابتها فأكرهها

ورؤيها أحد مواليه ، وأبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف
«ببن القوطية» الذي نتحدث عنه ، هو أحد أحفاد ذلك الخوي .

كان ابن القوطية عالماً بالتحقيق حافظاً للغة متقدماً فيها على أهل عصره
كما يقول ابن الفرضي ، وكان شاعراً سلس القريض ، وهو تلميذ أبي عمر بن
لحمه لفقهاء الأندلس الكبير ، ولكتاب لا يقصر على تاريخ افتتاح الأندلس وإنما
هو مجموعة من الأخبار عن أمراء الأندلس وخلفائه ، مروية في نسق متصل
متناسق ، والنسخة التي بقوت لنا هي سبع من أحد تلاميذه ، ومادة هذا الكتاب
أصلية يوثق فيها لأن ابن القوطية مثله في رتب مثل معظم أهل الفكر في الأندلس
كان من المتحمسين لبنى أمية الأندلسيين ، شديد الصلة بهم ورجال دولتهم ،
ولهذا فإن الأخبار التي يوردها على حانب كبير من الأهلية . وقد نشر ذلك الكتاب
«سكوال دي جييا ميجوس» : Pascual de Gayangos وترجمته إلى الإسبانية ترجمة
بليغة تعتبر قطعة أدبية «خوليان ريبيرا» Julian Ribera الذي قسنا إليه شيخ
مدرسة المستشرقين الإسبان .

وتلا هذه الأصول ذات القيمة التاريخية العظيمة ، كتب ألفت في عصور
متأخرة ، حفظت لنا الكثير مما ضاع من أصول لتاريخ الأندلس وأهمها

«فتح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن
الخطيب» ، ومؤلفه أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني المقرئ المتوفى في
القاهرة في جمادى الآخرة سنة ٤١٠هـ / ١٦٢٢م . وقد نشر هذا الكتاب أكثر من
مرة ، فنشر في مطبعة بولاق ، ثم نشر القسم الأول منه في مجدين كبيرين نقر من
المستشرقين في هولندا على رأسهم المستشرق المشهور «رين هارت بوزي» ، ثم
أعاد نشره كاملاً «محيسى الدين عبد الحميد» في القاهرة سنة ١٩٥٠م وما بعدها
بدون فهرس في ثمانية مجلدات ، ثم نشره أخيراً نشرة كاملة بفهارس الدكتور
«إحسان عباس» في بيروت سنة ١٩٦٨م في ثمانية مجلدات بما في ذلك جزء
الفهارس .

هذا الكتاب فريد في سببه لأن قصد مؤلفه في أول الأمر كان الترجمة لسان
الدين ابن الخطيب الوزير الغرناطي المعروف ، الذي ستتحدث عنه فيما بعد
ولكن المقرئ التلمساني الذي وفد على الشرق في تلمسان في عصر كثر الحديث فيه

عن الأندلس ومحتتها ، رأى أن يقدم لتاريخ ابن الخطيب بمقدمة وافية عن الأندلس . بلغت أكثر من نصف الكتاب . وهي وحده تقع في أربعة مجلدات كتاب . وقد ألف الرجل هذا الكتاب على طريقة الجمع والنصب وتلخيص المقدمات . ومعظمه يقول تراوح بين فقرات قصيرة إلى كتب كدالة . ومن قسم له من القسم الأول من كتابه الذي يتناول تاريخ الأندلس في فصول طوال الأول في صفة جزيرة الأندلس . وهو وصف أدبي تاريخي يحتل فيه الشعر ما ينشر . ولكنه يصمم هذه خفرية ذات قيمة كبرى . والفصل الثاني يتناول فتاح الأندلس بتطويل وجمع حافل بالفوائد ، ثم يخصص فصلاً لما جازت به قرايج الأندلسيين من يدعي شعر وانثر . ثم يفرده فصلاً لقروطيه ومحاسنها . وفصلين الأول منهما من وفد على الأندلس من الشرق والغرب من أهل الأندلس إلى الشرق ، والتراحم هنا مستفصلاً ممتعة . وفي أثناء ذلك يقصد الرجل حاساً تاريخ من تاريخ الأندلس السياسي والأدبي ثم يختم هذه مقدمة الطويلة بفصل عن ضياع الأندلس يذكر فيه الأحداث « السيف » التي انتهت بمروج ذات القطر من عدم الإسلام .

أما الجزء الخاص بابن الخطيب فيقع في ثلاثة أجزاء ، ويتناول تاريخ ذلك الوزير الأديب أشاعر المؤرخ بتفصيل كبير ، ويتحدث عن عصره ومعاصريه وشيوخه وتلاميذه ، ويورد نماذج كثيرة من كلام ابن الخطيب ومعاصريه

والكتاب على هذا النحو خليط لا يستريح الإنسان إليه أحياناً ، لأن الرجل يجري فيه على طريقه الاستطراد ، فقد يكون في سبوق ترجعة رجل ثم سر ذكر رجل آخر فيترحم به بعد أن يقلع الترجعة الأولى . ثم يعود إندها بعد نحو عشرين صفحة أحياناً . ولكن الذي يستوقف النظر أن الكتاب طريف جداً . فمن هذا الاستطراد ينقل الإنسان من حبو إلى جؤ . ومن موضوع إلى موضوع . وينتهي القارئ في النهاية بصورة واضحة جداً عن الأندلس . تكونت من مقتضب وضعت خطياً بليلاً بعض الأحيان ولكنها تغطي في النهاية صورة متكاملة عن الطريقة الفنية المعروفة باسم « الجشتانت » أي الصورة العامة .

ويشبه هذا الكتاب من كتب المقرئ كتاب « أزهار الرياض في أخبار عياض »

وهو القاضي « عياض بن موسى اليحصبي » المغربي الأندلسي الذي نذكر له كتاب « الشفا بالتعريف بحقوق المصطفى » .

ويقع هذا الكتاب في ثلاثة مجلدات ، وقد نشر في القاهرة بتحقيق « مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي » (١٩٣٩ - ١٩٤٢ م) وفي هذا الكتاب أيضا لدى داره المقرئ عن القاضي عياض يقع نفس المصنف ، الأندلس والاستحراق والجمع والتوفيق ، ولكنه يعتبر كذلك من الوثائق لدينا عن الماضي وعصوره المتأخرة ، لأن المقرئ عندما ذكر تلاميذ عياض استرسل حتى وصل إلى قرب دولة الأندلس وما رده هذا الكتاب مثبها من مادة مع أطيب موسوعة ، لأن المقرئ كان صدوقاً قوياً الذاكرة يعتمد على أصول حملها معه وإن كان هو نفسه يزعم أنه كتب كل ذلك من ذاكرته .

ومن المراجع الأساسية التي تعتمد عليها في كتابة تاريخ الأندلس كتاب « البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب » ، لابن عذاري المراكشي المتوفى بعد سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م ، وقد تحدثنا عنه في كلامنا عن مرجع تاريخ المغرب ، ونضيف هنا أن ابن عذاري خصص للأندلس معظم كتابه الذي يتكون كما ذكرنا من خمسة مجلدات : الأول عن تاريخ المغرب إلى آخر أيام دولة بني زيري الصنهاجيين ، مع قصص معترضة ذات أهمية كبرى عن فترات من تاريخ المغرب ويروح ثم يحيد بنحلي ذلك التاريخ ، والجزء الثاني يدور على تاريخ تونس ، والثالث المنصور محمد بن أبي عامر ، والجزء الثالث يتحدث عن عصر بطواغف ، والجزء الرابع عن ملوك بني ملوك ، يجمع المغرب عليه من تاريخ مراكش وجزيرة تافنة سقط منه نحو خمسين سنة من تاريخ هذه الدولة تتعلق بمعظم أيام يوسف بن تاشفين ، والجزء الخامس يتناول تاريخ الموحدين ، ومعنى ذلك أن معظم هذا الكتاب يدور على تاريخ الأندلس ، ومن هنا كانت أهميته بالنسبة لنا ، ويصير الكتاب كما ذكرنا من ناحية نقل قسماً كبيراً من مؤلفات صاحب هذا الكتاب الآن ، وإذا ذكر شيئاً من عنده فإننا نجده اختصاراً من مؤلفات ذات قيمة أصيلة ، والكتاب على هذا في جملة ما يعتبر من الأصول ، وإن كان قد ألف في زمن متأخر ولا يستعمل عنه أي دور في التاريخ الأندلسي ، وإن كان قد صنفه كاتب للجزء الخامس الخاص بالموحدين ، وفهارس ضافية لذلك الكتاب .

ثم تلا ذلك في الأهمية المكتبة الأندلسية ويراد بها مجموعة من كتب التراجيح التي ألفها علماء من أهل الأندلس عن علماء بلادهم . وهذه المجموعة مترابطة فيما بينها وتتكامل على مثال ما تتكامل كتب الوفيات في المشرق ، فمن المعروف عندنا أن هناك سلسلة من كتب الوفيات ألُفَت في المشرق . تتناول التراجيح من أول عصور الإسلام إلى العصر المملوكي . فهناك « وفيات الأعيان لابن خلكان » ثم يكمله « فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي » ثم يوصله ويستترك فواته كتاب « الوافي بوفيات لابن أبيك انصافى » . ثم يحتتم السلسلة بكتاب « المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي لأبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى » .

كذلك في الأندلس نجد سلسلة من كتب التراجيح ألفها علماء أندلسيون نجداً يكمل بعضها بعضاً ويسد بعضها فوات بعض ، وقد بدأ ينشر هذه السلسلة استشرقون الأسباب الأوائل من أمثال « فرنسيسكو كوديرا » و « خوليان ريجيرا » ومن في طيقتهما ، وهذه الكتب هي

— « تاريخ علماء الأندلس » للحافظ أبى الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدى بن الفرضى (٣٥١ — ٤٠٣ هـ / ٩٦٢ — ١٠١٣ م) وقد حققه فرنسيس كوديرا ونشره في مدريد سنة ١٨٨٦ وأعيد تحقيقه وطبعه في القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

ويمتاز أبى الوليد بن الفرضى بأنه من العلماء الأثبات ، فقد كان مؤرخاً رفيعاً وشيخاً جليلاً صدوقاً ومن ثم فنحن نشق في كلامه . ولم يبق له من مؤلفاته الكثيرة في التاريخ إلا كتب الكتاب القيم ، الذي يتناول تاريخ علماء الأندلس من أول الفتح إلى سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م .

— « بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس » لأحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبى المتوفى في مرسية في ٢٥ ربيع الآخر ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م . وهو يواصل تراجم بن الفرضى ويهتم اهتماماً خاصاً بأهل العلم والأدب . وقد اشتمل هذا الرجل في تراجمه على كتاب « جذوة المقتبس للحميدى » الذي سنتحدث عنه بعد قليل .

— « جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس » للإمام الحافظ أبى عبد الله محمد

ابن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي الحميدي وهو من أهل ميورقة . وقد توفي في بغداد سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م وقد نشر ذلك الكتاب بعناية محمد بن تاريت الطنجي في القاهرة سنة ١٩٦٦ م وكان الحميدي تلميذاً لابن حزم ، وقد ألف كتابه هذا في المشرق ولهذا نلاحظ أن تراجمه تشربها بعض الأخطاء ، لأنه كتب بعيداً عن وطنه ومراجعته ، ولكن الكتاب في مجموعه عظيم القيمة ، وقد اعتمد عليه الضبي اعتماداً كاملاً حتى إننا نجد تراجم هذا الأخير نقلاً حرفياً عن جذوة الحميدي

— كتاب « الصلة » لأبي القاسم خلف عبد الملك بن سعود بن بشكوال الأنصاري (٤٩٤ - ٥٧٨ هـ / ١١٠١ - ١١٨٣ م) وابن بشكوال من أعظم علماء الأندلس وكان شيخ عصره جليلاً وصدوقاً ورواية . وكتب به مثلاً ركة في الترتيب إلى جانب الفقه ، وكتابه هذا الذي يعتبر صلة ، أي إكمالاً لتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ، لا يقل أصالةً أو صدقاً عن تراجم ابن الفرضي ، بل إن تراجمه تعتاز بأنها أطول وأكثر تفصيلاً ، وقد نشر هذا الكتاب في مدريد أولاً ثم أعيد نشره في القاهرة سنة ١٩٦٦ م على تحقيق مدريد .

— « صلة الصلة » لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير (٦٢٨ - ٧٠٨ هـ / ١٢٢١ - ١٣٠٨ م) وهذا الكتاب يواصل ترجم ابن بشكوال ويكمل قوائده وقد نشره ليبي بروفنسال في الرباط سنة ١٩٣٧ م

— « التكملة لكتاب الصلة » لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار (٥٩٥ - ٦٥٨ هـ / ١١٩٩ - ١٢٦٠ م) .

وقد كان ابن الأبار من أعلم أهل الأندلس في عصره وأكثرهم حفظاً وتدقيقاً واصدقهم رواية ، وقد كتب كتابه هذا التكملة ، ليكمل تراجم ابن الزبير في كتاب الصلة ولكنه زاد عليه واستوسع بحيث أصبح كتاب التكملة من أوسع كتب التراجم الأندلسية التي لدينا - وقد نشر منه جزءان في مدريد ضمن المكتبة الأندلسية سنة ١٨٨٧ م ثم عثر « الأركون » المستشرق الإسباني على قطعة أخرى منه نشرت ضمن مجلد يضم أصولاً عربية أندلسية مختلفة ، تحت عنوان Mice- lenea في مدريد ، ويعد ذلك عثر « محمد بن أبي شذير » « العلامة الجزائري عن قطعة كبيرة في أول الكتاب تضم فاتحته وحرف الألف والباء ونشرها في الجزائر .

ولا بد من جمع هذا الكتاب كاملاً ، ونشره في نسقٍ واحدٍ ، لأن تراجمه تعتاز

بما تعتمد به مؤلفات ابن الأبار من علم واسع وحفظ دقيق وتنبؤ يستوقف مندرج
إلى حقائق الأمور .

- « الذيل والتكملة بكتابي الموصول والصلة » لأبى عبد الله محمد بن محمد
ابن عبد الملك الأنصارى الأزدي المراكشى المشهور باسم عبد الملك المراكشى
(٦٢٤ - ٧٠٢ هـ / ١٢٢٦ - ١٣٠٤ م) ويعتبر هذا الكتاب أوسع كتب التراجم
الاندلسية والمغربية ، فهذا الرجز ألف كتاباً واسعاً في التراجم تقع نسخته
المطبوعة في خمسة مجلدات (ولم تتم بعد) وقد قام على تحقيقها الدكتوران محمد
ابن شريفة وإحسان عباس ، وبدأ صدور المجلدات في بيروت سنة ١٩٦٤ م .
والميزة الكبرى لهذا الكتاب أن معظم تراجمه تتعلق برجال من أهل عصره ، أى
القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ، وهو من العصور الفاضلة في
تاريخ الاندلس ، وتراجمه مطوذة وتعد لها إشارات ، ات عمدة جنسها كبرية
وقد بلغ من حرص الرجل على التطويل وإيراد كل ما عنده ، إنه في أحيان كثيرة
يورد بصوص كتب كريمة وإن كانت صغيرة . ولكن ويحق للمرء أن يعترض
أهل العلم في الاندلس في القرن السابع الهجرى الذى تجرت فيه علامات عتبات
الاندلس وضياعه ، وفي هذا العصر أيضاً قامت مملكة غرناطة . ومما يستوقف
المتأمل أن أولئك العلماء الذين يترجم لهم كانوا ماضين في دراساتهم ورواياتهم
منفصلين تقريباً عن الحياة السياسية في الاندلس ، ومن يقرأهم لا يكاد يحس
بالمأساة الدائرة حولهم .

- ويكمل هذه المجموعة من كتب التراجم كتاب « الحلة السيرة » لابن الأبار
الذى ذكرناه ، وقد نشر في القاهرة في جزعين سنة ١٩٦٣ م بتحقيق كاتب هذه
السطور ، وقد جمع فيه ابن الأبار تراجم الخلفاء والأمراء والرؤساء الذين أثر
عنهم شعر برزلى . وقد ألف تكملة لكتاب ركب المعصى بعد هجرته إلى تونس .
وتراجمه طوية مستنيضة وأسلوبه جزل متدفق والرجل حاض وعلم وقد تنبه
إلى أهمية ذلك الكتاب الذى يضم حشداً كبيراً من تراجم الرؤساء في المغرب
والاندلس ، المستشرق راين هارت دوزى . ونشر تراجمه الاندلسية في كتاب
مشهور بين أيدي دارسى الاندلس ، ثم نشر جزءاً كبيراً من تراجمه المغربية
المستشرق « هاركوس هار » ، ثم نشر النشرة الكاملة التى ذكرناها آنفاً .

ونختم الكلام عن أصول التاريخ الأندلسي بوقفه عند آخر الكبار من مؤرخي الأندلس وهو « لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني بن الخطيب » (رجب ٧١٣ - ٧٧٦ هـ / ١٣١٢ - ١٣٧٤ م) .

وابن الخطيب بلا شك من أعظم مفكرى الأندلس وكبار كتابه وشعرائه ، وقد عاش في العصر القرناطي في أيام محمد الغنى بالله ووزر له وتولى أكبر المناصب ، وله حياة حافلة بالعمل العلمي والنشاط السياسي ، حتى ليصعب على الإنسان أن يفكر في أن هذا كله تم في حياة رجل واحد ، وقد ترجم له الأستاذ محمد عبد الله عتار ترجمة وافية في كتاب خاص به متداول بين أيدي الناس .

وقد ألف ابن الخطيب كتباً كثيرة في تاريخ الأندلس تعتبر عندنا من الأمهات ويهتما بها أن نذكر منها كتابين :

الأول : هو « إعلام الإعلام بأعمال الإعلام ممن بويع قبل الاحتلال » ، ويعرف عادة باسم « أعمال الإعلام » ، وهو كتاب ضخم يقع في أجزاء كثيرة ، يهتما منها القسم الثاني الذي نشره ليفي بروفنسال في بيروت سنة ١٩٥٦ م تحت عنوان « تاريخ إسبانيا الإسلامية » وهو من أحسن كتب تاريخ الأندلس عندنا ، فقد كتبه الرجل عن علم ودراية ، واحتشد في تأليفه فجاء من أحسن ما لدينا من المؤلفات التي لا يستغنى عنها دارس تاريخ الأندلس

والقسم الثالث من ذلك التاريخ يتناول تاريخ المغرب الإسلامي وقد حققه ونشره د. أحمد مختار العبادي والأستاذ محمد بن إبراهيم الكتاني ونشر في الدار البيضاء سنة ١٩٦٤ بعنوان « تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط » وهذا الجزء لا يقارن - بحال - بالقسم الثاني الذي كتبه ابن الخطيب عن الأندلس ، فهو تاريخ ناقص مضطرب السياق ، يبدو أن ابن الخطيب كتبه على عجل ، ولكنه على أي حال لا يخلو من فوائد تاريخية بين الحين والحين .

أما القسم الأول من ذلك الكتاب فيدور حول تاريخ المشرق وهو لم ينشر بعد ، وهو يخرج عن اختصاصنا هنا ، ولكننا أطلعنا عليه على أية حال ، وليس فيه ما يصيف كثيراً إلى تاريخ المشرق .

أما الكتاب الجليل الذي يعد مفخرة لابن الخطيب فهو « كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة » وهو كتاب ضخم ، تقع نسخته المطبوعة في أكثر من ألفي صفحة ،

تصم تاريخاً وانداً للأندلس وخاصة إبلد غرناطة وهو يبدأ بمقدمة ضافية عن مملكة غرناطة ووصفها الجغرافي الذي يجعل لابن الخطيب مكاناً صدرأ بين الجغرافيين الأندلسيين ، ثم تلا ذلك التراجم الوافية الضافية لمئات من العلماء وكبار الشخصيات الأندلسية الغرناطية في الغالب . وقد قام على تحقيقه بصير يدعو للإعجاب الأستاذ محمد عبد الله عنان ونشره في أربعة أجزاء في القاهرة ابتداءً من سنة ١٩٧٤م وذلك بعد أن كان الموجود لدينا منه طبعة هزيلة صغيرة نشرت في القاهرة قبل ذلك .

تلك هي أهم أصول تاريخ الأندلس التي ينبغي أن يدرسها مؤرخ ذلك القطر ، وهناك كذلك كتب أخرى تسمو إلى مراتب الأصول مثل مؤلفات ابن حزم التاريخية ، وكتاب عبد الواحد المراكشي في تاريخ الموحدين ، ولكننا أشرون أن نقتصر على هذه دون غيرها مكتفين بأن نذكر بقية الأصول الأندلسية ضمن بيان المراجع الذي سنورده في آخر هذا الكتاب .

الأصول غير العربية :

قلنا إن مؤرخ الأندلس لابد أن يكون على علم بالأصول والمراجع غير العربية التي كتبت في تاريخ الأندلس وشبه الجزيرة الإيبيرية بصفة عامة وخاصة ما كتب منها بالإسبانية ، وقد سبق أن بينا أسباب ذلك .

وقد كتب الإسبان في تاريخهم كثيراً جداً وعندهم كما عندنا أصول ومراجع . فأما لأصول فما كتب في العصور الوسطى ومعظمه ألفه رهبان بدأوا في كتابة تاريخ إسباني في القرن الحادي عشر الميلادي وهم في العادة يكتبون تواريخ عامة أي تواريخ للبشر جميعاً منذ الخلق ، كما كان يفعل بعض مؤرخي المسلمين . وهم في العادة يكتبون من ناحية دينية ، أي أنهم معدون للمسلمين عداً شديداً لا على أساس قومي بل على أساس ديني ، وهم بطبيعة الحال لا يعرفون عن الإسلام شيئاً ، لأنهم لم يكفوا أنفسهم عناء محاولة هذه المعرفة ، مع أنهم كانوا يعيشون قريبين من المسلمين ، ولا نقول أنهم كانوا يعيشون بينهم ، لأن أولئك الرهبان المؤرخين الأول كانوا يكتبون وهم يعيشون في بلاد إسبانيا النصرانية

مباعدين للإسلام منكرين إياه . وأقدم من كتب ووصلتنا كتابته مؤلف مجهول كتب تاريخاً ينسب إلى «بلدة» وعنون هذا التاريخ *Cronica Albeldinse* وقد ألف سنة ٨٨٢ م ، وهو مجرد جردٍ بالحوادث وأسماء الملوك ، مع ذكر قبيل لأخبار الصراع بين المسلمين والنصارى . وهذه الأخبار القليلة ذات فائدة كبيرة لأنَّه يسبِّط بواريح ومراحل ذلك الصراع وتسمي المراحل التي يمكن أن تكون قد خانت المؤرخين المسلمين .

ومن تلك المؤلفات الإسبانية الأولى تلك المعروفة باسم تاريخ العالم الذي كتبه «لوقا التودي» *Lucas de Tuy : Historia Mundi* وقد فرغ من تأليفه سنة ١٢٢٦ م وهو يعطينا بياناتٍ واقعيةً عن ملوك القوط وملوك ليون ثم ملوك قشتالة وليون إلى عصره .

وقد عاصره تقريباً مؤرخٌ إسبانيٌّ عظيم الأهمية بالنسبة لنا يسمى *Rodrigo Jimenez de Rada* . وكان أسقفاً طليطاً ، وقد كتب تاريخاً حصلاً لإسبانيا حتى قرب وفاته سنة ١٢٤٧ م ، وهذا الرجل يعطى تفاصيل مفيدة جداً بالنسبة لتاريخ قشتالة وليون والملك النصراني الأخرى ، وكذلك بالنسبة لتاريخ الأندلس واسمه *Rerum in Hispania Gestorum Cronicon* وقد نشر أول مرة في غرناطة سنة ١٩٤٥ م وأعاد نشره *A. Schott* في مجموعته المسماة *Hispania Illustrata* الجزء الثاني من ص ٢٥ إلى ١٩٤ .

وقد اعتمد عليه الكثيرون جداً من مؤرخي إسبانيا النصرانية حتى قرابة العصر الحديث ، ولا يستغنى مؤرخ الأندلس عن مراجعة ذلك الكتاب في كل ما يتعلق بالعلاقات بين إسبانيا النصرانية وإسبانيا الإسلامية . ومن هذا الطراز من الأصول الإسبانية كتب ألفها مستعربون ممن كانوا يعيشون بين المسلمين ويكتبون باللاتينية أو مستعربون هاجروا إلى إسبانيا النصرانية ، وهناك كتباً مدونات في التاريخ . ومن هؤلاء مؤرخ يسمى «إيزيدور الباجي» الذي كتب كتاباً في تاريخ مملكة أشتريس منذ بدايتها ويسميه الأب فلوريت بالمدونة الباجية *Cronica Pacense* وهو يعرف أحياناً باسم *La Cronica Mazarabe* *Cronica del Anonimo de Cordoba* 724 ويسمى هذا الكتاب أحياناً باسم *Continuatio* لأن بعضهم يظن أن المؤلف كتب كتابه في قرطبة ، ويسمى أحياناً *Continuatio* .

Hispana لأنهم كانوا يظنون أنه إكمالٌ لتاريخ كتب قبله لإسبانيا القوطية . ويغطي هذا الكتاب الحوادث من سنة ٦١١ - ٧٥٤ ميلادية .

ومن الأصول الجديرة بالثقة مدونة الفها قس أشتوري يسمى El Beato de Liebana وقد سجل هذا الكتاب الخصومة المذهبية التي وقعت أثناء العصور الإسلامية بين كنيسة طليطلة وكنيسة إشبيلية التي ترعّمها قسٌ مستعربٌ يسمى Elipando وقد ذكرنا مدونه « البلدة » التي تنسب إلى الموضع الذي عثر عليها فيها وهي قرية « البلدة » في إقليم « ريوخا » وهذه المدونة تصل بتاريخ أشتريس وليون إلى سنة ٩٧٦ م . أي إلى عصر الحكم المستنصر ، والمؤلف معاصرٌ لألفونسو الثالث ملك أشتريس وليون المعروف بالكبير والمتوفى سنة ٩١٠ م وقد أطلق عليه هذا الاسم « مومسن » وهو علامةً المانيّ تخصص في دراسات الرومانيه وكتب في تاريخ الرومان كثيراً ونشر الكثير من المخطوطات المتعلقة بتاريخ الرومان ، وله مجلدٌ ضخّم جمع فيه المخطوطات الإسبانية التي تناولت تاريخ الرومان والقوط ومن بينها مدونة « البلدة » هذه ، والمؤرخ الألماني « تيودور مومسن » يسمى هذا الكتاب « الذيل الأبيض » Epitome Ovitense .

ومن هذا الطرز من المدونات مدونة تخص تاريخ إسبانيا في عصر الملك «ومبا » حتى موت أرنديو الأول (٦٧٢ - ٨٦٦ هـ / ١٢٧٢ - ١٤٦١ م) ملك أشتريس وهذه المدونة تنسب إلى الملك ألفونسو الثالث الملقب بالكبير ، وإن كان هناك شك في تلك النسبة ، لأن الباحثين الإسبان عثروا عليها على مخطوطتين ، إحداهما مكتوبة بأسلوب سيّئ حاقل بالآخطاء ، ويظن أن تلك هي التي كتبها ألفونسو الثالث بنفسه ، ومخطوطة أخرى منمقة مهذبة يظن أن قساً يسمى سبستيان قام بعملها وهذه المخطوطة تقص بالتفصيل تاريخ إسبانيا النصرانية حتى بدايات حكم ألفونسو الثالث وهي تنسب عادةً إلى الراهب سبستيان الذي أشرنا إليه .

وتشبه هذه المدونة ، مدونة تنسب إلى راهبٍ يسمى « سام بيرو » ولهذا تسمى Cronica de Sampiro ، وقد عاش هذا الرجل فيما بين عامي ٩٧٠ - ١٠٤٢ م وقد عمل في القصر في أيام الملك برمودو الثاني وخلفه ألفونسو الخامس ثم أقيم قساً لمدينة أشرقة وكان الذي أقامه هو الملك سانشو الكبير Sancho el Mayor

ملك نبرة ، وهذا التاريخ يبدو وكأنه إكمال لدونة الفونسو الثالث ، ويتناول الأحداث في عصر هذا الملك حتى بدايات حكم الفونسو الثالث ملك ليون (٨٦٦ - ١٠٠٠ م) .

ويجد القارئ بياناً بهذه المدونات الأساسية بالنسبة لتاريخ إسبانيا والأندلس في الفصل الأول من جزء السادس من « تاريخ إسبانيا العام » الذي أشرف على كتابته الأستاذ « مندرث بيدال » الذي سنذكره فيما بعد . ولهذا نكتفي بهذا القدر الذي ذكرناه عن الأصول ، ونضيف أن راهباً إسبانياً يسمى الأب « فلوريت » جمع هذه المدونات كلها وبشرها في سلسلة من نحو ثلاثين مجلداً تسمى « إسبانيا المقدسة » El Padre Florez Espana Sagrada ولا بد لأي باحث في تاريخ الأندلس من أن يرجع إلى ذلك المجموع وإلى المجمع الذي نشره « مومسن » وأشرنا إليه .

وننتقل الآن إلى أراجع أي إلى المؤلفات الإسبانية التي كتبها الإسبان في العصور الحديثة في تاريخ بلادهم ، وهي كثيرة جداً ومعظمها جيدة وإن اختلفت في القيمة ووجهة النظر ، ونشير منها إلى مايلي :

- Jeronimo Zurita, Anales de la Corona de Aragon

وقد عاش الأب ثوريتا فيما بين سنتي ١٥١٢ - ١٥٨٠ م .

- Bernardo Brito, (1569 - 1671), Monarquia Lusitana Historia de Espana .

وهناك مجموعة من الكتب يجمع كل منها اسم « تاريخ إسبانيا » مع مفارقات يسيرة في هذا العنوان ، وأهم مؤلفيها .

Ambrosio de Morales - Esteban de Garbay -

P. Juan de Mariana - Juan de Ferreras -

Juan Francisco Masdeu - Alejandro Herculano -

Antonio Alcalá Galiano - Modesto Lafuente y Rafael Alcantara .

ومن أهم التواريخ العامة لإسبانيا التي لا بد من الرجوع إليها في التاريخ الأندلسي مما كتب في الخمسين سنة الماضية ، ولا زال يعاد طبعها وتقيحها

لتساير تطور الأبحاث التاريخية :

Antonio Bañesteros Beretta, Historia de España y su Influencia en la Historia Universal (12 vols. Barcelona 1918 - 1941) .

Luis Pericot, Historia de España, Gran Historia General de los Pueblos Hispánicos, (6 vols. Barcelona 1935 - 1962)

• Ramon Menéndez Pidal, Historia de España (Espasa - Calpe) 8 vols. Madrid 1935 - 1958 .

وهذان التاريخان اشترك في كتابة فصولهما عددٌ كبيرٌ من المؤرخين تحت إشراف العالمين المذكورين ، وتختلف القيمة العلمية لفصوليهما اختلافاً نيتاً وجديراً بالذكر أن المجلدين الرابع والخامس من التاريخ الذي أشرف على تحريره « رامون منندث بيدال » يتناولان تاريخ الأندلس وحضارته ، وهما ترجمة إسبانية لكتاب :

- Levi - Provincial, Histoire de l'Espagne Musulmane .

الطبعة الثانية - باريس سنة ١٩٥٥ م وما بعدها . وقد قام بالترجمة الإسبانية المستشرق المعروف « إميليو غرسية غومس » .

Pedro Aguado Breyer, Historia de España 3 vols. Madrid 1947 - 1958 .

ويعتبر هذا الكتاب من أحسن الكتب المتوسطة الحجم التي ألفت في تاريخ إسبانيا ، والفصول الخاصة بالأندلس الإسلامي فيه جيدة

Fernando de devila, Historia de España 8 vols. Barcelona 1952 - 1959

ومؤلف هذا الكتاب قطلوني ، وهو لهذا ينظر لتاريخ إسبانيا من الزاوية القطلونية ، والفصول الخاصة بالأندلس فيه تُقرأ بحذر شديد .

- Luis Garcia de Valdeavellano, Historia de España (Madrid 1955) .

- Jaime Vicens Vives, Historia Social y Economica de Espana y America (Barcelona, 1957 - 1969) .

أما الكتب المؤلفة في عصور معينها أو موضوعات محددة من التاريخ الإسباني - بما في ذلك الأندلس - فكثيرة جداً تجد القارئ بياناً بها في بيبليوغرافية كل تاريخ عام مما ذكرناه ، وخاصة التاريخ الذي كتبه « بايستروس » والتاريخ الذي أشرف عليه مننث بيدان ، فإن قوائمهما البيبليوغرافية من أحفل ما عرفنا وكذلك تجد مادة بيبليوغرافية في كتاب ذي قيمة كبيرة في تاريخ إسبانيا ألفه ثلاثة من اساتذة جامعة بلنسية وجعلوه مقدمة لتاريخ إسبانيا واسمه :

Antonio Ubieto, Juan Regalá, José María Jover, Introduccion á la Historia de Espana, Barcelona (Teide 1963)

والخلاصة أن دارس تاريخ الأندلس لا ينبغي أن يغيب عن باله أنه يدرس تاريخ بلد إسلامي أوروبي ، فالعناصر الأوروبية جزء من تكوينه البشري والطبيعي ، والمراجع الأوروبية جزء من مراجعه ، ولا يكفي قط أن يصنع الإنسان على المراجع العربية سواء أكانت قديمة أم حديثة ، لأنها في مجموعها تنظر من وجهة النظر العربية وحدها ، وتعتمد على الأصول العربية وهذا لا يعطي إلا جزءاً من الصورة ويبقى نصفها الثاني . وفي بعض الأحيان يكون ذاك النصف الثاني أهم من المراجع العربية

مثال ذلك أن دراسة عصر الطوائف من خلال المراجع العربية ، لا يعطي إلا جانباً ضئيلاً من حقيقة الأوضاع في شبه الجزيرة الإيبيرية ، أما ملوك الطوائف فتتحدث عنهم مراجعنا بتطويل فتجعل مثلاً صورة المعتمد بن عباد قاضي إشبيلية التي تولى أمرها ، صورة رجل سياسي بعيد النظر يحسن سياسة الأمور ويربها الأحداث ، بينما هو كان في الحقيقة لا يهتم من سعادته إلا بالآثار التي لها أثر في سير الحوادث ، فهذا رجل لا يملك قوة عسكرية تمكنه من التأثير في الحوادث ، بل هو يدفع إتاوة للملك النصراني - ملك قشتالة وليون - وهو أي الملك النصراني هو القوة المحركة للحوادث . وإذن فنحن إذا أردنا أن نؤرخ لإشبيلية في عصر الطوائف ، قد نأخذ بعض المعلومات عن بعض ما كان يجري داخل إشبيلية ، ولكن لا نعرف مصير إمارة إشبيلية كلها ، لأن الذي كان يقرر ذلك المصير هو

ملك قشتالة . وعندما صار امر إشبيلية في كفة الميزان ، كان المرابطون ، وهم مغاربة مسلمون وغير أندلسيين ، هم الذين مولوا مواجهة خطر النصراني . وإذن فالذي نفذه من دراسة المراجع العربية شىء قليل ولا يعطى كما قلنا إلا جانباً من الصورة . ولا تكتمل هذه الصورة إلا بالدراسة المتعمقة ، للمراجع غير العربية ما بين إسبانية ولاينية وبرتغالية وقطلونية .

وقد آن الأوان أن ندرك هذه الحقيقة وأن نعلم أن تاريخ الأندلس جزء من التاريخ الأوربي . كما هو جزء من التاريخ العربى ودارسه ينبغي أن يحيط بالتاريخين وأن ينظر إلى المسائل من زاويتيهما العربية والإسبانية

ونختتم هذه المقدمة التيليوجرافية بأن نسأل كيف يمكن أن يفسر مؤرخ عربى لا يعرف غير اللغة العربية والمراجع العربية ، اسم رجل من أكبر علماء الأندلس وهو « ابن بشكوال » واسمه الكامل أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال الأنصارى ، فكيف يكون أنصارياً واسم واحد من أجداده بشكوال ، وهو لفظ إسباني صرف ؟ وأبسط ما تدل عليه هذه الظاهرة هي أن سلسلة آباء ذلك الرجل ليست عربية أنصارية خالصة فقط بل عربية أنصارية إسبانية ، فلا بد أن جده مسعوداً تزوج من إسبانية اسم عائلتها بشكوال Pascual وكان لابد من قراءة الاسم ونسب الرجل هكذا : أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود وبشكوال الأنصارى ، وهذه في ذاتها ظاهرة اجتماعية جديرة بالدراسة .

الأندلس

يعتبر فتح شبه جزيرة إيبيريا من أروع حلقات الفتوح الإسلامية الأولى . فقد جاء ذلك الفتح تنويجاً لجهاد العرب الطويل لفتح المغرب ، الذي استغرق كما رأينا حوالي سبعين سنة ، ما بين نصر وهزيمة ومدّ وحزٍ وكان ذلك دليلاً على حيوية الشعب العربي وقدامه وإيمانه بدينه ونفسه ، بهذا الفتح الطويل وصل العرب إلى مضيق جبل طارق أو « بحر الزقاق » كما يسمى ، ووصلوا في أوائل العقد الأخير من القرن الهجري الأول / العقد الأول من القرن السادس الميلادي إلى الساحل المحيط الأطلسي ، من طنجة شمالاً إلى سهل السوس جنوباً ، وبذلك أصبحوا على أبواب أوروبا من هذه الناحية . ومن دلائل حيوية الشعب العربي أنه لم يقف عند ذلك الحد وإنما تخطى بحر الزقاق ونزل شبه الجزيرة الإيبيرية وفتحها حتى وصل إلى أقصى شمالها ، ثم عبر جبال ألبرت التي تسمى البرانس خطأ ، وغرا «غالة» وهي فرنسا اليوم حتى وصل إلى سبعين كيلو متراً جنوباً باريس . والمسافة ما بين قرطبة وما وصل إليه العرب شمالاً نحو ألف كيلو متر . والمسافة كذلك من أقصى موضع وصلت إليه جيوش العرب غرباً إلى دمشق نحو ثمانيه آلاف كيلو متر . كل قطعه من العرب محاربين منتصرين عز أقدامهم أو سبور انجبل و لحمال . و ذلك عمل لم يسبقهم إلى مثله أحد في التاريخ . ومن الواضح ان شبه جزيرة إيبيرية ، وهي ما يسميه العرب بالأندلس وما يعرف اليوم بإسبانيا والبرتغال ، كانت شاسعة البعد عن مركز الخلافة ، ويكفي أن نذكر أن المسافة من دمشق وقرطبة سبعة آلاف كيلو متر . وهذه المسافة يستأرم قطعها عن ظهر فرس جيد أربعة أشهر ، فكأنك لو أرسلت رسالة من قرطبة إلى دمشق وصلت بعد أربعة أشهر . وجاء الرد بعد أربعة أشهر أخرى . و ذلك يصور لك بعد هذه الأجيال من مركز الدولة الإسلامية . ومع ذلك فقد فرض العرب أنفسهم على ذلك البلد البعيد ، وحكموه وعاشوا فيه وحولوه إلى بلد عربي إسلامي ، واستمر سلطاتهم هناك ما بين مدّ وجزر ثمانية قرون ، وإذا كان الأندلس قد ضاع منا في النهاية فذلك ليس بعجيب وإنما العجيب أننا أقمنا فيه هذا العمر الطويل

الأندلس هي الدولة الأولى التي أقامها العرب في أوروبا . وقد كانت للإسلام

خلافتان على الأرض الأوربية : الأولى دولة الإسلام في الأندلس ، والثانية هي دولة الخلافة العثمانية في الشرق

وهذه هي الناحية الأولى التي تهتمنا وهي الميزة التي تميز بها الأندلس عن غيره من البلاد التي فتحها المسلمون ، فنحن هنا في بلد أوروبي ونحن مع ملك أقامه العرب في قلب الغرب الأوربي بين فكى الأسد كما يقولون ، ومع ذلك فقد تمكنوا من تحويل ذلك البلد إلى مركز من مراكز الإسلام والعروبة ، وذلك يشهد للجنس العربي بالتقوى والامتياز ، ويفسر لنا لماذا يعتبر العرب من كبار صنّاع تاريخ الإنسانية ، وقد قال المؤرخ الإنجليزي نيفيل باريد : إن الأندلس باسبة للعرب بلاد ما وراء البحار Overseas أي أنه كان بلاد المهجر البعيد الذي ينهض إليه كل رجل جريء مقامير يريد أن يفتح لنفسه باباً واسعاً من أبواب الرزق والرفاهية ، ومن انبدهي أن يكون المهاجرون إلى الأندلس من خيرة العناصر العربية والأصول البربرية التي أسلمت وأظهرت قدرة على مجابهة الصعاب ، ويؤكد ذلك أن الأندلسيين جعلوا من وطنهم واحداً من أزهى بلاد الإسلام وأقاموا وراء البحر دولةً مجيدةً هي الدولة الأموية الأندلسية ودولاً أخرى غيرها ، وأقاموا صرح حضارة زاهرة لا زالتنا نفخر بها إلى اليوم ومُذوا حسراً حضارياً عبرت به حضارة العرب إلى بلاد الغرب الأوربي .

وتاريخ الأندلس على هذا قصة جهاد مجيد وعمل متصل مبارك ، وجهد شعب قوى استطاع بالفعل أن ينشئ على أرض أوروبية حضارة عربية إسلامية . تتبين عن غيرها من حضارات البلاد الإسلامية بطوسيع نغرها ، وبمحدو نظرة على أى مظهر من مظاهر تلك الحضارة كما سنرى .

اسم « الأندلس » :

وعندما نقول الأندلس فإننا نعني ما سنده العرب من شبه الجزيرة الإيبيرية { إسبانيا والبرتغال } لأن العرب عندما فتحوا الأندلس فتحوه كله إلى جبال ألبرت كما قلنا ، وإلى خليج يسكاي الذي يسميه العرب « حائط إفرنجة » ، ثم أخذوا يتراجعون شيئاً فشيئاً حتى إذا قامت الدولة الأموية سنة ١٢٨هـ /

٧٥٦م كان العرب قد فقدوا الركن الشمالي الغربي لشبه الجزيرة ، واستمر سلطان العرب على بقية البلاد حتى سقوط الخلافة الأموية الأندلسية سنة ٤٣٢هـ / ١٠٣٦ م . وبعد ذلك أخذوا ينحسرون ويفقدون أجزاء أخرى من شبه الجزيرة . ولكن لفظ الأندلس ظل مطلق على ما يبدى المسمى من شبه الجزيرة . حتى اقتصر في النهاية على مملكة غرناطة ، في الركن الجنوبي من شبه الجزيرة وهو يمثل ١/٨ ثمن مساحتها . ومع ذلك ظل يسمى الأندلس . وللهذه نهاية عندما لم يبق في يد المسلمين إلا مدينة غرناطة كانت هي الأندلس وهكذا .

ولفظ الأندلس معرَّبٌ جاء من لفظ « الوندال » الذين يسمون في اللغات الأوروبية « الفاندال أو الفاندالوس » . وهذا القليل من المتبربرين غزا شبه الجزيرة في القرن الخامس الميلادي ، وانحدر إلى الجنوب تدفعه قبائل أخرى جرمانية ، حتى انتهى إلى الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة . وهناك أقام زمناً طويلاً وسُمي ذلك الطرف الجنوبي باسم « فاندالوسيا أو واندالوسيا » ، وبهذا الاسم عرقه البربر الذين يقيمون على بحر الزقاق . وعندما وصل العرب قيل لهم إن هذه أرض « وندلس » ، وحرف « الواو » هو أداة التعريف في لهجة بربر طنجة ، فعُرِب الاسم إلى « الأندلس » . وبهذا الاسم ظلت البلاد تعرف إلى نهاية الحكم العربي . ولا زال اللفظ في صورة إسبانية هي « اندالوسيا » . بطلق إلى اليوم على ثمانية محافظات صغيرة في الثلث الجنوبي لشبه الجزيرة جنوبي نهر السوادى الكبير حتى المرية ، وغرناطة ، وجيان ، وقمرطبة ، ومالقة ، وقادش ، وولبة وإشبيلية .

وشبه جزيرة إيبيريا - وتشمل اليوم إسبانيا والبرتغال - إقليم واسع تصل مساحته إلى ستمائة ألف كيلو متر مربع . وإسبانيا وحدها ، وهي تحتل خمسة أسداس شبه الجزيرة ، تعتبر ثالثة بلاد أوروبا في المساحة بعد روسيا وفرنسا فإن مساحتها ٥١٦,٠٠٠ كم^٢ - خمسمائة وستة عشر ألف كيلو متر مربع .

وشبه الجزيرة في مجموعه عبارة عن هضبة متوسطة ، ارتفاعها ستمائة متر عن سطح البحر ، وهي أعلى بلاد أوروبا باستثناء سويسرا ، ونحو ثلث البلاد يزيد ارتفاعه عن ثمانمائة متر . وسلاسل الجبال التي يصل ارتفاعها إلى ألف وستمئة متر ، كثيرة جداً .

والحد الفاصل بين أوربا وشبه الجزيرة هي سلسلة الجبال التي تسمى
باللغات الأوروبية « البرانس » ، وهي سلاسل من الجبال تقلل الطريق من شبه
الجزيرة إلى جنوبى فرنسا ، فلا يعبر الناس إلا من معبرين في الشرق والغرب ، ومن
ممرات خلال الجبال تسمى « بالأبواب » . ومن هنا جاء لفظ اسمها في العربية
وهو جبال البرت ، ومعناه جبال الباب أو جبال الأبواب . وبسبب هذا الحاجز
الكبير ، كان الفارق الحضارى بين مايقع جنوبى الجبال وشمالها ، فرقاً جسيماً
يلاحظه الإنسان بمجرد انتقاله من إسبانيا إلى فرنسا .

وشبه الجزيرة مخمّس تشقه سلاسل الجبال تجرى مستعرضة ، وبين كل
سلسلة من الجبال والتي تليها يوجد وادٍ يجرى فيه نهر مستعرض أيضاً ، ولهذا
فإن شبه جزيرة إيبيريا ينقسم بالفعل إلى مناطق مستعرضة يرب بعضها البعض .
ولكن منطقة سلسلة جبالها ونهرها أو أنهارها . وهذه الأنهار معظمها يصب في
المحيط الأطلسى وتتبع كلها من وسط شبه الجزيرة ، فهناك الحد الفاصل لجارى
المياه ، ولا تجد الأنهار الكبيرة التي تحمّل الماء الوفير ، لا في النصف الشمالى لشبه
الجزيرة ، وتلك الأنهار من لشمال إلى الجنوب من ناحية الغرب ، هي المنيو ثم
الدويرو ثم تاجة ثم الواديانة أو الوادى انه ثم الوادى الكبير وعليه تقع مرطبة
وإشبيلية وهي قلب الأندلس الإسلامى ، ومن نهر الوادى الكبير يتفرع نهر
شتيل ، وعى فرع من فروع يسمى « حدارة » تقع غرناطة .

أما أنهار الغرب فليس فيها إلا نهر واحد كبير يطلق عليه اسم النهر وهو
« إبرو » وتقع عليه برشلونة عاصمة إقليم « قطلونىة » الذى استقل الآن استقلالاً
داخلياً ، وكان وادى إبرو في أيام المسلمين يسمى بانهر الأعلى للأندلس وعاصمته
سرقسطة ، وكان من أكبر مراكز الإسلام والعروبة في شبه الجزيرة . أما بقية
الأنهار التي تصب في البحر المتوسط بعد نهر إبرو ، فصغيرة نسبياً يسميها
العرب باسمه المذن التي تقع عليها ، فهناك نهر بلنسية الذى يسمى أيضاً
بالوادى الأبيض واسمه في اللاتينية « توديا » ونهر مرسية وما إلى ذلك ، وشبه
الجزيرة في مجموعته فلم يجد صفحاً واسعاً ، فلا تكثر الأنهار في مناطقها
الشمالى إلى الشمال من وادى تاجة الذى تقع عليه طليطلة عاصمة شبه
الجزيرة قبل الفتح العربى ، وإذا نظرنا إلى شبه الجزيرة في جملته وجدنا أن

النصف الاغنى هو اشمالى ، حيث الأنهار الضخمة وأراضى المزارع الواسعة ، وفيما بين نهر تاجه ونهر المنير توجد أوسع مناطق القمح في أوروبا بعد الأوكرين في روسيا ، وهناك أيضا اى في الجزء الشمالى من شبه الجزيرة أراضى المراعى الواسعة التى تتربى عليها الماشية الكبيرة والأغنام الوفيرة الصوف وكذلك الخيول الكبيرة الحجم . وهناك أيضا مناجم الحديد والحجم ومعادن أخرى — ولا بد أن نلاحظ أن القسم الذى سده العرب كان أوسع مساحة بينما كان القسم الذى ساهه النصرارى أصغر حجماً ولكنه أكثر ثروة ولكنه نتيجة لذلك كانت ثروته وأوغر ولهذا كان الناس أيسر حالاً ، وغذاؤهم أحسن ، وكذلك كانت خيلهم أقوى ، وذلك يفسر لنا لماذا كانت المعركة بين العرب وخصوصهم معركة عنيفة دائماً ، ورغم أن المسلمين كانوا يملكون القسم الأكبر ولكنهم لم يملكوا النواحي الداخلية واندلس من الأقاليم الغنية فعلاً إلى إقليم غنى في الشرق . وفى الشرق القسم مناطق إنتاج البرتقال والأرز في أوروبا ، ثم ناحية إشبيلية ، وفيما عدا ذلك فإن بقية البلاد الأندلسية التى تفخر بها كانت تقوم في مناطق فقيرة نسبياً ، حتى قرطبة ذات الصيت البعيد تقع في إقليم فقير في حملته . ومن هنا تتبين حقيقة كبرى ينبغي أن نضعها في أذهانتنا عندما ندرس تاريخ الأندلس وهى أن العرب أخطأوا خطأ شديداً عندما جعلوا عاصمتهم مدينة قرطبة على نهر الوادى الكبير ، فإن الوادى الكبير نفسه إقليم فقير ، ثم إنك لا تستطيع أن تسيطر على شبه الجزيرة من بلد يقع في سدها الجنوبي ، ولو أن العرب جعلوا عاصمتهم طليطلة لتغير وجه التاريخ ، لأن طليطلة تقع في وسط شبه الجزيرة تقريباً . ومن الوسط تستطيع بطريقة أسهل ، أن تسيطر على البلد ، ثم إن طليطلة ، وعلى مقربة منها مدريد ، وهى منشأة عربية تقع في وسط الإقليم الغنى حيث الغذاء وافر والمراعى غنية ومصادر المعادن متوفرة ، وهى أسلحة الصراع الكبرى . ولكن العرب عندما فتحوا قرطبة كان لهم عذرهم فهم يريدون أن تكون قاعدتهم أقرب ما تكون إلى قلب دولتهم وبقية عشيرتهم في بلاد المغرب . وعلى أى حال فهذا هو الذى حدث وكانت له نتائج المعروفة والله سبحانه وتعالى غالب على أمره .

فتح الأندلس

تمهيد في أحوال شبه الجزيرة الإيبيرية قبل الفتح الإسلامي :

كان شبه الجزيرة الإيبيرية قبل الفتح الإسلامي خاضعاً لسلطان القوط الغربيين ، وهم واحدٌ من شعوب الجرمان المعروفة بالمتبربرين ، الذين اقتحموا بلاد الدولة الرومانية وتقاسموها فيما بينهم من أواخر القرن الرابع الميلادي .

دخل القوط الغربيون بلاد الدولة الرومانية أوائل القرن الخامس الميلادي وصاروا في رفقة أبناء عمومتهم القوط الشرقيين ، واستقروا في « غالة » المعروفة حالياً باسم فرنسا . وهناك انقسموا قسمين : فأتت القوط الشرقية ، فقد استقروا في إيطاليا ، وكان على أيديهم زوال الدولة الرومانية في الغرب ، إذ أنهم دخلوا روما بقيادة زعيمهم أبواكر سنة ٤٧٦ م .

أما القوط الغربيون فقد مدّوا سلطانهم في شبه الجزيرة الإيبيرية ، ثم وقعت الحرب بينهم وبين الفرنجة وهم أيضاً من شعوب المتبربرين ، وانتهى الأمر أوائل القرن السادس الميلادي بانسحاب القوط الغربيين إلى شبه الجزيرة الإيبيرية وانفرادهم بها وتغلبهم على من كان قد سبقهم إليها من شعوب المتبربرين من أمثال السويق والالان وغيرهم .

ساد القوط الغربيون شبه الجزيرة كله من أوائل القرن السادس الميلادي ، و اتخذوا طليطلة عاصمة لهم . وأنشأوا مملكة يتولى أمورها « خود » وحدهم ، فكانوا يحكمون رعاياهم من أهل البلاد من الإيبيريين الرومان بالقوة والعدل . خاصة وقد كان القوط مسيحيين على المذهب « الأريوسي » الذي يقول بطبيعة واحدة للسيد المسيح ، في حين أن رعاياهم كانوا على المذهب الكاثوليكي الذي يقول بالطبيعتين . وبين المذهبين من الخلاف ما بين دين ودين ، ونتيجة لذلك كان هناك عداوة شديدة بين القوط ورعاياهم .

وفي عهد ملك من ملوك القوط يسمى « ريكاردو » تحول القوط إلى المذهب الكاثوليكي . فكان ذلك سبباً في مصالحة بين القوط ورعاياهم وتحسنت الأحوال

نتيجة لذلك وتمكن القروص من السير بدهشة بأشور فترة من الزمن ، ولكنهم لم يختصوا برعاياهم فقد وظلوا يعتدرون أنفسهم طغاة متميزة عن بقية السكان .

وقبل الفتح العربي بنحو عشرين سنة صار العرش إلى ملك يسمى « ومبا » وصلت على يديه الأمور ، وأعلن سياسة تسامح في البلاد ، فرضى عنه الناس وكان له أبناء كثيرون سيكون لهم دور في الفتح العربي للمغرب .

وقبل الفتح العربي صار على الملك « ومبا » حاكم قرطبة القوطي ، واسمه « رودريك » ويعزبه العرب على « لذريق » وخلعه عن العرش وتولى مكانه ، واتبع سياسة ظالمة لأهل البلاد ، واضطهد اليهود فتغيرت قلوب الناس عليه وفكروا في القيام ضد حكمه ، ووجدوا أن خير ما يعينهم على ذلك هو الاستعانة بالمسلمين ، وتولى الوساطة بين الساخطين على لذريق و« طارق بن زياد » - قائد جيوش المسلمين المعسكرة عند طنجة - الكونت « يولييان » حاكم سبتة وهو شخصية لا تعرف حقيقة أمرها ، فمن أجل « كان عربياً ورعيباً بقية عصره » ومن قائل إنه كان حاكماً للإقليم باسم الدولة البيزنطية ، وهناك من يقول « كان ممثلاً لملك القوط في إقليم سبتة وطنجة » على أي حال كانت العلاقة سيئة بين لذريق ويولييان ، ويذهب المؤرخون العرب إلى أن سبب ذلك هو أن الملك لذريق اعتدى على بنت يولييان ، وكانت تربي في قصره . وعلى أي حال أقبلت الوفود على طرو تدعو بفتح شبه جزيرة الأيبيرية أو « أندلس » ، وكثروا حشداً عظيماً . العرب عندما استجابوا لهذا الطلب ، لم يكونوا يقصدون أكثر من إرغال ضربة قاضية بلذريق ثم العودة إلى المغرب محمّلين بالغنائم ، وغاب عنهم أن العرب لا يقومون بهذه المهام ، وأنهم قوم فاتحون يحملون رسالةً وديناً سماوياً .

فتح الأندلس :

ولقى الطلب أدناً صاغيةً من طارق بن زياد ، لأن قوته العسكرية المقيمة في طنجة كانت معطلة دون عمل وكانت نفوس أفرادها تنشق إلى الجهاد ، وقد ذكرنا أنه كان مع طارق أعددٌ كبيرة من جنده البربر والعرب .

أرسل طارق إلى « موسى بن نصير » - وكان إذ ذاك والي المغرب للأمويين -

يستأذنه في غزو الأندلس فأذن له ، ولكنه أمره بأن يختبرها قبل ذلك بالسرايا ،
نكى يعرف مدى مقاومة القوط قبل التمسك بذلك العمل ، ثم إنه نصح طارقاً أن
يستوثق من ولاء يوليان بتكليفه بالقيام بغارة على الأندلس ، حتى يضمن أنه
أصبح عدواً للذريق ففعل يوليان ذلك وتعهد بنقل جند المسلمين إلى الأندلس في
سفنه .

~

وفي سنة ٩١ هـ / ٧١٠ م أرسل طارق بعثاً استطلاعيًا يقوده قائد من قواد
الفرس يسمى ضريف بن زرعة بن أبي مدر ، فقام بمهمة خير قيام وانخرع عن
الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة وعاد بفنائم وافرة دون أن يلقى مقاومة ومن ذلك
الحين أصبح اسم طريق يطلق على بلدة صغيرة جميلة في أقصى الطرف الجنوبي
لشبه الجزيرة .

تشجع طارق بهذه النتيجة ، فهير إلى الأندلس في شعبان ٩٢ هـ / أبريل -
مايو ٧١١ م ونزل بصخرة جبل طارق التي كانت تسمى قبل ذلك بصخرة
« كالبى » فأصبحت تسمى باسمه ، وهناك أنشأ قاعدةً وحصناً ، عهد في حمايته
إلى يوليان - ثم سار إلى الشمال حتى بلدة تسمى قرطاجة وترك بها حاميةً ، ثم
اتحدر إلى الجنوب وعسكر في رأس سارز في البحر سمى العرب « الجزيرة
الخضراء » وبنشأ هنا مدينةً إسلاميةً زاهرة (لا زالت زاهرة إلى اليوم) تحمل
اسم الجزيرة . ثم سار إلى الجنوب حتى بلغ الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة ،
وسار بمعاذاة ذلك الساحل وعبر شهراً صغيراً يصب في المحيط الأطلسي يسمى
وادي « لك » ، يصب في بحيرة ضحلة سماها العرب « الخندق » ولا زالت تحمل
ذلك الاسم إلى الآن « لاخاند » . وبعد ذلك ضرب بمعسكره في منطقة واسعة
يحدّها من الشرق وادي « كة » ومن الغرب وادي « اليرباط » ، وهو عبارة عن نهر
آخر وهي منطقة سهبية واسعة تكثر فيها غدن فهي المدينة « فاندش » على
البحر ومدينة « شريش » إلى جوارها في الداخل ، وفي الشمال في الطريق إلى قرطبة
تقوم مدينة « شنونة » واسمها الأصلي « سيدوني » . وفي ذلك السهل الواسع
حد طارق يعلم قواه نظراً لقوط . ووصل الخبر إلى الذريق ، وكان منه لا أن
ذاك في شمال شبه الجزيرة ، فجمع قواته واتحدر إلى الجنوب للقاء المسلمين ، لأنه
يبدو أن الأخبار التي بلغته روعته روعاً شديداً ، ووصل إلى بلدة شنونة .

وهناك أخذ يستعد لخوض المعركة ، ثم سار للقاء المسلمين . ولم تلبث المعركة أن شبت ، وهي لم تقع في موضع محدد بحيث يمكن أن تسمى باسمه ، ودامت أكثر من أسبوع فهي غير محددة لا في أكان ولا في الزمان ، وإنما كانت معركة من طرائف جديد بين قوتين غير متعادلتين ، واستمرت حتى انهزمت قوة القوط . ولهذا فهي تحمل في النصوص اسماً كثيرة فهي تسمى « معركة البر » ، أو « معركة شريش » أو « معركة الخندق » أو معركة « وادي لكة » ، وأنحيان تسمى معركة شدونة وما إلى ذلك . ويبدو أن طارق بن زياد هو الذي رسم خطة المعركة على هذا النحو ، لأن الفرق في القوة بين من كان معه ومن كان مع عدوه ، كان فرقاً كبيراً جداً . ولم يكن من الممكن التقلب على العدو إلا على طريقة الحرب الصغيرة التي تسمى اليوم باسم « الجريلا » التي نسميها عادة بحرب العصابات ، وهذا مجرد تشبيه للتوضيح فقط ، لأن جيش طارق لم يكن جيش عصابات . على أي حال نجح طارق في القضاء على قوة القوط ، وهرب لذريرق فقتبعه المسلمون في اتجاه الشرق حتى أدركوه عند نهر يصب في نهر « شقورة » التي تقع عليه الآن مرسية . وهذا النهر يسمى « وادي الطين » وهناك قتلوه عند بلدة تسمى « لورقة » ولا صحة لما يقال من أن لذريرق قتل في ميدان المعركة ، وكذلك لا صحة أيضاً لما تذكره بعض المراجع من أنه هرب إلى الشمال والتقى مع العرب في معركة ثانية قرب « سلمنقة » وبعد ذلك مباشرة نجد أن طارقاً يعطينا دليلاً على قدرته وموهبته العسكرية كفاتح عظيم فقد راى هذا الرجل يدخ بلداً غريباً شمساً وراء البحر ويرسم خطة مؤفقه لسير ، ثم عرف ، ود ذلك كيف يختار مكان المعركة وطريقة المعركة ، وبعد ذلك مباشرة سار إلى الشمال وقد امتلأت أمدى أصحابه بالغنائم وركب الخيل منهم من لم يكن عنده حصان ، وإذا أردتم أن تقرأوا تفاصيل جميلة عن ذلك الفتح فاعلموا أن كتاب « فتح الطب » للمقرئ التلمساني ، يستجدون فيه وصفاً مطولاً عن ذلك الفتح .

اتجه طارق بمن معه إلى الشمال فعب نهر الوادي الكبير ، وكانت وجهته أن يدخل طليطلة وهي عاصمة القوط ، وتبعد عن مكان المعركة بما يزيد على ستمائة كيلو متر ، في أرض وعرة كلها جبال ووديان ومضائق عسيرة ، وإنه لمن عجائب التاريخ التي تدل على قوة الأجيال الإسلامية الأولى وعزمها وإيمانها بربها .

القوة الإسلامية استطاعت ، بعد معركة طاحنة ، أن تعبر تلك المسافة الشاسعة وأن تصل إلى طليطلة وتدخلها بعد مقاومة عنيفة وفي الطريق نحدط ارقاً برسل قائداً من قواده يسمى « مغيث » يروى فاحتل قرطبة ، وكانت في ذلك الحين معسكراً رومانياً قديماً على ضفة نهر الوادي الكبير . وعندها تقوم قنطرة حجرية عبر النهر وعندما نرى طارقاً يقوم بذلك العمل ندرك أن ذلك الرجل كان بالفعل قائداً عسكرياً ملقاً بشئون الحرب ، لأن السيطرة على قنطرة الوادي تؤمن له طريق العودة ، وستصبح قنطرة الوادي هذه من كبر معالم قرطبة الإسلامية ، وسيكون لها شأن في التاريخ الاجتماعي والأدبي للأندلس الإسلامية .

استقر طارق في طليطلة ، وهرب عنها كسار الفوط وكذلك كبار رجال الدين وعلى رأسهم أسقف طليطلة المسمى « سندرديد » في اتجاه شعاع شرقى في الطريق الذي سميته العرب « وادي الحجرة » والمراد بالحجرة هنا جمع حجر وهو الحصن . وقد حمل الفسوسه معهم ذخائر الكنيسة ومن بينها مذبح الكنيسة ، والمذبح منضدة فخرية مزينة بالحوادث تدعى في الكنيسة الأرض الصلاة . وعند بلدة صغيرة تسمى « الكالادي هتارس » ، ويسمونها العرب « قلعة عبد السلام » وتسمى أيضاً « بمدينة المائدة » والمراد بذلك مائدة سليمان التي غنمها المسلمون في ذلك البلد ، ولم تكن بمائدة ولا صلة لها بسليمان عليه السلام ، وإنما هي المنضدة التي كانت توضع في صدر الكنيسة وعليها أدوات الصلاة من صليبان وكؤوس وكتب مقدسة وأخراس ، وتسمى في اللغة بمذبح الكنيسة ، وكان رجال الكنيسة يهتمون بصنائعهم - أدركت العرب فيهم الهريين من صباط - من رجال الدين وحصلوا منهم على ذخائر ذات قيمة كبيرة ومن بينها مذبح الكنيسة ، الذي سماه العرب « مائدة سليمان » وكانت من أكبر الذخائر التي حصل عليها العرب في فتوحهم .

وعلى أي حال استولى طارق في تلك البلدة الصغيرة ، وهي مدينة المائدة على مائدة سليمان هذه وذخائر لا تحصى ، وكان الشتاء قد دخل فعاد إلى طليطلة واستقر فيها ومن هناك كتب إلى موسى بن نصير يبلغه الخبر العظيم .

دخول موسى بن نصير الأندلس واشتراكه في الفتح:

ووصل خبر هذا انتحاح أبي هريرة إلى موسى بن نصير في القيروان ، وهنا نجد تفسراً من المؤرخين يذهبون إلى أن القيرة استبدت بموسى فغضب على مولاه ، وأرسل إليه يأمره بالوقوف عند هذا الحد ، وأن ينتظر حتى يقدم هو عليه . ونجد كذلك نقراً آخر منهم يقولون إن موسى غضب على طارق فعلاً ، ولكن ليس نتيجة الحسد بل خوفاً على جند المسلمين من التماسي إلى هذا البعد في بلد فسيح دون نظر إلى العواقب ، وربما كان رأى هؤلاء الآخرين هو الأصوب ، لأننا نعلم أن طارقاً بعد أن استقر في طليطلة بعث إلى مولاه تفصيل ما دار في الفتوح وطلب إليه مدداً.

ولم يتردد موسى في السير إلى الأندلس في قوة كبيرة ووصل في أواخر شتاء ٧١١م وأوائل ٧١٢م إلى طنجة . وفي يونيو ٧١٢م (رمضان ٩٣ هـ) عبر إلى الأندلس في قوة تقدر بثمانية عشرة ألف رجل ، غالبيتهم العظمى من العرب هذه المرة ، وكان قهيم عدد كبير من كبار « القيسيين والكثبية » ، وكذلك عدد من أهل اليمن ، أشهرهم « علي بن رباح » و « حنش بن عبد الله الصنعاني » - نزل موسى في الجزيرة الخضراء ولم ير بناء على مصيحة رجالة وحلفاء المسلمين من أهل البلاد أن يسير في نفس الطريق الذي سار فيه طارق بن زياد ، بل يتبع طريقاً آخر فيفتح بلاداً أخرى ينسب إليه فخرها حتى يصل إلى طليطلة ، فبدأ بالاستيلاء على شذونة وعلى حصنين كبيرين إلى جوارهما وهما « قرمونة وقنعة وادي إبرة » ثم تقدم نحو إشبيلية وحاصرها حتى سلمت بعد وقت قصير وانسحبت حاميتها إلى الغرب إلى مدينة « لبله » وهي اليوم من مدن البرتغال .

وتقدم موسى نحو « ماردة » وكانت من كبار بلاد إسبانيا القوطية ، يحيط بها سور حصين ، وقد اعتصم فيها جانب كبير من جيش طارق منهم همدان . موسى واستعمل في ذلك ثروان حصار موسى المسلمون مقاومة سيده وتحملوا خسائر كبيرة في الأرواح ، ولكنهم استمروا في الحصار حتى استسلم البلد في أول شوال ١٤ / ٣٠ يونية ٧١٢م ، وقد وجد المسلمون في ذلك البلد ذخائر وافرة ملأت أيديهم .

وفي شهر يولية التالي تقدم موسى ومن معه نحو طليطلة ، وخرج طارق بن زياد للقاء مولاه موسى حفيماً به ، ويقال إن موسى أهانه أو ضربه بالسوط وغير

ذلك ، ولكن هذا كله غير صحيح وربما يكون ارحلان قد تعانسا ، ولكننا نخدمها عقب ذلك يسيران معاً لمواصلة الفتوح . وفي أثناء ذلك انتقضت إشبيلية على المسلمين ، ففجّل موسى بإرسال ابنه عبد العزيز بن موسى فأطفا الثورة ، واستولى على لبلة وباجة وأكشوتبة وكانت أكبر مدائن الجنوب الغربي لشبه الجزيرة ، ومنها يتكون النصف الجنوبي للبرتغال اليوم . وبذلك تكون الجيوش الإسلامية قد وصلت إلى ساحل المحيط الأطلسى في هذه الناحية .

ويذهب المؤرخ الإسباني « سافدرا » إلى أن موسى بعد أن تلاقى مع طارق في « طلبيره » تسامع بظهور لذريق ، ملك القوط في غرب شبه الجزيرة في ناحية « سلمتقة » ، فأسرع إلى هناك وتلاقى مع لذريق ، وبقياء القوط في معركة قرب بلدة صغيرة قرب قرية « تاماس » لحالية ، وهناك لقي لذريق مصرعه الأخير . ولكن يبدو أن ذلك كله غير صحيح فليس هناك ما يؤيده .

ثم عماد موسى بن نصير إلى طليطلة وبدأ عمله كأول ولاة الأندلس ، وهو دون شك أول عربي يحكم قطراً أوروبياً ، وقد أكد موسى هذا المعنى عندما أمر بضرب عمله إسلامية في دار السكة بطليطلة . ولما كان عمال هذه الدار إسباناً يكتبون صيغ العملة باللاتينية فقد ظهرت هذه العملة الإسلامية وعُتِبَ شهادة أن لا إله إلا الله باللاتينية عن أحد وجهيها N NOMINE DEL; NON DEUS NISI DEUS SOLUS; NON DEUS ALIUS وتقرأ في الوجه الثاني

H C SOLIDUS FERITUS IN SPANIA ANNO 714 .

وأراح موسى في طليطلة شتاء ٧١٢ - ٧١٤ م . ومن هناك أرسل رسولين إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك ليحملوا إليه الذبا مع طرف من الذخائر ، ويقال إن الرسولين كانا « علي بن رباح اللخمي ومغيث الرومي » مولى الوليد بن عبد الملك .

وعندما أقبل ربيع ٧١٤ م خرج موسى مجش في اتجاه شمالي شرقي ، فأصدا سرقسطة وتمكن من الاستيلاء على هذه المدينة التي تعتبر مفتاح منطقة وادي إبرى كلها ، وقام التابعي « جندش بن عبد الله الصنعاني » باختطاط جامع سرقسطة الذي سيصبح من كبار مساجد الأندلس المشهورة .

وعقب ذلك سار نحو « لاردة » متبعاً الطريق الروماني الكبير المبلط ، الذي يعرف بالطريق القيصرى ، ويسمى بالعربية ابرصيف أو البلاط ، وقد استولى موسى على لاردة ، وبدأ يستعد للسير نحو برشلونة ، ويقال إن نيته كانت معقودة على أن يتابع الطريق القيصرى حتى « أرقون » ومنها إلى روما . ويورد المقرئ في نفع الطيب نصاً يقول : إن موسى كان يزعم الاستيلاء على القسطنطينية من الغرب ، وهو إصراف في أحسن الظن كما هو واضح ، لأن المسافة بين طليطلة والقسطنطينية لا تقل عن ٨٠٠٠ كيلو متر ، كلها جبالاً ومرتفعات ، يحتاج قطعها إلى أعدادٍ وعُدٍ يصعب تصورها .

ولكن الظروف لم تمهل موسى للاسترسال وراء لاردة ، فقد أقبل إلى معسكره مغيث الرومى عائداً من دمشق يأمر من الوليد بن عبد الملك ، بأن يذهب موسى وطريقاً معاً إلى دمشق لمقدمي أنفسهم سائداً عن فتوح إلى الحليفة . وبعد أن مغيث الرومى لم يكن يأمر بموسى فيما نقل إلى الوليد من خمار ، وكان مغيث رجلاً متأمراً قلقاً ، وقد انتهت حياته في معركة « الأشراف » في الغرب الأوسط ولكن أسرته « بنو مغيث » ستصبح من كبار بيوتات الأندلس ومن موالى بنى أمية بالمقرين .

ولم يرفض موسى الاستجابة لهذا الطلب ، ولكنه طلب إمهاله حتى يستكمل فتح الشمال الشرقى لشبه الجزيرة ، ثم يتجه بعد ذلك لفتح الشمال الغربى فأمر طارِقاً بمواصلة السير مع الطريق لرومانى . وسار هو في اتجاه الشمال الغربى ، ثم انحرف غرباً بعد ذلك ، نحو جليقية ، فسار بحذاء الجبال الكتنبيرية ، أما طارِقٌ فقد تمكن من إخضاع منطقة أرقون ، وعاهد أميرها المسمى « فرتون » ، وقد أسلم فرتون هذا وأصبح جد بني « قسى » الذين سيكون لهم دورٌ كبيرٌ في تاريخ الثغر الأعلى الأندلسى وهو حوض نهر الإبرو ، وبعد ذلك اتجه غرباً ليلحق بموسى فاستولى على حصن أماية ثم على مدينة أشترقة ، وكانت مركز الناحية التي تسمى في النصوص العربية « ألبة والقلاع » ، وتسمى في الجغرافية التقليدية الإسبانية بإقليم قشتالة القديمة ، وآخر ما استولى عليه طارِقٌ كان بلدة ليون .

أما موسى فقد سار أول الأمر بحذاء نهر إبرو الأعلى ، في اتجاه منبع النهر ثم اتجه إلى الشمال عابراً الجبال الكتنبيرية ، ودخل إقليم « اشتريس » فاستولى على

«أبيط» Oviedo ووصل إلى ساحل خليج بسكاي عند «خبيون» وهرب أهل الناحية وبقي القوط شرقاً نحو البلد المسمى حديثاً «كينجاس دي أوليس» وروءها تقوم منخنة جبلية وعرة تربط فيها ثلاث دمم سائر تسمى بقسم أوروبا.

عندما وصل موسى إلى ساحل خليج بسكاي ووصل قائده طارق إلى مداخل إقليم جليقية، شعر موسى أنه أتم فتح شبه الجزيرة وأنه يستطيع بعد ذلك أن يلبي أمر الخليفة الوليد.

وهكذا نرى هذين الفاتحين العظمين يأخذان طريق العودة إلى الشرق في ذي القعدة ٩٥ هـ / سبتمبر ٧١٤ م وقد خلفا الأندلس وراءهما، بعد أن قاما بما يمكن اعتباره معجزة من معجزات الفتوح العربية، في بصر ثلاث سنوات من الدوام المتصل والحركة الدائمة فقد استعاض هذا الرحلان مع حفنة من المسلمين، ما بين عرب وبربر لا تزيد على ٢٠,٠٠٠ مقاتل، أن يفتحوا قطراً وأوروبا وسعياً يعتبر من أصعب الأقطار الأوروبية من الناحية الجغرافية الطبيعية وقد قام المسلمون بهذا الفتح بشجاعة تعجز مضرب المثل، وساروا على خطبة عسكرية وسياسية واضحة نزل على حمرة حيدة بمسائل الحروب وفتوح سلعان، وقد موسى وطارق رجلاهما بحزم ونظم وبعد نثر تذكرت بقيادة خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص وأبي عبيدة بن الجراح.

وقد خلف موسى ابنه عبد العزيز بن موسى ولجأ إلى الأندلس مكانه، فإذا اعتبرنا طارق بن زياد أول ولاية الأندلس كان عبد العزيز هو الثاني، وقد بدأ ولايته في سبتمبر سنة ٧١٤ م.

وقد ذكرنا فيما سبق ما أصاب موسى على يد سليمان بن عبد الملك ويقال إن طارق بن زياد شكاً لسليمان سوء معاملة موسى إياه واختصاصه نفسه بخير الأسلاب والمقامات وخاصة مائدة سليمان، التي طر صيتها في الروايات الإسلامية.

وعلى أية حال فإن سليمان بن عبد الملك، وكان عدواً لكبار رجال دولة بني أمية الفاتحين، لم يستطع تقدير طارق العظيم، فانزوى هو الآخر ومات في خموي.

وببداية حكومة عبد العزيز بن موسى ، بدأ في تاريخ الأندلس عصر الولاة أى
الولاة التابعين للحكومة المركزية في دمشق ، وتسمت هذه الفترة حتى سنة
١٣٨ هـ / ٧٥٦ م وهي السنة التي قامت فيها إمارة عبد الرحمن بن معاوية
الداخل .

وقد أنفق عبد العزيز معظم أيام ولايته في استكمال فتح شبه الجزيرة ، لأن
الفاطمين الكبيرين قضيا على دولة القوط ووصلوا إلى الحدود في كل ناحية غير أنه
بقيت بعد ذلك أجزاء كاملة من شبه الجزيرة في شرقها وغربها دون فتح ، وكان
لا بد من استكمال فتحها ، وقد قام بهذه المهمة عبد العزيز بن موسى ، لذا فنحن
نعتبره ثالث فاتح الأندلس ، ونعتبر أن فترة الولاة تبدأ بانتهاء ولايته سنة
٩٧ هـ / ٧١٦ م .



عصر الولاة

٩٧ - ١٣٨ هـ / ٧١٦ - ٧٥٦ م

تولى أمر الأندلس خلال هذه الفترة ٢٢ والياً ، حكم واحد منهم مرتين ومعنى ذلك أن متوسط مدة الوالى اقل من سنتين ، وهذا وحده يكفى لإعطائنا فكرة عن عدم الاستقرار الذى ساد الأندلس خلال هذه الفترة ، وبعد أن درسنا تاريخ المغرب خلال هذه الفترة نتبين أن ذلك القلق كان هو الأمر المتوقع ، فلدينا أولاً اضطراب السياسة العامة لبتى أمية بعد الوليد بن عبد الملك ، ووقوعها فريسة للعصبية القبلية ولشخصية ، وكان لا بد أن يكون لذلك كله اثره فى الأندلس ، كما كان له اثره الذى رأيناه فى المغرب .

وهناك كذلك الخلاف الكبير بين العصبية العربية فى المغرب ، ثم خلافا العرب البلديين مع العرب الشاميين ، ثم خلاقات هؤلاء جميعاً مع البربر ، وكان لا بد أن يمتد ذلك كله إلى الأندلس .

وهناك أيضاً التنارع على السلطان بين الطامعين فيه ، وقد رأينا ما كان من أمر حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع وابنه عبيد الرحمن ، ولدينا فى الأندلس ما يشبه ذلك .

يضاف إلى هذا كله أن الأندلس بلد قائم بذاته له ظروفه التى لا تشبه ظروف أى بلد مما فتحه المسلمون فى ذلك الحين ، فإن الأندلس كان ثغراً لبلاد المسلمين ، وكان لا بد لأهله من العرب من مواصلة الفتوح فيما يليه من البلاد ، ويستوقف نظرننا أن العرب رغم مشاعلهم الكثيرة فى الأندلس ، استطاعوا أن يواصلوا الفتوح فى « غالة » أى فرنسا ، نحو ٢٠ سنة بعد تمام فتح الأندلس ، وكسبوا خلال هذه الفترات انتصارات كبيرة تضيف صفحات جديدة إلى سجل فتوح الإسلام . ولا يقلل من أهمية الفتوح أنها وقعت بعد موقعة بلاط الشهداء ، ولذلك سنرى أن المد العربى لم يكن ليستمر إلى ما لا نهاية ، وكان لا بد أن يقف عند نقطة ما ، ونقطة بلاط الشهداء ، نقطة رابعة بالنسبة تعود عدهم تليين سيبيا ، تداراً فتوحهم من المدينة المنورة عقب وفاة الرسول ﷺ مباشرة .

وهناك أخيراً مشاكل الحكم في الأندلس نفسه ، وهو بلدٌ فسيحٌ جداً دخله العرب في وقت بلغت فيه مظلم القوط ذروتها ، فكان أن يعالجوا مشاكل جمة . وإن الإنسان ليدعش إذ يراهم رغم صعوبة طروقهم ، وقلة المدد الذي تلقوه من الحكومة المركزية ، يستطيعون تسيير الأمور على نحو لا يأس به إطلاقاً ، فلم يظلموا من أهل البلاد أحداً ، بل نشروا بدينهم عدلاً لم تعرفه البلاد قبل ذلك ، وعُشوا كذلك بالكثير من المرافق كالقناصر والطرق وشبكات الري وأنشأوا مساجد في كل نواحي الأندلس تقريباً .

ومن حسن الحظ أن الأمور عندما بلغت غايتها في الاضطراب ، صار الأمر إلى عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، وهو من عباقرة الحرب والسياسة في تاريخ الإسلام ، فأنقذ البلاد من الفوضى ، والعرب من نتائج الاستمرار في الحرب الأهلية ، واحتفظ بثمرات جهود من سبقه من الحكام القادرين ، فلم تضع هذه الجهود هباءً .

ولا يتسع المجال للكلام على ما قام به أولئك الحكام خلال فترة الولاة ، ولكننا سنكتفي بتتبع ميادين العمل الرئيسية ، ثم المشاكل الكبرى التي واجهت الحكم العربي ، وما قام به الحكام بحالهم حتى نصل إلى إمارة عبد الرحمن الداخل .

خلافات العرب فيما بين أنفسهم ونزاعهم مع البربر :

رأينا كيف صار أمر الأندلس إلى « أيوب بن حبيب اللخمي » ابن أخت موسى ابن نصير في منتصف سنة ٩٧هـ / مايو ٧١٦م تقريباً ، وأيوب بن حبيب يمثل العرب البلديين ، أي العرب الذين قاموا بالفتح والاستقرار في البلاد ، وأصبحوا بمقتضى هذا يرون أنهم أولى بها من غيرهم .

وقد تواطأ أيوب بن حبيب والنفر الذين اغتالوا عبد العزيز بن موسى ، مع خليفه سيمان أصلاً مذهبهم في أن تؤيدهم الحكومة المركزية ويستتب سلباتهم في البلاد .

وقد قض أيوب بن حبيب حاكماً نحو أربعة أشهر لم يفعل خلالها شيئاً ذا بال . ولكنه هو الذي نقل عاصمة الأندلس إشبيلية إلى قرطبة لأن موغها أكثر توسعاً ، ثم إن أعداداً كبيرة من العرب البلديين سكنت حولها فأراد أن يعتز بهم .

ولكن الأمور لم تسر على ما قدره أيوب ومن معه ، فقد قام « يزيد بن أبي مسلم » وإلى سليمان بن عبد الملك على المغرب ، بتعيين « الحُرّ بن عبد الرحمن الثقفي » على الأندلس ، فكان الحُرّ — على هذا — يمثل الحكومة المركزية ويعتزّ بالجند اششاميين ، مما أبعد عنه البلديين . وقد بدأ « الحُرّ » ولايته في ذي الحجة سنة ٩٨ هـ / ٧١٧ م ، واستمر سنتين وثمانية أشهر ، لا تنسب المراجع إليه فيها كبير عمل ، ولكنه هو الذي قام بدار الإمارة في قرطبة . وكانت هذه الدار في مواجهة قنطرة الوادي . وكانت قبل ذلك مقرّ الحاكم القوطي الذي سارع معيث الرومي البلد من يده ، وقد سكن معيث في جانب من العصر عرف ببلاط معيث ، ثم خرج منه أيوب بن حبيب وسكن فيه ، فلما جاء الحُرّ بن عبد الرحمن الثقفي ، زادت عنايته بالقصر وجعله قصر إمارة فعلاً . وسمى هو والأرض الواسعة الممتدة قرية على ضفة النهر ، باسم « بلاط الحُرّ » .

فلما صارت الأمور إلى عمر بن عبد العزيز في ١٠ صفر سنة ٩٩ هـ / ٢٢ سبتمبر ٧١٧ م ، نظر في أمر المغرب والأندلس فأقسام على الأول « إسماعيل بن عبيد الله » وعلى الثاني « عنبسة بن سحيم الكلبي » وكلاهما كانا من خيرة الحكام . بدأ عنبسة في رمضان سنة ١٠٠ هـ / أبريل - مايو ٧١٩ م ، وعلى الرغم من قصر المدّة التي تولّاها فإنه من أولاته القلائل الذين قاموا بجهود إصلاحية عمرانية ، فهو أول من نظر في حصر أرض الأندلس وتمييز ما فتح منه . سلباً مسا فتح عبوة . وبدأ استصلاح الخمس من الأرض التي « تحت عبوة يدهه ملكاً لدولة » ، وأتم هذا فيما يتصل بإقليم قرطبة وفرويض أنه فتح عبوة . وعمر دخلت في الخمس أرض واسعة أنشأ الحُرّ في بعضها مقبرة للمسلمين ، ووزع الباقي على الزراع على أساس المزارعة ، أي المناصفة في الغلة . ثم أعاد بناء قنطرة الوادي وكانت قد تصدعت .

وفي سنة ١٠٢ هـ / ٧٢١ م خرج عنبسة غازياً في غالة فاستشهد في « طرسونة » في يوم عرفة من العام نفسه ، وبذلك يكون هذا الرجل قد ختم حياته بالاستشهاد في سبيل الله وهو أعظم الصالحات .

وقد كان عمر بن عبد العزيز قد فكر في إخلاء الأندلس من المسلمين خوفاً على مصيرهم في ذلك النهر السحيق في نظره ، ولكنه عدل عن هذه الفكرة ، إذ كان

المسلمون قد استقروا في البلاد وكثروا وبدأ نفر من أهلها مسلمون ، فلم تكن هناك وسيلة لتنفيذ هذا القرار الخاطئ دون شك .

وكان عمر بن عبد العزيز قد ولى علي الأندلس رجلاً من خيرة الولاة هو السمع بن مالك فصلحت الأمور على يديه فترة قصيرة من الزمن ولكن بعد وفاة السمع بن مالك وبعد موت عمر بن عبد العزيز ، عاد الأمر في المغرب والأندلس إلى الجند الشاميين وولاتهم ، فصارت الحصومات بين الولاة والعرب البلديين ، وانضم البربر في الأندلس إلى البلديين لاتفاق مصالح الجانبين ، وقد بلغ استبداد الشاميين ذروته في الأندلس حتى سنة ١١١ هـ / ٧٣٠ م ، وهي لى انتهت فيها إمارة « الهيثم بن عبيد الكلابي » وكان من أشد الولاة تعصباً للشاميين ، الذين يسمون هنا أيضاً القيسيين . وكان عرب الأندلس ينتهزون الفرصة بين الحين والحين لإقامة واحد منهم عاملاً على الأندلس ، ولكن الحكومة المركزية كانت تسرع بتولية وال جديد ، وبعد عزل الهيثم ، أقام عرب الأندلس والياً منهم ثم اختارت الحكومة واحداً منهم ، هو « عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي » قبلاً ولايته في صفر سنة ١١٢ هـ / مارس - أبريل ٧٣٠ م .

وكان عبد الرحمن من كبار جند الأندلس ومن أولئك الذين قضوا معظم أيامهم في الجهاد في غالة ، وقد سبق له أن تولى الأندلس سنة ١٠٢ هـ / ٧٢١ م ، فلما عادت إليه الولاية للمرة الثانية لم يكن له هم إلا جمع القوات وإعداد العدة للجهاد ، وكانت ولايته القصيرة من أهدأ فترات عصر الولاة ، ولسوء الحظ أن عبد الرحمن استشهد في بلاط الشهداء في رمضان ١١٤ هـ / أكتوبر ٧٣٢ م .

وعقب ذلك أقام عرب الأندلس على أنفسهم واحداً منهم ، هو عبد الملك بن قطن القهري الذي سيكون له دور كبير في تاريخ الأندلس فيما بعد ، وكانت ثورة البربر في المغرب قد بدأت تشتد وانتقلت أصداؤها إلى الأندلس ، قبلاً أمر العرب في ذلك البلد يتخرج ،

ولا تذكر لنا المراجع شيئاً واضحاً عن أسباب ثورة البربر على العرب في الأندلس ، وكل ما تفهمه منها أنها كانت امتداداً طبيعياً لثورتهم في أفريقية ، ولقد قيل كذلك إن الثورة اندلعت لأن عرب الأندلس اختصوا أنفسهم بأحسن الأراضي وتركوا للبربر أسوأها ، أي المناطق الجبلية القاحلة . ولا غير صحيح فإن راسي

الأندلس، حصنة من الكثرة بحدود تسع على الساحل من طرف وغير حرب من المسلمين، لم يكونوا إذا دخلوا بلاداً يقتسمون أراضي الناس فيما بينهم، والدولة العربية لم تكن دولة نهب وسلب وإنما كانت دولة لها نظامها، وأراضي البلاد مفتوحة كانت، لها نظمها التي تحكمت ولم تسع ما كان قد أصاب العرب من بدا غاستولى على مزارع ضائع وصار أصحابها وأما الفاتحون كما يستقروا في النواحي جددت عسكرياً تحت تصرف الدولة، وفي كل حال من ذلك كانوا ينالون حصّة مقررّة من الخراج، أما العرب والبربر الذين أحبوا أن ينصرفوا للزراعة، فقد زرعوا أراضي بالاتفاق مع أصحابها على أساس المزارعة، وليس على أساس آخر، وفي هذا المجال تجد أن البربر كانوا أكثر اشتغالاً بالزراعة وقد انتسحوا ديون حرج في الأراضي الغنية في مشرق الأندلس وفي أحواض الوديان الغربية وخاصة في نواحي ساحة ويزرون بذلك نواحي نواحي الأندلس.

وإنما يمكن أن يقال إن بعض العرب الذين استقروا في نواحي الأندلس استقروا بغير تنظيم وتعهدوا على أنفسهم من الدوا « دولتهم »، وكان بعضهم مؤلاء من الشامية أي من القيسية، أي من العرب الذين كانوا يرون أن الدولة الأموية دولتهم، أما العرب البلديون، ومعظمهم من اليمنية فكانوا يعبدون عن هذه النزعة، لأنهم كانوا أهل أرزاق ومعاش شأن غالبية الأمصار، في حين أن الشامية كانوا يرون أنهم أهل حرب وسياسة وحكم.

في هذه الظروف نفهم أن أخبار ثورة البربر المغرب التي أنكرت سيادة العرب جملةً، وحدثت في « بلاد » فقامت من « نواحي » ساحة « نواحي » عيب « عيب » عن العرب الذين معهم في حروبهم، وحاشاه من طائفة وحروب الدويرو والأراضي فيما بين هذا النهر ونهر تاجة.

وقد أسس الأندلس في ذلك عهد الملك من فطن العهري كما بر العرب المسلمون وكان هو وبغض من معه من بنسبة يحسبون أن ثورة قامت على شمس فلما رآها موجهة إلى العرب جميعاً وبلغه من العرب الهاربين إليه، من نواحي أشترقة وليون وسلمنقة وأبله وشقوبية أنفسهم أن البربر يسرون في ثلاثة جيوش وجهتها طليطلة وقرطبة، ولجزيرة الخضراء على الترتيب، خاف البربر سوء العاقبة.

وفي هذه الأثناء كان بلج بن بشر القشيري ومن معه محصورين في سبتة بعد

هزيمة « الأشراف » التي أشرب إليها في كلامنا من «فتنة المغرب» الكبرى في عصر
الولاء ، وكانوا يستغيثون بعبد الملك بن قطين دون جدوى ، ولكنه اضطر إلى
السماح لهم بالعبور ليعاونوه على القضاء على البربر ، وبدأوا بالفعل بقيادة بلج
سنة ١٢٢ هـ / ٧٤١ م . ولم ينقض عام على دخولهم الأندلس ، وكانوا حوالي ٦٠
آلاف ، حتى كانوا قد تمكنوا من القضاء على اثنا عشر ألف . وكانت المعركة الحاسمة
عند وادي سليط قرب الجزيرة الخضراء أوائل ١٢٤ هـ / نوفمبر ٧٤١ م ، وعقب
ذلك أخذ أولئك العرب الشاميون المتعصبون بطاردون البربر وكانت نتيجة ذلك
أن روع بربر الأندلس روعاً شديداً ، فأخذوا يتركون أراضيهم وخاصة في الوسط
والشمال الغربي ويعودون إلى أفريقية ، وكان لهذه الهجرة الجماعية أسوأ الأثر
على مستقبل الإسلام في الأندلس ، فإن الوفداً كثيرة من هؤلاء المسلمين الذين كان
يتنظر أن يعمروا بالإسلام كل نواحي شبه الجزيرة ، هاجروا وتركوا كل
الأراضي الواقعة شمال نهر تاجة خالية تقريباً من المسلمين ، فأصبحت هذه
النواحي ابتداءً من النصف الثاني للقرن الثامن الميلادي أراضي خلافة مفتوحة
لنصارى الشمال ليمتدوا فيها كيفما يشاؤون ، وسيعمر النصارى جزءاً كبيراً
منها خلال القرن التاسع الميلادي ويصبح حوض السويرو أرضاً نصرانية ، لقد
خسر المسلمون نتيجة لاختلاف بعضهم مع بعض ربع شبه الجزيرة ، خسروه
دون أن يخردهم منه عدو ، وإنما أخرجهم منه كراهة بعضهم لبعض وفلة نظرهم
إلى العواقب . وبعد أن انتصر الشاميون أصحاب « بلج » رفضوا العودة إلى
أفريقية ، كما كان الاتفاق بينهم وبين عبد الملك بن قطين فوقع النزاع الشديد
بين « بلج » وعبد الملك وانتهى بعزل هذا الأخير ، وولاية بلج بن بشر في ذي
القعدة ١٢٤ هـ / سبتمبر ٧٤١ م

وقد أنكر أهل الأندلس جميعاً رئاسة بلج ومارن سعة من الشاميين القيسيين
وقاموا عليهم وقتلوا بلجاً ، فخلفه شامي شديداً عصبية متعصب هو نعبدة بن سلامة
العاملي ، واشتدت الحرب بين البلدين من عرب وبربر في جانب والشاميين في
الجانب الآخر .

أبو الخطار وإنشاء الكور المجندة :

وأسرع عامل شمريقية حنظلة بن صفوان الكبي فزسل وبنو حصداً إلى الأندلس هو أبو الخطار الحسام بن ضرار الكنسي ، عند أرلايك في رجب ١٢٥ هـ / مايو ٧٤٣ م . وبدأ الرجل بدايةً طيبة ، فأمن العرب والبربر البلديين على أراضيهم ومصالحتهم ، وأراد أن يبعد عنهم أذى الشاميين ، واجتهد كذلك في إبعاد أذى هذه المنازعات القبلية العربية عن أهل البلاد المسلمين ، من أسم منهم ومن لم يسلم ، لأنهم أساس عمارة البلاد ورخائها .

ثم نظر إلى الشاميين فبين أنهم جميعاً منجمعون في قرطبة وإقليمها ، وهذا التجمع هو الذي يفتح لهم طريق التدخل في السياسة وشئون الدولة ، ففكر في أن يورعهم على نواح شتى في الأندلس ، لا ينزلها من البلديين وأهل اليمن أحد . وقد أشار عليه بذلك أرطياس بن غيسسة - ناسخ نصارى شامة ، وكان شخصية محترمة مقربة من الأمراء ، وكان يسمى « بقومس الأندلس » ، وانتهى الأمر إلى أن يذهب كل فريق منهم إلى ناحية فيستقروا فيها ، ويأخذوا ثلث الخراج الذي يؤديه نصارى الذمة والمزارعون ، على أن يقدموا للحكومة عدداً معيناً من الجند كلما طلب ذلك .

وقد تم توزيع أولئك الشاميين على الكور الآتية :

جند مصر : كور^(١) أوكشونية وباجة وتدمير .

جند حمص : كور إشبيلية .

جند فلسطين : كور « ريه » Regio وهي كورة مالفه .

جند دمشق : كورة البيرة وهي غرناطة .

جند قنسرين : كورة جيان .

وقد أصبحت هذه الكور الشمالية تسمى بالكور المجندة ، وقد استقرت فيها

(١) لكورة في مصطلح التقسيمات الإدارية العربية هي ما يقابل لمحافظة أو المديرية في مصطلح اليوم ولكل كورة زمامها (أي مساحتها) المعروف بالمحدد ، ولها قعدة أي عاصمة تتبعها مدن أخرى أصغر تقابل المراكز في التقسيم الحالي .

جماعات كثيرة من جنود الشام اندبوا ذكربهم وطمأنوهم فيها ، وكان عليهم أن يؤدوا الخدمة العسكرية لدولة عمر بن عبد العزيز الذي بكرناه . ولهم الحق في مقابل ذلك في الاحتفاظ لأنفسهم بثالث خراج الأرض ، وقد أصبحت هذه الاجند من العناصر العسكرية الرئيسية في التنظيم الحربي للأندلس .

ولم يستطع أبو الخطار الاستمرار في هذه السياسة الحكيمة ، فمال إلى البعية ، وثار النزاع من جديد .

وفي السنوات العشر الأخيرة من عهد الولاة في الأندلس ، ظهرت حكومة الصميل بن حاتم ويوسف الفهري ، ووصلت شخصيته فريدة في بامها ، ومعظم التواحي الإيجابية والسلبية في كثير من العرب الجاهليين ، الذين دخلوا الإسلام دون أن يمس الإيمان قلوبهم ، فهو شجاع لا يهاب الموت الكريم بخوفه بتر ما في يده دون تردد . شهم لا يرتكب ما ينسب له من سوء . وهو سيد مهذب يعرف كيف يعامل الناس ، وهو أيضاً شاعر يقول شعراً يسيراً ولكنه يعجب بالشعر الجيد ، وهو بعد ذلك كله أمي لا يعرف من القرآن الكريم إلا نزرأ يسيراً ، وهو عنيف في خصومته شديد الحقد لا يتسى ثاره ، ومصرف في العطاء لا يكاد يقر شيئاً وكان لا يتورع عن شرب الخمر ، وهو ذكي خبيث لا يفوته أمر ولا يتردد في القضاء على خصومه ، وهو كسول في معظم أوقاته ، فإذا قام على قدميه لم يهدأ ، وتحول إلى شيطان متصل الحركة فيصيب الناس والبلاد منه أذى شديد .

هذا الرجل نظر في أمر الأندلس فثنين بسبب قيسيته ، أي شاميته ، أن لشاميين وحدهم لا يصلحون للحكم وقيادة الحرب ، وأن أمر الأندلس لا يصلح إلا إذا تعاون الفريقان على أي صورة من الصور ، وكنهم كذلك لا يستطيعون مسيرة بلدين أكثره هؤلاء واستعدادهم للدفاع عن غسهم في كل حين . عندئذ ولأجمع الشاميين إلى لواء واحد هو لواءه ، ثم بحث في لشكر الآخر أي لشاميين فاختار زعيماً يؤيده ويؤيّر الأمر باسمه ذلك الوقت ، فوجد يوسف بن عبد الرحمن الفهري الذي أصبح سديون على رياسته ، وكان الشاميون أيضاً مستعدين للخضوع له بسبب مضر يتهم . وأخيراً تم الاتفاق بين الرجلين على أن تكون الإمارة ليوسف الفهري ويكون الصميل مستشاره وصاحب رأيه واستقر

الأمر على ذلك في ربيع الثاني ١٢٩ هـ / ديسمبر ٧٤٦ م . ولم تستقر الأمور بهما إلا بعد حرب طويلة مع رعيم حتى يسمى يحيى بن حريث ، سعت عصبية ، عيسية مبلغة جعه عرقاً ، بإطلاق على اضمحار أهل السام نأى سبيهم . ولكنه انهزم وقتل في معركة شقندة ١٣٠ هـ / ٧٤٧ م وخلا الأمر بعد ذلك للصميل ويوسف الفهري حتى جاء عبد الرحمن بن معاوية الداخل .

وقد هدأت الأحوال هذه السنوات ، فيما عدا ما كان من مجاعة شديدة بلغت ذروتها سنة ١٣٦ هـ / ٧٥٣ م وكانت هذه المجاعة نتيجة لما رأينا من حروب شديدة بين العرب فيما بين بعضهم البعض وبين البربر ، فازدادت الهجرة إلى أفريقيا وقل عدد المسلمين في شبه الجزيرة عما كان ، ويستثنى من ذلك إقليم سرقسطة وكان معظم أهله عرباً يعنيين قاستقروا في الأرض وزرعوا فلم يتأثروا بهذه الفتن إلا قليلاً .

قيام الدولة الأموية الأندلسية

١٢٨ هـ / ٧٥٦ م

وصلنا بتاريخ الأندلس إلى ولاية الصمبل بن حاتم وسوسف الفهري ، وهي ولاية طويلة ميزتها الوحيدة أن الهدوء النسبي ساد البلاد في أثنائها ، فلم نعد نسمع عن الخلافات العنيفة بين طوائف المسلمين من عرب وغرب عرب ، ولكن وضع الأندلس كان يحتاج إلى أكثر من هذا الهدوء ، فقد كان يحتاج إلى حكم قوي نشيط ، فإن البلد خضع للمسلمين ، لكنه لم يتحول إلى بلاد إسلامي بعد ، فقد كانت غماسة السكان نصرانية ، ولو استمرت سياسة الأمور على هذا النحو لالتقى المضطرب فإن أمر المسلمين في الأندلس كان لا بد أن يتلاشى فهو بعيد بعداً شاسعاً عن قلب مملكة الإسلام ومركز الخلافة فكان من العسير سداده بالعون المستمر ولو عادت بفترة مرة أخرى ولو بفترة قصيرة لأصبح نفاق النشء المحتومة مستحيلاً .

وقد أمكن تلاقى هذا المصير بحدوث هو من قبيل المصادفات ، ولكنه كان من أسعد المصادفات في تاريخ الإسلام ، ذلك أن قيام الدولة العباسية في بيع الأول ١٣٢ هـ / يونيو ٧٤٩ م اقترن بمذابح وألعة النطاوق أثرتها العباسيون بالأمويين اتقه ما لم فعلوا آل البيت - في انحصار - ونحصر من بعد الأمويين . وانصارهم في المناطق وقد حصص العباسيون الأمويين دواجن حمية ومن هؤلاء أبناء معاوية بن هشام بن عبد الملك وكسوا أربعة ركوب عدا البغاة وقتلوا ابن الأول ، فبعض قتل من الأمويين في دمشق عندما دخل العباسيون ، أما الثاني فقد قتل في مذبح « دير الجماجم » . وفي الثالث والرابع فقد كانا في بعض قرى العراق عندما أقبل جند العباسيين للقضاء عليهما قفرا معاً ، وكان أولهما عبد الرحمن بن معاوية بن هشام وكان في التاسعة عشرة وأخيه صفير في الثالثة عشرة واختفيا في مكان من ضفة انقرا ، ثم طلبا من موتى أن يعيبيهما عن العبور ، فخافهما هذا الرجل ودل العسكر عليهما ، ففرا على وجهيهما والقبيا بنفسيهما في الماء ليعبرا سدحة ، ووقف الحشد على النشاط يدعونهما إلى العودة .

وبعد أن أعطىهما الأمان ارتد الأخ الأصغر ليعود وحذره أخوه فلم يسمع ، فلم يكد يصل إلى الشاطئ حتى قتل ، أما عبد الرحمن فقد فر إلى قرية في الشام ، وكان قد اتفق مع حبيب بن وليد وولم الأصمعي ، عبران نهر الأردن إلى موليبيسا ، فإتوا فيعود إلى هذه القرية ومضى لثلاثة هاربين حتى عبرا معه ووصلوا إلى المغرب وكانوا يقعون في يد عبد الرحمن بن حبيب لكنهم نَحَوْا إلى ساحل المحيط عند طنجة واختفوا في قبيلة « نفزة » وكانت أم عبد الرحمن من بنات هذه القبيلة .

وعلى بعد ٦٠٠٠ كيلو متر من بغداد ، شعر عبد الرحمن بشيء من الأمان . كانت سنة ١٢٦ هـ / ٧٥٢ م تقريباً نجد عبد الرحمن يعيش في قبيلة « نفزة » في حماية شيخها ، وهناك بدأت أخبار الأندلس تصل إليه ، وكان أمرها قد صار إلى الصميم ويوسف الفهري وكان سالم مولى أخته قد حدثه عنه ، لأنه كان في جملة عساكر موسى بن نصير . ولكن سالم لم يحتمل خلق عبد الرحمن العنيف فعاد إلى المشرق وبحث معه بديراً الذي سيكون به نصيب كبير في إقامة صرح الدولة الأموية في الأندلس .

وفي سنة ١٢٦ هـ / ٧٥٢ م تقريباً نجد عبد الرحمن يعيش في قبيلة « نفزة » في حماية شيخها ، وهناك بدأت أخبار الأندلس تصل إليه ، وكان أمرها قد صار إلى الصميم ويوسف الفهري وكان سالم مولى أخته قد حدثه عنه ، لأنه كان في جملة عساكر موسى بن نصير . ولكن سالم لم يحتمل خلق عبد الرحمن العنيف فعاد إلى المشرق وبحث معه بديراً الذي سيكون به نصيب كبير في إقامة صرح الدولة الأموية في الأندلس .

وكان في الأندلس جماعة كبيرة من موالى بنى أمية ، ما بين موالى خفية كالوليد وسليمان وهشام أبناء عبد الملك ، وموالى البيت الأموي عامة وموالى موسى بن نصير ومغيث الرومي ومن إليهم من موالى بنى أمية ، وانضم إليهم موالى الفرسيين ، وقد عرفوا بمهارة في قرطبة ، وكانوا من خيرة قسطنطين الأندلس ، لما لهم من معرفة بشئون الدولة والإدارة ، وكان يوسف الفهري قد ارعى ولاء البيت الأموي ، وبحث معه بديراً الذي سيكون به نصيب كبير في إقامة صرح الدولة الأموية في الأندلس .

لهذا أرسل مولاة بديراً برسالة إلى زعمانهم وأهمهم ثلاثة : أبو عثمان عبيد الله ابن عثمان وعبد الله بن خالد ويوسف بن بخت - يرجوهم فيها معاونته على الوفود إلى الأندلس للاستقرار فيها مع تهيئة ظروف حياة مناسبة مثله .

ومن أول الأمر فهم الموالي أن هذا الشاب يطمح إلى ولاية الأندلس ، وكان ذلك
يوافق أهواءهم فاعتمدوا الأمر . وكلفوا فيه الصميل بن حاتم لأنهم كانوا يعرفون
أن القوة في يده . ومن الغريب أنهم لم يصطحبوا به يوسف الفهرى ، والمفروض
أنهم كانوا من مواليه ، وقد وعدهم الصميل خيراً

وكان يوسف الفهرى مشغولاً إذ ذاك بأمر ثورة في سرقسطة ، قام بها
اليمنون وكان يلح على الصميل وموالي بني أمية في الخروج ، وهؤلاء يسوّفون ،
ثم خرج الجيش آخر الأمر وفي أثناء الطريق تبين موالي بني أمية أن الصميل يحتال
عليهم وأنه لا يضمّر لعبد الرحمن هذا خيراً ، فأنصرف زعمائهم عن الجيش
واتجهوا إلى مراكز الموالي في « البيرة وجيبن » ، وفي الطريق قرروا أن يفضوا
أيديهم عن الصميل والقبائل المضرة وأن يعتمدوا على القبائل اليمنية الكلبية ،
وكانوا موفقين في هذه الخطوة لأن اليمنية كانوا يتوقعون إلى الأخذ بثأر هزيمتهم في
« شقندة » ، وكانوا تواقين إلى التخلص من سيادة الصميل بن حاتم عليهم عن
طريق يوسف الفهرى

لهذا استجاب اليمنيون في إقليم غرناطة إلى هذا النداء وتحسّسوا لعبد
الرحمن ، على أمل أن يدركوا الرياسة معه ، وهرروا مع موالي بني أمية استبقاهم
إلى الجزيرة ، وهكذا عبر عبد الرحمن في ربيع سنة ١٢٧هـ / ٧٥٤م إلى الأندلس
ونزل في « فرضة المنكب » في كورة غرناطة ، ومنها انتقل إلى « طرش » ، وكانت دار
يوسف بن بخت شيخ جند قنعرين وأحد كبار موالي بني أمية ، وهناك توافد عليه
الموالي وآتبعهم وذاع الأمر في الأندلس كله .

وبلغ الأمر الصميل ويوسف الفهرى في سرقسطة ، وكانت ظروفيهما سيئة
بسبب سوء تصرفهما مع الجند ، فلم يكن في أحدٍ حماسٌ حقيقيٌّ للنهوض معهما ،
« وأقبل الشتاء وهما في هذا الثغر القصي ومضى الناس يهوّنون عليهما أمر
عبد الرحمن قائلاً : إنه لا يريد إلا الاستقرار والعيش في سلام .

وفي هذه الأثناء كان معسكر عبد الرحمن في « طرش » يحفل بالناس ، وكان
أكثر الوفدين عليه المنضمين إليه من اليمنيين ، وانضمت إليهم جماعاتٌ من
البربر ، وكان هؤلاء يرجون أن يجسوا الراحة من القلاقل في ظل حكم جديد .

وعندما أقبل الربيع بدأت بطون مضي والقيسية تتوافد على الصميل ويوسف، وكانا قد انتقلا إلى قرطبة، وظهر أن المضرين الساميين لا يريدون أن يتأثروا عن الرياسة التي وصلوا إليها مع الصميل بن حاتم، وإزاء ذلك شرع عبد الرحمن يمر بقوته على منازل التميميين لاستنهاضهم، فاندفع إليه الكثيرون وتقدم مر فريب وضرب معسكره على الضفة الجنوبية للنهر، في حين تزايد حجم جيش الصميل ويوسف وتأهب الحاتبان للقاء حاسم. ووقع ذلك لقاء يوم الجمعة ١٠ ذي الحجة ١٢٨ هـ / ٧٥٦ م عند « المصاراة » وهي طرف قرطبة الغربي، وانتهى اليوم بنصر حاسم لعبد الرحمن ودخل قرطبة ونزل دار الإمارة مساء ذلك اليوم، ثم صلى بالناس وخطب على جند قرطبة، ويعبر ذلك اليوم ميلاد الدولة الأموية في الأندلس، بل ميلاد عصر جديد في تاريخ الغرب الإسلامي كله.

واستأمن الصميل ويوسف إلى عبد الرحمن فأمنتهما ثم نكحها عليه، وانتهى الأمر بحسن الصميل وموته مخنوقاً في سجنه، أما يوسف فظهر في فقد تشرد في نواحي الأندلس حتى قُتل في قرية قريبة من طليطلة.

فتوح المسلمين

شمالى جبال البرت

فى غالة (فرنسا)

فى مفهوم العرب إلى آخر السدولة الأموية على الأقل كانت حركة الفتوح حركة متصلة لا يمكن أن تتوقف مادامت هناك بلاد لم تصل إليها رسالة الإسلام ، فإذا ما تم فتح قطر فلا بد من الاسترسال فيما يليه مباشرة ، هكذا رأينا اتصال الفتوح الإسلامية إلى الآن .

فيما يتصل بالاندلس كان هناك دافع أكبر لكى يستمر العرب فى الفتح فيما يقع شمال البرانس ، وهو أن تلك الجبال لم تكن حد المملكة القوطية من الشمال ، إنما كان القوط يملكون إقليم سبتمانية وهو يتكون من سبعة أقسام إدارية تمتد على ساحل البحر المتوسط من جبال البرانس إلى مصب الرون ، وكانت عاصمة هذا الإقليم مدينة « أرغون » ، أما ما بين جبال البرانس فى الشمال فكانت تحتله فى الغرب دوقية « أقطانية » وعاصمتها « بردان أو بردو » ، وكان يحكمها إذ ذاك دوق يسمى « أود أو أودو » ، وكانت تحتل حوض الجارون وإلى شمالها كانت تقع مملكة الفرنجة ، وفى ناحية الشرق ، شمال سبتمانية كانت تقوم دوقية « برغنديّة » وتشمل بقية حوض الرون ، وكانت مستقلة عن مملكة الفرنجة .

أبى أن العرب فى محاولتهم للاندفاع شمالاً كان عليهم أن يواجهوا أربع جبهات للمقاومة : بقيا قوات القوط فى سبتمانية التى تسمى أحياناً « لا جايا جوثيك » ، وقوات دوقية أقطانية ، وقوات إمارة برغنديّة ثم قوات مملكة الفرنجة .

وكان عبد العزيز بن موسى قبل نهاية ولايته قد استولى على إقليم « قطلونية » ودخس المسلمون برشلونة وطركونة وجريدة المعروفة باسم « خيرونا » ، وبذلك كان شبه الجزيرة كله فى قبضة المسلمين عند نهاية إمارة عبد العزيز بن موسى سنة ٩٧ هـ / ٧١٦ م .

ولما تولى أمر الأندلس الحر بن عبد الرحمن الثقفي في ذي الحجة سنة ٩٧هـ / أغسطس ٧١٦م تقدم فدخل أرغون عاصمة سبتمانية ، وقام بعدد من الغارات القصيرة فتحت أبواب قرنسا الجنوبية للمسلمين

ولكن حركة الفتح في غالة بدأت بصورة جديده علي يد السمع بن مالك الخولاني ، الذي ولّاه عمر بن عبد العزيز علي الأندلس سنة ١٠٠هـ / ٧١٩م . وكان رجلاً عظيم الإيمان والحماس ، فقاد جنده من « أرغون » إلى « طرسونة » واستولى عليها ، وتقدم فحاصر طولوتة (تولوز) أولى المداين الكبيرة في دوقية « أقطانية » ، فاسرع الدوق « أودو » وجمع جيشاً كبيراً وتقدم نحو المسلمين ، ودارت معركة عنيفة بين الجانبين ، وقد صبر المسلمون صبراً كريماً حتى استشهدوا عن آخرهم . وكان ذلك في يوم عرفة ١٠٢هـ / ٢١ يونيو ٧٢٠م . ولم تستطع فلول القوات الإسلامية العودة إلى أرغون إلا بفضل قائد ممتاز من طراز السمع هو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، وهذه أول مرة نسمع فيها باسم هذا الرجل العظيم . تمكن من جمع فلول الجيش والعودة بنظام إلى أرغون ، وهناك انتخبه الحند العربي عاملاً علي الأندلس وتلك كانت ولاية عبد الرحمن الغافقي الأولى التي لم تدم . لا قليلاً

وكان الوالي الذي خلف عبد الرحمن رجلاً من طراز كبار الفاتحين وهو عنبسة ابن سحيم الكلبي ، فقد تولى من ١٠٥هـ / ٧٢٣م حتى شعبان ١٠٧هـ / يناير ٧٢٥م .

قضى عنبسة السنوات الأولى من الولاية في تنظيم أمور الأندلس وتكوين جيش قادر علي مواصلة الفتوح في غالة ، فلما تم له ذلك نهض سنة ١٠٦هـ / ٧٢٥م / ، فربح أمر حاميتي « برشلونة وأرغون » ثم سار شمالاً فاحتل « قرقشونة » ، وعقد حلفاً مع أهل الناحية علي أن يردوا أسرى المسلمين ويقاتلوا معهم ، ثم تقدم إلى « نيمة » فاحتلها وعقد مع أهلها اتفاقاً مماثلاً ، ثم اتجه نحو نهر الرون فسار مع ضفته شمالاً دون أن ينفق وقتاً في الاستيلاء علي مدن فلما أدرك « أوتان » احتلها ، إذ كانت أول عواصم إقليم « بورجونيا » ، ثم أدرك حوض نهر السارون - أحد نهيرات النوار الذي يلتقي بنهر الرون عند مدينته ليون ، واحتلت القوات الإسلامية « ليون وماكرون وشالون » ، وهناك تفرعت الحملة فرقتين إحداهما احتلت « ديجون » والأخرى صعدت مع السارون شمالاً

فتوح المسلمين

شمالى جبال البرت

فى غالة (فرنسا)

فى مفهوم العرب إلى آخر الدولة الأموية على الأقل كانت حركة الفتوح حركة متصلة لا يمكن أن تتوقف ما دمت هناك بلاد لم تصل إليها رسالة الإسلام ، فإذا ما تم فتح قصر فلا بد من الاسترسال فيما يليه مباشرة . هكذا رأينا اتصال الفتوح الإسلامية إلى الآن .

فيما يتصل بالاندلس كان هناك دافع أكبر لكى يستمر العرب فى الفتح فيما يقع شمال البرانس ، وهو أن تلك النجيل لم تكن حد المملكة القوطية من الشمال ، إنما كان القوط يملكون إقليم سبتمانية وهو يتكون من سبعة أقسام إدارية تمتد على ساحل البحر المتوسط من جبال البرانس إلى مصب الرون ، وكانت عاصمة هذا الإقليم مدينة « أرغون » ، أما ما يلى جبال البرانس فى الشمال فكانت تحتله فى الغرب دوقية « أقطانية » وعاصمتها « برديل أو برديو » ، وكان يحكمها إذ ذاك دوق يسمى « أود أو أودو » ، وكانت تحتل حوض الجارون وإلى شمالها كانت تقع مملكة الفرنجة ، وفى ناحية الشرق ، شمال سبتمانية كانت تقوم دوقية « برغنديّة » وتشمل بقية حوض الرون ، وكانت مستقلة عن مملكة الفرنجة .

أى أن العرب فى محاولتهم للاندفاع شمالاً كان عليهم أن يواجهوا أربع جبهات للمقاومة : بقايا قوات القوط فى سبتمانية التى تسمى أحياناً « لاجاليا جوتيكيا » ، وقوات دوقية أقطانية ، وقوات إمارة برغنديّة ثم قوات مملكة الفرنجة .

وكان عبد العزيز بن موسى قبل نهاية ولايته قد استولى على إقليم « قطلونية » ودخل المسلمون برشلونة وطركونة وجريدة المعروفة باسم « خيرونا » . وبذلك كان شبه الجزيرة كله فى قبضة المسلمين عند نهاية إمارة عبد العزيز بن موسى سنة ٩٧ هـ / ٧١٦ م .

ولما تولى أمر الأندلس الحرّ بن عبد الرحمن الثقفي في ذي الحجة سنة ٩٧هـ / أغسطس ٧١٦م تقدم فدخل أرغون عاصمة سبتمانية ، وقام بهدم من الغارات القصيرة فتحت أبواب قرطب الجنوبية للمسلمين .

ولكن حركة الفتح في غالة بدأت بصورة جديدة على يد السمع بن مالك الخولاني ، الذي ولّاه عمر بن عبد العزيز على الأندلس سنة ١٠٠هـ / ٧١٩م ، وكان رجلاً عظيم الإيمان والحماس ، فقد جند من « أرغون » إلى « طرسونة » واستولى عليها ، وتقدم فحاصر طرثونة (تولوز) أولى المدائن الكبيرة في دوقية « أقطانية » ، فأسرع الدوق « أودو » وجمع جيشاً كبيراً وتقدم نحو المسلمين ، ودارت معركة عنيفة بين الجانبين ، وقد صبر المسلمون صبراً كريماً حتى استشهدوا عن آخرهم . وكان ذلك في يوم عرفة ١٠٢هـ / ٢١ يونيو ٧٢٠م . ولم تستطع فلول القوات الإسلامية العودة إلى أرغون إلا بفض قائد ممتاز من طراز السمع هو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، وهذه أول مرة نسمع فيها باسم هذا الرجل العظيم . تمكن من جمع فلول الجيش والعودة بنظام إلى أرغون . وهناك انتخبه الحند العربي عاملاً على الأندلس وتلك كانت ولاية عبد الرحمن الغافقي الأولى التي لم تدم إلا قليلاً .

وكان الوالي الذي خلف عبد الرحمن رجلاً من طراز كبار الفاتحين وهو عنبسة ابن سحيم الكلي ، فقد تولى من ١٠٥هـ / ٧٢٣م حتى شعبان ١٠٧هـ / يناير ٧٢٥م .

قضى عنبسة السنوات الأولى من الولاية في تنظيم أمور الأندلس وتكوين جيش قادر على مواصلة الفتوح في غالة ، فلما تم له ذلك نهض سنة ١٠٦هـ / ٧٢٥م / ، فربح أمر حاميتي « برشلونة » وأرغون ، ثم سار شمالاً فاحتل « قرقشونة » ، وعقد حلفاً مع أهل الناحية على أن يردوا أسرى المسلمين ويقاتلوا معهم ، ثم تقدم إلى « نيمة » فاحتلها وعقد مع أهلها اتفاقاً مماثلاً ، ثم اتجه نحو نهر الرون فسار مع ضفته شمالاً دون أن يتفق وقتاً في الاستيلاء على مدني . فلما أدرك « أوتان » احتلها ، إذ كانت أول عراصم إقليم « بورجونيا » ، ثم أدرك حوض نهر السارون - أحد نهيرات اللور الذي يلتقي بنهر الرون عند مدينة ليون ، واحتلت القوات الإسلامية « ليون » وماكون وشالون » . وهناك تفرعت الحملة فرقتين إحداهما احتلت « ديجون » والأخرى صعدت مع السارون شمالاً

حتى بلغت « صانص » على بُعد ٧٠ كيلو متراً جنوبي « باريس » ، وهذه كانت أبعد نقطة وصل إليها المسلمون شمالاً ، وهي تبعد نحو ٨٠٠ كيلو متر شمال جبال الأيرت ، وإن وصول العرب فاتحين إلى ذلك الحد ، لدليل قاطع على ما امتازوا به من جرأة وقوة وإيمان تصنع المستحيلات ، ولا يقلل من هذا الفضل أنهم لم يستطيعوا البقاء عند ذلك الحد ، فالواقع أن البقاء عنده كان مستحيلاً إذا نظرنا إلى الظروف العامة التي تمت فتوح المسلمين في « غالة » خلالها ، فإن عنيسة كان يوحى في سب أوروبا الغربية نفسها ركة المنعزب الحرساية متراصة من « صها بعضاً » ثم من الفرنجة أصحاب هذه المنطقه كانوا يعمرون في عمرة « بوسر » سبسي تولاه ال « كارل مارتل » الذين عرفوا بالكار ولنحيين ليحلوا محل المير وفنجيين . وكان كارل مارتل وتسميه المراجع العربية « قارله » يجمع قوى أنصاره ويستظر الفرصة التي تسمح له بإثبات استحقاقه لتاج الملك من دون ملك المير وفنجيين الضعيف .

وأخذ عنيسة مع رجاله طريق العودة إلى الأندلس سنة ٦٠٧ هـ / ٧٢٦ م محملين بالغنائم بعد أن اجتاحت حوض الرون كله ، وشخطوا اللوار ووصلوا إلى السين . ولا نستطيع القول بأن عنيسة فتح جنوبى غالة أو حوض الرون ، لأنه في الواقع لم يفعل شيئاً لتثبيت أقدام المسلمين فيما وصلوا إليه من البلاد ، ولكنه على أى حال الفاتح المسلم الوحيد الذى وصل إلى هذا المدى في فتوحه ، وريم جار تشبيه حملة عنيسة بحملة عقبة الكبرى ، مع اختلاف الظروف طبعاً .

وكان لا بد من حملات ضخمة أكثر نظاماً ليتم فتح هذه النواحي كما أتمت حملات زهير بن قيس وحسان بن النعمان وموسى بن نصير عمل عقبة بن نافع ، ولكن ظروف العرب في المغرب والأندلس لم تكن تسمح لهم بمواصلة الفتوح بالقوة التي عهدناها فيهم ، وذلك بسبب الخلافات بين العرب أنفسهم ، ثم بينهم وبين البربر ، ثم إن حملة عنيسة أثارت مخاوف أوروبا الغربية كلها ، فقد اقتحموا العرب اقتحاماً وأوغلوا في داخل بلادها ، دون أن يستطيع أحد مقاومتهم ولقد شعر القائم بأمر مملكة الفرنجة إنذاك وهو شارل أو كارل بأنه لا بد أن يقوم بعمل حاسم لإبعاد العرب مرة أخرى ، ودفعل بدأ يستعد لذلك حاسم فاجد بجميع القوات والسلاح والأزواد ، وصالح أمراء « برغندية » واتفق مع رجال « سبثمانية » ومع البوق « أودو » ليقوموا معاً بعمل حاسم ضد المسلمين .

ومن سوء الحظ أنه وقع انشقاق في صفوف المسلمين المقيمين في الثغر الأعلى الأندلسي أي حوض الإيبرو وكان له أثرٌ سيئٌ على سير الفتوح فيما بعد ، فإن الدوق أودو كان قد حالف المسلمين ، بل صاهر قائداً بربرياً من قوادهم يسمى «موقوسة» كان مركزه في الناحية الغربية من جبال البرت ، ولم يرض المسلمون عن هذا الصهر ، لأن موقوسة بدأ يأخذ جانب أودو ورجال أقطانية ، وانتهى الأمر إلى انفصاله عن المسلمين بمن معه من الرجال . وتذهب الروايات إلى أن عبد الرحمن الخافقي الذي كان يحكم أرغون وينظم أعمال الجهاد اختلف مع موقوسة حثافاً حثافاً ، وكل عبد الرحمن رجلاً عفيفاً صالح الأسقامه من طر عقة بن نافع ، فاشتد مع موقوسة فزاده نفوراً وانضمت إليه جماعات كثيرة من البربر .

وكان عنبسة قد استشهد في طريق عودته إذ همتهم قوات نصرانية كبيرة في خوانق جبال البرت ، وقد قُتل عنبسة في اللقاء في شعبان سنة ١٠٧ هـ / ديسمبر ٧٢٥ م وتولى قيادة الجند وولاية الأندلس من بعده عذرة بن عبد الله الفهرى الذي حكم حتى ربيع الأول ١١٠ هـ / يونية - يولية ٧٢٨ م

وقد قام عذرة بعمليات عسكرية قليلة في غانة ولكن يبدو أن الجند الإسلامي الذي كان مركزاً في أرغون كان يقوم بضربات سريعة وغارات عنيفة في كل جهة ومثل هذه الغارات والضربات تؤتى غنائم وافرة للمحاربين أنفسهم ، ولكنها تضر بالقضية الإسلامية الكبرى ، فهي من ناحية ترعب الناس من المسلمين ، وتلفى في روعهم أنهم أهل غارة وسلب ونهب لا غير ، ومن ناحية أخرى فهي تفقد الجنود طابع النظام وخواص الجدية والإيمان والبسلة الحقيقية ، ومن أسف أن عذرة بن عبد الله الفهرى لم يستطع ضبط رجاله ، فذاع اسمه في جنوب فرنسا كلها كرجل سفاكٍ نهاب ، وتطلمع الناس هناك إلى من يخلصهم من هذه الغارات السالبة التامة ، وذلك كله مهد الطريق أمام شارل مارتل ، بينما تعاقب على ولاية الأندلس بعد عزل عبد الرحمن الخافقي وذلك خلال الأعوام (١٠٥ - ١١٢ هـ / ٧٢٢ - ٧٣٠ م) سبعة ولاة ، لم يقض أحدهم فيها أكثر من شهرين مما يدل على اضطراب الأحوال

ومن حسن الحظ أن الولاية بقيادة الفتوح صارت في صفر ١١٢ هـ / أبريل

٧٣٠ إلى عبد الرحمن بن عبد الله الخافقي ، فقد استنصاع بحزمه وروحه العسكرية أن يضبط جنوده ويعيدهم إلى النظام من جديد ، خوف أنه لم يستطع استعادة مونتوسه إلى صفوفه ، ولكنه على أي حال أوقف تيار تدهور الفتح إلى غارات ، ولو أن عبد الرحمن الخافقي كان أقل عنفاً عما كان في الواقع ، لاستطاع أن يصل إلى نتائج أحسن ، ولكنه كان حذيراً عيفاً بالغ الحماس لا يلتفت إلى سياسة أو كياسة مما قلل فرص النصر الكبير أمامه .

خرج عبد الرحمن الخافقي بحملته الكبيرة في أوائل ١١٤هـ / ربيع ٧٢٢م وكان معه ٧٠ ألف جندي تقريباً غالبهم من البربر ، في حين أن الروايات النصرانية تقول إنه كان يقود ٤٠٠ ألف مقاتل .

ولم يحاول عبد الرحمن الخافقي أن يكسب صداقة الدوق « أود » ، بل إنه لم يعمل على إيقافه على الحياد ، وأتى عبر جبال الألب في ١١٤ هـ / صيف ٧٢٢م من المصراة رسماً إلى قلب بلاد أودو . فاضطر هذا إلى طلب العون من رجال الفرنجة ، واستولى عبد الرحمن على « طولوشة » مرة أخرى ، ثم ارتد شرقاً إلى حوض الرون فاجهز على ثورة قامت في مدينة « آرل » ، وعقب ذلك عاد عبد الرحمن واتجه نحو « برود » عاصمة أقطانية وتصدى له الدوق « أودو » . فهزمه عبد الرحمن هزيمة كبرى على ضفاف نهر الدورديوني ثم دخل المسلمون بوردو واحتلوها وأسرح « أودو » نحو شارل مارتل ، وتقدم عبد الرحمن فاحتل بواتييه بعد صراع عنيف وشرع يستعد للسير شمالاً نحو باريس .

وعمل شارل مارتل الذي تسميه مرجع « فار » فحشد كل ما استطاع من قوة لنقاء المسلمين ، واستنفر الناس استنفاراً فتخضم جيشه . وسار جنوباً للقاء العرب شاعراً أن هذه فرصته الكبرى لكي يثبت جدارته بالملك من دون الميروفنجيين .

وكان الجيش الإسلامي كبيراً ولكن ليس بالضخامة التي يصفه بها مؤرخون النصراني . وينبغي قبل أن نقص تفاصيل المعركة القادمة أن نلاحظ :

أولاً : أن الجيش الإسلامي رغم شجاعته وارتفاع قواه المعنوية ، كان قد بعد جداً عن بلاد الإسلام ، وأصبح الآن على بعد ٤٠٠ كم تقريباً شمال جبال الألب ،

وجبال الأبرت تبعد ٩٠٠ كم عن قرطبة ، وهذه مسافات واسعة جداً تجعل موالاة الجيوش بالمؤن والأزواد والامداد أمراً عسيراً ، ولو أرسل عبد الرحمن الغافقي رسالة استنجد إلى قرطبة فإن حاملها لا يصح في أقل من شهرين ، في حين أن «قارله» كان يحارب في بلاده وبين أهله وعشيرته .

ثانياً : كانت الغالبية العظمى من المسلمين من البربر ولم تكن لعلاقات بينهم وبين العرب أهل القيادة عنى ما ينبغى في هذه الظروف ، ولم تكن لدى عبد الرحمن الغافقي من السياسة وبعد النظر ما يمكنه من إزالة أسباب الخلاف في الجيش ليستطيع السيطرة الكاملة على قواته .

ثالثاً : كان الوقت خرويفاً وهو موسم الأمطار الثقيلة في هذه النواحي والمسلمون لا يستريحون للبرد والمطر ، وكانت تلك المناطق كلها غابات ، والفارس العربى لم يكن يحسن الحرب في الغابات ، ثم إن خيول المسلمين العربية الضامرة تأثرت دون شك بالبرد والأمطار ، ولم تعد تستطيع الحركة بنفس الخفة التي تعمل بها في الجو ابدائي الجاف .

رابعاً : يبدو أن عبد الرحمن الغافقي كان جندياً عظيماً ، ولكن كالت تنقصه القدرة على وضع خطة محكمة للقتال كما رأينا مثلاً عند حسان بن النعمان وطارق بن زياد ، فقد استمر عبد الرحمن في سيره حتى لقيه الفرنجة وأخيراً : لدينا مسألة الغنائم الكثيرة التي كان الجيش الإسلامى يسحبها وراءه ، ويقهر من بعض الروايات أن خوف المسلمين عن ضياع هذه الغنائم كان من أكبر أسباب الهزيمة .

وقد كان اللقاء على بعد ٢٠ كيلو متراً شمال «جواتيبه» في الطريق إلى «تور» وجنوبى مجرى اللوار ، في موضع قريب من طريق رومانى قديم هو اسسمى «بالبلاط» ، وفي هذا الموضع قرية تسمى الآن مواسبه لا يأتى Moissias la Balane وربما كان موقعها يحدد مكان المعركة

أما تاريخ المعركة فالرأى اسائد اليوم أنها بدأت في ١٢ أو ١٣ أكتوبر ٧٣٢م / أواخر شعبان ١١٤هـ ، واستمرت إلى ٢٠ أكتوبر أى أوائل رمضان من تلك السنة .

دارت المعركة إذن أكثر من أسبوع مما يدل على أنها كانت معركة حامية ،
والحق أن كلا من الجانبين بذل أقصى وسعه في القتال ، وصبر المسلمون صبراً
طويلاً حتى تجمعت عليهم قوات نصرانية من كل ناحية ، فلم يقتصر الأمر على
الفرجة بل كان هناك كثيرون من أجناس جرمانية أخرى ، وآخر مراحل المعركة
كان هجومًا عنيفاً على مؤخرة الجيش الإسلامي ، فانتهبت الغنائم وتزعزع نظام
الجيش ودقت ثغرات نفذ منها الأعداء ، وفي أثناء ذلك استشهد عبد الرحمن
العافى بسبب أصابه ، وكان هذا يدمر الهرمة ، وقد استمر القتال مع ذلك حتى
هبط الليل فتحاجز الفريقان ، وانتهزت فلول المسلمين الفرصة فتسللت من مكان
المعركة تحت الظلام ، فلما أصبح الفرنجة لم يجدوا للمسلمين أثراً ، ولكنهم وجدوا
دخائر عظيمة فانتهبوها ولم يفكروا في نبيه المسلمين فاستمرت بقوة الفتنة مدة
وعادت إلى أرغون .

وعندما بلغ الخبر إلى عبدة بن عبد الرحمن السلمي ، عامل أفريقية ولئ
عبد الملك بن قطن الفهري من قبله على الأندلس ، فأسرع هذا إلى أرغون ، وفي
الطريق أعاد الهدوء إلى أملاك المسلمين في جبال البرت وجنوب فرنسا ، وثبت
سلطان المسلمين في سبتمانية وعقد معاهدات مع نفر من الرؤساء خففوا الدوق
أودو في حكم نواحي النصفية وتسمن في وقت قصير من أن يتلافى الكثير من آثار
السيئة التي خلفت عن هزيمة أبلات ، ومن حسن الحظ أن « كارل » شغل عن
المسلمين بأعداء كثيرين من أبناء جنسه في شمال مملكته ، فأتاحت الفرصة
للمسلمين ليعيدوا تنظيم أنفسهم من جديد .

وقد تمكن عبد الملك بن قطن من إعادة تنظيم القوات الإسلامية بفضل قائد
من قواده ، تسميه المراجع النصرانية يوسف وربما كان يوسف الفهري . وقد فتح
يوسف هذا مدن : آرل وأبنيون وفالانس ولون ، وثبت حدود أملاك المسلمين
هناك ، ثم أخضع إقليم « دوفيني » الذي يمتد شرق نهر الرون ويشمل جزء
كبيراً مما يعرف اليوم بالرافيرا الإيطالية ، واشتغل بعد ذلك بإعادة سلطان
المسلمين على نواحي جبال البرت . ونلاحظ أن المسلمين اتخذوا سياسة جديدة
لحكم ما بيندهم من فرنسا وهي إقامة حاميات قوية في المدن وتحصين قلاعها

واتخاذ هذه القلاع مراكز للحكم والحرب . هكذا كان الحال في ليون ونيورنسي
يسمونها المسلمون صخرة أبنيون وآرل وغيرها .

ثم تولى بعد ذلك عقبة بن الحجاج السنوذي فآتم إخضاع نواحي برعديه
وكان عقبة مجاهد عظيم ، فتجددت همة المسلمين لنقل ، وأحضر كرل أنه
لا مفر له من مواجهة المسلمين مرة أخرى . وتقدم بالقيل بجيش
كبير يقوده هو وأخوه « شلدبراند » وسار نحو المسلمين أيضاً ملك
اللو باردين . فاصبر المسلمون إلى إخلاء أبنيون وتراجعوا إلى أرمون وتحصنوا
فيها ، وهناك ثبتوا نحو ٣٠ سنة ، فلم تسقط إلا في سنة ١٤١ هـ / ٧٥٩ م وكان
ذلك في أيام عبد الرحمن الداخل . وقد وجد عبد الرحمن أنه لن يستطيع المحافظة
على أملاك إسلامية شمال جبال البرت ، فأخلى هذه الأراضي واقتصر على شبه
الجزيرة الإيبيرية . وكان ذلك خطأ منه ، لأن جبال البرت هي مفتاح إسبانيا
وكانت نتيجة تخليه تماماً عما يقع شمالها أن استعبد الفرنجة فيما بعد مسند
قطلوونية ، فأنشأ شرلمان فيها ولاية الثغر الإسباني « لمارك هيسبانيكا » ،
ومعنى ذلك أن شبه الجزيرة انتقص أيضاً من الشرق بعد أن انتقص من الغرب
كما رأينا .

وقد بقيت للمسلمين جماعات محاربة في نواحي سبتمانية ودوفينية ،
وانسحب معظمها إلى نواحي جبال الألب الحصينة حيث اتخذوا لأنفسهم مواقع
يقومون منها بأعمال عسكرية هيماءجورث ، وعد واصلت أعمالهم « حرة إلى
قلب سويسر » ، ولكن هذه لم تكن فتوح ولا أعمالاً إسلامية ، إنما هي غارات محتل
هدفها دفع عن النفس والسل . وقد تلاشت هذه جماعات شيئاً مشدداً تربية
أسماءها على بعض النواحي وبعض وديان جبال الألب الجنوبية أو الشرقية ، من
أمثال « أمرو » وهو عمرو « واشمه » وهو هرثمة « وسارازان » وهو اسم عام يراد
به المسلمين عامة في هذه النواحي .

عصر تأسيس الدولة الأموية الأندلسية

عبد الرحمن بن معاوية الداخل ١٢٨-١٧٢ هـ / ٧٥٦-٧٨٨ م
هشام الأول الرضي بن عبد الرحمن الداخل ١٧٢-١٨٠ هـ / ٧٨٨-٧٩٦ م
الحكم الأول ابن هشام (الرضي) ١٨٠-٢٠٦ هـ / ٧٩٦-٨٢٢ م

أصبح عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالداخل أميراً على الأندلس ، وهو لا يعرف عنه إلا القليل ، بل لم تكن علاقاته بعرب الأندلس وبربره وأهل البلاد أول الأمر متينة ، يستطيع الأطمئنان إليها ، ولكنه كان رجلاً موهوباً جمع صفات كثيرة : السيادة والحزم والسياسة والحكاسة وبعد الهمة وحسن التدبير رغم أن سنه كانت صغيرة إذ ذاك ، ولكنه ورث من جده هشام بن عبد الملك خصالاً أهلته للرياسة ، فقد كان هشام بن عبد الملك من خيرة رجال العصر الأموي ، وكان عصره حافلاً بالأحداث حتى يمكن أن نعتبره مدرسة تكون فيها نفعاً من خبرة المتأخرين من بني أمية ، منهم مروان بن محمد الجعدي وعبد الرحمن ابن معاوية بن هشام هذا ، فبدأ يرقب أموره يهدوء ويتلقى الثورات التي قامت عليه ، في حزم وثبات ، ومضى قدماً في تثبيت أركان إمارته التي وضع أول أحجارها وكان عليه بعد ذلك أن يجعل لها جذوراً ويقويها بدعائم .

ومن أول الأمور نجد عبد الرحمن يسير في العمل سير من يعرف الدولة ونظامها وما ينبغي لها من قواعد ، فتجده يرتب الإدارة المركزية ، معتمداً على رجال من موالى بني أمية ، اختارهم اختياراً حسناً مثل « ثمام بن علقمة ويوسف ابن بخت وبدر مولى عبد الرحمن نفسه وعبد الواحد بن مغيث الرومي وعبد الحميد بن غانم وشهيد بن عيسى بن شهيد بن الوضاح الأشجعي وعبد السلام ابن عبد الله جد بني عبد الوؤوف وعبد الله بن رانسوس المكناسي » مولى سليمان ابن عبد الملك . وسيصبح أولئك الرجال وأساؤهم من عهد القوة وسلم الأموي والأندلسي على طول تاريخه ، فإن الأمراء كانوا يختارون قوادهم وكبار موظفيهم من بينهم لأن معرفة الإدارة وشئون الحكم تأصت في بيوتهم . وأحمد بيوت آخر

الحكم هذه التي تميزت على عرف ، وكثير ظهور لنابيين من بين هــ في ميادين الإدارة والقيادة وشئون المل وتولى العمليات وتوصيرون إلى مراتب إدارية مرة بعد مرة ، بيوت : « تمام بن علقمة وعبد الواحد بن مقيث وشهيد بن عيسى ابن شهيد وأبو الفجر حسان بن أبي عبدة » ، وستتضم إليها وتتفرع منها في الطريق بيوت أخرى ، ولكنها بيوت موال أيضاً . ومن يدرس تاريخ بني أمية الأندلسية لابد أن يدرس تاريخ هذه البيوت الموازية لها ، وأهمها : « بنو أبي عبدة وبنو عبد الرؤوف وبنو شهيد » ، وأبناء هذه البيوت لهم فضل عظيم على بني أمية الأندلسيين وما وصلوا إليه من نجاح .

كان عبد الرحمن الداخل هو الذي وضع ذلك الأساس ، لأنه كان في حاجة بالفعل إلى رجال يعتمد عليهم فهو غريب عن البلاد ، لا يعرف عن أهلها إلا القليل ، ومن حسن الحظ أن هؤلاء الموال جميعاً تصاهروا مع أهل البلاد ، فكثر بيوتهم أندلسية في طبيعتها ، ونشأ أولادهم أندلسيين من مزاجهم وعواصمهم ، ويركأوا عرباً في روحهم وثقافتهم ، مسلمين أمناء في ديانتهم ، وسياسيين بنو أمية أنفسهم في ذلك لطريق ، سيتزوجون من أهل البلاد ، وينبض في عروقهم الدم الأندلسي ، وابتداءً من أيام هشام بن عبد الرحمن ، لا نتعجب عندما نعرف أن لغة الحديث في القصر وألشارع وشئون الأسر والأسواق ، كانت مزاجاً من العربية والإسبانية ، بينما كانت العربية لغة الدولة والدين والأدب والعلم والرسميات ، وقد صاحبت هذه الثنائية الثقافية الشعب الأندلسي على طول تاريخه .

قامت دولة عبد الرحمن ، على عون كبير من العرب اليمنيين وأثر بر البلديين ، وقد تصور اليمنيون البلديون أن انتصار عبد الرحمن ، معناه أن الدولة صارت دولتهم وأنهم يستطيعون الآن أن يتصرفوا كيف يشاؤون ، ويستثمرون على أسس الفوضى والاستحفاف بالناس والأموال والإنفاق في العصبية العنيفة ، التي وصلت بالأندلس إلى الحالة السيئة التي رأيناها خلال عصر الولاة ، ولكنهم فوجئوا بأن العهد الجديد لن يعترف بقيسية أو يمنية ولا يفرق بين شاميين وبلديين أو يربز أو أهل البلاد ، إنهم جميعاً أهل وطن واحد ، ولا بد لهم من الخضوع لقرطبة ، وقد أنكر اليمنيون ذلك إنكاراً شديداً واعتبروه جحداً لفضائلهم ، فتسارعت ثوراتهم على عبد الرحمن في كل ناحية ، وقد اعتمد في

حربهم على مقاتلي بني أمية ، وعلى جند الكور المجنده وعلى حشود البربر وأهل البلاد ، وكانت خطته معاجلة الثائرين قبل أن يجمعوا أمرهم ، وقد عادت هذه المبادرة على عبد الرحمن بنفيع كبير ، فقضى دون كبير مشكلة على ثورات اليمانيين في الجزيرة الخضراء وإشبيلية وطليطلة وباجة .

وكانت بعض هذه الثورات خطرة حقاً مثل ثورة «العلاء بن مغيث» اليحصبي ، في باجة ، لأن هذا الرجل جمع جمعاً عظيماً من اليمانيين والفهرين وجند مصر ، ودعا لبني العباس وكتب إليهم يطلب سجلاً بالحكم ورخصوا هم بذلك ، ولكن عبد الرحمن قضى على الثائرين في حزم وقوة سنة ١٤٧ هـ / ٧٦٤ م ، وقد حاول زعيم يمني آخر هو « سعيد اليحصبي » المعروف « بالمطري » ، أن يثار لقتل ثورة العلاء بن مغيث ، واستنفر اليمانيون للثورة على عبد الرحمن في « لبله » جنوب غرب الأندلس فقضى عليها هي الأخرى وعلى محاولة مماثلة في إشبيلية .

وكانت آخر ثورة خطيرة واحداً عبد الرحمن هي ثورة ربح بربري يسمى « شقياً » أو شعياً بن عبد الواحد ، زعم أنه من أبناء فاطمة الزهراء ، وقد قامت في منطقة وعرة هي « شنتورية » ولم يستطع عبد الرحمن القضاء على هذا الدعي الفاطمي إلا بعد جهد شديد سنة ١٦٠ هـ / ٧٧٦ م .

وقد تعرض الأندلس أيام عبد الرحمن إلى محاولة قام بها شارلمان للاستيلاء على سرقسطة في التغر الأعلى . ولو وفق شارلمان إلى ذلك لما كان من المستبعد أن يستطرد إلى غيرها من عواصم الأندلس . ومن حسن الحظ أن الأندلس كان مجتمعاً تحت راية عبد الرحمن في ذلك الحين ، فتمكن من النجاة من الخطر المحيق به ، ومن الأسف أن الذين لفتوا نظر شارلمان إلى الأندلس ودعوه إلى غزوه ووعده بالمعاونة ، كانوا عرباً يتزعمهم « سليمان بن يقظان الكلبى » المعروف بالأعرابي ، وإلى برشلونة ، « والحسين بن يحيى الأنصارى » وإلى سرقسطة ، وقد بلغ عطشهم للانتقام من عبد الرحمن إلى درجة أنه هان عليهم أن يعرضوا لإسلام والغروبة في الأندلس للخطر ، في سبيل أحقاد شخصية . وقد بلغ بهم الأمر أن ذهبوا للقضاء شارلمان في « بادربورن » في ولاية وستفاليا في غرب ألمانيا الاتحادية الحالية ، واتفقوا معه على أن يعاونه على الاستيلاء على سرقسطة .

وفي شوال ١٦١ هـ / ربيع ٧٧٨ م سار شارلمان نحو إسبانيا في جيش ضخم ،

فعبّر جبال البرت من الشرق أي من ناحية « تريبونة » ودخلت بعض الفرق الفرنجية في ممر في الجزء الغربي من الجبال يسمى « رنشفالة » أو « باب الشرقي » ، وكان الاتفاق أن يعاونه البشكونس من خلفاء المسلمين في ذلك العمل ، وأن يقوم « الحسين بن يحيى الأنصاري » بتسلم سرقسطة إذا وصل إليها ، ولكن بعد أن استولى شارلمان على بندونة ، ورأى جمهور المسلمين من أهل الثغر الأعلى أن سليمان بن يقظان الأعرابي قد خدعهم ، وأن الأمر سينتهي بغزو نصراني أجنبي لبلاد إسلامية ، غيروا موقفهم وتحالفوا مع البشكونس عز أولئك الغزاة ، ورفض الحسين بن يحيى الأنصاري أن يفتح أبواب سرقسطة ، فطال حصار شارلمان لها حتى أحس أنه لن يستطيع الاستيلاء عليها قبل نزول الشتاء ، فقررو العودة ، وغضب على سليمان بن يقظان الأعرابي ، واعتبره أسيراً هو وكل من كان بين يديه من رهائن العرب ، وانقلب راجعاً في ستة ١٦٦ هـ / ٧٧٨ م .

وكان أسر سليمان بن يقظان ومن معه إيذاناً بانقلاب جميع مسلمي الثغر الأعلى وحلفائهم من البشكونس على شارلمان ، فقرروا الهجوم عليه عندما تتوسط قواته خوانق ممر رنشفالة الضيقة ويقول ابن الأثير^(١) إن « شارلمان لما بعد عن بلاد المسلمين وطمأن ، هجم مطروح وعيشون أبناء سليمان بن يقظان الأعرابي في أصحابهما ، فاستنقذا أباهما ورجعا به إلى سرقسطة » . وهذه هي الإشارة العربية الوحيدة لواقعة خطيرة سيكون لها صدئ بعيد في الأدب الشعبي الفرنسي ، ذلك أن مؤخرة جيش شارلمان كان يقودها فارس من إقليم بريطانيا ، يسمى « هر دولاند » ويعرف عادة « بـ رولاند » Roland ، فانقض عليها المسلمون والبشكونس ومنقروها وقتلوا رولاند ، رغم ما أدى هو ومن معه من بسالة ، ثم وقع قتال عنيف انتهى بالقضاء على معظم قوات شارلمان ، واندمج الدخيل في هذه الواقعة ، « ملحمة رولاند المشهورة » . ومعظم حوادثها لا صلة لها بالواقع التاريخي ، لكنها ترمزنا تصور الناس في جنوب فرنسا للمسلمين وعقيدتهم ، وهذه الملحمة تعتبر من المعالم الحاسمة في تكوين اللغة الفرنسية .

وبعد ذلك بسنتين سار عبد الرحمن إلى سرقسطة ، فحضى على بقايا الثغرين

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ج ٦ صفحة ٥ .

ومهد أمورا إقليمها ونظمه ودخل بنبلونة عاصمة البشكوس وعاهدهم على الخضوع للمسلمين وأداء الجزية ، وكان ذلك سنة ١٦٢ هـ ، ١٦٤ هـ / ٧٨١ م .

نظرة عامة على حكم عبد الرحمن الداخل وأعماله :

وقد قضى عبد الرحمن ما بقى من حكمه في مدوره نسبي ، وانصرف إلى تثبيت دعائم دولته ، ومن الطريف أنه عندما استقر أمره بحث يستدعى بقايا بني أمية ، ليستعين بهم في أمره فأقبل إليه الكثيرون منهم ، فعهد إليهم بمسئوليات كبرى ولكنه فوجيء بحسد الكثيرين منهم له ورغبتهم في القضاء عليه فيس من ناحيتهم ، وهكذا تبين أن هذا الرجل العظيم يلاقى تكران الجميل وانقلاب الرجال ، مما جعله بعد ذلك يقتصر على المخلصين من موالى بني أمية ومن انضم إليه من أهل البلاد ورجال الكور المجتدة وهم من العرب ، وقد أنشأ عبد الرحمن إلى جانب ذلك قوة جديدة من الصقالبة صفاراً من بلاد نصرانية ، ويُرَبُّون في البلاد الإسلامية تربية إسلامية عربية ، وينشأون جنداً خالصاً للإمارة ورجالها ، وقد أصبحت هذه القوة مع الزمن عنصراً أساسياً من عناصر القوة السياسية العسكرية للأندلس .

وقد تولى عبد الرحمن في ١٠ جمادى الآخرة ١٧٢ هـ / ٢ أكتوبر ٧٨٨ م وهو في الثامنة والخمسين من عمره ، بعد أن حكم الأندلس ٣٣ سنة ، كاجاً عن مشواصل ومصاعب وأموال . فهذا الرجل الذي شاد بنفسه ملكاً ، وانقذ بلداً ووضع أساس تاريخ شعب وحضارة أمية ، لم يسترح يوماً منذ تولى أمر الأندلس في ذي الحجة ١٢٨ هـ / ٧٥٦ م ، فقد كان البلد الذي تولى أمره ضخم .

وقد دخل عبد الرحمن الأندلس غريباً وحيداً تقريباً ، فتمكن بذكائه ومواهبه وشجاعته وعمله المتواصل ، من أن يقيم صرح دولة ، تعد من أمجد دول الإسلام ، أقامها على أسس إدارية وسياسية ومالية متينة أثبتت الأيام صلابتها ، وهو من هذه الناحية يفوق معظم مُنْشِئِي لدول في تاريخ الإسلام . ويزيد من قيمة عمله أن الناس الذين دُفِرَ له أن يعتمد عليهم وحكمهم قد رجوا عو الفوضى واللاستقرار والقسوة وقصر النظر وكان الكثيرون من زعمائهم ، لا يُبالون بمصير الإسلام

والعروية ، في سبيل مصلحة يسيرة يحققونها ، أو ثأر يدركونه ، أو كبرياء يرضونها . فلم يكن عبد الرحمن ليستطيع معاملته أولئك الناس باللين والمحبة والأخلاق ، فكان لا يبالي في سبيل الدولة يأتي شيء . وقد وصفه « دوزي » بالمكيافيلية والقسوة والخبث ، ولكن دوزي ينسى أن هذه كانت أساليب كل أصحاب الأمر في الغرب الأوربي في ذلك العصر الذي كان الناس فيه يرفضون الخضوع للدولة ونظمها . ولهذا فقد اشتد في نقد عبد الرحمن والحقيقة أن هذه خلال التي لا نرضاها في هذا الرجل ، لم يكن عنها غنى لرجلٍ مثله في مثل ظروفه ، وكان لا بد من أي حال من القضاء على الفوضى وعواملها وإقرار النظام . وقد تجح عبد الرحمن في ذلك ولكننا لا متدوحة لنا من أن نقرر أنه كان دائماً يختار الوسيلة الأقسى والأشد ، رغبةً منه في الخلاص من المشكلة بسرعة ، وبعد أن توالى نجاحه ، أصبح شديد الاستبداد ، لا يقبل مناقشة أحد ، وقد غضب على بدر مولاة بعد طول خدمته إياه وأقصاه عنه في شبهة نفي بسبب صغير لا يستحق ، وعامل رجاله بعنف وحزم بالغين .

وكان عبد الرحمن يشبه إلى حد كبير جدّه هشام بن عبد الملك ، ولكنه كان أحسن حظاً منه ، لأن هشام بن عبد الملك تولى أمر دولة كانت في سياق الموت ، أما عبد الرحمن فقد تولى دولة ناشئة يضم كياتها موارد متدفقة بالقوة والحيوية فاقبل ينتقم بها عن أحسن وجهٍ مستطاع .

ومن هذه الناحية كان عبد الرحمن أمورياً صرفاً يشبه في كثير من خلاله مروان ابن الحكم وعبد الملك وابنه ، وفي بعض الأحيان نلاحظ عنده مشابهة من الوليد ابن عبد الملك (في موضوع المنشآت والعمائر) وملازم من هشام بن عبد الملك (في ناحية السياسة المالية وتبدير مصروفات الدولة) أي أنه نقل إلى الأندلس خيرة صفات بني أمية المشاركة ، ووضع لنفسه ولن جاء من بعده سياسةً حكيمَةً دولة سليمةً بناءً ، تقدم على أسس سياسية وإدارية متينة من عظامه ، عوامل الضعف والتدهور .

والى جانب ذلك كان عبد الرحمن رجلاً شهياً نشيطاً ذاهباً ، وعاملاً لا يتعب ، فخلال إمارته التي امتدت ثلاثاً وثلاثين سنة ميلادية ، لم تقعد سنة

ولم يركن إلى الراحة إلا في فترات قصيرة جداً سجلها المؤرخون . ومن ذلك أن « ابن عذاري » ، يكتب في بعض سنوات خلافة عبد الرحمن العبارة التقليدية التي تقول : « وفي هذه السنة لم تكن للأمير حركة » ، وكان أحسن ما فيه عقله المرتب وصريقته المنظمة في العمل ، فكان يدرس مشاكله في هدوء ويتلقى أخبار الثورات التي تقوم عليه بجنان ساكن ، ثم يرسم خطته للقضاء على الخصم ، ثم إنه كان على الجملة حسن المعاملة لرجاله ، مكرماً لهم حافظاً لعهودهم ، وإن أخذ عليه سرعتة إلى الغضب وميله إلى العنف مع أعدائه والبطش بهم ، ولكن لا نقرأ في أخباره ما تعودنا أن نقرأه في أخبار أمثاله من الغدر بالوزراء ونكبة الكتاب ومصادرة أموالهم ، وهذا لا يمنع من القول أنه كثيراً ما كان يلجأ إلى الحيلة والتدبير والغدر ، كما فعل مع الصميل بن حاتم ، إذ أنه أمر بخنقه في سجنه ، ولكن الغدر والفسوة كانت من أسس الحكم في العصور الوسطى ، وكانت السياسة تفرض على أصحابها أخلاقاً وأفعلاً لا ترضى عنها ، وهذا يخفف من مسئولية عبد الرحمن عما يُتهم به من أعمال القسوة والعنف والغدر في كتب التاريخ .

وعندما توفي عبد الرحمن خلفاً العرش لابنه هشام ، ترك دولة ثابتة الأركان ، فلم يكن على ابنه هشام إلا أن يسير في خطوات أبيه .

وقبل أن تنتقل إلى هشام لا بد أن نشير إلى عناية عبد الرحمن بالإنشاء والتعمير ، ففي أيامه بدأ عمران قرطبة ، وهو الذي أنشأ الجزء الأول من مسجدها الجامع قبال قصر الإمارة ، وبدأ بذلك تاريخ أكبر أثر معماري في تاريخ الغرب الإسلامي ككلية .

وعنى عبد الرحمن كذلك بقصر الإمارة ، وكان يقوم على مساحة فسحة واسعة قرب المسجد . وقد رأى عبد الرحمن أن تستعمل هذه مساحة كباقي القصور قصوراً للأمير وأهله وإدارة دولته فأنشأ قصرأ خاصاً لنفسه وعدداً من القصور الصغيرة إلى جواره لنسائه وأهل بيته وأحاط هذه القصور كلها بالمساحات الجميلة وأدار عليها سوراً .

وكانت تلك المساحة تمتد حتى تقرب من ضفة نهر الوادي الكبير ، فبعد عبد الرحمن إلى إنشاء قصور الإدارة ناحية النهر ، وقُتِحَ باباً في السور في الشارع

بين النهر والسور ، وسمي هذا الباب « بواب السدة » ، لأنه كان يواجه سدة جعلوها في مجرى النهر لكي يرتفع مستوى الماء ليحرت ماعورة أو ساقنة كثيرة أقيمت قرب الشاطئ لرفع الماء من النهر وإيصاله إلى داخل المدينة ، وقد سمي الحي الصغير الذي أحاط بتلك الماعورة « بطنية الماعورة » .

وباب السدة هذا كان مفتوحاً للجميع ، وإذا كان مفضي إلى مكاتب الدولة التي كانت تزدد عدداً وموظفين مع الزمن ، وكلما مضى عدد من السنوات أنشئت دواوين أخرى حتى أصبحت الجهة القبلية من قصور الإمارة مركزاً إدارياً للدولة في قرطبة ، وإلى جانب بواب السدة جلس من نسميهم بالكتاب العموميين الذين يكتبون للناس الشكاوى والرقاع التي يقدمون بها إلى مكاتب الدولة .

وكان أولئك الكتاب من صغار طلباء العلم الذين يرتزقون من وراء هذا العمل ، وكانوا يقيمون في ضاحية جنوبي قرطبة تسمى ضاحية « أو » وبطن شقنقة ، وكان هذا الرض مسكن العمال من كل صنف ، وكان بينه وبين مدينة قرطبة فتلوة حجرية تعرف بقنطرة الوادي وأصلها من بناء الرومان ولكن أعيد شدوها مرة بعد مرة . وكانت من برهات الاندلسيين المشهورة لأن قبلها لغائمة على النهر كانت واسعة فائضة على أرجل أي أعمدة في ماء النهر ، وكانت عامرة ، حركتها لأنها كانت تؤدي من رخص سفن إلى « لمحطة العطش » وهي الشارع الرئيسي الذي يقطع قرطبة من جنوبها إلى شمالها ، بادئاً من « ملحة الوادي » ومنتهاً إلى الباب الشمالي الأقصى الذي عُرف ببواب « عبد الجبار » ، وكان من أشهر أبواب سور قرطبة .

وإلى الشمال من قرطبة وعلى بعد نحو أربعة كيلو مترات منها أنشأ عبد الرحمن لنفسه قصر ، بقياً على مثل البوادي في مصور بديسة على شاطئ خلفاء بني أمية في المشرق ينشئون في البادية ليقتضوا فيها أوقات سمرهم بعيداً عن زحمة المدن وأعين الناس .

وكان هذا القصر الذي بناه عبد الرحمن يقوم على تل مرتفع يسمى « تل الرصافة » ولذلك كان القصر يسمى بقصر الرصافة ، وهو يطل من الجنوب على الحثول التي تفصل بينه وبين قرطبة . ومن الشمال كان يطل على « نخس » أو

أرض قضاء واسعة سُميت « بفحص السراق » ، وفي ذلك الفحص أو الميدان
الواسع اتخذ عبد الرحمن المازل لجندة وقواده ، وكان يحرض على تربيتهم
وتدريبتهم تدرساً منظماً مستمراً ، وفي نهاية شتاء كل سنة كان ينادى بالنفير
فتأني إلى قرطبة حشود العرب من أهل الكور المجندة ومن ينضم إليهم من
« المطوعة » أي الراغبين في الجهاد في سبيل الله دون أجر ، مكثفين بنصيبهم من
الغنائم وما يكتب لهم من ثواب الجهاد . وإلى هذه القوات كانت تضاف قوات
الصقالبة الذين كان عبد الرحمن يشتريهم صفاراً ويربيهم تربية عسكرية دينية
إسلامية ليكونوا حنذاً للإمارة وخداماً لها في شتى شؤون القصر والحكم وكانوا
يسمون بتسمية عامة هي « الصقالبة » ومعناها « السُلاف » أي من الأصل
سُلافي ، وهو أصل الروس ، ولكنهم في الحقيقة كانوا يتكونون من كل اجناس
أوربا ، وكان هناك تجارٌ مخصوصون بهذا العمل ، فكانوا يشترون أولئك العلمان
من الدول القريبة التي كانت تأسرهم وتعرضهم للبيع في أسواق معروفة لأولئك
التجار ، وقد استمر عبد الرحمن يشتري من أولئك الصقالبة حتى صار له منهم
جيش عدته أربعون ألفاً ، كان من بينهم حرسه الخاص وخيرة جندة . وكان
العاملون في القصر من أولئك الصقالبة يُسمون بالفتيان ويقسمون
قسمين « القحول » و « الخصيان » ، فأما القحول فكانوا يُستخدمون للحرب
وأعمال الدولة وأما الخصيان فكانوا يخدمون داخل القصور ، وكان تجار
المسلمين يشترونهم من تجار اليهود الذين تخصصوا في إجراء عمليات الخصي
لأولئك الشبان الأسرى المساكين قبل بيعهم لمن يريد .



هشامُ الأوَّل بنُ عبدِ الرَّحمنِ المَعروفُ بالرضيِّ

وخلَّفَ عبدُ الرحمنُ ابنَهُ هشاماً ، ولم يكن أكبر أولاده ، ولكنه كان محبوباً إلى أهل الدولة والفقهاء ورجال القصر لدمائه كانت في خلقه ، ولهذا تخطى أخاه سليمان ، وكان جندياً لا يهتم إلا بالجيش وأهله .

بنا هشامُ حكمه في جمادى الآخرة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م وأمّه أم ورد جليقية وكان يُدعى لبناً وورعاً ، ويكنى كان في الحقيقة سياسياً يجتذب الناس بمظهر سقّي ولم يفعل شيئاً ذا بال أثناء حكمه القصير . ولكن الناس ارتاحوا له لأنه كانوا قد تعبوا من عنف أبيه وسرعته في البطش واستمراره في الحركة والعمل ونستطيع أن نعتبر إمارة هشام إكمالاً لإمارة عبد الرحمن .

ولم يعكر صفو إمارة هشام إلا ثورات قام بها بعض اليمثيين ، وخاصة في إندلس قتلونية وسرقسطة ، ومدولت قام به سبارو السمر لالاساء حبوب ولكن قواد هشام عرفوا كيف يوقفون ذلك التيار .

دخول مذهب مالك الأندلس :

وأهم ما حدث في عصر هشام هو دخول مذهب مالك إلى الأندلس ، وكان الأندلسيون قبل ذلك على مذهب « الأوزاعي » إمام أهل الشام ، ويمتاز فقهه بالناحية العملية ، فهو يرى أن كل ما هو نافع للمسلمين ويتفق مع صالح الجمهور فهو من الإسلام ما دام لا يتعارض مع أوامره ونواهيه . وهو مذهب أخذت منه المذاهب الكبرى بأطراف ، ولكن مالكاً يعممه ويجعله قاعدة . ومن سوء حظ « الأوزاعي » والليث بن سعد وطاوس « وأمثالهم من أصحاب المذاهب الفقهية الأولى التي دثرت . أنهم لم يبرزوا تلاميذاً يدونون مذاهبهم وينشرونها في الأقاليم ، أما مالك بن أنس فقد كان أحسن حفظاً ، فقد رُزق تلاميذاً نبهاء أمثال « عبد الرحمن بن القاسم » وأشهب بن عبد العزيز « ومن إليهم من منشئ المدرسة المالكية المصرية ، ثم « أسد بن الفرات » وعبد السلام بن سعيد المعروف بسحنون « الذين أدخلوا مذهب مالك إلى المغرب ، وعملاً على نشره مع طائفة من أجلاء الفقهاء .

وفي الأندلس أيضاً كان مذهب مالك حسن الحظ ، فقد كان مالك معاصراً
 لهشام بن عبد الرحمن ، معجباً به لا يكف عن الثناء عليه ، وكان ذلك يبلغ هشاماً
 فيستريح إليه ، فلما وفد على الأندلس أوائل تلاميذ مالك الذين درسوا عليه ، من
 أمثال « الغارزي بن قيس وزيايد بن عبد الرحمن المعروف بشنطون ، وعيسى بن
 ديفر وسعيد بن أبي هند » ، رُحِبَ بهم هشام وجالسهم وأذن لهم في تدريس
 مذهب مالك في المسلمين وأخذ القضاة بالحكم به ، ثم اتخذ كبار المالكية قضاة
 وفقهاء مشاهير ، أي أهل شوري يستفتيهم الأمير فيما يجريه من أمر ، وشيئاً
 فشيئاً أصبح المذهب المالكي المذهب الرسمي في الأندلس .

التقليد الشامي :

ومذهب مالك هو العنصر الحضاري الوحيد الذي قبلته الإمارة الأموية
 الأندلسية خارجاً عن نظم الأمويين في الشرق . وأهم هذه النظم العربية المطلقة في
 لغة الدواوين وأوساط الدرس ، فبينما كان العباسيون في الشرق يقبلون صوراً
 حضارية إيرانية وهندية كان الأمويون في الأندلس لا يقبلون إلا ما هو عربي
 وهم لم يفعلوا ذلك بقانون سنو ، وإنما كان اتحاشاً عاماً في الحياة ساروا فيه
 وتبعهم الناس ، فعلى الرغم من أن مسلكهم قدام في أوروبا ، إلا أن الحياة في
 قصورهم سارت على قواعد مشايخ القبائل ، فكنت تصور بادية ، تذكرنا سوادى
 خلفاء بني أمية الشرقيين في الشام . ومن ذلك أن عبد الرحمن الداخل أنشأ لنفسه
 قصر الرصافة الذي أشرنا إليه ، ولم يخرج حكام بني أمية الأندلسيين حتى أيام
 الناصر عن التراث والعصائد ، واعتمدوا على رجال ذوي همة ويسالية وروح
 عربي ، وأن لم يكونوا من أرومة عربية حالصة ، فقد كان منهم بربر ونمرس أهل
 لبلاد ، ولكنهم جميعاً استعملوا السب والفكر وأنسب حديث ، وصاروا يعرضون
 أنفسهم عرباً وقد بلغ من اهتمام هشام باللغة العربية أن جعلها لغة كنيسة
 لنصارى الأندلس ، فترجموا إليها الكتاب المقدس ونصوص الصلوات ، وقد كان
 ذلك من أكبر العوامل التي أسرعت بتعريب أهل الأندلس ، وتحويل هذا البلد إلى
 مركز من مراكز الحضارة العربية ، ويعرف ذلك كله « بالتقليد الشامي » الذي
 ألزمه أمراء بني أمية الأندلسيون وخلفاؤهم حتى نهاية عصر الخلافة .

وكان معظم الموالي الأندلسيين يعدون أنفسهم بين الشاميين ، لانهم كانوا

موالى بنى أمية . ومنو أمية ظلوا حتى في الأندلس يعتزون بأنهم شاميون ، ولهذا فقد كانوا يفضلون أهل الشام على غيرهم ، وكثروا يتخذون في حديثهم وعلوم حكمهم ما كان سائداً في بلاد الشام ، وهذا هو الذى أعطى هذا التقليد اسم الشامى .

وقد توفى هشام بعد سبع سنوات من حكمه فكانت سنة عندما مات في صفر ١٨١ هـ / أبريل ٧٩٦ م لا تزيد عن أربعين سنة ، وهى سنٌ صغيرة جداً ، ولكن بنى أمية عامة كانوا قصار الأعمار ، وطوال الأعمار منهم في الشرق قليلون ، أما في الأندلس فلا نعرف منهم من تخطى الخامسة والستين ، إلا الأمير عبد الله وعبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر .

ويُتقن معظم المؤرخين على هشام بسبب رضا الفقهاء عليه وقيامهم بالدعوة له ، وتصويره في صورة الأمير التقى الورع الرحيم . ولم يكن الرجل كذلك في الحقيقة وإنما كانت فيه قسوة على أعدائه لا نجدها عند أمثاله ممن يوصفون بأنهم حكام أتقياء ، فقد سمل عينى شاعر يُسمى «أبا المخشى» عاصم بن زيد ، لأنه أثنى على أخيه ومنافسه سليمان ، وقتل ولدين من أولاد موالى بنى أمية ظلماً لريبة في نفسه ، وقد اعتذر عن ذلك وبذل شيئاً من العوض ، ولكن ذلك لا ينفع الحناية . وقد أخفى الفقهاء ذلك عن العامة وزعموا أن هشاماً كان يخرج في الليل ويطوف في المساجد فإذا وجد فيها سائداً عاكفين على قيام الليل اعتصم سائلاً وربما كان يفعل ذلك فعلاً ، ولكن ذلك كان سياسة منه وخُبتاً .

ميلاد حركة المقاومة النصرانية في شمال شبه الجزيرة :

وقبل أن نستطرد إلى إمارة الحكم الأول بن هشام المعروف بالحكم الربضى ، نقول كلمة يسيرة عن ميلاد حركة المقاومة النصرانية في شمال شبه الجزيرة .

ذكرنا كيف وصلت جيوش موسى بن نصير إلى أوفييدو Oviedo وخيجون ، وكيف اعتصمت قلل القوط ومن انضم إليهم فيما وراء جبال كنتبرية ، في الناحية المسماة باسم أشتريس

تذهب الروايات النصرانية إلى أنه كان من بين كبار القوط الذين لجأوا إلى هذه الناحية القاصية فارس يسمى «بلاجيوس» ويسمى عادة «بيلايو» ، ويُسميه

العرب « بلّاي » وكان من أعوان غيطشة وأتصار لذريق ، فلما اعتصمت بقايا القوط في ناحية أشتريس ، أصبح بلّاي رئيسهم وصاحب الإمارة عليهم

وقد انتشرت هذه العلول أول الأمر في أنراحي المظلة على خليج بسكاي من جليقية إلى أشتريس ، ولكنها انكمشت إزاء حملات المسلمين القوانية في ناحية جبله شرقاً وأنييدو الحانة عند المد المسمى كاساس وسكانت حصن له موضعاً جيداً نصصه العمار الكندبة أو الكندبة عند قعم وروما . وفي هذه الناحية موضع مغارة تسمى « كوفادونجا » ويسمونها العرب صخرة بلّاي ، وقد حاول المسلمون الاستيلاء عليها أيام الحرب مع عبد الرحمن الثقفي سنة ٩٨ هـ / ٧١٨ م ثم ارتدوا عنها استصغاراً لشأنها أو يأساً من إمكان الاستيلاء عليها ، ولم تكن ذات أهمية في ذلك الوقت على أي حال .

وفي سنة ١١٢ هـ / ٧٣٠ م أثناء إمارة « الوغد بن عبد الكلاسي » عبد حاكم الثغر الأعلى « عثمان بن أبي نسة » جيشاً إلى أشتريس للقضاء على بقية المقاومة النصرانية هناك . وقد بذل رجال هذا الجيش جهداً كبيراً ولكنهم لم ينالوا شيئاً من بلّاي وبصاره . ونسب الرواسات النصرانية إلى بلّاي أنصار كبير آخر المسلمين عند « كوفادونجا » . وتعتبر هذا النصر نقطة البداية لتاريخ إسبانيا النصرانية ، ولكن ليس لدينا ما يزيد ذلك .

وكانت هناك إمارة نصرانية أخرى صغيرة في الجزء الشرقي من بلاد كنتبرية أنشأها زعم يسمى بتروس . ثم حلف أمير يسمى « ألفونسو » واتخذ لقب الدوق ، ثم تزوج ألفونسو ابنة بلّاي وتوحدت مملكة أشتريس التي سميها العرب مملكة الجلالة .

وكان سكان هذا الجانب الشرقي مما يقع شمال الجبال الكنتبرية حتى بلاد اشكوسون يعرفون باسم الكنتبريين ومن هؤلاء الكنتبريين وبقيت العرب ومن انضم إليهم من أهل شمال إسبانيا تكونت نواة مملكة الجلالة .

وآلفونسو هذا هو منشئ المملكة النصرانية التي ستستمر في النمو والانتعاش حتى تستولي على الأندلس من المسلمين . وقد عاونه الحظ باشتغال المسلمين بالحرب الأهلية فيما بينهم على ما قصصناه قبل قدوم عبد الرحمن الداخل .

وبحوالى منتصف القرن الثامن الميلادى كانت إمارة أشتريس تلك قد امتدت نحو الجنوب وعمرت حوض نهر الخفيو واقتربت من حوض الدويرو، واستولى الفونسو الأول على أشترقة منتهزاً فرصة إخلاء المسلمين إياها بسبب المجاعة التى نزلت بالأندلس نتيجة الفتنة بين العرب والبربر .

وفى أثناء حكم يوسف الفهرى والصميل بن حاتم ، امتدت المملكة النصرانية على مهل . وكذلك عندما شغل عبد الرحمن الداخل بحرب الشائرين ، سقطت فى أيدي النصارى مدين هامة مثل « لكه Lugo » وبرتقال Portugalles .

وعندما استقر الوضع لعبد الرحمن ، استرجع أهم هذه المدن . وكان ملك أشتريس إذ ذاك يسمى « فرويلا Froila » . وهو الذى خلف الفونسو الأول . وكان قاسياً عنيفاً سفاكاً فكرهه الناس ومالوا إلى مخالفة المسلمين ، يتزعمهم فى ذلك ملك يسمى « مورجات أو مورقات » ، يقال إن أمه عربية . وعلى هذا استمر الأمر حتى تولى العرش الفونسو الأول .

وفى الشمال الغربى كذلك نشأت إمارة نصرانية مستقلة فى بلاد البشكونس عُرفت باسم نبرة Navarra وقاعدتها بنبلونة وإلى غربها قامت ثلاث إمارات صغيرة فى جبال ألبرت هى عن التوالى ، أرغون وشيرب وريباجورثا وقام الزعيم البشكونسى « اينيجواريسا Inigo Arista » بتوطيد قواعد إمارة نبرة Navarra فى الغرب . وقيما بين مملكة الجلالقة التى تعرف أيضاً بمملكة أشتريس وبين بلاد المسلمين امتدت منطقة خلاة حتى حوض نهر الدويرو . وكان النصارى يحاولون الامتداد فيها إذا غفل المسلمون عنهم ويرشدون عنها إذ تنبهوا لهم ، وهكذا استمر الأمر حتى نهاية القرن الثامن الميلادى .

إمارة الحكم الرىضى ١٨٠ - ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ - ٨٢٢ م :

تعتبر إمارة الحكم بن هشام ، أو الحكم الأول المعروف بالرىضى ، نهاية عصر القلاقل التى قام بها العرب للقضاء على الإمارة الوحيدة التى بسطت سلطانها على البلاد ، وكان الكثير من زعماء عرب البلاد ويربها لا يسمون بقيام هذه الدولة ، ولا تزال نفوسهم تطمع إلى العودة إلى القوضى السابقة ، ولهذا فقد كثرت الثورات فى عصر الحكم واختلفت أنواعها ، ولكنها كانت فى الغالب ثورات

اجتماعيه او قليمية لا فتت عثمائية او قبلية يقوم بها هذا فريق من العرب
او البربر إذ ذات بغية خلع طاعة الإمارة والتخلص من النظام . وقد شئت الحكم
نبتاً يدعو إلى الإعجاب . وإن كانت شخصية الحكم نفسه كثيرة العيوب
والمدققت وسياسته حافلة بالأخطاء . ذلك أن الحكم تول أمر الأندلس شاباً
في السادسة والعشرين من عمره . وكان إلى جانبه عمه سليمان وعبد الله وعنه هم
ممن كانوا يرون أنفسهم أحق بالملك منه . ولا يعرفون من يؤيدهم من أهل البلاد
وجماعات العرب ، فأقبلوا يدبرون عليه وينتظرون الفرصة للإيقاع به .

وكان هو نفسه شاباً ميالاً للمتعة والراحت ، وقد حسب أن أباه وجده قد مهذا
له الملك ، وما عليه إلا أن يستمتع . ويتبخر فيه عرق التعالى الأموى ، ونظر إلى من
سواه من ندس في غير الكراث . واستصف أهل قرطبة ورجالهم وأهال الكرام من
منهم ، وأهمل جانب الفقهاء الذين بلغوا مكانة كبرى في أيام أبيه هشام ، واكتفى
بخدمته وحواشييه وندمائه ، وانصرف إلى اللهو والصيد والخمر ، حتى أيقظته
الحرارة يقظة هزت كيده وسدت في حياته وأظهرت طبعته الصلبة العسيرة
فتعوس بالخطوب ، وترك اللعب ونظر في أمر نفسه ، ولم يعد له فم إلا تثبيت ملكه
وجمعيته مملكته . وقد اقترف في سبيل ذلك جرائم كثيرة ، فكان له بعد ذلك الندم ،
ففضى أواخر سنواته في عزلة وحسرة واستغفار ، وتوفى ذات ليلة دون أن يعرف
بخبير وفاته إلا نفر قليل من رعيته ولم يعلن خبر وفاته إلا بعد أيام .

وكان أول ما عاناه الحكم حرب عمه سليمان وعبد الله ، وقد شقى هو بهما ،
وشقيت البلاد بهما شقاء كبيراً . لأنهما ربيت نفسيهما بنصر من الثغرين من الثغر
الأعلى ، بل سعى أحدهما وهو عبد الله إلى تأليب شارلمان على الإسلام والمسلمين .
وذهب لمقابلته في « اكس لاشايل » ، وبالفعل أرسل شارلمان جيشاً دخل الأندلس ،
ولكن أبا صفوان حاكم الثغر الأعلى رده على أعقاب سنة ١٨٠ هـ / ٧٩٧ م . وبعد
ذلك بقليل استسلم عمه سليمان أبو عبد الله فقد أصيب بالفالج فاستراحت البلاد
من آذاه .

ولكن محاولة عبد الله وسليمان في الثغر الأعلى كشفت لرجال شارلمان ضعف
الجهة الإسلامية من هذه الدحية . وحفره أهل شمال شبه الجزيرة من « بصارى
على القمام بجملة أكثر حدي » ، وبأنعس سارت هرب فرنجية في سنة ١٩٠ هـ /

٨٠٦ م نحو الأندلس ، فعبّرت الجبال وحاصرت برشلونة ، وثبت القائد العربي « سعدون الرعيني » مدافعاً عن ذلك الثغر في رباطة جأش ، وانتظر أن يصله المدد فلم يصله شيء ، لأن الحكم كان مشغولاً يعمّيه في جنوب الأندلس . وأخيراً سقطت برشلونة في يد الفرنجة ، وأنشأ شارلمان فيها ولاية ثغرية تسمى الثغر الإسباني « لاماركا هيسبانيكا La Marca Hispanica » . أصبحت من ذلك الحين شركة في جنب المسلمين ، لأنها تطورت مع الزمن حتى أصبحت كونتية قطلونية التي ستتحّد مع مملكة أرغون ، وتستطيع غزو الجانب الشرقي لمملكة الإسلام في الأندلس فيما بعد .

ويذهب نفر من المؤرخين بهذه المناسبة ، إلى أن الدولة العباسية ، سلفت الدولة الفرنجية ضد إمارة الأندلس ، وهناك أخبار غير موثوق في صحتها عن مراسلات بين شارلمان وهارون الرشيد في هذا المعنى ، ولدينا أخبار سفارات وهدايا متبادلة بينهما ، ولو أن مؤرخينا المشاركة لا يذكرون مرة واحدة ، وصول سفارة فرنجية إلى بلاط الرشيد . وليس لدينا شيء يثبت ما تزعمه الروايات النصرانية ، من أن الرشيد أرسل إلى شارلمان مفاتيح بيت المقدس .

ولكن مؤرخي شارلمان يذكرون ورود سفارات إسلامية إلى بلاطه ، وبعضها يذكر هدايا أرسلها الرشيد إلى شارلمان ، منها خيل ومنها الساعة الدقّاقة المشهورة . وقد درس الموضوع دراسة جيدة د. عبد العزيز الدوري وخرج منها أن هذه السفارات لم تكن رسمية ، وإنما قامت بها جماعات من تجار المسلمين من المغاربة في الغالب ، حملوا الهدايا إلى بلاط شارلمان ، وزعموا أنها من خليفة المسلمين لكي يحصلوا على تسهيلات وامتيازات تجارية ، وهذا لا يسمح لنا بأن نقول إن الرشيد حالف ملكاً نصرانياً على أمير الأندلس المسلم . لأنه ليس لدينا عليه أدنى دليل . ثم هو يتعارض معارضة تامة مع ما نعرف من خلق الرشيد والاتجاه العام للدولة العباسية ، وهو اتجاه إسلامي لا شك فيه .

التطور الاجتماعي في الأندلس :

ومنتد أول ولاية الحكم نلاحظ ظاهرة لا نعرفها في الكثير من بلاد الإسلام في العصور الوسطى ، وهي أن طوائف الشعب في العاصمة وكبار المدن غير راضية

عن الحالة ، وغير مقتتعة بنصيبها الذي قدره لها أهل الحكم . ففى العراق والشام ومصر مثلاً ، نجد أن الناس — ما بين مياسير وأوساط وفقراء — منصرفون عن السياسة وأهلها ، لا يفكرون فى القيام عليهم ، إلا إذا بلغ الإجحاف حداً يجاوز الاحتسار . وفيما عدا ذلك فاهل الحكم فى سلسلتهم ، وقل المتأخر فى منحهم . واهل الزرع فى حقولهم . وهؤلاء جميعاً — تُجَّاراً ورُزَّاعاً وصناعاً — يتقاسمون نصيبهم من الشقاء والحرمان ، دون أن يفكروا فى التجميع لاتخاذ إجراء عام ضد الحكومة المركزية ، وإن كانت قلوبهم مثقلة بالغضب على الحاكمين أما فى الأندلس فنجد الناس على خلاف ذلك ، فإن الأندلسيين لا يسكتون على الأذى ولا يصبرون على ما لا يرضون وقتاً طويلاً . وكانت العادة فى العصور الوسطى أن يتحمل الناس مظالم الحكم فى صبر ، على اعتبار أن الحاكم الظالم عقاب من الله لا بد من احتماله حتى يرفعه الله عن عياده . ولهذا السبب نذر أن قام شعب على حكامه لرفع الظلم ، ولكن أهل المدن فى الأندلس كانوا لا يكفون عن إثارة على أهل الحكم إذا زاد ظلمهم وفى كل مدينة أندلسية نجد جماعة تتحدث باسم الناس وتطالب الحاكم بالعدل وتتحدها . وفى كل هيئة أو جماعة حرقية ، نجد رؤساء يتحدثون وينتقدون ، ومن هنا كان التحدى للحكم مستمراً ، وكان نقد أعمال الحكام وتتبعها والتشهير بهم يتردد فى كل مكان .

وعلى الرغم من ذلك لم يمسك بي أمية وبراكيم نسبسى . فلاحظ أن مفهوم هذه الناحية فى شعبيهم كان بطيئاً وجزئياً على العموم ، واستمروا يحاولون الحكم بأساليب الشرق وهى القهر والعنف ، فطال النزاع بينهم وبين رعاياهم ، وخسر الجانبان كثيراً ، وفى النهاية كانت خسارة الأندلس للإسلامى عظيمة .

وقد كان الشعب الأندلسى فى طريقه إلى التكوّن فى ذلك الحين ، وكانت العملية عسيرة تحتاج إلى وقت ، وكانت لا بد أن تلاقى صعوبات ، وتتغلب على عوائق . وقد مرت شعوب الأندلس كلها فى مثل هذه المراحل . ولكن مؤرخىنا لم يلاحظوا هذا التطور أبداً ولم يفهموه وأساءوا الحكم عليه .

وكان السعد مكوناً من أقدمه عربية أو تعدى نسبسى عربية متمثلة فى — الحاكم ، وغدي من الأسر فى العاصمة والمدن والأرياف . وجماعات منتسبة إليها وتمسك بأصولها العربية كثيرة وقوية ، لأنها ترى فى ذلك شارة شرف وامتنان .

وقد سبق أن ذكرنا أن أولئك العرب كانوا في الحقيقة مولدين ، فكل أمهاتهم إسبانيات من جليقية ، أو من بلاد البشكوتس أو صقلبيات ، وإذا تزوج أحدهم ابنة عربي من الأندلس ، وجدنا أن أم هذه العربية غير عربية ، أي أنها كانت في الحقيقة مولدة ، وهذا لا يقدح في عروبة هذه البيوت ، لأن أفرادها كانوا يحسون أنهم عرب ، ويتصرفون على أنهم عرب خلصاء ، ويجيدون القصص ويحفظون أشعارها ويفخرون بأصولهم العربية ، وهذا هو المهم ، لأن الفيصل في هذه الموضوعات هو إحساس الإنسان الذي يحدد موقفه ويميل عليه تصرفاته ، فمادام الرجل يحس أنه عربي ويجد ذلك شرفاً ويربط نفسه بنسب عربي ، ويفخر بأجداد العرب ويحسب نفسه من أمة العرب فهو عربي ، وإن كانت أمه غير عربية.

جماعة موالي بني أمية :

ويدخل في هذه الطائفة جماعات الموالي ، هؤلاء جميعاً كانوا يحسبون أنفسهم عرباً ، ويدعون أرومات عربية يقتبسونها من أصول ساداتهم ، فهذا من نخم وذلك من جذام أو من أسد أو مضر ، وحتى الذين كنوا من أصول إسبانية منهم ، ادعوا أصولاً عربية مع الزمن وهذا مهم جداً ، فماداموا يفخرون بأنهم عرب فهم عرب وإن كانت أمهاتهم إسبانيات .

وسواء صدقت هذه الأنساب أم لم تصدق ، فإنها كانت عملاً أساسياً وفعلاً في حياة أولئك الموالي ، فهم جميعاً يدينون ويتصرفون على أنهم عرب ممتازون عن غيرهم ولهم حق السيدة والحكم .

وكان هؤلاء المولدون ، وهم أبناء الإسبان الذين أسلموا كذلك وأبناء الزيجات العربية الإسبانية من عامة الناس ، وكانت أعداداً من دخل الأندلس من عاصمة العرب كبيرة ، وخاصة من اليمينيين وأبناء القبائل المكدودة يمنية ، مثل « كلب » وخولان ومذحج ومذلج وختعم ، ، هؤلاء كانوا في العادة يندرجون في شمار الناس في المدن والأرياف ، ويعملون بالزراعة والتجارة والصناعة ، ويتزوجون إسبانيات ويخرج أولادهم أندلسيين من أصول عربية ، ولكن طابع الأندلسية غلب عليهم . فهم أندلسيون وحسب . كذلك نشأ أولاد العرب بالشام شاميين وفي مصر مصريين وفي خراسان خراسانيين وهكذا .

ویدخل - في هؤلاء الموالى - انقضاعيون الذين هجروا إلى الأندلس وكانت أعدادهم غفيرة ، وقضاة ليست في الشام أو اليمن ، وإنما هي شعبٌ عربيٌّ قائمٌ بذاته ، كما يقول ابن حزم .

بقية تكوين شعب الأندلس :

وانضم إلى هؤلاء مع الزمن البربر الذين دخلوا الأندلس في جماعات كبيرة واستعربوا واتخذوا انساباً عربية ليرتفع شأنهم بين الناس ، فهؤلاء أيضاً نشأ أولادهم مولدين أندلسيين .

ومن هذه الجماعات كتبه نشأت جماعات الشعب الأندلسي العربي الذي نعرفه ، وكان الإسباني النصراني إذا أسلم اتخذ اسماً عربياً وسمى « بالأسلمى » أو « اسلمى » ، ثم يتنشا أولادهم أندلسيين مستعربين ، ثم يصبحون مع الزمن أندلسيين عربياً ويندرجون في غمار كتلة الشعب الأندلسي العربي الذي كان يكون الغالبية العظمى من السكان .

وكان هنالك المستعربون وهم الإسبان الذين ظلوا نصاري على دينهم ولكنهم استعربوا لساناً وأسلوب حياة ، وكانوا غالبية السكان أول الأمر ثم أخذت أعدادهم تتناقص مع الزمن .

هذه الأجناس كانت تتجاوز وسعائش وتتكامل ، فأما العرب ومن انضم إليهم من الموالى فقد احتفظوا لأنفسهم بمكان اجتماعي رفيع واختصوا أنفسهم بمراكز الرئاسة والصدارة ، فأبغضتهم الطوائف الأخرى وأنكروا عليهم ما يدعونه من امتياز ، وفي نفس الوقت كن المولدون المستعربون يتعاضدون بدافع اتحاد المصالح .

ولم يعطل اتحاد المولدين والمستعربين إلا رجال الدين في التاحيتين ، فقد كان القساوسة يؤثيرون النصاري على المسلمين ، ويحضونهم على التمسك بنصرانيتهم ، في حين كان فقهاء المسلمين شديدي العصبية لدينهم ، يبذلون نشاطاً عظيماً في دعوة الناس إلى الإسلام وجثهم على التمسك بعقيدتهم

وكانت غالبية الفقهاء فقراء ، فكانوا يقيمون في قرطبة في حي شقندة جنوب نهر الوادي الكبير حيث يسكن العمل وصغار التجار والطلاب ، وكانوا لهذا

منبئين بين الناس ، وكان لهم عليهم سلطانٌ بحكم عملهم ، ومن ناحية أخرى كانوا قريبين من باب « السدة » حيث مكاتب الدولة وكان ترددهم عليها كثيراً

وكانت هناك أقلية من الفقهاء ممن حَصَلُوا علماً غزيراً ، ووصلوا إلى مراكز الصدارة في الدولة والمجتمع هؤلاء كانوا يتمسكون بأصولهم العربية صحيحة كانت أم زائفة ، وكانوا يدخلون في زمرة أهل الحكم والفنّى ولجاء ، وكان الحكم ورجال دولته يعرفون هذه الحقائق كلها عن الشعب الذي يحكمونه ، ولكنهم كانوا يجهلون طبيعته وفسادته ، فلم يبالوا به ولم يقدروه حق قدره ، وكان ذات منهم خطأً حسيباً . وعندئذ شرع الحكم بن هشام يحكمه ، أقبل عن الحكم كائنه خلسةً شب من حياء سى أمية في أو أحرابهم في المشرق ، فعصى يلهو ويتمتع بالسلطة العيش ومن حوله حاشية متكررة متعسفة . وحيداً ص قاس عيقاً على الناس . معظمه من الصقالبة وهم مماليك البيت الأندلسي الحاكم ، فلم تمض من ولاية الحكم شهوراً ، حتى بدأ أهل بيته وكبار دولته يديرون عليه ، لأنهم رأوا شاباً خنياً ماجناً مستخفاً ، ونضم إليهم نفر من اعتفاء . وفي ذات مرة كان حذم عائداً من صيد له ، فتعرض له الجمهور وسبّه وأهانته ، فلما عاد إلى القصر بدأ ينظر فيما أن إليه أمره ، ثم اكتشف مؤامرة دبّرها عليه أهل بيته ، فأوقع بأقاردها في قسوة سنة ١٨٩ هـ / ٨٠٥ م . وقد ضجّ الناس من قسوته وقسوة رجاله ، وبدأ الخوف يسود بيت الحاكم والرعية . فاستكثر الحكم من الجند المرتزقة الصقالبة . وكانت في أفراده قسوةً وشدةً ، وكانوا لا يحسنون الكلام بالعربية ، فسماهم الناس « بالخرس » ، وسخط مباسر قرطبة وكبار أهلها وفتهاؤها على الحكم سخطاً شديداً ، وتوتر الجو وبدأ يوضح أن « الحكم » يتغرّض لدنة فاسية

فتنة طليطلة ويوم الخندق :

ولم يقتصر خوف الناس من الحكم على قرطبة ، بل امتد إلى طليطلة حيث كانت غالبية السكان مولدين ونصارى ، وكانوا متمسكين بما كان لهم من سيادة أيام كان بلدهم عاصمة إسبانيا ، فكان لهم زعماء كثيرون يتمسكون بدعوتهم القديمة ، وبدلاً من أن ينظر الحكم في هذه القضايا في هدوء وتعقل ويسعى إلى التفاهم مع الناس ليفهم الظروف التي تؤدي بهم إلى الغلق ، تحده ينجأ إلى العنف

والحيلة ، وينزل بأهل طليطلة مذبحه كبيرة ، قضت على الثورة مؤقتاً ، ولكنها أساءت إلى سمعة البيت الحاكم ، وأوجدت هوةً سحيقة بين الحاكم والحكومين ، وتسمى هذه المذبحة باسم « يوم الحفرة » لأن المقتولين فيها وضعوا في حفرة كبيرة خلف قصر الحكم وأهيل عليهم التراب ، والجدير بالذكر أن الذي بُر هذه المذبحة البشعة كان أندلسياً من أصل إسباني يسمى « عمروس » وكان يتولى حكم طليطلة .

هيج الريض الأول سنة ١٩٠ هـ / ٨٠٦ م

والثاني سنة ٢٠٢ هـ / ٨١٧ م :

وعندما بلغت قرطبة أنباء يوم الحفرة ومذبحته ، أصاب أهلها حلع شديد ، تحول إلى غضب شديد ، فبدأت ثورته تظهر في العاصمة ، وكثر الاحتكاك بين جند الأمير وجمهور الناس ، ويبدو أن الحكم لم يفتن إلى خطورة ما حدث ، فمضى في طريقه مستخفياً بالناس ، غير عابئ بمشاعرهم ، فتحدوه تحدياً ظاهراً ، وشتموه على الطريق وصفقوا عليه بالأيدي ، فقبض على طائفة من زعمائهم وصلبهم سنة ١٩٠ هـ / ٨٠٦ م ، وسكنت الحال إلى حين . فلما كان الثالث عشر في رمضان ٢٠٢ هـ / ٢٥ مارس ٨١٨ م ، انفجرت مراحل الغضب الشعبي في الناحية الجنوبية لقرطبة وهي شقندة على الضفة الجنوبية من النهر وكانت فيها أحياء العمال والصنع والطلاب وصغار الفقهاء ، وقد انضم كبار الفقهاء إلى الناس في هذه الثورة في صورة ظاهرة من أمثال « يحيى بن يحيى الليثي وصالوت ابن عبد الجبار وعيسى بن دينار » ، وفوجئ الحكم في ذلك اليوم بمجموع الثائرين تتقدم إلى قصره للإطاحة بعرشه .

ويعجب مؤرخون بما أدى الحكم من ثبات في ذلك اليوم ، ولكننا نرى أن ذلك كان جموداً قتب وبلادة إحساس فيه . فهؤلاء الثائرون لم يكونوا طامعين في ملكه ، بل كانوا يطلبون العدالة ، وقد تصرف الحكم معهم تصرفاً خسيساً إذ أطلق جنده عن بيوتهم فأشعلوا فيها النيران ، وعرضوا أولادهم وحريمهم للموت . فارتد الناس لإتقاذ أبتائهم فحصدتهم الجند حصداً ، وانتهى اليوم بانتصار الحكم ، ولكن عواقب ذلك الانتصار كانت وخيمة جداً على مصير الأندلس ، فإن الحكم

أصدر أمره بطرد أهل الريض الجنوبي من الأندلس وكانوا ألقوا من أفضل الناس وأكثرهم شهامة ، وقد قاموا بأعمال تشهد بقوتهم في كل ناحية وصلوا إليها بعد طردهم ، وقد هاجر كثير منهم إلى الشمال واستقروا في أقاليم طليطلة وشمال غرب الأندلس ، وكانوا يعد ذلك من خيرة عناصره السكانية ، وذهب بعضهم الآخر إلى المغرب وأنشأوا « عدوة » الأندلسيين في فاس ، وتوزعت جماعات منهم في بلاد المغرب الأقصى الأخرى . وانجبت كتلة منهم إلى الإسكندرية والبحر فاحتلتها وطردت عاملها . ولم يتخلص منهم عامل مصر إلا بمشقة فذهبوا إلى كريت واتزعوها من أيدي البيزنطيين وأنشأوا فيها دولة إسلامية سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م ظلت تحكمها حتى استعادها البيزنطيون منهم سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م .

انتهت ثورة الريض بتصر الحكم ، ولكنها كانت درساً يليقاً له ولمن جاء بعده ، فقد رأى يعينيه قوة هذا الشعب الأندلسي واستعداده لإيقاف الحكام عند جدهم ، ومن هنا فسئري أن الأمراء والحلفاء سيكونون بعد ذلك أكثر مراعاة لمشاعر الناس وأحرص على ولائهم .

ولم يسعد الحكم بحياته بعد أن قضى على هيج الريض ، فقد مرض وتناولت به العلة وحلَّ به الندم ، وجع يتمنى لو أنه لم يتصرف مع أهل قرطبة على هذا النحو . وتوفي في قصره ولكن أهل بيته أخفوا خبر موته فلم يعلن إلا في ٢٦ ذي الحجة ٢٠٦ هـ / ٢٢ ديسمبر ٨٢٢ م ، بعد أن تقرر الأمر من بعده لابنه عبد الرحمن بن الحكم المعروف بالأوسط

بداية الاستقراء :

عصر عبد الرحمن (الثاني) الأوسط : ٢٧ ذي الحجة ٢٠٦ - ٣ ربيع الآخر ٢٣٨ هـ - ٨٢٢ - ٨٥٢ م

● الأمير محمد (الأول) : ٣ ربيع الآخر ٢٣٨ - ٢٨ صفر ٢٧٢ هـ - ٨٥٢ - ٨٨٦ م

المنذر : صفر ٢٧٢ - منتصف صفر ٢٧٥ هـ / ٨٨٦ - ٨٨٨ م

عبد الله بن محمد ٢٧٥ - ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ - ٩١٢ م

عبد الرحمن (الثالث) : الناصر ٣٠٠ - ٣٥٠ هـ / ٩١٢ - ٩٦١ م

عبد الرحمن الأوسط : كان عبد الرحمن من الحكم مؤهلاً بطبعه ذكياً لا يشتر الحزنة التي خلفتها إمارته أبيه ، فقد كان هادئ الطبع لين الجانب ، وكان الوفاء حسن العشرة يحبه الناس ويجدون مفعلة في الجلوس معه والحديث والتبسط معه في منادمته ، وكان محباً للحياة متقرباً إلى الناس ، كما أنه لم يقل ذكاة عن سلفيه ، فقد كان يدرك كل شيء على حقيقته ، ولكنه كثيراً ما كان يتصنع عدم المعرفة ويعرض عن احصاء الآخرين أفراداً في معرفته بالناس وعرضه إلى قدومهم فاحبوه وسعدوا به وأمنوا إليه . ولم يكن فيه غدر ولا قسوة ، وكان فيه حزم وقدر على اتخاذ القرار المناسب ، وكثيراً ما كان يدع الأمور تجري وهو يرقبها دون أن يتخذ القرار إلا بعد وقت طويل ، ويبدو أن ذلك كان راجعاً إلى ميل منه إلى الدعة وإيثار للراحة ما تيسر له ذلك . وقد تولى في الحادية والثلاثين من عمره ، وحكم ثلاثين سنة استطاع خلالها أن يحقق الكثير وتوفى عن اثنتين وستين سنة ، وأمه جارية جليقية اسمها « حلاوة » .

ولم تكن الفتن الداخلية إلتهمه كثيراً ، فكان ينتظر حتى تهدأ من نفسها أو حتى يهدئها بأقل مجهود ، كما فعل مع فتنة المضريين واليمنيين التي استمرت سبع سنوات في كورة تدمير ، وهي التي سميت فيما بعد مرسية في شرق الأندلس ، وكانت تدمير من الكور المجتدة ، وكان معظم جندها من جند مصر وغالبيتهم من اليمن ، ولكن المضريين فيها كانوا يحاولون السيطرة على اليمنية . ومن هنا كانت الفتنة — وكان يرسل إليهم الجيوش بين الحين والحين ، فلما تفاقم أمرهم ، أرسل إليهم قائده « يحيى بن خلف » في جيش كبير أوقع بهم قرب « لورقة » ، فأخذت فتنتهم في الضمود وانتهت سنة ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م . وكذلك كان موقفه من أهل البيرة الذين أقبلوا إلى قرطبة للشكوى من ظلم الأسقف وإلى النصاري هناك ، فقد انتظر أن يهدأوا ، فلما لم يسمعوا لنصحه سلط عليهم الجند .

وكان عبد الرحمن شديد الاهتمام بحماية حدوده الشمالية ، إذ أن نشاط العدوان على أراضي المسلمين تزايد على إثر ولاية « لويس لتقي » عرش الفرنجة ، وهو من كبار ملوك فرنسا ، وكانت له أطماع واسعة في إقليم قطلوسية ، وقد عرف عبد الرحمن كيف يكسب صداقة البشكوتس ضد الفرنجة ، فوقفوا إلى جانبه ، واستطاع أن يرد غزوة فرنجية على ذلك الإقليم في سنة ٢٠٩ هـ / ٨٢٤ م .

كذلك نشط الفونسو الثاني ملك جليقية وأشتريس في الغارة على أراضي المسلمين ، واستولى حيناً على مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط ، فرده عنها القائد « عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث » ، وألزم الفونسو بدفع الجزية ، بعد معركة حامية في سهل يسمى « فج جرنيق » في إقليم ألبه ، وقد قتل في هذه المعركة عدد كبير من جنود العدو ، وذهبت ذخائره الكثيرة وعم التخريب . وكانت هذه آخر غزوة قسام بها هذا القائد المظفر الذي يعد من أكبر القادة العسكريين الذين طهروا في الأندلس ، فقد استمر في ميادين القتال مذاقها عن الأندلس فوق الثلاثين سنة ، أبدى خلالها من القدرة العسكرية والإخلاص للأندلس ، ما وضع تقليداً جليلاً سئمته قواد أندلسيون كثيرون من بعده ، وتولى قيادة جيوش الإمارة بعده أمير من البيت الأموي ، وهو « أمية بن معاوية بن هشام » ، وقد استطاع أمية أن يواحه ثورات كثيرة في نواح شتى من نواحي الأندلس ، من بينها حملة له على اليعنية في إقليم تدمير ، وكان رئيس من رؤسائهم قد عد إلى التمرد ، ودعا لبني العباس ، وأخيراً تمكن أمية بن معاوية بن هشام من الإيقاع به في وقعة حسنة بالقرب من لوزقة بعد ذلك بسنتين .

ولكن همة عبد الرحمن تجلت في تزيينه عن حدود بلاده وموالاه الغزوات في البة والقلاع وأراضي لبشكونس وإقليم قطلونية ، وكان هو يقود بنفسه الغزوات في معظم الأحيان . وفي عام ٢٢٨هـ / ٨٤٣ م أنزل هزيمة قاصعة بقوات إمارة نبرة ، وفي نفس السنة أيضاً تولى الفونسو الثاني الملقب « بالكايسو » أي البقي ، ملك جليقية وأشتريس بعد ٥١ سنة من الحكم ومناجزة لمسلمين ، وخلفه ابنه « راميرو الأول » أو « ردمير » .

غزوات الخورمان :

وفي أيام عبد الرحمن الأوسط ظهر خطر « الأردمانيين » وهي صيغة الجمع من لفظ أردماني أي تورماني ، وهم أهل الشمال والمراد بهم سكان اسكندريانة وديارماركة ، وكانوا يمرون إذ ذاك في عصر بطولتهم ، وكانوا يغيرون على شواطئ أوروبا الغربية بأساطيل من سفن صفار ذات أشعة سوداء ، وكانت تدخل مصبات الأنهار وترسو داخل البلاد وتغير على المدن وتنهب ما تعثر عليه

وتوقد النيران لتثير الخوف ، ثم تهرب بسرعة وقد اشتهروا باسم « الفايكنجز Vikings » ، وبسبب استعمالهم للنار سماهم العرب بالمجوس .

وفي أيام شارلمان احتل النورمان الساحل الشمالي الغربي لفرنسا ، وكان يسمى باسم « فريزيا » ، وأقاموا فيه ، وأنشأوا فيما بعد دولة فيه وسمى الإقليم باسمهم « نورمانديا » أو « نورماندى » . وأبناء هؤلاء النورمان ، هم الذين فتحوا انجلترا بقيادة وليم الفاتح سنة ١٠٦٦ م .

بدأت سفن النورمان تجوس بحار الأندلس الغربية ابتداء من سنة ٢٢٩ هـ / ٨٤٣ م وكان أول ظهورها قرب شاطئ الألبونة في ذلك العام . فكتب بأمرهم واليها « وهب الله بن حزم » إلى الأمير عبد الرحمن يقول : إن أربعا من سفنهم الكبيرة ذات الأشعة السود ظهرت في البحر ، ومع كل سفينة منها مركب صغير ، فكتب الأمير إلى عمال السواحل بالتحفظ والاستعداد واليقظة . وسارت سفنهم إلى الجنوب ، فأغارت على قادش وأوغلت قواتهم داخل البلاد حتى وصلت شذونة ونهبت كل ما في طريقها ، ثم عاد النورمان إلى سفنهم ، وساروا بحذاء الساحل حتى مصب الوادي الكبير فاستولوا على جزيرة « قبيل » في مدخله ، ثم دخلت السفن النهر وصعدت فيه حتى بلغت إشبيلية ونهبها النورمان ، وأحرقوا الكثير من ديارها ، بل أحرقوا المسجد الجامع . وبلغ الأمر الأمير عبد الرحمن فنهض للأمر بما هو أهله ، فأرسل القوات إلى الحدود الغربية وأجبه النورمان في شجاعة وحزم وتولى حربيهم من قواد الإمارة « عبد الله بن كتيب وعبد الرحمن بن رستم » فأوقع المسلمون بالنورمان هزيمة كبرى عند طليطلة شمال إشبيلية سنة ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م .

وقد أغارت سفن النورمان على الأندلس بعد ذلك مرارا ، ولكنها كانت تترك على أعقابها بخسائر محدودة في كل مرة . وكانت أطول غاراتهم في الأندلس ، هي غارة إشبيلية ٤٢ يوما ، ثم أغاروا على لبلبة ثم على الألبونة وعادوا فيما بقي من مراكبهم .

نشأة الأسطول :

كان من نتيجة الغزو النورمانى أن تنبه عبد الرحمن إلى أهمية الأسطول فبدأ في إنشائه إنشاء محكم واتخذ له دور الصناعة والقواعد في الألبونة وإشبيلية

وولية والمرية وبلنسية ومالقة ، ولم تنقضى سنوات حتى كان للأندلس أسطولان قويان أحدهما في المحيط الأطلسي ومركزه الأشدونة ، والثاني في البحر المتوسط وقاعدته مالقة ، ومنذ منتصف القرن التاسع الميلادي يظهر الأندلس كقوة بحرية كبرى ، وتبدأ أهمية البحرية الأندلسية كعمد لقوة إماراة قرطبة .

وكانت أولى ثمرات قيام ذلك الأسطول ، فتح الجزائر الشرقية المعروفة بالبليار سنة ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م وضمها إلى الأندلس ، ومن ذلك الحين تصبح جزائر البليار الكبرى الثلاث « ميورقة ومنورقة وبابسة » من ولايات الإمارة الأندلسية . وقد أنشئت ولاية الجزائر الشرقية سنة ٢٣٥ هـ / ٨٤٩ م .

بعض المتعصبين من رهبان النصراني يحاولون إثارة فتن دينية في الأندلس :

ظهرت في أيام عبد الرحمن كذلك فتنة تعصب نصرانية ، أشارها نفر من لرهبان ، إذ كانوا يؤكدون لاتباعهم قبل ذلك أن الإسلام باطل ، وأن دولته لن تلبث حتى تزل ، ولكنهم رأوا أمر الإسلام يشتد يوماً بعد يوم ، وإمارته تزدهر ، ومجتمعه يزداد رخاء وثباتاً ، كما رأوا الثقافة العربية تغزو قلوب الشباب من أبناء دينهم ، فلا يكاد أحد منهم يحفل باللغة اللاتينية أو آدابها بينما يتفنون جهداً كبيراً في دراسة العربية ومطالعة آدابها ، بل مرع الكثيرون منهم في كتابة العربية ، وقد شكوا ذلك قس متعصب يسمى « البارو القرطبي » في رسالة مشهورة . فلما وجد أولئك الأحيار المتعصبون أبناء دينهم لا يابهن لأمرهم ، بل يزدادون عنهم انصرافاً ويدخل الكثيرون منهم في خدمة الإمارة القرطبية وسلمون ويؤاخون المسلمين ويصلون إلى الرتب العالية في المجتمع والإدارة ، انفجرت مراجل حقدهم ، فإذا بهم يجاهرون بالعدوان للإسلام وإهانة مقدساته علناً أمام الناس ، وكان رجال لشرطة يقتادونهم إلى القضاء ، فيحاول هؤلاء استتائبتهم دون جدوى ، فيحكمون عليهم بالإعدام ، وكان هذا هو غرضهم أن يموتوا في صورة الشهداء حتى يستثيروا عواطف الناس . وقد كثر خروجهم على هذه الصورة ابتداء من سنة ٢٢٧ هـ / ٨٥١ م ، وظهرت من بينهم أسماء رهبان أصبحوا بعد ذلك قديسين في سجل الكنيسة ، من أمثال « يولوج والبارو وفلورا » وكلهم من

قرطبة ، وقد استعان الأمير عبد الرحمن بالصير على هذه الأزمة ، وطلب إلى زعماء النصاري أن يعقدوا مجمعا دينيا في قرطبة لينظر في أمر هذه الحنة بالعقل والحكمة . وبالفعل انعقد مؤتمر برئاسة « ريكا فريديو » مطران إشبيلية ، ومثل الأمير فيه « غومس بن أنطيان » أحد كتّابه . وقد أصدر المجمع قرارا يستنكر فيه هذه الحركة الحمقاء ، وشيئا فشيئا هدأت هذه الفتنة وعاد الروثام بين النصاري والمسلمين بفضل هدوء عبد الرحمن وحسن نظريته في الأمور . وقد أسلم غومس ابن أنطيان بعد ذلك وحسن إسلامه ، وأقبل على الاعتكاف في المسجد الجامع في قرطبة حيث لُقّب بحمامة المسجد .

وعلى طول أيام عبد الرحمن الأوسط كان الصراع مستمرا ومتزايدا على الحدود الشمالية للإمارة فيما يلي طليطلة شمالا . وما يدل على أن قوة الإمارات النصرانية كانت تتزايد أن أهل طليطلة كانوا إذا خرجوا عن طاعة الإمارة ، استنجدوا بنصاري الشمال فأنجدوهم . وكان معظم استنجاؤهم بملوك ليون . ولهذا كان عبد الرحمن يوالى الغزو بنفسه ويُرسل قُوَّاته كُلَّ صيفٍ . وكانت الغارات تتجه أحيانا إلى نبرة وعاصمتها بنبلونة ، ومن ناحيتها تدخل إلى إقليم ألبه والقلاع وأحيانا إلى بلاد مملكة ليون .

وفاة عبد الرحمن الأوسط :

توفي عبد الرحمن الأوسط في ٣ ربيع الآخر ٢٢٨هـ / ٢٢ سبتمبر ٨٥٢ م بعد حكم دام إحدى وثلاثين سنة ، تعتبر من أزهى فترات التاريخ لاندلسي بسبب ما سده قرطبة وكبار المدن ومراكز العمران من هدوء وما تمتعت به البلاد من رخاء ورفاهية ، لأن عبد الرحمن ورجاله كانوا من أنكباء رجال الدول الذين يؤمنون بأن رخاء الرعية أساس لثبات الحكم واستقرار أسس العدالة والنظام .

ويرجع جانب كبير من رخاء الأندلس في أيام عبد الرحمن إلى الفائدة الكبرى التي عادت على الإمارة من الاستفادة من ملكات رجال الأسر الموازيسية التي أشرنا إليها وهم الموالي ، وقد ظهر في أيام عبد الرحمن عدد كبير من أبناء هذه البيوت أمثال القائد « عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث » الذي أشرنا إليه والقائد « عيسى بن شهيد » ، « ويوسف بن يوسف بن بخت » ، و « حسان بن أبي عدة »

« ومحمد بن عبد اسلام بن بسيل » ، « وعبد الرحمن بن رستم » ، وكانوا من كبار المخصصين للإمارة ولواجبهم ، وقد رفعهم عبد الرحمن إلى مراتب الوزراء ، فكان له نحو عشرة وزراء في وقت واحد ، وقرر لهم أن يجتمعوا في بيت من بيوت قصر السدة عرق ببيت الوزارة ليتناقشوا في المهم من شئون الدولة ويرفعوا ما يرون من أمور الدولة إلى الأمير من كبار المسائل وكان الذي يعرض على الأمير هو الحاجب أي كبير الوزراء ، وأشهر من نعرف من رؤساء الوزراء هؤلاء عبد الرحمن بن رستم .

الوزارة في الأندلس :

وتنظام لوزارة في الأندلس هذا من المبتكرات الكبرى في التنظيم السياسي الأندلسي ، لأن البيت الأموي كان غنياً بالشخصيات ذات الكفاية التي قدمتها باستمرار البيوت الموازية التي ذكرناها .

وعند أيام عبد الرحمن الداخل لم يتجه البيت الأموي إلى إيجاد وظيفة الوزير بصورتها واختصاصاتها التي نعرفها عند العباسيين في المشرق ، وإنما اعتمد الأمراء الأندلسيون على أقواد من هذه البيوت في تسير شئون الدولة دون اختصاص واحد منهم بلقب معين أو وظيفة معينة ، حتى قيادة الجيوش سولاًها الأمراء وأتابوا عنهم في أحيان كثيرة رجالاً حملوا لقب القائد ، ولكن لفترة الحملات فقط ، ولكن ظهور شخصيات ممتازة حقاً من أمثال عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث وعيسى بن شهيد جعل من الضروري أن يختص أولئك الرجال بأعمال محددة وأنقاب معينة ، فنجد عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث يصبح قائد الجيوش بصورة مستمرة ، ويصبح عيسى بن شهيد قائداً أيضاً ، ثم نجد لقباً آخر يضاف إلى ابن مغيث وهو الحاجب ، وترتبط بوظيفة الحاجب كل الاختصاصات التي كانت لوزير في المشرق ، وبالفعل تصبح الحجابة في الأندلس هي الوزارة في المشرق ، ويصبح الحاجب ثنى شخصية في الدولة بعد الأمير ولكن الحاجب في الأندلس كان رئيس وزراء فعلاً ، يرأس نحو عشرة وزراء ، ويعرض أعمالهم على الأمير ..

وقد وزعت الاختصاصات الإدارية بين رجل من أفراد هذه البيوت ، فهذا

للمال ويسمى « الخازن » وذلك لسلامته ويسمى « صاحب الشرطة » ، وذلك
للمنشآت ويسمى « صاحب الأشغال » ، ثم تجدد لقب الوزير يعطى لهؤلاء على أنه
لقب تشريف أو درجة وظيفية في أول الأمر ، ثم تجده بعد ذلك مرتبطاً باختصاصه
معين ، فنجد الوزير عيسى بن شهيد بقود الصوائف ويسمى « بالوزير القاض »
ويوسف بن يوسف بن بخت يتولى شئون المال ويسمى « بالوزير الخازن » ،
ومحمد بن السليم يتولى الخوازيث ويسمى « بالوزير صاحب المواريث » وهكذا .
ومن أيام عبد الرحمن الأوسط نجد الوزير في الأندلس له معنى الوزير في أيامنا
واختصاصاته ومسئوليته ، ونجد الحاجب يصبح رئيس الوزراء ، فهو الوزير
الكبير ، وهو الذي يلقي الأمير كل يوم ويناقشه في شتى المسائل ، ويجتمع كل يوم
مع أصحابه الوزراء في دار خاصة عرفت باسم « بيت الوزارة » ، وفي هذا البيت
يجلس الوزراء على ترتيب معين في هيئة دائرة ، لكل واحد منهم وسادة يجلس
عليها ، ووسادة الحاجب أعلى من بقية الوسائد ، ونجد لكل واحد من الوزراء
ديوانه وكتابه (أي سكرتاريوه) ، والمسائل تدرس وتتخذ فيها القرارات ، ثم
يأخذها الحاجب إلى الأمير ويعرضها عليه ، فما يوافق عليه يدخل ديوان الأمير
لتحرر له الصيغة الديوانية أو القانونية الملائمة ثم يقدمها إلى الأمير ، الوزير
صاحب العرض لتختتم بخاتم الأمير ثم بخاتم الدولة وتصدر على النحو الذي
تصدر به المراسيم اليوم وتكون سارية المفعول من يوم صدورها .

وقد تعددت وظائف الوزارة ، فنسمع مثلاً « بوزير الخيل » ، وهو الوزير
المكلف بإعداد الخيل اللازمة لجيوش الدولة والعناية بها وبما تحتاج إليه من سرح
ولجم ومراع وما إلى ذلك . وهناك « وزير الأعتة » ، ومهمته تقديم الخيل اللازمة
لكل حملة مع فرسانها ، وإعداد الفرسان بكل ما يلزمهم ، وهناك وزراء
بلا تخصص معين . وهم المندوبون وراء الدولة ويمثلونها في قصر سيف الدولة
منهم من يشاء بما يشاء .

وهؤلاء الوزراء جميعهم لهم الحق في لقاء الأمير والحديث معه ، وهم حاشية
الأمير ومنهم أيضاً ندماءه . وكانت عناية الأمير تمتد إلى أولادهم ، فإذا مات الوزير
أو تعطل عن العمل ، حل محله ابنه . وفي أحيان كثيرة لا يكون الابن ذا كفاية تؤهله
للووظيفة فيعين له الأمير من يعاونه في العمل حتى يتقنه ، وذلك حرصاً من الأمراء

على أن تكون الأمور شفافاً حتى يرد البيوت المحصنة التي تشعبه إلى بيوت
التي كانت تحيط بملوك الغرب .

وكان أهل هذه البيوت أولاً مفسدين ثم موارء وراعيه وتولاهم ، ما دفع
عنهم ، ثم دخلت عليهم أسر قريتها الأمراء ، وكان منهم العرب والمؤبدون
والمستعربون أحياناً ، وكان الكثيرون منهم من البربر ، وجدير بالذكر أن
الاندلسيين من الأصول البربرية كانوا لا يفلون كفاية عن الاندلسيين من الأصول
العربية أو أهل البلاد .

وكان الأمراء يُقيلون الوزراء ، وعندما يقال الوزير ترفع وسادته من بيت
الوزارة ، وليس من الضروري أن يحل محله وزير آخر ، وقد ينقل الوزير من
وزارة إلى أخرى ، وقد يعطى لقب الوزير لموظف كبير مثل صاحب المدينة أي
محافظ العاصمة فيسمى الوزير صاحب المدينة وتوضع له وسادة في بيت الوزارة
والوسادة هي المقعد وقد يراد بها ما يسمى بالقوتى .

وفي بعض الأحيان لا نجد حاجباً ، فيقوم بعمله الوزير صاحب العرض ، وهذا
أخير كان يعتبر من خاصة الأمير ، أي من أهل القصر ، أي من الحاشية

الخطط :

وكانت الوظيفة الكبيرة تسمى في الاندلس « بالخط » مثل خطة الوزارة أو
خطة الخيل ، أو خطة الأعنة ، أو خطة الكتابة وهي تعادل ديوان دار الإنشاء في
المشرق ، وخطة المظالم ويراد بها النظر في الشكاوى المقدمة ضد رجال الدولة
وتطبيق الأحكام على طبقات أهل المملكة ، وخطة القيادة ، وخطة الأشغال وخطة
البحر .

خطة القضاء :

ومن الخطط الكبرى في الاندلس كانت خطة القضاء ، ويراد به « قضاء
الجماعة » أو قضاء قرطبة ، وصاحبها كان يشبه وزير العدل ، فهو لا يتولى قضاء
قرطبة فقط بل يختار قضاة المدن الأخرى والأقاليم ، وهو ينظر في شئون القضاة
ويراقب أعمالهم وله أن يعزل منهم من يريد ويقترح تولية القضاء من يريد ، وكان
قضاة العواصم الكبرى يعتبرون توايلاً له يرجعون إليه في أحكامهم ، وكان

« قاضي الجماعة » ثالث شخصية في الأندلس بعد الأمير والحاجب ، ولهذا كان
لأمراء يختارون قضية الجماعة بعناية شديدة وتدقيق واسع ، وكان أدنى خطأ
ظاهر من القاضي يؤدي إلى عزله ، وكان لقاضي الجماعة سلطة على الأمير نفسه
في مسائل العدالة ، وكان من واجباته أن يحول دون ارتكاب رجال القصر وكبار
الموظفين للمخالفات ، ولهذا كان القاضي رجلاً مرهوب الجانب ، وكان الكثيرون
يتحاشون هذه الوصيفة خوفاً من ألا يستطيعوا إقامة العدل على الأقران
أو تخرجاً من خدمة أمراء لا يرضون عن كل تصرفاتهم .

الفقهاء المشاورون :

وكان هناك إلى جانب الأمير دائماً عدد كبير من أشيوخ ذوي العلم الواسع
والخلق النزيه والدين القوي يسمون بالفقهاء المشاورين أي الذين يستشيرهم
الأمير في كبر شئونه وخاصة الدينية منها ، وعند بدء فقهاء المالكية هذه لحظة
لأنهم في محالولهم أتباع آثار مالك بن أنس كانوا يرخصون تور التحصن ،
أو الوظائف لعدم مكثف بالانصراف إلى العلم والمدرس وإبقاء اندس فمسا
يعرض لهم من مشاكل ، وكان هذا العزوف يوقع من مقامهم في أعين الناس ، ولم
يكن عزوف هؤلاء الفقهاء عن قول الوظائف تعبيراً عن عدم الرضا عن البيت
الأموي لأنهم في الحقيقة كانوا مؤسسون كما رأينا ، ولكنهم كانوا أسرى في هذا
آثار مالك الذي لم يتول وظيفة ما وعدش للعلم والتعليم ، وقد أراا الأمر ، أن مسوا
من مكانة أولئك الفقهاء الكبار في نفوس الناس فقبوهم إليهم ، واختاروا من
بينهم عدداً من أوسعهم علماً وجعلوهم فقهاء مشاورين وكانتوا يعتبرونهم أهل
شورى لهم ، وكانت مراكزهم تعدل مراكز الوزراء .

يحيى بن يحيى الليثي :

وإول من نسمع عنه في هذه لحظة يحيى بن يحيى الليثي ، وهو فقيه جليل
درس دراسة واسعة في المشرق ، وعاد إلى الأندلس أيام الأمير هشام فاحتل مكانة
جليلة في الدولة ورفض أن يتولى القضاء ، وفي أيام الحكم الرضي نجده يشترك في
ثورة أهل قرطبة على الأمير ويهرب بعد القضاء على هذه الثورة ثم يعفو عنه الأمير

ويعود إلى مكانته . وفي أيام عبد الرحمن الأوسط ترتفع مكانة يحيى بن يحيى حتى يصبح من أكبر شخصيات الدولة ، ويصبح بالفعل وزيراً للعدل يسوى القضاة ويعزلهم ، وهو الذى كان يوصى باختيار الفقهاء المشاورين إلى جواره ، فظهرت هذه الجماعة في كامل صورتها . ولم يكن الفقهاء المشاورون هيئة تجتمع معا ، بل كان الأمير يستشيرهم فرادى فقد يستدعيهم وقد يرسل القضاة إلى بيوتهم لبيدوا آراءهم فيها ، وكان يحيى بن يحيى الليثي كبير الفقهاء اسماورين في أيام عبد الرحمن الأوسط ، وكان الأمير لا يقرر شيئا في شئون القضاة إلا برأيه . وقد اسبب بامر القضاة حتى ثقل عليهم فلما مات قال ابن عذاري : « في هذه السنة مات يحيى بن يحيى الليثي واستراح القضاة من همه » .

وقد تعاصر أيام عبد الرحمن الأوسط ثلاثة يعدون من أكابر الفقهاء في تاريخ الأندلس كله هم : عبد الملك بن حبيب ويحيى بن يحيى الليثي وعيسى بن دينار . وقد قيل فيهم إن عبد الملك عالم الأندلس وعيسى بن دينار فقيها ويحيى بن يحيى عاقلها .

وكان كبير المشاورين يسمى بشيخ القضاة أو « شيخ المسلمين » أو « رئيس البلد » وكلها تسميات تدل على كبر المكانة التي كان يتمتع بها الفقهاء المشاورون في ذلك العصر ، ويلاحظ عليهم إلى آخر أيام عبد الرحمن الأوسط ، أنهم كانوا فقهاء ولم يكونوا أصوليين ، أى كانوا يعرضون نفع « لك فقط ولكن لا نعلم لهم بالحديث أو بأصول الفقه ، وإنما هم كانوا في « لأغلب فروعين عند من أى يعرفون من الفقه ما تمس إليه حاجة المعاملات الجارية ، وحتى في هذا لم يكن لديهم من العلم إلا ما قاله مالك بن أنس . وسيظل مستوى العلم بالفقه في الأندلس على هذا المستوى الرفيع حتى عصر الأمير « محمد بن عبد الرحمن » عندما يعود إلى الأندلس فقيهان أصويان من أعلم الناس بالحديث الشريف ومناهج « سحرار الأحكام من الأصول وهما : « بقى بن مخلد ومحمد بن وضاح » ، وهما من مدرسة الأصوليين وكبار المحدثين الذين ظهروا في المشرق في القرن الثالث الهجري ويمثلهم هناك « يحيى بن معين وأحمد بن حنبل » ، وعلى أيدي فقهاء من مستواهم وهذا الجيل سيدخل الفقه في المشرق والغرب على السواء في عصر جديد من عصوره وستبدأ سلسلة أجلاء الفقهاء المتقنين المعروفين بالحفاظ .

الشخصيات الحضارية - زرياب :

بعد زرياب من الشخصيات التي نستطيع أن نسميها شخصيات حضارية . ويراد بالشخصيات الحضارية أولئك الأقداد الذين يتميزون بخصال وخصائص شخصية وعلمية أو فنية تكون لها أثر في تطوير الحضارة ومستواها في عصرهم وكان عبد الرحمن الأوسط نفسه شخصية حضارية فكان أميراً قادراً مجرباً حسن الحكم على الأمور ، ثم إنه كان عالماً وشاعراً ، وذو ذوق في كل ما يتصل بشئون الحياة من مسكن ومأكل وملبس . وأول الشخصيات الحضارية التي سنتحدث عنها هنا ، هي شخصية علي بن نافع الموسيقى المعروف بزرياب .

وكان زرياب في أول أمره تلميذاً لإسحاق الموصلى موسيقى هارون الرشيد ، ويقال إنه أبدى من البراعة ما لفت إليه نظر الرشيد ، فشعر إسحاق الموصلى بالغيرة من تلميذه النابه فهدهه بالقضاء عليه ، فخرج من بغداد ووصل إلى القيروان ، وهناك اكتسب لقب زرياب ، وهو طائر أسود ، وهناك ظهر أمره كموسيقى ممتاز ، وانتشر صيته حتى بلغ الأندلس ، فاستقدمه عبد الرحمن الأوسط ، فوعد إلى قرطبة واستقبله الأمير استقبالاً حفاً ورتب له راتباً كبيراً وهياً له الوسائل ليظهر فنه .

من أول الأمر أظهر علي بن نافع أنه موسيقى فوق المستوى ، فأنشأ معهداً للموسيقى يتعلم فيه الشبان والشابات ، وكان يهتم بتربية الصوت وتوسيع مداه ، ويلزم التلاميذ بالقيام بتمارين وتدرجات عسيرة لكي يخرج الصوت من القفص الصدري كله ، لا من الحنجرة فحسب كما يفعل الكثيرون من المغنين . والعرض من ذلك أن تستخدم إمكانات المغنى الصوتية استخداماً كاملاً ، فتتسع قدرته للتعبير لفنائى عن المعانى والأحاسيس .

وقد ابتكر زرياب صريقة لكتابة الموسيقى ، ومن المؤسف أننا لم نعرفه إلى الآن كيف كان زرياب يكتب موسيقاه ، ثم أدخل تعديلاً جوهرياً على العود ، وهو أداة الموسيقى الرئيسية في ذلك العصر ، فأضاف إليه وترّاً خامساً وأصلح الدفوف والمزامير وأحكم صنعها ، وأخترع الفرق الموسيقية التي تجمع بين العازفين والمنشدين ، وكان يلحن لقطعه الموسيقية تلحيناً كاملاً بحسبه لا يشاد بعد على

والفردى والعزف . وهو أول من أنشأ في الأندلس المسرح الصغير الذى تجلس عليه الفرقة الموسيقية ، وكان ذلك المسرح يسمى بالسنارة .

وكان غناء أهل الأندلس إلى ذلك الحين غناءً عربياً بسيطاً هو الحداء ، فأدخل زرياب موسيقى عالمية عرفت باسم « الزريابية » ، وأصبح الحداء أو الحدو هو الغناء الشعبى فى حين أن الموسيقى الزريابية أصبحت الموسيقى الكلاسيكية الراقية فى الأندلس .

وكان زرياب يعمل بنظام تام وهىئة جليلة ، فكان يخصص صدر النهار لدرس والتدريس ، وبعد الظهر للقراءة والإطلاع وفى الليل متوجه إلى القصر ، وكان سراة الناس يرسلون إليه بجواربهم ليعلمهم ، وقد أخرج جيلاً من لفنيات الممتازات ، اشتهر أمرهن فى العالم الإسلامى كله مثل « قلم وعلم وشفاء » . وبلغ من إعجاب عبد الرحمن الأوسط به أن أمر ذات مرة بأن يدفعوا له ٣٠,٠٠٠ دينار مكافأة له على لحن ، فرفض خزنة الأمير إعطاءه المبلغ على اعتبار أن ذلك تضييع لأموال المسلمين ، فلم يستطع الأمير إرغامهم على الدفع .

ولم يقتصر أثر زرياب على الموسيقى بل إنه كان رغم سواد لونه يولى كبار الوظائف والمسؤوليات ، وكان فيصل الأناقة الأندلسية فى عصره ، وهو الذى علم أهل الأندلس كيف يرتدون الصوف شتاءً واقطن أو الكتان صيفاً ، وعدل فى هيئات الثياب فقصرها وضيق الأكمام وأعطاهها هيئة جميلة ، وعلم الأندلسيين كيف يفصون شعورهم . وهو الذى علم لأندلسيين تقصير الشعر فى الجانبين ، وإرساله وراء الأذن . وابتكر للتساء تصفيقات عرفت باسمه مثل تصفيقة الجبهة وهى إنزال الشعر على الجبين مع قصه فى موازاة الحواجب ، وتفنن فى العطور ، فابتعد عن العطور الثقيلة كالعنبر والأدهان ومال إلى عطور الزهور .

كذلك أدخل زرياب تعديلاً على المطبخ الأندلسى ، فأدخل كثيراً من الخضار كالهندباء والكمأة ، وأضاف أصنافاً كثيرة عرفت باسمه ، وعلم أهل الأندلس الأكل على الموائد واستعمال الملاعق والسكاكين بدل الأصابع ، وخرج بهم عن الأطعمة البدائية القديمة وهى العصائد والثرائد ، أى الألوان التى عرقها أهل المشرق .

وعلى الجملة كان زرياب شخصية حضارية ممتازة ، فقد أدخل تغييراً جوهرياً على المجتمع الأندلسى كله ، وساعد فى نقله من البداوة إلى الحضارة ومن

القوضى الى التنظيم المتحضر ، وكان إلى جانب ذلك شخصية محترمة ذا سمعة ووقار ، ولم تؤثر عنه هفوة خلق أو سوء تصرف ، بل كان يتحاشى الشراب ولا يتعاطاه .

وفي تاريخ الموسيقى العربية يحتل ذلك « إلهام الأسود » مكاناً جليلاً ، فقد كان من القلائد الذين اُختصوا للفن الموسيقى وجدوا فيه وحاً فاضلوا على سبيل المحترمة للفنان ، ولم يسمحوا لأنفسهم أبداً بأن يهبطوا إلى مستوى عامة المُسلِّين والندماء ، فكان قليل التردد على القصر ، لا يحضر إلا لحفل موسيقى ، وكان لا يذهب بموسيقاه إلى بيوت الأغنياء ، وإنما يذهب إلى داره من يريد أن يستمتع بفنه ، وقد جمع مديراً عريضاً من تدريس الموسيقى وتخريج الشبان والشابات ، وكان الكثير ممن تخرجوا عن يديه عمالاً للفن وهم في موضع مكانة عالية . وقد توفي عيسى بن نافع في ربيع الأول ٢٢٨ هـ / أغسطس ٨٥٢ م قبل وفاة عبد الرحمن الأوسط بأسابيع قليلة .

ولم يكن عيسى بن نافع (زرياب) الشخصية الطريقة الوحيدة التي ازدان بها عصر عبد الرحمن الأوسط ، فقد ظهرت في أيامه جماعة من أجل الشخصيات في تاريخ الإسلام العام ، ويعد ظهور هذه الشخصيات الفريدة ، ثمرة من ثمار غراس بني أمية الذين بلغ حكمهم نحو قرن من الزمان عندما توفي عبد الرحمن الأوسط .

عباس بن فرناس :

من هذه الشخصيات عباس بن فرناس ، وهو في الحقيقة من رجال عصر الحكم الرشدي ويكنى أبا قيس ، وكان فيلسوفاً ورياضياً وشاعراً ، وهو من أهل « تكرنا » في جنوب الأندلس من أصل بربري ، وكان ذا براعة في الكيمياء وإليه تُعزى طريقة خاصة في صناعة الزجاج من طحين الأحجار ، وقد صنع آلة تُعرف « بالميكات » لمعرفة الوقت تعتمد على الظل ، وأكبر مخترعاته محاولته الطيران ، فقد صنع لنفسه كساء من الريش ذي جناحين كبيرين يضع فيهما ذراعيه ، وقد قفز بذلك الرءاء من أعلى تل قرب مدينة بلنسية « منت أجود » وهو تعريب لاسم إسباني Monte Agudo وطرب بضعة أمطار ثم اختل توازنه وسقط ، ويرجع سبب سقوطه إلى أنه لم يظن لأهمية الدرس في صبران الطيران ، وكان من آثار

سقوطه أن انكسرت إحدى فترات ظهوره السيفى فلازم الغرائش شهوراً منطقولة
وسخر منه أهل عصره بشعر كثير .

وقد ألقع عباس بن فرناس عن محاولة الطيران بعد ذلك ، ولكن محاولته تعتبر
صفحة جميلة في تاريخ الحضارة العربية ، فهي أول محاولة عملية لإنسان في
الطيران ، وقد حكى اليونان أن رجلاً منهم يسمى « إيكاروس » حاول الطيران ولم
يوفق ، ومحاولة عباس بن فرناس هي الثانية من نوعها في تاريخ البشر قبل
العصور الحديثة .

وقد ظلت محاولة عباس بن فرناس للطيران عالقة بأذهان أهل فلسفية زمناً
طويلاً وعاشت حتى بعد أيام المسلمين ، فتحولت محاولته إلى أسطورة ، بل إن
شخصيته لا تزال إلى يومنا هذا رمزاً على الفن والابتكار في نواحي فلسفية وباسم
الثل الذي حاول الطيران منه ، يصدر أدباء فلسفية مجلة للشعر تسمى مونت
أجودر Monte Agudo ولكنه لم يفلح عن الاشتغال بالكيمياء ، وهي فرع غير
علمي من الكيمياء ، يرمى إلى تحويل المعادن إلى ذهب عن طريق الصهر فترات
طويلة . وقد اخترع عباس شيئاً شبيهاً بقلم الحبر وأراد أن يوفر على الكتاب متونة
حمل الأقلام والمحابر أينما ساروا .

وإلى جانب ذلك كان عباس بن فرناس موسيقياً صانع الحان مجيداً للضرب
بالعود ، وقد أثارت اختراعاته وابتكاراته الريبة في قلوب الفقهاء والعمامة فاتهم
بالزندقة ولكن أحداً لم يأخذ عليه شيئاً ، فعاش حتى توفي في سن عالية في أيام
الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط .

يحيى بن حكيم الجيانى (الغزال) :

ومن طوائف الشخصيات أيام الحكم وابنه عبد الرحمن ، الشاعر الفيلسوف
يحيى الغزال الجيانى ، وهو عربي من بكر بن وائل ، ولد في جيان وقد سمي
بالغزال لحمال منته وناقته . وكان شخصية بوهيمية يحلط " الجند " بهزل و " الخو " :
الدنيا ساخرأ لا يكاد يحفل لشيء ، وكان شاعراً مبدعاً وعقلاً جريئاً ، لا يكف عن
مهاجمة الفقهاء والتندر بخرافاتهم وتظاهرهم بالتقشف والعزوف عن الدنيا مع
غناهم وحرصهم على المال والحياة ، وقد تعقبوه في إصرار لكي يجدوا وسيلة

لاتهامه بالزندقة وانقضاء عليه ، ولكنه كان أعمى منهم ، فهرب إلى المشرق وغاب عنهم زمناً . ولقى أيا نواس وأنشده شعره فأعجب به أيا نواس ، وفي هذه الرحلة قال كلاماً كثيراً كان من الممكن أن يؤذيه ولكن أحداً لم يتلبس عليه بشيء ثابت ، فلما عاد إلى الأندلس لقي هيبلاً من عبد الرحمن الأوسط وأصبح من قدمائه وأصحابه . وقد أعجب عبد الرحمن باده وظرفه وهيبته فجعله سفيراً له لدى الملوك ، فأرسله في سفارة إلى الامبراطور « تيوفيلوس » امبراطور البيزنطة ، فذهب في رفقة صديق له يسمى « يحيى صاحب المنقة » وكان رياضياً ، وقد كسب الغزال إعجاب أهل البلاط البيزنطي ، وأعجبت به سيدات القصر رغم أنه كان قد جاوز الستين من عمره ، وأنشد في بعضهن أشعاراً قام المترجمون بنقلها إلى اليونانية فلقبت عجائب أهل بقصر . وقد قضى هذا السفير في سفارته ثلاث سنوات عاد بعده ستملاً بالهدايا والذكريات . وحمل إلى عبد الرحمن رسالة من الامبراطور .

وقد كان نجاح الغزال في هذه السفارة حافزاً لعبد الرحمن على إرساله إلى ملك النورمان في الدانمارك لكي يتباحث معه في أمر أولئك الغزاة الذين يؤرقون أمن الأندلس ، فذهب مع صاحبه يحيى بالبحر أيضاً ، وكانت رحلة شاقة اضطرتهم الأمواج خلالها إلى الرأس في إيرلندة ثم في إنجلترا ، وأخيراً دخل مضائق بحر البلطيق ، ووصل إلى بلاط ملك النورمان بعد أن كابده أهوالاً أحسن تصويرها في شعره . وفي بلاط الملك أبدع الغزال أيماً إبداع واستظرفه الملك ، وكان يجب أن يستقدمه ومستمع إليه في حديثه وفكاهاته بواسطة مترجم ، ولكن إعجاب الملكة به كان أعظم وكان اسمها « تود » ، وقال فيها شعراً كثيراً ، وطال مكوث الغزال في بلاط النورمان لأن الناس أحبوه واستمسكوا به ولكنه كن لا بد أن يعود ، فعاد إلى قرطبة ليقيم على النس قصصاً طريفاً ولحديثهم بما كان منه وبين الملكة تود ، وبطبيعة الحال لم يكن أحد يأخذه مأخذ الجد الخالص ، وكان هذا من صالحه لأنهم لو أخذوه مأخذ الجد لأصابه أذى شديد على أيدي الفقهاء .

وقد عمر يحيى الغزال بعد ذلك عشرين سنة أخرى نمت وقد تجاوز الثمانين سنة ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م .

التحول الحضارى فى الأندلس فى عصر عبد الرحمن الأوسط :

وفى عهد عبد الرحمن بن الحكم انتقل الأندلس من بساطته الأولى إلى ترف الحضارة ، فأنشأ الناس قصور الجملة وأنشأها بالآثاث الفخرف والريش المستجلبه من الشرق ، ووجد الناس على الأندلس بطرائف الجواهر والأنيه والرياش ، واستجلب الناس الجوارى الملمات من المشرق ، وسادت الأندلس كله موجة من الحضارة والترف ، وأخذت قرطبة طريقها لتصبح أجمل مدائن أوروبا على الإطلاق ، ومن أبرز ما أبدعه الناس إذ ذاك « المنى » بضم الميم وهى جمع منية ، وهو البيت الريفى الذى تحيط به حديقة ، أى ما نسميه نحن الآن بفيللا ، وكان الرومان يسمونه بهذا الاسم وعندهم أخذناه . وقد انتشرت المنى شمال قرطبة وغربها ، وسكنها امرأة للناس فى حى خاص يشبه الأحياء الأرسنقراطية فى عصرنا هذا ، وكان بعض الأغنياء يتوسعون فى حدائق المنى حتى تصبح رياضاً ويسمى الروض « بالخور » ، وقد امتدت الأحوار إلى الشمال والغرب امتداداً كبيراً .

وفى هذه القصور عاش الأغنياء حياة كلها ترف وغنى وقام على خدمتهم خدم كثيرون بعضهم أوروبى وبعضهم شرقى ، وحرص أولئك الموسرون على أن تكون لكل منهم ستارته ، تغنى فيها مغنيات قادات ، ولكن ذلك لا يفيى أن ينسينا أن هذه كانت حياة الأقلية ، أما الأكثرية فى الأندلس فكانوا يعيشون فى رخاء نسبي لأن البلد كان غنياً وكان الناس مقبلين على العمل لأن أعداد الناس كانت قليلة ، وكانت الحكومة المركزية تشرف على أعمال الحكام عن طريق ديوان المظالم ، وكان مخصصاً بالنظر فى شكاوى الناس من أعمال رجال الدولة وتصرفاتهم ، وكان يتولاه دائماً رجل من كبار أهل الدولة ، له السلطة الكافية لحاسبة كبار الحكام . ومن الطريف أن يحى الغزل كان ممن طلبهم صاحب المظالم وكانت تهت أنه فرّق فى الناس لقمح المخزون فى أهراء الدولة فى الأشبونة ، وكان قد عُيّن عاملاً عليها ، وكان المفروض أن هذا القمح مخصص للجنود ، ولكن « الحكم » وجد أن الناس أروى به ، إذ نزلت بهم مجاعة ، وقد عُزل يحى الغزال من وظيفته لهذا السبب واتصرف إلى حياة لشعر والهرى فى قرطبة بعد ذلك .

رُيادة مسجد قرطبة الجامع :

وقد اهتم عبد الرحمن الأوسط بإنشآت والمباني ، وأهم منشآته زيادة المسجد الجامع ، فأضاف إليه سبع بلاطات^(١) من ناحية الجنوب ، ونقل المحراب من موضعه إلى جدار الجزء الجديد

وقد لاحظ المعمارى الذى قام بعمل الزيادة أن ارتفاع سقف الجامع لم يعد مناسباً لاتساعه ، ففكر فى طريقة يرفع بها هذا السقف ، وهده فكره إلى أن يقيم فوق الأعمدة أعمدة أخرى وأقواساً أخرى ، فكان من نتيجة ذلك تلك الأقواس المزدوجة التى تعدّ من بدائع العمارة الإسلامية . وقد زاد المعمارى فى جمال هذه الأقواس بأن بناها مدامك من الحجر وأخر من الحجاره فأصبح ازدواج لون العقود طابعاً يميز عمارة مسجد قرطبة على ما عتدنا من مساجد الإسلام . وقد رفعت هذه الأقواس المقامة السقف إلى ارتفاع يقرب من ثمانية عشر متراً ، مما زاد فى بهاء المسجد ورحابة داخله ، وكان ذلك الجزء المسقوف من المسجد الذى يعرف « ببيت الصلاة » يكون جزءاً صغيراً من الصحن العام لأن بقية الصحن كانت مكشوفة يدور عليها السور ، وقد زُرعت فيها أشجار الفارنج ، فسمى ذلك الجزء من الصحن « بهو الفارنج » . وقد تناهش نفعاء قرطبة وقت مولد هذا صيدا إن كان من الجش أن تغرس الأشجار فى بهو الجامع ، وأقر الفقهاء ذلك رغم مخالفته لرأى مالك بن أنس .

فى بلاط عبد الرحمن الأوسط :

وقد قام على عمارة هذا الجزء « نصر » قسى الأمير عبد الرحمن أبى مولاة المقرب إلى نفسه ، وكان نصر رجلاً كفواً ولكنه كبقية صقائية القصور كان جامد القلب ، انانياً قليل الإحساس بالحب الحقيقى ، وكان ينأمر مع طروب جارية الأمير عبد الرحمن المقربة إلى نفسه ، وكانت طروب جارية بشكتسية شديدة الطموح ، وكانت ترجو أن يصبح ولدها عبد الله أميراً بعد أبيه متخطية بذلك الأمير محمداً

(١) البلاطة هى دوائر مع الحوزة الإسلامية هى المساحة التى توضع فى الزوايا المحيطة بالمبنى .
الأوسط زاد فى المسجد سبع بلاطات ، فمعنى ذلك أنه وسع صحن ناحية الجنوب بقدر مربعة صفوف من الأعمدة .

كبير أبناء الأمير وولي عهده ، وقد بلغ بها الأمر أن دبرت قتل الأمير بالسُّم وقام نصر بإعداده ، ولكن بعضهم شبّه الأمير إلى الخطر فطلب إلى نصر أن يشرب الشراب المسموم فلم يسعه إلا أن يفعل وأسرع نصر والسم في بطنه إلى سكته وأرسل بطلب لبن الماعز ، إذ قيل له إنه يضيّع أثر السم ، فلم يوجد حتى هلك ، وقد فرح فيه الكثيرون ممن كان لا يكفّ عن أذاهم ، وارتاح منه القائد الحاجب عيسى بن شهيد وكان من المتمسكين بضرورة المحافظة على العرش للأمير محمد بن عبد الرحمن .

الشعر والموشح والزجل :

وما دمتا قد تحدثنا عن يحيى بن الحكم الغزالي ، فلنقف رُفّة نصيرة عند الفكر الأندلسي الذي بدأ يستقل عن الفكر المشرقي ، ويظهر في صورته الناطقة بشخصيته ابتداء من ذلك العصر ، واستثمر في تطوره في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن ومن جاء بعده ، إلى أيام عبد الرحمن الناصر .

لم يكن هناك مظهر للفكر الأندلسي إلا في الشعر ، ولم يكن المجال قد انفسح أمام النثر القنى ليظهر ، ولم تر الأندلس ناثراً أصيلاً من طراز الجاحظ أو ابن المقفع أو عبد الحميد الكاتب . وقد نشأ الشعر الأندلسي محاكياً للشعر المشرقي وعندما ثبتت أقدام الإسلام في الأندلس كان عصر أشعر إعرابي إسلامي «خالص» قد انقضى بذهاب بني أمية . ذهبت أيام جرير والفرزدق والأخطل وذو «رمة» ، وانعقد لواء الشعر للمحدثين أو الكلاسيكيين المحدثين من أمثال أمي نواس وبشار بن برد ، وأبي تمام وابن الرومي وابن المعتز ، وهؤلاء الخمسة بالذات كان لهم أثر بعيد جداً في تكوين مدرسة مماثلة في فن الشعر الأندلسي ، فنجد عند كبار الشعراء في عصر الأمراء ، من أمثال « ابن عبد ربه ومؤمن بن سعيد ويحيى بن حكم الغزالي ومحمد بن يحيى القلظاظ » صوراً شعرية مقتبسة من شعر أولئك الفحول ، وأبو تمام بالذات كان له أثر عميق جداً عند شعراء الأندلس لرصانة شعره وجودة معانيه وديباجته العربية الخالصة ، وبني أبا تمام في ذلك ابن الرومي وابن المعتز ، فاما الأول فقد فتن الأندلسيون بسهولة شعره وسلامة نظمه وجمال لصور التي يأتي بها ، وأما الثاني فأعجبتهم فيه الصنعة والرفقة وأحدث الكثير عن البساتين والرياض والزهور والربيع وما إلى ذلك من مظهر الطبيعة .

وفي عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط نرى طلائع الشعر الشعبي الأندلسي وهو شعر يصاغ في عامية أهل الأندلس ، ولكنه يتنظم أوزان الشعر العربي وخاصة السهل الجارى منها كالتبرمل والرحز . وقد عرف هذا الشعر بالزجل . والزجل الذي يقال في كل بلاد العربية ولد في الأندلس في الغالب ، ونحن نسمع عنه أول ما نسمع في تلك البلاد .

وعامية أهل الأندلس خليط من العربية والبربرية والإسبانية لرومانية . فمن الأندلسي كان يقول : كَيَّرْوكَاس دَلْمَا « (أريد كأس ماء) » ، « مِي الْمَا حَزِين دَا الْيَوْم » (نفسي حزينة اليوم) ، « اشتريت من السوكو سبانية بلانكا » (اشتريت من السوق غطاء فراش أبيض) ، « ازداد قولانو ولد سمرولو وبنت شقريلا » ، (ولد لفلان ولد أسمر وبنت شقراء) وهكذا .

وهذه اللغة هي التي كان الناس جميعاً يتحدثون بها وفهموها في الأندلس ، وهي كذلك كانت لغة الزجل الذي سيبلغ أوج زدهاره في عصر الطوائف على يد زجالين موهوبين أشهرهم ابن قزمان .

بعد ذلك ظهر الموشح ، والغالب أيضاً أنه ابتكار أندلسي ، فكانوا يأخذون « مركز »^(١) إحدى الأغاني الشعبية باللغة الإسبانية الدارجة ، وينسجون على منواله أربعة أشطار أو خمسة تنتهي بذلك المركز الذي يسمى « خرجة » ، ثم أربعة أبيات أخرى عربية تنتهي بنفس الخرجة ، وهكذا :

الســـــــــحر حـق
وانـابـه اشـهد
أضـل العـشق
مـهـجـتى ولا يـنفـد
وأين صـدقـو
مـن غـريـدة تـنـشد

(١) «مركز» هو بيت شعر الذي يتكرر في الزجل والموشح بعد نهاية كل فقرة شعرية ويسمى صدى بالمذهب .

وإليك نموذجاً عن الموشحات التي كانت تنشد في الأندلس منظومة على
أساس غير عربي ونكتبها بإسبانية اليوم لكي تزداد وضوحاً :

Alba qérta Kon Bel Fogore

Cuando Viene lde Fugor

Una alba que Tiene Tan her noso fulgor

Cuando viene pide amor .

وترجمته بالعربية :

فجر ضياء بائع الجمال

عندما يطلع يبعث الحب

فجر له ضوء ساطع جميل

عندما يأتي طالباً للوصال

وهذه الخرجة الإسبانية التي تسمى المركز أيضاً تتكرر بلفظها في نهاية كل
مقطع عربي مكون من ستة أشعار صغيرة كهذه . وكانت العادة أن ينشد الأشعار
الدينية متشد مفرد ، أما الخرجات أو المراكز فكانت تغنيها الجماعة مع المنشيد
أو المنشدة .

وقد انتقل الموشح إلى بلاد الإسلام كلها وأصبح نوعاً جارياً من الشعر ،
يجمع بين العربية الفصيحة والعامية الدارجة ، وكان أول ظهوره على يد « مقدم
بن معاذ القبري » الضرير الذي نشأ في أيام عبد الرحمن الأوسط

ونعود إلى ذكر الشعر الفصيح فنقول : إن أكثر شعراء العصر الذي تحدث
عنه هم أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه (١٠ رمضان ٢٤٦ - ١٨ جمادى
الأولى ٣٢٨ هـ / ٢٩ نوفمبر ٨٦٠ - ٢ مارس ٩٤٠ م) صاحب كتاب « عقد
الفريده » وهو كتاب جامع شامل في الأدب العربي الجاهلي والإسلامي ، وهو
يصور لنا مفهوم العرب الأوائل للأدب ، وهو الأخذ من كل شيء بطرف ، أي ما
نسميه اليوم بالثقافة العامة .

وكان ابن عبد ربه إلى جانب ثقافته الواسعة شاعراً أشبه بالرسمي للأمراء ، فهو يقول شعراً كثيراً ، ولكنه شعر مقصور معظمه على المديح والتهاني والفخر والمراثي وما إلى ذلك ، ولكن الرجل كان عاقلاً متعاوناً عرف كيف يحتفظ بمكان ممتاز في المجتمع الأندلسي ، وقد ظل طول حياته شاعر الأندلس الأول حتى توفي أوائل أيام عبد الرحمن الناصر عن سن عالية .

ومن أهم ما يذكر له من الشعر أرجوزة في تاريخ أمراء الأندلس أدرجها في كتاب العقد الفريد ، وقد ترجمت إلى الإسبانية نظراً لأهميتها التاريخية .

وعلى العكس من ذلك كان معاصره « مؤمن بن سعيد » ، فقد كان رجلاً متداخلاً كثير الوقوع في الناس ، دائم الدعاية ، فتال الناس من أذاه شيء كثير ، وأذوه هم الآخرون كثيراً ، ولكن حياته غير السعيدة بخيرها وشرها ، بخلوها ومرها تصور لنا جوانب شتى من حياة الناس في الأندلس .

أما ثالث شعراء الأندلس الذي تحدثنا عنهم كتب الأدب الأندلسي في ذلك العصر ، فهو أبو بكر بن هذيل ، وكان شاعراً مجيداً يحسن أشعار الموشحات والوصفيات ، وقد شهد وهو صغير جنازة ابن عبد ربه فألى على نفسه أن يبلغ شبابه ووصل إلى ما أراد بحسن دأبه وكان ضريراً .

وهؤلاء الثلاثة إلى جانب يحيى بن حكم الغزال يصورون لنا آخر ما وصل إليه الشعر في ذلك العصر ، وهم ليسوا أعظم شعراء الأندلس على أي حال ، لأن أعظم الشعراء هؤلاء سيظهرون في أيام عبد الرحمن الناصر وما بعده أي عندما يصل الأندلس إلى الاستقرار الكامل وتصل حضارته إلى أقصى ما وصلت إليه من نضج في عصر الطوائف ، وما تلاه من عصور الصراع الحاسم على مصير الأندلس .

ونلاحظ على الجملة أن الإمارة الأموية القوطية قامت على رجال ذوي ملكات وقدرات لكل منهم ناحية اختصاصه وشخصيته الواضحة ، والدولة المركزية تعترف لكل رجل من هؤلاء بمكانته وتعطيه حقه وتفسح له المجال ليفيد بملكاته وليستفيد منها ، وهذه الظاهرة سمة من سمات القوة في الدول ، لأن الدول تبنى على الرجال ، أما القول بأن « الدول تبنى على المال وبالمال يصطنع الرجال »

فمذهب خاطئ يدل على ضعف ، وقد أخذ بمبدأ الرجال بنو أمية الشرقيون في صدر دولتهم ثم بنو أمية الأندلسيون هؤلاء ، وأخذ بمبدأ المال العباسيون ، وكان هذا من أهم أسباب ضعف دولتهم .

وناحية الضعف في سياسة الرجال التي اتبعها الأمويون الأندلسيون أن هؤلاء كانوا بطيعهم قسوماً ذوي خيلاء وزهو وغرور بأنفسهم ، فأسرفوا في الاعتماد بأنفسهم ، فعا من رجل تغضبه الدولة في شيء إلا ويثور في ناحيته ويسبب المتاعب كما سنرى في نهاية عصر الاستقرار هذا .

يضاف إلى ذلك أن الكثير من نواحي الأندلس كان لها شخصيتها المستقلة التي تعترف بها الدولة ، وتمنح أصحاب الأمر فيها درجة كبيرة أو صغيرة من الاستقلال الداخلي ، ومثال ذلك منطقة البشيرة الأعلى ، وهي حوض نهر الإبرو وما يليه شمالاً إلى جبال البرت (البرانس) ، فهذه منطقة متاخمة للممالك والإمارات المسيحية في الشمال والشمال الغربي والشرقي ، وكانت تتولى أمورها أسر محلية ، تتمتع بامتيازات إقطاعية سلم بها الأمراء ، ومن هذه الأسر ما يرجع إلى أصول إسبانية محلية مثل « بنى قسي » المنحدرين من « فرتونيو » حكام تلك المنطقة أيام الفتح العربي ، « وبنى هاشم » وهم عرب استقروا هناك ووصلوا إلى الرياسة ، وكنت لهم قواهم العسكرية وامتيازاتهم الإقطاعية في نواحيهم . وكانت العلاقات بين هذه الأسر والبيت الأموي في تغير دائم بين الطاعة والعصيان ، ولكن رجالها كانوا على الجملة من أهل الطاعة ، وخاصة عندما قوى أمر إمارة قرطبة وثبتت أركانها في عصر عبد الرحمن الأوسط وما بعده .

كذلك منطقة طليطلة ، فقد كانت منطقة ثغرية يتمتع أهلها باستقلالها المحلي فكانت طليطلة مشيختها التي تدير أمورها بالاشتراك مع عمل الإمارة ،

وكانت ثورات أهل طليطلة على الإمارة كثيرة ، ولكن الأمير محمداً ، انتهج - كما سنرى - سياسة جديدة في تأمين طليطلة والثغر الأوسط من عدوان نصارى الشمال وثوثيق علاقتها بقرطبة وتعزيز سلطان الإمارة فيها .

الأمير محمد بن عبد الرحمن (٤ ربيع الآخر ١٢٣٨ هـ / ٢٤ سبتمبر ١٨٥٢ م - ٢٩ صفر ١٢٧٣ هـ / أوائل أغسطس ١٨٨٦ م) :

لم يكن الأمير محمد أكبر أبناء عبد الرحمن الأوسط ، ولكنه كان أصلحهم للأمير برأى أبيه ورجل مملكته . وقد رشحه عبد الرحمن لولاية العهد ، وأخذ رجال الدولة بالالتفاف حوله . فلما توفي عبد الرحمن صار الأمر إليه دون مشقة

وكان قد جاوز الثلاثين بقليل يوم تولى العرش ، وكان شاباً عاقلاً جداً بعيد النظر هادئ الأعصاب . حتى لنلاحظ عنده جموداً عاطفياً يذكرنا بما كان عليه جده الأمير عبد الرحمن الداخل .

تولى محمد وحاجب الدولة « عيسى بن شهيد » فأقره على عمله ، وكان لعيسى فضل كبير عليه . وكان كذلك آخر وزراء أبيه ، وقد زاد في تنظيم الوزراء وترتيب أعمالهم حتى أصبحوا وزراء يقاربون وزراء اليوم في اختصاص كل وزير بفرع من فروع الإدارة . وبعد أن تولى عيسى بن شهيد ، تولى الحجابة « عيسى بن الحسن بن أبي عبده » وكان وزيراً جليلاً رغم رثاء هيئته ، ثم خلفه « هاشم بن عبد العزيز » وكان رجلاً أرعن طائشاً شديد الأتانية ، وقد كان له أسوء الأثر على الدولة وعلى الأمير ، بل إن رعونته كانت سبباً في قيام كثير من الثورات والاضطرابات التي انتهت إلى عصر الفتنة الأولى الذي سنتحدث عنه

ولقد واجهت الأمير محمداً لأول ولايته مشاكل محلية كثيرة في مختلف النواحي فثار أهل طليطلة ، واتجه بنو قسي أصحاب الثغر الأعلى إلى الاستقلال بناحياتهم ، وتحركت جماعات شائرة في الغرب في إقليم « ماردة » . وإن من يقرأ حوليات الأندلس أيام الأمير محمد ، ليتصور أن معظم النواحي خرجت على الإدارة المركزية . ولكننا ينبغي أن نذكر أن هذه كانت الحال أيضاً في معظم ممالك أوروبا النصرانية . لأن طبيعة الأرض هناك تسهل الثورة على من أرادها ، ثم إن الناس الذين تشبأوا في هذه البيئات الطبيعية الجبلية لا يميلون إلى الاستسلام لحكومات المركزية ، وخاصة رؤساء الناس في تلك النواحي وهم أمراء الإقطاع . ولهذا فقد كانت الثورات والحروب الداخلية دائمة في هذه البلاد كما كانت دائمة في الأندلس . المهم لدينا أن الأمير محمداً كان مدركاً لهذه الحقيقة وكان مستعداً دائماً لحماية وحدة بلاده لا يكف عن الخروج في الحملات أو إرسال القواد بالجيش .

وقد لقي من أهل طليطلة عناء شديداً . لأن ما فعله معهم جده الحكم ، كان قد قضى على جانب كبير من الثقة بينهم وبين البيت الأموي ، لذلك كانت الحرب سجلاً بين أهل طليطلة وجيش قرطبة . واستطاعت قوات الإمارة أن تحرز نصراً كبيراً عند وادي « سليط » في الجزء الجنوبي من كورة طليطلة سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م ووقع نصر من زعماء الثورة والمحرضين عليها في يد الأمير ، ثم انتهى الصراع بين الجانبين بنصر آخر لقوات الإمارة سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م خارج طليطلة نفسها ، وعلى أثر ذلك استكان البلد وصالح الأمير .

وأقام محمد في طليطلة ينظر في أمور أهلها ، فتبين له أنه لا بد من تحصين كورة طليطلة من الشمال بإنشاء خط من الحصون والاستحكامات يمتد بحذاء جبل « الشارات » حتى يصل إلى وادي « إبرو » ، فتقوم هذه الحصون بإيقاف أي تقدم للنصارى جنوباً ، ويشعر أهل طليطلة أنهم لم يعودوا بحاجة إلى مهادنة النصارى أو محالفتهم . وبالفعل أنشأ خط الحصون هذا ، وكانت أول مراكزه مجريط (مدريد اليوم) في شمال شرقي طليطلة ، ثم « طلمنكة » وقلعة هنارس ووادي الحجارة ومدينة سالم وقلعة أيوب ثم سرقسطة . وقد سمي هذا الخط كله بوادي الحجارة أي وادي الحصون وأهم حصونه مجريط ومدينة سالم ، وهذه الأخيرة كانت القاعدة العسكرية للإقليم الثغري الأوسط الذي عرق باشعر الأوسط . أما الثغر الشرقي فكان يسمى بالثغر الأيمن وهو منطقة وادي إبرو وعصمته سرقسطة . وكان هناك ثغر أنثى في الغرب ، وهو استمرار للثغرين الأعلى والأوسط ، وأهم مراكزه « قورية وشنترين » ثم « الأشبونة » وهي قاعدته في المحيط . وكانت هذه المناطق الثغرية الثلاثة مناطق حدود يحكمها حكام عسكريون بدل عمال الكور ، وكانت لها معاملة مالية خاصة ، فلم يكن أهلها يؤدون الاعشار وغيرها من الضرائب بنفس النسب التي كانت تجبى بها في بقية البلاد ، إذ كان يراعى أن أهل هذه النواحي ينفقون أموالاً كثيرة في الدفاع عن أراضيهم ، ثم إنهم كانوا في الغلب قوماً مسلمين ، يعاملون من جانب الحكومة برفق شديد وقد جرت عادة في البلاد الإسلامية ، والأمازيغ خاصة ، بعد أن هذه النواحي المستقرة والتجارت والرفاهية أن يكون لهم نصيباً على حدود الأسلام حماية لدر الإسلام ، حسبة لله والتماساً للثواب .

وعاد خطر الأردماتيين (النورمان) يهدد شواطئ الأندلس ، وكان المسلمون قد استعدوا لهم بالأساطيل ، فلم يستطيعوا هذه المرة أن يصيبوا من المسلمين ما كانوا يصيرونه فيما مضى ، فلم يجزؤوا على اقتحام الأشبونة أو إشبيلية ، فانقضوا على بلدة صغيرة هي « باجة » في البرشغال الحالية ، وهناك أوقعت بهم قوات الإمارة هزيمة كبيرة ، وبعد ذلك تحولت غزوات النورمان إلى ضربات سريعة على السواحل ، وامتدت حتى وصلت الساحل الشرقي لشبه الجزيرة ، ويشتت تماماً من القدرة على القيام بعمل كبير في الأندلس الإسلامي ، فالتجته إلى إسبانيا النصرانية وتمكنت من الدخول بسفنها في نهر الإبرو ، ووصلت إلى « بنبلونة » عاصمة نهر (نافار) ونهبتها نهباً ذريعاً وأسرت ملكها « غرسيه » ولم يردوه إلا لقاء هدية كبيرة .

وذلك كانت آخر محاولة قام بها الأردمانيون ضد الأندلس ، إذ تبينوا أن شواطئهم محروسة وأساطيلهم معدة ورجالهم متجهون ، ولم يعد أحد يسمع عن خطر المجوس على الأندلس بعد ٣٤٥ هـ / ٨٥٩ م .

كذلك قامت حروب كثيرة بين الأندلس ومملكة « نافار ولبنون » وقد كانتا لخوقهما من المسلمين قد اتحدتا وانضم إليهما أحياناً « موسى بن موسى بن قسي » ، صاحب الثغر الأعلى أي سرقسطة . وكان آل قسي في الأصل أسرة إسبانية نصرانية ، اعتنقت الإسلام ودخلت في طاعة المسلمين ، ولكن رجالها ظلوا يتمسكون باستقلالهم المحلي في كل منطقة الثغر الأعلى ، ويبدو أن هذا الاستقلال المحلي كان أمراً تحقته الضرورات الجغرافية والتاريخية . وقد قدر أمراء قرطبة هذه الظروف ، فكانوا يكتفون من أمراء الثغر الأعلى بطاعة اسمية وفي أحيان أخرى كانوا يحاولون كسر شوكتهم . وعلى أي حال فلم يكن من الممكن اتباع سياسة أخرى حيال أمراء ثغر بعيد كهذا ، يحيط به الأعداء من الشمال والشرق والغرب . وقد كان بنو قسي التجيبيون ثم بنو هاشم الطويل ، من أكبر أسباب استقرار الأحوال في الثغر الأعلى ، فقد قام على رأس هذين البيتين رجال محاربون أشداء ، استطاعوا الصمود للضغط النصراني ومصانعة جيرانهم من النصارى إذا اقتضى الأمر ذلك . وقد أدى ذلك إلى خلافات كثيرة بينهم وبين أمراء قرطبة ، ولكنهم تمكنوا من حماية ثغرهم وأهله ، وتأمينه حتى أيام عبد الرحمن الناصر

عندما تغرر العلاقات بينهم وبين «أمة موصلة إلى سحر إلى خلافة» ويرجع
إلى رجال هذه البيوت لإقطاعية الفضل في تثبيت أركان الإسلام والثقافة العربية في
دلت «لأنهم» فإنه ظل بعيد عن الثورات الكبرى عن قريته وريح «ال» وأن من
أكثر نواحي الأندلس عروبة وإسلاماً.

وقد انتصر الأمير محمد على مملكتي «نبرة وأشتريس» في كل حروبه معهما
بفضل قاداته من أمثال «عيسى بن الحسن بن أبي عبده» و«عباس القرشي» ثم
أبناء الأمير محمد: عبد الرحمن والحكم والمتن وكانوا قيادة موهوبين وقد
تمكنت الإمارة القرطبية من القضاء على أطماع «أردونيو الأول» ملك أشتريس
وليون حتى توفي سنة ٢٥٢ هـ / ٨٦٦ م وحلقه أخوه «أنفونسو الثالث» الملقب
بالكبير، وهو من أعاضم ملوك إسبانيا النصرانية. وفي أيامه نقلت عاصمة المملكة
إلى مدينة ليون، وأصبح اسمها مملكة ليون. ومن أواخر أيام الأمير محمد نجد أن
مملكة ليون تصنع منافساً خطراً للإمارة القرطبية

ولم يتمتع الأمير محمدًا من إيفاف مملكة ليون عند حداثها إلا كثرة الثورات
عليه في بلاده. ولم تكن هذه الثورات ناتجة عن ضعف الحكومة أو إهمالها
لواجبها بل سببها اتساع دولة بني أمية ووعورة أرض البلاد ثم قلة العرب وسط
الجموع الأخرى من المستعربين والمولدين. وكان الظاهرون من رجال كل ناحية
لا يكفون عن معاداة الحكومة والاتجاه إلى الاستقلال، وربما كن اسم
السياسات هو أن تسير إمارة قرطبة على نفس النظام الذي كانت تسير عليه ممالك
أوروبا النصرانية في ذلك العصر، وهو الاعتراف بأعراء الإقطاع في نواحيهم، في
مقابل خضوعهم الرسمي للدولة وأداء مال معين وتقديم قوات محاربة وقت
الحاجة. ولكن مفهوم الدولة عند بني أمية ورجالهم لم يكن يقبل هذا الوضع، ثم
إن وجود جماعات كثيرة من العرب في الشرق والجنوب والغرب، كان عقبة في
سبيل إقرار نظام كهذا، فقد كان للعرب — في الكور المجندة خاصة — اعتبارات
كثيرة، فإذا قبلت الدولة نظام الإقطاع، فقد كان أولئك العرب الذين سيكونون
أصحاب الإقطاعيات الأموال التي كانوا يجلبونها من الناس بحسب نظام الكور
المجندة. ولم يكن هذا من صالحهم لأنهم كانوا ميالين للموضى أولاً، ثم إنهم
كانوا بعيدين جداً عن إدراك فكرة اسدولة وفضائل الخضوع للنظام. ومن الغريب

أن أولئك العرب الذين ستقروا في نواحي « تدوير » وهي « مرسية » العربية ، وكذلك نواحي غرناطة وبعض كور الجنوب ظلوا متجمعين في مراكزهم يعيشون حياتهم العربية في مواطنهم الأولى ، يقضون أوقاتهم في مجال الفروسية وقول الشعر والحرب فيما بين بعضهم وبعض ، مما كان يخرب الأرياف ويسوّي الزراعات وكان معظمهم من المولدين والمستعربين . وقد بلغ من قصر نظر رؤسائهم أنه كان لا يعيهم مصير الإمارة مع أنها كانت درعهم النواقي وقاعدة قواتهم . وسنرى ذلك بوضوح عندما تقوم الفتنة .

وقد تعرضت الإمارة في النواحي الغربية في بلادها من « كور ماردة وبطلوس والاشبونة » وبقيّة ما يعرف اليوم بالبرتغال ، لخطر من نوع آخر ، فهناك كانت تقيم جماعات كبيرة من المولدين الذين احتفظوا بشخصيتهم المحلية وبروابطهم بأصولهم الإسبانية ، وأرض العرب هذه كانت مفازات (أي أرض قاحلة) وأراض جبلية يصعب على الإمارة السيطرة عليها سيطرة تامة ، وكانت الدولة تلجأ إلى العنف ، والعنف يولد العنف . ومن أمثلة ذلك بصرف الإمارة حيل طائفة من زعماء أهل الغرب الأندلسي كان مركزهم مدينة ماردة ويتزعمهم مسلم مؤلّد من أصل جليقيّ يسمى « عبد الرحمن بن مروان الجليقي » ، وقد طالبوا « الدولة » بأن تسمح لهم بشيء من الاستقلال في حكم بلادهم ، واستولوا على نجد الأمير محمداً يخرج حيوشه إلى ماردة سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م ، ويستول على ذلك البلد ويأخذ كبار الثائرين معه ويسكنهم في قرطبة ليطمئن إلى ولائهم .

ولكن الوزير « هاشم بن عبد العزيز » أساء التصرف مع « عبد الرحمن بن مروان الجليقي » وأهانه ، فهرب من قرطبة إلى ماردة ثم إلى بطليوس ، وعثا حاولت الإمارة إخضاعه دون جدوى ، فتحالفت مع الفونسو الثالث ملك ليون ، وأرسل محمداً لحربه سنة ٢٦٢ هـ / ٨٧٦ م أبته « المنذر » ومعه الوزير « هاشم ابن عبد العزيز » . وكان هاشم رجلاً طائشاً عاجزاً عن مواجعة عبد الرحمن بن مروان الجليقي وحليفه « سعدون السرنباقي » ، وكانت النتيجة هزيمة كبيرة لجيوش الإمارة في شوان ٢٦٢ هـ / يونيو ٨٧٦ م ووقوع هاشم بن عبد العزيز في أسر السرنباقي فأسلمه لعبد الرحمن الجليقي . وقد افتداه الأمير محمد بمائة وخمسين ألف دينار ، وبعد جروب طويلة انتهى الأمر إلى الاتفاق مع عبد الرحمن الجليقي على قراره على بطليوس ونواحيها ويكون في رجل الإمارة وحلفائها

ثورة عمر بن حفصون :

ولكن أكبر الثورات الداخلية التي نتجت عن إصرار الحكومة المركزية على بسط سلطانها المباشر على النواحي ، ورفضها السماح بتصيب كبير من الاستقلال لأهل النواحي ، نراه في ثورة « عمر بن حفصون » في ولاية « رية » الجنوبية وهي ما يسمى الآن بمحافظة « مالقة » .

ويذهب مؤرخو إسبانيا إلى أن ثورة عمر بن حفصون تمثل نزوع الإسبان إلى التخلص من سلطان أعرب ، وهم يدرسونها على أنها جزء من التاريخ الإسباني العام . وذلك خطأ من كل ناحية ، فعمر بن حفصون أندلسي مولداً ونشأة وعاش معظم حياته مسلماً ، وأسباب ثورته تتصل كلها بنظام الحكم الأموي ، ووجود جماعات كبيرة من العرب في كور « تدمير والمرية وغرناطة » ، وسوء تصرف أولئك العرب مع الزراع وأهل القرى في تلك النواحي ، ومعظمهم مولدون ومستعربون . وهو لم ينزع قط إلى الانفصال عن الأندلس إلا عندما تدهورت ثورته وأصبح ينشئ النخلة من الهلاك المحتوم على مدينتي « مالقة » و « رية » من الغزو الإسباني . ثورة خطيرة وأنها هزت كيان الدولة الأندلسية هزاً عتياً ، وقد كان أمراً محزوناً في أيام عمر بن حفصون ، ولكنه كان مفيداً فيما بعد ، لأن هذه الثورات الشعبية تكشف عن الكثير من أعيوب الكامنة وتحفز أولى الأمر على تلافيها .

والنسب المباشر لقيام هذه الثورة هو تشدد عامل « رية » في جنسية الأموال المتخذه . أما سبب تخيبهم إزاء أهل هذه النواحي « الخساسة » فيعتبر سبباً بالعناية الكافية من جانب الحكومة المركزية ، فامتلات نفوسهم بأسباب العصب والشكوى وأصبحوا حطباء يابساً لئيران أية ثورة تقوم .

وقد بدأ تمرد أولئك القوم في سنة ٢٦٥ هـ / ٨٧٨ م وحاول الأمير محمد أن يطفى نيرانها بالقوة فلم يفلح ، وهنا ظهر عمر بن حفصون ، وأخذ يتزعم مصالب أولئك الناس أمام الحكومة المركزية . وهو من أصل إسباني مسيحي . إذ أن حده « القونس القنسي » ، وجده الرابع هو الذي اعتنق الإسلام ، فنشأ هو في « رية » حراً عسكراً متبرداً فحجمه سانية من الأمير روبرت الذي كان مسيحياً . وبعده شمال شرقي جبال « رنده » ، واعتصم في ذلك الجبل وأخذ يناوي قوات الإمارة . وهنا أرسل محمد وزيره هاشم بن عبد العزيز وكان قد أدخل سبيله من الأسر ،

فاستطاع استئصال عمر بن حفصون من حصنه وضمه إلى ضباط جيش الإمارة ،
وفعلاً اشترك في حملات قامت بها في الشمال . ولكن ابن حفصون كان متمرداً
بطبيعته ، ثم إن هاشم بن عبد العزيز أساء إليه فترك قرطبة مرة أخرى وعاد إلى
العصيان سنة ٢٧١ هـ / ٨٨٤ م .

وسار « المنذر بن محمد » لمقاتلته وضيق عليه ، فلما كان على وشك الاستيلاء
على حصته الأخير بلغه الخبر بموت أبيه الأمير محمد ، فارتد المنذر إلى قرطبة في
٢٩ صفر ٢٧٣ هـ / أوائل أغسطس ٨٨٦ م فتنفس مخرج عمر بن حفصون بعد
أن كاد أمره يتبدد .

ونستطرد مع تاريخ حركة عمر بن حفصون فنقول إن الأمير المنذر خلف أبه
محمد ، وكان فارساً نجداً وقائداً قادراً ، فسار لمحاربة ابن حفصون ، وكان هذا
قد انتهز الفرصة ووسع سلطانه حتى شمل منطقة « زِيَّة » بأكملها ، واخذ يتكلم
في ضرورة الثورة على السلطة للتخلص من الضرائب والظلم . ويذهب فئة من
المؤرخين إلى أن عمر بن حفصون دعا إلى تحرير البلاد والتخلص من الحكم
العربي ، والحقيقة أن عمر بن حفصون كان مسلماً ، وكذلك كان كل رجائه ، وكان
رجلاً تربى في ظلال الإسلام ، فهو ثائر على سوء الإدارة وطامع إلى السلطان ولكنه
لم يقصد أبداً الارتداد بإسبانيا إلى النصرانية ، فهو في ثورته لم يحاول الاتصال
بنصارى الشمال ، بل كتب إلى الخليفة العباسي يطلب منه أن يولييه حكم البلاد
التي دخلت في طاعته ، وكتب « بنو رستم » أهل « تاهرت » ، وكذلك كتب إلى
« بنو الأغلب » يطلب مساعدتهم ولو أنه لقي من قرطبة بعض التسامح ، فقد كان
من الممكن أن يعود إلى الطاعة آخر الأمر .

وقد صمم المنذر على القضاء على الثائر ، فسار إليه وحاصره في الجبل الذي
اعتصم به حتى أرغمه على التسليم ، بعد حكم لم يدم أكثر من سنتين في صفر
٢٧٥ هـ / يوتية ٨٨٨ م وخلفه أخوه عبد الله بن محمد .

الأمير عبد الله :

وكان الأمير عبد الله يختلف عن أخيه المنذر وأبيه محمد ، فقد كان بارعاً في
حبب المؤامرات ، ولم يكن واسع الذكاء ولا بعيد الثصور ، ولكن فضيلته الكبرى

كانت الثبات ، فإن هذا الرجل لم يكن ليفقد صوابه أو هدوءه أبداً رغماً عن تواتر
الثورات عليه .

ولم يستطع الأمير عبد الله القضاء على ثورة ابن حفصون ، فاستد آذاه إلى كل
تواحي جنوب الأندلس ، وخاف العرب على أنفسهم ، فتصدوا لحربه وترغمهم
رجال من أمثال « سوار بن حمدون القيسي المجازبي وسعيد بن جودي ومحمد
ابن أضحي الهمداني » في كورة غرناطة . وكذلك ثار عرب إشبيلية ، بقيادة « كريب
ابن خلون وإبراهيم بن حجاج » ، وظال النزاع بين أفراد هذين البيتين ، ولم يبق
في طاعة الأمير عبد الله إلا قرطبة وأحواها .

ولم تنج الإمارة القرطبية من الزوال إلا بفضل قائد عظيم هو « أبو العباس
أحمد بن أبي عبد » فمن هذا العسكري الموهوب ، استمر نحو ثلاثين سنة في
مبادي الحروب مدافعاً عن الجماعة ووحدة الأندلس . وبفضل هذا القائد وابن أخ
له هو « عبيد الله محمد بن أبي عبد » ، استطاع الأمير عبد الله إيقاع هزيمة قاصمة
بعمر بن حفصون في ٢ صفر ٢٧٨هـ / ١٦ مايو ٨٩١ م . واستولى بعدها على
حصن « بلي » من الحصن معاقل ابن حفصون قرب مدينة « نبرة » ، وقد كانت هذه
المعركة هي الخطوة الأولى نحو القضاء على عمر بن حفصون ، فقد طارده جند
الإمارة وحاصروه في معقله الأكبر وهو « ببشتر » ، ولكنهم لم يستطيعوا القضاء
عليه لتعدد الثورات . وعندما توفي الأمير عبد الله في أول ربيع الأول ٣٠٠هـ /
أكتوبر ٩١٢ م كانت ثورة عمر بن حفصون ومعظم الثائرين قد وهنت ، وتمهد
طريق لتسليمهم للإدارة القرطبية ، والفضل في ذلك راجع لهذا الأمير عبد الله
الذي استطاع رغم وجود النقص الكثير في أخلاقه ، أن يجتاز بالإمارة القرطبية
المحنة ويتجوبها من الأخطار .

وقد أمضى الأمير عبد الله حكمه كله في حرب متصلة مع أولئك الثائرين الذين
تكاثروا في كل ناحية وازدادت جراتهم على الإمارة ، وتسمى هذه الفترة كلها
« بفترة الفتنة الأولى » ، وتمتد من أواخر أيام الأمير محمد إلى أوائل أيام
عبد الرحمن الناصر ، وتعددت مراحلها وأدوارها ، ففي دورها الأول كانت ثورة
من بعض أهل النواحي على ما سُمّوه ظلم الإدارة القرطبية وإجحافها في جباية

الأموال ، وليس ذلك بصحيح . وترتبط هذه الدعوة بأسماء « عبد الرحمن بن مروان الجليقي » في الغرب « وعمر بن حفصون » في الجنوب .

وعندما طالبت الحرب وأحس العرب في نواحي تدبير وغرناطة وإشبيلية بضعف الإمارة ، بادروا هم الآخرون إلى الثورة على الإمارة وخلعوا طاعتها ، وقتل شعراؤهم شعراً يطالبون فيه الإمارة بأن تترك الأندلس لهم ، وستطأوا على المزارعين وأهل القرى وظلموهم فنجم من بين هؤلاء ثوار انضموا إلى عمر بن حفصون ، ودارت الحرب بين ابن حفصون والعرب ، وكان النصر عليهم لأن حفصون حتى وقع في أسره قتلهم « سوار بن حمدون المحاربي » ، واشتدت الفتنة بين بني حجاج وبني خلدون في إشبيلية واشتعلت الأندلس كلها نارا كما يقول ابن عذاري . وهذا هو الدور الثاني للفتنة . وقد واجهها الأمير عبد الله بشجاعة ومعه قواده ، وقد ذكرنا اثنين منهما ، ونضيف إليهما هنا « محمد بن عبد القافر » الذي استشهد في حربه مع بني حجاج ، ولكنه حطم قواهم واستعز الأمير على ذلك حتى استولى رجال الأمير عبد الله على حصن « ثلي » ، فانكسرت شوكة عمر بن حفصون وفقد هيبته وتحل الناس عنه واعتصم بمعقله الحصين في بيشتر حتى توفي الأمير عبد الله سنة ٢٠٠هـ / ٩١٢ م .

ومن حسن الحظ أن الذي خلقه كان « عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله » وكان الأمير عبد الله قد قتل ابنه محمداً لاتهامه بمؤامرة ، وذلك قبل مولد عبد الرحمن بأسابيع قليلة ، وقد تحول ندم الأمير على قتله ابنه إلى عطف على حفيده ، ولذا فقد أحب عبد الرحمن وأسكنه معه في القصر وأشرف على تربيته وقدمه على سائر أبنائه ، ولم يكن أحد من الباقين من أبناء عبد الله يظن أن العرش يمكن أن يصير إلى عبد الرحمن فسكتوا عنه ، وكان هو من جانبه شاباً ذكياً بعيد النظر فكان يقوم بالوساطة بين الأمراء ورجال الدولة وجده العنيف البخل ، فأحب الناس وسطوه في حاجاتهم فنشأ محبوباً من الجميع مقرباً إلى جده . فلما توفي الجد ، أجمع أهل القصر على مبايعته ، ولم يختلف عليه أحد ، لأن أحوال الإدارة كانت من السوء بحيث لم يكن فيها مطمع لأحد . وهكذا أصبح عبد الرحمن ابن محمد المعروف بالثالث أو لناصر أمير قرطبة دون صعوبة ، في ٢٠٠هـ / ٩١٢ م ، وبدأ في تاريخ الأندلس العصر الذهبي وهو عصر الإزدهار الأكبر

عبد الرحمن الناصر

وميلاد الخلافة الأموية الأندلسية

والعصر الذهبي لبني أمية في الأندلس

بدأ عبد الرحمن الناصر حكمه في ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م ، وكان كما قلنا في الثانية والعشرين من عمره ، وقد اتفق الجميع على البيعة له بنفس راضية مع صغر سنه ومع وجود الكثيرين من أعمامه الذين كان من الممكن أن ينافسوه ويسبوا له المتاعب - ولكن عبد الرحمن عرف كما ذكرنا ، كيف يكسب محبة الناس جميعاً بفضل أخلاقه الجميلة ، وما كان يقوم به من الوساطة للناس عند جدّه عبد الله الذي اشتهر بالعنف والبخس حتى نفر منه الناس ولم يبق قريباً منه إلا حفيده عبد الرحمن هذا ، فهو الذي يتوسط بينه وبين أهل الدولة والأمراء فيكسب بذلك محبتهم وولاءهم .

وهكذا أصبح عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الذي سيشهر باسم عبد الرحمن الناصر أميراً للأندلس في أكتوبر ٩١٢ م . وكان الواجب الملقى على عاتقه عسيراً ثقيلاً ، فقد راينا ما تعرضت له الإمارة القرطبية من ثورات في كل ناحية حتى أصبح منصب الأمير منصباً لا يُحسد عليه صاحبه ، ويقال إن الذي جعل أعمام عبد الرحمن ينصرفون عن منبواته ومنافسته هو شعورهم بأن منصب الأمير كان منصباً مثقلاً بالمتاعب والأخطار والمسئوليات - وأنه لا خير فيه ولهذا فقد تركوه دون صعوبة لهذا الشاب .

ولكن هذا الشاب أثبت أن الإنسان يستطيع بالذكاء وحسن الحلق والتدبير التسليم أن يعيد بناء دولة وهى أمرها ويصعد بها إلى الأوج معتمداً على شجاعته وخصاله ، وهنا ينبغي علينا أن لا ننسى فضل الأمير عبد الله فيما سيصل إليه حفيده ، فهو صاحب الفضل في تحطيم قوى التأثيرين وخاصة عمر بن حفصون ، ولولا ثبات الأمير عبد الله وإصراره على التمسك بحقوق الإمارة ومطالبته كل

حكّام بنوحى بما فى ذلّت تدثرين ناسعه وكذلّت تدبر د'مور دولة ماظليل عن السمال الذى كان يصل إليه ، لولا ذلّك ما استطاع عبد الرحمن أن يعيد الوحدة إلى ابلاد ويجمع قواها ويسير بها فى طريق القوة والازدهار .

كذلّك علينا أن نذكر فضل المخلصين من رجال السموت الموازية الذّمن وقفوا إلى جانب الإمارة يشدون أزرها بالرأى السديد والتعاون المثمر والإخلاص الثابت فمكنوا لها من الثبات وسط العواصف ولا تنسى هنا فضل القائد «أبى العباس أحمد بن أبى عبده» الذّى قضى أكثر من ثلاثين سنة فى ميادين الكفاح منافحاً عن الإمارة وإليه يرجع الفضل فى كسب نصر يولية على «عمر بن حفصون» الذّى كسر ظهره ومهد الطريق للقضاء عليه .

الوضع العام داخل الدولة عند ولاية عبد الرحمن الناصر :

رأيت كيف نشبت ثورة عمر بن حفصون وكيف تفاقم أمرها حتى اشاعت الفوضى فى جنوب الأندلس كله ، فخرجت معظم نواحيه عن طاعة قرطبة ، وكيف تمكن الأمير عبد الله بفض ثباته من الصمود لذلّك الرجل وإلحاق الهزيمة الكبيرة به عند «بلى» ، ولكن ذلّك النصر كان لا بد أن يتبعه سياسة صارمه مع عمر بن حفصون حتى لا يستعيد قوّته وينشر أذاه كما كان الحال قبله .

وقد كان عمر بن حفصون قد انتهز فرصة موت الأمير عبد الله وحاول أن يعيد صلاته بأمثاله من الثائرين ، ولكن عبد الرحمن تنبه لأمره وعرف أن أول ما ينبغى عليه هو مواصلة الكفاح مع هذا الثائر وأحلافه ومن جروا فى طريق الفتنة مثله .

وقد بدأ عبد الرحمن بإرسال جيش إلى قلعة كركى Caracuel فى جبال المعدن Sierra Morena شملّى قرطبة لمواجهة ثائر آخر كان قد أراد أن يحذو حذو ابن حفصون وهو «الفتح بن زنون» وهو جد أسرة «بنى زنون» التى سيشتهر أمرها فى عصر الطوائف ، وكان قد ثار بسواحي «شنتمرية Santaver» وكان يقود الجيش القائد عباس بن عبد العزيز القرشى وعند «كركى» لقي الفتح ابن زنون وأُنزل به هزيمة قاصمة وصطره إلى السجود إلى قلعة اقليش وعند هزمه

في تلك الحملة أحد رؤساء الثائرين وهو « محمد بن أردبولش » فكان لهذا النصر الذي لقيته جيوش عبد الرحمن في صدر حكمه أثر بعيد في إخافة الثائرين عليه .

وفي جمادى الأولى سنة ٣٠٠ هـ / يناير ٩١٢ م - سَيَّرَ عبد الرحمن جيشاً قويّاً يقوده القائد بدر بن أحمد ، فاسترجع مدينة « أستجة » التي كان عمر بن حفصون قد ضمها إليه ، وبعد دخول بدر بن أحمد ذلك البلد هدم أسوارها حتى سواها بالأرض ، وهدم القنطرة التي كانت تؤدي إليها عن نهر « شتيل » - فانقطع رجاء أهلها في الثورة .

وبعد ذلك بقليل دل عبد الرحمن على شخصيته وطريقته في العمل ، فاعد بعناية فائقة جيشاً ضخماً لكي يسير به نحو عمر بن حفصون ، وقد ظل يعد ذلك الجيش شهراً طويلاً ، فلم يدع شيئاً مما يلزم للجيش إلا اهتم به وتخير قرسانه واحداً واحداً وخرج من قرطبة في شعبان ٣٠٠ هـ / مارس ٩١٢ م وتوجه الجيش وعلى رأسه عبد الرحمن نحو « أبطدة » حيث انضم إليه أحد اقواء المخلصين للإمارة ، واتجه الجيش إلى « مرطش » ثم قصر « مالقة » وعسكر في قلب المنطقة التي ظن ابن حفصون أنها معقله ، وهنا رغب أنصاره من أمثال « سعيد بن هذيل الموليد » صاحب حصن « مونتزون » في الاستسلام للناصر فأجيب إلى ما طلب ووثق له بأمانه ، ثم لحق به ثائر آخر آس كان يعتز به ابن حفصون وهو « عبد الله بن الشاليه » فحصل على الأمان وكذلك فعل ابن عطاف « الأزدي » ، انشأ ابن حفصون « فتيشه » على نهر يسمى وادي « بنى عبد الله Guadalen » فدعاه عبد الرحمن إلى الدخول في طاعته ففعل ومنحه عبد الرحمن الأمان ، ثم استولى عبد الرحمن على وادي « أش Guadix » ووقع في يده في ذلك البلد نفر من حلفاء عمر بن حفصون ممن كانوا ثائرين في ولاية غرناطة ، ومن هناك وصل عبد الرحمن بجيوشه إلى ساحل لبحر عند « شلوبينية » وعاد بعد ذلك إلى قرطبة ، وفي طريقه إليها استولى على بلدين ثائرين هما شنت إشتين San Esteban وبنه فراطة Pena - Forata وعاد إلى عاصمته في عيد الأضحى سنة ٣٠٠ هـ - يوليو ٩١٢ م بعد أن ألقى الرعب في نفوس الثائرين واستولى - فيما يقول المؤرخون - على سبعين حصناً من حصونهم

وفي العام التالي ٣٠١ هـ / ٩١٤ م سار عبد الرحمن إلى جبال « رندة » وغلبها

المعقل الرئيسي لابن حفصون في « بيبستر Bobastro » وفي طريقه استولى على عدد من الحصون المؤدية إلى ذلك الحصن ، ووصل عبد الرحمن إلى مدينة الجزيرة الخضراء وأعد إلى الطاعة في الطريق « شذونة ومورور » ثم أجه نحو « قرمونة » .

وكانت نية عبد الرحمن هذه المرة معقودة على كسر شوكة بنى الحجاج وبنى خلدون الذين كانوا قد استبدوا بأمر إشبيلية وإقليمها ، وكانوا يعاونون ابن حفصون على تماديه في الفساد ، وكان عبد الرحمن يرمى إلى حرمان ابن حفصون من حلفائه حتى يستسلم من نفسه دون حرب شديدة ، وأرسل عبد الرحمن قائده « القاسم بن الوليد » نحو إشبيلية فخاف « أحمد بن مسعدة » زعيم بنى الحجاج من مقبة التمادي في الضلال فأبدى رغبته في الاستسلام ، وأرسل عبد الرحمن قائده « بدر بن أحمد » فدخل البلاد في جمادى الأولى سنة ٢٠١ هـ / ديسمبر ٩١٤ م ، وحاول « محمد بن إبراهيم بن الحجاج » زعيم بنى حجاج أن يحصل لبيته على شروط قبل أن يوادع عبد الرحمن ، ولكن هذا أفهمه أنه لا يقبل إلا الاستسلام دون شروط . وبالفعل تم ذلك ونزل زعيم بنى الحجاج على عهد عبد الرحمن قوفى له بما وعده به . وهكذا عاد غرب الأندلس إلى الصلابة بعد طول خروج .

وفي طريق عودة عبد الرحمن ورجاله حاصروا قلعة « قرمونة » وكان فيها شائر من أنصار عمر بن حفصون يسمى « حبيب بن عمر من سواردة » ، وترك رجاله يحاصرون البلد وعاد إلى قرطبة ولم يلبث حبيب أن استسلم وأخذ إلى قرطبة ، على الأمان .

وكان عبد الرحمن يفعل ذلك وفي ذهنه القضاء على رأس الفتنة كلها ، وهو عمر بن حفصون فأرسل جيوشه فاحتلت « جين » التي كان أصحابها يدفعون الإتاوة لابن حفصون وكذلك أرسل قوة إلى « البيرة » فأعادتها إلى الطاعة ، وكان الخناق يضيق حول ابن حفصون شيئاً فشيئاً ، وظن في أخريات أيامه أنه إذا اراد إلى النصرانية كسب ولاء المستعربين في الأندلس ، وكانوا كثيرين جداً ، وكانوا غير راضين عن الإمارة التي تركتهم قريسة لعدوان ابن حفصون ومن شذبه عن الثائرين من العرب في إقليم « البيرة » وهي غرطبة ، ولكن هذا الارتداد أضرب بابن

حفصون ولم ينفعه في شيء ، فقد انصرف عنه الكثيرون من رجال المسلمين والنصارى . بر إن ابناً وحداً من أبنته وبيتاً فعلاً فعل ليهما في القصر ، وصل الابنان لأحر ن عن الإسلام . وفي هذه الظروف ، لبس الذي يحيط بسلك التأثير العنيد - نزل به الموت في قلعة « ببشتر » ودفن في كنيسة في ربيع الأول سنة ٣٠٥ هـ / سبتمبر ٩١٧ م ، بعد أن قاد أخطر ثورة تعرضت لها إمارة قرطبة ودامت نحو ٣٠ سنة ، وفي اثنتائها تقلب الرجل من ناحية لأخرى حتى يقال إنه خطب لبنى الأغلب أصحاب القيروان ، وحاول الاتصال ، ببنى رستم « أصحاب تاهرت ، فلم يوفق معهم في شيء .

وكان لخبر موت ابن حفصون رجعة كبرى في الأندلس كله ، فقد أيقن بقية الثائرين أنه لا مفر لهم من العودة إلى طاعة قرطبة خاصة وأن عبد الرحمن كان يتلقى من يطلبون الأمان بالإكرام ويستترزله في حصونهم ويقي لهم بوعده ، فأخذ الكثيرون من الثائرين يعودون إلى الطاعة على هذه الشروط .

وبعد أن تولى عمر بن حفصون خلقه ابنه « جعفر » وكان قد تنصّر مثله هو وأخته « أرجنتيا » في حين أن أبناءه الثلاثة الباقين وهم سليمان وعبد الرحمن وحفص « ظلوا على الإسلام ، وتولى جعفر مقاومة عبد الرحمن الثالث ، فلم يمهله هذا وسار نحوه في ذي الحجة ٣٠٦ هـ / مايو ٩١٩ م ، وقد احتل في إعداد هذه الحملة واحتشد على طريقته التي سار عليها ، واحتل عبد الرحمن بلدة شذونة ومنها اتجه إلى جبال رندة ليحاصر جعفر بن حفصون ، واستولى في الطريق على حصن متبع قرب بلدة « البلدة » وكان جعفر قد وضع هناك حامية تنبّه للخطر . وفي أواخر ذي الحجة ٣٠٦ هـ / أوائل يونيو ٩١٩ م استولى عبد الرحمن على كل الحصون الصغيرة المحيطة ببشتر ، ثم ترك حامية تشدد الحصار على الجبل وعد إلى قرطبة ، وطلب حفص بن عمر بن حفصون هدنة وأرسل رهائن ضماناً لوفائه ، وبعد قليل استسلم حفص وأخذ إلى قرطبة وحاول أخوه جعفر أن يواصل المقاومة ولكن جعفر قتل في جمادى الآخرة ٣٠٨ هـ / أكتوبر ٩٢٠ م ، وحاول أخوه سليمان قيادة الثورة ولكن أمرها كان قد وهن ، وتمكن رجال عبد الرحمن من الاستيلاء على معظم الحصون الشائنة في كورتى « رندة وألبيرة » وأخيراً وفي سنة ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م سار عبد الرحمن بنفسه واستولى على ببشتر وحول كنيسة إلى مسجد ، وبذلك انتهى أمر هذا التأثير العنيف الذي ظل هو وأنصاره يقلقون بال الإمارة سنوات طويلة كما رأينا

وقد فاتنا أن نذكر في سياق هذا الصراع المبرير بين عبد الرحمن الثالث وخصوم الإمارة ، أن قائده الكبير « أبا العباس أحمد بن أسى عبده » كان قد لقي الشهادة في صراع مع الثائرين في قلعة تسمى « موت روبيو » فيما بين المرية وغرناطة ، وهكذا انتهت حياة ذلك القائد المجيد الذي يرجع إليه الفضل في إنقاذ الإمارة الأندلسية من الانهيار بفضل ثباته وبسالته وإخلاصه لقضية وحدة الأندلس

وقد أنفق عبد الرحمن بعد ذلك سنوات في تهدئة جنوبى الأندلس والقضاء على الثائرين فيه ، حتى عادت البلاد كلها في حوض الوادى الكبير وجنوبيه إلى طاعة الإمارة ، وقد احتهد عبد الرحمن في إصلاح ما أفسده الثائرون ، فأعاد تنظيم البلاد وأكثر من بناء المساجد ، وفي سنة ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م أى بعد أربع عشرة سنة من الحرب المستمرة عاد السلام فأظل جنوبى بلاد الأندلس بفضل هذا الجهد المتواصل والدقة في العمل ومتانة الخلق التى دُلَّ عليها عبد الرحمن خلال ما انتضى في حكمه إلى الآن .

عبد الرحمن والثائرون في غرب الأندلس

وبطليوس والثغر الأعلى الأندلسي :

وقد قضى عبد الرحمن بعد ذلك أربع سنوات أخرى في صراع مبرير مع الثائرين على الإمارة في غرب الأندلس وفي إقليم طليطنة ، ذلك أن غرب الأندلس وخاصة في نواحي « ماردة وبطليوس » ، كان قد قام فيه عدد كبير من الشوار أكبرهم رجل من المستعربين يسمى « عبد الرحمن بن مروان الجليقي » وكان في أول أمره من ضبط جيش الإمارة ثم خلع طاعته وتحصن في ماردة ، واجتمع إليه عدد من الذعر والخارجين على القانون ، وقوي أمره ومد يده وحالف ملوك قشتالة واستولى على بطليوس وأفسد الغرب الأندلسي كله ، وكان لا بد للقضاء على ذلك الثائر ومن انضم إليه من جهد يعادل ما بذله عبد الرحمن في القضاء على ثورة عمر بن حفصون وبتى الحجاج وبنى خلدون في إشبيلية ، بل إن عبد الرحمن بن مروان الجليقي كان أمره أصعب ، لأنه كان على صلة بأهل طليطلة ولم تكن طاعتهم خالصة للإمارة ، وكذلك كان يستعين بملوك قشتالة .

ولنصف إلى ذلك أن الثغر الأعلى الأندلسي وهو حوض نهر الإبرو وقواعده

الكبرى مثل : سرقسطة و طليطلة و وشقة . ضلت في طاعة الإمارة القرطبية . ولكن زعماءها كانوا يتصرفون بحسب ما تمليه عليهم مصالحهم وهم تارة مع إمارة وتارة عليها .

وقد وجه عبد الرحمن قواه كلها أول الأمر نحو بطليوس للقضاء على ثورة عبد الرحمن بن مروان الجليقي وظل يتابع الحملات عليه ، وفي أثناء ذلك استولت قوات عبد الرحمن على معظم حصون الثائرين المواليين للجليقي حتى طاع كل الغرب الأندلسي حتى : شلب ، أكشونية وشنترية الغرب . لعبد الرحمن ثم اتجه بعد ذلك نحو عبد الرحمن بن مروان الجليقي وحاصره حصاراً طويلاً حتى ألقى بيد الطاعة . وما كان عبد الرحمن يعود إلى قرطبة سنة ٣١٨ هـ / ٩٢٠ م حتى استسلمت بطليوس وكل ما كان تابعاً لعبد الرحمن بن مروان لجليقي وأهل بيته وكبار أنصاره لقرطبة ، على أمان وتوسعة وتكرمة . وهناك اندرجوا في حملة إسكان وانتهى أمر ثورة الغرب ، وبقي أمر طليطلة التي طال العهد بخروجها على الطاعة وتحالفها مع ملوك قشتالة واستنادها إلى تأييد « بنى قسي » الثائرين في « لاردة » وبعض نواحي الشتر الأعلى ، وكان بنو قسي أسرة بشكنسية الأصل جدها يسمى « فرتون » فدخل في الإسلام وتركهم المسلمون على ضياعهم وإقطاعاتهم في الشمال ، وصارت رياستهم في آخر الأمر لبني قسي ، وهم أحفاد فرقون وقد تولي رياستهم في عهد عبد الرحمن زعيمان قويان . هما « المطرف بن لب بن موسى القسوي » وأبنت عمه « محمد بن إسماعيل بن موسى » أما طليطلة فقد تزعمها رجل من رجالها يسمى « لب بن طريشة » وكان حليفاً لملوك قشتالة .

وفي سنة ٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م شرع عبد الرحمن في معالجة أمر الشمال الثائر ، فقاد الحملة الكبيرة التي تسمى في النصوص باسم « غزوة مويش » وأضح أول الأمر إلى قرطبة ، فسارع « لب بن طريشة » وبذل الطاعة لعبد الرحمن ولكنها كانت طاعة على دخن ، وبعد وفاة لب بن طريشة تولي قيادة طليطلة « ثعلبة بن محمد بن عبد الوارث » .

وكان ثعلبة قائداً خبيثاً واسع الحيلة ، قبدأ عبد الرحمن يحاول إقناعه بالدخول في الطاعة ، فردّ ردّاً خشناً ، ولم يجد عبد الرحمن إلا اللجوء إلى القوة

فأرسل في سنة ٢١٨ هـ / ٩٢٠ م جيشاً يقوده الوزير « سعيد بن منذر » حاصر طليطلة ولحق به عبد الرحمن نفسه فعسكر قرب حصن « مورة » على بعد ٢٠ كم من طليطلة . ومن هناك أنذر ثائراً من أنصار ثعلبة يسمى « مطرف بن عبد الرحمن بن حبيب » ثم استولى على قلعة حصينة كانت تحرس الطريق المؤدى إلى طليطلة ، وهناك ترك حامية وعاد إلى قرطبة بعد أن استسلم له أصحاب حصن « الأمين وفسالش » وبدأ حصار طليطلة ، فاستعان أهلها بملك ليون « وامبرو الثاني » الذي تسميه مراجعنا « رذير » وحاول ذلك الملك مدونة طليطلة فلم يستطع واشتد الحصار حولها حتى عاد عبد الرحمن مرة أخرى على رأس جيش كبير في رجب ٢٢٠ هـ / يوليو ٩٢٢ م ، وعندما ضرب فسطاطاً حولها أرسل إليه أهلها يطلبون المؤن إذ كانت مؤنتهم قد نفذت وعرضوا التسليم ، وفي شعبان ٢٢٠ هـ / أغسطس ٩٢٢ م دخل عبد الرحمن العاصمة القوطية ، وخضعت له كل بلاد طليطلة . وهذه المناسبة أقيم عذار عام احتفالاً بتلك المناسبة ، والإعذار هو أن يختن كل من في سن الختان من صبيان البلد على نفقة الأمير وتقام الاحتفالات بذلك شكراً لله .

وهكذا نرى كيف استطاع هذا الرجل الفذ ، عبد الرحمن بن محمد الناصر بعد اثنتي عشرة سنة من الجهد والكفاح ، إعادة الوحدة إلى بلاده ولم يصر إلى ذلك عن طريق القوة وحدها بل عن طريق الأخلاق القويمة ، كذلك فإن الناس ما كانوا يستسلموا له إلا لأنهم كانوا يعلمون أنهم يستسلمون لرجل واثق ، يعرف حقوقهم ويحترم كلمته معهم ، ويعرفون أنه لا سبيل إلى الحياة معه إلا بالدخول في طاعته والاستئمان له .

بقى بعد ذلك الثغر الأعلى الأندلسي . وقد أشرنا إلى حال بني قسي في « طليطلة » وتواحيها ، ونضيف إلى ذلك أن « سرقسطة » كان قد استبد بها بيت التجيبين ، وهم أسرة التجيبين طال بها العهد في الاستبداد بذلك الثغر ، أما « وشقة » فقد استبد بها « بنو محمد الطويل » وكانوا جميعاً عصاة واحدة يتحدون على الإمارة وإن كان الخلاف بينهم شديداً ، ثم إنهم كانوا جميعاً يستعينون بملوك النصارى المجاورين لهم إذا دعت الضرورة إلى ذلك .

فأما بنو قسي أصحاب طليطلة فكان آخر الثائرين منهم على عبد الرحمن ،

هو « محمد بن لب بن قسي » وقد قُتل ذلك الرجل في أول إمارة عبد الرحمن سنة ٣٠٢ هـ / ٩١٦ م وتولى بعده أخوه « المطرف » وكانت لهما أخت تسمى « أراكة » تزوجت من ابن القونسو الثالث ملك « أشتريس » وهو يسمى « قرويلا الثاني » الذي سينتقل العرش في ليون بعد « اردنيو - الثاني » الذي سنتحدث عنه ، وإنما ذكرنا ذلك لنُذكر على علاقات القرابة والمصاهرة بين أولئك الرعاة المسمى ومن جاورهم من ملوك النصاري . وبعد موت محمد بن لب اضطرب أمر طليطلة زمنياً طويلاً ، حتى استسلم أصحابها للأمير عبد الرحمن سنة ٣١٢ هـ / ٩٢٤ م .

وكذلك دخلت « وشقة » وأصحابها من بني محمد الطويل في ولاء الأمير ، وبقي أمر سرقسطة ، ولكن قيل أن يقصد إليها عبد الرحمن ، وجد الفرصة مناسبة لنقضاء على « الفتح بن زنون » انثائر في حصن ، أقبش « والذي كان يسيطر على كورة » شنترية . وقد توفي هذا الرجل في سنة ٣٠٣ هـ / ٩١٥ - ٩١٦ م ، وحاول ابنه يحيى أن يسير في طريق الثورة حتى إذا كانت سنة ٣٢١ هـ / ٩٢٣ م . أرسل عبد الرحمن جيشاً بقيادة الوزير « عبد الحميد بن بسيل » لكي يستنزل « يحيى ابن الفتح بن زنون » فعرض الثنازل وانضم إلى جيش الإمارة وصار في قواد عبد الرحمن ، أما أخوه مطرف الذي كان قد استبد بناحية « أبدة » فلحق بأخيه ودخل في طاعة الأمير . وقد حدث بعد ذلك أن وقع أسيراً في يد « سانشو غرسية » صاحب بنبلسونة ، وعاد إلى صفوف الأمير حتى استشهد في موقعة « الخندق » التي سنتكلم عنها ، سنة ٣٢٢ هـ / ٩٤٥ م . وكان عبد الرحمن قد أقامه حاكماً على كورة وادي الحجارة .

وفي سرقسطة حاول صاحبها « أبو يحيى محمد الملقب بالأنقر عبد الرحمن التجيبي » الخروج على طاعة الناصر ثم عاد لدخل ، وخلفه ابنه « هاشم التجيبي » فأقامه عبد الرحمن عاملاً على سرقسطة نظراً لما لمس فيه من الإخلاص والكفية . وقد طال حكمه في سرقسطة حتى عرفوا باسم بني هاشم ، وفي سنة ٣١٨ هـ / ٩٣٠ م . توفي « أبو يحيى محمد الأنقر » وتولى أمر سرقسطة « محمد ابن هاشم » الذي التوى على الأمير وانضم إلى « راميرو الثاني » ملك ليون وسنرى ما يكون من أمره بعد ذلك .

عبد الرحمن الثالث وعلاقته مع ملوك قشتالة وببيلونة :

لكي نفهم علاقات عبد الرحمن الناصر مع ملوك « أشتريس » وليون ونبرة وعاصمتها ببيلونة ، ينبغي أن نعود إلى الوراء قليلاً - إلى أيام الأمراء محمد والمنذر وعبد الله - فقد عاصر هؤلاء الأمراء الثلاثة ملكاً من ملوك أشتريس يسمى « الفونسو الثالث » وكان ملكاً نشيطاً بعيد الصموج ، تمكن بفضل نشاطه المتصل واجباؤه إلى توسيع رقعة مملكته ، و أشتريس والأعوار منها إلى الحسانط التي تقع جنوبي سلسلة الجبال الكتنبية ، والتي تقوم عليها بلاد كبيرة مثل « ليون وأشترقة وسمورة وسلمنقة » وغيرها من البلاد والحصون الواقعة بين حوضي « المنيو والدويرو » ، وكذلك ما يقع منها على نهيرات هذا الأخير ، وأهمها نهر « توريس » وعليه تقع سلمنقة ، وقد تمكن ذلك الملك منتهزاً فرصة الحروب الأهلية التي شغلت أمراء قرطبة وخاصة في منتصف إمارة الأمير محمد إلى أوائل أيام عبد الرحمن الناصر ، تمكن من أن يستولي على الأراضي الواقعة جنوب المنيو. ولم يكن ذلك بالأمر اليسير ، لأن الفونسو الثالث ملك أشتريس الذي أشرنا إليه والذي كان يلقب بالفونسو الكبير Alfonso El Magno نصر سسالة الكثير في توسيع نطاق مملكة أشتريس وتمكنه من نقل عاصمتها إلى ليون جنوب الجبال الكتنبية وتمكن كذلك من الامتداد فيما يعرف اليوم بشمال البرتغال ، فاستولى على « أوبورتو » التي ضمها إلى أملاكه الكونت « فيمارا نوربرت » وهو أحد أتباع الفونسو الثالث ، وكذلك جعل الفونسو الثالث شجع المسيحيين على زحفاتهم القرطبية ، من أمثال ابن مروان الجليقي ، وعندما طارده قوات الإمارة القرطبية بقيادة « هاشم بن عبد العزيز » لجأ إلى ملك أشتريس . وهكذا نجد أن الحدود الشمالية لإمارة قرطبة كانت مهددة فعلاً بأخطار جسيمة قبل أن يتولى عبد الرحمن الثالث العرش ، ويكفي أن نذكر أنه في أيام الأمير محمد وابنه المنذر استولى الفونسو الثالث على هذه أديشة Afienza على بقوى مركزه في مدينة ليون التي اتخذها عاصمة له ، وتحالف في ذلك مع أمراء النغر الأعلى من المسلمين. وفي أوائل أيام عبد الرحمن الثالث وبينما كان هذا الأمير مشغولاً بجنوب الأندلس ، تمكن الفونسو الثالث من الاستيلاء على « قلمرية » في البرتغال الحالية ، وحصن « ليون وأشترقة وأمية وسمورة » ، وأسكن هذه البلاد أعداداً

كبيرة من المستعربين ، وهم نصارى الأندلس الذين هاجروا إلى الشمال واستقروا في بلاد النصارى ، وعقب موت ألفونسو الثالث المعروف بالكبير استولى ملوك ليون على حصن « غرماج » San Esteban de Gormaz ، سيكون له ذكر طويل في الصراع بين الإسلام والنصرانية في الأندلس في أيام عبد الرحمن الناصر . ومعنى ذلك أنه عندما تولى عبد الرحمن الثالث وفي السنوات الأولى من حكمه . كانت مملكة أشتريس التي أصبحت تسمى مملكة ليون ، قد امتدت جنوباً حتى وصلت إلى منتصف المسافة ما بين نهري المنيو والدويرو ، وفي بعض الأحيان حرواً قود ألفونسو الثالث على الوصول إلى ضفاف نهر الدويرو .

وقد انتهز أمراء « ينبلونة وشرب وبليارش » وغيرهم من أصحاب الإمارات النصرانية الصغيرة الواقعة جنوب جبال البرت ، انتهزوا الفرصة هم الآخرون ، وتمكنوا بمعاونة أصحاب الثغر الأعلى الأندلسي الذين ذكرناهم . من الانبساط نحو الجنوب وبهديد المعازل الإسلامية في « تطيلة وجريدة » وما إليها . وقد تولى ألفونسو الثالث سنة ٢٩٨ هـ / ٩١٠ م ، أي قبل ولاية عبد الرحمن بسنتين ، وخلفه ابنه « أرديو الأول » ولم يكن من طراز أبيه ولكنه تمكن من تثبيت حدود دولته بالامتداد فيما يعرف بأراضي « قشتالة الجديدة » في أحواز « شقوبية وأبلّة » وكانت في ذلك الحين بلاداً إسلامية ، وإن كانت أعداد المسلمين فيها قليلة في ذلك الحين . فإذا التفتنا إلى كونثينة قطلونية التي كان ملوك الفرحة قد تمكنوا من إنشائها في أوائل أيام عبد الرحمن الداخل وجدنا أن أجناسها تمكنوا هم الآخرون من الامتداد على حساب المسلمين في البلاد الواقعة قرب « جُرُندة » Jerond . وبذلك نرى أنه عندما تولى عبد الرحمن كان عليه أن يواجه موقفاً بالغ الخطورة على حدوده الشمالية من ساحل البحر المتوسط إلى ساحل المحيط الأطلسي

راميرو الثاني ملك ليون (٩١٢ - ٩٣٢ م) :

وفي نفس السنة التي صعد فيها عبد الرحمن الداخل على العرش تولى عرش ليون ملك من أنشط ملوكها هو « راميرو الثاني » الذي يسميه العرب « ردمير » وكان هذا الرجل واسع النشاط ، كبير الطموح ، وقد بدأ في السنة الثانية من حكمه بالاستعداد للهجوم على أراضي المسلمين وبالفعل هاجم « يابره » في البرتغال

الحالية بجيش قوامه ثلاثون ألفاً ، وتصدى له عاملها « مروان بن عبد الملك » ، ولكنه انهزم وتمكنت قوات « راميرو الثاني » من دخول البلد وأنزل مذبحاً بأهلها ، وأخذ معه عند عودته أربعة آلاف أسير من المسلمين ما بين نساء وأطفال ، وبلغ من خوف عمال البلاد في هذه الناحية أن عامل بطليوس وهو « عبد الله بن محمد » وهو ابن أخى « عبد الرحمن بن مروان الحلبى » سرع إلى تحصين بلده وبناء سورها بالحجارة ، وبعد ذلك بقليل في سنة ٩١٤ م. هاجم راميرو الثالث مدينة « ماردة » ونهب الأراضى حولها وتمكن من دخول حصن « الحتش » وقتل فيه الوف المسلمين ، وبلغ من جراته أنه أنشأ في ذلك الحصن كنيسة سميت بكنيسة القديسة مارية الليونية Santa Maria de Leon .

وكل ذلك تبه عبد الرحمن الناصر إلى ضرورة مواجهة الموقف في الشمال بالحزم الذى نعرفه فيه وابتداء من سنة ٣٠٤ هـ / ٩١٦ م. تحد عبد الرحمن يرسل قائده الكبير أبا العباس أحمد بن أبى عبده بجيش قوى لكي يهاجم المواقع النصرانية في وادى نهر « الدويرو » ، واستعد له راميرو الثاني بأحسن ما لديه من فرسان ، في حين أن القائد أبا العباس أحمد بن أبى عبده كان يقود جنوداً غير نظاميين ، لأن أحسن قوات عبد الرحمن الناصر كانت معه في الجنوب ، وبذلك عندما التقى هذا القائد الباسل بقوات الأعداء في ١٤ ربيع الأول ٣٠٥ / ٤ ديسمبر ٩١٧ م قرب بلدة « غرماج » ، التى تسمى أيضاً بقلعة المسلمين أى « قشرو موروش » انهزم ذلك القائد وقُتل وتبعه النصارى قتل المسلمين حتى « أنيشة » ، وهكذا كانت نهاية ذلك القائد الباسل الذى يرجع إليه الفضل في الحفاظ على الإمارة القرطبية طوال حكم الأمير عبدالله ، ومن المؤسف أن راميرو الثاني علق رأس هذا القائد على أسوار غرماج وإلى جنبها رأس خنزير برى .

هنا أدرك عبد الرحمن الثالث أن الأمر أخطر مما تصور ، وزاد في خوفه على ثغوره الشمالية أن راميرو الثانى ازداد طلبه وطمعه في بلاد المسلمين فتحالف مع الملك « سانتشو غرسيه » ملك نبرة وسارت قواتهما للاستيلاء على مدينة « طلييرة » غربى « طليطة » على نهر تاجة ، وفي نفس الوقت نجد أن صاحب بنبلونة يتجه في سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٨ م. لمهاجمة أراضى بنى قس أصحاب طليطة وعاث في

أراضيها وأحرق الزروع حول ناجرة وطليلة وهاجم « قلتيرة » وأحرق حامها ،
وهنا تجد عبد الرحمن ينهض في المحرم سنة ٣٠٦ هـ / ٩١٩ م ، ويرسل قائده
الحاجب « بدر بن أحمد » للاقاة أردنير الثاني فأنزل به هزيمة قاصمة عند
موضع يسمى « ميتونيا أو مودونيا » ولا نعرف موضعه بالضبط . وفي العام
التالي يسير القائد « إسحق بن محمد القرشي » وكان من أعظم قواد عبد الرحمن
الناصر عن رأس جيش كبير فاستعاد قلعة غرماج .

وفي العام التالي ينهض عبد الرحمن الثالث ويعيد « الواديانا » ويتقدم إلى
الشمال ليلاقى النصاري قرب بلدة « القليعة » عند وادي الحجرة ، وينزل بهم
هزيمة كبيرة ثم يتقدم نحو مدينة سالم ، وكان هدفه هذه المرة أراضي مملكة
نيرة . وبعد أن عاث في أرضها أجه إلى منطقة « ألبه » والقلاع فهادنه صاحب
مدينة « أوسمه » التي يسميها المسلمون « وخشمة » واحتلها المسلمون . ثم اتجه
عبد الرحمن نحو غرماج وأنزل بالنصاري هزيمة انتقم فيها لما أصاب قائده
أيما الهياس أحمد بن أبي عبيدة الذي مات قريبها ووصلت غارات المسلمين إلى بلدة
كلونيا التي تسمى الآن . Corana del Conde وعاث المسلمون في توحيها ،
وبذلك يكون عبد الرحمن قد لقن ملكي ليون ونيرة درساً لن ينسياه بعد ذلك .
وبعد ذلك اتجه عبد الرحمن نحو « بنبلونة » وفي نيته أن يلحق المدرس لمكها
سانشو غرسيه ، وانضم إليه في هذه الحملة « محمد بن عبد الله بن لب » وهو
من آخر الكبار من بني قسي . وبأمر عبد الرحمن استولى ابن لب على قلعة
« كركي » غير بعيد من ملتقى نهر الأبرو بنهر « أيكبا » واجتس عبد الرحمن بلدة
« قلهرة » على الضفة الشماليه لنهر الأبرو واضطر سانشو غرسيه إلى التحصن في
قلعة أرنيط . Arnedo وسار سانشو غرسيه للاقاة المسلمين وانضمت إليه قوات
أردنير الثاني وحاول سكان الناحية أن يعترضوا جيش المسلمين ولكن
عبد الرحمن الثالث تقدم نحو الشمال وتغلب على كل خصومه ووصل إلى
وادي بلدة « خونكيرة » وقربها أنزل بجيش ليون ونيرة هزيمة كبرى قتل فيها
ألف النصاري ووقع بيده أسرى عدداً من كبارهم من بينهم « دولثيدو » أسقف
سلمنقة « وأرمو جيو » صاحب تودة التي توجد في البرتغال الحالية . وبعد
عبد الرحمن مُظفراً إلى قرطبة وكان نصر « خونكيرة » في ٦ ربيع الأول ٣٠٨ هـ /

٢٦ يوليو ٩٢٠ م . وهو تاريخ فاصل ، لأن ملوك النصاري رهبوا عبد الرحمن وجيوشه ، خاصة وأن القواد الذين تركهم عبد الرحمن على الحدود توغلوا في أراضي نبرة وهاجموا بنبلونة ، ولم ينصرفوا عنها إلا بعد أن طلب ملك نبرة الصلح وعرض أن يكون تابعاً لعبد الرحمن الثالث . وهذه الحملة الكبيرة التي قادها عبد الرحمن ورجاله في كل بلاد الشمال هي التي تسمى بحملة « موسىش » وقد توفي أردنيو الثاني بعد ذلك بقليل ، وتوقفت بذلك أعمال العدوان على بلاد المسلمين ، لأن الذي خلفه كان الملك « فرويلا الثاني » ، وكان فيما تقول المدونات النصرانية منك ضعيفاً .

ومع ذلك فقد وجد عبد الرحمن أنه لا بد من أن يواصل الحملات على الممالك النصرانية في الشمال ، رتك كانت خطته ، وهي العمل الدائم حتى يصل إلى نتيجة حاسمة في كل ما يقوم به ، ولهذا نجده يخرج بجيش كبير في الحرم ٢١٢ هـ / أبريل ٩٢٤ م . فيمر بكورة تدمير وهي مرسية ثم بكورة بلنسية ، وهناك يستسلم له كل من كانت نفسه تحدته بالثورة ، ويستقر لهم عبد الرحمن ويستولي على قلاعهم ويتجه إلى طليطلة ، وهناك حول سانشو غرسية التعرض له ، ولكن عبد الرحمن يدخل قلعة كركر ويحتل بلدتي « بيرلت وفالكس » ويتقدم فيستولي على « تفية . Tafalla » وقرقشونة ثم يدخل الجيش الإسلامي أراضي مملكة أرغون ويتوغل فيها ويلتقي بجيوش سانشو غرسية قرب بنبلونة وينتصر المسلمون ، ثم يعقب عبد الرحمن ذلك باحتلال بنبلونة عاصمة مملكة نبرة وسحبها لرجاله . وواصل عبد الرحمن مسيره إلى الشمال في أراضي أركون واستعاد للمسلمين بلدة كانت تابعة لطليطلة تسمى « صخرة قيس » وهدم كنيسيتها وحولها إلى مسجد وعاد عبد الرحمن إلى « قلهرة » ثم مر بحصن « فالخرا » ووصل إلى طليطلة في ربيع الآخر ٢١٢ هـ / أغسطس ٩٢٤ م . وطلب منه غرسية الصلح فمنحه إياه وفي عودته احتل بلدة شنتبرية حيث قدم له « يحيى بن موسى وابن عمه يحيى بن الفتح » ابني « زنون » فروض الولاء .

وقد واصل عبد الرحمن ضرباته وغزواته في بلاد الشمال حتى خافه ملك ليون « وأميرو الثاني » واضطر جميع ملوك النصاري إلى طلب الصلح من عبد الرحمن وأصبحوا جميعاً من أتباعه ، وقد تأكد ذلك في أيام ألفونسو الرابع

ملك ليون و«سانشسو غرسيه» ملك نبرة، وبعد موت «سانشو» ملك نبرة ثولى العرش «خيمييث غرسيه» وكان قاصراً فتولت الوصاية عليه الملكة «طوطة» التي سارعت بمهادنة عبد الرحمن الثالث، بل تجد أنها تأخذ ابنتها الذي أصيب بالسمنة المفرطة وتقد على قرطبة لكي يتولى أطباء قرطبة علاجه. وعندما تخلى ألفونسو الرابع عن العرش وترهب في دير «اسهجون» خلفه ابنه «رنمير الثالث» فحالف الأوصياء عليه عبد الرحمن الثالث ودخلوا في طاعته، ثم وقعت حرب بين الطامعين في العرش استراح فيها عبد الرحمن مؤقتاً من متاعب الاخطار التي كانت تهدد ثغوره الشمالية.

وقبل أن نختم هذه الفقرة عن علاقات عبد الرحمن مع ممالك النصراني في الشمال نضيف فقرة قصيرة عن الصراع الذي دار بين عبد الرحمن لثالث وملك نشيط من ملوك ليون هو «راميرو الثاني» الذي عز عليه أن يشهد ما أصاب البلاد النصرانية على يد خليفة قرطبة، فاستجاش ملوك الممالك النصرانية وجمع جيشاً كبيراً ليغاور بلاد المسلمين، فاستعد له عبد الرحمن الثالث استعداداً كبيراً خاصة وأن راميرو استولى على حصن مجريط وهدد طليطلة سنة ٢٢٠ هـ / ٩٣٢ م. وقد جمع عبد الرحمن جيشاً ضخماً احتفل في إعداده حتى سماه بجيش القدرة وسار إلى الشمال وحاصر راميرو الثاني في بلدة «أسمه» وخاف راميرو الثاني السقاء، فابتغى عبد الرحمن في البلاد حولها، ويقال بهم دهو، دير يسمى دير شنت بطره San Pedro de Cardena. وقتلوا فيه عدداً من الرهبان. ويقع ذلك الدير شرقي مدينة «برغش» ثم تقدم عبد الرحمن واحتل سرقسطة، ثم توغل في أراضي نبرة وأرسل قائده «مطرف بن منذر التجيبي» الذي دخل في طاعته، فاسترجع قلعة أبواب ولكنه قتل في المعارك حولها، واستولى عبد الرحمن على نحو ثلاثين حصناً وأرسل قائده «أحمد بن إسحق القرشي» فهاث في أراضي نبرة، وبعد ذلك وفي سنة ٢٢٧ هـ / ٩٣٩ م. تقدم عبد الرحمن بجيوشه من مدينة «سلمنقة» والنقى بجيوش لسيون ونبرة عند أسوار بلدة «شنت مانقش Simancas».

وحدث في هذه المعركة أن عبد الرحمن أقام على رئاسة الجيش قائداً في مواليه من الصقالبة يسمى «نجدة الحيري» ففضض القواد الأندلسيون ورجالهم

وتخلوا عن عبد الرحمن فلحقت به الهزيمة في ١١ شوال ٢٢٧ هـ / أول أغسطس ٩٢٩ م ، وتراجع المسلمون فتساقط الكثير منهم في خندق كان للنصارى قد حفروه ، ولذلك تسمى هذه المعركة « بمعركة الخندق » وقد بالغ مؤرخو النصارى في تهويل أهمية ذلك النصر مع أنه لم يؤثر كثيراً في قوى عبد الرحمن ولكنه كسب منه درسا ، وهو ألا يولى على جيوشه قيادة من الصقلية ، وقد كف عبد الرحمن بعد ذلك عن قيادة الحملات وكانت السن قد علت به ، إذ أنه في ذلك التاريخ كان قد بلغ الخمسين من العمر ، وقد استعاد رومير الثاني معظم الحصون التي كان عبد الرحمن الثالث قد استولى عليها في وادي نهر « نورمس » وقد اجتهد عبد الرحمن في فك أسر من وقع بيد انصارى من قواده مثل أبي يحيى محمد بن هاشم ، صاحب سرقسطة الذي سيصبح بعد ذلك من أكبر رجال عبد الرحمن ، وبعد ذلك بقليل عقد الصلح بين راميرو الثاني وعبد الرحمن الثالث وسارع « فرنان كوندالت » الذي يعتبر أول أكابر كونتينة قشتالة النشئة ، وحالف عبد الرحمن الذي حصن ثغوره واختار أحسن قواده لتولى الأمور في الشمال ، فسكنت الأمور ومال راميرو الثاني إلى عقد صلح دائم مع عبد الرحمن مع أنه كان في نفس الوقت حليفاً لأردنير الثالث ملك قشتالة ، وقد ولي عبد الرحمن على الثغر الأوسط قائده ، أحمد بن يعلى ، ووجهه للإغارة على بلاد ليون وفي سنة ٢٢٢ هـ / ٩٤٤ م قاد القائد « أحمد بن محمد بن إلياس » حملة على جليقية ، وعقب ذلك نجد عبد الرحمن ينقل قاعدة الثغر الأعلى إلى مدينة سالم ، بعد أن كانت في مدينة طليطلة وولى عليها قائده « غالب الناصري » الذي سيكون له دور عظيم في تاريخ الأندلس في أيام عبد الرحمن وخليفته الحكم المستنصر .

وقد حصن عبد الرحمن مدينة سالم وجعلها قاعدة متينة للأعمال العسكرية في الشمال ، واستعاد غالب كل المواقع الإسلامية التي كان راميرو الثاني قد استولى عليها ، وفي سنة ٢٢٧ هـ / ٩٤٩ م . تمكن « غالب الناصري » من قيادة حملة عاشت في أراضي سلمنقة ووصلت إلى بلدة « لك » عاصمة جليقية وفي صيف ٢٢٩ هـ / ٩٥٠ م . قام أحمد بن يعلى بغارة جريئة وصل فيها إلى ساحل المحيط في جليقية ، وهنا أدرك راميرو الثاني أنه لا قبل له بعيد الرحمن فسار إلى مصالحته ثم توفي في يناير ٩٥٠ — ٩٥١ م . وبذلك انتهى عصر ذلك الملك الخافل بالعارات

على بلاد المسلمين ، واستراح عبد الرحمن من هذه الناحية وأصبحت مملكة ليون مثلها في ذلك مثل مملكته نبرة من توابع قرطبة ، وكان عبد الرحمن الثالث في ذلك الحين قد وصل إلى أوج قوته داخل بلاده وخارجها ، ومد نفوذه على بلاد المغرب وجعل من قرطبة مركز خلافة إسلامية تزيد في القوة والبهاء عن خلافة العباسيين التي كانت قد دخلت في دور الضعف والانحيار .

وكان الذي قد خلف رامير الثاني هو أردنيو الثالث ولم يكن من طراز أبيه ، فحاول أن يثبت مركزه بالمصاهرات مع ملوك إسبانيا النصرانية الآخرين مثل غرسية سانشو الأول « وفرناندو الثالث » كونت قشتالة ، التي اشتد عودها في ذلك الحين ، وقامت فيما يسمى بقشتنة الجديدة في الحوض الأوسط لنهر دوبرو ، ومن سوء حظ ملك ليون ، أن اختلف عليه زملاؤه من ملوك إسبانيا النصرانية ودخل في حروب معهم ، وانتهم قواد عبد الرحمن الثالث الفرصة لكي يغتروا على بلاد مملكة ليون ، ففي سنة ٣٤٢ هـ / ٩٥٢ م . نجد قواد الناصر من أمثال أحمد ابن يعلى وغالب الناصري يقومون بحملات يوغلون فيها في أراضي ليون حتى يصلوا إلى جليقية بل تمكنوا في ربيع الأول ٢٤٤ هـ / يوليو ٩٥٥ م . من إنزال هزيمة قاصمة بقوات أردنيو الثالث ، هلك فيها من رجاله نحو عشرة آلاف . وقد حاول أردنيو أن يعرض تلك الخسارة بالإغارة على الأششونة واتجه صهراء « فرناندو الثالث » إلى مهاجمة حصن غرماج ، إلا أنه اضطر أخيراً الأمر إلى طلب الهدنة من عبد الرحمن الثالث بعد هزيمة ربيع الأول ٢٤٤ هـ التي ذكرناها ، ولم يمنحه عبد الرحمن هذه الهدنة بل أرسل سفيرين من لدنه هما « محمد بن الحسين واليهودي أبو يوسف حسداي بن إسحق بن شبروت » وكان من كبار يهود الأندلس ، فقد ولد في جتيان سنة ٩١٥ م وتثقف ثقافة عالية في اللغة العربية وآدابها ، وإلى جانب ذلك كان طبيباً ماهراً وتمكن السفيران من إقناع أردنيو الثالث بضرورة التقاهم مع عبد الرحمن الناصر الثالث فتنازل عن عدد من الحصون وتعهد بعدم العدوان على بلاد المسلمين . وعلى هذا الأساس فقط منحه الناصر الهدنة وأسرع الكونت « فرناندو الثالث » بدوره بطلب مهادنة خليفة قرطبة وحصل على تلك الهدنة واعترف للناصر بالسيادة عليه .

ثم اتجه عبد الرحمن إلى نبرة . وكان الملك أردنيو الثالث قد تسوَّى

عند « سمورة » وخلفه على عرش ليون سانشو الأول ، قسارح إلى طلب الصلح والوفاق مع عبد الرحمن الناصر ، بعد أن هاجم أراضيها القائد أحمد بن يعلى ، ولكن رجال مملكة ليون لم يكونوا راضين عن ملكهم هذا بسبب إفراطه في السمنة وعدم قدرته على ركوب الخيل ، فاجتمع رأيهم على عزله وعزل بالفعل ، وخلفه أرديو الرابع الملقب « بالنسيئ أو المالنو » وهو ابن ألفونسو الرابع الذى ذكرنا أنه ترهب . وحاول هذا الأخير أن يثبت لقرطبة ولكن الملكة طوطة أم أرديو الثالث أخذت ابنها السمين هذا وذهبت به إلى قرطبة تطلب علاجه على أيدي أطبائها ، وكذلك أرادت أن يعينها عبد الرحمن الناصر على عودة العرش لابنها ، ورافقها في هذه الرحلة سانشو الأول وهو حفيد طوطة ، واستقبلهم الناصر استقبالا حافيا وإن لم يعد بتقديم المعاونة السياسية لهم . ولكن أطباءه في الحقيقة عاجزوا ابنها . وقد عقد عبد الرحمن الناصر الحلف مع ممكة نبرة واضطر بذلك ملك ليون إلى الدخول في مفاوضات مع عبد الرحمن ، واعترف هو الآخر بسيادته وتعهد بأن لا يهاجم ثغور المسلمين ، وبذلك استطاع عبد الرحمن الناصر وبفضل هذه الجهود المتصلة سنوات طويلة أن يصل إلى ما كان يصبو إليه من توحيد بلاده وإقرار سلطة الدولة في كل نواحيها وإعادة الهيبة لقرطبة وجعل من خلفتها القوة الكبرى في شبه الجزيرة والحكم بين ملوكها النصرى فيما يشجر بينهم من خلافات .

عبد الرحمن الثالث والمغرب :

عندما تولى عبد الرحمن بن محمد عرش قرطبة كانت الدولة الفاطمية في افريقية قد قامت منذ أربع سنوات (٢٩٦هـ / ٩٠٩م) وكانت للدولة الفاطمية مطامع واسعة في المغربين الأوسط والأقصى ، وخاصة بعد أن تمكن عبد الله المهدي من إزالة الدولة الرستمية التى كانت تحكم في جزء كبير من المغرب الأوسط ، وكانت دولة الإدارة في فاس قد دخلت في دور الضعف واحتاجت إلى سند ، وتطلع أمراؤها إلى قرطبة ، في حين بدأ الخليفة الفاطمي من القيروان شن الحملات الواسعة البعيدة المدى على المغربين الأوسط والأقصى ، مستعين في ذلك بزعماء من البربر الصنهاجيين من أمثال « زبرى بن مناد الصنهاجى » وقريبه « حبوس بن مكسن » وابنه « مصالة بن حبوس » وقد استطاع مصالة هذا أن

يدخل فاس ويجعلها من توابع القيروان ، وأقام عليها رجلاً من أوليائه يسمى «موسى بن أبي العافية» فقام هذا بإخراج بقية الأدارسة من فاس ونفاهم إلى حصن صغير جنوبى تطوان يسمى «حجر النسر» في قلب بلاد الريف . وهذا ينتهى الدور الأول في تاريخ دولة الأدارسة ويبدأ الدور الثانى . وكان لابد لعبد الرحمن الناصر من أن يعمل شيئاً لحماية حدوده الجنوبية من عدوان الفاطميين وكان عبد الرحمن الناصروبقية حلفاء بنى أمية الأندلسيين ، يرون أن العبيديين الذين أقاموا خلافة القيروان كانوا مدعين للنسب الشريف ، غير جديرين بولاية الأمر وأن مذهبهم الشيعى الإسماعيلى خارج عن الإسلام الصحيح .

وقد اتبع عبد الرحمن الثالث سياسة ذكية في مواجهة الخطر الفاطمى ، فقد كان يعرف أنه إذا دخل في صراع طويل مع الفاطميين في المغرب الأقصى أضعف في ذلك جبهته الشمالية أمام النصارى . وكان لابد له مع ذلك من أن يقوم بأمر يوقف الخطر الفاطمى ، فاتحه إلى أن يرسل المعاومات لحالية الكبرية والعتاد والسلاح إلى « يحيى بن إدريس بن عمر » الذى تزعم الأدارسة ومكن لهم من أن يتغلبوا على موسى بن أبي العافية ومصالحة بن حبوس ، وبعد صراع طويل نجد أن عبد الرحمن الثالث يكتفى باحتلال طنجة وسبتة سنة ٩٢٦ م . ومن هذين الحصنين الكبيرين استطاع أن يمد أعوانه في المغرب بما هم في حاجة إليه من العتاد والأموال ليثبتوا أمام الضغط الشيعى ، ولم يفعل عبد الرحمن الناصر أكثر من ذلك في سياسته المغربية ، وربما لجأ إلى معاونة الخارجيين على الفاطميين من غير الأدارسة ، من أمثال بنى خزر البغريين ، ولم يقع عبد الرحمن في الخطا الذى سيقع فيه ابنه الحكم المستنصر ، عندما ألقى بخيرة قواده وجنده في الصراع مع المغرب ، فأضعف بذلك جبهته الشمالية ولم يخرج في نهاية الأمر بنتيجة حاسمة .

الخلافة الأموية القرطبية :

استطردنا في الكلام عن أعمال عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله في إعادة الوحدة إلى بلاده ومواجهة الخطر النصرانى في الشمال ، ورأينا كيف أنه وفق في ذلك تمام التوفيق وأصبح بالفعل أكبر ملوك شبه الجزيرة ، وأعاد إلى دولته وحدتها وتمكن إلى جانب ذلك من إقرار هيبة الخلافة القرطبية في المغرب الأقصى .

ونعود بعد ذلك إلى دراسة أعمال عبد الرحمن الثالث الداخلية وما قام به من إصلاحات وتغييرات جعلت خلافة قرطبة بالغنى من أقوى دول العالم في ذلك الحين.

وفي أواخر سنة ٣١٦ هـ / أوائل ٩٢٩ م . وجد عبد الرحمن أنه أولى بأن يتخذ لقب الخليفة من عبد الله المهدي صاحب القيروان ، فأصدر بياناً أعلن فيه نفسه خليفة وتلقب بأمير المؤمنين ، واتخذ لقب الناصر لمدين الله . والمقصود بذلك تصير مذهب السنة والجماعة على نصارى الشمال وعلى العبيديين الشيعة ، وقد احتفظت لنا النصوص بذلك الإعلان الذي بعث به عبد الرحمن إلى كافة نواحي الأندلس ، وقرئ على المنابر في كل بلادها وأرسلت منه نسخ إلى أفريقية والمغرب ، وبذلك يكون عهد عبد الرحمن قد أدخل تغييراً حاسماً على طبيعة الدولة الأموية الأندلسية ، فقد أصبحت الآن خلافة إسلامية عامة مساوية لخلافة بنى العباس ومثولية شتون الإسلام في الجناح الغربي لدولة الإسلام من دون الفاطميين .

وقد استتبع ذلك إدخال تغيير كبير في شكل خلافة قرطبة ونظامها ، فوضع عبد الرحمن نظاماً إدارية جديدة تعطى دولته الهيبة والمكانة التي أصبحت لها على أيامه ، فازداد البلاط القرطبي ضخامة ووجاعة ، وكثر القواد في جيش الخليفة وتعددت مراتبهم وكثر الوزراء كذلك وازدادوا هيبة ، وإن كنا نلاحظ أن عبد الرحمن الناصر كان كثير التثقل لوزرائه ، ففي أول كل عام تقريباً كان يجرى تنقلات بين الوزراء والعمال والقواد ، وكان هدفه في ذلك ألا تطول ولاية رجل في وظيفة أو ناحية فيستبد بالسلطة ، دون الخليفة ، ولكن هذه السياسة أدت في نهاية الأمر إلى إضعاف مكانة القواد ووزراء وإضعاف المركز الممتاز الذي كان يتمتع به أبناء البيوت النبوية الذين قد سواهم (عزدهم كما رأيت أحياناً) من كبار الرجال في شتى نواحي الحكم والإدارة والحرب .

وبهذه المناسبة نقول إن عهد عبد الرحمن الناصر كان يؤمن بالسلطان المطلق للخليفة ، ولا يرى أن يدع الرأي لكبار رجال الدولة ولا يسمح بشيء من الاستقلال المحل لولاة الأقاليم ، وكان هدفه الأخير كما قال في بعض رسائله التي كانت تذاع على المنابر : إن الأمة ينبغي أن تحول كلها إلى رعية مستأمنة أي مطيعة تاتمر بأمر الخليفة الذي لا يشاركه في أمره أحد .

وقد ناقش عبد الرحمن الناصر آراءه تلك مع سفير من سفراء امبراطور
التيوتون ، وقد إلى بلاطه ، يسمى « يوحنا الجورزينسي » فقد قال له
عبد الرحمن ما معناه : إنه معجب بالامبراطور الثيوتوني « أوتو » ولا يأخذ عليه
إلا أنه يترك جانباً من سلطانه لوزرائه وأمرائه الإقطاع . وذلك في رأيه لا يتفق مع
سلامة الدولة وهيبة السلطان . وبالفعل نرى أن عبد الرحمن كان حاكماً مطلقاً
بالمعنى الصحيح ، وخاصة بعد أن وفق إلى الانتصارات الباهرة التي حققها ، دخل
بلايه وخارجها ، فقد تحول إلى سلطان عظيم ذي هلال فخم وجاه واسع وأبهة
بالغة ، وبينما رأينا أن جده عبد الرحمن الأوسط كان يتوسط مع وزرائه وشعرائه
وتدماثه ، حتى تحرى بينه وبينهم الدعابات ، نجد عبد الرحمن الناصر سيداً
رفيعاً عائباً يجلس لوزرائه في مجلس فخم وبنظام تام ولا يأذن لأحد من الرعية
والأصاغر في الدخول عليه والحديث معه .

ولم يكن السبب في ذلك أن عبد الرحمن كان بطبعه طاغية ورجلاً خشن الطبع ،
بل على العكس من ذلك كان إنساناً شديد الحساسية بالغ الحياء ، وقد رأينا أن
أدبه الجم كان من أسباب وصوله إلى الإمارة ، ولكنه قبل أن يلي الأمر رأى من حراة
الوزراء والقواد والعمال ما هبط بجلال الإمارة ، وما جعل جده وسلفه « عبد الله بن
محمد » أقرب إلى رئيس منه إلى أمير أو خليفة ، وعندما تولى عبد الرحمن ظن أن من
وأحبه أن يضع حداً لهذا التيسر وأن يرفع مكانة الخلافة ، لأنه كان يرى أن ذلك
من ضرورات السلطان القوي المستقر ، ثم إننا رأينا كيف أن رجال النواحي عندما
تمتعوا بسلطات محلية في أقاليمهم أيام عبد الرحمن الأوسط وابنه الأمير محمد بن
عبد الرحمن ، أدى ذلك إلى طمعهم في السطون فساخذوا يستبدون بنواحيهم ،
وانتهى الأمر كما رأينا إلى الفتنة الكبرى التي جذبت الإمارة القرطبية ثلاثة سنين
من أواخر أيام الأمير محمد إلى أوائل أيام عبد الرحمن الناصر .

لذلك نجد عبد الرحمن الناصر لا يسمح بأي وجه من وجوه الاستقلال لأهل
النواحي ، ويصر على أن يرسل لهم العمال من عنده ، ولا يزال ينقل أولئك العمال
من مكان إلى مكان . وقد أدى ذلك بالفعل إلى استتباب الأمور وارتفاع هيبة
الخلافة ، ولكنه أدى إلى غضب أفراد بيوت الحكم أو بيوت الموالية التي ذكرها
وقد رأينا أنه عندما عهد عبد الرحمن الناصر في كبار الولايات إلى مواليه ، من أمثال

« بدر بن أحمد ونجدة الحيرى وغالب الناصرى » تأمر كبار القواد الأندلسيين عليه مما أدى إلى كارثة معركة الخندق أو « سيمنقى » التى ذكرناها .

وقد اتعظ عبد الرحمن بما حدث له فى ذلك اليوم ، فعاد مرة أخرى بسخرى رجال بيوت الحكم وجعل لهم الرياسة على مواليه ، واهتم بأن يعيد إلى رجال تلك البيوت ما كان لهم من سلطان وهيبة ، ولكن سياسته الأولى كانت قد أضعفت هذه البيوت ورجالها ، وكذلك كانت سياسة عبد الرحمن حيال رؤساء أجناد العرب فى نواحي مرسية وإشبيلية وفى الكور الجنوبية ، قاضية على ما كان أصحاب الكور المجندة يرسلونه من جند عربى بأسل قادر على خوض غمر المعارك ، وقد كان ذلك خسارة لا شك فيها ، لأن عرب الكور المجندة ، رغم ميلهم إلى الفوضى واستخفافهم بالحكومة المركزية وعدوانهم على من كان يعيش معهم من أهل البلاد ، كانوا جنوداً بأسل فيهم تلك العصبية العربية التى نعرفها ، غافق هذا الجندي العربى مكانته بل أعفى أصحاب الكور المجندة من إرسال الحشود وأداء ضريبة بدلاً منها تسمى ضريبة الحشد ، تلاحظ أن الجيش الأموى الأندلسى فقد عنصراً هاماً من عناصر قوته .

ولكننا لا بد أن نضيف إلى أن عبد الرحمن رغم ميله هذا إلى الاستبداد ، لم يكن ظالماً ولا غاشماً ، فلم يؤثر عنه أثناء خلافته الطويلة أنه قتل وزيراً أو ستمسقى مال إنسان ، أو عدا على حقوق ابرقية أو بلغ فى عقاب موظف مسيء ، بل كان فى ذلك كله رجلاً كريماً سمحاً لا يتدنى إلى العدوان على الأموال أو الدماء ، ولا يرضى بأن ينزل عقاباً شديداً بأحد من خصومه . ويكاد عبد الرحمن الناصر يكون الوحيد من بين كبار خلفاء الإسلام الذين تصرعوا فى الخلافة تصرفاً سلبياً كريماً يتفق مع أخلاقيات الإسلام ومكارم الأخلاق والأصول الأخلاقية العربية .

إنشاء مدينة الزهراء وزيادة المسجد الجامع :

وعندما بلغ سلمان عبد الرحمن الناصر ذلك المبلغ وجد أن قصوره فى قرطبة لم تعد لائقة بالمركز العظيم الذى وصل إليه ، وكان سكان قرطبة قد كثروا فى أيامه وتقطر إليها الناس حتى وصلت المنابى إلى « تل الرصافة » الذى كان يقوم عليه قصر الرصافة . ثم إن أسواق البلدة ضاقت بمن فيها ، ولم يعد من الممكن لجيوش

عبد الرحمن ومواكب السفراء التي تقف على قرطبة باستمرار السير في شوارع المدينة دون مضايقة الناس .

لهذا فكر عبد الرحمن في أن ينشئ لنفسه عاصمة ملوكية إلى جانب قرطبة ، يتخذ فيها القصور لنفسه وأهل بيته وحشمه وخدمه وحرسه ، فقصده مهندسوه إلى جبل « العروس » المطل على قرطبة من الناحية الجنوبية الغربية على بعد ستة كيلو مترات من العاصمة ، وقدموا إليه مشروعاً بإنشاء مدينته الملوكية على سفح الجبل ، خاصة وأن مياه الأمطار تتجمع في هضبة بأعلى ذلك الجبل وتتساقط على السفح ، فلو أنشئت قنوات مهندسة بنظام خاص لإمكان إجراء الماء في أعلى الجبل إلى السفح بنظام خاص يمكن من إمامة مدينة ملوكية على طبقات أو مستويات من ذلك السفح ، وتلك هي الفكرة التي قامت عليها مدينة الزهراء التي بدأ عبد الرحمن الثالث في إنشائها . ويقال إنها منسوبة إلى واحدة من نساء عبد الرحمن تسمى « الزهراء » ، ماتت عن مال كثير ، وأوصت الخليفة الناصر بأن ينفق هذا المال في افتتاح أسرى المسلمين فلم يجد عبد الرحمن أسرى يفديهم بهذا المال ، فقرر إنشاء تلك المدينة وأطلق عليها لقب الزهراء ، وتلك في الغالب حكاية من طرف ما يسوقه الرواة في كتب التاريخ ، ولكنها حكاية لها مغزاها ومعناها .

وقد بدأ عبد الرحمن الناصر في بناء الزهراء في أول الحزم ٣٢٥ هـ / ٩٩٦ م ، وعهد في الإشراف على بنائها إلى ابنه الحكم بن عبد الرحمن ، ووضعت خططها على أن تكون مدينة ملكية قائمة بذاتها ، على بعد خمسة كيلو مترات شمال غربي قرطبة على سطح جبل العروس ، وقد بنيت على درجات ، بحيث يرقى داخل المدينة من درجة إلى درجة ، وفي كل درجة يجد قسماً من أقسام المدينة . ويدخل الإنسان إليها أسفل الجبل بمدخل كبير يسمى « باب الأقباء » جمع « قبو » ويراد به هنا القبة ، ومعنى ذلك أن هذا المدخل كانت تقوم فوقه وتحيط به قباب ، ويسير الإنسان مسافة طويلة على طريق مبلط تقوم على جوانبه الأعمدة وغرف الحرس حتى يصل إلى باب السدة ويراد به باب القصر ، ويصعد درجات وإلى جانب المصعد للدرج ، مصعد آخر للخيل بلا درج فيصل الإنسان إلى المستوى الثاني من مستويات مدينة الزهراء ، وهنا مساكن الجند والحرس وأصحاب الحرف الذين تحتاج إليهم المدينة ، وهنا أيضاً وجدنا آثار المسجد الجامع لمدينة الزهراء ، وكل هذه البيوت محاطة بالأشجار والخضرة .

فيذا انتهى الإنسان من ذلك المستوى صعد مرة أخرى حتى يصل إلى سطح منبسط وسوق لتبنى عليه قصور كبار رجال القصر وموظفيه ولتقيم فيه جماعات الحرس الخاص بالخليفة ، وما يلزم لهؤلاء جميعاً من الحمامات والمسجد .

وبعد ذلك يصعد الإنسان مرة ثالثة حتى يصل إلى المستوى الأعلى لمدينة الزهراء ، ويواجهه لأول صعوده البهو الكبير ، الذي أنشأه الناصر لاستقبال السفراء والملوك الأجانب ، وهو بهو فخم يتكون من ثلاثة أقواس من طراز عصر الخلافة . ويفضي الإنسان من المدخل إلى دعة مسيحة مقسمة صورياً إلى ثلاثة أبناء ، فاما البهو الأوسط فينتهي في الصدر بمجلس الناصر ، وهناك يجلس الخليفة على عرشه تحيط به مقاعد أفراد الأسرة المالكة بحسب مراتبهم . وعلى الجانبين مقاعد للوزراء وكبار رجال الدولة والضيوف ، مرتبة ترتيباً محكماً ، بحيث يكون لكل رجل من رجال الدولة مقعده الذي لا يتغير ، حتى إذا نظر الناصر ونسب خلو المقاعد عرف من المتغيب ، أما البهوان الداخليان فيستعملان لموظفي القصر وكتاب الخليفة . وهذا المجلس الجميل يبدو للرائي من بعيد عندما يهل الإنسان على مدينة الزهراء ، ومن الواضح أن عبد الرحمن الناصر أراد على هذه الصورة لكي يستطيع في مجلسه فيه أن يرى السفراء والملوك وهم مقبلون من بعيد ثم صاعدون إلى القصر . وقد كشف عن آثار هذه المدينة الملكية وبدأ في إعادة إقامة بعض منشأتها وخاصة بهو الاستقبال ، الباحث الأثري الإسباني « بلاسكو بوسكو Véasquez Bosco » وقد سميت ترحبة التي تقيم دعة

البهو الرئيسي ، باسم « السطح الممرد » وقد جلبت مادة البناء من شتى نواحي الأندلس وأوروبا وأفريقيا . ويذكر المؤرخ ابن عذاري وهو من أهل القرن الثامن الهجري أنه كان يصرف فيها كل يوم من الصخر المنجور ٦ آلاف صخرة ، سوى التبليط في الاسوس (أي الاسس) ، وجلب إليها الرخام من قرطاجنة أفريقية ومن تونس ، وكان الأمراء الذين جليوه « عبد الله بن يونس وحسن القرطبي وعلي بن جعفر الإسكندرني » ، وكان الناصر يصلهم على كل رخامة بثلاثة دنانير ، وعلى كل سارية بثمانيّة دنانير سجلماسية ، وكان فيها من السواري ٤٣١٣ سارية منها ١٠١٣ سارية من أفريقية ، وأهدى إليه امبراطور بيزنطة ١٤٠ سارية والباقي من الأندلس .

وأمام بهو الاستقبال وضع حوض للسباحة من الرخام ، حفر له في الأرض وهو منقوش ومزين بالتماثيل ، وقد جلبه ربيع الأسقف من القسطنطينية ، وكان عليه كما يقول ابن عذاري ١٢ تمثالاً من الذهب الأحمر المرصع بالدر النقيس الغالي مما صنع بدار الصنعة بقرطبة ، وإنما أطلقنا الكلام بعض الشيء على إنشاء تلك المدينة لنعطى عن رخاء الأندلس وارتقاء الفنون فيها فكرة واضحة . وكان الناصر فيما يقول المؤرخون قد قسم الجباية إلى ثلاثة أثلاث : ثلث للجند وثلث للبناء وثلث للمدخر . وكانت جباية الأندلس يومئذ ٥ مليون و ٤٨٠ ألف دينار من الكور والقرى ، ومن المستخلص والأسواق ٧٦٥ ألف دينار .

وفي عهد عبد الرحمن الناصر بلغ ازدهار قرطبة أقصى درجاته ، فقبل إن عدد دورها بلغ ١١٣ ألف دار ، فإذا قدرنا لكل دار عشرة سكان على الأقل ، كان المجموع مليوناً ومائة وثلاثين ألفاً . وهذا الرقم يستبعد لأن الأحوال في عصر الوسطى لم تكن تسمح بقيام مدينة بهذا الحجم ، ولكننا نستنتج منه بصورة عامة فكرة عن اتساع المدينة وازدهارها ، ومما يدل على كثرة سكانها ما يقال في أن عدد لحمامات بها بلغ ٣٠٠ حمام وهو رقم يدل على ضخامة تلك المدينة .

ولا نستطيع أن نجاري المؤرخين فيما يذكرونه من أرقام عن اتساع مساحة قرطبة في عصر الناصر وأبناء الحكم المستنصر ، مثل قوبهم إن عدد مساجدها بلغ ٣٠٠٠ مسجد ، وهو رقم لا يمكن تصديقه إلا إذا افترضنا أن معظم هذه المساجد كانت مساجد خاصة ، أي أن كل صاحب بيت كان ينشئ في بيته مسجداً له ولأهله ، وقد أشار إلى ذلك ابن حوقل لرحال .

وبهذه المناسبة لا بد أن نشير إلى الريادة الثالثة التي أمر بها عبد الرحمن الناصر بإضافتها إلى مسجد قرصبة الجامع ، وهي زيادة ضاعفت حجم المسجد وكانت في اتجاه النهر أي نحو الجنوب ، فأزيل جدار القبلة ونقل إلى قرب ضفة النهر ، وهناك بنى سوراً يحجز المسجد عن الشارع المبلط بين النهر وسور المسجد ويسمى بالرصيف ، وكان متنزه أهل قرطبة .

أما زيادة الناصر في المسجد الجامع فقد بلغ بها المسجد إلى أعلى ما وصل إليه من رقى وجمال ، وقد بنيت على نفس طراز بقية المسجد . أي أن أقواسه بها مزدوجة ومداميك الأقواس من الحجر الأبيض والطوب الأحمر وأجمل ما في هذه

الزيادة هي البلاطة المؤدية إلى بلاطة المحراب ، وقد قامت على عمق وقوائم مزدوجة ترتفع فوقها قبة تقوم على عصابات من الحجر ، وعند دراسة بناء هذه القبة يتقن المعماريون أن المعماريين الذين أنشأوها ، وعلى رأسهم العريف أو المهندس « أحمد بن بدر » قد وضعوا الأساس للطراز الذي شاع في أوروبا بعد ذلك وعرف بالطراز القوطي ، وأكبر خصائص الأعمدة والعقود المدببة التي تقوم عليها القباب .

ومحراب هذه الزيادة آية من آيات الفن الأندلسي ، لانه ليس مجرد حنية في جدار المحراب ، وإنما هو غرفة من الرخام سقفها قطعة واحدة من الرخام في هيئة محارة وكان في وسط هذا المحراب الصغير كرسي يوضع عليه المصحف العثماني ومنه يقرأ القارئ قبل الصلوات الجامعة .

وقد أشاء عبد الرحمن الناصر صومعة المسجد الجامع أي مؤذنته ، وهي مؤذنة في غاية الضخامة والجمال ، لأنها بناء ضخم يقع في النهاية الشمالية لصحن المسجد المكشوف ، وكانت ترتفع في الجو ثمانين متراً ، ولها موقفان للأذان ، ويزين أعلاها شبه سقف صغير مزين بتفانيج أي كرت ، اثنتان منها من الذهب وواحدة من الفضة .

كذلك أقام الناصر ما يعرف بالظلّة في صحن المسجد الجامع ، وهي سقف متحرك يقام من أعمدة الخشب والحصر يستظل بها الناس أثناء الصلاة في الصيف ، ثم ترفع بعد الصلاة لأن صحن الجامع الفسيح كان مزيناً بأشجار النارج ، وهي ظاهرة تنفرد بها صحنون مساجد الأندلس عن غيرها من صحنون المساجد في عالم الإسلام ، وكذلك أكثر الناصر من إنشاء المساجد وتعميرها في شتى نواحي الأندلس . ويعتبر الناصر من أكثر حكام المسلمين منشآت في مختلف نواحي بلاده ، فإليه يرجع الفضل في تجديد أو إنشاء عدد كبير في مساجد مدن الأندلس من شماله إلى جنوبه . ولا نزاع في أن ذلك يرجع بعظم من كبر الإنجاز في تاريخ الإسلام . ولم تقتصر منشأته على القصور والمساجد ، بل إليه يرجع الفضل في إنشاء دار السكة في قرطبة وتحديد قنطرة الوادي في « أودية » وتجديد قنطرة سرقسطة وقنطرة ماردة .

تقدير عبد الرحمن الناصر :

وبعد هذا العرض الموجز لحياة ذلك الخليفة العظيم الذي يعتبر من أعظم الخلفاء المسلمين في كل العصور نقول : إن ذلك الرجل تمتُّ بخصائص وصفات تؤهله إلى الأوج العظيم الذي بلغه ، فقد ذكرنا تعفقه عن الدماء وبعده عن المساس بأحد من رجاله أو مصادرة أمواله ، وقد كان يكتفى في ذلك المجال بأن يقدم إليه الخُبايا فدايا ذات قيمة كبيرة تنضم الأموال وأنجيل وسلاح في السبيل . وقد شتهر أمر هدية عظيمة قدمها للناصر حاجبه « عيسى بن شهيد » في إحدى المناسبات ، وقد أورد تفصيل أمرها المؤرخون : « من وصفه بغير إيراد » . تقدر بما يقارب المليون من الدينارين وكان المفروض أن هذه الهدايا تعتبر مساهمات من أولئك الرجال لمعاونة الناصر على القيام بنفقات دولته ، فقد رأينا أن كن عظيم النفقة في الحروب والجهاد والمنشآت والعناية بالمرافق .

ولكنه لم يلجأ قط إلى الحصول على مال من أحد بالقوة أو العنف ، بل يحكى المؤرخون حكاية تدل على عظيم شعوره بمسئوليته عن أرواح وأموال رعاياه . وقد حكى الحكاية « حيان بن خلف » مؤرخ الأسلس ونقلها ابن عذارى والمقرئ . وخلاصتها أن رجلاً كان يتصرف في كبار الولايات ويتولى تموين الجيش اكتسب مالا عظيماً من خدمة الناصر ، وكان الناصر يتوقع أن يقدم ذلك الرجل إليه بعض ذلك المال ، يستعين به على أمره فلمع الناصر له بذلك مراراً وهو في مجلسه . وهذا الرجل يسمى « محمد بن سعيد » المعروف « بابن السليم » .

وفي ذات مرة أشار الناصر مرة أخرى إلى حال ذلك الرجل فطار عقل بن السليم ، ولم يختلجه الشك في أنه المعني به فقام بين يديه وقال : يا أمير المؤمنين ، طالما عرضت لي فسكت ، بل والله عندي مال كثير وهو دون ظنك فيه حُطَّتْ بالتقتير وأعددتُ للدمر العُثُور . ولست والله أعطيك منه درهماً فما قورقه ، ورأيك في جميل إلا أن تستحل ، وأعوذ بالله أن تمد يدك إليه بغير جنابة مني عليك . فإن الأنفس محضرة الشح . قال فحجل الناصر وأطرق يتلو قول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَسْتَكْمِلُوا فَبُخْصِكُمْ تَبْخُلُوا وَيُجْرِجْ أَصْغَانَكُمْ ﴾ (سورة نساء : ٢١) وبعد قليل بلغ الرعب بالرجل أن تهوع فقذف ، وابتدره الوصفاء بالطست

والمناذيل ، فأقبل الناصر وأخذ برأسه يمسكه ويقول له : « استفرغ ما في معدتك وتأن بتفensk » ، فأنكر ابن إسلیم كلامه بین الخدم ، وصرف إليه رأسه ، وإذا به الناصر ، فما تمالك أن خسر إلى رجله يقبلهما ويقول : « يا ابن الخلائف إلى هناك أنتهيت في بری » ، وجعل يدعو له ويعظم شكره ، فقال له الناصر : « ليتنى أخرج كفافاً في شأني معك الليلة » . تأنيساً بإخافة ، وإطافساً بجفوة ، ثم أمر له بكسوة و انقلب إلى أهله (١) .

وهذا المثال يكفى للدلالة على ما كان يتمتع به عبد الرحمن الناصر من سعة قلب ورقق بالناس وتقدير لمستوليته وعفته عن الأموال والدماء ، ولا غرابة والجمالة هذه أن يصل هذا الرجل إلى هذه المكانة التي وصل إليها في تاريخ الإسلام ، فهذا رجل تولى الأمر في الثانية والعشرين من عمره ، وأبلاذ مشتعلة نارا ونواحيها خارجة على الحكومة المركزية ، وقد أفسد أمرها الثوار وخاصة عمر بن حنصون وأمثاله من « ابن الشالية والسرمباقي وعبد الرحمن بن مروان الجليقي » وغيرهم من كبار ثوار المولدين ، بالإضافة إلى ثورات لعرب عن حكومة قرطبة وخاصة في ناحية المرية وكورة إشبيلية ، فما زال ذلك الرجل يعمل بجهد ودأب مستعيناً في عمله بالسرعة والحزم ، وكذلك بالخلق الكريم ، فقد ضرب للثائرين المثل في حسن الخلق واحترام الكلمة ، فما كان يستنزل ثائراً لا وثى له بعهده ، وصدق ما وعده إياه ، فأحسن الثوار بأنهم أمام حاكم من طراز فريد فاطمأنوا إليه ودخلوا في طاعته ، وبعد نحو عشر سنوات من ولاية الناصر نجده قد استطاع أن يعيد الهدوء والنظام والوحدة والأمان إلى دولته الواسعة ، وخاصة في الجيوب والشرق والغرب ، ثم تمكن من استئلاف رجل الثغر الأعلى من أمثال بنى قسى وبنى هاشم الطويل ، فاستأمنوا إليه هم الآخرون ودخلوا في طاعته . وهكذا تمكن هذا الرجل من الاستفادة من ملكات أهل الثغر الأعلى ، وكانوا قوساً أشداء ويكفى أن نذكر أن هاشماً الطويل بلغ من إخلاصه للناصر ، بعد أن استأمن إليه ، أنه استشهد في سبيله في موقعة الخندق .

وعندما تولى الناصر كان ملوك الممالك النصرانية قد طمعوا في ثغور الأندلس الشمالية ، فما زال يقاتلهم كما رأينا ويوالى الحملات عليهم حتى انتهت أيام

(١) ابن عذاري : البيان المغرب : ٢ / ٢٢٦

أردنيو الثاني ، ودخل خلفه في حلف الناصر وأطاعوه وقد رأينا كيف أن ملوك إسبانيا النصرانية جميعاً قد أصبحوا إما من أتباعه أو أحلافه ، وبذلك استطاع ذلك الرجل أن ينتشر على شبه الجزيرة كله أمناً واستقراراً لم يعرفه من قبل .

وفي أواخر سنوات حكم الناصر بلغ من ازدهار بلاده وتآلق أضواء قرطبة ، أن وفد السفراء عليه من شتى بلاد أوربا ، ومن ملوك أوربا - الذين أرسلوا لسفارات إلى - الناصر ملك «أوتو» امبراطور الامبراطورية الحرمونية المقدسة ويسميه المؤرخون «هوتو» ملك الصقالبة ، فقد أرسل إليه سفارة استقبلها الناصر في البهو الكبير في مدينة الزهراء ، وبعث إليه «هيو كابيه» ملك الفرنجة في فرنسا ويسميه مؤرخونا «هوقو» ملك الفرنجة وكذلك أرسل إليه «قلدو» ملك الفرنجة في أقصى شرق أوربا والمراد به Hugo de Aries وهو مركيز «دروفسا» في جنوب فرنسا ، وقد صار هذا الرجل ملكاً على إيطاليا في سنة ٩٢٦ م . ومن السفارات التي وقفت على الناصر سفارة قلدو . ويراد به «جيريدو بن ألبيرت» مركيز نوسكانيا ، وكذلك أرسل إليه سفارة كونت برشلونة وطركونة ويسمى «المغيرة بن سونير» Mugira Luijo De Sunier بل أرسل إليه صاحب روما وهو أسابا سفارة تخطب وده ، وقد أشرنا إلى السفارة أو إلى البعثة التي قام بها راهب مسيحي من ألمانيا يسمى «يوحنا الكرزي» Johannes Von Gotze ، وقد دونها بنا ونقل لنا نصها اسقف يسمى «يوحنا» كان في «بير» سان آرثو ، وفي تفاصيل هذه الزيارة المباقية إلى يومنا هذا ، ما يدل على ما وصل إليه الناصر من عظمة وجلال في أنظار ملوك الغرب ، وقد وصفت راهبة المانية ، لم تزر قرطبة ، ولكن صفتها بلغها ، وصفتها بأنها درة أوربا .

ولا شك في أن طول عمر عبد الرحمن الناصر أعانه على تحقيق هذه العظائم التي قام بها ، فإن طول العمر يبلغ لأمال ، فقد عاش هذا الرجل حتى هلك أعداؤه ، وانفسح أمامه السبيل لكي يتنهض بأعماله كلها في إعادة الأمن والنظام ، إلى تثبيت الحدود ، وتنظيم الإدارة ، وإنشاء المنشآت . وكل ذلك قام به عبد الرحمن الناصر في هدوء وثقة نفس ، وبلغ بذلك أقصى ما بلغه حاكم مسلم في العصور الوسطى ولقد قدر المؤرخون المحدثون عبد الرحمن الناصر أعظم تقدير ، فقال فيه «دوزي» المستشرق أنه أقرب إلى حكام العصر الحديث منه إلى ملوك العصور

الوسطى ، وقال ليفي بروفنسال : إن « عبد الرحمن الناصر يعتبر دون شك من أعظم ملوك أوروبا كلها في كل العصور » . وأشار إليه أرنولد نوينيس المؤرخ واتخذه مثالاً للحاكم المستنير ، الذي يخطي عصره بملكاته ومواهبه وأخلاقه وفهمه الدقيق لمسئولية الحاكم وقدرته على القيام بمسئوليائه جميعاً .

وتوفي عبد الرحمن الناصر في الثاني من رمضان ٣٥٠ هـ / ١٥ أكتوبر ٩٦١م بعد أن قام بالعمل العظيم الذي أشرنا إليه ، ووصى بالاندلس إلى أوج قوته وازدهاره ، ودفن في رياض قصر قرطبة حيث كانت مدافن أمراء البيت الأموي الأندلسي وخلفائه ، وقام من بعده ابنه الحكم بن عبد الرحمن الذي تلقب بالمستنصر



خِلافة الحَكَمِ المُسْتَنْصِر

٢ رمضان ٢٥٠ - ٢ صفر ٢٦٦ هـ

١٦ أكتوبر ٩٦١ - ٣٠ سبتمبر ٩٧٦ م

نهوض العلم في أيامه :

من حسن الطالع أن الذي خلف عبد الرحمن الناصر ، كان كبير أولاده وولي عهده الحكم الذي اتخذ لقب المستنصر بالله ، وكان خير خلف لخير سلف ، وتستطيع أن تقول إن حكمه كن مكثراً لحكم أبيه ، فإذا كان الناصر رجل حكم وساسة وجروب ، فقد كان الحكم المستنصر رجل شتم وحصار ، ولم يكن ، حكم مجرد حاكم يعطف على العلماء ويرعى العلوم ، بل كان هو نفسه عالماً مشاركاً في علوم عصره ، فقد كان متقناً للعلوم الإسلامية حتى سمع الحديث منه الشيوخ وأجاز لهم مروياته وأجازوه مروياتهم ، وكانت أبوابه مفتحة لطلبة العلم ولا يرد منهم أحد ، وأنشأ في قصر مكتبة لا يبالغ إلا في بناءها قصر مكتبة أنشأ في دولة إسلامية في العصور الوسطى ، فقد بنى لها بناءً خاصاً ، وأقيم فيها رجال المكتبات من مفسرين ومسحطين ومفكرين ، وكانت غيارسها تقع في ٤٤ كرسية وتضم إلا العناوين ، وقد قدر المؤرخون كتبها بما يقرب من نصف المليون مجلد ، وأنشئ لها مصنع خاص بالسلطد وعمل فيها عشرات الساجين ، وكان يحكم من لونه الذين يوافونه بالكتب الجديدة لأول ظهورها ، وكان يجيز على ذلك بالمال الكثير ، وهناك كتب شرقية كثيرة كان الحكم أول من قرأها ، لأنه عندما كان يسمع بأن مؤلفاً مجيداً يكتب كتاباً كان يرسل إليه مالا لتكريمه ، فسمعت الأولى ، ومن بعده ذلك كتاب « الأغاني » لأبي الفرج الأصفهاني ، فقد أرسل إليه الحكم ألف دينار ليرسل إليه أول نسخة من الكتاب ففعل ،

وقد انتقد الحكم المستنصر بسبب هذا الإسراف في الانصراف إلى العلم ، فإن ذلك صرفه عن القيام بمطالب الحكم كما ينبغي ، وهناك وجه من الحق في هذا

النقد ، فلو أن المستنصر اكتفى بتشجيع العلم دون الاشتغال به لما وجد أمثال ابن
أبي عامر سبيلاً إلى السلطان .

ولطريف في الأمر أن الحكم كان يقرأ الكثير من هذه الكتب ويعق حواشيها
ويستدرك على مؤلفيها بخط يده ، وقد عثرنا بالفعل على كتب عليها خط الحكم
وملاحظاته ، وكان العلماء بعد الحكم يعتبرون هذه الملاحظات أصولاً تُعتمد ، ولم
يقتصر الحكم على علوم العرب بل عنى بكل العلوم ، وتحت إشرافه ترجم « قاسم
ابن أصيبغ النيباني » و « حفص بن البر » كتاب التاريخ « لهيروشيوش » من
اللاتينية ، وترجموا له كتاب « ديوسقوريدس » في الطب من اليونانية ، وكان
يرسل الناس إلى شتى البلاد ويطلب إليهم أن يكتبوا دراسات عما زاروه من
الأقطار ويحتفظ بهذه الدراسات في مكتبته . ومن أمثلة ذلك رحلات « سراهم
الطوطوشي » الإسرائيلي في بلاد أوروبا ورحلات محمد بن يوسف الوراق في أفريقية
وقد كثرت المكتبات في الأندلس في أيام الحكم ، وأصبحت صناعة النسخ من
الصناعات الزاهرة ، وقد اشتغل فيها النساء في البيوت بصفة خاصة ، واشتهرت
الكثيرات منهن بجودة الخط ودقة النسخ حتى طلبت منسوخاتهن بالاسم ،
وكانت نسخ القرآن التي تكتبها الأندلسيات مضرب المثل في الدقة والجمال ،
وتنافس الناس في اقتناء الكتب حتى أصبحت تُشترى لاستكمال مظهر الرقي
والترف ، فكانت المكتبة جزءاً من مركز الرجل الاجتماعي .

ونتيجة لذلك نهضت صناعة لورق نهضة كبرى ، واشتهرت بلاد أندلسية
بورقها نعيد مثل بلنسية وطرجوشة وشاطبة . وكان لورق الشطبي مشهوراً في
العالم الإسلامي كله ، وبلغ من جودته أن بعض الوثائقين كانوا لا يكتسبون
الوثائق إلا عليه ، وإلى جانب جودة نوعه اشتهر برخص ثمنه ، وقد عرف عرب
الأندلس صنفين الورق اللذين عرفا في العصور الوسطى وهما الكاغد ، وهو ورق
عادي ، والرقق وهو ما يعرف بالشارشمان ، وهو ورق متين سميك يقارب
القماش في متانته مع الاحتفاظ بصلابة الورق ، وقد وصلت الرقائق الشطبية إلى
كافة سواحي أوروبا وطلبتها عابوية لتأدية الأدوار في وثائق أندلسية عجايباً ثم أخذ
الإيطاليون صناعتها بعد ذلك .

ولم تنفرد صناعة الورق وحدها بالتقدم ، بل تقدمت كذلك كل أدوات الكتابة من حبر وأقلام وشمع للاحتتام وسكباتكين لقطع الأعلام وما إلى ذلك . وقد نبغ الأندلسيون في صناعة الأحبار وعرقوا المعدني والنباتي والمطبوخ وغير المطبوخ وأبسط والمركب منها ، وعرفوا أقلام الغراب ، ويسمونه الأنبوب وريش الطيور ، بل صنع بعضهم أقلام حبر ، أي أقلاماً تُحلب بالحبر وتصنع بهيئة محكمة بحيث يحملها صاحبها معه ويكتب بها متى شاء . وتقننوا في صنع الحابر من الزجاج والبلور والرخام ، وكانوا يزخرفون الحابر ويكتبون عليها اسم صاحبها بالحفر مع بعض الشعر أحياناً ، واشتهروا بمخابر محكمة الصنع تعمل على هيئة الخنجر في قرابه ، لتوضع في حزام الثوب مع أقلامها وأنواع غيار التجفيف .

ونشأت في قرطبة وغيرها من بلاد الأندلس أسواق الرقاقين إلى جانب أسواق الوراقين ، فاما السوراق فهو تاجر الكتب أي المخطوطات في ذلك العصر ، وكان المفروض في السوراق أن يكون عالماً بالكتب وأقدارها وخطوطها بحيث يستطيع تلبية حاجات عملائه ، وفي العادة تجد السوراق من أهل الأدب لكثرة مزاولة النظر في الكتب .

واما الرقاق فهو تاجر الأدوات الكتابية أو ما يسمى بالإنجليزية

Stationary

و في بعض البلاد العربية يسمى اندكان بك/قرطاسية أي التي تباع القرائيس والأقلام والأحبار والكراسات .

سياسة الحكم المستنصر :

وكل ذلك لم يشغ الحكم عن النظر اسديد في أمور ملكه ، وقد حاول ملوك النصرانية أن ينتهزوا فرصة اشتغاله بالعلوم فبدأوا بالإغارة على أطراف الدولة ، فنهض الحكم بالنزول ابتداء من سنة ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م . وأوغل في أرض ليون ، فلم تجئ سنة ٣٥٢ هـ / ٩٦٤ م حتى كانت قوات قرطبة قد أوغلت في أراضي ليون ونبرة واستولت على قلاع كثيرة من قلاعها وأرغمت هاتين المملكتين وغيرهما من الإمارات النصرانية على العودة إلى التسليم بسيادة قرطبة . وابتداء من سنة ٣٥٥ هـ / ٩٦٦ م بدأت سفارات هذه الممالك تتوافد على قرطبة . وقد وصف لنا

ابن حيان مؤرخ الأندلس استقبل هذه السفارات في الزهراء والماراسم التي كانت تتبع في هذه الاستقبالات ، وكلها تنطق بما وصلت إليه قرطبة من السيادة في شبه الجزيرة كلها ، بل أرسل يوحنا الشمشق Tsimiskes امبراطور بيزنطة ، سفارة إلى قرطبة سنة ٢٦١هـ / ٩٧٢ م . وكذلك أرسل أوتو الثاني امبراطور المانيا - اندي خلف أوتو الاول - سفارة لتجديد المودة والصداقة مع قرطبة .

حروب الحكم في المغرب :

وظهر في أيام الحكم أمر فائده الكبير غلب الناصري الذي يقب بفارس الأندلس ، وهو أول نموذج من الجند الصقلي الذي وصل إلى مراتب القيادة العليا ، التي كانت قبل ذلك وقفاً على أبناء لبيوت الموازية التي ذكرناها . وكان غالب في شبابه قائداً ماهراً مرهوب الجانب لا تجرؤ إمارة نصرانيه على تحدي قواته . وكان مقامه الدائم في مدينة سالم ، وكانت وظيفته الرئيسية قيادة جيش الثغور ، أي الجيش المربط على الحدود الشمالية ، وكان في العادة جيشاً ضخماً مُعَدّاً أحسن إعداد ومُدْرَباً أكمل تدريب ، وكانت كتله الجيش الرئيسي تقيم في مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط ، وكانت هناك فرق إضافية في الحصون الكثيرة التي أنشأها الأمراء على الحدود الشمالية وأهمها سحريط (وهي مدريد الحالية) وقلعة هنارس أو قلعة عبد السلام . Alcala de Henares و وادي الحجرة Guadalajara وسغونشة Siguenza وأتيشه Atienza والمناخ Almenar وبقعة السور Calatanazor وسورب Soria وأوسما Osmá وسماح Cerniza وناجرة Najara وكلها في حوضي لدويرو والأبرو الأعلىين وقرب مدينتيهما ، وهي تقع على ثغور حبال الشارات أو حبال وادي الرمل Guadarrama التي كانت تعتبر الحد الطبيعي لبلاد الأندلس ، ومن هذه الحصون عمل قواد المسلمين على سيادة كل حوض الدويرو ، وكانت هذه المناطق خلأً تقريباً ، ولهذا سهل على قوات مملكة ليون من ناحية ونبرة من ناحية أخرى التقدم فيها وغزو بلاد المسلمين إذا وجدوا غرة منهم .

وإلى آخر أيام الحكم المستنصر ظلت سيطرة القوات العسكرية الإسلامية قائمة على مناطق الحدود ، بفضل ما كانت القوات الإسلامية تتمتع به من قوة وحسن استعداد .

وكان الحكم حريصاً أشد الحرص على أن تكون تلك الحصون في أحسن حالات المنعة والاستعداد . وكان يشحنها دائماً بالموء والأسلحة . وبعض هذه الحصون مثل غرماج كان أشبه بمدينة كاملة فيها مخازن الطعام وأهوار القمح وصهاريج المياه ومرايط الخيل ، ولا زال الكثير من بقايا تلك الحصون قائماً حتى اليوم .

وكان لخلافة إلى جانب ذلك الجيش جيش آخر يقيم في الزهراء يسمى جيش الحضرة ، وكانت قيادة جيش الحضرة للخليفة نفسه ، وهو ينوب عنه من يريد من قواده ، فإذا خرج الخليفة لنفزو جمع قيادتي جيش الثفور وجيش الحضرة .

وإذا جاء وقت النفي أعلن الخليفة عزمه للخروج وأمر بالاستعداد قبداً عملية واسعة النطاق تسمى « البروز » فتتوافد قوات الكور المجندة وتنزل بسهل واسع شمال قرطبة وقصر الرصافة يسمى « فحص السراق » ، ثم يخرجون سرادق الأمير ويجعلونه وسط الفحص وتضرب فرق لجنود خيامها وتقبل قوات المتطوعة ، وكانت في العادة الوق من الناس الذين يخرجون للجهاد حسبة لله تعالى . وتستمر مدة البروز شهراً ثم يخرج الخليفة بجنده الصقلي وحرسه وفرق الكور المجندة والمتطوعة وينتقل من حصن إلى حصن حتى يصل إلى الحدود فينضم له جيش الثفور ، وهنا تبدأ « الصائفة » أي العمية العسكرية الصيفية ومدتها شهران من الغزو في أرض العدو .

ولكن الموضوع الذي شغل الحكم أكثر من غيره كان أمر الفاطميين في المغرب ، وقد بالغ الحكم في الاهتمام بذلك ، إما لأنه رأى في محاربة الفاطميين جهاداً ، أو لأن نصحاءه صوروا له الخطر الفاطمي على ضرورة أكبر مما ينبغي ، والحقيقة أن شعور الحكم المستنصر الديني وتضلعه في الفقه السني وحماسة لمذهب مالك ، كل هذا جعله ينظر إلى الفاطميين ودعوتهم الإسماعيلية ، على أنهم زنادقة يحل حربهم ويتعين على إمام الجماعة أمر محاربتهم أينما كانوا ، فكان لهذا ميالا إلى مدافعهم عن المغرب الأقصى خشية أن ينتقل مذهبهم إلى الأندلس . ورأى بعض وزرائه في ذلك فرصة لكسب دون حسب ، فزينوا له أمر محاربة الخطر الفاطمي في المغرب خاصة ، وقد نهض الأدرسة من جديد على يد الحسن بن كرون ودخلت دولتهم في دورها الثاني ، لأن بقية منهم كانت قد اعتصمت في قلعة « حجر

النسر جنوبى تنوان ، وتوى نهرهم - أيام الحكم - الفاسد من محمد بن القاسم ابن إدريس المعروف بالحسن بن كنون ، وكان أميراً صغيراً يعتز بتأييد جماعات من الصنهاجيين معظمهم من قبائل غمارة ، وكان الحسن بن كنون يعرف ضعف مركزه وعجزه عن مواجهة هذا ليرضى الحكم المستنصر ، إذ كان يريد الإخلاص لبيته ولا شيء غير ذلك . وقد طال الأمر بالحكم وهو يرسل القوات وينفق الأموال ، حتى لقد استدعى قائده الأعلى غالب بن عبد الرحمن الناصرى الملقب بفارس الأندلس من الثغور الشمالية وأرسله إلى المغرب ، وأنفق الحكم في ذلك مالا جسيماً ولم يؤد الأمر بعد ذلك إلى نتيجة تذكر ، وقد أسف الحكم في أخريات أيامه على ما أنفق من مال وما ضحى به من رجال في هذا المقصد ، مما أدى إلى ضعف ثغوره الشمالية ، وكانت أولى بعثياته وأحق بالمراقبة الدائمة .

وهنا يختلف الحكم عن أبيه الناصر لئبى الله في سياسته الأفريقية ، فقد كان الناصر لدين الله يعرف دائماً الحد الذى يؤف عنده في كل ميدان ، فقيما يتصل بالمغرب ، اكتفى بالاستيلاء على سبتة وطنجة وعلية واعتبرها أجزاء من بلاده وجعلها قواعد تحمى سواحله الجنوبية ، وعن طريق هذه القواعد كسب تأييد الكثير من القبائل الزناتية التى كانت تتدوى الحكم القاطمى . وقد كان الناصر يرسل الهدايا الفاخرة إلى رؤساء القبائل ، ويستقبل من يفد منهم على الأندلس استقبالا فخماً ، ويفتح أبواب العمل في جيشه للمرتزقة من أهل المغرب الذين كانوا يقدون عليه في جماعات كبيرة ، وكان هذا كافياً ليضمن له السيادة على ساحل المغرب ، أما الحكم المستنصر فقد أراد فتح المغرب الأقصى الشمالى وأنفق في ذلك جهداً ضخماً ولم يجن من وراء ذلك إلا إضعاف ثغوره الشمالية

وقد قضى الحكم سنواته الأخيرة في العناية بالعلوم والآداب ، فنضم لتدريس في المسجد الجامع حتى أصبح هذا وكأنه جامعة حقيقية تدرس فيها علوم العلوم ، واحتلت حلقت الدرس أكثر من نصف المسجد ، وأخرج الحكم الأموال للشيوخ والأساتذة حتى يتفرغوا للتدريس والتأليف ، وخصص أموالاً جزيلة للطلاب فأعطيت المكافآت والمعاشات للمحتاجين منهم ، وعمد الحكم في إدارة المكتبة الأميرية إلى أخيه عبد العزيز ، وكلف أخاه المنذر بالإشراف على شؤون جامعة قرطبة ، ورفع نقراً من العلماء إلى مراتب تشبه الأستاذية اليوم ، من أمثال

« أبي بكر بن معاوية القرشي » أستاذ الحديث « وأبي بكر بن الفوطي » أستاذ
الأنبياء والتحرير « وأبي بكر الزبيدي » أستاذ اللغة « ومحمد بن أحمد بن مفرج »
أستاذ علوم القرآن وقد أسس الحكم رعاية على غير اسمه من العلماء مثل
« ريشموندو » الألبيري أسقف البصاري المسمى « برميم بن زيد » ، وكان متمكناً
من اللغات العربية والآشورية ، وكان يقوم بترجمة ما وجد الرئيس أو كثر
المترجمين للحكم .

وفي أوائل سنة ٢٦٥ هـ / ٩٧٦ م . شعر الحكم بالشيخوخة كتب في أوصاله ،
ومع أن سنه كانت في الرابعة والستين إلا أن علائم الضعف تزايدت عليه ، فسدعا
الناس إلى بيعة ابنه هشام وكان لا يزال طفلاً ، وقد تمت هذه البيعة رغم مخالفتها
لشريعة ولكن الحكم كان ساداً انتقل بعده عندهم إلى بيعة في ابن سمير الملقب
نسبه ، وقد انتقده الناس بسبب ذلك وحمل عليه « ابن حيان » المؤرخ ، لأن البيعة
تمت بسعي صبي شكك في أم هشام وروحة الحكم لأنه « على نفسه » وكانت
جارية بشكسية رائعة الجمال شديدة الذكاء والطموح ، وكانت تخشى أن يصير
عرش بعد الحكم إلى أحد إخوته لأن لها كلاً من « ابن سمير » و « ابن حيان »
من كبار رجال الدولة مثل جعفر المصحفي الحاجب ومساعد محمد بن
أبي علي لم يكن تضمن تأييدهما لها إذا مات الحكم ، وكان محمد بن أبي عامر إذ
ذاك شاب مثلياً شديد الذكاء ، وقد وصل في أواخر أيام الحكم إلى صبيح صاحب
السكة والمواثيق ، أي اشرف على دار سكة العملة وعمل في وقتها ، وتوالت له تلك
أموال كثيرة تمكن بها من ضمان العرش لهشام الصغير .

وتوفي الحكم المستنصر في ٢ صفر ٢٦٦ هـ / ٢٠ سبتمبر ٩٧٦ م ، وبموته
اختتم آخر العظماء من بني أمية الأندلسيين ، وقد كان الحكم إلى جانب علمه
وحجبه بسوء الدولة ، رجلاً كريماً حياً قلباً لا يترك لنفسه غير الرجل حتى
يسارع بالعفو عنه ، وكان خبيراً بأكثر الصدقات ، ثم إن ما سخره من
الأملاك خاصة الأفرق أموال لميلة . وقد نعم الناس في عصره بسلام وأمن
لم يعرفوها قديم بعد .

ومن أهم أعمال الحكم توسيع المسجد الجامع ، وبدأ به في أيام أبيه
لناصر ولكنه تم في أيامه ، وتعد تلك الزيادة الثانية في الأعمال الناصرية وأبدا
الحكم المستنصر في الناحية الحضارية .

هشام المؤيد

صفر ٣٦٦ - ١٧ جمادى الأولى ٣٩٩ هـ

أكتوبر ٩٧٦ - ١٦ فبراير ١٠٠٩ م

عندما مات الحكم المستنصر ظهرت بادرة تُنبئ بما سيتعرض له الأندلس من المتاعب والفوضى فيما بعد ، فإن الحكم أوصى بالعرش لابنه وكان عند موته غلاماً في الثانية عشرة ، ومعنى ذلك أن السلطان سيقع في يد من يقومون بالوصاية على ذلك الطفل . وقد تنبه إلى ذلك صقالبة القصر وكان عددهم يقارب الألف ، وكان لهم في القصر نفوذ عظيم ، ولكن هذا النفوذ كان متوقفاً على وجود خليفة قوى يستفيد من خدماتهم ويثبتهم في سلطاتهم ، أما الوصاية فتتجسّد للوزراء والطامعين .

فصير الأندلس تحت رحمة الأوصياء على الخليفة القاصر .

بادر الفتيان « فائق وجوزر » كبير الصقالبة بكتمان خبر وفاة الحكم ، وفوراً استدعاه « لغيرة بن عبد الرحمن » وعمّ ولي العهد هشام لكي يسند إليه الخلافة ، ولكن سوء الحظ أراد لهما أن يستشيرا في الأمر « جعفر بن عثمان المصحفي » حاجب الحكم أي رئيس وزرائه ، وكان أبوه في أول أمره مؤدياً للحكم ، ونشأ هو صديقاً للخليفة ثم وصل إلى السلطان عن طريق هذه صداقة الحميفة مع الحكم ، ولكنه كان سياسياً سيئاً ثنائياً عهد في الكثير من وظائف الدولة لابنائه وأقاربه . وكان كذلك غير أمين على الأموال ، قصوره خيله أنه إذا دافع عن خلافة هشام أصبح هو الوصي وأصبحت الدولة في يده .

ولهذا قيدلاً من أن يكتّم الأمر تظاهر بالاعتناع برأي الصقالبة ، ثم ذهب للاستدعى أنصاره وأولهم محمد بن أبي عامر صاحب الشرطة والمواريث ، وأقضى إليهم بما يدبر الصقالبة ودعاهم إلى تأييد هشام وبلغوا على قتل جده الذي قتله محمد بن أبي عامر ، فكانت تلك الجناية الشنعاء نذير شؤم على جعفر المصحفي وأصحابه وعلى الأندلس كله .

وعلى أثر ذلك بويع الصبي هشام يوم الاثنين ٢ صفر ٣٦٦ هـ / أول أكتوبر ٩٧٦ م وأقبل الناس يبائعون ، ويقال إنه لم يعترض على هذه البيعة أحدٌ

وإن كنا نؤمن أن المصحفي وصاحبه محمد بن أبي عامر قاما بعملية تدليس وإرهاب لكى يخلص السلطان لهما ، وقد سعدت بهذا التوفيق « صبح » الملقبة بالبشكنسية ، وكانت في الحقيقة شابة طموحة فائرية وهى « أم هشام » وكسب أقرب الناس إلى قلب الحكم ، وكانت كما قلنا امرأة طموحة إلى السلطان ، تنحصر في كل شيء . وكان جعفر المصحفي ومحمد بن أبي عامر يخدمانها ويمكنان لأنفسهما في السلطان بالتقرب إليها .

وكن من الواضح أن التناقص واقع بين الرجلين لا محالة ، وبدأ النزاع فعلاً ، فاستعان محمد بن أبي عامر بصبح على غريمه ، فلم يلبث أن رقى وزيراً ، ثم أصبح حاجباً أى رئيساً للوزراء .

وما إن وصل إلى هذه الوظيفة حتى غدر بصاحبه القديم ، فأسقطه من الوزارة وألزمه داره ، ثم بدأ تحقيقاً معه فيما ضيع هو وآله من أموال وأمر به فسجن سجن طويلاً ، ثم أمر بقتله . وهكذا دفع المصحفي ثمن جريمته في قتل أمير برىء دون أى جريمة تستحق ذلك .

محمد بن أبي عامر يصبح السلطان الأعلى في الدولة :

وعقب ذلك انقلب ابن أبي عامر على الصقالبة ، فعزل رؤساءهم ثم أخرج معظمهم من القصر ، وتواطأ مع القادة وصاحب المدينة وقائد الجند وصاحب الأعنة على القبض على ناصية السلطان ، وبالفعل لم تمر سنة حتى وصل ذلك الرجل إلى السلطان في الدولة ثم حجر على هشام الصبي ، فلم يسمح لأحد برؤياه ، وأقنع أمه بأنه يفعل ذلك حفاظة على سلامة الخليفة الصغير من المتآمرين والراغبين في القضاء عليه .

والحقيقة أن الخطر العظيم على العرش كان ابن أبي عامر نفسه ، فقد نشأ هذا الرجل متآمراً خبيثاً أنانياً ، وأسرت ترحع إلى أصلي يميني وسفال يمينه من شنف في البر تغسل الحامية ، وكان أبوه فقيهاً ذا مكانة ، ودرس هو في بلده ثم في قرطبة ليصبح فقيهاً مثل أبيه ولكنه كن طموحاً إلى المنصب مؤهلاً للعصر في السياسة . وقد حكيت أساطير عن أصله وأوليائه وطريقة وصوله إلى السلطان ، ولكن الحقيقة أن خلاؤه كان من كبار رجال الإدارة والقصر . فسعى له حتى أقامه على

حطة إمارته في سبئية وبفصل حاله بصد ، ثار صوره ، جاز أو بعد
الوظيفة في قرطبة ، ثم رُشح للنظر في أملاك الأمير هشام قبل أن يلي الحكم ، وهذا
كانت مهارة ابن أبي عامر الذي توصل عن طريق الولد إلى الاتصال بالأم وجعلها
ترى أنه يستطيع تأييد حق ابنها في وراثة العرش ، وعن هذا الطريق تمكن أمره
وانفتح أمامه باب السلطان .

المهم أن محمد بن أبي عامر سار في طريق سيي لا ينظر إلا لمصالحه
ويضحي في سبيل ذلك بكل شيء ، فهو لا يكاد يصل إلى هدف مستعينا بحلفاء
وأنصار حتى يتخلص عن حلفائه بل يغدر بهم دون رحمة أو ضمير . وقد لمس
ميل « الحكم » الشديد إلى أن يخلفه ابنه فنقرب منه وكسب ثقته ، ثم ندبه في
بعض المهام العسكرية في المغرب ، وهناك بدأ ابن أبي عامر بكسب ولاء القادة
والفرسان ، وأغدق عليهم من أموال الدولة دون حساب ، لأن هذه الأموال كان
المفروض أن تعطى لرؤساء البربر فاستخدمها ابن أبي عامر في مصالحه
الشخصية

وعندما وصل ابن أبي عامر إلى هذه الدرجة من السلطان اتجه اهتمامه إلى أن
يعسك بيده زمام الجيش ، وكان يتولاه القائد غالب بن عبد الرحمن الناصري
صاحب الانتصارات العظيمة في المغرب وفي الثغر الشمالي . فخطب ابن أبي عامر
بنة غالب وتزوجها ، وأوسع لنفسه بذلك طريقاً إلى قلب هذا القائد الكبير .

ولا شك في أن زواج ابن أبي عامر من ابنة غالب قد أوجد قلقاً في نفس صبيح
البشكنسية ، فأصبحت ترى بوضوح أن هذا الرجل سائر في طريق يخطف عن
الطريق الذي كانت تريد هي أن يسير فيه ، وبدأ صراع خفي بين ابن أبي عامر
وهذه السيدة التي كانت سبب وصوله إلى السلطان ، ولكن « صبحاً » لم تكن
تستطيع شيئاً وحدها ، خاصة وقد ذهب أمر صقلية القصر ، وكانت تستطيع أن
تستعين بهم لو أنها لم تُعين محمد بن أبي عامر عليهم .

وفي هذه الأثناء كان ابن أبي عامر قد تمكن من قلب غالب ، خاصة وقد
استصدر له مرسوماً يعطيه لقب ذي الوزارتين ، ولم ينس ابن أبي عامر نفسه في
أثناء ذلك فحعل نفسه قائد جيش الحضرة ، في حين اقتصر غالب على قيادة جيش
الثغر .

وبجيش الحضرة هذا بدأ ابن أبي عامر يقوم بفرضاته في الشمال فقام بغزوة موقعة في غرب أراضي ليون سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٧ م. وتمخض له غالب حاسباً أنه خليفة فعلاً . وفي العام التالي قام بحملة أخرى عاد بعدها محملاً بالعنائم والسبي فازداد صيته وأحبه الحند وتحدث باسمه الناس . ولا بد أن نذكر هنا أن غالباً كان قد آسن ومال إلى القعود والراحة .

محمد بن أبي عامر يخشي جيشاً خاصاً به من المرتزقة

واهتم ابن أبي عامر بإنشاء جيش خاص به وكان ذلك أسوأ أعماله ، فاستقدم الآلاف من البربر وأدخلهم في خدمته ، ولم يلبث أن أصبح له منهم جيش ضخم يُخشى يأسه . وقد نفر الأندلسيون وقدماء المحاربين من ذلك الجيش البربري الغريب عن البلاد نفوراً شديداً ، وكرههم أهل قرطبة بسبب دالتهم العظيمة على صاحب السلطان ، ولكن ذلك كله كان لا يهم ابن أبي عامر ، بل ظن أنه يستفيد منه ، فقد كان نفور الأندلسيين من جنده البربر يحول دون اتحاد عناصر لجيش أقديم ضده ، ويجعل البربر يشعرون بأن مستقبلهم معتمد عليه . أما نفور الناس من البربر فكان كفيلاً بأن يجعل البربر أكثر تمسكاً به وتأييداً لسلطانه .

وفي أثناء ذلك أخذ ابن أبي عامر يطارد كل الظاهرين من بني أمية الذين يخشى منافستهم ، فاضطهد هذا البيت الجليل اضطهاداً شديداً وقتل أكثرين من رجاله ، وهرب منهم نفر وسكن الباقون خوفاً منه .

ولم يبق بعد ذلك إلا غالب الناصري وقد تنبسه هذا الرجل إلى خديعة ابن أبي عامر إياه ، وبدأ صراع عتيف بين الرجلين انتهى بقتل غالب وبذلك خلا الجو لابن أبي عامر ، فأصبح بهذه الأساليب الشريرة سيد الأندلس دون منازع ، يحكمه بالإرهاب والقوة والعنف والجريمة ، مما كان له أسوأ الأثر على البلاد فيما بعد .

ومن غريب أمر هذا الرجل ودلائل مكره الشرير ، أنه كان يحرص دائماً على الوقعة بين جيشه البربري الجديد والجيش الأندلسي القديم غير محال بما قد يؤدي إليه ذلك من نتائج ، فإن جيش الأندلس القديم كان يقوم على تقاليد

عسكرية جلييلة ، وضعها قادة عظماء ذكرنا بعضهم مثل عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، وأبى العباس أحمد بن محمد بن أبى عبده . وكان هذا الجيش مرتباً على نحو منظم يضمن لربحائه تدريب وخبرة ، وكان ضباط ذلك الجيش يعرفون بالعرفاء والمفرد عريف ، وكان العريف يدرّب تدريباً صويلاً أثناء الخدمة العسكرية ، وكان العرفاء من أبناء البيوت الكريمة ومن أبناء رجال الجيش ، فقد كانت العادة أن يخلف أحارب ابنه الأكبر ، أو أحد أبنائه في وظيفته ، فكان الجيش الأندلسي بذلك نظام وثرثيب ، وكان يعتبر درع الأندلس .

وقد حرص ابن أبى عامر على أن يحط من أمر أولئك الجنود البواسل وأن يظهر في كل مناسبة أن جنده الجديد أسهر وأقدر منهم ، فامتلات قلوب المحاربين حقداً عليه وعلى جنده المرتزق ، وهكذا أصبح لعداء شديد بين جيشى الدولة . وظهر بوضوح أنه إذا اختلف محمد بن أبى عامر من الميدان وقعت الحرب الأهلية بين لجيشين .

وقد نشأت عن ذلك كراهة عميقة بين الأندلسيين عامة وأولئك البربر الجدد ، وسنرى أن تلك الكراهة كانت من أسباب سقوط دولة بنى أمية وتفرق أمر الأندلس .

غزوات محمد بن أبى عامر دوى عظيم ونتيجة قليلة :

وكان محمد بن أبى عامر يحس أن الناس جميعاً يرون فيه الغاصب المتآمر الماكر ، الذى وصل إلى السلطان بالخداع والمكر والأساليب السيئة مثل علاقته بصبيح البشكنسية ، وكانت هذه العلاقة موضع تعليق وبسخرية كثير من جانب الأندلسيين ، ولهذا فقد اتجه إلى تغطية ذلك كله بأعمال تبهر العقول وتجذب إلى قلوب الناس ، وفي تلك العصور لم يكن هناك ما يجذب القلب مثل الجهاد والغزوات ، فبدأ سلسلة طويلة من الغزوات الموفقة في كل بلاد إسبانيا النصرانية وقد تناسى الشعب الأندلسي فعلاً أعمال ابن أبى عامر السيئة إلى جانب هذا النشاط العسكرى ، ولكنه لم يثر فيهم ذلك الحماس الذى كانت تثيره غزوات أمراء بنى أمية وخلفائهم ، أولاً لأن الذين كانوا يقومون بهذه الأعمال لم يكونوا

جند الأندلس كما كان الحال قبلاً ، بل جند محمد بن أبي عامر ، ولم يكن الأندلسيون يحبونهم ، وثانياً لأن هذه الغزوات على كثرتها لم تؤد إلى أى نتيجة حاسمة ، ولقد قام محمد بن أبي عامر بأثنين وخمسين غزوة خلال نحو ٢٤ سنة ، ولكن حدود دولة الإسلام ظلت على ما كانت عليه ، ولو أن محمد بن أبي عامر استطاع بهذه الجهود أن يرفع حدود الإسلام في الشمال الغربي إلى شمال خط الدوير وبصفة نهائية لكان ذلك أحسن بكثير من هذه الغزوات المتوالية التي أضعفت بلاد النصارى ولكنها لم تغر من أحوالها .

ولو أن خليفة محمد بن أبي عامر كان رجلاً قادراً مثله فربما كان يمكن أن تكون لهذه الغزوات نتيجة عظيمة ، ولكنه أصر على أن يخلفه ابنه « عبد الملك » وكان شاباً جريئاً يأسلاً ولكنه كان طائشاً جاملاً كثير المفاصد فلم يعمر إلا سبع سنوات ثم كان الطوفان بعد ذلك .

محمد بن أبي عامر يتخذ لقب الحاجب المنصور ويخاطب بلقب الملك :

ولقد كسب ابن أبي عامر في أواسط سنة ٣٧١ هـ / ٩٨١ م . نصراً عظيماً على قوات مملكتي ليون ونبرة وكونتينة قشتالة ، وعندما عد إلى قرطبة اتخذ لقب الحاجب المنصور وأمر بالدعاء لنفسه على المنابر ونقش اسمه على السكة واتخذ هيئة الملوك وأخذ الوزراء ورجال الدولة بتقبيل يده عند المشول بين يديه ، أي أنه صار في الحقيقة ملكاً للأندلس بحكم باسم خليفة محجور عليه في قصور الزهراء وقد وضع عليه محمد بن أبي عامر الأوصاف والعيون ، بل أحاط الزهراء سور وخنق حتى لا يدخل إليها أحد إلا بإذن .

وقد رأى محمد بن أبي عامر أن يتخذ لنفسه أيضاً مدينة ملوكية فاختار مكاناً شرقي قرطبة وبنى فيه قصوراً سماها « الزاهرة أو العامرية » وجعل الوزراء ورجال الدولة ينشئون القصور حول داره ، وخمل أمر الزهراء ، وقد نفر الأندلسيون من ذلك كله نفوراً شديداً ، خاصة وأن محمد بن أبي عامر كان لا يتورع عن ارتكاب أى جريمة في سبيل الوصول إلى غاياته ، ومن ذلك أنه كان قد

استقدم « جعفر بن علي » الزعيم الزناتي مع رجاله إلى الأندلس ليضرب غالباً
الناصرى ، وأعطاه لقب الوزارة والقيادة ، فلما انتصر على غالب جعل رجاله
يقتالون جعفر بن علي ، على أسوأ صورة سنة ٣٧٢ هـ / ٩٨٢ م

ومن أكبر غزوات المنصور وأهلها على طبيعة أعماله العسكرية قيامه في صيف
٣٧٤ هـ / ٩٨٥ م بحملة واسعة على قبيلة قطلونية ودحوته برشلونة ، التي
قد سقطت في أيدي قوات الفرنجة سنة ١٨٥ هـ / ٨٠٦ م ، ثم تحولت بعد
ذلك إلى كونتية قطلونية ، فافتتحها المنصور في صيف ذلك العام ودمرتها جنوده ،
وبدلاً من أن يضمها إلى بلاد المسلمين ويعمرها بهم ويشحنها بالجند نراه
يتصرف عنها دون أن يترك بها حامية أو جنداً ، فكأنه لم يقصد إلا التدمير وإنزال
الضرر العنيفة التي حدثت دوماً ، بينها لا تقص أو تحقيق هدف واضح دائم
بعد ذلك

ونظر المنصور بعد ذلك في أمر المغرب ، وكان الحسن بن كنون قد صالح
الفاطميين ودخل في طاعتهم ودعا لهم في قلعة حجر النسر شمال المغرب الأقصى
واعترضاً ليد « بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجى » عدو الزناتيين وهم أنصار
المنصور ، فسارع بإرسال جيش قوى سنة ٣٧٤ هـ / ٩٨٥ م ، وأرسله بجيش
أجل ، فحاصر قلعة النسر واستنزل الحسن بن كنون عن أعماله ، وطلب الرجوع
يذهب إلى قرطبة مستأثماً.

ولو أنه طلب ذلك إلى عبد الرحمن الناصر أو ابنه الحكم المستنصر لأجيب إلى
أعماله ، ولكن المنصور تظاهر بالخوف ، ثم أمر بقتله وهو في السجن أو قرطبة ،
جمادى الأولى ٣٧٥ هـ . أو آخر ٩٨٥ م . وبذلك ارتكب المنصور عملاً جديداً شنيعاً
وقد تطير الناس من هذا الحادث وقال أهل قرطبة إن المنصور لن ينجو من عقاب
الله جزاء له على هذه الجريمة الشنيعة التي ارتكبها في حق حفيد النبي ﷺ . وقد
استمر نشاط رجال المنصور في المغرب ، ولكن مقتل الحسن بن كنون وتشرذم
الباقين من أفراد بني يعقوب المنبهة الحقيقية للدور الذى الدولة دارسه ، فلم يعد
نسمع عنهم بعد ذلك خاصة وقد عهد المنصور في حكم المغرب الأقصى إلى « زيري
ابن عطية الرباس » وكان خصم الصنهاجيين والفاطميين عنده ، فلم يلبث هذا
الزعيم الزناتى أن أصبح السيد الأعلى للمغرب الأقصى ، ولما كان صديقاً
للمنصور حليفاً للبيت الأموى فقد شركه المنصور على ذلك مطمئناً إلى أن الخطر

الفاطمي على الأندلس قد زال نهائياً . وكان ذلك سنة ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م .

وقبل ذلك بعام كان المنصور قد قام بغزوة موفقة على مملكة ليون ، واحتل العاصمة نفسها وخربها ، فهرب ملكها « برمودو الثاني » إلى « سمورة » فطارده المنصور إليها واستولى عليها وخربها ، وعلى أثر ذلك دخل ملك ليون في طاعة المنصور وأدى إليه الجزية ، وكذلك فعل كل ملوك الشمال والشمال الغربي لإسبانيا النصرانية ، فأصبحت كلها تؤدي الإتاوات للمنصور فيما عدا الطرف الشمالي الغربي من جليقية .

وكان من أشد ما غير قلوب الأندلسيين على المنصور غدره « بعبد الرحمن بن مطرف التجيبي » صاحب سرقسطة وممثل بني هاشم التجيبيين ، وكانوا من أعرق نهر البيوتات الأندلسية التي اشتهرت بالشجاعة وبعد الهمة ، وقد قتل هذا الرجل غدرًا في نهاية صفر ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م . وعلى أثر ذلك قتل المنصور ابنه عبد الملك إذ اتهمه بالتدبير عليه ، وكان هذا الشاب الطائش قد حاول الاستعانة بعبد الرحمن بن مطرف التجيبي « وبغرسية قرناندت » كونت قشتالة لينتقم من أبيه لأنه كان يفضل عليه أخاه الأصغر عبد الملك ، وقد عاقب المنصور بعد ذلك بغرسية قرناندت ، وما زال يحاربه حتى أخذه أسيرًا إلى قرطبة ، ولكنه مات متأثرًا بجراحه في الطريق وخلفه ابنه « سانشو عرسية » فأصبح من اتباع المنصور الذين يؤدون إليه الجزية .

وفي سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م اتخذ المنصور لنفسه لقب الملك وأصدر أمره بأن يخاطب بالملك الكريم المنصور ، ومن الواضح أن المنصور كان يتجه إلى أن يجعل نفسه خليفة ويقيم بيته مكان بيت بني أمية ، ولكن الظروف كلها كانت لا تعينه على إدراك هذا المطلب ، لأن الناس جميعاً في الأندلس لم يكونوا مستعدين لقبول هذا التغيير ، وعلى الرغم من القوة الكبرى التي وصل إليها هذا الرجل إلا أن الأندلسيين ما كانوا اليوقروه ، لأنه في نظرهم لم يكن ليخرج عن طامع ذكي استطاع الوصول إلى ما يريد بمواتاة حظ لا يصدق . وكان هو يشعر بذلك ويتحامي الأندلسيين والسنتهم الطويلة ، والحقيقة أن المنصور كان رجلاً في غاية الذكاء والقوة ، وكانت مواهبه للحكم عظيمة ، ولكنه كان لا يثورع عن الحريمة في

سبيل الوصول إلى ما يريد ، والمسلمون بطبعهم لا ينفرون من شيء قدر نفورهم من الجرائم والخداع وانعدام الضمير ، نعم إن عبد الرحمن بن معاوية ارتكب بعض الجرائم ، ولكن الذم كانوا قبله ارتكبوا أشنع منها ، فكان هو في نظر الناس مخلصاً لهم من شر الصميل بن حاتم ويوسف الفهري ، ثم إن جرائم عبد الرحمن الداخل لم تتناول الناس كلهم ، بل طائفة معينة والخصوم السياسيين ، وفيما عدا ذلك كان رجلاً مأموناً وشريقاً ، أما المنصور فلم يكن للشرف عنده قيمة ، وكان أهل الأندلس كلهم يتحدثون عن سوء أفعاله

وربما كان من الممكن أن يتغاضى الناس عن جرائم المنصور لو أنه كان وريث بيت ملك وسيادة ، ولا ننسى أننا في العصور الوسطى ، أيام كان الناس يؤمنون بأن هناك بيوتاً عريقة ذات حسب ، ولها الحق في أن تصل إلى الملك ، أما بقية الناس فلا حق لهم في الوصول إلى العرش ، وقد كان من أكبر ما أعان عبد الرحمن الداخل على إقامة دولة ، أنه كان سليل بني أمية وحفيد خليفة هو هشام بن عبد الملك ، ثم إنه قرشي ، من ذلك القبيل العربي العريق الذي يمثل الصدارة في عالم الشرف والسؤدد ، أما المنصور محمد بن أبي عامر فكان رجلاً عادياً من سلائل اليمانيين ، ولم يكن المسلمون في أي قطر مستعدين للتسليم بسيادة يَمَنِيٍّ أيّاً كان ، حتى لقد وضعوا حديثاً يقول : « من تقوم الساعة حتى يقوم رجل من بني قحطان ويسوق الناس بعصاه » ، وهم يريدون بذلك أن الساعة لن تقوم حتى يصل الحكم إلى أسوأ مستوى ، وكان المنصور من معافى وهى من صغريات قبائل اليمن ، ثم إن أباه كان فقيراً عادياً معروفاً للكثيرين من أهل قرطبة وشيوخها ، ومثل هذا الصليب لا يخرج في رأيهم بيتاً ملكياً .

ولكن أكثر ما أضر بالمنصور ثلاثة أمور :

الأمر الأول : أنه أقام ملكه على جند مرثقة من البربر أحنى عن البلاد ، وكان جند المنصور معتزين بتأييده يتعالمون على الناس ويشيرون سخطهم ، وقد وقفت كل البيوت الأندلسية العريقة موقف تحفظ من المنصور ، حتى الذين دخلوا منهم في خدمة المنصور فعلوا ذلك خوفاً على حياتهم ، فإن غدرات هذا الرجل ما كانت لتؤمن أبداً .

الحزب العامري :

ويكى يسد هذا الضعف لجأ المنصور إلى اصطناع بيوت جديدة في العاصمة والأقاليم ، وكان رجاله هؤلاء يتكونون من زعانف أبناء الأسر الكريمة وضعف رجالها ، ثم من الطامحين من صفار الفقهاء ، لرفعهم ابن أبي عامر إلى وظائف القضاة وأقامهم عمالاً على النواحي ، ولم يتورع أولئك الناس عن طلب المال معتمدين على وظائفهم فأصبحوا من أغنى أهل النواحي وتكاثرت حولهم حواش من أمثالهم ، ومن أمثلة هؤلاء « بنو عباد » في إشبيلية ، وبنو يعيش » في صيطة ، أما الهاشميون من أفراد البيوت الكبيرة فمثالهم « أبو مروان عبد الملك بن شهيد » سليل أسرة بنى شهيد ، فقد كان شاعراً ممتازاً وعبقرياً فكرياً ، ولكنه كان رجلاً منحل الأخلاق لا يسمو إلى مراتب بنى شهيد العظماء ، وقد جعله المنصور نديمه وشاعره وصاحبه ، وكذلك يحيى الملقب « بسماجة بن عبد الرحمن بن مطرف التجيبي » سيد الثغر الأعلى الذي قتله المنصور ، وقد كان يحيى سماجة هذا من سخفاء الولاة ، وعلى يده تحول بيت بنى هاشم التجيبيين من بيت جليل من بيوت الحكم إلى بيت طامعين في السلطان والجاه بأي طريق

واستعان ابن أبي عامر كذلك بنفر من زعماء البربر الفازلين في بعض النواحي مثل بنى « الأفطس » الذين كانوا يقيمون في بطليوس ، وبنى « ذى النون » وكان موطنهم في شماتية في جنوب غربي طليطة .

وكذلك اصطنع ابن أبي عامر صفاتبة جددا اشتراهم لحسابه لكي يصيروا من جنده وحراسه ورجاله

ومن هؤلاء جميعاً تكون ما يعرف بالحزب العامري ، ومعظم رجاله من طراز محمد بن أبي عامر خلقاً ، أي أنهم أنانيون ساديون لا يفكرون في جماعة ولا صالح الإسلام أو العروية ، بل هم الواحد منهم أن يصبح منصوراً صغيراً في ناحية أو في حدود سلطته .

وهؤلاء الناس الذين تربوا في مدرسة المنصور هذه ، هم الذين سيقضون على وحدة الأندلس بتمسكهم بالسلطان في نواحيهم وحرص الواحد منهم على أن يكون أميراً بأي ثمن ، أولئك هم الذين سيعرفهم التاريخ بالاسم المشؤم : ملوك الطوائف .

والأمر الثاني : هو انعدام المفهوم الأخلاقي عنده تماماً ، ومثل هذا الرجل يخافه الناس ولا يحبونه ، ويحذرونه ولا يقبلون منه شيئاً ، لأنهم لا يعرفون ما يخبئه لهم ، ولهذا ، وعلى الرغم مما وصل إليه المنصور من قوة وسلطان فإن أنصاره أنفسهم كانوا يكرهونه في نفوسهم ، لأنهم كانوا يخافونه عن أنفسهم ، فإنه كان مستعداً لأن يطيح برأس أى واحد منهم لأقل شك في تصرفاته أو نواياه .

وكان المنصور كثير التجسس على الناس ، بل كان يهدي الناس الجوارى والعبيد لكي يصبحوا عيوناً له عليهم في بيوتهم ، وقد أفسد أخلاق الناس بالرشوة وما يجري مجراها ، وعلى مثل هذا الأساس لا يستطيع رجل أن ينشئ دولة .

والأمر الثالث : هو أن المنصور لم يرزق ولداً قادراً على التهوؤ بالعبيد من بعده ، فقد كان له من الأولاد ثلاثة . واحد قتله بنفسه ، أما الاثنان الباقيان فهما عبد الملك الذي جاء من بعده وقد أشرنا إليه ، ثم عبد الرحمن وكان شاباً سيئ الخلق ضائع العقل قاسى القلب ، وقد دفعه سوء رأيه إلى أن يستصدر من الخليفة المحجور عليه هشام عهداً بتعيينه ولي عهده في الخلافة ، وكانت نيته أن يتخلص منه بالقتل بعد ذلك ، ولكن سخط الناس بلغ إلى حد لم يسمح لهم بالاستمرار فقامت الثورة على ذلك الشاب وقتل سنة ١٠٠٣ م . وانتهى أمر بنى عامر في يوم وليلة

وقد أبدى المنصور في أواخر أيامه نشاطاً واسعاً في الغزو ويبدو أنه كان يرى أن الوقت قد آن لكي يخطو خطواته الكبرى في اتخاذ لقب الخلافة ، فأراد أن يمهّد لذلك بانتصارات كبرى في ميادين الجهاد ، فقام في سنة ٣٨٧هـ / ٩٩٧م بأكبر غزواته وهي المعروفة باسم غزوة « شنت ياقب » ، وشتت ياقب أو القديس يعقوب الحواري وهو بالفرنسية « سام جاك » كان من حوارى المسيح ، وقد وصل إلى إسبانيا فيما تقول الأسطورة ، واتجه إلى شمال غربى الأندلس وهناك مات ودفن وحُفِّق قبره ، ثم ظهر نجمٌ دلّ راهبين على مكانه ، فكشفوا عنه وتأكدوا من وجوده في المكان المسمى « كومبو ستيدل » وعلى الفور أقيمت كنيسة كبرى عرفت باسم « سنتياجو » أى القديس يعقوب ، أصبحت من أعظم المزارات النصرانية لا في إسبانيا فحسب بل في أوروبا كلها .

أراد المنصور أن يغزو شنت ياقب فقدم بحملة كبرى حشد فيها كل قواته ، بل نقل الجنود وأثقال الجيش بالبحر حتى مصب نهر « المتيو » وهناك أرسى

السفن وتقدم الرجال من بقيه الجيش ، واقتحم المنصور شنت ياقت بالقوة وضرب مبانيتها وهدم كنيستها العظمى ولم يترك إلا قبر يعقوب لأنه من الحواريين. وقد رمت هذه الغزوة صيت المنصور في أوروبا كلها وأصبح اسم المنصور رمزاً للرعب والخوف في كل نواحيها .

وكانت آخر غزوة قام بها المنصور في ربيع ٣٩٢هـ / ١٠٠٢م وكانت وجهتها برغش وأراضي كونتية قشتالية ، وقد احتلها المنصور وهزم قواتها ، ثم عث في أراضي مملكة ليون ، ولكن دبيب المرض كان يعيش في جسده ، وشعر الرجل به وهو في الطريق إلى برغش ، وبعد الواقعة اشتد به المرض فحمل في محفة فلما وصلوا إلى مدينة سالم كانت قواه قد وفنت تماماً ، وتقول المراجع النصرانية إن النصاري هاجموا جيشه وهزموه في معركة قرب حصن يسمى قلعة النصور ، وعقب ذلك يقليل توفي المنصور ودفن في مدينة سالم ، وكان يجعل كفته معه ، وكذلك كان يجمع الغبار الذي يعلق بملابسه أثناء الغزو ، ليدفنه وذرّوا عليه غبار الجهاد وواروه التراب في تلك القاعدة العسكرية الإسلامية العريقة ، وقد كتبوا على قبره :

أشاره تنبيك عن أخباره حثي كأنك بالغيتان قرّاه
تائه لا يأتي الزمان بمثله أبداً ، ولا يخفي الثغور سواه

تقدير المنصور :

ولا شك أن المنصور محمد بن أبي عامر كان من أعظم الرجال ، فقد قام بما لم يقم به أحد في تاريخ الإسلام : استولى على أزمة السلطان في دولة كبرى في أوج سلطانها ، ووجه أمورها وساس أهلها سياسة مستبد غاشم لا يسمح بأي مشاركة له في السلطان ، وقد استغل في الوصول إلى ذلك مجموعة من الظروف أدت بالاندلس إلى ما يمكن أن نسميه فراغاً في السلطان ، ومهارته في أنه عرف كيف يحتل هذا الفراغ بسرعة ويمكن لنفسه فيه . أما هذه الظروف فضعف الحكم المستنصر في آخر أيامه ورغبته الشديدة في أن يصير الملك من بعده إلى ابنه هشام ،

وكان هشام صغيراً جداً لا يزال بينه وبين سن الرشد تمهيدية 'معموم' عن 'أمر' وخلال هذه المدة كان لا بد أن يمسك السلطان واحد من الرجال ، ولم ينظر الحكم في تعيين أوصياء ، بن ترك الأمر للمقادير ، وكان أكبر رجاله وصاحب الحجابة - والمفروض أنه كان يقوم بدور الوصي- رجلاً فاسداً أنانياً قاسى القلب بعيداً عن الخلق وهو « جعفر المصحفى » ، وقد اقتضح أمره بقتل أمير برىء ومن ناحية أخرى نرى أن ابتناء عبد الرحمن الناصر وهم أعمى ولي العهد ، كان ينقصهم الذكاء وبعد النظر ، وقد فوجئ واحد منهم وقُتل ، واستسلم الثانى للمقادير ثم اختفى ، وربما كان عبد الرحمن الناصر مدخولاً من تلك الحالة ، فقد قضى على إرادات الرجال وشَلَّ تشاؤلهم وقضى على الكثيرين منهم بسيطرته البالغة .

المهم أن المنصور وجد هذه الظروف، واستغلها لصالحه ، ولا شك أنه كان مؤملاً للسياسة بطبعه ، حائزاً للكثير من الصفات التى يحتاج إليها رجل السلطان، فهو شديد الذكاء دائم البقظة يرى الأمور في وضوح ويتبين خط العمل ويعمل في سرعة يعجز معها خصومه عن التفكير ، وقد وصل إلى ما يريد قبل أن يستجمع أحد ممن حوله أفكاره ، إذ كان يخطو من مشكلة إلى مشكلة في سرعة وثقة في النفس دون أن يدري أحد بوضوح إلى ماذا يريد . ومن الواضح أن الخطوة الحاسمة في وصوله إلى سلطان كانت السيطرة على « صبح الشكنسية » وتولى الأمر باسم هشام مشتركاً في ذلك مع جعفر المصحفى ثم أسقط المصحفى وبقي هو في الميدان وحده يستصدر من الأوامر ما يشاء.

وأهم ما استصدره ، هو الأمر بفصل جيش الحضرة عن الجيش العام وتعيينه قائداً له ، فقد أصبحت تحت يده قوة عسكرية لها خطرهما ، وقد نصورت « صبح » أنه يعمل في خدمة ابتها ففتحت له خزانة المال ، وبالمال استكثر من الجند ، أى أنه أصبح مستبداً عسكرياً ، وهنا لم تبق أمامه عقبة ، فهذا قائد عسكري يحكم بقوة السلاح . ومثل هذا في التاريخ كثير ، ولكن عبقرية المنصور كانت في كيفية الانتقال من طالب علم وفقه إلى رجل سياسة ، ومن رجل سياسة إلى قائد عسكري .

والسؤال الآن : ماذا فعل المنصور بالسلطان الذى وصل إليه ؟

إن أمامنا أمثلة كثيرة من المستبدين بالعروش وما فعلوا ، هناك مثلاً

السفن وتقدم الرجال من بقية الجيش ، واقتحم المنصور شنت ياقب بالقوة ، وضرب مبانيتها وهدم كنيساتها العظمى ولم يترك إلا قبر يعقوب لأنه من الحواريين ، وقد رفعت هذه الغزوة صيت المنصور في أوروبا كلها وأصبح اسم المنصور رمزاً للرعب والخوف في كل نواحيها .

وكانت آخر غزوة قام بها المنصور في ربيع ٢٩٢هـ / ١٠٠٢م وكانت وجهتها برغش وأراضي كونتية قشتالة ، وقد احتلها المنصور وهزم قواتها ، ثم عاث في أراضي مملكة ليون ، ولكن دبيب المرض كان يمشى في حسده ، وشعر الرجل به وهو في الطريق إلى برغش ، وبعد الواقعة اشتد به المرض فحمل في محفة ، فلما وصلوا إلى مدينة سالم كانت قواه قد وهنت تماماً ، ويقول المراجع النصرانية إن أنصارى هجموا جيشه وهزموه في معركة قرب حصن يسمى قلعة النصور ، وعقب ذلك يقليل توفي المنصور ودفن في مدينة سالم ، وكان يحمل كفته معه ، وكذلك كان يجمع الغبار الذي يعلق بملابسه أثناء الغزو ، قدفوه وذرّوا عليه غبار الجهاد وادّوه التراب في تلك القاعدة العسكرية الإسلامية العريقة ، وقد كتبوا على قبره :

آثارُ تنبيكَ عن أخبارِهِ حتّى كأنّك بالغيّـان نَراهِ
تأثُّه لا يأتى الزمانُ بعثـلِهِ أبداً ، ولا يَحْمِي الثُغورَ سِوَاهِ

تقدير المنصور :

ولا شك أن المنصور محمد بن أبي عامر كان من أعظم الرجال ، فقد قام بما لم يقم به أحد في تاريخ الإسلام : استولى على أزمة السلطان في دولة كبرى في أوج سلطانها ، ووجه أمورها وساس أهلها سياسة مستبد غاشم لا يسمح بأي مشاركة له في السلطان ، وقد استغل في الوصول إلى ذلك مجموعة من الظروف أدت بالاندلس إلى ما يمكن أن نسميه قراغاً في السلطان ، ومهارته في أنه عرف كيف يحتل هذا الفراغ بسرعة ويمكن لنفسه فيه . أما هذه الظروف فتضعف الحكم المستنصر في آخر أيامه ورغبته الشديدة في أن يصير الملك من بعده إلى ابنه هشام ،

وكان هشام صغيراً جداً لا يزال بينه وبين سن الرشد ثمانية أعوام على الأقل ، وخلال هذه المدة كان لا بد أن يمسك السلطان واحد من الرجال ، وبم ينظر الحكم في تعيين أوصياء ، بل ترك الأمر للمقادير ، وكان أكبر رجاله وصاحب الحجابة - والمفروض أنه كان يقوم بدور الوصى - رجلاً فاسداً أذاعاً قاسى القلب بعيداً عن الخلق وهو « جعفر المصحفى » ، وقد اقتضح أمره بقتل أمير يرى ومن ناحية أخرى يرى أن ابنه عبد الرحمن الناصر وهم أعمام ولي العهد ، كان ينقصهم الذكاء وبعد النظر ، وقد فوجئ واحد منهم بقتل ، واستسلم الثانى للمقادير ثم اختفى ، وربما كان عبد الرحمن الناصر مدغولاً عن تلك الحالة ، فقد قضى على إرادات الرجال وشل نشاطهم وقضى على الكثيرين منهم بسلطوته البالغة .

المهم أن المنصور وجد هذه الظروف ، واستغلها لصالحه ، ولا شك أنه كان مؤملاً للسياسة بطبعه ، حائراً للكثير من الصفات التى يحتاج إليها رجل لسلطان ، فهو شديد الذكاء دائم اليقظة يرى الأمور في وضوح ويتبين خط العمل ويعمل في سرعة يعجز معها خصومه عن التفكير ، وقد وصل إلى ما يريد قبل أن يستجمع أحد ممن حوله أفكاره ، إذ كان يخطو من مشكلة إلى مشكلة في سرعة وثقة في النفس دون أن يدري أحد بوضوح إلى ماذا يريد . ومن الواضح أن الخطورة الحاسمة في وصوله إلى السلطان كانت السيطرة على « صبح البشكنسية » وتولى الأمر باسم هشام مشتركاً في ذلك مع جعفر المصحفى ثم أسقط المصحفى وبقي هو في الميدان وحده مستصدر من الأوامر ما يشاء .

وأهم ما استصدره ، هو الأمر بفصل جيش الحضرة عن الجيش العام وتعيينه قائداً له ، فقد أصبحت تحت يده قوة عسكرية لها خطرهما ، وقد تصورت « صبح » أنه يعمل في خدمة ابنها ففتحت له خزانة المال ، وبالمال استكثر من الجند ، أى أنه أصبح مستبداً عسكرياً ، وهنا لم تبق أمامه عقبة ، فهذا قائد عسكري يحكم بقوة السلاح . ومثل هذا في لتاريخ كثير ، ولكن عبقرية المنصور كانت في كيفية الانتقال من طائب علم وفقه إلى رجل سياسة ، ومن رجل سياسة إلى قائد عسكري .

والسؤال الآن : ماذا فعل المنصور بالسلطان الذى وصل إليه ؟

إن أماننا أمثلة كثيرة من المستبدين بالعروش وما فعلوا ، هناك مثلاً

«ريشيليو» ذلك الكاردينال الفرنسي الذي جعل نفسه وصياً على الملك الصغير لويس الثالث عشر . لقد تمتع ريشيليو بسلطان عظيم ، أعظم بكثير من سلطان المنصور ، ولكنه عمل دائماً لرفعة التاج ولخدمة فرنسا ، وعندما توفي ريشيليو ولويس الثالث عشر وجاءت أيام لويس الرابع عشر وصلت فرنسا إلى أوج القوة والسيادة في أوروبا ، وكان ذلك نتيجة لعمل ريشيليو الذي اجتهد في خدمة فرنسا وتاجها ووجد أمرها وحارب خصومها في الداخل والخارج حتى وصل بها إلى زعامة أوروبا .

ولكن المنصور لم يستطع أن يفعل شيئاً مثل ذلك . لقد حَقَّرَ حكام الخلافة وحَقَّرَ أمرها وحمل عليها وحرض رجاله وأبناءه عليها ، واتجه رأساً إلى القضاء عليها ، وكانت الخلافة القرطبية هي عماد قوة الإسلام والعروبة في الأندلس ، وبدونها تتعرض للفوضى والأخطار ، ولكن المنصور لم ينظر إلى شيء من ذلك ، واتجه إلى تخريب ذلك النظام القيم لكي يجعل نفسه سلطاناً .

وقد ملك المنصور من القوة العسكرية ما لم يملكه أحد غيره في الأندلس ، كان سلطانه أقوى من سلطان محمد الرحمن لناصر ، لأن الناصر رغم نزعته إلى الاستبداد كانت له حدود يعرف كيف يقف عندها ، فهو لا يسرف في لحروب مع الممالك النصرانية ، لعلمه بأن من المستحيل عليه القضاء عليها ، ولهذا كان يكتفي بإضعافها وردعها عن الإغارة على بلاده وإخضاعها لقرطبة وإشعارها بالضعف عن طريق أداء الجزية . أما المنصور فوالى الضربات دون حساب ، وهو في ضرباته لم يحاول أن يقطع جزءاً من أراضيها ويضمه نهائياً إلى أرض الخلافة . لم يحاول مثلاً القضاء على كل أثر لسلطان النصاري جنوب «دويرو» وإسكان المسلمين في الأراضي التي يفتحها ليحول هذه البلاد إلى أرض إسلامية ، لو أنه فعل ذلك لكان من الممكن أن يقال إنه فعل شيئاً حاسماً ، ولكن جيوشه كانت تضرب وتعود بالغنائم ، فيعود النصاري إلى ما كانوا عليه وهكذا حتى النهاية ، فكانه في الواقع لم يفعل شيئاً . كانت هذه السياسة يمكن أن تؤدي إلى نتيجة إذا واصلها الناس بعده لمدة قرن مثلاً ، فإن ذلك كان حرياً بأن يضعف القوى النصرانية إلى حدٍّ لا تستطيع معه أن تفعل شيئاً بعد ذلك ، ولكن المنصور لم يفعل هذا ولم يخلفه من يواصل عمله ، فكانت النتيجة أن النصاري استطاعوا خلال السنوات التي أعقبت موته تجديد قواهم واستقروا بعد ذلك على المسلمين .

ولم ينشئ المنصور في الأندلس شيئاً جديداً : فلا هو أوجد نظاماً جديداً ولا أصلح شيئاً من عيوب النظام القائم ، وأهم ما أنشأه توسيع المسجد الجامع بقدر الثلث من الناحية الشرقية ، وقد أضفى بها الجامع أعظم مساجد بلاد الإسلام من ناحية الحجم والهندسة حتى بلغت مساحته ٢٤٢٠٠ متر مربع ، أي ما يزيد على ستة فدادين ، وليس في الدنيا مسجد ولا كنيسة ولا أثر آخر بهذا الحجم ، باستثناء قصور فرساي . ولم ينقرد الجامع بالحجم فقط ، بل كان طرازه رائعاً حقاً وقد تحدثنا عنه فيما سبق

لم ينشئ المنصور إذن شيئاً ، بل هدم الكثير ، حطم البيت الأموي تحطيماً لم يستطع أن يقوم على قدميه بعده ، وتبع كل من يرجى خير من أفرادِهِ بالقتل والأذى والشريد ، وفعل مثل ذلك بآبناء البيوت الموازية ، نعم لقد خدمه الكثير من رعاياه ، ولكنه جعلهم أشدّ ونداءً وحسبى ، وحسبى لا تنفع أحداً ولا تقم مُقَوِّجاً .

وقد أحاط المنصور نفسه بسياجل كلها ضرر وخطر على المجتمع : أنشأ الجيش البربري الجديد فكان بلاء على الأندلس ، إذ أصبحت القوة العسكرية للبلاد مقسمة إلى قسمين متعاديين . وفي حالة أي اضطراب في النظام لم يكن هناك معر من الحرب الأهلية . وأنشأ ~~المنصور~~ عشرين من رجاله على عريشهم طامعون أنانيون لا يعمر قلوبهم إيمان ، وهؤلاء هم الذين سرثون الأندلس من بعده ويتقاسمون قضايا بينهم . لقد حكم المنصور سبعة وعشرين عاماً هجرية انتهت ليلة الاثنين ٢٧ رمضان ٢٩٢ هـ / ١١ أغسطس ١٠٠٢ م ، ولا نستطيع القول أنها كانت خيراً على الأندلس . لقد أحدث دويلاً كبيراً بأعماله وانتصاراته ، ولكنه كان كالطبل الأجوف : صوت كبير وعمل قليل

وقد أجمعت الروايات الإسلامية على التحدث بمأثر المنصور دون أن تخفى جرائمه ، ومعظمها يصفه بالنقي ويقول إن الجهاد كان قرة عينه ، والحقيقة أن رجالاً من طراز المنصور كانوا لا يتورعون عن الجرائم في سبيل سلطانهم ، أما حذرع السبصار وبعدها عن مناقباته فلا مانع من أن يكونوا ذوي عايشة بريية واهتمام بشئون العبادة والإحسان وما إلى ذلك ، هكذا كان أيضاً أحمد بن طولون وأبو العباس السفاح وغيرهما من جبابرة تاريخنا ، وعلى هذا الأساس من الممكن

أن تتصور كيف كانوا يجمعون بين الإجرام والتقى ، بين الشر الخالص والخير الخالص دون أن يكون في ذلك تعارض ودون أن يحسوا بما يرتكبونه من جرائم .

عبد الملك المظفر بن المنصور

رمضان ٣٩٢ - صفر ٣٩٩ هـ

أغسطس ١٠٠٢ - أكتوبر ١٠٠٨ م

وقد خَلَفَ المنصور في سلطانه أبته عبدُ الملك المظفر الذي تلقى بسيف الدولة وكاث سنه ٢٨ سنة ، وقد ورث عن أبيه ملكاً واسعاً مستقراً في الظاهر ، ولكنه كان في الحقيقة مهدداً بالأخطار ، لأنه رغم استصداره من الخليفة هشام مرسوماً بتفويضه في الحكم ، كان يشعر أنه كان غاصباً ، وكذلك كان كل من حوله ، وكان هناك كثيرون جداً في قرطبة ونواحي الأندلس يتربصون به - وبآل عماله جميعاً - الدوائر .

ولم يكن عبد الملك المظفر لسوء حظ أبيه مؤملاً للوقوف في وجه العقبات التي كان لا بد له من تخطيها ، كان ينقصه العمق الإنساني والتكوين الفكري ، فعلى الرغم من اجتهاد أبيه في تكوينه إلا أنه لم يكن غير جندي جاهل ، تروى وسط الجنود دون أن يكون لديه موهبة القيادة ، فكان طوال حكمه القصير تهباً بين رجائه وأهمهم صفائى من موالى أبيه يسمى « طرفة » ووزير قوى مداور مناوئ يسمى « عيسى بن سعيد بن القطاع » ، وكان الشاب إلى جانب ذلك مسرفاً في الشراب ، لا يكاد يهبط الليل حتى يعقد مجلس الشراب مع رجاله ، وكلهم ثعالب يجتهدون في الفوز منه بأي شيء ، وفي ساعات الشراب كان يستمع لوشايات الوشاة ويصدر أحكاماً عنيفة ، ففك بمولاه طرقة ثم قتل سعيد بن القطاع في مجلس شرابه على أسوأ صورة ، وقد خافه الناس ، وشيئاً فشيئاً تحول هذا الشاب ، الذي تولى الملك في الثامنة والعشرين شاباً تحيط به الآمال وبملا قلوب الناس من ناحية الاستبشار ، إلى طاغية ظلوم غادر ، وقد كان أبوه يعرف كيف يلين حيناً ويشتد حيناً ويقسو ويأسو ، أما هو فلم يكن لديه من ذلك شيء ، وإنه لمن المحزن أن نرى كيف أخذ الفراغ يحيط بهذا الشاب ، إلا من عتاة الجنود والمرتزقين الذين كانوا لا يشيرون عليه بخير أبداً .

وقد قام عبد الملك بن المنصور بغزوات كبيرة لا تخلو من مهارة ، ولكنها كانت من طراز غزوات أسه ، أى أنها كانت ضربات قصيرة الأمد والمضى . غزا قطلونة وبرشلونة سنة ٢٩٣هـ / ١٠٠٣م وأرغم أميرها « رامون بوريل الثالث » على طلب الصلح ، وفى صيف ٢٩٥هـ / ١٠٠٥م غزا أراضى ليون ، وفى صيف ٢٩٦هـ / ١٠٠٦م ، غزا مملكة نبرة واحتل بنبلونة وفى ٢٩٧هـ / ١٠٠٧م غزا كونتية قشتالة ، ثم غزاها مرة أخرى فى العام التالى ، وفيه أيضاً أراد أن يخرج للغزو مرة ثالثة ، ولكنه مرض واشتدت به العلة ، وتوفى ربما من التهاب رئوى فى ١٦ صفر ٢٩٩هـ / ٢١ أكتوبر ١٠٠٨م وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره بعد أن حكم ٧ سنوات فحسب ، كانت سنوات رخاء ونصر ، ولكن الناس كانوا يتوقعون كارثة ربما لأنهم كانوا يتمنون زوال العامريين ، ومن الواضح أن الذى قضى على عبد الملك كان انهماك فى ملذاته ، لأن ما أصابه كان نتيجة استهتاره بصحته وتعرضه للبرد وإسرافه فى السهر حتى أعبى جسده .

عبد الرحمن بن المنصور :

وخلفه أخوه عبد الرحمن الذى تلقب بالمامون ويقل إنه هو الذى قتلته ، وكان شاباً طامشاً قاسياً مجزاً عن انصاف الإحصاءة لحكم السليم . وقد الناس قد ضحكوا ذرعاً باستبداد العامريين وكانت أم عبد الرحمن حفيذة لسانشو غرسيه ملك نبرة ، وكان أبوها سانشو أباركة ذلك الكند الأرغونى أحد الأمراء المطالبين بالعرش والذى أسره المنصور ثم أطلق سراحه وتزوج ابنته ، وكان قد انضم إلى المنصور أملاً فى أن يعينه على الوصول إلى عرش نبرة ، أما أم عبد الرحمن فقد أسلمت وتسمت باسم « عبده » وكان الأندلسيون يعرفون ذلك عنه ولا يستريحون إليه ، أى : لا يستريحون لأن أمه نصرانية فلقبوه بشنجول أو سانشويلو . Sanchuelo أو سانشو الصغير نسبة لأمه بنت سانشو أباركة كما قدمنا ، وكان الناس يكرهونه ويحتقرونه ولم يحتملوا أن يروه قائماً بالامر مكان أبيه المنصور ، وزاد سخطهم عندما سمعوا أن عبد الرحمن شنجول ، يسعى لكى يستصدر مرسوماً بتعيينه ولياً لعهد الخلافة . وقد أنكر الناس ذلك إنكاراً شديداً وفامت قياמתهم لأن الرجل كان من الناحية الأخلاقية أبعد ما يكون عن أن يستحق الخلافة . ولكن عبد الرحمن فعل ذلك وأصبح ولي عهد الخليفة . وبقيت

أمامه خطوة القضاء على الخليفة نفسه لكي يصبح هو صاحب الأمر ، ومن سوء الحظ أن رجالاً مثل القاضي « أبي العباس بن ذكوان » والكاتب « أبي حفص أحمد ابن برد » أيّدوه في ذلك .

مقتل عبد الرحمن بن شنجول وسقوط العامريين :

وبدأ الصراع بين هذا الرجل المتسلق والارستقراطية القرطبية التي طال سكوتها دون أن ترفع صوتها ، وقد أخذ احتجاجها صورة انصراف أفرادها عن لتوافد على قصر الزاهرة ، لأن قادة البربر كانوا يتقدمون عليهم هناك ، فاصدر عبد الرحمن أمراً يلزمهم بلبس العمائم ، وكانت لباس زعماء البربر والتخلي عن أغطية الرأس الأندلسية ، فبدأت الاتصالات بين كبار الأندلسيين وبقايا الأمويين ، وتحدث الناس بأن هناك مؤامرة تدار لإعادة بني أمية إلى السطّان . وأراد عبد الرحمن أن يقوى مركزه بغزوات يقوم بها ، فأعلن أنه خارج لغزو قشتالة في يناير ١٠٠٩ م جمادى الأولى سنة ٣٩٩ هـ ومع تكن العادة أن يخرج الناس لغزو في هذا الوقت ، ونصح الناس شنجول بالأخروج ، ولكنه أصّر ، وقد وصل إلى جليقية وبكه لم يستصع أن يعمل شيئاً نظراً لخبث الأراضى من المزروعات وشدة البرد وهرب النصاري إلى قنن الجبال فقفل واجعاً ، ولم يكد يدخل طيطة حتى بلغه أن ثورة قامت في قرطبة وأن الناس هاجموا مدينة الزاهرة ونهبوا ذخائرها .

ثورة قرطبة وبداية الفتنة الكبرى

١٦ جمادى الأولى ٣٩٩ هـ / ١٥ فبراير ١٠٠٩ م:

وكان ذلك حقاً لأن تفرأ من الباقيين المشردين من بني أمية قرروا انتهاز فرصة ابتعاد عبد الرحمن شنجول والجيش للقيام بالثورة مستعينين في ذلك « بالذلفاء » أم عبد الملك المظفر ، وكانت لا تشك في أن عبد الرحمن شنجول قتل أخاه - ابنها - بالسّم . فاتصلت بنفّر من شبّان بني أمية الساعين في سقوط بني عامر ، وكان زعيمهم شاباً مغامراً يسمى محمد بن هشام بن عبد الجبار وهو من أمّاء عبد الرحمن الناصر . فاتفق هذا الشاب مع أنصاره على أن ينتظروا حتى يدخل عبد الرحمن شنجول أرض النصاري لكي يقوموا بضربتهم ، لأن الجيش

يحتاج إلى شهر لكي يعود من هناك . وبالفعل نفذوا المؤامرة في ١٦ جمادى الأولى ٣٩٩هـ / ١٥ فبراير ١٠٠٩م بسادئين بالهجوم على قصر قرطبة وقتلوه وقاتلوا صاحب المدينة عبد الله بن أبي عامر ، ثم بايع محمد بن عبد الجبار لنفسه وبايعه أصحابه واتخذ لقب المهدي واختار قريباً له يسمى سليمان بن هشام وجعله ولي عهده وأرغم هشاماً (الثاني) المؤيد على التنازل فتنازل بعد أن مكث في منصب الخلافة ٢٣ سنة . كان ذلك يوم الأربعاء ١٧ جمادى الأولى ٣٩٩هـ / ١٦ فبراير ١٠٠٩م ثم تهدمت قصور الزاهرة وتلاشى أمرها في أيام

وعندما وصلت أخبار الانقلاب إلى الجيش تخلى معظم رجائه عن عبد الرحمن بسبب احتقارهم البالغ له ، ونصحه مولاة « واضح » حاكم طليطلة أن يظل مكانه ، ولكن شنجول كان يحسب أنه إذا ما اقترب من قرطبة خرج الناس مرحبين به ، فسار نحوها ورفض زعماء البربر وخاصة « محمد بن يعلى الزناتى » زعيم زناتة أن يوافق عبد الرحمن على اقتحام قرطبة بالقوة ، لأن أولاد البربر وأسرتهم فيها ، ونحى البربر جميعاً عنه وتركوه عندئذ إلى قرطبة لحماية أسرهم ، أما عبد الرحمن ، فمازال يسير حتى وجد نفسه وحيداً وقد تخلى عنه كل الناس وانتهى أمره إلى أن قبض عليه رجال محمد بن عبد الحمار في دير على نهر « أرملاط » قرب قرطبة وقتلوه في ٢ رجب ٣٩٩هـ / ٣ مارس ١٠٠٩م وكانت تلك هى النهاية المحزنة التى انتهت إليها أمر بنى عامر .

والحقيقة أن الثورة كانت على النظام العامرى المستبد كله ، فقد كانت النفوس قد ضاقت بذلك النظام الفاشم الذى لم يخدم إلا مصالح آل عامر ، ثم جاء عبد الرحمن شنجول يطيشه وفساده وقلة تدبره ، فلم يلبث في المنصب أكثر من ثلاثة أشهر ثم كانت الثورة وانتهى النظام بمصرعه ، كما ذكرنا .

الفئنة الكبرى :

من سوء الحظ أن محمد بن هشام بن عبد الجبار كان من أسوأ طراز عرفناه في شياى بنى أمية الأندلسيين ، فقد كان طامشاً قليل التفكير سوقى النزعات لطول ما عاش في لأحياء الفئنة متفكر من رعباء قريسة ، وبذلك انحط نفسه

بطائفة ممن كانوا على شاكلته ، لا يحسنون غير الذهب والسرقة فأثروا الناس أذى شديداً ، ويتد بوضوح أن الأمل الذى علّقه الناس على هذا الرجل لن يلبث أن يتلاشى

لقد تولى محمد بن هشام بن عبد الجبار الأمر دون أن تكون لديه أية فكرة عن الدولة وشئونها ، واتخذ لقب المهدي

وقد أجمع الناس عليه أول الأمر مؤمّنين أنه يستطيع القبض على ناصية الأمور وتسييرها في الطريق الذى سارت عليه إلى الآن . ولكن ابن عبد الجبار لم يقدّر إلا بشيء واحد هو الانتقام من العامريين والاستمتاع بما ظن أنه من حقوق الخلفاء .

ولم يكن الرجل الذى يستدعيه الموقف . فقد كان الوقت وقت انقلاب وقوضى ، ومست الحاجة إلى رجل حاسم حازم يمسك بزمام الأمور ويقرّها في نصيبها ويردع العامة عما أسرفت فيه من الفوضى والتبذير .

وكان لابد كذلك من النظر في العودة إلى قواعد النظام التى قضى عليها المنصور بقسوته واستبداده ، ولكن محمد بن عبد الجبار لم يكن يملك أية موهبة ، كان سفكاً قاسياً منحنط النزعات ولم يهده ذكاؤه إلى شيء غير الاستبداد بالبربر وإذابهم وإهانتهم عقاب لهم على تأييد بني عامر ، ثم الانتقام من العامريين

وقد أساء ابن عبد الجبار التصرف لأنه ناصب البربر العدا . وكان أولئك البربر قد أتى بهم ابن أبي عامر إلى هذه البلاد مرتزقين في أعداد كبيرة يتزعمهم نفر من خيرة زعماء بربر المقيمين الأوسط والأقصى ، وكانوا قد كسبوا مالا عريقاً واتخذوا الأندلس وطناً لهم ، فأراد هذا الرجل أن يقضى عليهم . وكان من واجب ابن عبد الجبار أن يؤمّن البربر على مراكزهم ومكانهم ، فقد أتوا إلى هذه البلاد للاشتراك في الجهاد وألوا بلاء حسناً ، وليس منهم أن ابن أبي عامر استقوى بهم على بني أمية

وكان ذلك خطأ جسيماً منه ، لأن أولئك البربر كانوا قوة كبيرة ولم يكونوا كما ظن يعتبرون أنفسهم رجال العامريين ، بل إنهم بادروا عقب مقتل عبد الرحمن شنجول بإعلان الطاعة للخليفة الجديد ، وهو أنه كان على شيء من

السياسة لقبل ولاءهم ، كما فعل جده عبد الرحمن الناصر عندما تولى وأخذ يستألف الناس حتى استقر له الأمر ، وبدلاً من ذلك نجد محمد بن عبد الجبار يحاول استدلال البربر بل أمر يوماً من الأيام بشيخهم « زاوي بن زيري لصنهاجي » فمتع من دخول القصر وأمين ، وكانت النتيجة أن تخوف منه البربر ووقفوا منه موقف العدا ، فقرر في أواخر مارس ١٠٠٩م / رجب ٣٩٩ إخراج كل البربر الذين كانوا في خدمة المنصور من قرطبة ، فرفض هؤلاء الخروج وبدأ الصراع بين البربر والأندلسيين في عاصمة الخلافة

وكان هذا الانشقاق في الجيش من أسوأ ما أصاب الأندلس لأن الجيش كان درع المملكة ، وهذا الانقسام كسر وحدة الجيش وحرم الدولة من أن تكون لها قوة عسكرية تستطيع الدفاع عنها .

وعقب ذلك مباشرة أعلن محمد بن عبد الجبار المهدي موت هشام المؤيد الخليفة الذي حكم تحت ظل العامريين ، وكان ذلك في ٢٧ شعبان ٣٩٩ هـ / ٢٦ أبريل ١٠٠٩م ودفن هذا الرجل في مشهد في نقر كبير من الناس من بينهم القاضي أبي العباس بن دكوان . ولكن الحقيقة أن هشام المؤيد لم يمت ولم يُقبر ولكن ابن عبد الجبار فعل ذلك ليخلو له الطريق ، وقد سخر الناس في قرطبة من ذلك العمل لأنهم كانوا يعرفون أن هشاماً لم يمت

وخاف البربر من نوايا محمد بن عبد الجبار ، فتجمعوا خارج قرطبة في فحص اسرندق . وقرروا اقتحام قرطبة بالقوة وخساروا لأنفسهم خسارة ، أحفاد الناصر أيضاً ، يسمى سليمان بن هشام ولقبوه « المستعين » وبذلك خرج في البلاد خليفتان : واحد في قرطبة والآخر على رأس البربر .

معركة قنيتش ، نهاية الجيش الأندلسي التقليدي :

وأحسن محمد بن عبد الجبار المهدي أنه لن يستطيع الثبات أمام البربر ، فأرسل يستنجد بالنصارى وخرج ليلقي البربر وكان اللقاء يوم ١١ ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ / نوفمبر سنة ١٠٠٩م في « قنيتش » إلى الشمال الشرقي قليلاً من بلدة « قلبيعة » عند ملتقى وادي « أرملاط » بالوادي الكبير . وفي هذه المعركة

حصدت صفوف الأندلسيين حصداً ، وانتصر البربر ، وفرّ نفرٌ من الأندلسيين الصقلية إلى شرقي الأندلس وعلى رأسهم « واضح العامري » واستقروا في دانية ، وكانت تلك هي نهاية القوات الأندلسية التقليدية الأصيلة التي كان محمد بن أبي عامر قد أضعفها ، وشل حركتها ورفع البربر فوق رجالها فساء حالهم ، تلك القوة العسكرية المجيدة التي طالما كسبت للإسلام في الأندلس نصراً بعد نصير ، وبعد القضاء عليها لم يستطع أحد ممن تولوا الأمر أن ينشئ قوة عسكرية لها قيمة في الأندلس .

ودخل البربر قرطبة وعاثوا فيها فساداً وقتلوا الكثير من أهلها ومن بينهم العالم المشهور « أبو الوليد الغرسي » وفرّ من قرطبة محمد بن عبد الجبار المهدي إلى الثغور وأصبح زاوي بن زيري سيّد الموقف ، فأخرج هشاماً المزيّد من سجنه وتبين بذلك - بوضوح - أنه لم يمّت ولم يدفن ، وفي ١٦ ربيع الأول سنة ٤٠٠ / ٨ نوفمبر ١٠٠٩م دخل زاوي القصر وهناك بايع البربر سليمان المستعين واتخذوه خليفة .

وقد أثبت سليمان المستعين في المدة القصيرة التي تولّاها أنه ليس بكفءٍ للمنصب الذي تولاه واضطرب أمره ولم يحسن زاوي بن زيري رؤية الأمور لأن القرطبيين نفروا من البربر نفوراً شديداً ، وفي نفس الوقت كان واضح الدمرى قد ذهب إلى « أورخل » ولقى راسون يورين الثالث كند يرشلوثة وطلب منهم عوناً عسكرياً فأعطوه فرقة عدد بها ليحارب البربر وعند « عقبة البقر » وهي بليدة صغيرة إلى الشمال من قرطبة التقى جيش البربر ، وعلى رأسهم سليمان المستعين بجيش محمد بن عبد الجبار المهدي وأحلافه من التصاري وفي هذه المعركة انهزم البربر وفر سليمان المستعين وعد زاوي بن زيري إلى قرطبة ولم يطل مقامه فيها بل أخذ أهله وقيل البربر فعله وانسحبوا إلى الجنوب .

النزاع بين محمد بن عبد الجبار المهدي وسليمان المستعين :
عاد محمد بن عبد الجبار المهدي إلى قرطبة وأراد أن يقض على البربر فسار نحوهم مستعيناً هو الآخر بقوة من التصاري وأعانته بها الكونت « أرمنجول »

أمير أورخل ، واستطاع أن ينتصر على سليمان المستعين والبربر في منتصف شوال ٤٠٠هـ / أواخر مايو ١٠١٠ م فعزل البربر على الانصراف إلى أفريقية وجمعوا أمتعتهم وأهملهم وساروا نحو الجنوب وتتبعهم ابن عبد الجبار ومن معه من النصاري .

وكان اللقاء الثاني بينه وبينهم عند نهر وادي « أيسره » في ٦ ذي القعدة سنة ٤٠٠هـ / ٢٦ يونيو ١٠١٠ م وهناك أنهزم محمد بن عبد الجبار المهدي ومن معه من النصارى والبطالين وقتل منهم مائة مائة حتى داس معركة ثلاثة آلاف من النصاري . وعلى أثر ذلك انسحب النصاري إلى بلادهم . وكان « واضح » قد انضم إليه وعندما وقعت الهزيمة تجتمع الصفالية العامريون وعلى رأسهم « واضح » وخيران وعثير « وانسحبوا إلى شاطبة وشرقي الاندلس » ودخل سليمان المستعين مع البربر قرطبة بعد مقتل محمد بن عبد الجبار المهدي في ٢٣ يوليو ١٠٠١ م / ٨ ذي الحجة سنة ٤٠٠هـ وأعلنت خلافة هشام المؤيد للمرة الثالثة .

ولم تطل مدة خلافته هذه المرة لأن البربر دخلوا قرطبة وقتلوا الكثيرين من أهلها ولم يبق في طاعة هشام المؤيد إلا قرطبة وما حولها .

هكذا بدأت الفتنة وتدهورت الأمور ، وقد اجتهد زعماء قرطبة في مصالحة البربر أملاً في عودة الأمور إلى نصابها ، ولكن البربر تمسكوا بدعوة سليمان المستعين فأجيبوا إلى ذلك في شوال ٤٠٢هـ / مايو ١٠١٣ م على يد القاضي أبي العباس بن ذكوان « ودخل سليمان المستعين قرطبة وحاول أن يحكم معتمداً على البربر ولكنه فشل هذه المرة أيضاً ، خاصة وقد أقدم على قتل هشام المؤيد في ١٥ ذي القعدة ٤٠٣هـ / ١٦ مايو ١٠١٣ م وبذلك انتهت حياة ذلك الخليفة المسكين الذي لم يهنا بخلافته يوماً واحداً .

لم يستقر الأمر لسليمان المستعين قط خلال السنوات الثلاث التي قضاها في الخلافة ، ولكن الحقيقة أن جواً من القوضى والرهبة ساد البلاد ، فلم يعد أحد يطمئن إلى أحد ، ولم يظهر رجل ذو كفاية وخلق يستطيع ضبط الأمور ، فتوالت الفتن وكانت المشكلة الرئيسية هي مشكلة ذلك الجند المرتزق الذي أتى به

المنصور وهم الصقالبة من ناحية، والبربر من ناحية أخرى، فأما الصقالبة فقد تركوا الميدان وفروا إلى السواحل الشرقية وحاولوا الاستقرار في أمان في المربة ومرسية، يقودهم زعيم صقلبي يسمى «خيران» وحاول نفر آخر منهم الاستقرار في دنية والجزائر الشرقية، وخاصة «بنو برزال وبنو يفرن»، ومع أن سليمان المستعين وافق على تثبيت المنذر بن يحيى التجيبي في ولاية سرقسطة والثغر الأعلى لكي يستعين به، إلا أن أمره لم يستتب.

ولو أن البربر أخلصوا لسليمان المستعين فربما كان قد صلح أمره ولكن الكثيرين من زعمائهم كانوا يخادعونهم وخاصة «زاوي بن زيري وخبوس بن ماكسن» زعيم البربر الصنهاجيين، الذين كانوا قد وفدوا على المنصور وانضموا إلى حوشه، ثم استقروا بعد الفتنة في غرناطة.

وقد ظهر من بين أولئك الصنهاجيين بيت يسمى بنو حمود، ينتسبون إلى «الدارسة» ولكنهم كانوا قد اندرجوا في جملة البربر بعد نهاية الأدارسة، ثم دخلوا في خدمة المنصور وأولاده، فلما انقضى أمرهم واشتعلت الفتنة تطلعوا إلى الخلافة، وكان سليمان المستعين قد ولي عز بن حمود منهم سبحة، وأخاه القاسم بن حمود الجزيرة الخضراء، فطمع عز في الخلافة وتحالف مع «خيران» الذي رآه في ذلك فرصة وقتل سليمان المستعين وزعيم بنو حمود في سنة ١٠١٨ م ولاء عهده، وبدأ يحكم على أنه خليفة الأندلس، معتمداً على رجاله من الصنهاجيين والزناتيين، وبدأت في تاريخ الخلافة الأفرطية فترة قصيرة من الفوضى هي فترة الحموديين.

ومن الطبيعي ألا يستطيع هذا الدعوى شيئاً كثيراً فلم يلبث أن قتله غلمانه في ٢ ذي القعدة ٤٠٨ هـ / ٢٣ مارس ١٠١٨ م وخلفه أخوه القاسم بتأييد الزناتيين.

عصر الطوائف

كيف بدأ عصر الطوائف :

خلال هذه الحوادث كلها وقف بقية أهل الأندلس ينظرون إلى ما تسفر عنه الأمور ، وكان يتوَّلى معظم ولايات الأندلس نقر من رجال بني عامر أو من أعضاء الحزب العامري إذا استقام هذا التعبير ، وفي هذه الظروف قد انعدمت السلطة المركزية تقريباً . فضعف أولئك الولاء إلى الأفراد بولاياتهم ربشاً تنجى الأمور قرطبة ، ولكن الأمور لم تنجل عن نتيجة واضحة ، وتعاقب على عرش بني أمية عدد من الأمويين الصغار لم يحكم معظمهم إلا فترات قصيرة ، وكان القرطبيون يحاولون أن يؤيدوا أولئك الخلفاء بمزعامة رئيسهم أبي الحزم بن جهور ، وأخيراً ، وعندما ينس القرطبيون من العثور على شخصية أموية تستطيع النهوض بالمسؤولية اجتمع كبار قرطبة في ذي القعدة ٤٢٢ هـ / نوفمبر ١٠٣١ م وتشاوروا في الأمر ثم استقر رأيهم على إلغاء الخلافة القرطبية وعزلوا آخر بني أمية وهو هشام الثالث الملقب بالمعتد ، وقرروا إخراجهم من بلدهم في ١٢ ذي القعدة ٤٢٢ هـ / ٣٠ نوفمبر ١٠٣١ م وبذلك انتهت خلافة بني أمية الأندلسية ، وذهب الخليفة المعتد معزولاً إلى نواحي سرقسطة حيث انتهت حياته في خموس .

هذا القرار الذي اتخذه زعماء قرطبة برئاسة أبي الحزم بن جهور لا يوصف إلا بأنه كارثة ، لأن إلغاء الخلافة كان معناه إلغاء رمز الوحدة ، لأن عمال النواحي والأطراف وحدوا أنفسهم فجأة بدون خليفة ومضطرين إلى أن يتولوا بأنفسهم شؤون ولايتهم ، وهكذا تحول كل منهم إلى أمير في ناحيته ، وتلك هي النقطة التي لا يلاحظها الكثيرون وهي أن عمال النواحي في الأندلس لم يخرجوا على الطاعة ، ولم يستبد كل منهم بناحيته ، ولكن الذي حدث هو أن القرطبيين ألغوا الخلافة ، فلم يكن للعمل مفراً من أن يتحولوا إلى أمراء نواحي ، وبهذا العمل الذي يخلو من كل شعور بالمسؤولية قضى أبو الحزم بن جهور وأنصاره على رمز أوجدته في البلاد وهو أمر لم يحدث قط في التاريخ . لأن خلافة بني العباس مثلاً - رغماً عن ضعفها - ظلت قائمة رمزاً لوحدة المسلمين في المشرق ، وكان ذلك ذا

فائدة عظيمة ، لأن الأمر لم يخل من زعماء ذوي حمية وإخلاص يدخلون في طاعة الخلافة ويشدون أزرها وتنتعش الخلافة من جديد كما حدث في عهد السلاجقة .

هكذا ظهر أمراء النواحي الذين نسميهم بملوك الطوائف ، وهم لم يكونوا ملوكاً ولا ملوك طوائف ، وإنما هم كانوا عمالاً على النواحي استبدوا بالأمر كل في ناحيته ، على النحو الذي وصفناه ، وهم لم يتخذوا القسابة ملكية ولا سلطانية ، وإنما اتخذوا تسميات مثل المعتضد والمعتمد والمستعين ، ولم يكونوا يتزعمون طوائف من سكان الأندلس كما يظن البعض ، فلم تكن هناك طائفة عربية أندلسية يتزعمها بنو عبّاد ، أو طائفة بربرية يتزعمها رجل مثل المأمون بن زنون في طليطلة ، ولا طائفة صقلبية في شرق الأندلس يتزعمها الصقالبة الحميريون ، إنما هم كانوا رؤساء النواحي استبد كل منهم بتأحيته وأراد أن يظهر بمظهر الأمير أو السلطان ، ولم يوفق واحد منهم في ذلك وجرت الحروب بينهم وطمع فيهم النصاري فمأخذوا يفرضون عليهم الإتاوات لأن أحداً منهم لم يكن لديه جيش يستطيع به دفع النصاري عن بلاده .

وينقسم عصر الطوائف تاريخياً إلى ثلاث فترات :

الفترة الأولى : هي فترة الانتظار والترقب فيما بين سقوط العامريين سنة ١٠١٠م وإلغاء الخلافة القرطبية سنة ١٠٢٦م وخلال هذه الفترة جرت الحروب التي ذكرناها بين الأندلسيين وحند العامريين من البربر ، وتعاقب الخلفاء واحداً لآخر واحد وتخربت قرطبة ومدينة الزمراء وكذلك مدينة الزاهرة التي بناها المنصور محمد بن أبي عامر ، ووقف عمال النواحي يرقبون الأمور وينتظرون أن يستقر الأمر عند واحد تعترف به الأندلس كلها لتسير الأمور في مجراها من جديد ، وخلال هذه الفترة القصيرة تدهورت أمور الأندلس كله وتداعت القواعد المتينة التي وضعها أمراء بني أمية وخلفاؤهم وخاصة عبد الرحمن الناصر وبني الحكم المستنصر ، وتنفس مخنق مماليك النصاري في الشمال وطمعوا في بلاد المسلمين وقد تحدثنا عن هذه الفترة .

والفترة الثانية : وتعد من سنة ١٠٢٦ - ١٠٨٥م وهي سنة سقوط طليطلة في يد الفونسو السادس ملك قشتالة وليون

وذلك أن أمراء الطوائف دخلوا في حروب طويلة بعضهم مع بعض ، وكل منهم يريد أن يوسع ناحيته على حساب الآخرين مستعيناً في ذلك بقوات من انصارى يدفع لهم إتاوةً حاسباً أنه يقيم بذلك ملكاً لنفسه على حساب إخوانه المسلمين ، وتلك هي فترة الطوائف حقاً التي انقسم الأندلس فيها إلى وحدات سياسية كثيرة كلها صغيرة وكلها عاجزة عن القيام بأمور نفسها ، وقد هورت الأمور في الأندلس كلها خلال هذه الفترة ، وأهم أمراء الطوائف الذين ظهروا في هذه الفترة هم :

بنو عباد أصحاب إشبيلية : ومؤسس دولتهم محمد بن إسماعيل بن عباد الذي ينتسب إلى لخم ، وكان من رجال الحزب العامري ، فابن أبي عامر هو الذي ولّاه القضاء على إشبيلية ، ومنحه سلطات واسعة ، وعند قيام الفتنة كان أبو الوليد إسماعيل بن محمد بن عباد قاضياً على إشبيلية ، فقدمه أهلها للرئاسة ، وعندما توفي إسماعيل قام بالأمر بعده ابنه محمد بن إسماعيل بن عباد واصطنعه القاسم ابن حمود وأقامه والياً على إشبيلية ، فشهرت نفسه إلى السلطان ، وكان رجلاً واسع الحيلة بعيد الطموح وإن كان مستواه الأخلاقي بعيداً جداً عما ينبغي للقضاة . وما كانت دولة الحموديين تنتهي حتى استبد بالأمير وتلقب بالمعتضد وأعلن لفترة قصيرة الولاء لهشام المؤيد ، وفي النهاية استبد بالأمير ، وخلفه ابنه إسماعيل بن محمد بن عباد الذي غدر بيحيى بن علي بن حمود مولى نعمه سنة ٤٢٧ هـ . وإسماعيل هذا هو الذي انتقل بالبيت العبّادي إلى مظاهر الأمراء ، فأتخذ القصور والجند ، وحاول أن يضم إلى إمارته كل ما استطاع من البلاد لصغيرة إلى جواره وخاصة إمارات البربر الصغيرة مثل قرمونة وأسكنه قرب إشبيلية ، ووقعت الحرب بين أبي القاسم إسماعيل بن عباد وجيرانه وخاصة بني الأفطس أصحاب بطليوس . وقد استعان كل من ابن الأفسس وابن عباد بالانصارى بهستقر الأمر في النهاية إلى شبه هدنة بينهما ، وفي سنة ٤٢٢ هـ صار الأمر في إشبيلية إلى أبي عمر عباد بن إسماعيل بن عباد ، وهو الذي تلقب بالمعتضد ووسع إمارته حتى شملت معظم حوض الوادي الكبير وما يليه جنوباً وهادته أهل قرطبة ، وقد اتخذ هذا الرجل الجند الكثير ، ولكنه لم يستطع أن يحقق وحدة الأندلس كما كان يقول ، خاصة وقد اشتدت الحروب بينه وبين المظفر بن الأفطس صاحب بطليوس ، وقد استمرت الحروب بين بني الأفطس وبين بني

عباد ، وطمع ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون في بلاد المسلمين . وهذا المعتضد بن عباد هو الذي اشتهر أمره في بلاد الأندلس فجعل لنفسه بلاطاً وأحاط نفسه بالشعراء وكان هو نفسه شاعراً ، وهو والد المعتمد بن عبد الشاعر المشهور . وسنحدث عنه . وقد حاول سنة ٤٥٠ هـ أن يستولي على قرطبة ولكنه لم يستطع إلا بعد نهاية بنى جهور جوالى سنة ٤٥٨ هـ .

ثم خلفه ابنه المعتمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد الذى تلقب بالمعتمد واشتهر أمره بالشعر والشعراء ، وفي أيامه بلغت دولة بنى عباد ذروتها في القوة والشهرة ، فقد تمكن المعتمد من ضم قرطبة ومالقة ومرسية ، واستصفي كل إمارات البربر الصغيرة جنوبى الوادى الكبير ، وضم إلى إمارته جزءاً كبيراً من غرب الأندلس ، ولكنه لم يستطع أن يحقق أمل الوحيد لأنه كان إلى جانب اشتهاره بالشعر رجلاً فاسداً ينفق معظم وقته في الشراب محيطاً نفسه بالشعراء وأكبرهم أبو بكر بن عمار ، وسنحدث عن ذلك في نهاية كلامنا عن عصر الطوائف ، وقد انتهت إمارة بنى عباد على يد المرابطين فقد عزل يوسف بن تاشفين عند عبوره الثالث إلى الأندلس ، ونفاه إلى أغمات حيث قضى بقية أيامه في قول الشعر ، وشعره الذى قاله في هذه الفترة هو أجمل شعر قاله في حياته .

دولة بنى ذى النون في طليطلة :

بنو ذى النون أسرة بربرية الأصل قديمة في الأندلس ، وترجع أخبارها عندئذ إلى أيام الإمارة ، فقد تجمعت أعداد من بربر الهواريين عند بلدة تسمى شنتمرية قرب طليطلة ، وهناك قامت لهم عزوة وقام لهم عدد ، وتحولوا إلى أندلسيين من أصل مغربي وتزاوجوا إلى الناس وأصهروا إليهم ونشأت أجيالهم أندلسية .

وكان الأمراء وخاصة في عهد الأمير عبد الله ، إذا وجدوا أسرة من هذا الطراز ذات قوة وعدد ، في ناحية من النواحي تتطلع إلى السلطان استحبوا لطلب رؤسائها في الإسجال لهم على بلدهم أى إعطائهم سيجلاً يخول لهم حكم منطقهم ، إلى جانب العامل المولى من قبل أمير قرطبة وحماية المال والاحتفاظ ببعضه في مقابل تقديم خدمة عسكرية للإمارة في الصوائف ، أو عندما تطلب الإمارة ذلك ، وكان ذلك نوعاً من الإقطاع شبيهاً بالإقطاع الغربى الذى ساد أوربا في العصور

الوسطى مع فارق ظاهر ، وهو أن الإقطاع العربى كان يُعطى المُقَطَّع السلطان على الأرض والناس ، أى أن المُقَطَّع ويسمى في المصطلح الغربى بالفصل كان يصبح سيد أرض الناحية وأهلها ، أما في الإقطاع الإسلامى ، فالإقطاع إقطاع الأرض وحدها وما فيها من موارد الدخل ، مثل جسر يعبر عليه الناس أو نهز يستقون منه أو موضع يقيمون فيه سوقهم . أما الناس فكانوا يظلون رعية الإمام في قرطبة ولا سلطان للمقطع عليهم .

وفي عهد عبد الرحمن الناصر رأينا أن بيت زنون ، وهكذا كان يسمى في الصيغة البربرية ، حاول أن يلتوى على الناصر ولكن الناصر أجبرهم على الطاعة وقص من أطراف قوتهم ، وكذلك المنصور محمد بن أبى عامر الذى أرغمهم على القتال في جيوشه وأرغمهم كذلك على دفع إتاوات مالية منتظمة لمعاونته فيما كان يقوم به من حملات على بلاد تُصَدَّرى . وقد دخل بنو زنون - الذين عَرَّبُوا اسمهم إلى ذى التُّون - في جملة الحزب لعمري وأصبحوا من رجال حاكم قرطبة المستبد بامرهم .

وكانت طليطلة ولاية واسعة تبدأ من قلعة أيوب ومدينة سالم في الشمال ، ولا تنتهى إلا قرب مجرى الوادى الكبير في أحواز بلد يسمى « قبذة » . أما من الشرق فكانت طليطلة تبدأ عند « قونكة » ولا تنتهى إلا عند أحواز ما يعرف اليوم بالبرتغال . فكانت بذلك تكون نحو خمس مساحة الأندلس الإسلامى .

وعندما قامت الفتنة سنة ١٠٠٩ م كان يتولى أمر شنتمرية رجل في بيت ذى النون يسمى يحيى ، فاستدعاه أهل طليطلة لكي يستقوا به على تصارى الشمال فأصبحت ولاية طليطلة من أملاك بنى ذى النون ، وعندما زالت الخلافة سنة ١٠٣١ م اتخذ يحيى بن ذى النون لقب المأمون ، وأخذ لنفسه ظاهر الملكية الذى اتخذه أمراء الطوائف في ذلك العصر ، ولكن لم تكن له قوة عسكرية كافية لتدويع عن يلائه ، وكان هو يحسب أنه إذا صانع ملوك النصارى المجاورين له استطاع أن يعيش معهم في سلام . وفي الحق كان ذلك يبدو ممكناً في ذلك الحين ، لأن الممالك النصرانية المجاورة له كانت من الضعف والضعف بحيث لا يخشى خطرهما ، وخاصة بعد ما كان من ضعفها على يد عبد الرحمن الناصر وأحكام المستنصر والمنصور محمد بن أبى عامر ، فكانت تقوم إلى غربى طليطلة إمارة

صغيرة هي كونتيتنة قشتالة ، وقاعدتها برغش ، وكان يحكمها اكنناد ضعاف تابعون لملوك ليون ، وقد حدث في أول قيام الفتنة أن ملك ليون توفى وخلفه ابنؤه فتحاربوا فيما بينهم وانتهى الأمر إلى واحد منهم يسمى سانشو فطرد أخاه ألفونسو ونفاه إلى طليطلة ، فأقام ضيقاً على المأمون ذي النون سنوات طويلة عرق فيها أحوال البلد وأدرك الحقيقة الكبيرة ، وهي أن طليطلة كلها لا تمك خمسمائة فارس فاستقر رأيه على الاستيلاء عليها إذا أمكنته الفرصة من ذلك .

وحدث بعد ذلك أن قُتل أخوه سانشو واستدعاه النبلاء وألوه ملكاً ، فأصبح يسمى ملك قشتالة وليون وتلقب بلقب ألفونسو السادس ، فلم يكد يستقر على العرش حتى بدأ يمهّد للاستيلاء على طليطلة ، وفي سنة ١٠٦٧ هـ / ١٠٧٥ م توفى المأمون ذي النون ، وخلفه حفيد له في غاية الضعف والقدرة السياسية والعسكرية يُسمى يحيى الذي تلقب بالقادر ، وفي أيامه استقلت بلنسية عن طليطلة ، وكانت من تابعيها ، وتشاط ألفونسو السادس في تحقيق حلمه بالاستيلاء على طليطلة ، فعرض على المأمون ذي النون أن يحميه من جيرانه فوافق ، وبذلك أصبحت طليطنة حماية قشتالة ليونية ، وصارت تدفع الجزية للملك الفصرائي ، وقد تنهز هذا الأخير فرصة خلاف بين أمير طليطنة الضعيف ورجال دولته ، وخاصة أسرة بني الحديدي من الوزراء ونخل البلد بقوته سنة ١٠٧٨ هـ / ١٠٨٦ م وبذلك دخلت ضيقة كمن يك أراضيه في مملكة ليون وقشتالة وسوساً عن الملك أمير الفرس السادس يحيى القادر من ذي النون صاحب طليطنة بولاية بلنسية وأرسل معه جماعة من الفرسان على رأسهم قارس سمي ألرهانس فدخل يحيى بن ذي النون بلنسية في حماية النصارى .

المهم لدينا ، وهذه هي الحقيقة التي نريد أن نتضح عليها هنا ، أن مملكة ليون التي كانت إلى الآن مملكة صغيرة وقدرتها تتكون من أراضٍ صغيرة ، سبغها ليون وأشهريس وجليقية ، ليس فيها مدينة جديدة بالذكر إلا أبيض وليون وربما أشترقة . أصبحت فجأة مملكة ضخمة تضاعفت مساحتها ثلاث مرات ونخل فيها من عندهم ابن شطليطلة وشهريرة ومدينة سالو ومدينة بون وديون وغيرها بالإضافة إلى ما كان منضمّاً إليها قبلاً من أراضي كونتيتنة قشتالة ، أي أن ألفونسو السادس انتقل فجأة من ملك صغير فقير إلى أكبر ملوك الجزيرة ،

الوسطى مع فارق ظاهر ، وهو أن الإقطاع العربى كان يُعطى المُقَطَّع السلطان على الأرض والناس ، أى أن المُقَطَّع ويسمى في المصطلح الغربى بالفصل كان يصبح سيد أرض الناحية وأهلها ، أما في الإقطاع الإسلامى ، فالإقطاع إنقطاع الأرض وحدها وما فيها من موارد الدخل ، مثل جسر يعبر عليه الناس أو نهر يستقون منه أو موضع يقيمون فيه سوقهم ، أما الناس فكانوا يظلون رعية الإمام في قرطبة ولا سلطان للمقطع عليهم .

وفي عهد عبد الرحمن الناصر رأينا أن بيت زنون ، وهكذا كان يسمى في الصيغة البربرية ، حاول أن يلتوى على الناصر ولكن الناصر أجبرهم على الطاعة وقص من أطراف قوتهم ، وكذلك المنصور محمد بن أبى عامر الذى أرغمهم على القتال في جيوشه وأرغمهم كذلك على دفع إتاوات مالية منتظمة لمعاونتة فيما كان يقوم به من حملات على بلاد النصارى . وقد دخل بنو زنون - الذين عرّبوا اسمهم إلى ذى النون - في جملة الحزب العامرى وأصبحوا من رجال حاكم قرطبة المستبد بأمره .

وكانت طليطلة ولاية واسعة تبدأ من قلعة أيوب ومدينة سالم في الشمال ، ولا تنتهى إلا قرب مجرى لسوادي الكبير في أحواز بلد يسمى « قبضة » . أما من الشرق فكانت طليطلة تبدأ عند « فونكة » ولا تنتهى إلا عند أحواز ما يعرف اليوم بالبرتغال . فكانت بذلك تكون نحو خمس مساحة الأندلس الإسلامى .

وعندما قامت الفتنة سنة ١٠٩ - ١٠٩ م كان يتولى أمر شتمرية رجل في بيت ذى النون يسمى يحيى ، فاستدعاه أهل طليطلة لكي يستقووا به على نصارى الشمال فأصبحت ولاية طليطلة من أملاك بنى ذى النون ، وعندما زالت الخلافة سنة ١٠٣١ م اتخذ يحيى بن ذى النون لقب الخامون ، وأخذ لنفسه قاهر الملكية الذى اتخذهُ أمراء الطوائف في ذلك العصر ، ولكن لم تكن له قوة عسكرية كافية لتزود عن بلاده ، وكان هو يحسب أنه إذا صانع ملوك النصارى المجاورين له استطاع أن يعيش معهم في سلام ، وفي الحق كان ذلك يبدو ممكناً في ذلك الحين ، لأن الممالك النصرانية المجاورة له كانت من الضعف بحيث لا يخشى خطرهما ، وخاصة بعد ما كن من ضعفها على يد عبد الرحمن الناصر ولحكم المستنصر والمنصور محمد بن أبى عامر ، فكانت تقوم في غربى طليطلة إمارة

صغيرة هي كومتينة قشتالة ، وقاعدتها برغش ، وكان يحكمها اكناد ضعاف ، تابعون لملوك ليون ، وقد حدث في أول قيام الفتح أن ملك ليون توفي وخلفه أبناؤه فتحاربوا فيما بينهم وانتهى الأمر إلى واحد منهم يسمى سانشو فطرد أخاه ألفونسو ونفاه إلى طليطلة ، فأقام ضيقاً على المأمون ذي النون سنوات طويلة عرق فيها أحوال البلد وأدركه الجوع والكثرة ، وهي أن طليطلة كلها لا تملك خمسمائة فارس فاستقر رأيه على الاستيلاء عليها إذا أسكتته الفرصة من ذلك .

وحدث بعد ذلك أن قُتل أخوه سانشو واستدعاه القبلاء وولّوه ملكاً ، فأصبح يسمى ملك قشتالة وليون وتلقب بلقب ألفونسو السادس ، فلم يكد يستقر على العرش حتى بدأ يمهّد للاستيلاء على طليطلة ، وفي سنة ٤٦٧هـ / ١٠٧٥م توفي المأمون ذو النون ، وخلفه حفيد له في غاية الضعف والقدرة السياسية والعسكرية يُسمى يحيى الذي تلقب بالقادر ، وفي أيامه استقلت بنسبة عن طليطلة ، وكانت من تابعها ، ونشط ألفونسو السادس في تحقيق حلمه بالاستيلاء على طليطلة ، فعرض على المأمون ذي النون أن يحميه من جيرانه فوافق ، وبذلك أصبحت طليطلة حماية قشتالية ليونية ، وصارت تدفع الجزية للملك النصراني ، وقد انتهز هذا الأخير فرصة خلاف بين أمير طليطلة الضعيف ورجال دولته ، وخاصة أسرة بني الحديد من الوزراء ودخل البلد بقوة سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٦م وبذلك دخلت طليطلة كلها بكل أراضيها في مملكة ليون وقشتالة ، وعوضاً عن ذلك عين ألفونسو السادس يحيى القادر بن ذي النون صاحب طليطلة مولايه بالنسبة وأرسل معه جماعة من الفرسان على رأسهم فارس يسمى ألبرهاتس فدخل يحيى بن ذي النون بنسبة في حماية النصراني .

المهم لدينا ، وهذه هي الحقيقة التي نريد أن نتصّ عليها هنا ، أن مملكة ليون التي كانت في الآن مملكة صغيرة فقد تتكون من رأس رعية صغير المساحة على الساحل وخليجية ، ليس فيها مدينة جديدة بل في الشمال ليون وريوس الشرقية ، أصبحت فجأة مملكة ضخمة تضاعفت مساحتها ثلاث مرات ودخل فيها من بلاد اسبانيا طليطلة وشبه جزيرة إيبيريا والبرتغال وريوس وريوس ، بالإضافة إلى ما كان منضم إليها من أراضي كومتينة قشتالة ، فاستقر ألفونسو السادس لتتقل فجأة من ملك صغير فقير إلى أكبر ملوك الجزيرة .

وأصبح معروفه ورصيده أراضي الكند صاحب السلطة المعبود وشيء لا يدرى
غير يملك أولاً مسحة ليزن (مصممة من (لبنان وضحية) ، تومسية ق...
كلى نزل هارده ضيقة ، وأصبح بسا الرضة شمس على الرية نور كلى بدل
لا تسمى فهو وجاورها جميعا وفريسة بعض من غير سقطه اضرار الطوائف من
أعمال الشبيبية ويطلقون وسهولة وفى رزمن التى تسمى يشتتيرية العرب
وبلسسة .

وتلك هي الحقيقة الرئيسية التى تهم المعنى بدراسة تاريخ الأندلس
الإسلامي فإن مصيبة عصر الطوائف ، لم تقتصر على تقسيم أراضي الأندلس إلى
ولايات صغيرة مستضعفة ، بل إن هذه الأقسام المستضعفة كانت تجاور إمارات
نصرانية عاشت دائماً تحت تهديد خلافة قرطبة ، وكانت حياتها في ذلك الحين
شظفاً ، كما كانت تربي أراضي المسلمين إلى جوارها بدون حماية حتى انقضت
عليها ووسعت أراضيها على حسابها وتحولت من إمارات تكافح للبقاء إلى ممالك
تعمل على توسيع رقعتها وتطمع في الاستيلاء على بقية شبه الجزيرة ، ولهذا فإن
الفكرة الكبيرة التى يدير عليها الكثير من مؤرخي الإسبان تاريخ إسبانيا في
العصور الوسطى وهي فكرة الاسترداد La Reconquista ترجع بالذات
إلى ذلك العصر ، أما قبل ذلك فقد كن هم الممالك النصرانية هو العيش في سلام
من غزوات المسلمين .

أما القول بأن شر ما كان في عصر الطوائف هو انقسام البلاد إلى إمارات
صغيرة فذلك في ذاته ليس بخطأ كبير ، ففي بلاد الإسلام في الشرق كانت البلاد
وخاصة في الشام والعراق مقسمة في كثير من الأحيان إلى دويلات صغيرة ، ولكن
لم يكن يهددها خطر سياسي ديني كبير كهذا ، ولهذا لم يكن للانقسام في ذاته تلك
الخطورة

ولكى نوضح الأمر نقول إن خلفاء قرطبة في أيام عبد الرحمن الناصر
والمستنصر والمنصور أي خلال العصر العاشر الميلادي الذهبي كانوا يفضّل
قوتهم ونشاطهم هم الذين يتصرفون في عروش الممالك النصرانية ، ففي أيام عبد
الرحمن الناصر تدخل هذا الخليفة لكي يعين غرسيه سانشو الأول ملك على
بيلونة سنة ٩٢٤م وكذلك تدخل عبد الرحمن لكي يصبح سانجو الأول الملقب
بالجلف (الكراسو) حاكماً على ليون سنة ٩٥٦م وفي أية مناسبة أسدى فيها ملوك

النصارى أية محاولة للخروج على طاعة قرطبة ، كان الخلفاء ورجالهم يبدرون بالقيام بحملات التاديب ، بل بن عبد الرحمن الناصر دخل بقواته بنبلونة ليؤدب ملكها ، ودخل المنصور بقواته مدينة ليون عاصمة مملكة ليون ووصل بغاراته إلى جليقية ودخل « شنت ياقب » في وسط جليقية ، وقام ابنه عبد الملك المظفر بدخول برشلونة وكان ينوي إسكانها المسلمين وبالفعل نقل إليها الآلاف منهم وذلك قبل أن تقع كارثة طليطلة بأش من نصف قرن ، وهذا وحده يعطينا فكرة عن مدى التحول الكبير الذي أصاب الأندلس في عصر الطوائف

إمارة بلنسية :

أشرنا فيما مضى إلى أن بلنسية كانت من توبع طليطلة ، وحقيقة الأمر في بلنسية التي تقع في شرق الأندلس وتعتبر إلى اليوم من أغنى أقاليمه ، صارت بعد سقوط الخلافة إلى نقر من صقلية العامريين ، ثم بايع الصقالبة في حكمها حفيداً للمنصور بن أبي عامر يسمى عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور سنة ٤١١هـ / ١٠٢١م وتلقب بالمنتصور وتوفي هذا سنة ٤٥٢هـ / ١٠٦١م فخلفه ابنه عبد الملك الملقب بالمظفر ، الذي تزوج ابنة ليحيى المأمون بن ذي النون ، وانتهى الأمر بأن اتحدت الإمارات وعهد المأمون في حكمها إلى أبي بكر محمد بن عبد العزيز الملقب بابن رويش ، حتى إذا استولى الفونسو السادس على طليطلة أخرج ابن رويش هذا وصار الأمر إلى يحيى القادر بن ذي النون في حماية فرسانه من النصارى الذين كان يرأسهم البرهانس الذي ذكرناه ، وهو ابن أخى فارس نصراني آخر سيكون له دور سيئ في تاريخ المسلمين في الأندلس في ذلك العصر وهو رودريجو ديبيلار الملقب بالسيد القميطور Rodrigo de Vivar E Cid Campeador ويسميه العرب بصاحب الفتح

كان هذا الرجل وأصله قشتالي يخدم ملوك ليون ، وكان يؤيد الملك سانشو أخ الفونسو الذي ذكرناه ، فلما صار الأمر إلى ألفونسو الذي تلقب بإسباس ، وأصبح يسمى ملك قشتالة وليون ، اختلف معه السيد فنفي إلى بلاط سرقسطة وعاش في وسط المسلمين وكلم العربية واستخدمه بنو هود في أعمالهم العسكرية ومن هنا كسب لقب السيد وهو لقب عربي ثم صالح الملك ألفونسو إسباس بعد

استيلائه على طليطلة ثم انفصل عنه وكون جماعة من أهل الحراة ، ومـ
المصطلح الإسلامي اقاتلون الذين يدفعون الطريق ، ونجمت إليه أعداد منهم
ووجد أن بلنسية مملكة ضعيفة في حماية الفونسو السادس ملك ليون ، وأخذ
يُغير على أرضها وهي عاجزة عن الدفاع .

وشيثا قشينا اشتد كَلْبُهُ عليها وطمعه فيها وحاصرها ، وَرَدَّادَتْ أَعْدَادُ اأذعار
والسَّراق في جيشه ، وكان أمر بلنسية في يد ذلك الضعيف المسمى يحيى القادر ،
يعاونه قاضى البلد وهو أبو جعفر أحمد بن جحاف . وأخذ أسيد يحاصرها كي
يستولى عليها ويجعلها إمارة خاصة به ، وأخيراً تمكن بعد حصار طويل وحشى
بصفه لنا مؤرخ عربى يسمى ابن علقمة في كتاب له يسمى « البيان الواضح عن
الملم لقادح » حتى بلغ الجهد بالناس أن أكلوا كل ما لديهم وصار السيد يحرم
عليهم الخروج من البلد . وازداد الأمر سوءاً حتى اضطر البلد إلى أن يفتح أبوابه
للسيد القمبيطور سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م فحكمها سنتين ، حكم فيها بالثوت
حرقاً على قاضىها أبي جعفر أحمد بن جحاف ونفر من كبار أهلها وذلك في حمادى
الأولى سنة ٤٨٨ هـ ، فارتكب بذلك جريمة من أشنع ما ارتكب في ذلك العصر ، وفي
ذلك الحين كان المرابطون قد دخلوا الأندلس وتمكنوا في النهاية من استعادة
بلنسية على يد القائد عبد الله محمد بن عائشة بن يوسف بن تاشفين ، فخرج إليها
من جزيرة شكر ولم يستطع الدخول ، فتولى الأمر من بعده القائد أبو محمد بن
مزدلى وهو ابن عم ليوسف بن تاشفين وعلى يده دخل المرابطون بلنسية سنة
٤٩٥ هـ / ١٠٠٢ م وأعادوها للإسلام بعد أن ذاق أهلها الويلات ، كما رأينا

وإنما وقفنا عند كارثة بلنسية ومصيبة طليطلة لكي نوضح الحالة السيئة
التي انتهت إليها أمر المسلمين في الأندلس بعد أن تفرقت وحدتهم . وأصبح
الأندلس الإسلامي فريسة سائقة أمام ملوك النصارى ، وقد تعودنا أن نلوم ملوك
النصارى على ما أخذوا من أرض المسلمين ، ونعتقد أن هذا العرض الذى تقدمه
يدعو إلى إعادة التفكير في ذلك الموضوع لأن الحياة على هذه الأرض صراع ، ولدينا
كما يقول ابن جبير - لمن غلب .

إمارة سرقسطة :

قامت إمارة سرقسطة عند انتشار عقد الخلافة فيما كان يعرف بالشعر الأعلى

الأندلسي ، وهو الحوض الأدنى لنهر الأبرو وعاصمته سرقسطة وتتبعها بلاد كثيرة في تلك الساحة الجبلية الوعرة ، وتجاور في الشمال مملكة أرغون وفي الشمال الغربي مملكة نبرة ، وفي الشرق مملكة برشلونة . وبعد سقوط طليطلة أصبحت تجاور مملكة ليون وقشتالة من الغرب والجنوب ، ومعنى ذلك أن هذه الإمارة أصبحت محاطة بملوك انصارى ، ولا طريق لها إلى بلاد المسلمين إلا عن طريق إمارة السهلة أو شنتمرية في الشرق وطرطونة قرب مصب نهر الأبرو .

وكان يحكم هذه الإمارة الواسعة أول الأمر التجيبيون وأصلهم من القوط ، ثم اسمو واستعربوا وطورا يحكمون هذه الإمارة . وكان لهم فيها سريخ منيع . ثم صارت إلى نقر من رجالهم وهم بنو هود ، وأولهم أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود الجذامي (٤٢١ - ٤٢٨ هـ / ١٠٢١ - ١٠٤٦ م) وكان هذا الرجل كفيته من رجل الثغر الأعلى رجلاً محارباً عفاً مسطوحاً حراً تدعى من الفارسين وحرساً وكان يسيطر على عواصم الثغر الأعلى الأربعة ، وهي سرقسطة وطليطلة وشقة ولاردة ، ولم يكن على هذه الإمارة خوف حتى سقطت طليطلة ، فازداد الخطر عليها .

ذلك أن المستعين بن هود عندما توفى كان قد قسّم أملاكه بين أبنائه الخمسة وهم الصراع بينهم ، وكان الظاهر بينهم هو أبو جعفر أحمد الملقب بالمقتدر ، وفي أيامه دبّر الفونسو السادس ، الذي كان يتولى ملك أرغون ويلقب بالمحارب حملة أراد بها أن يستولى على سرقسطة ففشل ، قمضى يحاول أن يستعين بملوك انصارى على التخل من بلاد المسلمين ، فجمع أعداداً كبيرة من انصارى من شمال إسبانيا وأوربا ولجأ إلى البايوية ، وتمكن الصليبيون الغربيون من مفاجأة بلد إسلامي صغير يسمى « بريشتر » على بعد ٦٠ كم شمال شرق سرقسطة ، وكان متطرفاً على حدود إمارة بريطانيا النصرانية ، وتمكن المهاجمون من التغلب عليها وكان يحكمها واحد من أولاد المستعين ، وهو حسام الدولة الملقب بالخلعز ، وكان نزولهم عليها في شعبان ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م حيث أنزلوا بأهلها مذبحه بشعة بقيادة فارس نورماندى يسمى « دى مونتروى » ، وقد بارك البابا إسكندر الثالث كل ما عمله انصارى في ذلك البلد من أقاعيل شنيعة استنكروها حتى مؤرخو أوربا ، وقد بلغ عدد من أسير من بنات المسلمين فيها وبيع في الأسواق خمسة آلاف

وكانت هذه الكارثة مما أثار الرعب في قلوب أهل الأندلس ، فأحسوا بأنهم لم يعودوا يعيشون في أمان أو حماية ، وإلى مثل هذه الكارثة وكارثة بلنسية التي ذكرناها يرجع ياسر جمهور الأندلس في بلادهم وبدء هجرتهم وفقدانهم الثبات والجمالية ، وفي مثل هذه العصور عندما تفقد الأمة ثقافتها في نفسها لا يثبت رجالها للقتال ويملكهم الرعب فتتوالى الهزائم .

ولم تسترجع بربرشرو إلا في جمادى الأولى ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م على يد أحمد ابن هود الذي تلقب بالمقتدر .

وقد ظل بنو هود يحكمون سرقسطة وثغرها أو ما بقي من ثغرها حتى حاول ألفونسو السادس الاستيلاء عليها ولكنه ارتد عنها سنة ٤٧٩ هـ عندما علم بتزول المرابطين الأندلس ، فتصدى لحرب أرغون أميرها أحمد المستعين واستطاع أن يرد ألفونسو المحارب قرب طليطلة عند بلدة بلنيرة في رجب ٥٠٣ هـ / ١١١٠ م ، وفيها استشهد أبو جعفر أحمد المستعين وخلفه ابنه أبو مروان عبد الملك الملقب بعماد الدولة

وبعد دخول المرابطين الأندلس دخل أمراء سرقسطة في طاعتهم ، ولكنهم لم يخلصوا لهم بل أئثروا الدحول في طاعة ملوك أرغون ، وفي أواخر سنة ٥٠٣ هـ نحد أبا مروان عبد الملك عماد الدولة يتنازل عن بلدة طليطلة لألفونسو المحارب سنة ٥٠٣ هـ ويقطعه هذا بدلا منها أراضي في بلاد قشتالة ، وبعد وفاة عماد الدولة هذا في شعبان ٥٢٠ هـ خلفه أبنائه وأخبرهم المستعين بالله الذي دخل في طاعة الملك النصراني ، وفي سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م دخل ألفونسو المحارب ملك أرغون سرقسطة ، وبذلك تضاعف حجم مملكته وانتقلت من طور إلى طور كما حدث بالنسبة لقشتالة وليون ، إذ أن مملكة أرغون صدعت نفسها على حساب إمارة سرقسطة التي كانت أول الأمر مملكة صغيرة في جبال اليراس فأصبحت الآن تمتد حتى تشمل وادي الأيبرو الأدنى والأوسط وأصبحت بذلك من كبار الممالك النصرانية .

وبهذه المناسبة نقول إن أول الممالك النصرانية انتعاشاً وظهوراً نتيجة لانتشار عقد خلافة الأندلس كانت مملكة ثيرة ، التي كانت تسمى إلى ذلك الحين مملكة بنبلونة ، وكانت مملكة صغيرة يسميها المسلمون أرض الشكوتس ، وفي سنة

١٠٠٤م أي بعد موت المنصور بن أبي عامر بسنتين تولى أمير بنبلونة ملك هُمام يسمى سانشو الكبير (١٠٠٤ - ١٠٣٥ م) وقد تمكن هذا الرجل الذي تعلم في فرنسا من أن ينظم مملكته الصغيرة ويضاهي بها مملكة الفرنجة في فرنسا ، واتصل بالبابوية وأخذ من البابا تفويضاً بمغازاة المسلمين ، وصار يفكر في الاستيلاء على أراضٍ منهم ، وبدأ يتوحيدها بعض الإمارات النصرانية القائمة في جبال البُرت ، مبتدئاً بإمارة « ريبا جورثا » (١٠١٨ - ١٠٢٥ م) ثم أدخل في طاعته كوث - قشتالة . وفي سنة ١٠٣٠م دخل في طاعته هرمودر الثالث ملك ليون وكذلك كوث برشلونة بيرنجير رامون الأول الملقب بالمنحني (انكوريو) .

ومعنى ذلك أن إمارة بنبلونة التي رأينا عبد الرحمن الناصر يدخلها ويقع عليها قائده حاكماً أصبحت الآن وبعد زوال خلافة قرطبة مملكة يحسب لها حساب ، ولكن سيادة نبرة أو بنبلونة لم تستمر لأن ذلك الملك عندما توفي سنة ١٠٣٥م كان قد قسّم أملاكه بين أولاده تحت وصاية ابنه الأكبر تمرسيه دنياخرة ١٠٣٥ - ١٠٥٤م ولكن فرناندو الأول ملك ليون تمكن من التخلص من سلطان نبرة وثار عليها بقية ملوك النصراني من أمثال فرناندو الأول ملك ليون وقشتالة وراميرو الأول ملك أرغون فتقاسما أملاكها ، وتوزعت أراضيها بين هاتين المملكتين . وقد رأينا كيف قامت على اكتاف المسلمين قوة مملكتي ليون وقشتالة في ناحية ، ومملكة أرغون من ناحية أخرى ،

أي أننا الآن أمام مملكتين تصراويتين قويتين تهددان أمن أراضي المسلمين الأولى ليون وقشتالة والثانية أرغون .

إمارة إشبيلية :

تعتبر دولة بني عباد أصحاب إشبيلية أشهر دول الطوائف وإن لم تكن أقواها ، لأن أقواها بالفعل دولة بني هود في الشجر الأعلى ، وأصل بني عباد عرب ، وقد استقروا أول الأمر في شلب في غرب الأندلس ، وترجع شهرتهم إلى حدهم إسماعيل بن عباد الذي عينه المنصور بن أبي عامر قاضياً على إشبيلية فبدأ تاريخهم في ذلك البلد ، لأنهم عند إغناء الخلافة وجد إسماعيل بن عباد الفرصة

سانحة للاستبداد بأمر إشبيلية ، لأن أهلها قدموه لرياسة حتى تنجى الفتنة ، وبعد وفاته خلفه ابنه أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد ، وفي أيامه خلا الجو لبني عباد للرياسة بزوال الخلافة نهائياً ، ثم جاء بعده ابنه أبو عمر عباد بن محمد بن إسماعيل وهو الذي تلقب بالمعتضد .

وترجع قوة بني عباد إلى ما تميز به جدهم إسماعيل بن عباد من مهارة سياسية وقدرة على جمع المال ، ونكاته الذي جعله يسود أهل إشبيلية جميعاً ، وقد بايع أبو عمر عباد بن محمد الملقب بالمعتضد للقاسم بن حمود عندما ادعى الخلافة ، ولكن عندما طرد هذا الرجل من قرطبة وأراد اللجوء إلى إشبيلية ، أقفل المعتضد أبوابها وتنكر له واجتمع مع اثنين من كبار البلد هما أبو عبد الله الزبيدي والوزير أبو محمد عبد الله بن ياريم ، ومضى الثلاثة يدبرون أمر البلد ، ابتداء من سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢٢ م ثم انفرد المعتضد بالأمر .

وقد دخل أبو عمر عباد بن محمد الملقب بالمعتضد في حروب طويلة مع جيرانه لكي يمد رقعة كورة إشبيلية ويجعلها تشمل غرب الأندلس كله وجنوبه ، واقترب في هذا السبيل جنائيات أخلاقية كبيرة ، وضرب لمعاصريه أسوأ المثل ، وهو المستول إلى حد كبير عن ذلك النوع من الأخلاقيات غير الإسلامية أو غير العربية الذي ساد ذلك العصر في الأندلس وأدى إلى ضياع أمر الإسلام والعروبة في الجزيرة

ذلك أن أبا عمر عباد بن محمد الملقب بالمعتضد ، لم يكن يقيم للأخلاقيات أي وزن ، وكان همه منصرفاً إلى جمع المال بأي طريق وتدبير المؤامرات لجيرانه واعدوان عليهم وخاصة من استضعفهم من أمثال البكرين أصحاب ولعة وشنتيش وبعض أمراء الطوائف من البربر في قرمونة وسنكة وناكرنة وما إليه ، أما في مواجهة ملوك قشتالة فنجد أن ذلك الرجل يتهافت ويؤدى الجزية ويعرض الطاعة دون أن يفكر في أن يدعو إخوانه من ملوك الطوائف المجاورين للوقوف صفاً واحداً أمام العدو وقتلاً ، فقد دفع الجزية لفردنو الأول ملك ليون ثم انه لآلفونسو السادس ملك قشتالة وليون رهبة شديدة ، وخاصة بعد أن استولى هذا على طليطلة سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، وقد اشتهر أمر هذا الرجل بأشياء بشعة مثل حديقة البرؤوس ، وأصصها هي جماعم أعدائه ، بعد أن يقتلهم ، فيستعملها أصصاً للزهور وكان يتفاخر بذلك ، وقد تمكن من توسيع رقعة بلاده على حساب المسلمين وتوفي سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م .

وبمناسبة الإتاوات أو الجزى التى كان ملوك الطوائف هؤلاء يدفعونها إلى هذه النصارى لسر صومهم وبأسى، حاسبهم بغير أن يكون نصارى، إنما كانوا فى الحقيقة أضعف من ملوك الطوائف، وبلاذهم فى الغالب كانت أصغر. فمملكة أرغون التى استولت فيما بعد على الثغر الأعلى من أصحابه بنى هود، كانت مساحتها لا تزيد على تلك إمارة الثغر الأعلى الأندلسية وكانت ثروتها أقل بكثير. فلم يكن فيها من المدن ما يضاهى مدن الثغر الأعلى مثل سرقسطة وتطيلة ووشقة ولارمة. ومع ذلك فإننا نجد بن يهود يتخاذلون تخاذلاً مخجلاً ويؤدون الجزية إلى جازهم الأرغونى. ولم تتحول أرغون إلى مملكة يحسب لها حساب إلا بعد أن استولت على الثغر الأعلى، فزادت مساحتها ثلاث مرات وتضاعفت ثروتها عشرات المرات. وكذلك الأمر مع مملكة ليون التى أصبحت مملكة قشتالة وليون، لم تصبح مملكة لها قدر وقوة إلا بعد استيلائها على طليطلة

ويستوقف النظر أن ملوك الطوائف هؤلاء، كانوا يؤدون إلى ملوك النصارى مبالغ من الذهب لا تصدق، فقد اتفق - مثلاً - المقتدر بن هود صاحب سرقسطة والثغر الأعلى مع سانشو دجينا - Sancho de Penalen كان عليهم بمقتضاه أن يدفع كل شهر ١٠٦٩ قطعة من الذهب. وكان يدفع فى نفس الوقت إتاوة أخرى إلى كوت أورخل غير محددة القدر، فإذا قدونا وزن القطعة الذهبية الإسلامية فى ذلك العصر بنحو جرامين، فإن مجموع ما كان يدفعه صاحب سرقسطة ملك نبرة بزن عشرين كيلو جراماً من الذهب فى العام. ولا بد أن نضيف إلى ذلك ما كان يدفعه إلى الكونت أورخل، وكان أصحاب إشبيلية يدفعون أكثر من ذلك المبلغ لملك قشتالة وليون، ولا بد أن ملوك الطوائف الآخرين كانوا يدفعون ما يقارب هذه المقادير من الذهب، ومعنى ذلك أن أمراء الطوائف كانوا ينتهون بلادهم نهياً ليدفعوا الملوك النصارى، فكانهم لم يكتفوا بإعطائهم الأراضى، بل قدموا لهم أيضاً الأموال اللازمة للتعمير، فالملك سانشو الكبير (١٠٠٤ - ١٠٣٥ م) وكونت برشلونة رامون بيرنجير، الأول (١٠٢٥ - ١٠٧٦ م) تقاضيا من أمراء المسلمين مقادير لا تُصدق من الذهب. والملك فورتاندو الأول ملك قشتالة (١٠٣٧ - ١٠٦٥ م) كان يتقاضى من طليطلة قبل أن تسقط ضعف ما كان يدفع أصحاب سرقسطة لملوك نبرة، ومعنى ذلك أن بلاد النصارى كانت تحصل دون عناء على

ذهب كثير ، مكن لهم من إنشاء المدن وتكوين الجيوش وتسليحها وتعمير الاراضي .

وكان ملوك إسبانيا النصرانية يتقاسمون هذه الأموال مع أشرف دولتهم ورجال اسدين ، وكان هؤلاء يشترون الاراضي والعقارات بهذه الأموال ، وإلى هذا ترجع الثروات الضخمة التي تجمعت في أيدي القلة الممتازة من أهل البلاد النصرانية ، وكان نتيجة ذلك أيضاً غنى البلاد النصرانية وفقر بلاد الإسلام ، وقد ذكرنا فيما سبق أن عبد الرحمن الناصر كان يدخر كل عام ثلث الجباية . وعندما توفي عن خمسين سنة من الحكم ، خلف بيوت مال مفعمة ، وكذلك خلفها المنتصرون ابن أبي عامر ، فأنفق ذلك كله هؤلاء السفهاء أمراء الطوائف بتصرفهم الذي يندر أن نجد له شبيهة في حواريات الإسلام .

وميزيد الأمر غرابة غرور أولئك الأمراء ومحاولتهم الظهور بمظهر ملك مع بعدهم عن كل شارة من شاراته ، فالظفر بن الأفطس صاحب بطليوس عندما حدثوه في أمر توحيد بلاد المسلمين ، قال كلمة كبيرة استعظمها أهل العصر ، وهي أنه لو جاءني أبو بكر وعمر ونازعاني هذا الميت لقرعتهما بالسيف ، ومع ذلك فقد كان هذا الرجل يؤدي الجزية صاغراً لملك قشتالة .

والمعتمد بن عباد الذي خلف أباه المعتمد سنة ٤٦١هـ - ١٠٦٩م يُعتبر نموذجاً لذلك التناقض الغريب في أخلاق أولئك الناس فهو يؤدي الجزية إلى الملك النصراني ، ويستولي الملك النصراني منه على الحصون فلا يجروق على الاعتراض ، ولكنه يأبى أن يناقسه صاحب بطليوس على حصن صغير ويتحدث كأنه ملك عظيم ، وينفق يسخاء كأنه يملك مال قارون ويحيط نفسه بهالة من الشعراء يقولون فيه من الشعر ما لم يقله أحد في هارون الرشيد ، ويزعم أنه عربي أصيل ، ومع ذلك فهو يقتل وزيره ابن عمار بيده ، فلا زال يضربه بالطربيزين (الفاص) حتى مات ، وابن عمار هذا اسمه أبو بكر ، وهو من كبار شعراء عصر الصوائف ، رجل لا خلاق له ، بل لا يلمس الإنسان في تصرفه إشارة من أخلاق أو كرامة ، فهو غادر كاذب ، ماجن مسرف في الخمر ، وهو لم يتردد في خيانة سيده وصاحبه المعتمد بن عباد ، لكي يصبح هو الآخر أميراً على بلده وهو مرسية ، ولم يزل يجري في غلوائه حتى قبض عليه عباده وباعاه بيع الرقيق للمعتمد بن عباد ، فقتله

كما ذكرنا ، ومن غريب الأمر أن ذلك الرجل أبا بكر محمد بن عمار كان يقول الشعر في سهولة يصعب تصوُّرها ، وإنه لو كان على شيء من الخلق لكان له شأن غير هذا الشأن .

وقد تمكن بنو عباد من ضم قرطبة إلى إمارة إشبيلية ، وقضوا بذلك على دولة بنى جهور فزال أمرهم حزاء وفاق على ما اقترفوا في حق الأندلس من إلغاء الخلافة طمعاً في الرياسة .

ويطول الأمر لو مضينا نتحدث عن بقية ملوك الطوائف فهم كثيرون ، وكلهم على هذه الشاكلة خلُقاً وتصرفاً ، ففي غرناطة مثلاً انفرد بالسلطان بنو زيري ابن زاوي ، وأنشأ ماكسن بن زيري إمارة بربرية وخلَّقه عليها حفيده الأمر أبو عبدالله الزيري وكان أميراً مستضعفاً لا شخصية له حتى عزله يوسف بن تاشفين ونفاه إلى المغرب ، وفي متفاه كتب مذكراته وهي من الوثائق التاريخية النادرة ، فهي مذكرات صريحة بسيحة تكشف لنا عن حقائق الحيدة في داخل هذه الإمارة البربرية ، ومنها نتبين سوء الحال وإسراف الجند وهو ماكسن بن زيري في الشراب ، حتى كان لا يفيق كما يقول حفيده ، ومن خلال هذه المذكرات أيضاً نرى سلطات نساء القصر واستبدادهن بالأمور .

وتذكر إلى جانب هذه الإمارة إمارة بنى صمادح أصحاب المرية وكانوا من نفس طراز بنى عباد أناثية وتخاذلاً ، وبنى الأفطس أصحاب بطليوس وآخرهم المنوكل عمر بن محمد بن الأفطس ، وكان هذا الرجل من أكثر الناس ثقافتاً على ملوك النصاري ، فاشتد طمعهم فيه وأخذ الفونسو السادس يدبر للاستيلاء على بطليوس ، كما استولى على طليطلة ، وهنا فقط فكر بنو الأفطس في أن يستعينوا بالمرابطين على رغمهم .

تدخل المرابطين :

ولو أن الأمور تراكمت على هذا النحو لضاع الأندلس كله قبل نهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، فقد شرعت نقوس ملوك النصاري إلى بلاد المسلمين ، ومضى كل منهم بقطع من أراضهم ما يستطيع حتى كبار فرسان النصاري من أمثال البرهانس والسيد القمبيطور تسلطوا على نواح من

بلاد الإسلام وسادوها وأذاقوا أهلها الويلات ، ومهما يقال في اهتمام ملوك الصوائف بالعلوم أو بالشعر ، فإن ذلك لا يغفر لهم ، وما الذي يستفيد الإسلام من غناية رجل مثل المعتمد بن عباد بالشعر ورعايته لشعراء أمجاد من أمثال ابن عمار وابن عبدون وابن خفاجة إذا كانت النتيجة أن بلاد الإسلام وأغروية نفسها ستضيع ، ولا يبقى فيها من يقرأ هذا الشعر^{١٩}

كان عصراً أليماً حزيناً تصرف فيه أولو الأمر في الأندلس تصرفاً لا يتفق بحال على ما عُرف من عزة الأندلس أيام بني أمية . ولقد كان تسلط أولئك الأمراء على رعاياهم وإلحاحهم عليهم بالمضالم والمضارم من أسباب فقر البلاد ونزوح الناس عن المزارع ، لأن أهل القرى لم يعودوا يجدون من يحميهم فتركوا قراهم وتحصنوا داخل أسوار المدن ، ومعنى ذلك أنه عندما انتهى عصر ملوك الصوائف وأقبل المرابطون كان أمراء الطوائف قد أفقروا البلاد وأضعفوها وذهبوا برعاياهم وصيعوا معظم أراضيها . ولم يكن تدخل المرابطين مصادفة فقد ذكرنا أن المتوكل بن لأفطس وجد نفسه مضطراً إلى الاستعانة بالمرابطين وكان أمرهم قد ستقر في المغرب الأقصى كله ، واتجه يوسف بن تاشفين إلى ضم المغرب الأوسط وهنا وصل وفد من فقهاء الأندلس مرسلاً من الأمراء يستغيثون . وكان يوسف بن تاشفين مشرئفة إلى الجهاد ، فعبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس عبوره الأول في ربيع الأول ٤٧٩ هـ / يوليو ٨٦٠ م وانضم إليه قوام من شيبيلية ومن غرناطة ، أما بنو الأفطس أصحاب بطليوس - وهم الذين كانوا مهددين رأساً - فلم يرسلوا معونة كأنهم خافوا أن ينتزع المرابطون منهم البلاد ، وربما كان أحسنهم نفساً الأمير عبدالله الزيرى صاحب غرناطة ، فقال في مذكراته لمسماة بالتبئين : «ولقينا أمير المسلمين في طريقه إلى بطليوس في جريشة ولقينا من كرمه وتحفّيه بنا ما زادنا به رغبة ، ولو استطعنا أن نمنحه لحومنا ، فضلاً عن أموالنا لفعلنا» .

وكانت وجهة يوسف بن تاشفين بطليوس ، وفي مروره بإشبيلية انضم إليه المعتمد بن عباد بقواته ، ثم اضطّر المتوكل بن الأفطس إلى اللحاق بهم وتكاملت أعداد المسلمين وصدقّت نيتهم على الجهاد بفضل قيادة يوسف بن تاشفين .

وعندما سمع ألفونسو السادس بأنباء نزول المرابطين رفع الحصار عن

سرقسطة ، وكَاتِبَ ملك أرغون ، وهو سانشو بن راميروت وطلب تجددات من
فرنسا وإيطاليا وسار في أعداد ضخمة وعلى مقدمته الفارس « البرهانس » .

وكان اللقاء في فحص الرلاقة قرب مدينة بظلبوس ، في صباح الجمعة ١٢
رجب ٤٧٩ هـ / ٢٢ أكتوبر ١٠٨٦ م وكانت طلائع المسلمين بقيادة المعتمد بن
عباد ، وقد أبلى هذا الرجل بلاءً حميداً في تلك المعركة كَفَّرَ به عن بعض ذنوبه ، ثم
انقضت جموع المرابطين على قوات النصاري فأبادت معظمها ، وانتهى ذلك اليوم
بنصر حاسم للمسلمين ، كانت نتيجته ثوقف تقدم النصاري وثبات حدود
الإسلام على ما وجدها عليه يوسف بن تاشفين .

وقد عبر يوسف بن تاشفين مرةً ثانيةً بعد ذلك ، وكانت وجهته حصناً يسمى
لابيط Aledo وهذا تبين تخاؤل أمراء الطوائف فاستقر رأيه على عزلهم وذلك هو
الذي حدث عندما عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس في رجب ٤٨٢ هـ / سبتمبر
١٠٩٠ م فقد عزلهم يوسف بن تاشفين جميعاً ووحد بلاد الأندلس فيما عدا إمارة
سرقسطة التي وجد يوسف بن تاشفين ألا يزعم أصحابها لأنهم محاصرون
بالنصارى من كل ناحية ، وقد خاف أنه إذا فعل شيئاً أن يسلموا بلادهم
لنصارى فتركهم على حالهم ، وبذلك انتهى عهد الطوائف وبدأ عصر المرابطين في
الأندلس .

جهاد المرابطين في الأندلس :

منذ أن كسب المرابطون موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٧ م إلى زوال
دولتهم الذي يُؤرَّخ له عادة بسنة ٥٢٩ هـ / ١١٤٤ م وهي السنة التي تولى فيها
تاشفين بن علي ثالث أمراء المرابطين عند وهران ، ظل المرابطون قائمين بالدفاع
عن الإسلام في الجزيرة الأندلسية ، وعلى الرغم من مسئولياتهم الجسيمة في
المغربين الأقصى والأوسط ، فإن الدفاع عن الإسلام في الأندلس كان عملهم
الرتبسي ، ففيه أنفقوا معظم أموالهم وفيه جاهدوا واستشهد خيرة رجالهم من
أمثال أبي عبد الله محمد بن يوسف بن تاشفين أخى أمير المسلمين يوسف بن

تاشفين الذى يعرف « بابن عائشة » أو ابن « تعيشت » ومعناه ابن عائشة ، لأن المرابطين كما ذكرنا ، كانوا يتسبون الرجال في أحيان كثيرة إلى أمهاتهم نظراً لأنهم كانوا يعتقدون الزوجات وكل زوجة تريد أن تسعى لبنها محمداً أو عبد الله ، فكانوا ممتازون إلا من عن أخيه منسبته إلى أمه ، وأبو عبد الله هذا هو الذى تولى الجهاد في شرق الأندلس واشترك في معركة أقليم سنة ٥٠١ هـ ، وقد أصيب هذا الرجل في عينيه عقب وقعة عنيفة مع جيوش أرغون في موضع يسمى « البرد » Congost de Martorell سنة ٥٠٨ هـ ، وأبو محمد عبد الله بن قاطمة ، وهو الذى استنقذ بلنسية من يد النصارى بعد وفاة السيد القعبيطور بمعاونة قائد المرابطين مزديلى ابن سلتكان في سنة ٤٩٥ هـ ، ثم غزا طليطلة وطليبرة ، وتولى بلنسية وشرق الأندلس ، واشترك كذلك في معركة أقليم ، وختم حياته عاملاً على إشبيلية حيث توفى سنة ٥١١ هـ وخلفه في الجهاد ابنه محمد بن مزديلى بن سلتكان الذى تولى الجهاد في الأندلس زمناً طويلاً وفيه استشهد ، وكذلك تميم بن يوسف بن تاشفين آخر أمير المسلمين على بن يوسف ، وغيرهم كثيرون ممن دفعوا حياتهم دفاعاً في سبيل الإسلام الأندلسي .

ومن سبب مصادقات أن القرن لهجرى الخامس / الحادى عشر الميلادى حفل بالكبار من ملوك إسبانيا النصرانية ، الذين كرسوا أنفسهم لحرب المسلمين مستغلين فرصة ضعف ملوك الطوائف ، وما كسبوه من المسلمين نتيجة لسوء تصرف أولئك الأمراء من أمثال ألفونسو السادس ملك أرغون وهو الذى استولى على طليطلة سنة ١٠٨٥ م ثم انتصر عليه يوسف بن تاشفين في معركة الزلاقة . وقد تولى هذا الملك بعد وقعة أقليم التى سنذكرها فيما بعد بقليل ، وألفونسو الأول ملك أرغون الملقب بالمحارب (١١٠٤ - ١١٢٤ م) وهو الذى تغلب على سرقسطة وانتزعها من أيدي بني هود سنة ١١١٨ م ، وقد سبق أن ذكرنا أن المرابطين تركوا سرقسطة لبني هود ظناً منهم أنهم يحسنون الدفاع عنها . وكذلك رامون بيرنجير الرابع كونت قطلونية وهو الذى استولى فيما بين سنتي ١١٤٨ - ١١٤٩ م على طرطوشة ولاردة ، وضفها إلى بلاده . ومع أن أولئك الملوك النصارى قد تضاعفت ثرواتهم وقواهم العسكرية واستعانوا بالبابوية وبلاد غرب أوروبا المسيحية ، إلا أن المرابطين عرفوا كيف يثبتون لهم ، ويوقفون التقدم

النصراني ، ولولا هم لضاع الأندلس قبل نهاية القرن الحادى عشر الميلادى كما ذكرنا .

وقد كسب المرابطون انتصارات كبرى فى الأندلس إلى جانب معركة الزلاقة ، نذكر من بينها معركة أقليش فى شوال ٥٠١ هـ / مايو ١١٠٨ م وقد استولوا فيها على شنتيرية القريبة من طليطلة ، ثم حاصروا حصن أقليش شرقى طليطلة وأرسل إليهم ألفونسو السادس جيشاً جعل فيه خيرة قواده حتى سميت المعركة بمعركة الأكناد السبعة ، وجعل فى الجيش ابنه الوحيد شانجو ولى العهد ، وقد انتصر الموحدون فى تلك المعركة وقتل فيها ولى العهد ، ولم يلبث ألفونسو السادس أن توفى متأثراً بفقد ولده فى أواخر سنة ٥٠٢ هـ / يونيو ١١٠٩ م .

وفى سنة ٥٠٢ هـ تجد جيشاً مرابطاً كبيراً يغزو أراضى طليطلة للمرة الثانية ويستولى مرة أخرى على طليطلة .

وفى سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٦ م يتمكن المرابطون من استعادة الجزائر الشرقية وهى ميورقة ومنورقة ويابسة ، وهى المعروفة بالبليار ، من رجال الجمهوريات الإيطالية وهى بيشة وجنوة الذين انضم إليهم رجال من كونتية برشلونة ، وكان الذى تولى استرجاع هذه الجزر هو صاحب البحر اى أمير البحر المرابطى أبو عبد الله محمد بن ميعون الذى يعتبر من أبطال الجهاد الإسلاميين فى البحر فى عصرى المرابطين والموحدين . وكان استرجاع هذه الجزر ذا اثر بعيد فى مستقبل الأندلس كلها ، لأنها لو بقيت فى أيدي النصراني لأصبحت خطراً يهدد شرق الأندلس كله .

ولا يمنع ذلك من القول بأنه دارت على المسلمين خلال ذلك العصر بعض الهزائم الأسيفة من أمثال وقعة « كنتده » (ربيع الأول ٥١٤ هـ / يونيو ١١٢٠ م) وقد كان يقود المسلمين فيها أبو إسحق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين آخر على ابن يوسف ، وكنتده تقع فى حيز مدينة « داروقه » من أعمال سرقسطة ، وقد استشهد فيها من المسلمين ألفوف ، لأن الأندلسيين الذين خرجوا للجهاد مع المرابطين لم ينتظموا فى الصفوف وتسارعوا فى الهجوم على العدو فاختل مصاف الجيش فكانت الهزيمة ، وقد مات فيها نفر من كبار علماء الأندلس ، نذكر منهم أبا علي الصدفى المعروف بإبن سكرته (٤٥٢ / ٥١٤ هـ) وكان من أكبر علماء

الأندلس وقد ألف عنه ابن الأثير (أبو عبد الله محمد القاضي) كتاباً من أحسن الكتب وهو المعجم في أصحاب أبي علي الصدوق .

ومن الأحداث الجديرة بالذكر في الأندلس خلال العصر المرابطي ما وقع من خيطة نفوس المعاهدين من نصاري الأندلس للمسلمين واستدعائهم للملك العونسي الأول الملقب بالحارب ملك أرغون ، ومعاونته على اختراق بلاد المسلمين من الشمال إلى الجنوب والعيش في نواحيها خلال سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م وكانت نتيجة ذلك أن طلب الفقيه أبو الوليد بن رشد الفيلسوف إلى علي بن يوسف بضرورة اتخاذ قرار بشأن أولئك المعاهدين الذين كانوا سبباً في تلك الكارثة ، فنفى عن بن يوسف الكثيرين منهم إلى بلاد المغرب ، وقد بالغ بعض مؤرخي إسبانيا في الحملة على المرابطين لهذا السبب ولكن الحقيقة أن الذين نفوا كانوا عدداً قليلاً

ونختم هذا الكلام عن جهاد المرابطين في الأندلس بالكلام عن وقعة أفراغة جنوب غربي لاردة في الثغر الأعلى الأندلسي سنة ٥٢٨هـ / ١١٣٤م ، وقد قاد المسلمين فيها أبو زكريا يحيى بن غانية والي بلنسية ومرسية ، والذي يعتبر من أكبر قادة المرابطين وهو جد بني غانية الذين قادوا فتنة كبيرة على الموحدين في الجزائر الشرقية وبلاد أفريقية ، وقد انتصر يحيى بن غانية في تلك المعركة على الفونسو الحارب نصراً كبيراً خلّد ذكره وقفز به إلى الصفوف الأولى من صفوف قادة المرابطين .

نهاية المرابطين في الأندلس :

وبينما كان المرابطون ماضين في جهادهم ضد النصاري في الأندلس وعاملين على بناء المغرب الإسلامي ، قامت عليهم ثورة المصامدة يقودهم فيها محمد بن تومرت منشئ دولة الموحدين . وقد سبق أن ذكرنا في كتابنا على المرابطين فيما أوردنا في تاريخ المغرب ، أن محمد بن تومرت قاد ضد المرابطين ثورة ظالمة ، وحال بينهم وبين إكمال رسالتهم ، لأن هذه الفئة المجاهدة من المسلمين لم تكن تستحق هذا الانقلاب العنيف الذي قام به ابن تومرت عليهم ، فقصف عُمر دولتهم وهي في عنقوان عمها وجهادها ، وأسوأ نتائج قيام محمد بن تومرت بهذه

لحملة على المرابطين هو أن الجهاد موقوف في الأندلس . وبعد أن كان المرابطون يكسبون النصر ثلثو النصر ويستعيدون ما ضاع من بلاد المسلمين مثل بلنسية ، بدأت الهزائم تتوالى عليهم لأنهم اضطروا إلى سحب قواتهم من الأندلس فسقطت مرقسطة في أيدي القونسيو المحارب ملك أرغون سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م ، ثم سقطت المرية في يد رجال جنرة وبيثة سنة ٥٤٢ هـ (وقد استعادها الموحدون بعد ذلك) ، وفي شوال سنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٨ م سقطت طرطوشة في يد رامون بيرنجير الرابع كونت قطلونية ، وفي العام التالي سقطت لاردة بخيانة أندلسي من الذين قاموا على المرابطين ، وهو محمد بن سعد بن مردينش وكان ذلك سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧٢ م وكان يعاونه في ذلك صهره إبراهيم بن هاشك وهذان الرجلان ابن مرهانيش وابن هاشك مسئولان إلى حد بعيد عما أصاب الإسلام في شرق الأندلس في أواخر العصر المرابطي وخلال العصر الموحدى . وبعد وفاة تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين ثالث أمراء المرابطين في ٢٧ رمضان ٥٢٧ هـ / ١١٤٥ م توالى سقوط العواصم الأندلسية في يد النصاري بسبب انشغال المرابطين بالدفاع عن أنفسهم في الأندلس

وزاد مركز المرابطين تحرجاً في الأندلس قيلم نفر من رؤساء النواحي في الأندلس بالثورة عليهم متهمين بفرصة انشغال المرابطين بحرب الموحدين . ومن اكبر التأثيرين عليهم الذين كان لهم أسوأ الأثر في مصير الأندلس هو القاضي ابن « حمدين » الذي قاد ثورة على المرابطين وضاردهم في قرطبة ، وابن قسى الذي فعل مثل ذلك بالفعل في بطليوس . والخلاصة أن المرابطين لقوا من أهل الأندلس شر الجزاء على ما فعلوا في سبيل إنقاذ الإسلام الأندلسي . وإن الإنسان ليتعجب من أمر أولئك الأندلسيين الذين لم يحسنوا الانتفاع بالفرصة التي أتاحت لهم من تكريس المرابطين أنفسهم للدفاع عن الأندلس ، بل أخذوا يتندرون بهم ويتعالون عليهم حاسبين أنفسهم أعي حضارة وأرقى جنساً من أولئك الأفارقة ، فكانت النتيجة أن اضاعوا أنفسهم وبلادهم ، لأن الموحدين عندما يخلقون المرابطين ويحلون محلهم في الجهاد في الأندلس لم يسدوا مسدّهم قط ، وفي أيامهم انهارت خطوط الدفاع الأندلسي فلم يبق للمسلمين في الأندلس في نهاية عصر الموحدين إلا مملكة غرناطة .

الموحدون في الأندلس :

بعد أن تم للموحدين القضاء على المرابطين في شوال ٥٤١ هـ بمقتل أبي إسحق إبراهيم بن تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين ، اتجهت همة عبد المؤمن بن علي أول خلفاء الموحدين إلى ضم ما بقي للمسلمين في الأندلس إلى دولته ، وقد بدأ بذلك في وقت مبكر ، لأن الكثيرين من زعماء نواحي الأندلس عندما بلغهم خبر قيام الموحدين على المرابطين قسوا على أنفسهم أن يوالواهم ، كما ذكرنا فكان ذلك دافعا لعبد المؤمن للعبور إلى الأندلس بعد أن تم له بسط سلطانه على نواحي المغرب الأقصى ، وبعد أن استطاع توحيد المغرب كله إلى قفصة وطرابلس سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م التي تسمى في المغرب بسنة الأخماس ، ففي نهاية تلك السنة عبر عبد المؤمن بن علي إلى الأندلس واستقر في إشبيلية وصم إلى ملكه ما بقي للمسلمين في شبه الجزيرة ، وكانت حدوده تمر شمال نهر الوادي الكبير وتبدأ في الغرب عند الأشبونة ، وتنتهي في الشرق عند مرسية .

وقد وضع عبد المؤمن بن علي نظاما لا بأس به للدفاع عن الأندلس لجعل عاصمته قرطبة بعد أن كانت إشبيلية في أيام المرابطين ، وقد عاد الموحدون إلى إشبيلية بعد ذلك ، ولكن قرطبة اعتبرت المركز العسكري ، وأقام عبد المؤمن على قواعد الأندلس ولاة من رجال بيته الملقين بالسادة والفرد سيد وهذا هو اللقب الذي كان يطلق على أفراد البيت الموحدى .

وقد تمكن عبد المؤمن بن علي قبل موته من توحيد معظم ما بقي من الأندلس تحت رايته ، ولم يخرج عن طاعته إلا بنو غانية الذين تولوا أمر ، دائية ، أولا ، ولا يستطيع الموحدين أن يعيدوا إلى الجزيرة الشرقية وذلك فاست ثورتهم التي سيطول أمرها .

كذلك رفض الصاعقة للموحدين محمد بن سعد بن مردانيش رئيس مرسية وصهر إبراهيم بن همشك وكائنا يستعينان بالنصارى على المسلمين ولكن الموحدين تمكنوا من الانتصار على محمد بن سعد بن مردانيش في موقعة فحص الحلاب مما أدى إلى انضمام بني مردانيش إلى الموحدين أيام أبي يعقوب يوسف ثاني خلفاء الموحدين .

وفي أواخر أيام عبد المؤمن بن علي انتفض ألفونسو أنريكي Alfonso Enrique ملك البرتغال الذي تسميه مراجعنا بابن الرنق الفرصة لكي يوسع ملكه على حساب المسلمين في غرب الأندلس ، وكانت إمارة البرتغال حديثة الانفصال عن قشتالة ، وكان أمراؤها يحاولون أن يوسعوا ملكهم ، وكان غرب الأندلس مجال توسعهم ، ولهذا فبينما كان شرق الأندلس هو ميدان لنشاط الكثير للمجاهدين المرابطين ، كان غرب الأندلس مجال نشاط الموحدين في الأندلس ، ففي سنة ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م حاول ألفونسو أنريكي الاستيلاء على الأشبونة فلم يستطع ، ولكنه استعان بنفر من الصليبيين الانجليز والألمان والهولنديين الذين كانوا ذاهبين للحرب في المشرق وأغراهم بمعاونته في الاستيلاء على قصر أبي دانس وشلب ، وقد تمكن الموحدون من استعادة شلب ، أما قصر أبي دانس وكانت من أكبر حصون الإسلام في الأندلس فلم تعد إلى الإسلام بعد ذلك ، وبعد ذلك بقليل استولى البرتغاليون على شنترين .

هنا تنبه الموحدون إلى ضرورة القيام بعمل حاسم في الأندلس ، فاستقر رأي أبي يعقوب يوسف ثاني خدقاء الموحدين على أن يقوم بعمل حاسم غرب الأندلس ، وبالفعل حاول سنة ٥٨٠ هـ أن يستعيد شنترين شمال شرق لشبونة ، وكاد يستولي عليها لولا أنه أصيب بمرض مفاجئ فرفع الحصار ولم يلبث أن توفي في ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ / يوليو ١١٨٤ م وخلفه أكبر أبنائه أبو يوسف يعقوب الذي تلقب بالمنصور ، والذي يعثر أكبر شخصية في تاريخ الموحدين بعد محمد ابن تومرت وعبد المؤمن بن علي .

وقد قرر هذا الخليفة الموحدي أن يقوم بحملة كبرى على الأندلس ، فبعد سنة ٥٨٦ هـ واستعاد شلب ، وحاول استعادة قصر أبي دانس ثم عاد إلى إشبيلية . وفي سنة ١١٥٧ م توفي ألفونسو السابع ملك قشتالة وبعد حرب أهلية على العرش تولى امر مملكة قشتالة وليون ألفونسو الثامن الذي بدأ فعقد صلح مع الموحدين سنة ٥٨٦ هـ وعندما انتهت مدة هذا الصلح ٥٩٠ هـ / ١١٩٤ م بدأ بمهاجمة أراضي المسلمين فغير أبو يوسف يعقوب إلى الأندلس في جيش ضخم سنة ٥٩١ م وكانت وجهته الحقيقية طليطلة ، ولكن ألفونسو الثامن عجل بالمسير نحوه ، وكان أبو يوسف يعقوب قد احتشد احتشاداً عظيماً لتلك الحملة ، فالتقى معه خير مقاتلي

الموحدين وضم إليهم أحسن مقاتلي الأندلس ، وبعد في نفوس رجاله حماساً دينياً عظيماً ، وخافه الفونسو الثامن ، فاستعان بالبابوية وملك إسبانيا النصرانية وسار في جيش ضخم من قلعة رباح ، وعسكر عند حصن يسمى الأرك في نهاية الطريق المؤدى من طليطلة إلى قرطبة ، وبدأت المعركة الحاسمة في التاسع من شعبان ٥٩١ هـ / يوليو ١١٩٥ م وقد انجلت المعركة عن نصر حاسم للمسلمين ، حُصرت فيه صفوف الإسبان ، وتمكن المسلمون من كسر حدة الموجة النصرانية ، وتعتبر هذه المعركة أختاً لمعركة الزلاقة ، وكان لها أبعاد الأثر في تثبيت جبهة الإسلام الأندلسي لمدة قرن كامل من الزمان على الأقل .

وبعد معركة الأرك عاد المنصور إلى إشبيلية وأخذ ينظم أمور الأندلس وشرع في إكمال مسجدها الجامع الذي اشتهر بمئذنته الباقية إلى اليوم وهي المعروفة بالدوارة أو الخيرالدة .

وبعد هذه الهزيمة عقدت هدنة بين الموحدين والنصارى سنة ٥٩٤ هـ / ١١٩٨ م ولكن الفونسو الثامن ما كان ليستكت على تلك الهزيمة ، فأخذ بعد العدة للقاء ثانٍ مع الموحدين ، وبدأ في ذلك سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م أي قبل انتهاء أجن الهدنة ، وكان أبو يوسف يعقوب المنصور قد توفي في ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ وخلفه ابنه محمد الملقب بالناصر لدين الله ولم تكن له كفاءة أبيه ، وعرف ذلك الفونسو الثامن فقرر أن يستفيد من تلك الفرصة ، وجمع جيشاً ضخماً وسار قاصداً بلاد المسلمين . وعبر أبو عبد الله محمد الناصر خليفة الموحدين في ذي الحجة سنة ٥٠٧ هـ / ١٢١١ م واتجه نحو بلدة « شلبطيرة » فاستولى عليها سنة ٦٠٨ هـ وكانت تقع جنوب قلعة رباح إلى الشمال الشرقي من قرطبة .

وقد خاف الفونسو الثامن من أن يُمْنى بهزيمة ثانية ، فاستجاش بالبابوية وملك غرب أوروبا واستنصر أهل إسبانيا النصرانية فجمع جيشاً ضخماً سار للقاء المسلمين به ، وعجل محمد الناصر فجمع جيشاً حافلاً وسار به إلى الأندلس فنزل إشبيلية ، ومن هناك اتجه إلى جياقي ثم صعد شمال الوادي الكبير وعسكر في سهل كثير التلال الصغيرة التي تسمى بالعقاب (جمع عقبة) وأقبل النصارى فعسكروا على هضبة عالية تعرف بهضبة الملك مشرفة على معسكر المسلمين .

وقبيل اللقاء استولى النصارى على قلعة رباح من يد قائدها الأندلسي « أبو محمد بن قانس » وعندما وصل هذا القائد إلى معسكر محمد الناصر سارع الناصر بقتله دون تحقيق ، فثارت نفوس الأندلسيين وأزمعوا الانخذاً عن الجيش الإسلامي أثناء المعركة .

وحدث ذلك بالفعل ، ففي الخامس عشر من صفر ٦٠٩ هـ / ١٦ يوليو ١٢١٢ م وقع اللقاء لحاسم ، وبعد قليل من الصراع انخذا الأندلسيون والعرب تاركين الجناح الشرقي من الجيش الإسلامي مكشوفاً ، فانتقض عليهم النصارى ونزلوا بالمسلمين هزيمة قاصمة قتل فيها عشرات الألوف من المسلمين معظمهم من المجاهدين المتطوعين من أهل الأندلس ، وكذلك حصدت في المعركة زهرة مقاتلي المغرب وبلغ من ثقل الخسارة أن ابن عذارى المراكشي المؤرخ يحدثنا أن الإنسان كان يجول في المغرب بعد تلك المعركة فلا يصادف شأناً قادراً على القتال .

المهم لدينا أن تلك المعركة كانت قاصمة الظهر بالنسبة لمستقبل الأندلس فقد تضعفت جبهة الوادي الكبير وسقطت مدن كبرى مثل بيسة وأبدة وأصبح النصارى يشرفون مباشرة على قرطبة وإشبيلية ومرسية وغيرها من عواصم خط الوادي الكبير ، وفي ظلال هذه الهزيمة توفى محمد الناصر في شعبان سنة ٦١٠ هـ / ١٢١٣ م وبعد وفاته بدأ الخلاف المؤسف يدب في صفوف بيت الموحدى وانعكس ذلك على الأندلس ، فبدأت تصفية ما بقى للمسلمين في خلال بقية العصر الموحدى ولم تبق إلا مملكة غرناطة

وفي كلامنا عن الموحدين في القسم الخاص بالمغرب من هذا الكتاب تكلمنا عن بقية تاريخ هذه الدولة في المغرب والأندلس ، ولهذا فإننا ننتقل الآن للكلام على دولة بني نصر المعروفين ببني الأحمر في غرناطة .



دولة بني نصر أو بني الأحمر في غرناطة

٦٢٦-٨٩٧ هـ / ١٢٣٢-١٤٩٢ م

بعد انصراف أبي الحلاء إدريس المأمون من الأندلس مصطحباً معه من بقي من كبار جند الموحدين في شبه الجزيرة ، بقيت الأندلس بدون حماية بحسب لها حساب ، وبرز في صفوف المسلمين نفر من الزعماء كل منهم يحاول أن يتزعم ما بقي من المقاتلين في الأندلس لكي يقيم لنفسه دولة في هذا الجزء الباقى للمسلمين في الأندلس ، وكان قد اقتصر على نهر الوادي الكبير وما يقع جنوبه.

وأهم أولئك الزعماء بنو مردنيش أصحاب بلنسية ، وسيف الدولة محمد بن يوسف بن هود الجذامي الملقب بالمتوكل ، ومحمد بن يوسف بن أحمد بن نصر الملقب بالشيخ .

فأما بنو مردنيش فكان يمثلهم عدد من أحفاد محمد بن سعد بن مردنيش أكبرهم أبو جميل زيان بن مدافع بن يوسف بن محمد بن سعد بن مردنيش ، الذي بدأ أمره كاتياً وقائداً لأمير الموحدين ، وكان يتولى أمر بلنسية ، ثم انصرف هذا الأمير وصار الأمر إلى أبي جميل ولم يستطع أبو جميل الثبات أمام « خايمه الأول » ملك أرغون الذي استولى على بلنسية في صفر ٦٢٦ هـ / سبتمبر ١٢٢٨ م وأما مرسية التي كانت قد تحولت إلى وحدة سياسية قائمة بذاتها وسماها انصارى بمسكة مرسية فقد تولى أمرها ربحر بن سري المرسى بن المرزوق ابن خنيس ابن خطاب الذي تلقب بضياء الدولة ، ولم تكن لدى هذا الرجل من القوة ما يستطيع به الدفاع عن مملكة مرسية وانتهى الأمر بسقوطها في يد فرناندو الثالث المعروف بالقديس .

وبقى في الميدان محمد بن يوسف بن نصر الجذامي بن هود الملقب بالمتوكل ، فحاول أن يجمع حوله كل من وجد في جنوبي شبه الجزيرة من قرسان المسلمين ، وتمكن لفترة قصيرة من أن يصمد للضغط النصارى ، وأيده الناس في الأندلس وقد بدأ نشاطه سنة ٦٢٥ هـ وبخلت في طاعته مرسية وقرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة والحرية وعدد آخر من صغار المدن والحصون ، ولو كان هذا الرجل عزم

شيء من الخبرة السياسية والقدرة على تدبير الأمور لثبت أمره ولاستطاع أن يثبت ولو بعض الوقت للضغط النصراني ، لأن الاتفاق الذي كان قد تم بين مملكتي قشتالة وليون من ناحية ومملكة أرغون من ناحية أخرى في موضوع يسمى بالمرسي كان يقضى بأن ميدان توسع أرغون في بلاد المسلمين ينبغي أن لا يتعدى مملكة بلنسية في شرق الأندلس ، وبقية شرق الأندلس من مرسية إلى بحر الزقاق كن ميدان توسع مملكة قشتالة وليون ، أما بلاد المغرب مما يلي قلمرية ولاشبونة جنوباً ، فقد ترك للبرتغال تتوسع فيه

وهذا الاتفاق - اتفاق بالمرسي - يدل على أن ملوك النصارى في شبه الجزيرة كانوا يرون أن قوة الإسلام في الأندلس قد تلاشت ، وأن ما بقي للمسلمين في شبه الجزيرة أصبح لقمة سائغة للملوك النصارى يتقاسمونه فيما بينهم ، ولم يكونوا مخطئين في هذا التصور ، لأن المسلمين في الأندلس في نهاية العصر المرابطي أثبتوا بالفعل أنهم غير جديرين بتلك البلاد التي كان عليهم أن يدافعوا عنها لتظل بلادهم بلاداً عربية وإسلام ، فأما وقد تراخوا وتذبذبوا على الوجه الذي رأيناه ، فقد كان من المؤكد أن البلاد ستضيع من أيديهم لأن الأرض لا يحوزها إلا الجدير بها ، والجدير بالأرض هو الذي يستطيع الدفاع عن حوزتها وحمايتها من العدوان .

نقول إن سيف الدولة بن هود تصدى لزعمائه بلاد الأندلس ، وكان في يده كما رأينا قدر صالح منها ، ولم يكن الرجل بالجهل ولا قليل الحماس ، ولكنه كان أرعن طائشاً ضعيف الخلق سرياً إلى الحركة ، وقد بايعه الناس في رجب ٦٢٥ هـ في موضع قريب من مرسية يسمى الصخور أو الصخيرات ، ولم يكده خبر بيعته ينتشر في الأندلس حتى تقاطر الناس عليه وأصبح له جيش ضخم يستطيع به أن يحمي ما بقي للمسلمين في شبه الجزيرة ، لأن خصمه الذي كان يهدد بلاده ، كان فرناندو الثالث ملك قشتالة وليون ، ولم يكن بالملك القوي أو المؤيد تأييداً كاملاً من جانب أهل بلده ، ولكنه - كما قلنا - كن قليل التدبير ضعيف الخلق أسرع بجيشه إلى ماردة ليدفع عنها غارة البرتغاليين ، وعند موضع يسمى الحنش ، وقعت بينه وبينهم معركة تدل على شجاعته وقلة تدبيره في آن معاً ، فقد هاجم الأعداء واخترق صفوفهم ونفذ إلى خلف الجيش دون أن يرسم إلى ذلك خطة ، ثم

كبر راجعاً ليجد أن بقية جنده قد حسبوا أنه انهزم وولّوا على وجوههم ، وبذلك تحول النصر إلى هزيمة ، وأسرع ابن هود بمن معه من أتباعه المقاتلين إلى بلدة مرسية حيث جمع جيشاً كبيراً بلغت عدته ثلاثين ألف مقاتل ، وتمكن من تمكك شيبيلية سنة ٦٢٩ هـ ، وولى عليها أخاه « أبا النجدة سائناً » الملقب بعماد الدولة . وفي سنة ٦٣١ هـ طاعت له قرطبة ثم غرناطة ومالقة سنة ٦٣٥ هـ ودخل في طاعته أصحاب مرسية وامتد سلطانه إلى مدينة الجزيرة الخضراء ، وولى الولاية على هذه البلاد ولكنه لم يستطع السيطرة على ما بيده فقام عيه ولاته ، وفي تلك الأثناء تقدم فرناندو الثالث وحاصر قرطبة يريد الاستيلاء عليها ، وكانت قرطبة قد ضعف أمرها واعتمد أهلها على حماية أنفسهم ، وكانت تنقسم قسمين : لشرقية والمدينة ، وكانت المدينة محصنة تماماً ، أما الشرقية فكانت في حصونها ضعف وثغرات ، وقد دام حصار قرطبة أشهراً حتى نفذت أقوات المدافعين عن البلد ، ثم تمكن نفر من فرسان قشتالة من دخول الشرقية ، وفي تلك الأثناء أرسل أهل قرطبة إلى محمد بن يوسف الجذامي بن هود يستجدون به ، فأقبل في جيش عدته ثلاثون ألفاً وفد عند أسبجة وهبته فرناندو الثالث ثم يحرز عن افتتاح البلد واستيثر أهلها خيراً ، ولو أراد محمد بن يوسف بن هود إنجاد عاصمة الأندلس المخالدة لفعل ، ولكن الذي حدث أنه خمل عن اللقاء ، وبعد انتظار أسابيع انسحب بقواته من المرية زاعماً أن صاحبها أبا جميل زيان بن مدافع بن مردنيش قد استجده ، وتلك خيانة لا يغفرها له التاريخ ، لأنه عقب انسحابه مباشرة وجد القرطبيون أن لا أمل يرحى في الدفاع بعد أن هلكت قواتهم ودخل الجيش القشتالي قرطبة في ٢٢ شوال ٦٣٢ هـ / يونيو ١٢٣٦ م ومن غريب الأمر أن هذا الرجل الذي ضن بنفسه عن الموت دفاعاً عن الإسلام والعروبة وتوجه إلى شرق الأندلس لحا إلى المرية عند عامل من عماله يسمى عبد الله الرميمي ، وكان قد استودع هذا الرجل جارية نصرانية لكي يلم بها عندما يريد ، فأخذها ابن الرميمي لنفسه ، وعندما دخل ابن هود قصره قتله الرميمي خنقاً ، وهكذا هلك ذلك الرجل على النحو الذي يستحقه جزاءً وفاقاً على ما تخطى من أمر الدفاع عن قرطبة عاصمة الخلافة .

قيام دولة غرناطة :

وخلا الأمر بعد ذلك من زعيم يتولى أمر الدفاع ، ولكن رئيساً جديداً يسمى

محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن نصر وينسب نفسه إلى سعد بن عبادة رئيس الأنصار الذي بنفسه رئيس في قرية بالحيرة عن بعد ثلاثين كيلومترا من جيان ، وتوافد عليه جنود الأندلس من كل ناحية ، فانتقل إلى بلدة جيان وأعلن نفسه أميرا على الأندلس وتبعه ثلث مائة ألف من صغار الأندلس ، لكنها ، بعد بطبعه رجلا جادا مخلصا حكيما حسن التدبير ، فاجتمع حوله نفوس من خيرة أشراف أئمتهم بين من كتب الرسائل ، وهم بين من أحسن عرب من شياطينا ، أصحاب جيان ومالقة ، وقد عاونوه معاونة كبيرة . وأحسن محمد بن يوسف بن نصر يأنه في حاجة إلى معقل يعنصم به لأن جيان مدينة مكشوفة ، فوقع اختياره على غرناطة وتقع عند سفح جبل الثلج أو سيرانيفادا ، وفي أعلى الجبل كان يقوم حصن متين عظمه وسكنه باديس بن حوس في أول عصر الطوائف فأتاه ابن نصر إلى ذلك الحصن ونزل في أخريات رمضان سنة ٦٢٥ هـ أسفل الجبل ، ثم دخل الحصن واستقر به وأخذ يبرعم أسواره ويوسع سلطانه ، وتقاطر عليه الناس من كل ناحية ، فأصبح زعيم ما بقي للمسلمين من الأندلس ، وشيئا فشيئا يتمكن ذلك الرجل من توسيع نطاق سلطانه ، فدخلت في طاعنه بسطة وادي آش ومالقة والمرية ثم اضطر إلى التخلي عن جيان ، وبعد سقوط قرطبة وجد هذا الرجل أنه لا مفر من أن يدخل في ولاء ملك قشتالة فرناندو الثالث ، فأصبح من أتباعه خلال الفترة الأولى من قيام دولته وأصبح ملزما بأن يقدم ملك قشتالة مساعدة عسكرية عندما يطلب منه ذلك ، وأن يحضر مجالس الملك في المدن التي يرى عقدها فيها ، وبالفعل نجد أن محمد بن يوسف بن نصر يضطر بناء على المعاهدة التي وقعها مع ملك قشتالة في سنة ١٢٤٦ م إلى إرسال معاونة عسكرية اشتركت في استيلاء القشتاليين على إشبيلية سنة ١٢٤٨ م وقد عوض ابن الأحمر ذلك بالاستيلاء على طريق الجزيرة الخضراء وجبل طارق ، ولم تحل سنة ١٢٦٩ م حتى كان ملكه في مملكة غرناطة قد استقر وثبت وأرداك قوة بمن توافد على بلاد غرناطة من المسلمين من البلاد التي سقطت في أيدي النصارى .

وقد ازدهرت مملكة غرناطة في أيام محمد بن يوسف بن نصر ازدهارا عظيما نظرا إلى ما امتاز به من عقل وحكمة وحسن تدبير . وما لقي من تأييد زعماء المسلمين وخاصة بني أشقيلولة الذين انفردوا بالسلطان في وادي آش وبعض القواحي الشمالية من بلاد مملكة غرناطة .

أما بقية بلاد المملكة من أمثال شريش وأركش وشئونة ونبريشة ولبلة
وجزيرة الخضراء وحبل طارق فقد كانت كلها في طاعة ملك الرجل الذي استولى
بحكمته وبعد نظره أن تعمّر تلك المملكة الصغيرة التي قامت سنة ١٢٢٢م بعد
الذي هو القرم ونصبه فلم يسطر إلا في يناير سنة ١٢٢٢م وقد وصفه ابن
الخصير سنة ٦٢٠هـ في آفة عن ياتى هذه الساحة والسملة ، الحديورية التي هي
اناس له) . جندياً ثغرياً شهماً أبداً ، عظيم الثجلد ، رافضاً للذعة والراحة مؤثراً
بغالب الاكفأ ، بالسر متبذراً بالسر بعيداً عن سبي مشيخ العرب
بنفسه ، يلبس الخشن ويؤثر البداوة ، وتلك صفات جذيرة بأن تصل بصاحبها
إلى ما وصل إليه محمد بن نصر من النجاح في إقامة دولته .

حكم أبو عبد الله محمد بن نصر الذي تلقب بـ (الغالب بالله) في ٦٢٩هـ -
٦٧١هـ / ١٢٧٢ - ١٢٧٣ م وتلك فترة طويلة مكنت له من أن يؤسس ملكه
ويضع له الأسس التي مكنت له من القيام والثبات وسط العواصف التي أشرقت
إليها ، وجدير بالذكر أن الذين طال عمرهم من ملوك غرناطة لم يزد عددهم على
ثلاثة أولهم محمد بن نصر هذا ، وابنه محمد بن محمد الملقب بالفقير ، وأبو
الحجاج يوسف بن إسماعيل الذي ستحدث عنه فيما بعد .

وقد عضي محمد بن نصر أيامه في تثبت ملكه فأضاف إليه مالقة والحرة
والورقة ، وبعد ذلك غرناطة التي كان ملكه سنة ٦٦٢هـ في العهد مع خليفة
القونسيو العاشر ملك قشتالة وليون الملقب بالقونسيو العالم .

وبعد وفاة محمد بن نصر خلفه ابنه محمد بن محمد بن نصر المعروف بمحمد
الثاني الفقير (٦٧١ - ٧٠١هـ / ١٢٧٣ - ١٣٠٧ م) وقد كان هذا الرجل قريباً
من تيب في الصفات ولكن مزرقة كانت أسوأ من المزرقة التي تروى سنة
٦٦٢م كان رجلاً مسوداً حمار الدين ، زويلاً يقضي على ما بقي للسلطان
في شبه حزين ، وقد تمكن محمد بن نصر الغالب بالله من ذلك عهداً طويلاً ،
فترك له السلطان على جبال رندة وجبال البيرة أي على مملكة غرناطة بعددودها ،
رئس حاكم ، وقع في عهد محمد الثاني بين وبينه في سنة ٦٨٠هـ في
والتي أش ، وقد انتصر سيده بعددونه فليس يشدو سبي جديب يسوي
لأولاً ، كان بينه وبين القونسيو العاشر خلافة ، وأحسن محمد الثاني أنه لم يعد

يستطيع الاعتماد على قواه وحدها ، فراسل أبا يوسف يعقوب بن عبد الحق أمير بنى مرين وطلب إليه أن يعاونه بقوة عسكرية ، فعبر أبو يوسف بنفسه إلى الأندلس لكي يشترك في الجهاد ، وبالفعل أعان محمد الفقيه على تثبيت أمره وبم الاتفاق على أن تقيم في ממكة غرناطة قوة من المقاتلين الزناتيين من بنى مرين وغيرهم يرأسهم قائد يسمى شيخ الغزاة ، ومن ذلك الحين سيصبح شيخ الغزاة من كبار الشخصيات في مملكة غرناطة ، وسيقع الخلاف بين بعض شيوخ العراة وبعض ملوك غرناطة ، لأن بنى مرين أصبحت لهم مصالح في شبه الجزيرة الإيبيرية ، أي أنهم دخلوا في منطقة النزاع على مصير الأندلس .

وكان محمد بن نصر بن الأحمر قد اتفق مع الفونسو العاشر على أن يساعده فيما كان يفكر فيه من العدوان على بلاد المغرب ، وبالفعل قام الأسطول اقشقال بمهاجمة أصيلا على لساحل المغربى ثم احتل سببنة بمعاونة قوة من ملك غرناطة ، وقد أحفظ بذلك ملوك بنى مرين وأحسوا بأنه لا بد لهم من أن يتحرروا من ملوك غرناطة فأصبح من شروطهم للاشتراك في القتال في الأندلس أن تكون بيدهم الجزيرة الخضراء وجبل طارق ومالقة ، وكانت معقلاً لبنى أشقيلولة أعداء بنى الأحمر ،

وفي أيام محمد الفقيه هذا بدأت مشكلة النزاع على مضيق جبل طارق تأخذ شكلها الحارم ، لأن كلاً من مملكة غرناطة ومملكة قشتالة وسلطنة بنى مرين ومملكة أرغون ثم الجمهوريات البحرية الإيطالية وخاصة بيشة وجنوة تنبعت إلى أهمية ذلك الزقاق الذى يعد مفتاح البحر المتوسط ، والسيطرة عليه تتيح لصاحبه قوة بحرية عظمتى ، فينفذ إلى المحيط الأطلسى والساحل الغربى لشبه الجزيرة الإيبيرية . وكانت الأنظار قد بدأت تنظم إلى ما وراء مياه بحر الظلمات ، وبالفعل نسمع أنه في ذلك العصر المتقدم حاول نفر من الملاحين البندقيين يسمون آل فيقلدى التوغل في ذلك المحيط ، ويبدو أن سفنهم غرقت ولكن الفكرة استقرت في الأذهان على أى حال ، واشتد النزاع بين القوات التى ذكرناها على مصير بحر الزقاق .

وعلى الرغم من كفاية محمد الفقيه واجتهاده في المحافظة على بلاده ، رغم صعوبة ظروفه ، إلا أنه فقد مدينة طريف التى هاجمها واستولى عليها ودافع عنها

دفاع المستعصية فارتس قشتالي يسمى ابونسو بيريث دي قزمان الملقب بقزمان الطيب . وقد أضعف قوى محمد الفقيه نزاعه مع بني أشقيلولة الذين انضموا إلى ملك قشتالة على خليفهم وصهرهم ورس إليهم محمد بن محمد بن نصر بن الأحمر ، وكان لهذا الخلاف أثر سيئ على مصير مملكة غرناطة ، وسنرى أن داء الخلاف هذا سيكون من أكد الأسباب في ضياع مملكة غرناطة ، فبعد بني أشقيلولة سيقوم بنو سراج بنفس الدور المحزن وسيكون لذلك أثره في ضياع المملكة .

وقيل وفاة محمد الغالب بالله سنة ٦٧١ هـ / ١٢٧٢ م عاد الفونسو العاشر ملك ليون يهاجم أراضي المسلمين طمعاً في الاستيلاء على مزيد منها ، فاستنجد محمد بن نصر الغالب بالله بأبي يوسف عبد الحق المريني المعروف بالمنصور سلطان بني مرين ، فأرسل المنصور قوة من الزناتيين إلى جزيرة طريف في ذي الحجة ٦٧٢ هـ / ١٢٧٥ م أي بعد وفاة محمد الغالب بالله وولاية ابنه محمد ابن محمد بن نصر الملقب بالفقيه ، وبعد قليل لحق به السلطان بنفسه في السنة التالية ، والتقت قوات المسلمين التي تكونت من قوات غرناطة والمدد الذي جاءه من المرينيين ، ووقع اللقاء بينها وبين قوات مملكة قشتالة وليون في ١٥ ربيع الأول ٦٧٤ هـ / سبتمبر ١٢٧٥ م عند أسنجة جنوبي قرطبة . وكان يقود انصارى القائد « دنونيو دي لارا » الذي تسميه النصوص العربية باسم « دنه أو ذونوته » وقد استعد المسلمون للمعركة استعداداً عظيماً وقاد مقدمة الجيش الإسلامي وفي عهد بني مرين الأسر يوسف بن أبي يوسف عبد الحق المريني ، وتحفّض المسلمون حماساً عظيمًا وحطّهم السلطان المريني أبو زيد حماد بهم ، فانقضوا على القوات النصرانية في حماس بالغ أعاد إلى الأذهان حماسهم في موقعي الزلاقة والأرك عن اختلاف في حجم القوات الإسلامية في كل من هذه المعارك ، وانتصر المسلمون انتصاراً كبيراً ومزقوا قوات قشتالة شرّ مزلقٍ وتقدموا يحاصرون إشبيلية على أمل استعادتها ، وأسرع الملك الفونسو العاشر يطلب الصلح فأجيب إليه ، وهذا يدل على أن قوة الإسلام في الأندلس كانت لا تزال قادرة على الدفاع عن نفسها ، وأنه لو أتاحت للمسلمين فرص اتحاد الصفوف ولمع إلى أهمية المعركة الدائرة على أرض الأندلس لاستطاعوا أن يشتتوا أعدائهم وأن يحافظوا على ما بقي لهم من أرض فيها .

وقبل أن نستطرد مع ذكر الحوادث لا بد أن نضيف كلمة نُقدِّر بها محمد بن نصر بن الأحمر الغالب بالله الذي أنشأ هذه المملكة ، واستطاع بما رزقه الله من خلال الشجاعة والذكاء وحسن التدبير وبعد النظر ، أن يؤسس هذه المملكة فيما بقى للإسلام من أرض قليلة في شبه الجزيرة ، ويضع لها من الأسس التي مكنت لها من الصمود للضغط النصراني المتزايد نحو قرنين ونصف من الزمن .

وقد رأينا ما كان في يلاء أبي عبد الله محمد بن محمد بن نصر الفقيه الذي كسب موقعة أستيجة بالتعاون مع الغوات المرينية ، ولم يكن الفقيه ليقل كفاية عن أبيه ، فقد تمكن خلال الفترة الطويلة التي حكمها (٦٧١ - ٧٠١ هـ / ١٢٧٣ - ١٣٠٢ م) من أن يحافظ على مملكته ويزيد من قوتها ، وإن كنا نلاحظ أنه لجأ إلى أمر سبيلجأ إليه ملوك غرناطة بين الحين والحين ، وهو التخوف من بنى مرين ومحاولة الانضمام إلى ملوك قشتالة ضدهم ، مما أدى في النهاية إلى وقوع شتغور بين المرينيين وبنى نصر ، وكان في النهاية وبالأعلى مصير الإسلام في الأندلس ، وتشير هنا إلى حقيقة تجلت أكثر من مرة خلال هذا التاريخ ، وهي أن أكثر ما أدى الإسلام في الأندلس هو خلاف المسلمين بعضهم مع بعض ، فقد كان ذلك أشد وطأة عليهم من أي خطر آخر .

وعندما توفي محمد الفقيه سنة ٧٠١ هـ / ١٣٠٢ م ترك لابنه وخليفته أبي عبد الله محمد الثالث الملقب بالملخوع مملكة قوية زاهرة ، وإن أحاط بها الأعداء من كل جانب ، وجثمت فوق صدرها المصاعب من كل نوع .

ولن يتسع المجال لتذكر كل ملوك بنى نصر فقد كانتوا كثيرين ، ولكننا نكتفى بالوقوف عند اثنين منهم ، يعتبران أقدر من تولى أمر هذه المملكة بعد محمد الغالب بالله وابنه محمد الفقيه .

فأما الأول فهو أبو الوليد إسماعيل بن الرئيس أبو سعيد فرج بن أبي الوليد إسماعيل بن محمد بن نصر مؤسس الدولة الذي حكم فيها بين سنتي ٧١٣ - ٧٢٥ هـ / ١٣١٤ - ١٣٣٥ م فقد كان هذا الرجل حازماً بعيد النظر مدركاً لحقائق الوضع في مملكته الصغيرة ، وقد تمكن سياسياً من الحفاظ على أراضي بلاده ، بل تمكن من التخلص من التبعية لقشتالة ، واستقل بنفسه معتمداً على معاونة

قوات بنى مرين التى كانت قد حصلت على حق الإقامة بصورة مسمرة في بلاد غرناطة للاشتراك في الدفاع عنها عن طريق ما يعرف بمشيخة الغزاة التى سنتحدث عنها بعد قليل .

وفي أيام أبى سعيد فرج هذا حدث لقاء ثان بين قوات مملكة قشتالة وقوات الإسلام في شبه الجزيرة ، وذلك أن الفونسو العاشر طمع في بلاد المسلمين من جديد وأراد أن يعيد مملكة غرناطة إلى الطاعة له ، ولكنه لم يستطع لأن ابنه شانجو الرابع ثار عليه سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م ، واستنجد الفونسو العاشر بالسلطان المريني على ابنه ، وعبر أبو يوسف عبد الحق المنصور المريني إلى الأندلس والتقى مع الفونسو العاشر بأحواز الصخرة في كورة ماكورونيا قرب رندة ، ورهن ثأجه لديه ، بل قبل يده رجاء معاونته ، وقد أدى عمله هذا إلى نفور زعماء قشتالة من ملكهم هذا ، فانضموا إلى ابنه شانجو الرابع فعزلوا الفونسو العاشر سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٤ م فانصرف بقية أيامه إلى الدراسة والبحث والتأليف ولترجمة من العربية إلى القشتالية . مما استحق به أن يسمى بالملك الفونسو العالم . ومن المؤرخين من يقولون إن الذى لجأ إلى السلطان المريني كان لابن وهو شانجو الرابع الذى تمكن بمعاونة المسلمين من التغلب على أبيه وخليعه والانفراد بالعرش .

ولم يكد الأمر يستقر لشانجو الرابع حتى بدأ يفكر في عزو أراضي المسلمين . ووقع ذلك في أيام أبى الوليد إسماعيل النصرى الذى نتحدث عنه ، فتقدمت قوات نصرانية كبيرة نحو غرناطة بجيش ضخم يقوده دون بطرو ، ودون خوان الوصيين على ملك قشتالة الصغير وهو الفونسو الحادى عشر الذى خلف أباه شانجو الرابع واتضمت إلى قواتهما قوات كبيرة من الصليبيين ما بين فرنجة وإنجليز وكان اللقاء الحاسم قرب غرناطة وفي مرحها في ٢٠ ربيع الثانى ٧١٨ هـ / مايو ١٢١٨ م وكان شيخ الغزاة هو أبو سعيد عثمان بن أبى العلاء ، وقد انتصر المسلمون في هذه المعركة نصراً يعجل انتصارهم الأول عند صخرة «عباد» ، وهكذا أثبت المسلمون أنهم قادرون على كسب النصر إذا هم اجتمعت صفوفهم وصدقوا التية في الجهاد ، وكان لهذه المعركة الثانية أثر بعيد في تثبيت

زكان مملكة غرناطة اتى استطاع رجالها ان يستعيدو، بعض البلاد والحصون
لتى كانوا قد فقدوها من قبل .

وبعد هذا النصر بقليل أُغْتِيل سلطان غرناطة ابو الوليد إسماعيل سنة
٧٢٥هـ / ١٣٢٥م ويعتبر هذا الرجل من أكفأ من تولى عرش غرناطة ، وإليه
يرجع الفضل في إقامة الكثير من منشآت الحمراء .

أبو الحجاج يوسف الأول ابن أبي الوليد اسماعيل

٧٢٥ - ٧٥٥ هـ / ١٣٢٥ - ١٣٥٤ م

يعتبر هذا الرجل آخر الكبار من ملوك غرناطة ، فقد بذل أقصى جهده في المحافظة على بلاده من عدوان مملكة قشتالة ، وعلى الرغم من ملكاته الكثيرة وطول حكمه الذي مكن له من أن يقدم لمملكة غرناطة خدمات جليلة إلا أن ظروف تلك المملكة ما كانت لتساعدها على الصمود إلى النهاية وحدها أمام ضغط نصراني متزايد ، وقد جاءت العلية الكبرى في اختلاف أفراد البيت النصري بعضهم على بعض واستعانة بعضهم بملوك قشتالة ، ثم إن العلاقات لم تكن طيبة دائماً بين سلاطين غرناطة ومشيوخ الغزاة .

مشيخة الغزاة :

عقب انتصار المسلمين على النصارى في موقعة الصخرة ، استقر الاتفاق بين سلطان بنى نصر وسلطان المرينيين على أن تقام في أراضي غرناطة قوة دائمة من المقاتلين المرينيين للاشتراك في الجهاد ، وفي سبيل ذلك تنازلت مملكة غرناطة لأولئك المجاهدين المرينيين الذين سمو بالغزاة وكانت رياستهم تسمى مشيخة الغزاة ، تنازلت لهم عن الجزيرة الخضراء وملقة وبعض مراكز أخرى لكي تكون معابر ومركز لهم في الأندلس لكي يستطيعوا مواصلة عملهم الديني الكبير ، وكان أول شيخ للغزاة ، هو عبد الله أبو العلاء المريني ، وعندما توفي ذلك الرجل خلفه أبو سعيد عثمان بن أبي العلاء ، وفي أيامه أصبحت مشيخة الغزاة قوة لها أهميتها في مملكة غرناطة ، وتدخل شيخ الغزاة في الأمور الداخلية للمملكة وأبد بعض منافسي السلطان ، ومن ناحية أخرى نجد أن السلطان النصري يحاول من جهة التدبير على مشيخة الغزاة ، وربما تحالف مع القوات النصرانية عليهم ، والحقيقة أن بنى مرين أصبحت لهم ، كما ذكرنا ، مصالح خاصة في الأندلس ودخلوا في التنافس على مصير مضيق جبل طارق مع مملكة غرناطة ومع مملكة قشتالة وليون ومملكة أرغون والجمهوريات الإيطالية ، وكان هذا الاختلاف في المصالح بين المسلمين من أشد الأخطار التي تهددت مملكة غرناطة وأضعفت قواها

وقعة طريف :

وقد تجلّى ذلك بصورة ظاهرة في لقاء حاسم وقع بين الإسلام والنصرانية في أيام أبي الحجاج يوسف بن أبي الوليد إسماعيل الذي نتحدث عنه ، فقد كان هذا الرجل - كما قلنا - واسع المطامع جَمّ النشاط ، وكان قد تولّى أمر بني مرين ، السلطان أبو الحسن بن عثمان بن أبي يعقوب المريني المشهور باسم أبي الحسن ، وكانت حياته سلسلة من المغامرات والوقائع في المغرب والأندلس حتى يمكن روايتها على أنها قصة من صنع الخيال .

ففي جمادى الأولى سنة ٧٤١ هـ / أكتوبر ١٢٤٠ م جمع ملك قشتالة قوات ضخمة من القشتاليين . ونصفت إليهم قوات أخرى من الأرمانيين والبرتغاليين وسائر النصارى ووجهتهم مدينة طريف الأندلسية ، لأن طريفاً حصينة ذات أهمية عظيمة الطريق بين الأندلس والمغرب ، وقد اتخذ في هذه الظنروف أبو الحجاج يوسف بن نصر والسلطان أبو الحسن المريني إدراكاً منهما لأهمية تلك المعركة ، ولكن النصر لم يحالف المسلمين في ذلك اللقاء ودارت عليهم هزيمة حاسمة في تاريخ الأندلس ، هي هزيمة طريف في ٧ جمادى الأولى ٧٤١ هـ / ٣٠ أكتوبر ١٢٤٠ م وعقب تلك الهزيمة سقطت طريف وتمهد الطريق لسقوط جبل طارق والفصل النهائي بين الأندلس والمغرب .

وعلى أى حال فقد كانت هذه المعركة نهاية للمعاونة المرينية للأندلس ، وذلك بدوره قطع الأمل في أن تستطيع قوات غرناطة الثبات أمداً طويلاً ، وبعد المعركة تقبل اتحه الفونسو الحادى عشر ملك قشتالة لحصار جبل طارق وكان يستولى عليه لولا أن الفونسو الحادى عشر توفى أثناء الحصار ، وقد أبدى المسلمون شهامة في تلك المناسبة ، فقد كانوا يحاصرون القسوات القشتالية المحاصرة . أما بالفهم من ذلك المثل المرحوم القسوات النصرانية المستحرة كانت تاتون من الممرات وحقوه شحنة عسكرية .

وفي سنة ٨٦٧ هـ / ١٤٦٢ م سقطت قلعة جبل طارق بيد القشتاليين وبذلك أصبحت مملكة غرناطة محاصرة تماماً بالقوات النصرانية ولا سبيل إلى معدوتها . وكان ذلك في أيام أبي عبد الله محمد بن أبي الوليد إسماعيل الملقب بالفنى بالله ، وقد طال حكم هذا الرجل إذا استمر يحكم إلى ٧٥٥ هـ / ١٢٥٤ م وكان من أقدر

ملوك غرناطة ، في ايامه ظهر بعض ابن الخطيب آخر أعضاء من كتاب الأندلس ومفكره ، وقد دارت على ذلك الرجل وورثه من انحصار من صويقة ، وكثر القاتلون عليه من أهل بيته حتى اضطر إلى الهرب إلى المغرب للاستنجاء بالسلطان المريني ، ثم عاد إلى الأندلس وتكن من اسعة في عرشه ، ولكن الأمور لم تصف له قط ، فقد دس في صراع مرير وحضر مع بني سراج ، وكانوا من كذا الأسرى مملكة غرناطة ، وقد توفي ذلك الرجل قتيلاً على يد رجل قبل أنه مخبول في يوم عيد الفصح سنة ٧٥٥ هـ / ١٦ أكتوبر ١٣٥٩ م ، وإثر هذا الرجل محمد الغني بالله يُعزى الجانب الأكبر من منشآت قصور الحمراء ، وهو الذي أنشأ باب الشريعة ومدرسة غرناطة واعتنى بحدائق جنة العريف .

ومن أكبر الرجال الذين ظهوروا في غرناطة في ذلك العصر الحاجب أبو التميم رصون ، أصيب من أسرى القشتاليين في أسيرة ليلة سريجة ، وبسبب ذلك العناء شئ مسلم محامداً في سبيل الإسلام ، وكان من أحد رجال الدعوة ، وقد غاص ابن الخطيب ، وهو يتي عليه ثناء طويلاً ، وأمثال أبي التميم رصون كذايون في تاريخ مملكة غرناطة ، وقد قتل هذا الرجل في حروشه في سنة بعض أعداء السلطان .

تدهور مملكة غرناطة :

وبعد محمد الغني بالله لم تعد غرناطة إلى سابق قوتها أبداً إذ تعاقب الملوك في العرش ووقعت سنهم الخلافات والحروب ، وكان ثل سبهم سبيلهم ، قشتالة على إخوانه ، وفي كل معركة كان المسلمون يفقدون حصوناً وبلدات ذات أهمية حتى انتهى من المملكة في نهاية إلى الانحدار ، على يد سنة غرناطة ، وندى وادي آش وما حولهما .

وتجلى ضعف مملكة غرناطة وقرب سقوطها في أيام أبي الحجاج يوسف الثاني المتوفى سنة ٧٩٤ هـ / ١٣٩٢ م ، فقد اشتد العداء بينه وبين بني سراج وانتهز ملك قشتالة الفرصة فاستولى على بلدة الزهراء المحاذرة لغرناطة سنة ٨٠٩ هـ / ١٤١٧ م .

وبعد سقوط جبل طارق سنة ١٤٦٢ م على يد لقائد رودريجو بونسي

ديليون الملقب بدوق مدينة سالم ، لم يعد هناك أمل في أن تظل مملكة غرناطة وقتاً طويلاً ، وقد تجلّت نهايتها بوضوح سنة ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩ م وهي السنة التي تم فيها الاتحاد بين الملك فرناندو الرابع ملك أراغون والملكة إيزابيلا الشائعة مملكة قشتالة ، وكانا قد تزوجا قبل ذلك بعشر سنوات ، وكان معنى ذلك أن إسبانيا النصرانية كلها قد أصبحت ككتلين تعملان على القضاء على ما بقي للمسلمين في شبه الجزيرة . الأولى مملكة قشتالة وأراغون وكانت تقوم بالنصيب الأكبر في القضاء على مملكة غرناطة ، ثم مملكة البرتغال التي أتمت الاستيلاء على غرب الأندلس ، وبدأت قواتها تهاجم السواحل المغربية وتنشئ عليها مراكز عسكرية لتواصل الغزو في أراضى المسلمين ، وقد تمكن البرتغاليون من الاستيلاء على سبتة ولكنهم تخلوا عنها لقشتالة وظلت في أيدي الإسبانيين إلى اليوم .

نهاية مملكة غرناطة :

في أواخر سنة ٨٨٧ هـ تولى عرش غرناطة محمد بن أبي الحسن علي ، الذي يعرف باسم أبي عبد الله أو « بو أبديل » في النصوص النصرانية ، وكان والده أبو الحسن علي قد تزوج على زوجته الحرة عائشة ، زوجة نصرانية سميت « ثريا » وأبو عبد الله هذا هو أبؤها ، وكان أبو الحسن سلطاناً ضعيفاً محاطاً بالمصاعب ، تنافست النساء في عصره على حيازة العرش لابنائهن ، وطال النزاع بين أبي عبد الله الذي ذكرناه ، وعمه أبي عبد الله محمد بن سعد ، الملقب بالزغل أي الباسل أو الشجاع .

وبعد منافسات طويلة قرر فرناندو وإيزابيلا القضاء نهائياً على مملكة غرناطة ، فساروا لحصارها بقوات ضخمة ، وفي النهاية عقد أبو عبد الله الزغل معاهدة التسليم مع ملكي قشتالة وليون في ٢١ من المحرم سنة ٨٩٧ هـ / نوفمبر ١٤٩١ م أما دخول الملكين الكاثوليكين فرناندو وإيزابيلا مدينة غرناطة فكان في ٢ ربيع الأول ٨٩٧ / ٢ يناير ١٤٩٢ وهو تاريخ حاسم في تاريخ الإسلام والغرب الأوربي ، وقد احتفلت به البلاد النصرانية كلها وأمرت الياشوية أن تفرغ كنائس أوروبا كلها احتفالاً بتلك المناسبة ، ومع الأسف إننا لا نملك نصوصاً عربية تصف أواخر مملكة غرناطة ، لأن التواريخ المعتمدة تنتهي بوفاة ابن الخشب ،

ولكننا وجدنا كتاباً مجهول المؤلف يسمى « نبذة العصر في أخبار ملوك بنى نصر » يقص علينا أطرافاً من أخبار مأساة غرناطة في أيامها الأخيرة . وكذبت عثرنا على نص كتاب « جنة الرضا في التسليم بما قدر الله تعالى وقضى » لابن عاصم ، وكانت لدينا قبل ذلك أجزاء منه ، احفظ بها حفري في « نفح الطيب » و « أزهار الرياض » .

وقد نصت معاهدة التسليم على أن يحتفظ للمسلمين في غرناطة بكل حقوقهم ، وأن تظل لهم مساجدهم وأن يقيم منهم من أراد تحت العدل والإنصاف ويهاجر منهم من أراد ، ولكن النصارى ما كادوا يستولون على غرناطة حتى تسوا كل ما عاهدوا المسلمين عليه ، وكان أول ما فعلوه تحويل مسجد غرناطة إلى كنيسة ، ثم بدأت سياسة « لاضطهاد مسلمي غرناطة الذين دخلوا في جملة المدجنين » المسلمين الذين دُجِّنوا في مواضعهم تحت حكم النصارى وقبلوا حكمهم ، وقد ثار المسلمون على تلك المعاملة مرة بعد أخرى . ولكن الأمر انتهى بطرد بقاياهم من الأندلس سنة ١٦٠٩ م ، أيام الملك فيليب الرابع ، وبذلك انتهت قصة الإسلام في شبه الجزيرة ، وإن بقيت آثاره الحضارية ماثلة إلى اليوم .

ولا يتسع المجال لدراسة تاريخ المسلمين في شبه الجزيرة الإيبيرية بعد سقوط غرناطة ، فذلك تاريخ طويل تبدلت فيه الأحوال بالنسبة لمن بقي في شبه الجزيرة عن إسلامه وخضع للنصارى ، وهؤلاء هم المدجنون ومن تنصر منهم تنصراً ظاهرياً أو حقيقياً ، وهؤلاء هم المورسكيون . وكلا الفريقين عوملوا معاملة الأسرى وهبطوا بهم إلى مستوى الرقيق والأقنان ونصائبهم الاضطهاد والإلال . وثاروا مرة بعد أخرى حتى صدر قرار إخراج بقاياهم من شبه الجزيرة سنة ١٦٠٩ م كما قلنا ، وقد استوفى أخبارهم الأستاذ محمد عبد الله صنان في كتابه المسمى « نهاية الأندلس » ، « وتاريخ العرب المتنصرين » وهو الجزء الأخير من تاريخه الحافل المطول للأندلس وتاريخ المسلمين فيه ، وقد اعتمد فيه أساساً على مراجع كثيرة بعضها إسباني وبعضها برتغالي ، ولكن معاونه الأكبر على التاريخ الذي كتبه المؤرخ الإنجليزي « لى » عن تاريخ محاكم سببش في الأندلس .

موارد مختارة

(أ) الموارد العربية لتاريخ المغرب والأندلس :

(عند البحث عن اسم يبدأ بلفظي ابن أو أبي أو أداة التعريف « ال » اترك هذه الثلاثة وابحث عن الاسم في أول الحروف بعد ذلك ، فابن أبي الخصال يوجد تحت حرف الخاء وهكذا) .

* ابن الأثير ، أبو عبد الله القضاعي :

— المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصمد ، القاهرة (١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م) .

— « الحلة السراء » : تحقيق د . حسين مؤنس ، القاهرة (١٩٦٢ م) .

* ابن الأثير الجزي (مجد الدين) :

« جامع الأصول في أحاديث الرسول » ، تحقيق (عبد القادر الأريازوط) ، طبعه دمشق (١٣٨٩ - ١٣٩٢ هـ / ١٩٦٩ - ١٩٧٢) .

* الإدريسي : « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ، (روما ١٥٩٢ م)

* أديب مغول (قصير) : « الإسلام في الشرق الأقصى » ، ترجمة (د. نبيل صبحي) ، بيروت (١٢٨٩ هـ / ١٩٦٩ م) .

* الأزدي الحميدي (الحافظ أبو عبد الله محمد بن أبي نصر قنوج بن عبد الله) : « حذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس » ، القاهرة (١٩٦٦ م) .

* الأندلسي (علي بن سعيد) : « المغرب في حل المغرب » تحقيق (د. شوقي ضيف) ، القاهرة (١٩٦٤ م) .

* الأوسي المراكشي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري) : « الفيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة » :

— السفر الأول (القسم الأول والثاني) تحقيق د. محمد بن شريفة ، بيروت .

- بقية السفر الرابع : تحقيق (د. إحسان عباس) ، بيروت (١٩٦٤ م) .
- السفر الخامس (القسم الأول والثاني) بيروت ، ١٩٦٥ م .
- السفر السادس ، : بيروت ، (١٩٧٢ م) .
- * الباجي (سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب أبي الوليد) ، « من أدبنا » ،
ترجمة ودراسة بالإنجليزية (د. « ثلوب ») .
- * الباجي (أبو مروان عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم) ابن
بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين ، تحقيق
(د. عبد الهادي التازي) ، بيروت (١٢٨٣ هـ / ١٩٦٤ م) .
- * بالنتيا (أنخل جنثالث) : « تاريخ الفكر الأندلسي » ، ترجمه عن الإسبانية
(د. حسين مؤنس) ، القاهرة (١٩٥٥) .
- * بروفنسال (ليفي) : « الإسلام في المغرب والأندلس » ، ترجمة د. السيد محمود
عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي - القاهرة (١٩٥٦ م)
- * البكري ، أبو عبيد : « وصف أفريقية والمغرب » .
- * العلبنسي ، الحافظ مجد الدين أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي بن محمد بن حية
الكلبي الأندلسي : « لطرب من أشعار أهل المغرب » ، تحقيق (إبراهيم الإبياري و د.
حامد عبد المجيد و د أحمد أحمد بدوي) القاهرة في (١٩٥٤ م) .
- * تويتجي ، أرنولد : « الإسلام والمغرب والمستقبل » ، ترجمة (د. نبيل صبحي) ،
بيروت (١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م) .
- * الجرجي ، محمد أبو واس : « مؤنس الأجلة في أخبار جربة » ، تحقيق (محمد
المرزوقي) ، تونس (١٩٦٠ م) .
- * ابن حزم الأندلسي ، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد . « التلخيص لوجه
التلخيص » ، تحقيق (د. إحسان عباس) ، القاهرة (١٢٨٠ هـ / ١٩٦٠ م)
- « نقط العروس لابن حزم » ، تحقيق (د. شوقي ضيف) ، جامعة القاهرة
(١٩٥١ م)

— « طسوق الحمامة في الألفة والألاف لابن حزم » ، تحقيق (حسن كامل الصيرفي)
القاهرة (١٩٥٩ م)

* د. حسين مؤنس : « رحلة الأندلس » ، القاهرة (١٩٦٣ م).

« السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين » القاهرة (١٩٥٠ م)

« المسلمون في حدود البحر الأبيض المتوسط إلى الحروب الصليبية » ، القاهرة
(١٩٥١ م).

* ابن حيان ، أبو مرزوان حيان بن خلف بن حسين بن حيان بن محمد : « المقتبس في
أخبار بلد الأندلس ».

— الجزء الثاني ، تحقيق (د. محمود علي مكي) ، بيروت ، (١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م)

— قطعة من الجزء الثاني نشرها (ليفى بروفنسال) ، سنة (١٩٥٠ م).

— الجزء (السفر) الخامس ، مخطوطة المكتبة الملكية بالرياض رقم ٨٧.

— جزء مخصص بخمس سنوات من خلافة الحكم المستنصر ، تحقيق (عبد الرحمن علي
الحجي) ، بيروت : (١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م) .

* ابن الخطيب ، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد
السلماني : « الإحاطة في أخبار غرناطة » ، تحقيق (محمد عبد الله عنان) القاهرة
(١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م)

— « نفاضة الجراب في عمالة الاغتراب » ، تحقيق (د. أحمد مختار العبادي) القاهرة .

— « كناسة الدكان بعد انتقال السكان » ، تحقيق (د. محمد كمال شبانة) ، القاهرة .

— « روضة التعريف بالحب الشريف » ، تحقيق (محمد الكتاني) ، بيروت

— « أعمال الأعلام » ، ثلاثة أجزاء .

الأول : لا يزال مخطوطا ،

الثاني : نشره ليفى بروفنسال تحت عنوان « تاريخ إسبانيا الإسلامية » .

الثالث : نشر بعنوان « تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط » ، تحقيق (د. أحمد
مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني) المغرب (١٩٦٤ م) .

* ابن خاقان الفتح ، « قلائد العقيان من محاسن الاعيان » تونس (١٢٨٦ هـ - ١٩١١ م)

* ابن خلدون : « انعر » بيروت (١٩٥٨ - ١٩٦٠ م) .

* ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر : « وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان » ، تحقيق (د. إحسان عيسى) ، بيروت (١٩٦٨ م)

* الديباغ ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الانصارى الأسدي : « معالم الإيمان في معرفة أهل الفيوان » ، تحقيق إبراهيم شيوخ ، القاهرة (١٢٨٨ هـ / ١٩٦٨ م) .

* ابن الدلاش ، أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس العذري : « نصوص عن الأندلس » تحقيق (د. عبد العزيز الأهواني) ، مدريد (١٩٦٥ م)

* ابن أبي دينار ، أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني الفيرواني : « المؤنس في أخبار إفريقية وتونس » ، تحقيق (محمد شعام) ، تونس (١٩٦٧ م) .

* ابن الزبير ، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم : « صلة الصلة » تحقيق (ليفي بروفنسال) ، الرياض (١٩٢٧ م) .

* ابن زيري ، عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس : « التبيان » ، تحقيق (ليفي بروفنسال) ، القاهرة (١٩٥٥ م) .

* سالم ، السيد عبد العزيز : « قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس » ، بيروت (١٩٧١ م)

* السلمي ، أبو مروان عبد المت بن حبيب : نص ، نشر ودراسة يالاسبانية . د. محمود علي مكي ، مدريد (١٢٧٧ هـ / ١٩٥٧ م) .

* شبانة ، محمد كمال : « يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة » ، القاهرة (١٩٦٩ م) .

* ابن صاعد ، أبو القاسم الأندلسي الطليطل بن أحمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد : « طبقات الأمم » ، القاهرة .

* طرخان ، إبراهيم علي : « المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى » ، القاهرة (١٩٦٦ م) .

* ابن عبد البر ، أبو عمر يوسف : « الاستيعاب في معرفة الأصحاب » ، تحقيق علي محمد البجاوي ، القاهرة (١٣٨٠ هـ / ١٩٦٦ م) .

* ابن عميرة الضبي ، أحمد بن يحيى بن أحمد : « بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس » ، القاهرة (١٩٦٧ م) .

* عنان ، محمد عبد الله : « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المقتصرين » ، القاهرة (١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م) .

- « الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال » ، القاهرة (١٩٨١ هـ / ١٩٦١ م) .

- « لسان الدين بن الخطيب » ، القاهرة (١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م) .

* ابن عيساض ، القاضي عيساض بن موسى : « ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك » ، تحقيق (د. أحمد بكير محمود) ، بيروت ، (١٣٨٤ هـ / ١٩٦٥ م) .

* الغبريني ، أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله : « عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية » ، تحقيق (عادل نويهض) ، بيروت (١٩٦٩ م) .

* الغرقاطي ، محمد أيوب بن غالب : « فرحة الأنفس في أخبار الأندلس » ، تحقيق (د. لطفي عبد البقيع) ، القاهرة (١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م) .

* الغساني ، محمد بن عبد الوهاب : « رحلة الوزير في اقتكالك الأسير » ، المغرب (١٩٤١ م) .

* الفاسي ، علي بن أبي زرع : « الذخيرة السنبة في تاريخ الدولة المرينية » ، الرباط (١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م) .

* ابن فرجون ، برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد : « الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب » ، القاهرة (١٣٢٩ هـ) .

- * **ابن الفروسي** ، الجافظ أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي «تاريخ علماء الأندلس» ، القاهرة (١٩٦٦ م) .
- * **ابن القاضي** ، أبو العباس أحمد بن محمد الكناسي : «درة الحجال في أسماء الرجال» تحقيق (محمد الأحمدى أبو النور) ، القاهرة - تونس (١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م) .
- * **ابن القطان** ، أبو علي حسن بن أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الملك بن يحيى «نظم الجمان» ، تحقيق (د. محمود علي مكي) ، الرباط .
- * **القزويني** ، زكريا : «آثار البلاد وأخبار العباد» ، بيروت (١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م) .
- * **ابن القوطية** ، أبو بكر محمد : «تاريخ افتتاح الأندلس» ، تحقيق (د. عبد الله أنيس الطباع) ، بيروت (١٩٥٧ م) .
- * **القيرواني** ، أبو العرب محمد بن أحمد بن نعيم «طبقات علماء أفريقية وتونس» تحقيق علي الشابي ونعيم حسن الباقي ، تونس ١٩٦٨ .
- * **القيرواني الخشني** ، أبو عبد الله محمد بن حدرث بن أسد : «قضاة قرطبة» ، القاهرة (١٩٦٦ م) .
- * **ابن الكردبوس التوزري** ، أبو مروان عبد الملك : «الاكتفاء في أخبار الخلفاء» ، نشر تحت عنوان «تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط» ، تحقيق (د. أحمد مختار لعبادي) ، مدريد (١٩٧١ م) .
- * **الكنائي** ، أبو زكريا يحيى بن عمر بن يوسف بن عامر : «كتاب أحكام السوق» ، تحقيق (د. محمود علي مكي) ، مدريد (١٢٧٥ هـ / ١٩٥٦ م) .
- * **كنون** ، عبد الله : «أبو البقاء الرندي» ، طبعة مدريد (١٢٧٨ هـ / ١٩٥٨ م)
- * **المالكي** : أبو بكر عبد الله : «رياض النفوس» ، تحقيق (د. حسين مؤنس) ، القاهرة (١٩٥٤ م) ، الجزء الأول .
- * **المديني** ، أحمد توفيق : «المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا» ، تونس (١٣٦٥ هـ)
- * **المراكشي بن عذاري** ، أبو عبد الله محمد : «البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب» .

الأجزاء :

- الأول والثاني : تحقيق (كولان وليفى بروفنسال) ، باريس (١٩٤٨ م) .
- الثالث : تحقيق (ليفى بروفنسال) ، باريس (١٩٢٩ م) .
- الرابع : جمع وتعليق (د. إحسان عباس) ، بيروت (١٩٦٧ م)
- القسم الثالث : نشر (امبرسى هويثى ميراندا ومساهمة محمد بن ثاويت ومحمد إبراهيم الكتانى) : تطوان (١٩٦٠ م) .
- * المراكشى ، محيي الدين عبد الواحد بن علي . « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » ، تحقيق (محمد سعيد العريان) ، القاهرة (١٢٨٧ هـ / ١٩٦٧ م) .
- * المقرئ التكمساتي ، شهاب الدين أحمد بن محمد : « أرهاق الرياض في أخبار عياض » ، تحقيق (مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي) ، القاهرة (١٣٢٩ - ١٣٤١ هـ / ١٩٢٩ - ١٩٤٢ م)
- « نفع لطيف من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » تحقيق (د. حسان عباس) ، بيروت (١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م)
- * مكى ، محمود علي : « وثائق تاريخية جديدة » ، مدريد (١٩٥٩ - ١٩٦٠ م)
- « مدريد العربية » ، القاهرة .
- * المنذرى ، الحافظ : « مختصر صحيح مسلم » ، تحقيق (محمد ناصر الدين الألبانى) ، طبعة الكويت (١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م) .
- * مؤلف مجهول « أخبار مجموعة » ، مدريد (١٨٦٧)
- « نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر » ، تحقيق (الفريد البستاتى) ، المغرب (١٩٤٠ م) .
- نشره (ليفى بروفنسال وغرسيه غومس) مدريد (١٩٥٠ م) .
- * الناصري السلوى ، الشيخ أبو عباس أحمد بن خالد « الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى » ، تحقيق (لدى المؤلف) (جعفر ومحمد) ، الدار البيضاء (١٩٥٤ م)
- * النباهي ، أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن محمد بن الحسن : « المرتبة العليا في من يستحق القضاء والفتيا » نشر (ليفى بروفنسال) ، القاهرة (١٩٤٨ م) .
- وثائق عربية غرناطية ، تحقيق (لويس سيكودي لوثينا) ، مدريد (١٢٨٠ هـ / ١٩٦١ م) .

(ب) مراجع غير عربية

Amador de los Ríos y Villalro ,

Inscripciones Arabes de Córdoba, La Mezquita Aljama, Madrid
1879 - 1880 .

Asín Palacios, Miguel.

La Escatología Musulmana en La Divina Comedia, 2a ed. 1962.

A. Bell.

La Religion Musulmana en Berbérie, Vol. 1, 1938.

C. H. Bouquet, Alger , 2ème édition , 1946

M. Caudel. L'Afrique du Nord, Les Byzantins et les Berbers avant les m-
vasions. 1900.

E. Fagnan ,

Extraits inédits relatifs au Maghreb, Alger, 1924.

Isrett, Michael,

Problems in the interpretation of the History of the Maghreb in the
light of some recent publications. Journal of African History, XIII,3
(1972) .

Corde, Antonio José,

Historia de España Musulmana, Madrid 1848.

b. Coni Gastambide.

La Historia de la Bula de Cruzada, Vitoria 1958.

Dozy, Reinhardt Peter -Ann,

Histoire des Musulmans d'Espagne. Nouvelle Edition par Levi Pro-
vencal Leyde , 1931 .

Recherches sur l' Histoire de la Litterature des Arabes d'Espagne
pendant le Moyen - Age, 3ème ed 1881.

H. Fournel.

Les Berbers. 2 vol . Paris 1875 - 1880.

E C. Gautier.

Les Siècles Obscurs de l'Histoire du Maghreb. 2ème ed. Paris 1938.

Hady Roger Idris,

Initiation à la Tunisie; Paris 1950.

Huici Miranda, Ambrosio,

-Las Grandes Batallas de la Reconquista, Madrid 1956.

- Historia Política del Imperio Almohade, 3 vols. Valencia 1956.
- José Antonio Maravall,
El Concepto de España en la Edad- Media, Madrid 1954
- Julien, Charles- André.
Histoire de l'Afrique du Nord de la Conquête Arabe a 1830,
2ème Edition par Roger Le Tourneau, Paris 1966.
- Justo Perez de Urbel.
Historia del Condado de Castilla, Madrid 1945.
- Lacarra, José Maria,
Historia de la Edad Media, Barcelona 1960
- Levi Provencal
- L'Espagne Musulmane au xé Siècle, Paris 1932.
Histoire de l'Espagne Musulmane ;3 volumes, 2a ed. Paris 1948.
-Les Historiens de Choria, Paris -Larose 1922.
- F. Lo., Ch Pfister et F.L. Garshof
Les Destinées de l'Empire d'Occident, de 395 à 888. (Histoire du
Moyen-Age de Gloiz) tome I. Paris 1940, p. 233-253
- Luis Gonzales de Azevedo
Histoire de Portugal, Lisboa, 1942-1944 .
- Marcus, George.
L' Architecture Musulmane d' Occident, Paris 1954.
- أبو زكريا ، كتاب السمر وأخبار الأئمة ، الإباضية في المغرب ، نشر قطعة منه مع
ترجمة فرنسية (ماسكراني) بعنوان
- Masqueray, Chronique d' Abou Zakaria (Livre de Ben Mzab)
Alger, 1878
- Mercier, Ernest.
Histoire de l' Afrique Septentrionale, Paris 1981 .
- I F. Martinez Fernando
Jaime II de Aragon - Su Vida Familiar, Barcelona 1949
- Menendez Pidal, Ramon
La España del Cid, 2 vols. Madrid 1940

Moreno, Manuel Gomez,

- Arte Arabe Espanol hasta los Almohades.

- Arte Mozarabe. Volumenes III y IV de Historia Universal del Arte Hispanico, Madrid 1951 -1954.

Pellegrin A, Histoire de la Tunisie, Tunis 1948.

W. Piskorski,

Las Cortes de Castilla en el Periodo de tránsito de la Edad Media á la Moderna (1188 - 1520) Barcelona 1933.

R. Saavedra.

Estudio sobre la invasion de los Arabes en Espana, Madrid 1892.

C. Sanchez Albornoz,

Espana un enigma historica, Buenos Aires, 1926.

Torres Balbas, Leopoldo,

Arte Califal (Historia de Espana dirigida por R. Menendez Pidal) tomo V , 2a ed 1956.

Fr. Simonet,

Historia de los Mozarabes de Espana, Madrid 1904.

M. Torres, El Estado Visigotico.

Algunos datos sobre su formacion y principios fundamentales de su organizacion en Anuario Hist. Der. Espanol II, 1926 y p. 307-457.

Wansbrough, John,

On recomposing the islamic History of North Africa.

Journal of the Royal Asiatic Society.

أما تتوابع العمدة لإسبانيا فكثيرة . أشرنا إليها في المدخل الجغرافي لتاريخ الأندلس (ص ٢٤١ وما بعدها من ذلك الكتاب) ومعظم هذه الكتب تحمل عنوان .

Historia de Espana

Historia General de Espana

وأهمها ما افه

Ambrosio de Morales, Esteban de Garibay, F. Juan de Mariana,

Alejandro Herculano, Antonio Alcalá Galiano, Modesto Lafuente,

Rafael Altamira, Ramon Menendez Pidal.

Antonio Ubieto, Juan Regla, José María Jover,

Introducción a La Historia de Espana, Barcelona 1963.

الفهارس العامة

- * فهرس الأعلام .
- * فهرس الأماكن والبلدان والجيال .
- * فهرس القبائل والطوائف والأكن .
- * فهرس الكتب والمجلات .
- * الخرائط .
- * فهرس موضوعات الكتاب .

أرمنجول (كوت) : ٤١١	لفونسو التاسع : ٢٢٨
أرموجيو : ٣٦٥	لفونسو الثالث (الكبير) : ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٥٦،
أرنولد توبس : ٣٨٢	٢٥٧، ٢٤٧، ٣٤٨، ٢٦١، ٣٦٣
إسحاق (من إبراهيم) للموصل (ت : ٢٣٥ هـ) :	لفونسو الثامن : ٢٢١، ٢٢٧، ٢٢٢، ٤٢٨، ٤٣٩
٣٣٢	لفونسو الثاني : ٣٢٣
إسحاق بن علي بن ناشفين (ت : ٥٤٢ هـ) : ٢١٤	لفونسو الخادي عشر : ٤٤٩، ٤٥٢
إسحاق بن علي بن غانية : ٢٢٩	لفونسو الخامس : ٢٥٦
إسحاق بن محمد بن عنة (ت : ٥٧٩ هـ) : ٢٢٥	لفونسو الرابع : ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٧٠
إسحاق بن محمد القرشي : ٣٦٥	لفونسو السابع بن ويون : ٢١٧، ٤٣٨
أحمد بن الفسرات (ت : ٢١٣ هـ) : ١٠٦، ٨٦، ١٠٦	لفونسو اسامس : ١٩٤، ١٩٦، ١٩٩، ٢١٦،
٣٠٩، ١١٢، ١٠٢	٢١٨، ٢٤٣، ٤١٦، ٤١٨، ٤٢٠، ٤٢٢،
إسماعيل بن جعفر الصادق (ت : ١٤٣ هـ) : ١٣٦	٤٣٥، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٣
١٣٧	لفونسو العاشر : ٤٤٥، ٤٤٧، ٤٤٩
إسماعيل بن عبد الله : ٢٧٩	لفونسو القس : ٣٤٩
إسماعيل (بن محمد) أبو الطاهر المنصور (ت :	لفونسو اريكس : ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٤٣،
٣٤١ هـ) : ١٤٩، ١٥٠	٤٣٨
إسماعيل بن محمد بن عباد (أبو القاسم) : ٤١٧،	لفونسو بيريت دي قرمان : ٤٤٧
٤٢٦	إلياس بن حبيب : ٧٩٠
إسماعيل النصري أبو لوليد (ت : ٧٢٥ هـ) :	أليرويو اوش : ١٩
٤٥٠، ٤٤٩	أليوي غوسيه غوس : ٢٥٨
إسماعيل الهزرجي أبو إبراهيم أيج : ٢٢٠	الأمين العباسي : ١٣٥
أشهب بن عبد العزيز (ت : ٢٠٤ هـ) : ٣٠٩	أمية بن معاوية بن مشام : ٣٢٣
أم الأصبح : ٢٨٨	أمية بن راحلي : ١٨٤
أصبغ بن وكيل (فرعوش) : ١٠٣	أوتو (أمير طور) : ٣٧٣، ٣٨١
الأعرابي = سليمان بن يقدن الكلي	أوتو الثاني : ٣٨٦
الأهلب بن سالم بن عقاب النعمي (ت : ١٥٠ هـ) :	أودو (الدوق) : ٢٩١، ٢٩٥، ٢٩٧
٩٥، ٩٢، ٨١	أودونيو الأول : ٣٤٧
أنصح بن عبد الوهاب : ١١٩	الأوزاعي = عبد الرحمن بن عمرو
أكس لاشابل : ٣١٤	الأوسط = عبد الرحمن بن الحكم
الأركون (مشرق) : ٢٥١	ابن أبيك الصفدي = خليل
البرهانس : ١٩٥، ١٩٧، ٤٢٠، ٤٢٢، ٤٣٠، ٤٣٢	أيت ايلان : ١٨٧
٤٣٢	إيزابيلا : ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٥٤
إمارهانث = البرهانس	إيريدور أيباسي : ٢٥٥
العريد البستاني : ١٨	إيكاروس : ٣٣٥
لفونسو : ٣١٢، ٣١٣	أيوب بن حبيب اللخمي : ٢٧٨، ٢٧٩
لفونسو الأول (للعارب) : ٢١٦، ٢٤٣، ٤٣٣،	إينيجو أريستا : ٣١٣
٤٣٦، ٤٣٥	

ب

باديس بن حبوس (ت: ٤٦٥ هـ): ١٤٤
 باديس بن ماسكين بن زيري نصير الدولة (ت: ٤٠٦ هـ): ١٦٥، ١٦٠، ١٥٤
 باديس بن منصور بن لناصر: ١٧٣
 البارز القرطبي (ت: ٣٢٥)
 بتروس (زعيم): ٣١٢
 بدر (مولى عبد الرحمن بن معاوية): ٢٨٩، ٢٨٨، ٣٠٤
 بدر بن أحمد: ٣٧٤، ٣٦٥، ٣٥٦، ٣٥٥
 بدو شاكينا ساندرون: ٢٤٥
 بر بن قيس: ٢٨
 برمودة الثالث: ٤٢٦
 برمودة الثاني: ٣٩٧، ٢٥٦
 ابن بام = أبو الحسن علي الشتريني
 بيسكوال دي جايانغوس: ١٥، ١٧، ٢٤٧
 بشار بن برد (ت: ١٦٧ هـ): ٣٣٩
 بخر بن مروان: ٥٨
 ابن بشكوال = حلف بن عبد - خلف أبو القاسم
 بطليموس: ١٩٥، ١٩٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٥٨
 - ٣٥٩، ٣٦٤، ٣٩٩، ٤١٧، ٤٢١، ٤٢٩
 ٤٣١، ٤٣٦
 بقى بن مفضل: ٣٣١
 بكر بن وائل: ٣٣٥
 أبو بكر بن ايحيى (أبو يحيى): ٢٢٠
 أبو بكر بن الجعد: ٢١٥
 أبو بكر الويلدي: ٣٨٩
 أبو بكر بن الصخر وية: ٢٢٤
 أبو بكر الصديقي (ت: ١٣ هـ): ١١٧، ١٢٩
 أبو بكر الصنهاجي (البيدي): ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٦
 أبو بكر بن عبادة بن ماء السماء: ٢٤٥
 أبو بكر بن صمار: ٤١٨
 أبو بكر بن صمر الجندلي: ١٨٦ - ١٨٨
 أبو بكر بن صمر بن وائل بن ثنونة: ١٨٤، ١٨٨، ١٩٠
 أبو بكر بن اقبطورية: ٢١٥

أبو بكر بن القوطية: ٣٨٩

أبو بكر بن معاوية القرشي: ٣٨٩

أبو بكر بن هذيل: ٣٤٢

البكري: ١٨١

بلاحيوس: ٣١١

بلاسكت بوسكو: ٣٧٦

بلاطة = بيلاتوس

بلاي: ٢١٢

بلج بن بشر الفشيري: ٧٤، ٢٨١، ٢٨٢

بلكن بن زيري بن مناد أبو الفتح (ت: ٣٧٤ هـ)

١٤٩، ١٥٠، ١٥٤، ١٥٦، ١٥٨، ٣٩٦

بلكن بن محمد بن حماد: ١٧٢

أبو البهار بن زيري بن مناد: ١٥٩

بهرم: ١١٦

البهلول بن راشد: ٨٥، ٨٦

البياسي = أبو محمد عبد الله

البيدي = أبو بكر الصنهاجي

بيرجر ومون الأول: ٤٢٦

بيلاتوس: ١٠١، ١٠٢

بيلابو: ٣١١

ت

تاشفين بن علي: ٢٠٠، ٢١٣، ٢١٧، ٤٣٢

تاشفين من وائل بن ثنونة: ١٨٤، ١٨٨

تالميت بن عساجة: ١٨٤

ترغوت بن ورتاش بن منصور: ١٨٤

ابن تعيشت = محمد بن يوسف بن تاشفين

التلمساني = المقرئ

تمام بن علقمة: ٢٩٩، ٣٠٠

أبو تمام: ٢٢٩

تيم بن المعز بن باديس: ١٥١، ١٧١، ١٧٢، ١٧٥

١٧٦

تيم بن يوسف (أرابيقي): ١٩٩

تيم بن يوسف بن تاشفين: ٤٢٣

تود (مبتكة): ٣٣٦

تودور مومسن: ٢٥٦، ٢٥٧

توفينوس: ٣٣٦



ثعينة بن سلامة العاملي : ٢٨٢

تعد بن محمد بن عبد الوارث : ٣٥٩

ثورينا (الأب) : ٢٥٧

ثيودوريال : ٢٢٧



الحافظ - عمرو بن بحر

ابن جبر : ١٢٢

حرجير : ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦

جرخوروس = حرخير

جريد بن ألبير : ٣٨١

جعد بن عبد العادر : ٣٥٢

جعفر (بن عثمان) المصطفى : ٣٨٩ - ٣٩١ ، ٤٠٢

جعفر بن علي بن حمدون الزناني : ١٥٤ ، ١٥٧ ، ٣٩٦

جعفر بن صبر بن حفصون : ٣٥٧

جعفر بن صلاح : ١٥١

جعفر (بن يحيى) البرماني (ت : ١٨٧ هـ) : ١٢٧٠

أبو جعفر المنصور : ٧٨١ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٨٨

أبو جميل = زياد بن مراح

جناديوس : ٣٧

جوزف الصقلي : ١٤٧ ، ٢٩٠

جورج كولان : ١٩

جورج مارسيد : ١٥٦

جوهر الصقلي : ١٥١

جويلا : ٢٩

جياغوس : ١٨



أبو حاتم : ٨١ ، ٨٢

الحاكم أمر الله = منصور بن غزار

أبو حامد الفزالي = محمد بن محمد الطومس

حباثة بن زاوي بن زيري : ١٦٠

حبوس بن زاوي بن زيري : ١٦٠

حوس بن ماكسن : ٣٧٠ ، ٤١٣

حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع : ٧٤ ، ٢٧٧

حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب : ٧٩

حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب : ٣٥٦ ، ٣٥٧

الحجاج بن يوسف الثقفي : ٤٨ ، ٥٨ ، ٦٧ ، ٧٠

أبو الحجاج = يوسف بن قادم

الحمر بن عبد الرحمن الملقب : ٢٧٩ ، ٢٩٢

الحرم = علي بن أحمد بن حزم

أبو الحزم بن جهور : ٤١٥

الحسام بن ضرار الكندي أبو الخطار : ٢٨٣ ، ٢٨٤

حسام الدولة المظفر : ٤٢٥

حسان بن أبي عبد : ٣٢٦ ، ٣٠٠

حسان بن النعمان الفسائي : ٤٧ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٩

٢٩٦ ، ٢٩٣ ، ١٠٨

حسداي بن إسحاق بن شبروت : ٣٦٩

الحسن بن حرب الكندي : ٩٣ ، ٩٦

الحسن بن علي بن قيس بن دعر : ١٧٢

الحسن بن علي الزيري : ١٥٤

الحسن بن علي بن أبي طالب : ١٢٥ ، ١٣٦ ، ١٤٥

الحسن بن علي بن الحسين : ١٣٦

الحسن بن علي البشاروي أبو محمد (الوزير

الفاطمي) : ١٦٧

الحسن القرطبي : ٣٧٦

الحسن بن كنون (ت : ٣٣٧ هـ) : ١٢٩٠ ، ١٣٢

٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩٦

الحسين بن يحيى الأنصاري : ٣٠١ ، ٣٠٢

حفص بن الحر : ٣٨٤

حفص بن عمر بن حفصون : ٣٥٧

أبو حفص عمر بن يحيى (الهشاني) (ت : ٥٧١ هـ) :

٢٠٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٣٦

الحكم بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط : ٢٩٩ ،

٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٥

٣٣٠ ، ٣٣٤ ، ٣٤٦

الحكم بن عبد الرحمن التامير المستعمر (ت :

٣٩٦ هـ) : ١٦٠ ، ١٥١ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٤٣

٢٤٥ ، ٢٥٦ ، ٣١١ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٦٨

٣٧١ ، ٣٧٧ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٨

حلف بن عبد الله بن يثكوال (ت : ٥٧٨ هـ)

٢٩٠ ، ٢٥١

ابن حلكان = أحمد بن خلكان

خليل بن أبيك الصفدي (ت : ٧٦٤ هـ) (٢٥٠٠ هـ)

حوليان ريس : ١٨٠ ، ٢٤٦

حيون : ٢٧٤ ، ٣١١

حيران : ٤١٢ ، ٤١٣

حير بن خزر : ١٨٢

حيث خرمه : ٣٩٧



أبو دنس : ٤٣٨

دانتاري : ٢٢٣ ، ٣٣٦

دهيا بنت رها : ٤٨

دود بن محمد بن إدريس : ١٣٠

دندان : ١٣٩

دوزي = ربهارت بتر أو

دولاند : ٣٠٢

دولتديو (أسف) : ٣٦٥

دون بنو : ٤٤٩

دون خوان : ٤٤٩

دي مونروي : ٤٢٤

دينار أبو المهاجر (ت : ٩٣ هـ) : ٤١ ، ٤٣ ، ٤٥

٧٨ ، ٧٧

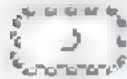
دينوبودي لامر : ٤٤٧

ديو سقويديس : ٣٨٤



دلقاه (أم عبد الملك القفر) : ٤٠٧

ذو ابرمة = غيلان بن صفة



رامك (مولى إدريس بن عبد الله) : ١٢٨ - ١٣٦

رامون بولخير الأول : ٤٢٨

رامون بولخير الرابع : ٤٣٣ ، ٤٣٦

رامون بوزيل الثالث : ٤٠٦ ، ٤١١

رامون مستدث بيسال : ٢٥٧ - ٢٥٩

٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٤٠٣ ، ٤١٦

٤١٩ ، ٤٢١

حلاوة (جارية جليقية) : ٣٢٢

الحلواتي : ١٣٩

حماد بن يوسف بن يثكوال من زيري : ١٦٠ ، ١٦١

١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٤

حمادة المسجد = هوس بن أنطيان

حمدان قرمت : ١٤٤

ابن حمد بن (القاضي) : ٤٣٦

حمزة بن محمد بن إدريس : ١٣٠

الحمداني = محمد بن هوج بن عبد الله

حش بن عبد الله الصنعاني : ٢٧٢ ، ٢٧٣

حطلة بن مستقران الكسي : ٧٥ - ٧٦ ، ٨٦ ، ٨٧

٨٩ ، ١٠٨ ، ٢٨٣

أبو حنيفة = النعمان بن ثابت

أبو حنيفة = النعمان بن محمد الشبلي

ابن اخولس : ١٧٢

بن حوشن انصويي : ١١٤ ، ١٦٣ ، ٣٧٧

حيان بن خلف بن صاحب بن حيان أبو مروان (ت :

٤٦٩ هـ) : ١٥ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٣٧٩ ، ٣٨٦

٣٨٩



خالد بن حبيب : ٧٤

خالد بن الوليد : ٥٨ ، ٢٧٥

خالد بن يزيد : ٤٩ - ٥١

خالد بن يزيد الزناني : ٧٤

خاتمة الأول الكبير : ٢٤٣ ، ٤٤١

خروون بن ملغل بن حزر الزناني : ١٥٧

ابن الخطيب المقرئ (ت : ٧٧٦ هـ) : ١٤ ، ١٦

١٥٥ ، ٢٤٧ - ٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٤٤٥

٤٥٣ ، ٤٤٤

ابن خلفاسة : ٤٣١

بن خالدون عبد الرحمن بن خالدون (ت : ٨٠٨ هـ) :

١٦ ، ١٦٤ ، ٢٦٠ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣٣١

١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦١ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٠

١٧٧

راميرو الأول بن الفونسو الثاني : ٤٢٦ ، ٣٢٣

راميرو الثالث : ٣٦٨ ، ٣٦٧

راميرو الثاني (رويسير) : ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٣

٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩

رينهارت بيترا موزي (ت : ١٣٠٠ هـ) : ١٩ ، ١٧

٢٤٧ ، ٢٥٢ ، ٣٠٤ ، ٣٨١

ربيع الأسقف : ٣٨٩

الربيع بن سليمان : ١٣١

ربيعة بن عامر بن صمصمة : ١٦٧

رديجو ديث دي بيار : ١٩٤ ، ١٩٩

بن رشاد (محمد بن أحمد ، ت : ٥٩٥ هـ) : ٨

٢٣٥ ، ٤٣٥

ابن الرقي : ٢٢١ ، ٤٣٨

ابن روبن = محمد بن عبد العزيز

روح الأول النورماندي : ١٧٢ ، ١٧٦

روح بن حاتم (بن تيممة ، ت : ١٧٤ هـ) : ٨٧

رودريجو بوس ديليون : ٤٥٣

ابن ابراهيم (علي بن العباس ، ت : ٢٨٣ هـ) :

٣٣٩

رياجورث : ٢٤٢ ، ٣١٣ ، ٤٢٦

ريشيليو الألبيري : ٤٠٣

ريكارهو : ٢٦٧

ريكارفو (مطران) : ٣٢٦



راوي بن زيري الصنهاجي : ١٦٠ ، ٤١٠ ، ٤١١

٤١٣

لزيير بن علي بن يوسف بن تاشفين : ٢١٣

ابن لزيير = أحمد بن إبراهيم أبو حنيفة

ابن أبي ذرع (علي بن محمد لله ، ت : ٧٤١ هـ) :

٢١

زوياب (علي بن نافع ، ت : ٢٣٠ هـ) : ٣٣٢

٣٣٤

بو زكريا = يحيى بن عاتية

الزناني خليفة : ١٦٩

زهير بن قيس (البلوي ، ت : ٧٦ هـ) : ٤٦ ، ٤٧

١٢٩ ، ٢٩٣

زياد بن أبيه (ت : ٥٣٠ هـ) : ١٧٠

زياد بن عبد الرحمن (شطون) : ٣١٠

زيادة الله الأول (بن إبراهيم بن الأغلبية ، ت : ٢٢٣

هـ) : ٩٨ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩

١١٣

زيادة الله الثالث (بن أبي العباس أبو مصر) (ت :

٣٠٤ هـ) : ١١١ ، ١٤٣

زيان بن مد قع بن يوسف أبو حميل (ت : ٦٣٧

هـ) : ٤٤١ ، ٤٤٣

زيري بن عطية الخزري المخرمي الزناتي (ت : ٢٩١

هـ) : ١٥٩ ، ١٦٠ ، ٢٩٦

زينب بنت إسحاق النصاروية (ت : ٤٦٤ هـ) :

١٨٨



سارة القوطية : ٢٤٦

سالار : ٢٧٣

سالم (مولى عبد الرحمن بن معاوية) : ٢٨٨

سالم بن هود أبو النجاة حماد النوبة : ٤٤٣

سام بيرو : ٢٥٦

سانجو الأول : ٤٢٦

سانشو : ٤٢١ ، ٤٢٢

سانشو أماركة : ٤٠٦

سانشو الأول : ٢٧٠

سانشو بولو : ٤٠٦

سانشو الثاني : ١٩٤

سانشو بن راميروث : ٤٣٢

سانشو عرسية : ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٩٧ ، ٤٠٦

سانشو بن الفونسو السادس : ٢١٨

سانشو الكبير : ٢٤٣ ، ٢٥٦ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨

سانشيت اليوروثوث : ٢٤٦

سبستان (قس) : ٢٥٦

سحون = عبد السلام بن سعيد

سعد بن عبد (ت : ١٤ هـ) : ٤٤٤

سعد بن أبي وقاص (ت : ٥٥ هـ) : ٢٧٥

سعدون الرهيني : ٣١٥

سعدون السرياني : ٣٤٨ ، ٣٨٠

أسيد انقمببشور : ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٤٢٢ .

٤٣٣ ، ٤٣٠

سيف الدولة بن عود : ٤٤٢



شارل مارنل : ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٨

ابن شاكرك الكنبي محمد بن شاكرك (ت : ٧٦٤ هـ)

٣٥

شاكرك لله المزارى (محمد بن انفتح) : ١٥٨

بن الشالية : ٣٨٠

شاكرك الرابع : ٤٤٩

شبطون = زياد بن عبد الرحمن

شارلمان : ٢٩٨ ، ٣٠٦ ، ٣٠٢ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣٢٣

شعبا بن عبد لو حد : ٣٠٦

شلد براند : ٢٩٨

شماخ = سليمان بن جرير

شماخي (أحمد بن محمد ، ت : ٦٢٨ هـ) : ١١٧

الشتريني = أبو احسن عيسى بن بسم

شهر بن حوشب (ت : ١١٠ هـ) : ١٣٩ ، ١٤٠

شهيد بن عيسى بن شهيد بن الوضاح الاشجعي

٢٩٩ ، ٣٠٠

صاحب احمار = مجلد بن يزيد

صاحب القلعة = حماد (ابن عم المعز بن باديس)

صالح (بن طريف) السرهوطي (ت : ١٧٥ هـ)

١٨٣

صالح بن علي : ١٩١

صالح بن منصور الحميري (ت : ١٣٠ هـ) : ٩٠

صالح بن أبي صالح بن عبد الحليم أبو علي : ٢٠٠

٢١

صبيح (البكسية) : ٣٨٩ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤

٤٠٢

الصعدي = خليل بن أبيك

أبر حقوان (حاكم النفر الأعلى) : ٣١٤

صلاح الدين الأموي (يوسف بن أيوب ، ت : ٥٨٩

هـ) : ١٧٣ ، ١٩٦ ، ٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧

الصميل بن حاتم (ت : ١٤٢ هـ) : ٢٨٤ ، ٢٨٥

٢٨٧ - ٢٩٠ ، ٣٠٥ ، ٣١٣ ، ٣٩٨

أبو سعيد الحبابي : ١٤٤ ، ١٤٥

سعيد اليحصي (انطري) : ٣٠٦

سعيد بن جودي : ٣٥٦

سعيد بن الحداد أبو عثمان : ١١٢ ، ١٤٣

سعيد بن منذر : ٣٦٠

سعيد بن هبيل المولد : ٣٥٥

سعيد بن أبي هند : ٣١٠

أبو سعيد فرج : ٤٤٩

سقين (مع اخاره شهر بن حوشب) : ١٣٩

سقوط لبرخو طي : ١٩١

بن سكره : أبو علي الصدي

سكن بن ابراهيم الكاتب : ٢٤٥

سنة بن سعيد : ١١٥

أبو سلمة الحلال (وزير آل محمد) : ١٣٦

ابن السليم = محمد بن سعيد

سلم بن منصور : ١٣٥ ، ١٦٦

سليمان (عبد السلام) : ٢٧١

سليمان (عم احكم بن هشام) : ٢١٤

سليمان (ابن عم محمد بن إدريس الثاني) : ٢٣٠

سليمان بن جرير : ١٢٧

سليمان بن عبد الرحمن الداخل : ٣٠٩ ، ٣١١

سليمان بن عبد الله : ١٢٥

سليمان بن عبد الملك الأموي (ت : ٩٩ هـ) : ٦٣٠

٦٤ ، ٧٠ ، ٢٤٦ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٨

٢٩٩

سليمان بن عمر بن حفصون : ٣٥٧

سليمان بن محمد بن هود الجذامي أبو أيوب (ت : ٤٣٨ هـ) : ١٢٤

سليمان بن هشام المستمين : ٤٠٨ ، ٤١٠ ، ٤١٣

سليمان بن يقطان الكلبي الأعرابي : ٣٠٦ ، ٣٠٧

سماحة بن عبد الرحمن بن مطرف : ٣٩٩

السمح بن مالك الحولاني (ت : ١٠٢ هـ) : ٢٨٠

٢٩٢

سلوريد (أنقف) : ٢٧١

سور بن حمدون لقبى البخاري (ت : ٢٧٧ هـ) :

٣٥٢ ، ٣٥١

ض

لضئى = أحمد بن يحيى بن أحمد

حياء الدولة بن منوط : ١٩١

ط

طارق بن زيد ابورنجومى (ت : ١٠٢ هـ) : ٢٤١

٦١ - ٦٣ - ٦٤ - ٧٩ - ٢٦١ - ٢٦٨ - ٢٧٥

٢٩٦

طالوت بن عبد الحبار : ٢٢٠

طهوس بن كيسان (ت : ١٠٦ هـ) : ٣٠٩

طرفة الصقللى : ١٠٥

طروى (بشارة عبد الرحمن) : ٣٣٨

طريف بن زوجه بن أبى مدرك : ٢٦٩، ٢٦٣

ابن طغس (محمد بن عبد الملك، ت : ٥٨٩ هـ) : ٢٣٥

طروقة (أم أردنر الثالث) : ٣٦٧ - ٣٧٠

ع

العادل = أبو عبد الله محمد

عاصم بن جميل : ٧٩

عاصم بن زيد أبو الخشنى : ٣١٦

بن عاصم : ٤٥٥

ابن عائشة = محمد بن يوسف بن ناشفين

عباد بن محمد بن إسماعيل أبو عمر بن محمد (ت : ٤٦١ هـ) : ١١١ - ١٢١

عباس بن عبد العزيز انطوى : ٣٤٤، ٣٤٧

عباس بن فرانس (ت : ٦١٤ هـ) : ٣٣٤، ٣٣٥

أبو العباس بن إبراهيم بن الأغلب : ٩٩، ١٠٠

١٤٣

أبو عباس بن ذكوان : ٤١٦، ٤١٧، ٤١٨

أبو العباس السماع : ١٠٤٠

أبو العباس عبد الله : ١٠٧

أبو عباس محمد بن الأغلب : ١٠٩

أبو عباس محمد بن أبى عقاب الأعلى : ١٠٥

أبو عباس المخطوم : ١٤٠، ١٤٣، ١٤٦

عبد الأعلى بن السمع السمارى أبو الخطاط (ت : ١٤٦ هـ) : ١٤٦، ١٤٣، ١٤٠

١٤٤ هـ) : ٧٩، ٨٠، ٨٧، ١١٥، ١٢٦

١٨٣، ١٨٤

عبد الحافظ شلى : ٢٤٩

عبد الحلق المرسى منصور أبو يوسف : ٣٤٧، ٣٤٩

ابن عبد الحليم : ٢١

عبد الحيد بن غانم : ٢٩٩

عبد الحيد لكاتب (ت : ١٢٢ هـ) : ٣٣٩

عبد الرحمن الأمير : ٢٢٤

عبد الرحمن لى (ت : ٢٣٨ هـ) : ٣٢١ - ٣٢٣ - ٣٢٤ - ٣٢٥ - ٣٢٦ - ٣٢٨ - ٣٣١

٣٢٢ - ٣٢٤ - ٣٢٦ - ٣٢٧

عبد الرحمن لى : ٣١٢

عبد الرحمن بن حبيب الصهرى (ت : ١٦٢ هـ) : ٧٦ - ٧٩ - ٨٧ - ٨٨ - ١١٤ - ١٣٤ - ٢٧٧

٢٨٨

عبد الرحمن بن رستم (ت : ١٧١ هـ) : ٧٩ - ٧٢٠

٨٠، ٨٧، ١١٥ - ١١٨ - ٢٢٤ - ٣٢٧

عبد الرحمن شحول : ٤٠٦ - ٤٠٨

عبد الرحمن (بن عبد الله) بن عبد الحكم (ت : ٤٥٧ هـ) : ١٦ - ١٧ - ٥٠

عبد الرحمن بن عبد الله انطوى (ت : ١١٤ هـ) : ٢٨٠ - ٢٩٢ - ٢٩٤ - ٢٩٥ - ٢٩٧

عبد الرحمن على : ٢٤٥

عبد الرحمن بن عمر بن حصون : ٣٥٧

عبد الرحمن بن عمرو الأوزعى (ت : ١٥٧ هـ) : ٨٥ - ٣٠٩

٣٠٩، ٨٥

عبد الرحمن بن القاسم (ت : ١٩٩ هـ) : ٣٠٩

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الباهر (ت : ٣٥٠ هـ) : ١١٩ - ١٥١ - ١٩١ - ٢٤٣

٢٤٥ - ٣١١ - ٣٢١ - ٣٣٥ - ٣٤١ - ٣٤٢

٣٤٧ - ٣٥١ - ٣٨٢ - ٣٨٨ - ٣٨٩ - ٣٩٦

٤٠٢ - ٤٠٣ - ٤٠٧ - ٤٠٩ - ٤١٠ - ٤١٦

٤١٩ - ٤٢١ - ٤٢٢ - ٤٢٦ - ٤٢٩

عبد الرحمن بن حروان الخلفى : ٣٤٨، ٣٥٦

٣٥٨ - ٣٥٩ - ٣٦٢ - ٣٦٤ - ٣٨٠

عبد الرحمن بن مطرف النجيبى : ٢٩٧

عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الدحل (ت : ١٧٦ هـ) : ١٧٦

١٥٠، ٢٠١، ٢١١، ٢٧٠، ٤٦٠، ٤٨٠، ٧٧٠، ٧٨٠	عبد الواحد بن ميثم الرومي : ٢٩٩، ٣٠٠
١٠٥، ١٠٨، ١٢٦، ٢٣٥، ٢٩٣، ٢٩٤	عبد الواحد بن يزيد الهواري (ت : ١٢٤ هـ) : ٧٥
هيكاشة بن أبوب القوارى : ٧٥	عبد الواث بن حبيب : ٧٩
الملاء بن ميثم ليحصب (ت : ١٤٦ هـ) : ٣٠١٠	عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (ت : ١٩٠ هـ) : ١١٩، ١١٨
ابن عقيقة (محمد بن الحنف ، ت : ٥٠٩ هـ) : ٢٢٣	هبله (أم عبد الرحمن المنصور) : ٤٠٦
علي بن أحمد بن حرم (ت : ٤٥٦ هـ) : ٢٥١	أبو عبيد البكري (عبد الله بن عبد العزيز ، ت : ٤٨٧ هـ) : ١٦٠
٣١٨	عبيد الله بن الحجاج (ت : ١٢٣ هـ) : ٧٤، ٧٣
علي بن أنشيلولة أبو الحسن : ٤٤٤	١٠٩
علي بن بام اشترني (ت : ٥٤٦ هـ) : ٢٤٦٠	عبد الله بن زياد (ت : ٦٧ هـ) : ٦٧
علي بن عليم بن بلغز : ١٧٢	عبد الله بن عثمان أبو عثمان : ٢٨٨
علي بن جعفر لاسكندراي : ٣٧٦	عبيد الله (بن محمد) همداني لقاطعي (ت : ٣٢٢ هـ) : ١٤٣، ١٤٤، ١٤٨
علي بن الحسن (زين العابدين ، ت : ٩٤ هـ) : ١٣٦	عبد الله بن محمد بن أبي عبد : ٣٥١
علي بن حمدون لزناني (ت : ٣٣٤ هـ) : ١٤٨	عبيدة بن عبد الرحمن السلمي (ت : ١١٤ هـ) : ٢٩٧
١٥٥	أبو عبيدة بن الجراح (عامر بن عبد الله ، ت : ١٨ هـ) : ٢٧٥٠
علي بن حمود (ت : ٤٠٨ هـ) : ٤١٣	عثمان بن عبد المؤمن أبو سعيد : ٢١٧، ٢١٨
علي بن رباح : ٢٧٢، ٢٧٣	عثمان بن أبي نسيمة : ٣١٢
علي بن عثمان المريثي أبو الحسن (ت : ٧٥٢ هـ) : ٤٥٢	عثمان بن عفان (ت : ٣٥ هـ) : ٣٥، ٣٧، ١١٦
علي بن عمار بن إدريس (ت : ٧٠٠ هـ) : ١٣	عثمان بن أبي العلاء أبو سعيد المريثي (ت : ٧٣٠ هـ) : ٤٤٩، ٤٥١
١٣١	أبو عثمان سعيد بن الحداق : ١١٢
علي بن عاتية : ٢٢٥، ٢٢٦	بن هداري (محمد المراكشي ، ت : ١٧٢ هـ) : ١٤
علي بن نافع = زوياب	١٦، ١٩، ٢٠، ١٤٧، ١٥٥، ١٨٤، ١٨٥
عمر بن محمد بن الأثير (ت : ٦٣٠ هـ) : ١٥	٢٤٩، ٣٠٥، ٣٢٠، ٣٥٢، ٣٧٦، ٣٧٧
٣٠٢، ١٦	٤٤٠، ٣٧٩
علي بن يحيى بن عليم (الصنهاجي ، ت : ٥١٥ هـ) : ١٥٤	عشرة بن عبد الله القهري : ٢٩٤
علي بن يوسف بن ناشقون (ت : ٥٣٧ هـ) : ١٩٩	العزير بالله لقاطعي (نزار بن سعد ، ت : ٣٨٦ هـ) : ١٦٧، ١٦٥، ١٤٤
٢٠٠، ٢١٣، ٢١٥، ٢٢٤، ٢٣٣، ٢٣٥	عزير بن أبي مروان خطاب : ٤٤١
أبو علي الصديقي (بن سكره) : ٢٣٥، ١٣٤٠	لعزير بن المنصور (ت : ٥٤٠ هـ) : ١٧٣
عمر بن إبراهيم بن ثرفوت : ١٨٢	ابن عطاء لأزدي : ٣٥٥
عمر بن إدريس (ت : ٢٢٠ هـ) : ١٣١	عقة بن الحجاج المالولي (ت : ١٢٣ هـ) : ٢٩٨
عمر بن حفص (بن عثمان) بن قبيصة (ت : ١٥٤ هـ) : ٨٧٠	عقة بن نافع (بن عبد قيس) المهري (ت : ٦٣ هـ) : ٤٧٨
٨٧٠	
عمر بن حفصون (ت : ٣٠٥ هـ) : ٣٥٣، ٣٥٩	
٣٥٥، ٣٥٨، ٣٨٠	
عمر بن خطاب (ت : ٢٣ هـ) : ١١٧، ٤٢٩	
عمر بن عبد العزيز (ت : ١٠١٠ هـ) : ٨١، ٩٩	
٢٧٩، ٢٨٠، ٢٩٢	

عمر بن عبد الله (عمر أرتاج، ت: ١٥٤ هـ): ٢٢٠
عمر بن قبيصة أبو حفص النهدي: ١٠٧، ٨٢، ٨١
عمر بن محمد الأفطس لشوكل (ت: ١٨٩ هـ): ٤٣٠
عمر بن وائل بن ثنونة: ١٨٤
عمران بن محالد الريمي: ٩٦
عمرو بن بحر الجاحظ (ت: ٢٥٥ هـ): ٣٣٩
عمرو بن الماص (ت: ٤٣ هـ): ٣٥، ٣٤، ١٥
٢٧٥، ٦٦، ٥١، ٤٨
عمروس: ٢٢٠
عنبر: ٤١٢
عنية بن سحيم الكلبي (ت: ١٠٧ هـ): ٢٧٩
٢٩٣، ٢٩٢
عياض بن موسى اليحصبي (ت: ٥٤٤ هـ): ١٦
٢٤٩
عيسى بن أحمد بن محمد الرازي (ت: ٣٧٩ هـ): ٢٤٥، ١٥٠
عيسى بن الحسن بن أبي هبله: ٣٤٧، ٣٤٤
عيسى بن دينار (ت: ٢١٢ هـ): ٣٢١، ١٠٠
٣٣١
عيسى بن سعيد بن الفطاح (ت: ٣٩٧ هـ): ٤٠٥
عيسى بن شهيد: ٣٣٩، ٣٢٨، ٣٢٧، ٣٢٦
٣٧٩، ٣٤٤
عيسى بن محمد بن إدريس: ١٣٠
عيسى بن مكيون: ١١٢
عشون بن سليمان بن يقظان الأعرابي: ٣٠٢
غالب بن عبد الرحمن الناصري: ٣٦٩، ٣٦٨
٣٩٣، ٣٩٢، ٣٨٨، ٣٨٦، ٣٧٤
أبو غالب الأغلب (إبراهيم بن عبد الله، ت: ٣٦ هـ): ١٠٤، ١٠٣
غرميه (ملك نافر): ٣٤٦
غرميه مانشو الأول: ٤٢١، ٣٦٩
غرميه فومس: ٢٤٤
غرميه بن زنادت: ٣٩٧
غزوية بن يوسف: ١٤٧، ١٤٦، ١٤٣

ف

فاحمة بنت محمد: ١٤٥، ٣٠١
فاطمة بنت محمد القهيري (أم البنين، ت: ٢٦٥ هـ): ١٣١
الفتح بن زنون (ذو البرن، ت: ٣٠٣ هـ): ٣٥٤
٣٦١
الفتح بن دوناس (ت: ٤٥٧ هـ): ١٨٢
فرتون (أمر): ٢٧٤، ٣٥٩
أبو الفرج الأصمعي (علي بن الحسين، ت: ٣٥٦ هـ): ٢٨٣
ابن الفرضي = عبد الله بن محمد بن يوسف
فرمان كوندلث: ٣٦٨
فرناندو: ٤٥٤
فرناندو ثالث: ٣٦٩
فرناندو الأول: ٤٢٩، ٤٢٨، ٤٤٥
فرناندو الثالث لغديس: ٤٤١، ٤٤٤، ٢٣٤
فرناندو الثاني: ٣٦١
فرناندو الرابع: ٤٥٤
فرسكو كويرا: ٢٥٠
فرولا: ٣١٣
فرويل الثاني بن الفونسو الثالث: ٣٦٦، ٣٦١
الفصل بن روح بن حاتم (ت: ١٧٨ هـ): ٨٨، ٩٠
فصل بن سعيد القرموي الرقاني: ١٦٥
لفور (راغب): ٣٢٥
لفوريت (الأب): ٢٥٧، ٢٥٥
أبو فهد لأخس: ١٠٣
أبو الفهم الخراساني: ١٥٩
فليب الثاني: ٢٤٣
فليب الرابع: ٤٥٥
فليب ديتوني دي لارا: ٤٤٥

ليما رانودبرت . ٣٦٢

ليمي (يوفيجيوس) . ١٠٩ : ١٠٧



القادر = يحيى حفيد المأمون بن ذي النون

٤٢٩ . نارون

قاسم بن أصبغ الباني (ت : ٣٤٠ هـ) : ٢٨٤

لقاسم بن حمود (ت : ٤٣١ هـ) : ٤١٣ ، ٤١٧ ، ٤٢٧

القاسم بن محمد بن إدريس = الحسن بن كنون

القاسم بن الوليد : ٣٥٦

القائد بن حماد (بن بكون الصهاجي ، ت : ٤٤٦ هـ) : ١٧٢

ابن القبطونية = أبو بكر

قتيبة بن مسلم البجلي (ت : ٩٦ هـ) : ٤١ ، ٤٨ ، ٦٤

ابن قتيبة الدينوري (أحمد بن عبد الله ، ت : ٣٢٢ هـ) : ١٧

الغداح : ١٤٥

الفرطاس = زيري بن عطية المخراري

أبو قرة ليفرتي المقبلي الزتاني . ٧٧ ، ٨٩ ، ١٣٣

ابن قزمان (محمد بن عيسى ، ت : ٥٥٥ هـ) : ٣١٠

قزمان الطيب : ٤٤٧

بن القعان : ٢٠٥ ، ٢٠٦

قندو : ٣٨١

ابن القوطية = محمد بن عمر أبو بكر

قوس لاندلس = أرطاس بن خبطة

قيس حبلان بن مضر . ١٦٦ ، ١٧٦



كافور الإخشيدى (بن عبد الله ، ت : ٣٥٧ هـ) : ١٤٩ ، ١٥١

الكلاوى هنارس : ٢٧١

كريب بن خلدون : ٣٥١

كسيطة بن لزم : ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ١٢٦

كثوم بن عياض القشيري (ت : ١٢٣ هـ) : ٧٤

كنزة (جارية) : ١٢٨

كوفا دوحا . ٢٤١ ، ٣١٢

كومبوشيك : ١٠٠

كنعاس دي أونس : ٢٧٥



لاجاليا جوتيكا : ٢٩١

لافونسي الكانترا : ١٧ ، ٢٤٦

لامركا هيبانيكا : ٢٩٨ ، ٣٢٥

لب من طريشة : ٣٥٩

بن لبابة أبو عمر = محمد بن يحيى

للعياني = ابن عبد الله .

لذريق : ٢٤٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٣١٢

لسان الدين = المقرئ

لوقا النودي : ٣٥٥

لوس انقى : ٣٢٢

لوس الثالث هنر : ٤٠٣

لوس ليندلي لترا : ١٥

الليث بن سعد (ت : ١٧٥٠ هـ) : ٩٢ ، ٣٠٩

ليبي برونسال : ١٥ ، ٢٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٣٨٢

لى (مؤرخ بحلبى) : ٤٥٥



ماركوس منر : ٢٥٢

مارية اللبوبة : ٣٦٤

ماسينسا : ٢٩

ماكسن بن زيرى بن عطية : ٢٩ ، ١٦٠ ، ١٣٠

صالح بن أسى (ت : ١٧٩٠ هـ) : ٨٣ ، ٨٦ ، ١٠١

١١٣ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣٣٠ ، ٣٣٨ ، ٣٨٧

المأمون . العباس : ١٣٥ ، ١٩٤

المأمون بن ذي النون (زنون) : ١٩٤ ، ٤١٦

الموكل بن الأنطس : ١٩٦ ، ٤٣١

أبو للمعاسن = يوسف بن نفري بردي

ابن معروز : ١٠٦

محسن بن لقائد بن حماد (ت : ٤٤٧ هـ) : ١٧٢

محسن من ماكسن بن زيرى : ١٦٠

محمد بن إدريس = حجاج : ٣٥٠

[illegible]

- محمد بن مقاتل العنكي العباسي : ٨٧ ، ٩٢ ، ٩٥
 محمد بن ميمون أبو عبد الله : ٤٣٤
 محمد بن الناصر بن أبي يوسف : ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٤٤٠
 محمد بن نصر الأحمر : ٢٣٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦
 محمد بن نصر (الطالب بالله) : ٤٤٥ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨
 محمد بن هشام = أبو يحيى : ٣٦٦ ، ٣٦٨
 محمد بن هشام بن عبد الجبار : ٤٠٧ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١٢ ، ٤١١
 محمد بن واضح : ٣٣١
 محمد بن يحيى القفطاط : ٣٣٩
 محمد بن يعلى الزناني : ٤٠٨
 محمد بن يوسف بن أحمد بن نصر (الشيخ) : ٤٤١
 محمد بن يوسف بن تاشفين أبو عبد الله : ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥
 محمد بن يوسف بن نصر الأحمر : ٤٤٢ ، ٤٤٤
 محمد بن يوسف بن هود الحفصاني الشوكي : ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣
 محمد بن يوسف الوراق (ت : ٣٦٣ هـ) : ١٦ ، ٣٨٤
 أبو محمد البشير : ٢٠٩
 أبو محمد الحفصي : ٢٢٩
 أبو محمد بن قاسم : ٤٣٢ ، ٤٤٠
 محمود صبيح : ٢٤٥
 محمود بن مكي : ١٧ ، ١٨ ، ٢٤٥
 محيى الدين عبد الحميد : ٢٤٧
 محيى الدين بن عربي : ٢٣٥
 أبو محسن = عاصم بن زيد
 محمد بن كبداء أبو يزيد : ١١٩ ، ١٤٩ ، ١٥٠
 مركانور (الحفري) : ١٠٥
 مروان بن الحكم : ٤٦ ، ٣٠٤
 مروان بن عبد الملك : ٣٦٤
 مروان بن محمد الجعدي (الأموي) : ٧١ ، ٢٩٩
 مروان بن موسى بن نصير : ٦١ ، ٦٣
 أبو مروان بن أبي اختصا : ٢١٥
 بن مزدلي أبو محمد : ١٢٣
 مزعل بن سليمان : ٤٣٣
 ششمون بن هود : ٤٢٤
 المستنصر القاطمي : ١٦٧
 المستنصر بالله الأحمدي : ١٥٨
 المستنصر بن عزرون : ١٧١
 المستنصر = الحكم بن عبد الرحمن
 المستنصر = يوسف بن محمد الناصر
 مسعود بن واديين : ١٨٥
 أبو مسلم الخراساني : ٨٢
 مسلمة بن محمد الأنصاري : ٤١ ، ٤٢
 الشيخ : ٢٦٧
 مصابة بن حيدوس الكناسي : ١٣١ ، ١٤٨ ، ١٨٠ ، ٣٧٠ ، ٣٧١
 مصطفى السقا : ٢٤٩
 أبو مصر زيادة الله الثالث : ١٤٣
 مظرف بن عبد الرحمن بن حبيب : ٢٣١ ، ٣٦٠
 المطرف بن أبي بن موسى القوي : ١٦١ ، ٣٥٩
 مطرف بن مئذ النجيني : ٣٦٧ ، ٤١٧ ، ٤٢٩
 مطروح بن سليمان بن يقطان الأعرابي : ٣٠٢
 مظفر بن الأنطس : ٤١٧ ، ٤٢٩
 معارك النصري : ١٧
 معاوية بن حديج المكنزي : ٣٧ ، ٣٨
 معاوية بن أبي سفيان : ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٥٨
 معاوية بن عبد الله بن مكي : ٢٤٥
 معاوية بن مشاة بن عاصم : ٢١٧
 معاوية بن يزيد (بن) : ٤٣
 أبو محمد : ٣٣٩
 المنصم : ١١٣
 المنصم : ٤١٧ ، ٤٢٩
 المعتمد بن عباد : ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٥٩ ، ٤١٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٣
 معد أبو نجم المعز لدين الله (ت : ٣٦٥ هـ) : ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٦٥ ، ١٦٧
 المعز بن باديس بن أبي الفتح (ت : ٤٥٤ هـ) : ١٥٤ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٧٦

٢٧١، ٢٦٨، ٢٤١، ٢٣٥، ١٣٣، ٧٨، ٧٧

٣٦١، ٣٩٣، ٢٨٨، ٢٧٨، ٢٧٥

مولودة : ٢٩٥، ٢٩٤

بصرة انظر : ١٨٣، ٧٤، ٧٣

مبور : ١٤٩



الناصر بن حنبل بن حماد : ١٧٦-١٧٣

الناصر لدين الله = عبد الرحمن الناصر

بالع بن الأرق : ٧١

نافع بن عبد القيس الفهري : ٣٨

نخبة الجبري : ٣٦٧، ٣٧٤

نصر (عبد الرحمن الأوسط) : ٣٣٨، ٣٣٩

نصير الدولة = باديس بن أبي الذئب

النعمان بن ثابت أبو حبيبة (ت : ١٥٠ هـ) : ٨٣،

١٠١، ٨٦

نعمان بن محمد أبو حنيفة : ١٤٠، ١٤٤، ١٤٦

نقفور (لوقاس) : ٣٧

نحسية دياحرة : ٤٦٦

أبو نواس (الحسن بن هاني، ت : ١٩٨ هـ) : ٣٣٩،

٣٣٩

النوخني : ١٣٧

نور الدين زكي : ٢٢٦

الوزير (أحمد بن عبد الوهاب، ت : ٧٣٣ هـ) :

١٦، ١٥



الهادي العباسي (ت : ١٧٠ هـ) : ١٢٥٠

هازون الرشيد (ت : ١٩٣ هـ) : ٨٥، ٨٨، ٩٠،

٩٣، ٩٥، ٩٦، ١٢٧، ٣١٥، ٣٣٢، ٤٢٩

هاشم بن عبد العزيز : ٣٤٤، ٣٤٨، ٣٥٠، ٣٦٢

هاشم بن محمد النجبي : ٣٦١

هولمة بن أعين : ٩٠-٩٢، ٩٥، ٩٦، ١٠٨

هرش : ٣٦

هشام لأول الرضى بن عبد الرحمن الداخل : ٢٩٩

٣٠٠، ٣٠٥، ٣٠٩، ٣١١، ٣٣٠، ٣٨٩

٤٠١، ٤٠٢

هشام الثالث المعتد : ٤١٥

الحز بن بكتون الصهاجي : ١٦٨

الحز لدين الله = محمد أبو تميم

محضر بن الحز بن زيري بن عطية : ١٩٠

محضر بن حماد : ١٨٢

مغيث الرومي : ٢٧١، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٩، ٢٨٨

معية بن سونير : ٣٨١

المعيرة بن عبد الرحمن : ٣٩٠

المفتدور بن هود : ٤٢٨

مقدم بن معاذ القرى : ٣٤١

المقري = أبو العباس أحمد : ١٤، ١٥

منصور أنطونيا (الاب) : ٢٤٥

منصور بالله بن المتوكل علي الله : ١٣٥

المذور بن عبد الرحمن الناصر : ٢٨٨

المذور بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط : ٣٢١،

٣٤٧-٣٥٠

المذور بن يحيى النحيسي : ٤١٣

المحمي بكعي : ١٦

منصور ابن مزي : ١٤٧

المصور المعاني : ١٩١

منصور بن زيري أبو الفتح : ١٦٥٠

منصور لموحدي : ٢٣٢

المنصور بن الناصر بن علي : ١٧٣، ١٧٤

منصور بن زوار (ت : ٤١١ هـ) : ١٦٥

المنصور بن يوسف أبو الفتح : ١٥٤، ١٥٨، ١٥٩

١٦٥

منتك بدل = رمون منتك بدل

أبو المهاجر دينار = دينار

مهدي الموحدين = محمد بن تومرت

المهلب بن أبي صفرة : ٧١، ٨١

مؤمن بن سعيد : ٣٢٩، ٣٤٢

مؤنس بن يحيى الرياحي : ١٧٠

مورجات = مورقات (ملك) : ٣١٣

موريق = موريسوس

موسى بن أبي العافية : ١٣١، ١٤٨، ١٨٠، ٢٧١

موسى لكاطم بن جعفر الصادق : ١٣٦، ١٣٧

موسى بن موسى بن قسي : ٣٤٦

موسى بن نصير : ١٧، ٢٠، ٤٤، ٥٨، ٦٤، ٦٦

يحيى بن عمر بن إبراهيم بن فرغوث الحنطلي
 ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٦، ١٨٨، ١٩٠، ٢١٥
 يحيى بن الحريرة بن المنصور بن الناصر : ١٧٤
 يحيى بن تميم بن الحمز : ١٥٤
 يحيى حفيد المأمون ذي النون : ١٩٤، ١٩٥
 يحيى بن حريث : ٢٨٥
 يحيى بن حكيم الجبائسي (الغزال) : ٣٣٦، ٣٣٧
 ٣٤٢، ٣٣٩، ٣٢٧
 يحيى بن خبف : ٢٢٢
 يحيى بن حليفة الليثاني : ١٥٧
 يحيى بن ذي النون (المأمون) : ٤١٩
 يحيى بن سلام : ١١٢
 يحيى سماعة = سماعة بن عبد الرحمن
 يحيى بن عبد الله : ١٢٥
 يحيى بن عيسى بن حمود : ٤١٧
 يحيى بن عاتبة أبو زكريا (مت : ٥٤٣ هـ) : ٢٢٤،
 ٤٣٥، ٢٣٦
 يحيى بن الفتح بن زنون : ٣٦٦، ٣٦١
 يحيى بن محمد بن إدريس : ١٣٠
 يحيى بن معمر : ٣٣١
 يحيى بن موسى بن زنون : ٣٦٦
 يحيى بن الناصر أبو زكريا : ٢٣٤
 يحيى بن يحيى بن عمر بن إدريس الثاني : ٢٤٨
 يحيى بن يحيى أنبش : ٣٢٠، ٣٣٠، ٣٣١
 يزيد بن إلياس النعسي أبو خالد : ١٢٨
 يزيد بن حاتم المهلب : ٨٢، ٨٣، ٨٧، ٩١، ١٠٨
 يزيد بن أبي مسلم : ٧٠، ٧٢، ٢٧٩
 يزيد بن معاوية : ٤٣، ٤٦
 أبو يزيد أنظر مخلد بن كبداد
 اليسع بن مدرار : ١٢٠، ١٤٤
 يصفوت بن يوسف بن زيري : ١٥٩، ١٦٠
 يعقوب المنصور أبو يوسف : ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٧
 ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٦، ٢٣٧
 القديس يعقوب الخواري : ٤٠٠، ٤٠١
 أبو يعقوب يوسف (الموحدي) : ٢٣٦
 يعقوب بن عبد الحق أبو يوسف : ٢٣٤، ٤٤٦

هشام الثاني المؤيد : ١٥٩٠، ٣٩٠-٣٩٢، ٤٠٠
 ٤٠٨، ٤١٠، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٧
 هشام بن عبد الملك بن مروان (مت : ١٢٥ هـ) : ٥٩
 ٧١-٧٤، ٢٨٨، ٢٩٩، ٣٠٤، ٣٤٨
 هلال بن عامر بن سماعة : ١٦٦، ١٦٨
 الهيثمي = أبو حفص عمر بن
 هنري فورنل : ١٥٦
 هوتو (ملك البغال) : ٣٨١
 هوتو (ملك الفرنجة) : ٣٨١
 الهيثم بن عبيد البكالي : ٢٨، ٣١٢
 هريشوش : ٣٨٤
 هري كديب : ٣٨١



واصح العامري : ٤١، ٤١١، ٤١٢
 واصح (مولى عبد الرحمن الناصر) : ٤٠٨
 والمال من لحنوة : ١٨٤
 وجاج بن زيو النمطي : ١٨٣، ١٨٤
 أبو الوليد إسماعيل (النصري) : ٤٤٨
 لوليد بن عبد الملك : ٤٨، ٥٧، ٦٣، ٢٧٣، ٢٧٤
 ٢٧٥، ٢٧٧، ٢٨٨، ٣٠٤
 أبو الوليد بن الفرضي = عبد الله بن محمد بن
 يوسف
 أم الوليد : ٢٨٨
 وليم الفاتح : ٣٢٤
 وهب بن حزم : ٣٢٤



الباروري = الحسن بن علي أبو محمد
 يحيى بن إسحاق بن غانية الميوقني : ٢٢٩-٢٣١
 يحيى الأول بن محمد : ١٣٠
 يحيى الثالث بن القاسم بن إدريس الثاني : ١٣١
 يحيى الثاني : ١٣١
 يحيى الرابع بن إدريس بن عيسى بن عمر بن إدريس :
 ١٣١، ٣٧١
 يحيى الرياحي : ١٦٨
 يحيى القادر بن ذي النون : ٤٢٠، ٤٢٢، ٤٢٣

أبو يعقوب = يوسف بن محمد الناصر	يوسف بن زكري = ملكون
اليعقوبي (اجنرافى) : ٨٩ ، ١٠٥ ، ١١٤	يوسف بن عبد الرحمن الشهرى : ٢٨٤ ، ٢٨٥ ،
يعقوب (الخارج) : ٢١٨	٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٧ ، ٣١٣ ، ٣٩٨
يليان : ٤٤ ، ٦٠	يوسف بن عبد الرحمن البحرى أبو عمر : ١٥ ، ٢١
يوحنا الجوزينسى : ٣٧٣	٢٤٥
يوحنا الشميلىق : ٣٨٦	يوسف بن عبد المصطفى حمدى بن إسحق
يوحنا الكرزى : ٣٨١	يوسف بن فادس أبو الحجاج : ٢٣٣
يوحنا (أسقف) : ٣٨١	يوسف بن محمد الناصر أبو يعقوب : ٢٣٣
يوسف بن إسماعيل أبو الحجاج : ٤٤٢ ، ٤٥١ ، ٤٥٢	يوسف بن نصر أبو الحجاج : ٤٥٢
يوسف بن سخت (ت ٥٠٠ م) : ٢٨٨ ، ٢٨٩	يوسف أبو يعقوب : ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ،
٢٩٩	٤٣٧ ، ٤٣٨
يوسف بن تاشفين : ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١	يوسف بن يوسف بن سخت : ٣٢٩ ، ٣٢٨
١٩٢ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩	يوسف بن أبي يوسف عبد الحق لمريش : ٤١٧
٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢١٥ ، ٢٤٩ ، ٤٢٢ ، ٤٣٠	يونيوس : ١٠٦
٤٣١	يولج (راهب) : ٣٢٥٠
	يوليان : ٢٦٨ ، ٢٦٩

فهرس الأماكن والبلدان والجبال



٢٦٢ - ٢٦٤ - ٢٧٢ - ٢٩٨ - ٣٠٦ - ٣١٢

٣١٩ - ٣٤٦ - ٣٤٩ - ٣٥٠ - ٣٦٩ - ٣٨١

٣٩٤ - ٣٩٧ - ٤٠٠ - ٤٦١ - ٤٧٤ - ٤٧٩

٤٣٥ - ٤٣٨ - ٤٣٩ - ٤٤٤

أشجرة : ٣٥٥ ، ٤١٣ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨

أمتكة : ٤٢٧

الإسكندرية : ٣٤٤ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ٢٠٤ - ٣٣٩

اسكندرية : ٣٢٣

أسكنة : ٤١٧

أسبه : ٣٦٧

اسهجون (دير) : ٣٦٧

أشيرة : ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٣٢٥ ، ٣٣٧ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨

٣٦٩ - ٤٢٧ - ٤٣٨ - ٤٤٢

إسبانية : ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢١٧

٢٢٠ - ٢٢٧ - ٢٣٢ - ٢٣٤ - ٢٣٦ - ٢٤٦

٢٥٩ - ٢٦٠ - ٢٦٣ - ٢٦٥ - ٢٧٢ - ٢٧٣

٢٧٨ - ٢٨٣ - ٣٠١ - ٣٧٤ - ٣٤٦ - ٣٥١

٣٥٢ - ٣٥٦ - ٣٥٨ - ٣٧٤ - ٣٨٠ - ٣٩٢

٣٩٩ - ٤١٧ - ٤٢٦ - ٤٢٨ - ٤٣٠ - ٤٣١

٤٢٣ - ٤٣٧ - ٤٤١ - ٤٤٣ - ٤٤٤

أشركة : ٢٤٢ ، ٢٥٦ ، ٢٧٤ ، ٢٨١ ، ٢٩٣ ، ٣٦٢

٤٢٠

أشريس : ٣٢٣ ، ٣٤٧ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤

أقلش : ٣٥٤

البرت (جبال) : ٧٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦

البرية : ٣٣٥ ، ٤١٣ ، ٤٣٦

أماية (حصن) : ٢٤٢ ، ٢٧٤ ، ٣٦٧

أمرؤ (وادي) : ٢٩٨

الأمون (حصن) : ٣٦٠

إنجلترا : ٣٢٤ - ٣٣٦

أنطابلي (مدينة) : ٣٦٠

أنبلة : ٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٨٦

أوبورتو : ٣٦٢

أرفان : ٢٩٢

أنبلة : ٣٦٣

أرفل : ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٥٥

أرمور : ٢٨ ، ١٣٠

ش (وادي) : ٢٢٧ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٥٣

أبدلة : ٢٢٣ ، ٣٥٥ ، ٣٦١ ، ٤٤٠

أيرو (نهر) وادي : ٢٤٢ ، ٢٦٤ ، ٣٧٤ ، ٣٩٤

٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٥٨ ، ٣٦٥ ، ٣٨٦

٤٢٤ ، ٤٢٥

أنبلة : ٢٨١

أنيون : ٢٩٨ ، ٢٩٧

أبيط : ٢٧٥ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٤٢٠

أيوخ (وادي) : ٤٥

أنا (بركان) : ١٠٤

أندانية : ١٥٧ ، ١٦٩

أرحنت : ١٠٢

أاريس : ١١١ ، ١١٣

أرنة : ٨٩

أرحون (أرضون) : ١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٢

٢٢٣ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٧٤ ، ٢٩١ ، ٢٩٢

٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣٦٦

٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٨ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ - ٤٣٦

٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٦ ، ٤٥١ ، ٤٥٤

أرجونة : ٤٤٤

الأرك (موقعة) : ٢٢٦ - ٢٢٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤

٤٣٩ ، ٤٤٧

أركش : ٤٤٥

أرملاط (نهر وادي) : ٤٠٨ ، ٤١٠

أربط : ٣٦٥

أرفان (إقليم) : ١٢٤

أرهر : ١٢١

سبانيا : ١٥٠ ، ١٧ ، ١٩٣ ، ١٩٨ ، ٢٢٥

٢٢٧ ، ٢٣٣ ، ٢٤٣ ، ٢٥٤ - ٢٥٦ ، ٢٥٩

أودغست: ١٨١، ٦١	بيلشتر (جبل): ٣٥٧، ٣٥٦، ٣٥٢، ٣٥١، ٣٤٩
أودية: ٣٧٨	ثنية (مدينة): ١٠٤
أوراسي (جبال): ٤٩، ٤٣٠ - ٤٩، ٥٥، ٥١، ١٣٩	بحرية: ٩٠ - ١٠٧، ١٧٣، ١٧٤، ٢٠٤، ٢١٨
١٤٢	البحر المتوسط: ٦٣
أورسنا: ٢٢٢، ٢٢٦، ١٩٨، ١٨٩، ٩٧، ٣٢	بحر الزقاق: ٤٤٣، ٢٦١
٢٦١، ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٧٥، ٢٩٣، ٣٠٧	البحرين: ١٦٧
٣١٢، ٣١٢، ٣٢٢، ٣٣٧، ٣٤٤، ٣٤٧	البرانس (جبال): ٢٦٤، ٧٣٠
٣٧٦، ٣٧٨، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٤، ٤٠٠	البرباط (وادي): ٢٧٠، ٢٦٩
٤٠١، ٤٠٣، ٤١٨، ٤٢٤، ٤٣٣، ٤٥٤	بريشتر (بلد): ١٢٥، ٤٢٤
أورخل (إمارة): ٤٢٨، ٤١٢	برتقال: ٢١٣
أوريكة: ١٨٧	البرتقال: ١٩٨، ١٩٦، ٧، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٦
أوسحه (مدينة): ٣٨٦، ٣٦٥	٢٤٣ - ٢٩١، ٢٦٣، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٤٦
أوليسو = أبط	٢٤٨، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٩١، ٤١٩
أوكرانا: ٢٦٥	٤٣٨، ٤١٢، ٤٤٤
أوميا (جزيرة): ٤٤، ٧، ٦٣، ٦٤، ٢٦١، ٢٦٣	بردال: ٢٩٥، ٢٩١
٢٦٤	برحو = بردال
إيران: ٤٨، ٥٥، ٦٤	برشلونة: ١٩٥، ٢٦٤، ٢٧٤، ٢٩١، ٢٩٢
أرشفه: ٣٣٦	٣٠١، ٣١٥، ٣٨١، ٣٩٦، ٤٠٦، ٤١١
أرو (وادي): ٤١٢	٤٢٢، ٤٢٤، ٤٢٦، ٤٢٨، ٤٣٤
إيطاليا: ٢٣، ٦٠٠، ٦٠٦، ٢٦٧، ٣٨١، ٤٢٢	برعشر (مدينة): ٤٢٠، ٤٠١، ٣٦٧
أبغران بطوف (قرية): ٤٥	برغندية (إمارة): ٢٩٨، ٢٩٣، ٢٩١
أيكنا (نهر): ٣٦٥	برغوانة: ٧٣٠، ١٢٥، ١٢٧، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٤
أيكندن: ١٤٥، ١٤١	١٨٠، ١٨٣، ١٩٠، ٢١٥
أبوت (قلعة): ٤٢٠، ٤١٩، ٢٦٧، ٣٤٥	برقة: ١٤، ٢٤، ٢٦، ٢٩، ٣١، ٣٣، ٣٤، ٣٨
	٤١، ٤٦، ٤٧، ٤٩، ٥١، ٥٣، ٥٤، ٦٠
	٦٢، ١٣٣، ١٤٤، ١٥٧، ١٦٥، ١٦٨
	١٦٩
باب السكة: ٣٧٥، ٣١٩، ٣٠٦	برونسنا (مدينة): ٣٨١
باب الشؤي: ٣٠٢	بريفانيا: ٣٠٢، ٤٤٤
باب عبد الجبار: ٣٠٦	بسكاي (خليج): ٢٦٢، ٢٤٢، ٢٧٥، ٣١٢
باب النصر: ٣٧٥	بسكرة (واحة): ٤٥
لبايور (إقليم): ٢٧	بسيط الهط: ١٩١
بابجة: ٢٧٣، ٣٠١، ٢٤٦	البصرة: ٥٨، ٧٩، ٨٧، ١١٦، ١٢٩، ١٤٤
بادريورن: ٣٠١	بعيرة لغرب: ١٤٨
باريس: ٢١٥، ٢٦١، ٢٩٣، ٢٩٥	خبوس: ٣٤٨
باعاية (حصن): ٤٢	بغداد: ٨٦، ٩٢، ٩٣، ١٣٣، ٢٠٤، ٢٠٣
باكستان: ٩٤	٢٨٨، ٢٥١
بالهرسي: ٤٤٢	

البلاد (طريق) : ٢٩٧ ، ٢٩٦

بلاد البحر (طريق) : ٢٧٩

بلاد الشهداء (موقعة) : ٢٤٢ ، ٢٧٢ ، ٢٨٠

بلاد منبج : ٢٧٩

بابلونة : ٢٤٢

بالبيرة : ٤٢٥

بلدة : ٢٥٧ ، ٢٥٦

بلرم : ١٠٣ - ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٧٢

بلطيق (بحر) : ٣٣٦

بمسبه : ١٩٥ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢١٩ ، ٢٢٥ ، ٢٣٤

٢٤٢ ، ٢٥٩ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧٥ ، ٢٣٤

٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٨٤ ، ٤٢٠ ، ٤٢٣ ، ٤٢٥

٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧

بلي (حصن) : ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥١

البليار (جزر) : ٢٣ ، ٢٢٩ ، ٢٢٤ ، ٢٤٣ ، ٣٢٥

٤٢٤

بليارش : ٩٣

ببلونة : ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣١٣ ، ٣٢٦ ، ٣٤٦ ، ٣٦١

٣٦٦ ، ٤٠٦ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٣٥ ، ٤٢٦

بتا بوليس (مدينة) : ٣١٠

بتتلاريا (جزر) : ١٠٠

بغاري : ٢٤ ، ٥٢

به فراطه : ٣٥٥

بواته : ٢٩٥ ، ٢٩٦

بودسرح (نهر) : ٢٧

بودسويا (إقليم) : ٢٩٢

بودو (مدينة) : ٢٩٥

بولاق : ٢٤٧

بوماريا (حصن قديم) : ٢٧

الوت : ١٩٣

بونة (رباط) : ٩٢

بباسة : ٤٤٠

بيت القفس : ٣١٥

بيرلت (بلدة) : ٣٦٦

بيروت : ١٩ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣

براسيا (ولاية) : ٣٢

بيان (إقليم) : ٢٧

بيوزطة : ٣٣٦

بيشة : ٤٣٤ ، ٤٣٦ ، ٤٤٦



باجرة (قرية) : ٢١٢ ، ٢٢٩

باجه : ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٨١ ، ٢٨٧

٢٦١

بادلة : ١٣٠

بادروانت (مدينة) : ٢٨

باز (بحر) : ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٨٠ ، ٢٩١

٢١٣

ببيلات (مجموعة واحات) : ٦١ ، ١٢٠ ، ١٢١

١٥١ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٥

بأكرو : ٢٣٤ ، ٢٢٧

بأكورونيا : ٤٤٩

بامبا : ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٨٢ ، ١٨٤

باسبست (نهر - وادي) : ٢٨٠ ، ٤٥ ، ١٢٤ ، ١٨٠

١٨٥ ، ١٨٧ ، ٢٠٧

باهرث : ٢٧ ، ١٠٨ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٢٣ ، ١٢٧

١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ٢٠٠

٢٥٧

بأورغا : ٢٦ ، ٦٥ ، ١١٥

بأوريرت : ٥٥

ببنة : ٢٣٠

ببدير : ٢٨٣ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٧

٢٦٦

بببول : ١٣٠ ، ١٣١

ببب : ٢٣ ، ٥٤ ، ١٢١

بببول : ٦٠ ، ١٢٩ ، ٣٧١ ، ٣٨٨

ببببب : ٢٤٣ ، ٣٦٣ ، ٤٢٨

ببب : ١٣٥

بببب (مدينة) : ٣٦٦

ببببون : ٤١




بببببب : ٣٧٤

بببببب : ١٦ ، ١٢٧ ، ٤٢ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٧٧

٨٩ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٣

١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ٢٠٠ ، ٢٠١

٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٤٧

السرول : ٢٥	جرجنت (مدينة) : ١٠٤
تيماس (قرية) : ٢٧٢	جرجنة : ٢٦٣، ٢٩١
تيسر (صحراء) : ١٨١	الحسريد (نطاق شط) : ٣٣، ٣٢، ٢٧، ٢٥
تيفت = تانيقت	١٧٧
نهودا (مدينة) : ٣٦٥	جربشة : ٤٣١
توريا (نهر) : ٢٩٤	الجزائر : ٢٦، ٢٧، ٤٥، ٤٩، ٥٥، ٩٥، ١١٩
تور : ٢٩٦	١١٩، ١٢٥، ١٣٩، ١٦٢، ١٧٣
تورمس (نهر) : ٣٦٨، ٣٦٢	١٧٧، ١٨٩، ٢٣١، ٢٥١
توزر : ٣٣	الجزائر الشرقية : ٢٢٥، ٢٢٩، ٢٣٤، ٢٤٣، ٢٢٥
توسكانيا : ٣٨١	الجزيرة الخضراء : ١٩٦، ١٩٧، ٢٦٩، ٢٨١
تولوز : ٢٩٢	٢٠١، ٣٥٦، ٤١٣، ٤٤٣، ٤٤٦، ٤٥١
تولومبا : ٤٢٢	جزولة (كرولة) : ١٨٦، ١٨٩، ١٩٢
تونس : ٥٥، ٥٠، ٤٦، ٣١، ٢٩، ٢٥، ٢٤، ١٦، ١١، ٥٧، ٥٩، ٦١، ٦٢، ٧٥، ٧٦، ٨٨، ٨٩	جلبقية : ٣٢٣
٩١ - ٩٨، ٩٣ - ١٠١، ١٠٢، ١٠٦، ١١١	الجمهورية الجزائرية : ٢٦، ٢٧، ٢٩، ٣١، ٣٥، ٣٧، ٣٨
١١٢، ١٢٢، ١٤٧، ١٥٢، ١٧٧، ٢١٨	١٠٧، ٨٩
٢٢٩، ٢٣١، ٢٥٢، ٣٧٦	الجمهورية النيبية : ٢٦
تونس : ٥٧	جند : ١٣٩
تيمبل : ٢٠٧، ٢١١، ٢٣٧	جنوة : ٤٤٦، ٤٣٦، ٤٣٤
	جنيان : ٣٦٩
التفسير الأعلى (منطقة) : ٢٥٨، ٣٤٤، ٣٤٣	جبال : ٤٣٩
٣٦٣، ٣٩٠	جبان : ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٨٣، ٢٨٩، ٢٣٥
	٤٤٤، ٣٥٦
الجارون (خوض نهر) : ٢٩١	الحيرة : ١٤٨
جاليمسيا (جلبقية) : ٢٧٥، ٢٧٤، ٢٤١، ٦٣	
٢٨١، ٣٠٩، ٣١٢، ٣١٧، ٣٢٢، ٣٢٣	الحجاز : ١٤٤، ١٦٦، ١١٧
٢٦٨، ٣٦٩، ٣٩٧، ٤٠٧، ٤٢٠، ٤٢٢	حجر النسر (قصة) : ١٢٩، ١٣١، ١٤٨، ١٧٩
جامع سرقسطة : ٢٧٣	١٨١، ٣٧١، ٣٨٧، ٣٩٩
جين الفنج : ٤٤٤	حدادة : ٢٩٤
جين طارق : ٢١٨، ٢٩١، ٤٤٤، ٤٤٦، ٤٥١	الحسا (إقليم بالحجاز) : ١٤٤
٤٥٣	حسان (مسجد) : ٢٣٧
جبل الفتح : ٢١٨	الحسيمة : ٩٠
جبل النار (مدينة) : ١٠٤	حصار موت : ٥٢
جربة (جزيرة) : ٧٥، ١٠٨، ١١٩، ١٢٢، ١٧١	الحضنة (إقليم) : ٢٧
الجرجرة (إقليم) : ٢٧	حطين : ١٩٧، ٢٢٧
	الحصانات : ٣٢، ١٥٢
	حماة : ١٣٨

حجص : ٢٨٣

الحشيش (حصن) : ٤٤٢ ، ٣٦٤

حيدران : ١٧١

حيدرة : ١٣٠



الحنيق (بحيرة) : ٣٨٠ ، ٢٧٠ ، ٢٦٩

الحنيق (ممركة) : ٣٧٤

خونكيرا (بلدة) : ٣٦٥

خيخون : ٣١١ ، ٢٧٥

خيرونا : ٢٩١



داروخ : ٤٣٤

الدار لبقاء : ٢٥٣

دانية : ٤١٣ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤٣٧

دوعة : ٢٨ ، ١٨١ ، ١٩١ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٢٠

دون (جبال) : ٢٥٠ ، ٤٤٠ ، ٢١٣

درونة : ٤٢٠

دسبابروس : ٢٣٢

دكالة : ١٢٤ ، ١٧٩ ، ١٨٠

دسلفا (مصر) : ١٥٣ ، ٢٤٦

دمسليق : ٢١٠ ، ٣٧٠ ، ٤١٠ ، ٤٧٠ ، ٦٣٠ ، ٧٣٠ ، ١٢٣

٢٦١ ، ٢٧٤ ، ٢٨٣ ، ٢٨٧

لدوزدوني (نهر) : ٢٩٥

دوليتيه (إقليم) : ٢٩٧ ، ٢٩٨

لدويرو (نهر ، وادي) : ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٦٤

٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٣١٣ ، ٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٦٩

٢٨٦ ، ٣٩٥ ، ٤٠٣

ديجون : ٢٩٢

دير الجماعيم : ٢٨٧



راديس (خليج) : ٥٧

رياح (قلعة) : ٢٣٣ ، ٢٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠

رياح نازا : ١٨٠

رياح سوية : ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١١٠

رياح الفتح : ٢٧ ، ٢٢٧

رباط المنسبير : ١١٠

لرباط : ٢٠ ، ٤٥ ، ٢٥١

أم الربيع (قنطرة) : ١٠٦ ، ١٠٨

أم الربيع (وادي) : ٢٨ ، ٦٠ ، ٩١ ، ١٢٧ ، ١٨٠

رحوبة (مينة) : ١٠٢ ، ١٠٤

الرصافة (تل ، مصر) : ٣٠٦ ، ٣٧٤ ، ٣٨٧

رقدة (مدينة) : ١٠٦ ، ١١٠ ، ١١٢

الرقوق (وادي) : ٢٧ ، ٤٥ ، ١٢٤

رندة (جبال) : ٣٤٩ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٤٤٥

٤٤٩

رندة : ٣٠٢

روسيا : ٢٦٣ ، ٢٦٥

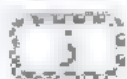
روما : ٦٠ ، ٦٠٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٤ ، ٢٨١

الرون (نهر) : ٢٤٢ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٧

رياح (قبيلة) : ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ٢٣٠ ، ٢١٩

ريوحا (إقليم) : ٢٥٩

ريه (كورة) : ٢٨٣ ، ٣٤٩ ، ٢٥



الزوب (نهر ، بلاد) : ٢٦ ، ٥٥ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٧٥

٧٦ ، ٨١ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ١١٤ ، ١١٩

١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٧٧

٢٣٠

الزاهرة (قصر) : ٣٩٥ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٦

زوهون (جبل) : ١٢٦

زفوان (جبل) : ٥٩

الزلاق (بحر) : ٢٦٣ ، ٤٤٦

الزلافة : ١٩٩ ، ١٩٨ ، ٢١٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤

٤٤٧ ، ٤٣٨

الزهراء (مدينة) : ٣٧٤ ، ٣٧٦ ، ٢٨١ ، ٣٨٦

٣٨٧ ، ٣٩٥ ، ٤١٦ ، ٤٥٣

زوانة (بلاد) : ١٣٠

زوانيا (ولاية) : ٣٢

زونية (مركز صحراوي) : ٢٨ ، ٢٩ ، ٥٤ ، ١٤٧

الزينة (مسجد) : ١٠٦ ، ١٠٨

س

سنتاجو : ٤٠٠	سارازان (وادي) : ٢٩٨
السند : ٤٨ ، ٦٤	الساوون (نهر) : ٢٩٢
سنجال = السفال	سالم (مدينة) : ٣٨٦ ، ٣٦٨ ، ٣٦٥ ، ٣٤٥ ، ٣٢٣
السمال : ٦٩ ، ١٨١ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ٣١٤	٤٥٤ ، ٤٣٠ ، ٤١٩ ، ٤٠١
سنگليج (إقليم) : ٤١٠	سان ارنو (دير) : ٣٨١
سنهجل - السنفاب	سنمائية : ٢٤٢ ، ٢٩١ - ٢٩٣ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨
سهاجرن : ٢٤٢	سنة : ٦٠ ، ٧٤ ، ١٢٩ ، ١٤٩ ، ١٩١ ، ٢١٦
السلة (إمارة) : ١٩٩ ، ٤٢٤	٢١٨ ، ٢٨٢ ، ٣٧١ ، ٣٨٨ ، ٤١٣ ، ٤٤٦
السودان : ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ٢١١	٤٥٤
٢٢١	سيو (نهر ، وادي) : ٢٧ ، ٧٥ ، ١٢٤ ، ١٢٩
سوربا : ٣٨٦	١٩٠ ، ١٨٠ ، ١٢٩ ، ١٢٧
السومي (وادي ، إقليم) : ٢٥٠ ، ٢٨ ، ٤٤ ، ٦١	سبلة : ٣٩ ، ٣٦ ، ٣٤ ، ٣٣
٩٢ ، ١٢٤ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٨١ ، ٢٠١	سبلية : ٦١ ، ٦٢ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٣٣ ، ١٤٤
٢٠٩ ، ٢٣٥ ، ٢٦١	١٤٥ ، ١٥٧ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٩٠
سوة : ٣٢ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ١٠١ ، ١٠٢	١٩١ ، ٢٣١
١٠٥ ، ١٠٧ ، ١١١ ، ١٤٧ ، ١٥٢ ، ١٧١	سجوما (بلدة) : ٦٠
سويرا : ٢٨ ، ٢٩٣ ، ٢٩٨	سدانة : ١٧٩ ، ١٢٧
سيراكيا : ٣١ ، ٥٣	سردنيا : ٢٣ ، ٦٢
السبي (إقليم) : ٢٧٠	سرسطة : ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٢٤٣ ، ٢٦٤
سيمنقى (معركة) : ٢٧٤	٢٧٣ ، ٢٨٥ ، ٢٨٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٩
السبي : ٢٩٣	٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٥٩ - ٣٦١ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨
	٣٧٨ ، ٣٩٧ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤٢٢ - ٤٢٥
	٤٢٨ ، ٤٣١ - ٤٣٣ ، ٤٣٦
شارنت (حل) : ٣٨٦ ، ٣٤٥	سرفوة : ١٠١ - ١٠٣ ، ١٠٥
شاطة : ٢٢٥ ، ٣٨٤ ، ٤١٢	السطح لمررد : ٣٧٦
شالقة : ١٥٨	سمونلة : ٣٨٦
شالون : ٢٩٢	سفاقس : ١٠٧ ، ١١١ ، ١٧١
الشام : ٥٢ ، ٥٨ ، ٦٤ ، ٧٥ ، ٨٥ ، ١٠١ ، ١٣٨	سقيقة بنى ساعدة : ٦٩
١٤٤ ، ١٥١ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٣ ، ٢٢٢	سلا : ٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ٢١٩
٢٤١ ، ٢٨١ ، ٢٨٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٦ ، ٣١٨	سلمقة : ٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٢٨١ ، ٣٦٦ ، ٣٦٥ ، ٣٦٧
٣٧٧ ، ٤٢١	٣٦٨
شرب (كونيبة) : ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٣	سمية : ١٣٨ ، ١٤٣ ، ١٤٥
شذونة (مدينة) : ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٣٥٦	السلوم : ٥٤
٣٥٧	سيط (وادي) : ٣٤٥
شروش (مدينة) : ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٤٤٥	سصورة : ٣٩٧ ، ٣٧١ ، ٣٩٢
سختة : ٢٨٥ ، ٢٨٩ ، ٣٠٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٠	

العرايش: ١٨، ٢٧، ١٣٠

العرويس: (جبل) ٢٧٥

المروقي (نطاق) ٢٦

المقارب (مولعة) ٢٣٣، ٢٣١

مقبة القفر (بلدة) ٤١١

حمان: ٧١، ٨١، ١١٨، ١٦٧

حنانة: ٩٢

مين النمر: ٥٨



حانة (فرنسا) ٢٤٢، ٢٦١، ٢٦٧، ٢٧٧، ٢٧٩

٢٨٠، ٢٩١، ٢٩٤

حانة: ٢٢٤

حدامس: ٣٩١، ١١٩

خرماح: ٢٦٣، ٣٦٥، ٣٦٩، ٣٨٦، ٣٨٧

خرنافة: ١٩٦، ٢٣٤، ٢٥٢، ٢٥٥، ٢٦٣، ٢٦٤

٢٨٢، ٢٨٩، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٢، ٣٥٥

٣٥٦، ٣٥٨، ٤١٣، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٦

٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٥٥

حزة: ٦٣



فارس: ٥٢، ١٣٨

فازاز: ١٣٠

فاس: ٢٧، ١٢٦، ١٢٩، ١٣٢، ١٤٨، ١٥١

١٥٨، ١٥٩، ١٨٠، ١٨٢، ١٩٠، ٢٠٦

٢١١، ٣٢١، ٣٧١

فالانس (مدينة) ٢٩٧

فالتيرو (حصن) ٣٦٦

فالكنس (مدينة) ٣٦٦

لفتح (جبل) ٢١٨

فنبشة (حصن) ٢٥٥

فنج جرينق: ٢٢٢

فحص اجلاب: ٤٣٧

فحص الزلاجة: ٤٢٢

فحص المراقق: ٢٠٧، ٣٨٧، ٤١٠

فنج: ١٢٥، ١٢٧

العرات (نهر) ٢٨٧

فرساي: ٤٠٤

فرصة المنكب: ٢٨٩

فرنسا: ٧٣، ٢٤٢، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٧

٢٧٧، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٤، ٢٩٧، ٣٢٢

٣٢٣، ٣٨١، ٣٨٢، ٤٠٣، ٤٢٦، ٤٣٢

فريزيا (ساحل قرصى) ٣٢٤

فزان: ٢٦، ٣٨، ٣٩، ٤٤، ١٢٠، ١٦٩

الفسطاط: ٢٤، ٣٥، ٣٧، ٣٨، ٤١، ٦٣، ٨٧

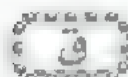
١٤١

فلبجة: ٣٦٥

فلسطين: ٣٤، ٢٨٣

فولنا: ٢٣، ١٢١

فونكة: ٤١٩



فويس: ٣٢، ٤٠، ٥٤، ٦١، ١٧١، ٢١٩، ٢٢٩

قادش (مدينة) ٢٦٣، ٢٦٩، ٣٢٤

القاهرة: ١٥١، ١٦٢، ١٧٣، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٢

٢٥٤

القبايل (منطقة) ١٣٩

قلا: ٤١٩

قبطيل: ٢٢٤

القبلي: ١٩٧، ٢٢٧

قرسفة: ٢٣٠

قرطاج: ٥٦

قرصاجنة: ٢٢، ٣٣، ٤٨، ٥١، ٥٢، ٥٦

١٠٨، ٣٧٦

قرطاجنة: ٢٦٩

قرصبة: ١٦، ٧١، ١٢٩، ١٥١، ١٩١، ٢٢٤

٢٣٤، ٢٤٥، ٢٥٥، ٢٦١، ٢٦٤، ٢٦٥

٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨١

٢٨٢، ٢٩٠، ٢٩٥، ٢٩٦، ٣٠٠، ٣٠٥

٣٠٧، ٣١٨، ٣٢٢، ٣٢٥، ٣٢٦

٣٢٩، ٣٣٢، ٣٣٦، ٣٣٨، ٣٤٣، ٣٤٥

٣٤٧، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٤، ٣٥٧، ٣٥٩

٣٦٠، ٣٦٥، ٣٦٧، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧٢

قلعة حد السلام: ٢٨٦، ٢٧١	٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٨٠، ٣٨٢
قلعة انصور: ٢٨٦، ٢٩١	٣٨٥، ٣٨٨، ٣٩١، ٣٩٣، ٣٩٥، ٣٩٦
قلعة وادي إبرة: ٢٧٢	٣٩٨، ٤٠٣، ٤٠٥، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤١٠
قصرية: ٣٩٧، ٤٤٢	٤١١، ٤١٣، ٤١٥، ٤١٩، ٤٢٢، ٤٢٦
قصر (بنية): ٣٦٦، ٣٦٥	٤٢٧، ٤٣٠، ٤٣٦، ٤٤١، ٤٤٣، ٤٤٧
القلعة (بنية): ٣٦٥، ٤١٠	قرنقوة: ٢٩٢، ٣٦٦
قمودة: ٤٦	قرمونة (حصن): ٢٧٢، ٣٥٩، ٤١٧، ٤٢٧
قناتش (حصن): ٣٩٠	لقرن (موقع): ٨٩
قنتيش (معركة): ٤١٠	قروين (بحر): ١٢٥
قسرين: ٢٨٩، ٢٨٣	قسطصبة: ٤٩، ٥٥، ٧٥، ٨٩، ١٧٧، ٢٧٤
قوجرة: ١٩٩	قشالة: ١٩٤، ١٩٧، ١٩٩، ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٧
قنطرة سرقسطة: ٣٧٨	٢٢٨، ٢٢٢، ٢٣٣، ٢٤٢، ٢٥٥، ٢٥٩
قنطرة ماردة: ٣٧٨	٢٦٠، ٢٧٤، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٢، ٣٦٣
قنطرة الوادي: ٣٧٨، ٣٠٦، ٢٧٩	٣٦٨، ٣٦٩، ٣٩٥، ٣٩٧، ٤٠١، ٤٠٦
قوريناه: ٣١٠	٤٠٧، ٤١٦، ٤١٨، ٤٢٠، ٤٢٢، ٤٢٤
قورمة: ١٩٥، ١٩٦، ٣٤٥	٤٢٩، ٤٣٨، ٤٤٢، ٤٤٤، ٤٤٩، ٤٥١
قوصرة: ٢٣، ١٠٠	٤٥٢، ٤٥٤
قورقة: ١٩٩	قصر (أبو دانس): ٤٣٨
القبروان: ٣٢، ٣٩، ٤٢، ٤٥، ٤٧، ٤٨	قصر بغداد: ١١١
٥١، ٥٣، ٥٥، ٥٧، ٦٢، ٦٣، ٦٦، ٧٥	قصر الحجر = مراکش
٧٦، ٧٨، ٨١، ٨٧، ٨٩، ٩١، ٩٣، ٩٧	قصر الرباط: ١٠٩
١٠١، ١٠٥، ١١٦، ١١٨، ١٢٨، ١٣٢	قصر الرصافة: ٣٠٦، ٣١٠
١٤٣، ١٤٥، ١٥٢، ١٦٢، ١٦٥، ١٧٠	قصر السدة: ٣٢٧
١٧١، ١٨٢، ١٨٤، ٢٠٤، ٢١٨، ٢٧٢	قصر شلب: ٤٣٨
٣٢٢، ٣٥٧، ٣٧٠، ٣٧٢	قصر العروس: ١١١
لقرن قوريناه	لقصر الجديد: ١١٠، ١١٢
كشفر: ٥١	القصر القديم: ٩٧، ١١٠، ١١٢، ١٤٦، ١٧٣
كالي (صخرة حل هارقي): ٢٦٩	قصر المختار: ١١١
كالحاس (بلد): ٣١٢	قصر بانه (مدينة): ١٠٢، ١٠٤، ١٧٢
كسدة (موقع): ١٣٤٠	قسطبلية: ٣٢
الكنية (مجد): ٢٢٧	قطالونيسة: ٢٩٤، ٢٩٨، ٣٠٩، ٣٢٢
كردهان: ١٢١	٣٩٦، ٤٣٣، ٤٠٦، ٤٣٦
كركي (قلعة): ٣٥٤، ٣٦٥، ٣٦٦	قطانية (مدينة): ١٠٤
كرت: ٣٢١	قصة: ٣٣، ٢١٨، ٢١٩، ٤٣٧
كسطة: ١٠٦	لقلاع (مدينة): ٢٧٤، ٢٢٣، ٢٢٦، ٣٦٥
	قلعة من حماد: ١٧٣
	قلعة صلاح الدين: ١٧٣

كلابريا (شبه جزيرة) ١٠٦

كلونيا (بلقة) ٣٦٥

الكنسرة (جبال) : ٢٤١، ٢٧٤، ٣١١، ٣١٢،

٣٦٢

كوار (إقليم) : ٥٤

الكوفة : ٨٧



لأردة (نهر) : ٢٤٢، ٢٧٤، ٣٥٩، ٤٢٤، ٤٢٨،

٤٣٥، ٤٣٧

ليلة : ٢٧٢، ٢٧٣، ٣٠١، ٣٢٤، ٤٤٥

نسيونة : ٤٣٨

لث (مدينة عاصمة حلقية) : ٣١٨

لكنة (وادي، مدينة) : ٢٦٩، ٢٧٠، ٣١٣

اللواري (إقليم) : ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٦

لورقة : ٢٧٠، ٣٢٢، ٣٢٣، ٤٤٥

لوكس (وادي) : ٢٧

ليون : ١٩٤ - ١٩٧، ٢٢١، ٢٢٨، ٢٣٣، ٢٤٢،

٢٤٣، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٧٤، ٢٨١،

٢٩٢، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٢٦، ٣٤٦، ٣٤٩،

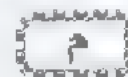
٣٦٠ - ٣٦٣، ٣٦٥ - ٣٧٠، ٣٨٥، ٣٨٦،

٣٩٣، ٣٩٥، ٣٩٧، ٤٠١، ٤٠٦، ٤١٦،

٤١٨ - ٤٢٠، ٤٢٨، ٤٣٨، ٤٤٢، ٤٤٥،

٤٤٧

لايط (حصن) : ١٩٧، ٤٢٢



لاردة : ٢٧٢، ٢٤٤، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٦٤، ٣٧٨،

٤٤٢

لأرد (ميناء) : ١٠٢، ١٠٤

لأكون : ٢٩٢

لأطلة : ٢٣، ١٠٠، ١٠٥

لألق : ١٩١، ١٩٦، ٢٦٣، ٢٨٣، ٣٢٤، ٣٢٥،

٣٤٩، ٣٥٥، ٤١٨، ٤٤١، ٤٤٣ - ٤٤٦،

٤٥١

لألي : ١٢١

لأليجة (سول) : ٢٧

لأليرة (نهر) : ٢٩١

لأليرط = لأليريد

لأليرة المظني (شارع) : ٢-٦

لأليريد : ١٨، ٢٤٦، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٦٥، ٣٤٥،

٣٨٦، ٣٦٧

لأليرة الساجة : ٢٥٥

لأليرة البلقة : ٢٥٦

لأليرة الفونسو الثالث : ٢٥٧

لأليرة اللاتنة : ٢٧١

لأليرة المورة : ٨٥، ٢٧٧

لأليركش : ٢٨، ٤٥، ١٨٥، ١٨٧، ١٨٨، ١٩٠،

١٩٨، ٢٠٣، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢١٣، ٢١٤،

٢١٦، ٢١٨، ٢١٩، ٢٣٤

لأليرط : ١٩٩

لأليرسية : ١٩٧، ٢٢١، ٢٢٥، ٢٣٤، ٢٥٠، ٢٦٤،

٢٧٠، ٢٢١، ٢٤٨، ٢٦٦، ٣٧٤، ٤١٣،

٤١٨، ٤٢٩، ٤٣٥، ٤٣٧، ٤٤٠ - ٤٤٣

لأليرطش : ٣٥٥

لأليركش = لأليركش

لأليراب (إقليم) : ١٢٢

لأليريلة (بلد) : ٧٦، ١٠٦

لأليرينا (بلقة) : ١٠٤

لأليرنا : ١٣٠

لأليرورة (بلد) : ٢٩٠

لألير : ١٤، ١٧، ٢٢، ٢٤، ٢٦، ٣١، ٣٣،

٣٤، ٣٦، ٣٨، ٤١، ٤٦، ٤٨، ٥٢ - ٥٤،

٥٧، ٥٨، ٦٠، ٦٤، ٦٥، ٦٧، ٦٨، ٧٣،

٨٠ - ٨٢، ٩٢، ٩٣، ٩٥، ٩٦، ١٠١، ١١١،

١٣٨، ١٤١، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٨ - ١٥٤،

١٥٩، ١٦٣، ١٦٨، ١٧٦، ٢٠٤، ٢٢٦،

٢٤١، ٢٨٣، ٣١٦، ٣١٧، ٣٢١، ٣٢٢

لأليرط الكسب : ٢٣٢

لأليرين (جبال) : ٣٥٤

لأليرناس : ٢٧، ٢٦٦، ١٨٢، ١٩٠

لأليرنا : ١٣٧، ١٣٠، ١٣٢ - ١٣٩، ١٧٩، ١٨٠،

٢٥٠

لأليرون : ١٩٩

لريونة : ٢٠٢	مليانة : ٢٣٦
نقطة (بلدة) : ٢٢	مليلة : ٢٨٨ ، ١١٩ ، ٩٠ ، ٥٥
نفسوسة : ٧٩ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ١٠٨ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٩	لمملكة المغربية : ٢٧ ، ٢٤ ، ١٢٤
نقيس : ٢٠٧ ، ١٣٠ ، ٤٥ ، ٢١ ، ٢٠	المار : ٢٨٦
نقوطة : ١٧٢	الماورة : ١٩٩
نكور (إمارة) : ١٤٩ ، ٩٠	مناو (بلدة ، حصن) : ١٠٢ ، ١٠٣
نهاروند : ٦٤	منت أحوودو : ٢٣٤
النوبة (بلاد) : ١٦٣	منديق (حوض) : ٢٤٢
نورماسي : ٣٢٤	المستعير (قصر) : ١١٠ ، ١٠٦ ، ٩٢ ، ٩١ ، ٢٢
النيجر : ٢٢١ ، ٢٣	١٥٢
نيريشة (بلد) : ٤٤٥	المصويرة (قلعة) : ١٧٣
النيل (نهر) : ١٦٧	منورقة : ٤٢٤ ، ٢٢٩ ، ٢٢٤
نيجة (بلد) : ٢٩٢	المجر (نهر) : ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢١٣ ، ٢٦٢
نيني (نهر) : ٥١	٣٦٣ ، ٤٠٠
هـ	منية الشاعورة : ٢٠٦
هبط حمار : ١٩١	المهدية (قلعة) : ١٤٦ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٧١ ، ١٧٤
الهيظ (إقليم) : ١٢٦ ، ١٢٤ ، ١٣٠	١٨٦ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٩
الهجار (الهجر) : ٢٧	مواشي لاباناي (قرية) : ٢٩٦
هتارس (قلعة) : ٢٨٦ ، ٢٤٥	مردوب : ٣٦٥
الهند : ٦٤	مورة (حصن) : ٣٦٠
هول : ٢٤٧	مورو (مدينة) : ٣٥٦
وادي : ١٢١	موقوسة : ٢٩٤ ، ٢٩٥
وادي إبرة (إبرو) : ٢٧٢ ، ٢٧٣	مولوية (نهر) : ٢٧ ، ٤٢ ، ٥٥ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ١٢٠
الوادي الأبيض : ٢٦٤	١٢٤ ، ١٥٩ ، ١٧٤ ، ١٨١ ، ١٨٩ ، ٢١٤
وادي الحجارة : ٢٧١ ، ٢٤٥ ، ٣٦١ ، ٣٦٥ ، ٣٨٦	مونت روسو (قلعة) : ٣٥٨
وادي لومل : ٢٨٦	موتلون (حصن) : ٣٥٥
وادي سليط : ٢٨٢	ميتونيا = مودونيا
وادي اسيل : ٢٩	ميشش (مدينة) : ١٠٤
الوادي الكبير (حوض) : ١٩٤ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤	مبورقة : ٢٢٩ ، ٢٥٩ ، ٢٢٥ ، ٤٣٤
٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ ، ٣١٨	ق
٢٢١ ، ٣٥٨ ، ٤١٧ ، ٤١٩ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩	قابلي : ١٠٦
٤٤١	ناصر : ٣٦٥ ، ٣٨٦
الوادانية : ١٩٥ ، ١٩٨ ، ٢١٩ ، ٢٦٤ ، ٣٦٥	نيرة (مدينة) : ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٣١٣ ، ٣٢٣
	٣٢٦ ، ٣٤٧ ، ٣٥١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٦٧
	٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٨٥ ، ٣٩٥ ، ٤٠٦ ، ٤٢٤
	٤٢٦ ، ٤٢٨

والشمه (وادي) : ٢٩٨

واركلا (جزيرة) : ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٢

وجلة : ٥٥ ، ٢٠٦

وخشمة (ملية) = أوسمة

ودان : ٣٨

ورجلا = واركلا

وستقالبا (ولاية) : ٣٠١

وشقة : ٢٤٢ ، ٣٥٩ - ٣٦١ ، ٤٢٤ ، ٤٢٨

ولية : ٢٦٣ ، ٣٢٥ ، ٤٢٧

وئلي (مدينة) : ١٢٦ - ١٢٨ ، ١٣٠

وبا : ٢٥٩ ، ٢٦٨

وندال : ٢٦٣

الوشريش (إقليم) : ٢٧

وهران : ٢٦ ، ٥٥ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٣٢



بابرة : ٣٦٣

بابه : ٢٢٩ ، ٣٢٥ ، ٤٢٤

البيمن : ٧١ ، ٧٩ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ٢٨٣ ، ٣١٧

٣٢٢

★★★

فهرس القبائل والطوائف والال

الإسماعيلية: ١٣٧، ١٤٦، ١٥٨، ١٦٢، ١٧٩.

٣٨٧

الإفريق: ٢٩، ٣٤، ٣١، ٢٢٦.

أفريق: ٣٢، ٤٠.

الإكرام: ١٧٣.

الأكباد: ١٩٩.

الالان: ٢٦٧.

الالان: ٤٣٨.

الأمويون: ١٢٧، ١٣٦، ١٤٨، ١٥٩، ١٥٨.

١٧٥، ٢٦٨، ٢٨٧، ٣١٠، ٤١٧، ٤١٥.

الأمويون لانتلسيون: ١٣٢، ١٤٩، ١٥٠، ١٦٥.

١٦٤، ١٦٦، ٢٤٣.

الأمويون القرطبيون: ١٥٨.

الإغليز: ٤٣٨، ٤٤٩.

الاندلسيون: ١١٤، ١١٨، ١٤٩، ١٧٨، ١٩٠.

١٩٧، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٤٤، ٢٤٨، ٢٦٠.

٢٦٢، ٣٠٠، ٣٠٦، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١٦.

٣١٧، ٣١٨، ٣٢٢، ٣٢٧، ٣٢٩، ٣٣٣.

٣٣٩، ٣٤٢، ٣٦٧، ٣٧٤، ٣٨٥، ٤١٠.

٤١٢

أهل اشام: ٣٥٠.

أوربة (قبيلة): ٤٢، ٤٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٩.

١٣١، ١٣٢، ١٧٩.

الأوريون: ٣٠٣.

الأيبريون: ٢٦٧.

إيطاليون: ٣٨٤.

إيلانة (قبيلة): ٢٠٠.

أبوية (دولة): ٢١٩، ٢٢١.



بارباروي (البربر): ٢٨٠.

البربر (البربر الجبل): ٢٨٠، ٢٩، ٣١، ٤٢، ٤٩.

٧٦

البرانس (البربر الحضر): ٢٨٠، ٣٠، ٣١، ٤٢.



أهل إدريس: ١٣٩٠.

أهل بلكنون بن زيري: ١٥٠.

أهل زيري: ١٥٣.

أهل ساسان: ١٣٥.

أهل سليم بن منصور: ١٣٥، ١٦٦.

أهل صامر: ٤-٥.

أهل حلي: ١٣٧.

أهل غسان: ٤٨.

أهل نيفلدي: ٤٤٦.

أهل قس: ٣٤٦.

أهل ملزار: ١٣٣.

أهل اللهب: ٨٢.

أهل حلال: ١٣٥.

الإياضية: ٥٤، ٧٢، ٧٥، ٧٩، ٨٠، ٨٢، ٨٦.

٨٧، ١٠٨، ١١٤، ١١٧، ١٢٠، ١٢٢.

١٢٣، ١٣٣، ١٤٢، ١٤٩، ١٥٠، ٢١٥.

الأنجب (قبيلة): ١٦٧.

الأنجب عشيرة (فرقة): ١٣٧.

الإختيليون: ١٤٩، ١٥١، ١٦٣.

لأدارة: ٦٥، ٧٦، ١٣٣، ١٣٩، ١٣١، ١٣٢.

١٤٨، ١٥١، ١٦٤، ١٧٩، ١٨٠، ٢١٥.

٣٧٠، ٣٧١، ٣٨٧، ٣٩٦، ٤١٣.

إدرسية (حولة): ١٣٦، ١٣٩.

أردمانيون: ١٠٥، ١٧٢، ١٧٤، ١٧٩، ٢١٨.

٢١٩، ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٢٦.

الأرجونون: ٤٥٢.

أريوس (مذهب): ٢٦٧.

أزارقة: ٧١.

الأزده (قبيلة مينة): ٧١، ٨١، ٨٢.

الإسبان: ٢٢٢، ٢٤٦، ٢٥٤، ٢٥٧، ٢٧٣.

٣١٧، ٣١٨، ٤٢١.

أسد (قبيلة): ٣١٧.

بنو جهور: ٤٣٠، ٤١٨	٢٤٢، ١٩٩، ١٨٠، ١٣٩، ٧٦، ٧٥، ٤٩
بنو حبيب: ٧٩	١٢٥، ٧٤٣، ٢٩١، ٢٦١
بنو حجاج: ٣٥٨، ٣٥٦، ٣٥٢	٤٢، ٣٩، ٣٥، ٣٢، ٣٢، ٣٠، ٢٨، ٢٠
بنو الحسن الكلبيون: ١٥٣	٦٠، ٥٩، ٥٥، ٥٢، ٥٠، ٤٨، ٤٥، ٤٣
بنو حنضل: ٢٣١	٧٨، ٧٦، ٧٥، ٧٤، ٧٢، ٦٩، ٦٣، ٦٢
بنو حماد الصنهاجيين: ١٦٠، ١٦٦، ١٦٣، ١٦٤	١١٤، ١٠٣، ٩٧، ٩٠، ٨٨، ٨١، ٧٩
١٧٦-١٧٢	١٣٩، ١٣٤، ١٣١، ١٢٨، ١٢٠، ١١٦
بنو حمود: ١٩١، ٤١٣، ٤١٧	١٧٧، ١٧٤، ١٦٣، ١٥٧، ١٥٥، ١٥٣
بنو احمدى: ٤٢٠	٢٧٠، ٢٦٨، ٢٦٣، ٢٤١، ٢٣٥، ٢٣٢
بنو حزر الزناتيون: ١٤٩	٢٨٩، ٢٨٥، ٢٨٣، ٢٨٠، ٢٧٨، ٢٧٧
بنو حزر المراءيون: ١٤٨	٣١٤، ٣١٣، ٣١٠، ٣٠٦، ٢٩٦، ٢٩٣
بنو حزر ايفراتيون: ٣٧١	٣٩٨، ٣٩٤، ٣٩٢، ٣٧٠، ٣٢٩، ٣١٨
بنو حزرون الزناتون: ١٤٩	٤٣٧، ٤١٨، ٤١٦، ٤١٣، ٤٠٧، ٣٩٩
بنو خلدون: ٣٥٨، ٣٥٦، ٣٥٢	٤٥٢، ٤٣٨، ٤٤٤، ٢٤٢، ١٨١، ١٥٤
بنو دي النون: ١٩٤، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٩٩، ٤١٨	١٢٩: بنو هواطين
٤٢٠، ٤١٩	ليشكونن: ٣٠٢، ٣٠٣، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٧
بنو ربيعة بن عامر: ١٩٧	٤٢٥، ٢٢٣، ٢٢٢
بنو رزيق: ٤٢١	١١٨: البصريون
بنو رستم: ٥٤، ٦٥، ٧٢، ٨٧، ١١٤، ١٢٠	١٢٧: لكتريون
١٢١، ١٢٣، ١٢٧، ١٣٣، ١٣٩، ١٤٥	١٤٦: لندقيون
١٦٢، ١٦٤، ٣٥٧	بنو الأحمر: ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٦
بنو زبون: بنو ذى النون	بنو أمقيلولة: ٤٤٤-٤٤٧
بنو زبون: ٢٣٧	بنو الأغلب: ٨٩، ٩٠، ٩٣، ٩٥، ٩٨
بنو زبيري: ٧٦، ١٣٤، ١٣٥، ١٥٣، ١٥٤	١٠٠، ١٠٦، ١١٠، ١١٢، ١١٤، ١٢٣، ١٢٩
١٥٦، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٢، ١٦٨، ١٧١	١٣٥، ١٣٩، ١٤٢، ١٥٦، ١٧٣، ٣٥٠
١٧٣، ١٧٦، ٢١٨، ٢٤٩	٣٥٧
بنو زبيري بن زلوى: ١٣٠	بنو الأنظس: ٣٩٩، ٤٣٠، ٤٣١
بنو زبيري بن مناد: ١٦، ٣٠	بنو أمية: ٥٨، ٦٩، ٧١، ٧٥، ٧٧، ٨٢، ٢٧٤
بنو ساهلة: ٦٩	٢٧٥، ٢٧٧، ٢٨٩، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١
بنو سراج: ١٤٧، ٤٥٣	٣٠٣، ٣٠٦، ٣١٠، ٣١٩، ٣١٩، ٣٢٩
بنو سليم (بن منصور): ١٦٦، ١٦٨، ١٧٦	٣٣٤، ٣٣٩، ٣٤٣، ٣٤٧، ٣٧١، ٣٩٣
بنو شبيب: ٣٠٠، ٣٩٩	٣٩٤، ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٠٧، ٤٠٩، ٤١٥
بنو صمدح: ٤٣٠	٤٣١
بنو طولون: ٦٥	بنو أمية الأندلسيون: ٩٠، ٢٤٧، ٢٤٣، ٣٨١
بنو عامر: ٤٠٠	٤٠٨
بنو عباد: ٣٩٩، ٤١٦، ٤١٨، ٤٢٧، ٤٣٠	بنو مرزاق: ٤١٢
بنو عباس: ٤١٥	

بنو عبد لرؤوف: ٢٩٩، ٣٠٠

بنو أبي عبلة: ٣٠٠

بنو عبد الله: ١٢٤

بنو عسابة: ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٥، ٢٣٧

بنو غابة السوفون: ٢٢٤

بنو قحطان: ٣٩٨

بنو قسي: ٢٧٤، ٢٨٢، ٣٢٤، ٣٤٦، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٨٠

بنو قنون: ١٣٢

بنو كامل: ٢١٩

بنو محمد الطويل: ٣٦٠، ٣٦١

بنو مدرار: ١٢١

بنو مرهاتيش: ٤٣٧، ٤٤١

بنو مرين: ٩، ٢٣٤، ٢٣٧، ٤٤٦، ٤٤٩، ٤٥٢

بنو مزخت: ١٩١

بنو للهب بن أبي صفرة: ٨١

بنو نصر: ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٨، ٤٥١، ٤٥٥

بنو هاشم: ٣٨، ٣٤٣، ٣٤٦، ٣٦١

بنو هاشم التميميون: ٣٩٧

بنو هلال: ١٧٠

بنو هود: ١٩٣، ١٢٢، ٤٢٤، ٤٢٦، ٤٢٨، ٤٣٣

بنو وديان: ١٨٢

بنو وارش: ١٨١، ١٩٢

بنو الورد: ٢١٩

بنو وطاس: ٢٣٧

بنو يعيش: ٣٩٩

بنو اليسع بن مدرار: ١٢٠

بنو يفرن: ١٥٣، ١٨٠، ١٨٢، ٤١٢

بنو زوتو (هولة): ١٢١

البرقيون: ١٦٦

برقيون: ٢٤، ٢٩، ١٠٣، ٣٢١

البيزنطية (دولة): ١٠١، ٢٦٨



تارجا (قبيلة): ١٨١، ١٩٢، ٢٣١

التميميون: ١٩٣، ٣٤٦، ٣٦٠، ٣٩٧، ٤٢٤

الترك: ٤١، ١٣٥، ١٦٦، ٢٢٤، ٢٢٦

التيونون: ٣٧٣



جدة (قبيلة): ١٨١، ١٨٤، ١٨٦، ١٨٨، ١٩٢، ٢٣١، ٢٤٠

الجنداليون: ١٨٣، ١٨٥

جنام (قبيلة): ٣١٧

جراوة (قبيلة): ٤٩، ٥٥

جرمان (شعوب): ٢٦٧

جشم (قبيلة): ١٦٧

الحلالفة: ٣١٢، ٣١٣



الحصيون: ٩٠

الحموديون: ٤١٣

حمد (ملكة): ٢٨



خثعم (قبيلة): ٣١٧

خز سبور: ٩١، ١١٤، ٣١٧

الخوارج: ٦٨، ٦٩، ٧١، ٧٥، ٧٩، ٨٧، ٨٥

٨٧، ٨٩، ٩٢، ٩٥، ٩٦، ١٠٨، ١١٤

١١٥، ١٢٠، ١٢١، ١٢٣، ١٢٩، ١٣١

١٣٣

خولان (قبيلة): ٣١٧



دياب (قبيلة): ٢٣٠

ديلم (شعب): ١٢٥



رسة (قبيلة): ١٦٧

رستم (دولة): ٣٧٠

الرومان: ٢٤، ٢٩، ٣١، ٣٢، ٣٦، ٣٧، ١٢١، ١٢٦

٢٥٦، ٢٦٧، ٣٠٦، ٣٣٧

الروم: ٢٩، ٣١، ٣٣، ٣٦، ٣٧، ٤٠، ٤٣، ٤٨

٥١، ٥٦، ٥٧، ١٠٣، ١٠٤

الزيربيون: ١٦، ٧٦، ٨٦، ١٣٤، ١٤٢، ١٤٨،
١٥٤، ١٥٥، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٠،
١٦٥، ١٧٠، ١٧١، ١٧٩، ١٨١، ١٨٧،
١٩٠، ١٩٢، ٢١٠، ٢١٨، ٢٢٣، ٢٣١

٢٤٩، ٣٣٨، ٣٧٠، ٤١٣

صهاجة الصحراء: ٣٠

صهاجة لغرب: ٣٠

الصوفية: ١٢١

ط

طارقة (قبيلة): ٢٣١

الطوارق: ٢٢٩، ٢٣١

الطولونيون: ١٦٣

الطولونية (دولة): ٦٥

ع

العامريون: ١٩٣، ١٠٦، ٤١٠، ٤١٣، ٤١٦، ٤٢٢

العباسيون: ٧١، ٧٨، ٨٢، ٨٤، ٨٧، ٨٩، ٩٥،
١١٠، ١١٥، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٧، ١٣٥

١٣٧، ١٤٤، ١٤٩، ١٥٢، ١٥٦، ١٦٣

٢١٩، ٢٢٣، ٢٨٧، ٣٠١، ٣١٠، ٣٢٣

٢٢٧، ٣٤٣، ٣٦٩، ٣٧٢

العبسون: ٣٧١، ٣٧٢

العثمانيون: ٢٢٤

عدي (قبيلة): ١٦٧، ١٧١

العرب: ٢٨، ٢٩، ٣٤، ٣٨، ٤٦، ٤٧، ٤٩

٥٠، ٥٢، ٥٦، ٦٥، ٦٨، ٧٣

٧٤، ٨٠، ٨١، ٩٠، ٩٨، ١٠٥، ١٠٦

١١٤، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٩، ١٥٦، ١٦٣

١٧٠، ١٧١، ٢٢٩، ٢٢٧، ٢٣٣، ٢٤٢

٢٦٨، ٢٧١، ٢٧٥، ٢٧٨، ٢٨١، ٢٩١

٢٩٣، ٢٩٦، ٣٠٣، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٧

٣٢٩، ٣٥٢، ٣٨٠

عرب أخارقة: ١٣٣

العرب البليديون (عرب الأمصار): ٧٠، ٧١، ٧٤

٧٧، ٨١، ٨٨، ٩٦، ١٠٨، ١١٥، ١٣٣

ز

الزيربيون: ٢٦

زغبة (قبيلة): ١٦٧، ٢٣٠

زبانت (قبيلة): ٢٩، ٣١، ٧٩، ١٥٣، ١٥٧

١٦١، ١٦٨، ١٦٥، ١٧١، ١٧٥، ١٧٦

١٧٩، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٦، ١٩٠، ١٩١

٢٠٦، ٢٢٣، ٢٣٤، ٢٣٧، ٢٠٨

زبانت: ٧٥، ١٤٨

الزبانيون: ٩، ٣١، ٧٦، ٨٦، ٩٠، ١٥٥، ٣٩٦

٤١٣، ٤٢٦، ٤٤٧

زواودة (قبيلة): ١٦٧، ٢٣٠

زواودة (قبيلة): ١٢٧

س

السمايون: ٢١٥

سكنانة (قبيلة): ١٤١، ١٤٢

الساكنيون: ١٤٢

السلاجقة: ١٦٦، ٤١٦

السلال: ٣٠٧

السوق: ٢٦٧

ش

الشاميون: ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٨٤، ٣٠٠

٣١٠، ٣١٧

شعبة: ١٢٣، ١٣٦، ١٣٧، ١٤٤، ١٤٦، ١٦٤

٢١١

ص

الصفرية: ٧٢، ٧٥، ٧٩، ٨٠، ٨٦، ٨٧، ١١٥

١٢٠، ١٣١، ١٣٣

الصقالبة: ٩٧، ١٤٧، ١٥١، ٣٠٣، ٣٠٧، ٣١٩

٣٣٨، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٩٠، ٣٩٢، ٣٩٩

٤١١، ٤١٣، ٤١٩، ٤٢٢

الصقلبيون: ٢٠، ١٠٤، ١٠٤

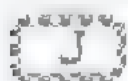
الصليبيون: ١٧٣، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٤٤

٤٤٩

القشالون : ٤٤٤ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣
 قصاصيون : ٣١٨
 انقطلايون : ٤١٢
 القسوط : ٤٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠
 ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٩١ ، ٣١١
 ٣١٢
 القشرويون : ١١٨
 يبيد : ٢٨١ ، ٧٠ ، ٣٠٠
 ليسون : ٢٧٢ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢



لكارولنجيون : ٢٩٣
 كاسم (دولة) : ١٢١
 كاسمة (قبيلة) : ١٠٧ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٥٢
 الكساسبيون : ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٨
 ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٧٠
 الكشويون : ٣١٢
 الكوفيون : ١١٨



للاين : ٢٨
 لحم (قبيلة) : ٣١٧ ، ٣١٧ ، ٣٨
 لقوة (قبيلة) : ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٢
 ٣٠٠
 اللصونيون : ١٨٤ ، ١٨٥
 لطة (قبيلة) : ١٨١ ، ١٨٦ ، ١٩٢
 لهصة (قبيلة) : ١٤٢
 لوانة (قبيلة) : ٣١ ، ٣٥ ، ٤٢ ، ٥٤ ، ١٣٢
 اللوانيون : ٣٤
 النومبارديون : ٢٩٨



مالكية ، مالكيون : ٨٦ ، ٨٨ ، ١٤٣ ، ١٤٨ ، ١٨٢
 ٣٣٠
 المجوس : ٣٢٤ ، ٣٤٦
 مدليخ (قبيلة) : ٣١٧

١٥٦ ، ١٧١ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨١
 ٢٨٣
 العرب الشاميون (حرب الأقاليم) : ٧٠ ، ٧١ ، ٧٤
 ٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨٢
 العرب الهلالية : ٥٠ ، ١٢٢ ، ٢٣٠
 اعرب ايمسيون : ١٦٦ ، ٢١٣ ، ٢٢٥ ، ٢٨٥
 ٣٢٣ ، ٣٠١ ، ٣٠٠
 املونيون : ٦٩ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٣٦ ، ١٣٨
 عوف قبيلة : ٢٣٠



الغز (الأفزاز) : ١٦٦ ، ٢٢٦
 غسارة (قبيلة) : ٤٤ ، ٧٣ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٩
 ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٧٩ ، ١٨٣ ، ١٩٠ ، ٢٦٨
 ٣٨٨
 غيالة : ١٣٠



الفاطميون : ١٦ ، ١٩ ، ٧٦ ، ٩٠ ، ٩٦ ، ١١٧
 ١١١ ، ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤
 ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤٤ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٩
 ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٧٣ ، ١٧٦
 ١٧٩ ، ١٨٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٨٧ ، ٣٩٦
 الفاطمية (دولة) : ٣٠ ، ١٣٤ ، ١٤٣ ، ١٤٥
 ١٤٨ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٦٧ ، ٣٧٠

افايكنجيز : ٣٢٤
 لفرس : ٣٥ ، ١٣٧ ، ١٦٦
 امركة : ٢٦٧ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٨ ، ٣١٥ ، ٣٢٢
 ٣٦٣ ، ٣٨١ ، ٣٩٦ ، ٤٢٦ ، ٤٤٩
 الفرنسيون : ٢٤ ، ٥٦ ، ١٥٦ ، ١٦٣
 فرارة : ٧٥



الفرانك (الهولنديون) : ٢٢٦
 القرامطة : ١٤٤ ، ١٦٧
 القرمطيون : ٢٨٨
 القرمطيون : ٤١١ ، ٤١٥ ، ٤٣٣

ملحج (قبيلة) : ٣١٧

المرابطون : ١٩ ، ٣٠ ، ٦٦ ، ٧٦ ، ٩٠ ، ١٠٦ ،
١٠٨ ، ١٢٤ ، ١٣٤ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٦٤ ،
١٧٢ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ،
١٩٢ ، ١٩٦ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ،
٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٧ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٣١ ،
٢٣٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦٨ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٠ ،
٢٧٧

المرزوقون الأندلسيون : ١٧٩

المرزوقون : ١٣٩ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٥١

مسألة (قبيلة) : ١٤٢

المسركون : ٢٠٨ ، ٢١٢

مسوفة (قبيلة) : ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ،
١٩٢ ، ٢٠٠ ، ٢٣١

المسامدة : ٢٠ ، ٤٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ١٣٠ ، ١٤٢ ،
١٧٩ ، ١٨٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ،

٢١٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٣٥

المصريون : ١١٨ ، ٣١٧

مصدرة : ٣٠

مضر (قبيلة) : ٢٩٠ ، ٣١٧

المضريون : ٣٢٢

معاقر (قبيلة مينة) : ٧٩ ، ٣٩٨

المعزنة : ١١٣

مفراوة (قبيلة) : ١٥٣ ، ١٨٠ ، ١٨٢

مغراويون : ١٤٨ ، ١٨٥ ، ١٩٠

الممايلك : ٢٢٤ ، ٢٢٦

النهالة : ٨٩ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٣٤ ،
١٥٦

اللوحدون : ٩ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٣٠ ، ٧٦ ، ١٢٤ ،
١٥٣ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٨٩ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ،

٢٠٣ ، ٢٠٧ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ،
٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٤ ، ٢٣٤ ،

٢٤١ ، ٢٣٩

أمر حلبية (دولة) : ٩٠ ، ١١

مورسكيون : ٤٥٥

أفروفتيون : ٢٩٣ ، ٢٩٥



نغار (قبيلة) : ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٤٦

النجاري : ٣٥٠ ، ٣٥٧ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٥

٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ،

٤١٩ ، ٤٢٢ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٣٠ ،

٤٣٢ ، ٤٣٦ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢ ، ٤٤٤ ،
٤٤٧ ، ٤٥٥

نمرة : ١٧٩ ، ١٧٧ ، ٢٨٨

نموسة (قبيلة) : ٢٢ ، ٢٤ ، ٣٥ ، ٤٣ ،

نموسيون : ٥٤

النكارية (فرقة) : ١١٩

الورمان = أردمانيون



الهاشميون : ٣٩٩

هرقة (قبيلة) : ٢٠٣ ، ٢١٢

هرجة (قبيلة) : ٢١٢

هزميرة (قبيلة) : ٢١٢

هسكورة (قبيلة) : ٢١٢

الهلاليون : ٥٣ ، ١٥٣ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ،

١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ،
٢٢٣

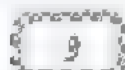
حنطة (قبيلة) : ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢٣٦

خوارة (قبيلة) : ٣٥ ، ٤٢ ، ٥٤ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ،

الهوريون : ٣٤ ، ٤٦٨

الهلنديون : ٢٢٩ ، ٤٣٨

حيلة (قبيلة) : ٢٠ ، ١٨٧ ، ٢١٢



ورنجومة (قبيلة) : ٧٩ ، ١١٥

الرومية (فرقة) : ١١٩



اليزيديون : ٣٧١

اليمينيون : ٢٨٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٩ ، ٣١٧ ،

٣٩٨ ، ٣٢٢

اليمينية : ٧٢ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٩ ، ٢٢٣ ،

اليهود : ٢٦٨ ، ٣٥٧

ابونان (شعب) : ٢٨ ، ٣٣٥

فهرس الكتب والمجالات

- تاريخ الرزى : ٢٤٦، ١٥
تاريخ شعراء الأندلس : ٢٤٥
تاريخ العرب للتصوين : ٤٥٥
تاريخ عملاء الأندلس : ٢٥٠
تاريخ مسمى إسبانيا : ١٩
تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط : ٢٥٣
البيان (مذكرات الأمير عبد الله الربرى) : ٤٣١
الكلمة لكتاب الصلة : ٢٥١
- ج**
- جذوة النفس في ذكر ولائ الأندلس : ٢٥٠
جنة الرضا في التسليم بما قدر الله وقضى : ٤٥٥
- ح**
- الحلة السراء : ٢٥٢
- ذ**
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٢٤٦
الذيل لأبيض : ٢٥٨
الذيل والكلمة لكتابي الموصول و الصلة : ٢٥٢
- ر**
- رحلة الوزير في افئكاك الأسير : ١٨، ١٧
روض القرماس في تاريخ المغرب وملوك فاس : ٢١
- ز**
- أبو زيد الهلالي (ملحمة) : ١٦٨
- ش**
- الشعر الأندلس : ٢٤٤
الشفا بامتصاف بحق المصطفى : ٢٤٩
شمال مالك : ٨٦
- ا**
- الإحاطة في أخبار غرناطة : ٢٥٣
الأخبار المجموعة : ٢٤٦
أزهار الرياض في أخبار هياض : ٤٥٥، ٢٤٨، ١٦
إسبانيا مقدسة : ٢٥٧
الاستيعاب في معرفة الأصحاب : ٢١، ١٥
أمد الغاية : ١٥
الأسبلة : ١٠١
أهز ما يطلب : ٢٠٥
إعلام الإعلام بأعمال الإعلام عن برقع قبل الاحتلال : ٢٥٣، ١٦
الأغاني : ٣٨٣
الإمامة والسياسة : ١٨، ١٧
الأندلس (مجلة) : ١٥
أنشودة رولان (ملحمة) : ١٦٩
- ب**
- بديعة المجهتد ونهضة المقتصد : ٨
البربر (كتاب) : ١٥٦
بقية المنص في تاريخ رجال الأندلس : ٢٥٠
بلاد المغرب الشرقية : ١٥٦
السان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب : ٢٤٩
البيان المغرب في تاريخ سوك أفريقية والمغرب : ١٦
١٩، ١٨
البيان الواصح عن الملم العادج : ١٢٢
- ت**
- تاريخ ابن خلدون : ١٦
تاريخ إسبانيا الإسلامية : ٢٥٣
تاريخ إسبانيا العام : ٢٥٧
تاريخ الفتاح الأندلس : ٢٤٦، ١٨
تاريخ بني أمية في الأندلس : ٢٤٥

ص

صحيفة معهد الدراسات الإسلامية : ١٨

الصلة : ٢٥١

صلة الصلة : ٢٥١

ع

عبر (ابن خلدون) : ١٦٧ ، ١٧٠

العقد لغريب : ٣٤٢

ف

فترح مصر والمغرب والأندلس : ١٦

فوت الوفيات : ١٥٠

ق

قصيدة لـ (ملحمة) : ١٦٩

ك

الكامل في التاريخ : ١٥

م

المين : ٢٤٦ ، ٢٤٥

المنوعة : ١١٣

مصر وتاريخ التأريخ في المغرب والأندلس (مقال)

١٨ :

المعجب في تلخيص أخبار المغرب : ٢٠٦

للمعجم في أصحاب أبي حنيفة : ١٣٥

مناهل البير : ٢٠

المقتبس في تاريخ الأندلس : ١٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٥

المنهل العاصي واستوفى بعد الوافي : ٢٥١

الوطا : ١٠١

موت أجودو (معلة أنليبية) : ٣٣٥

ن

نبذة المعصر في أخبار ملوك بني نصر : ١٥٥

نزهة المشتاق في اختراق الألفاظ : ١٠٥

نظم الجمان : ٢٠٦

نقح الطب في فطن الأندلس الوطيب : ١٥ ، ١٦ ، ١٨

١٨ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٢٥٥

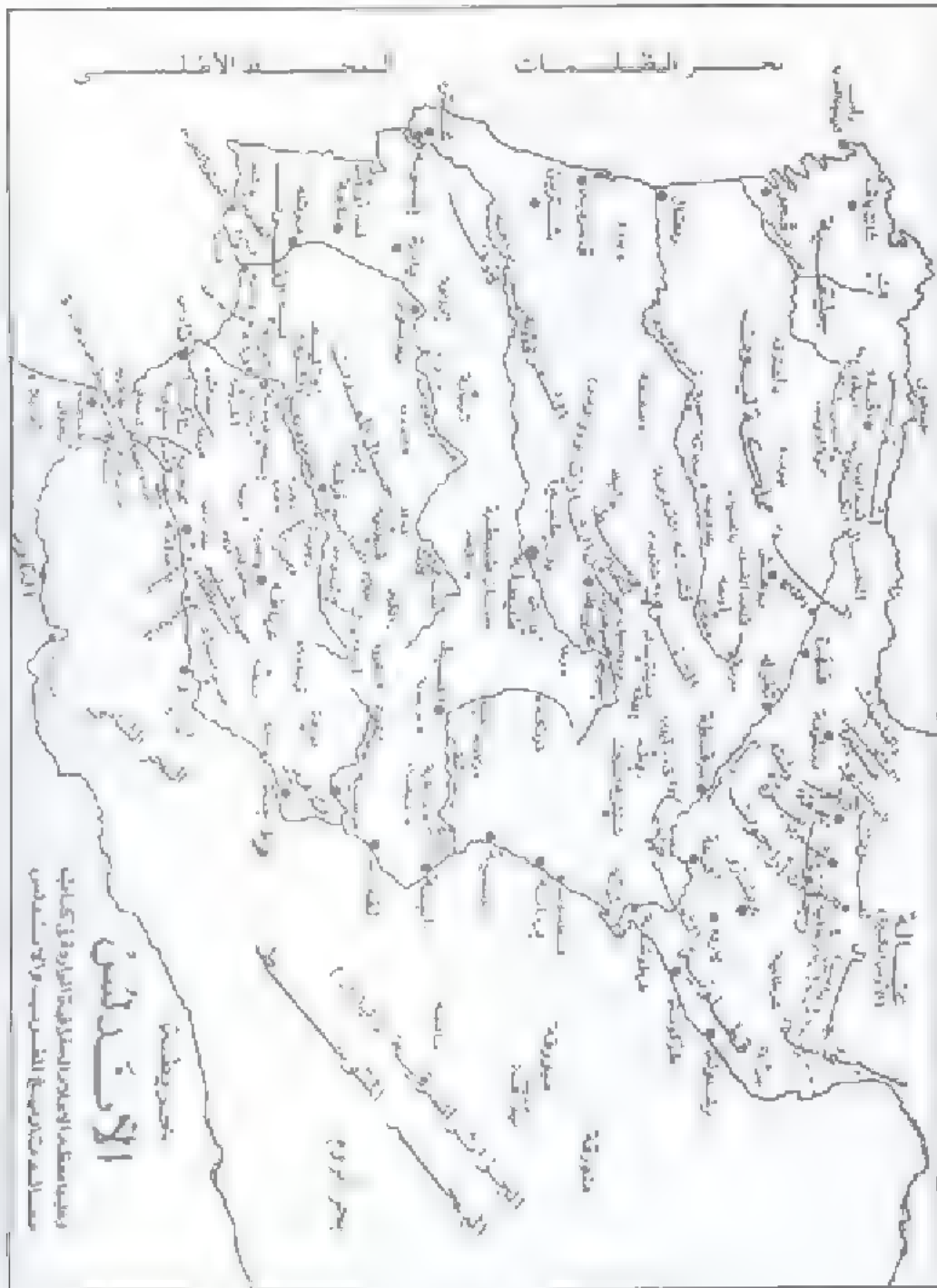
نهاية الإرب : ١٥

نهاية الأندلس : ٢٥٥

و

الوافي بالوفيات : ٢٥٠

وفيات الأعيان : ٢٥٠



خريطة رقم (٢)



خريطة رقم (٣)

الفهرس

الموضوع	الصفحة
* تقديم للطبعة الجديدة	٥
* مقدمة	٧
* القسم الأول : المغرب من قبيل الفتح الإسلامي	١١
- مدخل بيئوغرافي : أهم موارد تاريخ المغرب الإسلامي	١٣
- المغرب الإسلامي والمغرب الإسلامي	٢٣
- بلاد المغرب	٢٤
- سكان المغرب	٢٨
- المغرب قبيل الفتح الإسلامي	٣١
- جرجوريوس و جرجير	٣٣
- الفتح العربي	٣٤
- فتح برقة وطرابلس	٣٤
- موقعة سبظلة وفتح أفريقية	٣٤
- حملة معاوية بن حديج السكوني	٣٧
- ولاية عقبة بن نافع الأولى على أفريقية	٣٨
- حملة عقبة بن نافع الأولى وديس لقيروا	٣٥
- ولاية أبي المهاجر دينار	٤١
- ولاية عقبة بن نافع الثانية على أفريقية	٤٢
- زهير بن قيس والقضاء على كميطة	٤٦
- حملة حسان بن النعمان الفساني	٤٧
- الكاهنة	٤٨
- تنظيم الإنارة الإسلامية في المغرب	٥١
- إنشاء ميناء تونس	٥٦
- ولاية موسى بن نصير	٥٨
- أعمال موسى بن نصير في أفريقية والمغرب	٥٩
- عصر الولاة	٦٥
- الفنية المغربية الكبرى	٦٩
- المعاونة الأولى للمغرب المسلمين السيدة علي أفريقية	٧٦

٨١	- محاولات الدولة العباسية للاحتفاظ بأفريقية (المهالبة)
٨٣	- جهون يزيد بن حاتم في أفريقية
٨٣	- دخول المذهب المالكي إلى المغرب
٨٩	- نهاية عصر الولاة وبداية عصر الدول المحلية
٩٠	- أفريقية من المهالبة إلى بني الأغلب
٩٥	- دولة الأغالبة في أفريقية
٩٦	- حكم إبراهيم بن الأغلب
٩٧	- إنشاء القصر القديم
١٠٠	- زيادة الله بن الأغلب
١٠٠	- فتح صقلية
١٠٣	- تدخل الأندلسيين بقيادة أسبق بن وکیل
١٠٦	- إبراهيم بن أحمد الأغلبی
١٠٧	- حصار أفريقية والمغرب أيام الأغالبة
١١١	- الحياة الاجتماعية والفكرية في عصر الأغالبة
١١٢	- دولة المستعین في تاهرت
١٢٣	- الإدارة
١٢٣	- الدولة الفاطمية في المغرب
١٢٤	- أبو عبد الله الشعمی
١٢٧	- الهجرة إلى زرووب ونحول الدعوة إلى حركة سنية عسكرية
١٢٧	- قدوم عبید الله المهدي
١٢٥	- خلافة عبید الله المهدي
١٢٦	- بناء المهديّة
١٢٩	- ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد
١٣٠	- غزو مصر ثم الانتقال إليها
١٣٢	- تقدير الفترة الفاطمية في تاريخ المغرب
١٣٤	- دولتا بني زيري الصنهاجيين في المغرب الأوسط
١٣٤	- أبو الفتح يوسف بلكين بن زيري
١٣١	- أبو الفتح المنصور بن يوسف الصنهاجي
١٦٠	- نصير الدولة باديس بن أبي الفتح المنصور
١٦١	- المعز بن باديس بن أبي الفتح المنصور

الموضوع

انصفحة

- ١٦٢ - انفصال دولتي بني زيري عن الفاطميين ..
- ١٦٦ - دخول العرب الهلالية بلاد المغرب ..
- ١٦٨ - تغريبة بني هلال ونشوء ملجمة أبي زيد الهلالي ..
- ١٦٢ - نهاية دولة بني حماد أصحاب القلعة ..
- ١٦٥ - دولتا بني زيري في الميزان ..
- ١٦٦ - الرأي في الغزوة الهلالية ..
- ١٦٩ - دولة المرابطين ..
- ١٦١ - صنهاجة الصحراء وتطوعها إلى التخلص من سيادة الرماثيين ..
- ١٦٣ - عبد الله بن ياسين ..
- ١٦٩ - استمرار مسيرة الحركة المرابطية ..
- ١٦٩ - انقسام القوة المرابطية إلى قسمين ..
- ١٦٩ - قيام دولة المرابطين في المغرب والأندلس ..
- ١٦٢ - المرابطون يعبرون إلى الأندلس لتصرة الإسلام ..
- ٢٠٠ - نهاية دولة المرابطين في المغرب والأندلس ..
- ٢٠٣ - دولة الموحدين ..
- ٢٠٣ - محمد بن تومرت ..
- ٢٠٧ - ابن تومرت بثقى جماعة الموحدين في تينمل ..
- ٢١١ - قيام الدولة الموحدية ..
- ٢١٥ - تقدير المرابطين ..
- ٢١٨ - حكم عبد المؤمن بن علي ..
- ٢٢٠ - خلفاء عبد المؤمن بن علي ..
- ٢٢١ - أبو يعقوب يوسف ..
- ٢٢٣ - أبو يوسف يعقوب المنصور ..
- ٢٢٤ - ثورة بني غانية المسوفيين ..
- ٢٢٦ - حياض المنصور في الأندلس ، لتحصار الأرت المعظم ..
- ٢٢٩ - خلافة أبي محمد عبد الله الناصر ..
- ٢٢٩ - ميلاد لدولة الحفصية (بجاه بني غانية - الطوارق) ..
- ٢٣١ - موقعة العقاب وانهاض الجبهة الإسلامية في الأندلس ..
- ٢٣٣ - الدولة الموحدية بعد هزيمة العقاب ..

المرصوع	الصفحة
٢٣٩	١. القسم الثاني : الأندلس
٢٤١	٢. مدخل بيبوغر في تاريخ الأندلس
٢٤٤	٣. الرواية العربية
٢٥٥	٤. الأصول غير العربية
٢٦١	٥. الأندلس
٢٦٢	٦. اسم الأندلس
٢٦٤	٧. فتح الأندلس
٢٦٧	٨. تمهيد : أحوال شبه الجزيرة الأيبيرية قبل الفتح الإسلامي
٢٦٨	٩. فتح الأندلس
٢٧٢	١٠. دخول موسى بن نصير الأندلس واشتراكه في الفتح
٢٩٠	١١. عصر الولاة
٢٩٨	١٢. خلافت العرب فيما بينهم وفزعهم مع البربر
٢٩٩	١٣. أهر الخطار وإنشاء الكور المجتدة
٣٠٠	١٤. قيام الدولة الأموية الأندلسية
٣٩١	١٥. فتوح المسلمين شمالى جبال ألبرت في غانة (فرنسا)
٣٩٩	١٦. عصر تأسيس الدولة الأموية الأندلسية
٣٠٣	١٧. نظرة عامة على حكم عبد الرحمن الداخل وأعماله
٣٠٤	١٨. هشام الأول بن عبد الرحمن المعروف بالرحمنى
٣٠٩	١٩. دخول مذهب مالك الأندلس
٣١٠	٢٠. التقليد الشافعى
٣١١	٢١. ميلاد حركة المقامة البصرانية في شمال شبه الجزيرة
٣١٣	٢٢. إمارة الحكم الرشيدى
٣١٥	٢٣. التطور الاجتماعى فى الأندلس
٣١٦	٢٤. جماعة موالى بنى أمية
٣١٨	٢٥. بقية تكوين شعب الأندلس
٣١٩	٢٦. فتنة طليطلة ويوم الخندق
٣٢٠	٢٧. هيج الرياض الأول والثانى
٣٢١	٢٨. بداية الاستقرار
٣٢٢	٢٩. غزوات النورمان
٣٢٤	٣٠. نشأة الأسطول

٣٢٥	- رهبان النصارى يحاولون إثارة فتنة دينية
٣٢٦	- وفاة عبد الرحمن الأوسط
٣٢٧	- الوزارة في الأندلس
٣٢٩	- الخطط : خطة القضاء
٣٣٠	- الفقهاء المشاورون
٣٣٠	- يحيى بن يحيى الليثي
٣٣٢	- الشخصيات الحضرية : زرياب
٣٣٤	- عباس بن فرناس
٣٣٥	- يحيى بن حكم الجبالي الغزالي
٣٣٧	- التحول الحضري في الأندلس في عصر عبد الرحمن الأوسط
٣٣٨	- زيادة منجد قرطبة الجامع
٣٣٨	- في بلاط عبد الرحمن الأوسط
٣٣٩	- الشعر والموشح والرجل
٣٤٤	- الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط
٣٤٩	- ثورة عمر بن حفصون
٣٥٠	- الأمير عبد الله
٣٥٣	- عبد الرحمن الناصر وميلاد الخلافة الأموية الأندلسية
٣٥٤	- الوضع العام داخل الدولة عند ولاية عبد الرحمن الناصر
٣٥٨	- عبد الرحمن والثائرون في غرب الأندلس
٣٦٢	- عبد الرحمن الثالث وعلاقته مع ملوك قشتالة ونبيلونة
٣٦٣	- راميرو الثاني ملك ليون
٣٧٠	- عبد الرحمن الثالث والمغرب
٣٧١	- الخلافة الأموية القرطبية
٣٧٤	- إنشاء مدينة الزهراء وزيادة المسجد الجامع
٣٧٩	- تقدير عبد الرحمن الناصر
٣٨٣	- خلافة الحكم المستنصر
٣٨٣	- نهوض العلم في أيامه
٣٨٥	- سياسة الحكم المستنصر
٣٨٦	- حروب الحكم في المغرب

الصفحة	الموضوع
٣٩٠	- هشام المؤيد
٣٩٠	- مصير الأندلس تحت رحمة الأوصياء على الخليفة القاهر
٣٩١	- محمد بن أبي عامر يصبح السلطان الأعلى في الدولة
٣٩٣	- محمد بن أبي عامر ينشئ جيشاً خاصاً به من المرتزقة
٣٩٤	- غزوات محمد بن أبي عامر
٣٩٥	- محمد بن أبي عامر يتخذ لقب الحاجب المنصور
٣٩٩	- الحزب العامري
٤٠١	- نقد المنصور
٤٠٥	- عبد الملك المظفر بن المنصور
٤٠٦	- عبد الرحمن المنصور
٤٠٧	- مقتل عبد الرحمن بن شنجول وسقوط العامريين
٤٠٧	- ثورة قرطبة وبداية الفتنة الكبرى
٤٠٨	- الفتنة الكبرى
٤١٠	- معركة فنتيش ، نهاية الجيش الأندلسي التقليدي
٤١١	- النزاع بين محمد بن عبد الجبار المهدي وسليمان المستعين
٤١٥	- عصر الطوائف
٤١٥	- كيف بدأ عصر الطوائف ؟
٤١٨	- دولة بني ذي النون في طليطلة
٤٢٢	- إمارة بلنسية
٤٢٣	- إمارة سرقسطة
٤٢٦	- إمارة إشبيلية
٤٣٠	- تدخل المرابطين
٤٣٢	- جهاد المرابطين في الأندلس
٤٣٥	- نهاية المرابطين في الأندلس
٤٣٧	- الموحدون في الأندلس
٤٤١	- دولة بني نصر أو بني الأحمر في غرناطة
٤٤٣	- قيام دولة غرناطة
٤٥١	- أبو الحجاج يوسف الأول
٤٥١	- مشيخة الغزاة
٤٥٢	- وقعة طريف

الصفحة	الموضوع
٤٥٣	- تدهور مملكة غرناطة
٤٥٤	- نهاية مملكة غرناطة
٤٥٧	- موارد مختارة
٤٥٧	(أ) الموارد العربية لتاريخ المغرب والأندلس
٤٦٤	(ب) مراجع غير عربية
٤٦٧	- الفهارس العامة
٤٦٩	- فهرس الأعلام
٤٨٦	- فهرس الأماكن والبلدان
٤٩٨	- فهرس القبائل والطوائف والآل
٥٠٤	- فهرس الكتب والمجلات
٥٠٧	- خريطة المغرب
٥٠٩	- خريطة الأندلس
٥١١	- خريطة صقلية
٥١٣	- فهرس موضوعات الكتاب



رقم الإيداع: ١١٦٥٦ / ٢٠٠٤

ISBN. 977-01-9115-9

طبعة خاصة
تصدرها دار الرشاد
ضمن مشروع مكتبة الأسرة